

السَّيِّخُ
مُحَمَّدُ نُورِيسُ الْكَانِزِ هَلَوِي
حَيَّاهُ وَمَنْهَجُهُ فِي الدَّعْوَةِ

جَمِيعُ الْحُقُوقِ مَحْفُوظَةٌ

لمركز الشيخ أبي الحسن الندوي
في الهند
الطبعة الأولى

١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م

قامت بطبعته وإخراجه شركة دار البشائر الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.
بيروت - لبنان - ص.ب: ٥٩٥٥ - ١٤ ويطلب منها
هاتف: ٧٠٢٨٥٧ - فاكس: ٧٠٤٩٦٣ / ٩٦١١٠٠
e-mail: bashaer@cyberia.net.lb

SHEIKH ABUL HASAN NADWI CENTER

For Research & Islamic Studies.

MOZAFFAR PUR, AZAMGARH, U.P. (INDIA).

Tel: 0091 54622 70104

0091 54622 70317

Fax: 0091 54622 70786

مركز الشيخ أبي الحسن الندوي

للبحوث والدراسات الإسلامية

مظفر فور - أعظم جراه يوبي (الهند).

هاتف: ٧٠١٠٤ ٥٤٦٢٢ ٠٠٩١

٧٠٣١٧ ٥٤٦٢٢ ٠٠٩١

فاكس: ٧٠٧٨٦ ٥٤٦٢٢ ٠٠٩١

السَّيِّخُ
مُحَمَّدُ بْنُ الْكَانِزِ هَلَوِي

حَيَاتُهُ وَمِنْهُجُهُ فِي الدَّعْوَةِ
(ت / ١٣٨٤ هـ)

تَأَلَّفَ
السَّيِّخُ مُحَمَّدُ الثَّانِي حَسَنِي
(ت / ١٤٠٢ هـ)

قَدَّمَ لَهُ سَمَاعَةُ السَّبَّغِ
السَّيِّدُ أَبِي حَسَنِ عَلِيِّ حَسَنِي النَّدَوِيِّ
(ت / ١٤٦٠ هـ)

تَقَرَّبَ
جَعْفَرُ مُسْعُوذٍ الْحَسَنِيُّ النَّدَوِيُّ

ذَا الزُّبُنِ الْإِسْلَامِيَّةِ



تقديم

بقلم: الأستاذ الدكتور تقي الدين الندوي

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد وآله وأصحابه أجمعين.

أما بعد: فإن كتاب «سوانح يوسف»، كتاب قيم ألفه الشيخ الفاضل محمد الثاني الحسيني المتوفى ١٦/٢/١٩٨٢م تحت إشراف شيخنا العلامة المحدث محمد زكريا الكاندهلوي المدني المتوفى ١٤٠٤هـ، وكان لتوجيهاته أكبر عون على إنجاز تأليفه.

ويعتبر هذا الكتاب وثيقة للدعوة، ومنهجاً للتبليغ، وهو ترجمة حافلة لحياة العلامة الداعية الكبير الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي — رحمه الله تعالى — الذي كانت حياته تطبيقاً لمنهج والده الجليل مؤسس جماعة الدعوة والتبليغ محمد إلياس الكاندهلوي — رحمه الله — المتوفى سنة ١٣٦٣هـ.

كان الشيخ محمد يوسف المتوفى سنة ١٣٨٤هـ، آية من آيات الله في عرض الدعوة بأسلوب مؤثر، وقد اجتهد في ذلك أي اجتهاد حتى بلغت الدعوة في حياته جميع أنحاء العالم، فكان هذا الكتاب في حاجة ماسة لنقله إلى اللغة العربية ليتعرف إخواننا من علماء العرب وباحثيهم على منهج هذه الدعوة المباركة التي شرقت وغربت في عهد الشيخ محمد يوسف، ودخلت بلاد العرب والعجم ووصلت الأمريكيتين وأوروبا، ونفخت الحياة الإيمانية في القلوب الباردة، فانبعثت حرارة الإيمان، وظهر من أبنائها ما يشبه المعجزات، وكل هذا في سنين يسيرة من عمره لا يتحقق لدعوة مثلها مثل ما تحقق لها، وكان للشيخ محمد يوسف في هذا فضل أي فضل.

وقد جاءت فكرة ترجمة هذا الكتاب أولاً على أن أقوم بها بنفسي، فعرضت هذه الفكرة على العالم الرباني الشيخ محمد إنعام الحسن المتوفى سنة ١٤١٦هـ، وكان أميراً للدعوة فرحب بها وشجع عليها، ثم عرضت فكرة الترجمة على العلامة الشيخ أبي الحسن الندوي - رحمه الله تعالى - فأيدها، ولكن لكثرة انشغالي بالحديث الشريف وتحقيق كتب السنة وخدمتها ما وجدت إلى ذلك سبيلاً، فصعب عليّ هذا العمل، فاخترت لهذا شاباً صالحاً أديباً من أسرة العلامة الندوي، هو الأخ العزيز السيد الشريف جعفر مسعود الحسني الندوي الذي نقل الجزء الثالث من كتاب «مسيرة الحياة» للعلامة أبي الحسن الندوي، وتحمل في سبيل ذلك المشقة، وقد قام بما طلبت منه خير قيام، وأحسن وأجاد، فجزاه الله تعالى خير الجزاء.

ثم طلبت من صديقنا الفاضل والد المعرب الشيخ محمد واضح رشيد الحسني الندوي أستاذ الأدب العربي ورئيس تحرير صحيفة «الرائد» إلقاء نظرة على الترجمة فقرأه وأصلح من بعض عباراته، كما كلفت الشيخ محمد الأمين الفاضل الموريتاني وهو من العلماء الذين لهم صلة بالدعوة، فأبدى بعض الملاحظات التي قمنا بإصلاحها.

ثم ألقيت النظر على الكتاب، فوجدت أنه يستحق أن يقدم للطباعة، وأن يكون بين يدي القراء في اللغة العربية، ولذا فإن مركز الشيخ أبي الحسن الندوي يسعده أن يقدمه للقراء في هذا الثوب القشيب إلى العالم العربي والإسلامي، وقد قام بمراجعة تجارب الكتاب تحت إشرافنا العزيزان: المولوي محمد حسان اختر الندوي والمظاهري، والمولوي أسعد عالم المظاهري والندوي، فجزاهما الله أحسن الجزاء.

ندعو الله أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، إنه ولي نعم، وهو نعم المولى ونعم النصير.

أ. د. تقى الدين الندوي

العين/ دولة الإمارات العربية المتحدة

يوم الجمعة ١٤/٣/٢٠٠٣م

فاكس: ٧٥٥٢٩٢٠ - ٣ - ٠٠٩٧١

كلمة المترجم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وآله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد! فإن هذا الكتاب الذي دَبَّجه قلم الكاتب الإسلامي والشاعر الملهم الشيخ السيد محمد الثاني الحسني - رحمه الله - ، ووقفني الله سبحانه وتعالى لنقله إلى العربية، هو كتاب فريد من حيث إنه كتاب تناول شخصية الداعية الإسلامي الكبير الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي ومنهج دعوته، وأفكاره عن نهضة المسلمين بالتعريف تعريفاً مفصلاً، ولم يترك المؤلف فيه باباً من أبواب حياته إلا وطرقه، وجانباً من جوانب شخصيته المهمة إلا وعرضه وقدمه.

فيعرف الدارس من خلال هذا الكتاب كل ما يتعلق بحياته أو ينتمي إلى شخصيته، من أسرته، وبيئته وأيام طفولته، والدراسة التي تلقاها، والخصائص التي تميز بها، والتضحيات التي قدمها ودعا المسلمين إليها، وعكوفه على المطالعة، وشغفه بالتأليف، وتحمسه للدعوة وصموده أمام التحديات، ومعالجته للقضايا، والمشاكل، وكلفه بتلاوة كتاب الله العزيز، وهيامه بدراسة الحديث النبوي الشريف، وذوقه الأدبي، وأسلوبه في الخطابة، وهمة الأمة، ونكرانه للذات، وزياراته للمشايخ، ورحلاته للحج والعمرة، وجولاته للدعوة والإصلاح، واستخلافه، وحرقة قلبه، وتضرعه وابتهاله، وعلاقته بالعاملين، وخدمته للضيوف والوافدين، ومرضه وتلبيته لدعوة ربه.

وفي جانب آخر هو كتاب يقدم تاريخ جماعة الدعوة والتبليغ بدءاً من يومها

الأول إلى اليوم الأخير لحياة الشيخ محمد يوسف - رحمه الله - ، مدعماً بالمستندات والوثائق من خطبه ورسائله وأحاديثه، ورسائل العاملين القدامى الذين كانوا موضع ثقته ومحل حبه وتقديره.

فيذكر العوامل التي أدت إلى قيامها، والمنهج الذي اختير لها والأهداف التي ترمي إليها، والجهود التي بذلها العاملون في سبيلها، والطرق التي سلكوها لتوسيع نطاقها، وكيف امتدّت بهذه السرعة الغربية، وغطّت القرى والأرياف، والمدن والبلاد، ولقيت قبولاً ورواجاً في معظم بلدان العالم رغم اختلاف لغاتها وتباين طبائع سكانها.

ويلقي الضوء على الاجتماعات التي عقدت لها، والتغير الذي حدث في المسلمين بجهود دعائها، وتحرك الجماعات في المناطق المنكوبة بالاضطرابات الطائفية، وتنقلها في الأقطار التي استهدفت فيها الجماعات للمعارضة والاستنكار، وإقبال الناس على هذه الدعوة، وانضمامهم إليها، وتفرغهم لها، وما لقيت هذه الدعوة من جميع طبقات هذه الأمة من استجابة، ومن معظم رجال السلطة والنفوذ عناية ومؤازرة.

ولأهمية هذا الكتاب للعاملين في مجال الدعوة في الوقت الذي تفرقت فيه السبل، وبدأ كثير من العاملين الاقتباس من التيارات الأجنبية، ما أدى إلى ابتعادهم عن طرق السلف والمنهج الديني السليم، رغب الدكتور الشيخ تقي الدين الندوي - حفظه الله ورعاه - ، أستاذ الحديث النبوي الشريف بجامعة الإمارات العربية المتحدة سابقاً في نقله إلى العربية، فأحسن بي الظن، وكلّفني بهذا الأمر الجليل، وشجّعني على إنجازهِ تشجيع الأستاذ لتلميذه، وساعدني بآرائه وأفكاره خلال العمل، فأقدم له شكري وامتناني على ثقته بي، وإتاحته لي هذه الفرصة التي شاركت من خلالها في عمل من أعمال الدعوة.

وأقدم شكري وتقديري لوالدي الجليل الشيخ محمد واضح رشيد الحسيني الندوي - حفظه الله ورعاه - ، ولا أقول عنه إلا أنه لولا مساعدته وإشرافه وتوجيهاته لما حققت هذا العمل، وما اقتنيت من ثمار هذا الجهد.

ويجدر بالذكر هنا قبل أن أدخل في صلب الموضوع أنني حاولت في البداية أن أنقل هذا الكتاب إلى العربية بتفاصيله، وفي نفس الأسلوب الذي اختاره المؤلف، ولكنني اضطررت في بعض الأحيان إلى العدول عن الترجمة الحرفية وذلك لأسباب عديدة، منها:

١ - أسلوب اللغة الأردية يختلف عن أسلوب اللغة العربية.

٢ - بيئة شبه القارة الهندية تتباين عن بيئة الدول العربية.

٣ - طبائع مسلمي «الهند» غير طبائع إخوتنا العرب.

وبذلت ما كان في وسعي من الجهد أن تكون الترجمة مفهومة لدى العرب، كذلك حذفت أسماء المواضع الصغيرة في سياق ذكر الجولات المحلية في الأرياف، كما قمت بتلخيص بعض الخطب والرسائل.

وكذلك حذفت ما ألحق بهذا الكتاب من ترجمة ضافية للشيخ الإمام المحدث محمد زكريا الكاندهلوي^(١) التي زادت في حجم الكتاب؛ لأنه لا يدور إلا حول حياته العلمية والتأليفية، ولا يبحث في جانب الدعوة التي هي موضوع هذا الكتاب الرئيس، ولو استقلت هذه الترجمة بالطبع لكانت أحسن وتكون الاستفادة منها أكثر.

وأخيراً أدعو الله سبحانه وتعالى أن يتقبل هذا الجهد وينفع به المسلمين ويجزي العاملين في سبيله أحسن الجزاء.

جَعْفَرُ مَسْعُودٌ الْحَسَنِيُّ النَّدَوِيُّ

(١) وقد انتقل إلى جوار رحمة الله تعالى يوم الاثنين غرة شعبان المعظم (١٤٠٢هـ) الموافق (٢٤/٥/١٩٨٢م)، ودفن بالبقيع بجوار رسول الله ﷺ.

انظر ترجمته في: «مقدمة أوجز المسالك إلى موطأ الإمام مالك» له، و«كتاب تذكرة حياته» لسماحة الشيخ أبي الحسن الندوي - رحمه الله -، والمجلة الأحمدية العدد السابع، ٢٠٠١م، الصادرة من دبي بعنوان: «الإمام المحدث محمد زكريا الكاندهلوي وآثاره في علم الحديث»، للدكتور ولي الدين الندوي.

مقدمة سماحة العلامة
الشيخ أبي الحسن علي الحسيني الندوي
رحمه الله تعالى^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«ما يدريك ما هي مكانة هذا الشيخ في نفوسنا واحترامه في أعيننا، وما نحمل له من الحب والتقدير في قلوبنا، فإنني أعرف أحوال أهل «الهند» كلها؛ لأنني ولدت في هذه البلاد وقضيت فيها عمري، وزرت البلاد العربية وشاهدتها بعيني، وسمعت أحوال أهل «أفغانستان» و«إيران» من الثقات، فخلصت بعد ذلك كله إلى نتيجة واحدة، وهي أن سائر هذه البلدان تخلو من رجل يتمسك بالشرعية والطريقة كهذا التمسك الشديد، ويقتدي بالكتاب والسنة بهذه الاستقامة وهذا الثبات، ويكون على هذا المستوى الرفيع في حضور القلب والرسوخ في العلم، وإرشاد الطالبين المسترشدين، ولا يمكن أن يوجد في البلدان المذكورة أعلاه رجل يساويه ويعدله ويتعذر وجود أمثاله.

ولا شك أن العهد الماضي وعهد السلف الصالح عامر بأمثاله، ولكن لا يتوفر أمثالهم من الصالحين في كل زمان ومكان، فكيف بهذا العصر الذي هو عصر الفتنة والفساد وعصر الانهيار والانحطاط»^(٢).

(١) قد انتقل - رحمه الله تعالى - إلى جوار ربه يوم الجمعة ٢٢ من شهر رمضان ١٤٢٠ هـ الموافق

٣١ من ديسمبر ١٩٩٩ م - فإنا لله وإنا إليه راجعون.

(٢) «كلمات طيبات»، للإمام ولي الله الدهلوي.

بهذه الكلمات العالية وصف حكيم الأمة، وإمام العصر الشيخ أحمد بن عبد الرحيم المعروف بالشيخ الإمام ولي الله الدهلوي معاصره المعروف الشيخ مظهر جان جانان، وشهد له بهذه الأوصاف النادرة. وقد تكون هذه الأوصاف النادرة موضع استغراب واستعجاب لكثير من معاصري الشيخ أحمد بن عبد الرحيم، ويمكن أن تحمل على المبالغة لديهم؛ لأن المعاصرة تسدل حجاباً؛ وتقيم سوراً كثيفاً بين المعاصرين، ويعتبر كل كلام يقال عن معاصر مهما لوحظ فيه من تحفظ ودقة بيان، وشعور بالمسؤولية نوعاً من الإطراء، والغلو في التمجيد، والإفراط في حسن الظن. إنني أدرك قلة بضاعتي، وضحالة معرفتي، إلا أنه لمن فضل الله العظيم عليّ ومنه وتيسيره، أن قدّر لي السفر إلى معظم أرجاء العالم المعمورة وزيارة شخصيات معروفة بالعلم والفضل في مختلف أنحاء العالم ما لم يتيسر لكثير من أمثالي. فقد أتاحت لي فرصة لزيارة كبار أهل العلم والفضل في العالم الإسلامي، وخاصة في العالم العربي، والتحدث إليهم، وتبادل وجهات النظر معهم، وتعرفت على الحركات المعاصرة المعروفة، والشخصيات العلمية التي لها شأن يذكر، ورأيت كثيراً منهم، وعرفتهم عن كثب، وأتجراً على أساس هذه المعرفة الواسعة (ولا فخر) أن أقول: إنني ما رأيت أحداً وهبه الله ذلك الإيمان بالغيب، والدعوة إليه، والشغف بالدعوة، والانهماك فيها، وقوة التأثير ونصاعة البيان التي كان يملكها الشيخ محمد يوسف - رحمه الله -، فإنه وإن كان يملك مواهب أخرى يندر وجودها في الناس، وكان له فيها النصيب الأكبر والحظ الأوفر، إلا أنه كان يمتاز في قوة الإيمان، والثقة بالله، والتوكل عليه، والهمة العالية، والجرأة الفائقة، والاستحضار في الصلاة، والخشوع في العبادة والدعاء، ومعرفته الدقيقة لحياة الصحابة، واستحضار أحوالهم، والاهتمام باتباع السنة، وفهم القرآن الصحيح، واستخراجه للنتائج من قصص الأنبياء، والملاءمة بين القول والعمل، والجمع بين الدعوة والتأليف.

وأخيراً وليس آخراً، قوته في تسخير القلوب، وكسب ثقة الناس به، وتهافت الناس عليه حباً وشغفاً به، كل ذلك جوانب لامعة من حياته، وخلالها العالية التي كان يتصف بها، وهي تحتاج إلى دفتر طويل لتسجيلها، ويصدق كل ما يكتب عنه من سعد

بلقائه، وقضى وقتاً في صحبته، أو رافقه في رحلاته، ولا يقلُّ عددهم عن عدة آلاف، وجميع هذه النعوت أجزاء من سيرته، ومنها مزايا يمكن أن يكون له نظير فيها، وقد يفوقه بعض المشايخ والدعاة، ولكنني اخترت هنا بعض الصفات والمزايا الشخصية التي أعتقد بناءً على معرفتي المحدودة أنه لا يوجد له قرين أو مثيل فيها، بل هو نسيج وحده، والغيب عند الله.

الميزة الأولى التي ذكرتها هو إيمانه بالغيب واليقين بوعد الله ونصره، والإيمان بما جاء به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والثقة به وقضاء الحياة في ضوئه، فإني لم أجد أحداً غيره يدعو إلى الله بتلك القوة والثقة التي كان يدعو بها.

فقد كان عندما يبين صفات الله وذاته وقدرته **﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾**، وتسييره للكون وحده، وعدم اعتبار الوسائل، وعدم أهمية خواص الأشياء، وتجارب الإنسان، واحتقار المحسوسات والمشاهدات وكون نظام العالم مسخراً لأحكام الله، والنظام التشريعي، وخضوع الوسائل والذخائر للصفات الإيمانية، والأخلاق الإيمانية، والطاعة والعبودية وانتصار حملة النبوة، وأهل الإيمان والدعوة على أصحاب السلطة والقوة، والحكم والنفوذ وأصحاب رؤوس الأموال، والوسائل المكثفة، لما كان يبين هذه المواضيع بحسن بيانه، وصدق إيمانه، ورسوخ علمه، وتصديق قلبه، وطلاقة لسانه، فإن المستمعين له كانوا ينتقلون ذهنياً وفكرياً وشعورياً من عالمهم الذي يؤمنون فيه بالمادة والمظاهر إلى عالم الإيمان بالغيب، وتبدو لهم الوسائل والذخائر، وأعراض الدنيا، والمشاهدات، والتجارب، والمحسوسات كلها كأنها لا قيمة لها في الحقيقة ولا وزن لها في الواقع.

وكانت هذه الطبيعة والذهنية تتصاعد ببيانه، وتغلب على النفوس، فكنا نحن المعلمين والمدرسين نخشى من أن هذه الطبيعة إذا غلبت ودامت فإنها قد تؤدي إلى ترك الأسباب، والاتجاه إلى الرهبانية، واللجوء إلى التجرد، ولكن الأسباب قد اختارت شكل الأرباب في هذا العهد المادي، وربط العالم كله حظه بالأسباب المادية، وجهده الشخصي وكفاءته، ولا يتوفر لأي حركة أو دعوة دينية أفراد يملكون صفات الفناء في الله، يدفع هيامهم وغرامهم بأنفسهم إلى أن يلقوا أنفسهم في نار

نمرود، لا يبالون بما يحدث بعده، وإنما يفوضون أمرهم إلى الله وتحار العقول أمامهم، لقد أصبح ذلك القدر من الإيثار والتضحية، والتفاني في الله شيئاً نادراً مثل العنقاء المُنْغَرِب، الذي تستلزمه قيادة حركة أو دعوة.

ولقد تأثرت هذه الأمة التي كان رصيدها الإيمان بالغيب، وكان منطلقها الحصول على رضا الله، والشوق إلى الجنة، وعلى أساس هذا الإيمان واليقين انتصرت على القوى المادية وتغلبت على الأمم المدعومة بالوسائل، تأثرت هذه الأمة بالدعوة الدائمة إلى اعتبار القيم المادية، وتقديسها بحماس بالغ، وأصبح المسلم اليوم يؤمن بوسائل المعيشة، ويعتبرها رازقاً له، فكانت دعوة الإيمان بالغيب للشيخ محمد يوسف - رحمه الله - في خضم هذا البحر الهائج للمادية تحدث هياجاً وثورة في النفوس، وتنفخ روحاً جديدة، وتنقل إلى القلوب لذة الإيمان والتوكل على الله والاستعداد للتضحية في سبيله، وتحدث نشوة تستمر برهة من الزمن، فكانت هذه النفسية التي يحدثها بدعوته تحمل المستمعين على أن ينهضوا للقيام بتضحيات تحيّر العقول، وتبهر الألباب، وتبعث على الدهشة والاستعجاب، وكان ذلك مكسباً لا تستطيع أي خطبة مجلجلة، وكلمة مدوية، وفصاحة نادرة، وقوة تعبير، ونصاعة بيان أن تحققه.

وبفضل هذا التأثير اندفعت هذه الحركة، ووصلت إلى أنحاء قاصية من العالم، فسافر ألوف من الناس من مختلف الطبقات والفئات إلى قارات أخرى، وتركوا أهلهم، وهجروا راحتهم، وغادروا بيوتهم لشهور عديدة، وتحملوا الشدائد والصعاب في سبيل الدعوة والتبليغ، وأنفقوا في سبيل الله ما كان لهم من الوقت والمال بطيب خاطر ورضى النفس، وعلو الهمة وبسخاء لا يوجد له مثل في هذا العصر، ولو نسأ الله في عمره، وقدر له، لاستخدم الشيخ محمد يوسف هذه القوة في الإيمان بالغيب (التي لا يتيسر عادة لأي حركة أخرى) لإصلاح المجتمع، وتغيير مسار الحياة، وتحديد الصلة بالدين، وإحياء ما كان عليه الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين بطريق أوسع ونطاق أكبر، وتغلبت هذه القوة الإيمانية للأفراد على الحياة الاجتماعية وسادت.

كانت تهب في مجالس الشيخ محمد يوسف أحياناً نفحات الشيخ عبد القادر الجيلاني الذي غير بنيه لغير الله في كلماته ألوفاً من القلوب، وأحدث الانقلاب في النفوس، وألحق ضربة قاسية بالقلوب الجامدة، وكل من يقرأ مواعظه التي تشتمل عليها «فتوح الغيب» والمجموعات الأخرى لمواعظه، تبدو له وكأن شخصاً يستخدم بقوة وشجاعة مطرقة، ويحطم بها أصنام المادية الرعناء ويهمشها ويدكها دكاً.

لا شك أن أمثالنا من الذين لا تنفصل أذهانهم عن الرابط بين الأسباب والمسببات والذين يُدخلون السعي والجهد في أعمال الدين والشرعية وقيّمون الصلة بينهما، ويعتبرون الإنسان مكلفاً ومأموراً بالسعي والاجتهاد، والذين يعدون تكاسل المسلمين وجمودهم مسؤولاً عن انحطاطهم، ويعتبرونهما سبباً من أسباب تردّيهم وتخلفهم، لا يستطيعون أن يحاكو هذا المنهج الذي سلكه الشيخ محمد يوسف بصورة ناجحة ولا يغيب عن أذهانهم تصورهم المادي حتى في مجالس وعظه وإرشاده، ولكنني أعترف وأقول بصراحة أن دعوته الإيمانية قد أتت بنتائج لم تأت بها دعواتنا المعتدلة والمتوازنة، وقد صدق الشاعر أن آفاً من الحكماء لا يستطيعون أن يساوا كليماً واحداً.

والميزة الثانية للشيخ محمد يوسف — رحمه الله — هي شغفه الكامل بالدعوة وانقطاعه إليها، وهي فترة لا نجد لها نظيراً في تاريخ الدعوات والحركات الدينية فحسب، بل لا نجد ذلك الهيام بالدعوة، والحرقة لها والتهالك عليها، والتفاني في سبيلها، في تاريخ الحركات السياسية والمادية، وقادتها وزعمائها، وكان هذا الجانب بارزاً وملموساً في حياته، لكن لا يستطيع أحد أن يمثله مهما بذل من جهد ومهما أوتي من قوة بيان إلا إذا حضر مجالسه أو رافقه في رحلاته، واستمع لخطبه ومواعظه، وشاهده بعينه، وعاش معه فترة طويلة من حياته، وكل رجل قضى معه مدة من الزمن دهش بانشغاله وانهماكه، وانصرافه إلى عمله انصرافاً كلياً، وصعب عليه أن يفهم من أين تأتي إليه هذه القوة والطراوة والحيوية، وما هو مصدرها ومنبعها، فلا يستطيع أحد أن يشرحها إلا أن يُرجع ذلك إلى العشق والهيام، أو إلى تأييد الله سبحانه وتعالى ونصرته.

كان من عادته أن يلقي كلمة مفصلة تستغرق ثلاث ساعات أو أكثر، كل يوم بعد صلاة الفجر مهما كانت حالة الجو، ووهج الشمس، وحالته الصحية، وكان لا يهتم عدد المستمعين قليلاً كان أو كثيراً، وكان يحيي ليالي رمضان، ويشغل بالدعوة، ويطول كلامه في هذا الشهر الذي ينام الناس فيه عادة بعد صلاة الفجر، لكنه يتحدث بكل قوة ونشاط، وعاطفة وحماس، بعد صلاة الفجر، ويوجه الدعوة إلى الخروج في سبيل الله، ويحث الناس على الاشتغال بالدعوة، وبث التعاليم الإسلامية، ومقاومة كل ما يتعارض مع الشريعة المطهرة، وكان يتكلم في غير رمضان أثناء شرب الشاي وبعده، ويأتي وقت توديع الجماعات فيخاطب الذين يخرجون في الجماعة ويشرح قواعد الخروج في سبيل الله وآداب الدعوة بقوة وحماس، يبدو كأنه يتكلم بعد صمت طويل، ثم يرفع يده إلى السماء ويدعو بنفس القوة والحماس، كأنه هو الدعاء الأول والأخير له، وكأنه لن تتاح له فرصة أخرى للدعاء، ثم يواصل كلامه في المناسبات والاجتماعات الأخرى أو اللقاءات، ثم ينصرف إلى التصنيف والتأليف حتى يأتي وقت الغداء، ويشغل بالدرس والإفادة بعد الظهر، ويقابل الزوار، ويقرأ الرسائل، وفي بعض الأيام يلقي كلمة بعد صلاة العصر والمغرب، ولا يجد أحد أي أثر للتعب، بل يجد كأنه يتكلم لأول مرة.

وكان يقرأ كتاباً من كتب السيرة النبوية أو حياة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين بعد صلاة العشاء التي كانت تتأخر دائماً، وكان يثابر على هذه الأعمال، وكان لا يحول دونها شيء من حالته الصحية، وعناء الأشغال في النهار، كان ذلك وظيفته من الصباح إلى الساعات المتأخرة من الليل، ويحسبه المستمعون له أنه استراح طول النهار، ولم يشغل بعمل من الأعمال.

إن الإقامة بـ «نظام الدين»^(١) والاشتراك في سائر الأشغال اليومية ليومين كان يشق علينا نحن الضعفاء والمقصرين، وكانت المواظبة عليها والالتزام بها عملاً مضنياً لنا، وأناي أصف حالي، أنني كنت أحياناً أخاطب نفسي وأقول لها: يا فاطر الهمة إن الشيخ محمد يوسف يقضي حياته كلها على هذا المنوال، وأما أنت فيشق عليك

(١) مركز جماعة الدعوة والتبليغ بدلهي في الهند.

يومان، وكانت نفسي تلتمس العذر في ضعف قوتي وهواني، وفي علو الهمة والعزيمة للشيخ محمد يوسف، وتلتمس العافية.

إن الذي يحب العافية والراحة لا حاجة له إلى أن يجرب المحبة، وكان هذا الاشتغال والانهماك يزداد ويتضاعف في الرحلات وتزداد أوقات الكلام، وقد قدّر أحد الإخوة المرافقين له أنه كان أحياناً يقضي ثماني ساعات في الخطاب كل يوم علاوة على تكلمه في المجالس واللقاءات. وما يحيرّ العقول أنه كان يبدو في كل مناسبة للكلام كأنه يتكلم لأول مرة، فلا تبدو عليه علامات الضعف والسّامة، وبوادر التعب والملل، ولا يوجد تكرار، فيرسل الكلام وينطلق لسانه وتتدفق أفكاره، كأن هذه الخطبة هي خطبته الأولى، ويفتح قلبه فيها، كذلك كان حال دعائه.

لم أسعد بالحضور خلال رحلته الأخيرة للحجاز، ولكنني سمعت بالتواتر، أن هذا الحماس وهذه الطراوة، والعاطفة والانهماك، بلغ ذروته هناك، فقد كان يبدأ خطبته في فناء المسجد النبوي الشريف بعد صلاة الفجر، ويستمر في الكلام إلى الضحى، وكان الناس الذين سمعوا الخطبة من أولها، وشاهدوا ضوء القمر على القبة الخضراء الشريفة كانوا يشاهدون خيوط الشمس ساطعة على القبة، وإنني أتذكر أن الشيخ محمد يوسف ألقى خطبة طويلة بكل قوة وجأش في اجتماع «بهوفال» مرة، وبدأ التشكيل بعد الخطاب، ثم جاء دور الدعاء، فكنت أرجو أنه سيستريح الآن، لكنني وجدته يستأنف كلامه في مناسبة أخرى، كانت مناسبة زواج أو ما شاكلها، وكنت أتوقع أنه بعد هذه الساعات الطويلة من الكلام يختصر كلامه، ويستغرق حديثه دقائق فقط، لكنني وجدته بعد قليل كأنه يتكلم لأول مرة، لا أثر عليه للسّامة، والملل والتعب، بل تكلم بحماس بالغ، وبقوة كبيرة، كأن هذه هي الفرصة الأولى.

كذلك كان دعاء الشيخ محمد يوسف، فقد كان دعاؤه يتميز بتأثيره على القلوب؛ لأنه كان يصدر من القلب، وتسوده العاطفة، فتتدفق فيه المعاني، ويرافقه الحماس والانفعال، فيرفق القلوب، ويسيل الدموع، ويهز النفوس، فكان ذلك من سمات الشيخ وخصائصه، ولا يوجد له مثل فيه، فكان إذا رفع يده للدعاء، وبدأ كلماته طراً على الحاضرين حال غريب، وخاصة عندما كان يبدأ الدعاء بالأردية بعد

الأدعية المأثورة، فكان سيلاً من الدموع يغمر النفوس، ويعم الصراخ والعيول والأثأت، ولا أصادف مثلاً لذلك عند المتقدمين إلا عند الإمام أحمد بن عرفان الشهيد وأحد مسترشديه الشيخ السيد نصير الدين في الزمن الأخير.

فقد ذكر الواصفون أنه عندما كان يدعو يبدو كأن رحمة الله تغشى الحاضرين، وتسود السامعين حالة هيام ونشوة وهزة، لا يحتملها بعض الضعفاء.

والميزة الثالثة له، التي لا يوجد لها نظير، هو ذلك التأثير الغلاب الذي كانت خطبه ومجالسه تخلفه على السامعين والحضور، وخاصة على الذين كانت نفوسهم صافية، وعقولهم واعية، وأذهانهم نقية، وقلوبهم سليمة، وطبائعهم مطيعة ومنقادة.

وقد أحدثت صحبته التي كان لها تأثير الإكسير، وخطبه المثيرة التي تحدث الانقلاب الذهني، أحدثت انقلاباً في حياة عدد كبير من الناس، وأثرت في قلوب وأذهان من لا يحصى عدداً، وكان تأثير صحبته ومواعظه عميقاً متوغلاً بحيث أنه كان يظهر في الشكل والسلوك، والاجتماع ومنهج الحياة، حتى في التفكير وطريقة الكلام، وكان يحاكيه في الكلام واللباس والمشي، ألوف من الناس متهاكين عليه ومعجبين به، وكان من مجالسه ويخالطه يحفظ جملة وألفاظه، ويرددها باللسان، وقد حفظ كثير منهم خطبه ودعائه، وتغيرت حياة كثير من المثقفين بالثقافة الغربية، والأثرياء المتنعمين، فهجروا ما ألفوه، وتعودوا عليه، من عادات وسلوك، واقتدوا به فكانوا يبدون بهذا الانقلاب كأنهم مشايخ أو دعاة يجاهدون ويحتملون المكروه والأذى في حياتهم، ويؤثرون حياة الشظف والخسونة بدلاً من النعيم والركة، وينفقون من رواتبهم العالية ودخلهم العالي في أعمال الدعوة والخروج في سبيلها وإعانة الفقراء، ولا ينفقون منه على أنفسهم وعلى أعضاء أسرهم وعيالهم وذويهم إلا ما ينفقه موظف متوسط الدخل أو تاجر له دخل زهيد.

ولا يحصى عدد من تغيرت حياتهم وتبدل منهج عبادتهم وسلوكهم، وأصبحت عبادتهم عبادة ذوق، وصارت خدمتهم للناس لذة وراحة للنفس، وغلبهم الخشوع والخضوع، والوجل والتفاني، والتواضع ما يخجل أمثالنا الضعفاء المقصرين.

إن العلم الحقيقي عند الله، وهو علام الغيوب، ولكن الخلق والسلوك، والورع والإخلاص، مظاهر علو مكانة الإنسان ورفعته الدينية، أم الأحياء (بارك الله في

حياتهم) فلا يؤمن عليهم ولا يمكن أن يقال عنهم شيء نهائياً، فإن الحي لا يؤمن عليه الفتنة، ولكن يمكن أن تذكر أسماء كثير ممن توفاهم الله ووصلوا إلى منازل رفيعة في فترة قصيرة من الزمن أمام أعيننا، وسمت مكانتهم وأحوالهم بصورة مدهشة ومحيرة، أذكر منهم فقط اسم صديقي الحبيب الحاج أرشد الذي كان رغم منصبه العالي ومسؤولياته الرسمية الجسيمة جامعاً للإخلاص والتعلق بالله، والاشتغال التام بأمور الدعوة، والإيثار والتضحية، والتواضع وإنكار الذات، وخدمة الخلق، ونصرة الدين، وكان نموذجاً حياً لها، وقد نال درجة الشهادة، ولا يزال ذكره يبعث على الشجي ويشير الحزن والأسى، وقد قدر الله تعالى له نشر الإسلام في «اليابان»، وبه فُتح هذا الباب، وسيدكره أهل «الحجاز» أيضاً مدة طويلة.

ويجد الباحث في دول مختلفة في العالم بعيدة عن «الهند» رجالاً تغيرت حياتهم بصحبة الشيخ محمد يوسف، وتأثير دعوته، تذوقوا حلاوة الإيمان بعد يوم أو يومين من لقائه، أو سماع خطبة أو خطبتين له، ونشطوا للدعوة وتغيرت صلاتهم وعبادتهم، وأخلصوا لله في جميع أحوالهم، وعرفوا قيمة الدعاء، وجدوا فيه شفاء لدائهم، وراحة لكرهم، ولبسماً لجروحهم، وأصبح الإيثار رمزهم، والتواضع شعارهم، ويتوفر أمثالهم حتى في «أمريكا» و «أوروبا» و «أفريقيا» فضلاً عن «الهند» و «باكستان» والبلاد العربية.

كان الشيخ محمد يوسف على ذروة دعوته، وكانت شخصيته على قمة الحركة والعمل والكمال، وكانت همته العالية وحظه السعيد لا يرضى بالوقوف في أي منزل ومكانة مهما كانت عالية وشامخة، بل كان يصعد ويصعد، ويرتفع في سعيه ويتقدم، فلا يعتبر أي مكان بعيد مهما كان بعيداً بعيداً، ولم يكن يعجزه أي عمل، ولا يستصعب أي هدف، وقد حقق بسرعة سيره، وقلق نفسه، واضطراب قلبه، وعاطفته الجياشة، في شهور ما لا يمكن تحقيقه في سنوات، وأنجز في أسابيع ما لا يمكن إنجازه في شهور، بدأ بعد وفاة والده الكريم إرسال الجماعات إلى البلدان الخارجية، وحول العالم كله إلى فناء داره، وجدّد الحج، فنفع فيه الروح الجديدة، وفي مدة قصيرة ارتفع عدد الحجاج وتغير منهج تأدية الحج.

كانت الجماعات تجول في محيط «ميوات»، ويحضرها عدد محدود من الناس، فبدأ يعقد اجتماعات حاشدة تعجز الأحزاب السياسية عن عقد مثل هذه الاجتماعات الفخمة، وصار عقد هذه الاجتماعات الدينية عادة تتبع، وسارع الناس إليها، وسابقوا، ولحضور هذه الاجتماعات المتكررة والمعقودة في أماكن مختلفة من البلاد كان الشيخ محمد يوسف في سفر دائم، فلا يعود من سفر إلا وهو مستعد لسفر آخر. وكان لا يصعب عليه أن يطيل الإقامة بـ «نظام الدين»، إنه فتح باب مخاطبة غير المسلمين، ودعوتهم إلى الإسلام، وبدأ عقد اجتماعات مختلفة يشترك فيها المسلمون وغير المسلمين، وكانت خطبته تشتمل على الأحوال الحاضرة، ونقد الحياة المادية والفساد الشائع في العالم، وانجذبت لأسلوبه الخاص قلوب غير المسلمين، فأقبلوا على الاجتماعات التي كان يتحدث فيها ويسمعون خطبه بشوق ورغبة بالغة ويتأثرون بها.

كانت هذه المساعي العالية والأهداف الواسعة تقتضي عمراً أطول، ولكن لم تطل حياته أكثر من خمسين سنة، وأكمل الشيخ هذه المهمة في عشرين سنة من عمره، واجتاز هذه المراحل كلها في فترة وجيزة من عمره ولحق بالرفيق الأعلى.

كانت وفاة الشيخ محمد يوسف خسارة فادحة لا تعوض عاجلاً، وفي مثل هذه الظروف التي تواجه الأمة الإسلامية من قحط الرجال، كيف يمكن أن يرجى فيها أن يحل محله داع إلى الله بخصائصه الشخصية، وتأثيره البالغ، ونفوذه النادر، وهمته العالية.

لقد وقعت حادثة وفاته فجأة في «لاهور»، فحطمت القلوب، وحيرت العقول، وأدهشت النفوس، ولم يكد كثير من محبيه أن يصدقوا هذا النبأ، وشكّوا في صدقه إلى أن لم يبق فيه مجال للشك، وتواترت الأخبار، وكنت أنا شخصياً ورفيقي الكريم الشيخ منظور النعماني في «الحجاز» في ذلك الوقت في شك إلى أن زال الشك، وكان عدد كبير من العاملين في التبليغ والدعوة هناك حائرين، وأخيراً اضطر الجميع إلى التصديق بهذه الفاجعة.

عدنا إلى «الهند»، فأبدى بعض الإخوة المحبين للشيخ محمد يوسف رغبتهم في أن يؤلّف كتاب في سيرة الشيخ محمد يوسف — رحمه الله — ، وقد وفقني الله

تعالى لسعادة التأليف في سيرة والده الشيخ الكبير محمد إلياس الكاندهلوي - رحمه الله - ، وذلك من فضل الله العظيم أني رغم تقصيري وقلة بضاعتي وضعفي، واستكاثتي، وفقت للتأليف في سير وأعمال عدد من رجال الدعوة والإصلاح وعباد الله الصالحين، وعظماء التاريخ الإسلامي، وقد تعرفت على الشيخ محمد يوسف في حياة الشيخ محمد إلياس، وكان ينظر إليّ بإكرام ومحبة، ويحتفي بي بصلتي بوالده الكريم، ولعل هذه الصلة والمعرفة الخاصة حفزت بعض المخلصين إلى أن يطالبوني بأن أقوم أنا شخصياً بهذه الخدمة، ووردت رسائل من خارج الهند إلى الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي يطلب منه بأن يأمرني بذلك.

وفي نفس الأثناء بدأ بعض أصحاب القلم من عند أنفسهم جمع أحوال حياته لترتيب سيرته، وأعلن بذلك في بعض الدوائر، وأبدى الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي رغبته بصورة غير مباشرة كعادته معرضاً غير مصرّح، ولم يكن لدي رغم شعوري بقلة بضاعتي وضحالة معرفتي، وأنا لا أحمل في سجلي وثيقة أتوقع بها المغفرة والأجر عند الله إلاّ هذا الجهد المتواضع لتسجيل مآثر عباده الصالحين، وكانت هذه فرصة سانحة أخرى لحصول السعادة والبركة، إلاّ أنني كنت أواجه مشكلتين تعوقاني عن تحقيق هذه الرغبة .

أولاً: كنت أشكو عيني منذ مدة، وقد انقطعت عن المطالعة والكتابة منذ سنوات، وكنت أعتد على الآخرين في جميع أعمالي في الكتابة والتأليف، وفي مثل هذه الحالة يمكن التأليف والكتابة في موضوعات ارتجالية أو طبعية، لكن التأليف في السيرة وخاصة في سيرة شخصية جامعة، أحوالها منتشرة، وخدماتها طويلة، ومآثرها تسع العالم كله، وهو قائد حركة عالمية، وقائد انقلاب روحي، وانقلاب فكري يحتاج إلى دراسة وثائق ورسائل، وكتب سيرة وتاريخ تتعلق بعصره، وعهد نشأته، ولا تتوفر مثل هذه المواد بسهولة، بل تحتاج إلى بحث دقيق، ومطالعة عميقة، واستخراج نتائج من مجموعات الرسائل التي كتبها والخطب التي ألقاها، والجولات التي قام بها، والاجتماعات والحفلات التي شارك فيها، والعوامل التي كانت عاملة في نشأته، وتكوين شخصيته.

لما خطر ببال بعض المخلصين ممن لهم صلة بندوق العلماء أن يؤلف كتاب في سيرة مؤسس ندوة العلماء الشيخ محمد علي المونجيري — رحمه الله — ، وأعرب نجله الشيخ السيد مئة الله الرحماني عن رغبته في أن أتولى بنفسي هذا العمل الجليل، وأؤلف الكتاب بقلمي، وكان ذلك في الواقع سعادة كبيرة لي، ولكن هذا العذر حال دون القيام بهذا العمل، وفوّضت أمره إلى ابن شقيقي الأكبر المرحوم محمد الحسني، والحمد لله أنه قام بهذا العمل خير قيام، وأثبت جدارته، وكان موفقاً في عمله، وشعرت بعد تأليف الكتاب أنني لو كنت توليت تأليفه بنفسي لما كان أفضل من هذا التأليف، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

وكانت المشكلة الثانية لي، أنني لم أستطع أن أرافق الشيخ محمد يوسف وأساعده، وأشارته في عمله كما كان يتوقع مني، وكان أحق به وأجدر بأن يتوقع ذلك، فإنه كان يتصف بقوة الإرادة، والجهد، والانقطاع التام إلى عمله، والتضحية في سبيله، والعزم والثبات على الدعوة ومتطلباتها مثل ما كنت مقصراً ومتخلفاً، وقليل البضاعة في هذا المجال، كذلك كنت أكثر تعرضاً للأمراض، والأشغال التي كان الشيخ أبعد عنها، بل كان ينفيها ويفنّدها، ومثل ما كان يدعو مع اليقين والثقة في الدعوة والإرشاد إلى إغماض العين، وسدّ السمع، وحفظ اللسان، كنت قد ابتليت باستخدامها وفتحها، ومثل ما كان ينفي المحسوسات والمشهودات، والماديات والموجودات، ويحط من شأنها وقيمتها، كنت مثل ذلك يصعب عليّ أن أتحرر منها، وأخلص نفسي من سحرها .

إن هذا الشعور الذاتي بالعجز، وفقر الهمة، وقلة البضاعة، كان يمنعني من أن أتقدم للكتابة في شخص هو على هذه المرتبة من الهمة العالية، والعزم الأكيد، والدعوة الراسخة، والثقة الكاملة، ولكنني كنت رغم شعوري بالعجز والتقصير أخشى أن هذا العمل الجليل إذا أسند إلى رجل لا يكون على ذلك المستوى وتلك القدرة التي يحتاج إليها هذا العمل الجليل فسيكون مبتوراً، وأنه إذا أنجز ذلك العمل بدون الاهتمام والاستعداد والجهد والكفاح، والبحث والتنقيب، والفحص والغربة فإنه لا يؤدي الغرض المطلوب منه بل إنه يبعث على خجل وكفاظة ويؤدي إلى الندم

حيث لا ينفع الندم، ومن جهة ثانية كان يزداد اهتمام الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي بالقضية، وإشارته إلى إنجاز هذا العمل، وكان يبدو جلياً أن الشيخ مستعجل في أمره.

وأخيراً وجدت حلاً لهذه القضية، فمثل سيرة الشيخ محمد على المونجيري الذي فوضت أمره إلى ابن شقيقه الأكبر محمد الحسني، وشعر الجميع أن هذا الكتاب الذي كان في أسلوبه ومنهجه مثل أي كتاب صدر بقلمه، خطر ببالي أن يؤلف هذه السيرة ابن أختي العزيز محمد الثاني الحسني سلمه الله، فإنه كان يحظى بعناية الشيخ الخاصة، وقد سعد بمرافقته في عدة رحلات دعوية، وكان له شغف بحركته ودعوته، وصلة وثيقة، وحب غامر بشخصيته، كما كانت له تجربة سابقة وخبرة طويلة في تأليف كتب السيرة للمشايخ والمصلحين، وذوق خاص بهذا الموضوع، وأكثر من ذلك فإنه من أقرب تلاميذ الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي ومسترشديه، وكان موضع حبه وثقته، وسيعتبر تحقيق رغبة الشيخ سعادة كبرى له، وإنه سينجز هذا العمل بشوق ورغبة، واهتمام وتكريس قد لا ينجزه شخص آخر، فلما عرضت على الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي هذه الفكرة قبلها بكل سرور، وأمره يبدأ هذا العمل وقبلت مسؤولية مساعدته، وإرشاده بكل ما أملك من معرفة وخبرة ناقصتين، وقلت: سأقرأ هذا الكتاب حرفياً، وهكذا أشاركه في التأليف.

وبتوفيق من الله صدق ما كنت أتوقعه، فانشغل العزيز محمد الثاني بهذا العمل انشغالاً كلياً ووهب نفسه بكلِّيتها له، وكان ضعيف البصر لنزول الماء في عينه، وكان يصعب عليه بسبب ذلك مداومة المطالعة والكتابة، لكنه لم يبال بما يصيبه من الأذى بالاستمرار في المطالعة والكتابة؛ لأن هذا الشغل صرف اهتمامه كله إليه، وشغل ذهنه واستولى على أعصابه، وغلبته عاطفة قوية، وبدأ يشعر بذوق ولذة في هذا العمل، وأصبح ذلك شغله الحبيب، ولا يتم أي عمل تألفي، ولا يحدث فيه تأثير إلا بمثل هذه العاطفة والحب والهيام.

إنه لم يبال بصحته ولا أشغاله الأخرى، ولما بدأ العمل واجه صعوبات لم تكن في الحسبان قبل بدء العمل، وكنا فعلاً لا نتوقع أننا سنواجه هذه الضحالة في المواد

اللازمة من الوثائق التاريخية والمواد العلمية، فقد كان الشيخ محمد يوسف ببصيرته النافذة، وعزيمته الخارقة يصرف الناس عن الكتابة والتأليف والنشر، ويوجههم إلى العمل والتضحية، وكان يهيمه صناعة التاريخ بدلاً من تسجيل التاريخ.

ولكن الناس أفرطوا في تطبيق ما كان يدعو إليه الشيخ محمد يوسف، وعملوا به أكثر مما كان يقصده، فلم يهتموا بتسجيل تنقلات الجماعات، ولم يسجلوا الانطباعات ولا الذكريات، ولا مداولات الاجتماعات، ولم يحفظوا ملخص الخطب، ولا تقارير الرحلات، ولو لم يكن - من حسن الحظ - ذلك الاهتمام عند الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي بتسجيل أهم الأحداث في مذكراته وترجمة حياته التي اشتملت على كل صغير وكبير من الأحداث العائلية والإسلامية لما أمكن عرض أي صورة مصغرة لهذه الحركة العالمية، فلم يكن يتيسر إلا بعض الرسائل، وبعض المذكرات عن الاجتماعات كتابياً، ولم يساعد في ذلك من كان يتوقع منه بأنه يحمل ثروة غنية من هذه المعلومات بصلته بالشيخ محمد يوسف، رغم محاولات كثيرة، واستفسارات عديدة، فإنهم أيضاً لم يهتموا بتسجيل الأحداث والوقائع أي اهتمام، ولكن دعاء الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، واهتمامه بالتضحية، ورعايته وتعاونه العلمي كان رصيده ورائدنا، فقد كان يقطع من وقته الثمين وقتاً لنقل المواد اللازمة من مذكراته وإرسالها إلينا، ويرد على الرسائل بالتفصيل حول بعض الأمور، كما كان يخصص من وقته الثمين عدة ساعات للرد على بعض الأسئلة شفهيّاً عند اللقاء، ووجه الأصدقاء الآخرين وأصحاب المعرفة إلى أن يساعدوا في هذا الأمر، وسمع أكثر أجزاء الكتاب بنفسه، وأشار إلى بعض المواضيع التي كانت تحتاج إلى حذف وزيادة وتنقيح، وملاءم الفجوات وحث على إنجاز هذا العمل في أقرب وقت.

ومما يدل على شغفه بهذا العمل وحرصه على أن يتم في أقرب فرصة، أنه كان يكتب في أثناء إقامته بالحجاز، ويؤكد على مواصلة العمل والاستعجال في إتمامه، فقد كتب في رسالة إليّ:

«سررت كثيراً بأن الكتاب يمر بمرحلة التبييض، أنا في غاية الشوق إلى إتمامه».

وكتب في الرسالة المؤرخة ٧/ محرم الحرام:

«لو قدر الله لي العودة إلى «الهند» ليسرني كثيراً مشاهدة الكتاب المطبوع أو أجزاء مطبوعة للكتاب.

وكان من نتيجة هذا الشغف، والعاطفة القلبية والاهتمام الزائد، أن هذا العمل الذي يعرف مؤلفه وكاتب هذا التقديم صعوبته ومشاكله وسعته وتعدداته، تمّ رغم الصعوبات بهذا الشكل الذي لم نكن نتوقع في بداية الأمر أن نصفه أو ربه سيحقق.

إن العثور على نقائص عمل من الأعمال (في شكله التام) والتنبيه إليها عمل سهل، ومن لا يعمل لا يبالى إليه، ومن يعمل يتعرض للتنبيه والنقد، ولكن إنجاز هذا العمل في هذه الظروف القاسية، والمعوقات الطبعية، والمصادر القليلة، كل ذلك بنصرة الله تعالى وتأنيده، وقبول صاحب السيرة عند الله، ومن كان الباعث عليه، ومن تم هذا العمل في رعايته وإرشاده.

والكلمة الأخيرة، ومعدرة إلى القراء، أنه من عادة المؤلفين في سيرة شخصية أنهم يبدؤون عملهم بتراجم أسلاف هذه الشخصية وتاريخ موجز للأسرة التي تنتمي إليها، ومن له صلة بهؤلاء الأسلاف والأمجاد والمعاصرين، وهو جزء لازم لتاريخ حياة أي علم من الأعلام وسيرته، ويساعد ذلك على معرفة عوامل نشأته، ولذلك كان لا بد من عرض حياة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي الذي كانت له صلة قرابة، وصلة رعاية وتربية لصاحب السيرة ودعوته وحركته، وكان مشرفاً عليه وسنداً له وبدون عرض حياته وخدماته لا يؤدي حق هذه السيرة، كما يصعب بدون إلقاء الضوء على دوره الحاسم معرفة الظروف السائدة إثر وفاة الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي - رحمه الله - ، بل لا تكتمل هذه السيرة بدون سيرة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، فإن رعايته وهمه وتحرق قلبه، كان شريكاً وقريناً لصاحب هذه السيرة ودعوته، وانضم إليه كما ينضم قطر النسيم في الغصن الرطب.

كان لا بد من ذكر الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، واستعراض حياته، وكان مؤلف السيرة العزيز محمد الثاني أحد تلاميذه ومسترشديه، فطلب مني لأدبه وإكرامه لشيخه أن أتولى كتابة هذا الجزء من السيرة، وكان ذلك سعادة وشرفاً لي، ولصلتي

بهؤلاء المشايخ الكبار، وما أحظى به من رعايتهم ومحبتهم الخاصة بي كنت أستطيع أن أستفسر عن بعض الأمور، وقد فعلت ذلك أكثر من مرة في السابق أثناء التأليف في سير أعلام الهند، ولم يخيّبوني لعطفهم وشغفهم الخاص بي.

وحتى الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي الذي كان أقل معاصريه اهتماماً بكتابة التاريخ، والذي كان جل اهتمامه موجهاً إلى الدعوة والإرشاد، وكان ذلك همه الوحيد، قد استفسرته في اللقاء الأول عن أحوال حياته وأسرته، ولم يستجب لرغبتي بسرور واستبشار فحسب، بل سمح لي بأن أسجل تلك المعلومات.

وكانت هذه المعلومات أساس كتابي في سيرته، فاستفسرت الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي في هذا الصدد، وزودني بمعلومات كثيرة، كما سأله شفهاً خلال اللقاءات المتكررة وسجلتها، ولا شك أنه كان ذلك بالنسبة له إثارة كبيرة ومجاهدة، ولكن سواء كان ذلك حسن حظي أو حكمتي، أوجه الغامر وعطفه، فإني قد حصلت على معلومات كافية منه، ورتبت على أساسها هذه الترجمة لحياته وتلحق هذه الترجمة بالكتاب؛ لأن سيرة الشيخ محمد يوسف لا تكتمل بدون سيرة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي.

وقد ارتفعت بهذا الباب^(١) قيمة الكتاب ونفعيته ليس للأحبة المخلصين والمسترشدين له فحسب، بل ولجميع العلماء والدارسين وأصحاب البحث والتأليف، وأساتذة المدارس، والدعاة.

نفع الله بهذه الثروة العلمية بكاملها جميع القراء من أصحاب الذوق والهمة العالية، وجعله ذخراً في الآخرة لهذا المؤلف وأعوانه.

السيد أبي حسن علي حسيني ندوي

(١) نظراً لضخامة الكتاب حذف الباب الذي يشتمل على ترجمة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي.

الباب الأول الأسرة

الشيخ محمد أشرف الطبيب:

كان في عهد الإمبراطور المغولي شاه جهان شيخ كبير يسكن في بلدة «جهنجان» بمديرية «مظفر نجر» في الولاية الشمالية للهند، وهو الشيخ محمد أشرف، وقد أجمع العلماء والمشايخ المعاصرون له على تبحره في العلم وفضله وورعه وزهده، واتباعه للسنة واهتمامه البالغ بالعمل بالشرعية، وكان سليل أسرة كريمة عريقة في شرف النسب والمجد والفضل، ومكانتها في المجتمع، وخدماتها في الدعوة والإصلاح، وقد أنجبت هذه الأسرة من أهل العلم والفضل، ومن كبار المحدثين والفقهاء والدعاة والشعراء والأتقياء والأطباء الذين لا يُحصى عددهم.

وكان الشيخ محمد أشرف يملك مواهب عالية وقدرات فائقة، وكفاءات ومؤهلات متنوعة، وقد حكي المفتي إلهي بخش وهو ينتمي إلى أسرته بعض مآثره ومواقفه المؤثرة الغربية، نكتفي هنا بذكر إحدى هذه المآثر التي تدل على زهده في الدنيا واستغنائه عن الملوك.

أبدى الإمبراطور شاه جهان رغبته في زيارته لكثرة ما سمع عن فضائله، وعرف من أحواله ومآثره، ورأى من مكانته ومنزله لدى الجماهير، فأرسل مركباً وجماعة من رجال البلاط إلى «جهنجان» ليلغوه رغبة الملك، فاستجاب الشيخ محمد أشرف لرغبته وقصد بعد ما صلى صلاة الفجر مبكراً، ولف حول ظهره خماراً، وكان قد كلف الملك بعض ثقاته باستقباله لدى وصوله إلى باب المدينة، فاستقبلوا الشيخ وأكرموا واحتفوا به.

ودخل الشيخ على الملك وقابله مع الأمير الذي كان له سابق معرفة به، وكان يحمل في قلبه الحب والتقدير له، وأراد الملك أن يختبر الشيخ، فقال لوزيره سعد الله خان: أريد أن أختبر الشيخ وأفحصه، فوجه إليه الوزير كثيراً من الأسئلة ووجده حاضراً البديهة، رد على كل سؤال وجّه إليه رداً شافياً مقنعاً، فقال الوزير للملك: إن هذا الرجل بحر زاهر لا ساحل له، فأمر الملك بمنحه جائزة سنوية وعقاراً، فرفضه الشيخ وقال وهو لا يعبأ بأبهة الملك ولا هيئته: ليس الملك رازقاً، إنما الرازق هو الله جلّ وعلا، إني لم أحضر إلى الملك للمال، أو الجائزة^(١).

كان للشيخ محمد أشرف ولد اسمه محمد شريف، يقتفي أثر والده في العلم والفضل، واتباع الشريعة المطهرة.

ورزقه الله سبحانه وتعالى ولدين:

أحدهما: عبد القادر الذي ظهر في أولاده وأحفاده عدد لا بأس به من العلماء والدعاة من أمثال المفتي إلهي بخش، والشيخ مظفر حسين الكاندهلوي.

وثانيهما: محمد فيض الذي كان يسكن في بلده «جهنجان»، نبغ في أتباعه أمثال الشيخ محمد إسماعيل الكاندهلوي، والشيخ محمد يحيى الكاندهلوي، والداعية الإسلامي الكبير الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي ونجله الشهير الشيخ محمد يوسف، والمحدث الكبير العلامة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي ثم المدني.

علاقته بكاندهله^(٢):

ظهر في أسرة الشيخ محمد — الذي كان خطيباً وقاضياً في بلدة «كاندهله» في عصر السلطان محمد تغلق — عالم كبير، ومدرّس بارع سمي باسمه، أي محمد مدرّس، وتزوج ابنة الشيخ عبد القادر ابن الشيخ محمد شريف ابن الشيخ محمد

(١) «أحوال مشايخ كاندهله».

(٢) جاء السلطان محمد تغلق إلى المنطقة التي تقع بالقرب من بلدة «كاندهله» الحالية للقصص، فبينما هو في ذلك إذ جاء يوم الجمعة، فأمر بتعمير بلدة «كاندهله» وبناء المسجد الجامع فيها، وساهم السلطان محمد تغلق نفسه في بنائه يوم الجمعة، وولى الشيخ محمد ابن الشيخ كريم الدين من أبناء القاضي ضياء الدين سنامي منصب القضاء والإمامة والخطابة.

أشرف، وكان ينتمي إلى تلك الأسرة التي سبق ذكرها.

ورزق له ابنان، وهما الحكيم قطب الدين والحكيم شرف الدين.

كان الحكيم قطب الدين من أشرف بلدة «جهنجان» ووجوهها، وكان له نفوذ كبير في أنحائها وضواحيها الواسعة، وكان يجمع بين الدين والدنيا، تزوج في نفس الأسرة التي تزوج فيها والده من قبل، وكانت قرينته بنت الشيخ ضياه الحق ابن الشيخ محمد مدرّس.

ورزقه الله سبحانه وتعالى منها ثلاثة أبناء:

(١) الشيخ شيخ الإسلام.

(٢) الشيخ محمد مشايخ.

(٣) الشيخ صدر الدين.

وقطنَ هذان الأخيران في بلدة «جهنجان».

الشيخ شيخ الإسلام:

ولد الشيخ شيخ الإسلام ببلدة «كاندهله»، ونشأ في أحضان الشيخ محمد مدرّس، وأقام بهذه البلدة، ونقل الشيخ محمد مدرّس ضيعته إليه، وسلم إليه أبوه الممتلكات التي ورثها عن أمه.

كان الشيخ شيخ الإسلام يمتاز بعلمه وفضله، وكان كبار العلماء ينظرون إليه باحترام وتقدير، ويقابلونه بإكرام وتبجيل.

كان لشيخ الإسلام أربعة أبناء: (١) المفتي إلهي بخش، (٢) الشاه كمال الدين، (٣) الشيخ إمام الدين، (٤) الشيخ محمود بخش.

وكان هؤلاء الأربعة لا يدانيهم أحد في العلم والفضل، والزهد والورع، ويؤمّمهم الناس من مناطق مختلفة نائية لينهلوا من مناهلهم، ويجتنبوا من ثمارهم.

كان الشيخ إمام الدين أصغر سنّاً من المفتي إلهي بخش، إلّا أنه كان يفوقه في حدة الذهن، وتوقد الذكاء، وسرعة الخاطر، وحضور البديهة، وقوة الذاكرة وسعة العلم، ويعتبر شرحه على «مير ناهد جلالی» ماثرة علمية كبيرة له، وخلف ابناً يدعى

بالحكيم أشرف، وصار فيما بعد ختناً للمفتي إلهي بخش، وهو يمتاز عن أقرانه في الدراسة وكان طبيباً حاذقاً ذاع صيته في معرفة المرض، ومكافحة الداء ومداواة المريض، وكان ابنه الطبيب محمد أشرف يُعد من الأطباء الحاذقين أيضاً الذين لمعت أسماءهم لعلو كعبهم في الطب.

كان الشيخ كمال الدين ابن شيخ الإسلام مشغولاً بالرياضة والمجاهدة، ومحباً للعزلة والخلوة، ويضرب به المثل في الزهد والورع، وما حكاه المفتي إلهي بخش خير دليل على ذلك، إذ يقول:

كان يستيقظ في ليالي الشتاء القارس في منتصف الليل، ويتوضأ بالماء البارد، ويصلي التهجد، فقلت له يوماً: إنه من الصعب أن يستيقظ الناس في مثل هذه الليالي الشاتية، ويتوضأوا بالماء البارد، فكيف تستيقظ أنت كل يوم وتواظب على ذلك؟

فأجاب: إنني كلما أنتهي من الضوء تساورني الوسواس النفسية والشرطانية، وتحملني على أن لا أستيقظ في اليوم التالي، لكنني إذا أرخى الليل سجوفه، وغارت نجومه، ووقعت في أذني أصوات الطاحنات اللاتي يطحنن بالرحى تحت جنح الظلام الحالكة، يطير نومي، ويضطرب قلبي، ويشق عليّ النوم، وأستحي، فأقوم من الفراش وأقول في نفسي: إن الطاحنات اللاتي يشتغلن بأعمالهن من منتصف الليل إلى بزوغ الفجر للحصول على القوت الزهيد، ويلاقين في سبيل ذلك من التعب والجهد ما يُنهكن ويُضنيهن، فكيف لي أن أستريح وأنام نوماً هادئاً، ولا أشكر الله سبحانه وتعالى الذي يرزقني بدون أن أدفع لذلك أي ثمن، وأتعب في الحصول عليه أي تعب؟

فلما سمعت منه هذا الكلام عرفت أنه صاحب قلب حي وإحساس مرفه^(١).

كان يمتاز بالجود والكرم، والإيثار والتضحية، والعفاف والمروءة، وخدمة الناس، والعناية بالغريب، والاهتمام بأمور المسلمين، وتَجَنَّب طول حياته سماع الأغاني والاستماع إلى المزامير، وتحاشى مواضع اللهو واللغو والغفلة.

(١) «أحوال مشايخ كاندله».

المفتي إلهي بخش :

ولد المفتي إلهي بخش ابن الطبيب شيخ الإسلام سنة ١١٦٢هـ، وصعدت روحه الطاهرة إلى بارئها في عام ١٢٤٥هـ، وكان من تلاميذ الشيخ عبد العزيز الدهلوي البارزين، وكان يفتي ويدرس ويصنف، وكان طبيباً حاذقاً، وله كعب عال في العلوم الثقلية والعقلية، وكان شاعراً مُجيداً في اللغة العربية والفارسية والأردية، ويشهد بذلك كتابه الشهير «شرح بانث سعاد» الذي نقل فيه كل شعر قاله كعب بن مالك رضي الله عنه إلى اللغة الفارسية والأردية، منظوماً، ومؤلفاته تربو على أربعين كتاباً في اللغة العربية والفارسية، بايع الشيخ عبد العزيز الدهلوي بعد فراغه من الدراسة، ثم بايع بعد وفاته مسترشداه الشاب الإمام أحمد بن عرفان الشهيد.

ورغم كبر سنه بالنسبة لشيخه بثمان وثلاثين سنة، ظل يستفيد منه بغاية من الإخلاص والتواضع، وكان من مآثره العلمية الجليلة مؤلفاته الشهيرة حول ردّ البدع وحماية الشريعة، ونصرة الدين، وإنكار التقاليد والعادات الجاهلية، ومعارضة أهل الشيعة، وكان ينفر من الإنجليز نفوراً كبيراً، ويشمئز منهم اشمئزاً عنيفاً.

خلف ولدين :

— الشيخ أبو الحسن .

— والشيخ أبو القاسم .

الشيخ أبو الحسن :

أخذ الشيخ أبو الحسن العلوم الظاهرة والعلوم الباطنة عن والده المفتي إلهي بخش، وكان بارعاً في الطب، متورعاً زاهداً يقضي معظم أوقاته في العبادة والرياضة، ويعتكف في المسجد في شهري شعبان ورمضان من كل سنة، وبالإضافة إلى ذلك كان يشتغل في الدرس والإفتاء والإفادة، وكان شاعراً ملهماً، ولقي كتابه «بحر الحقيقة» قبولاً ورواجاً في الأوساط العلمية، وخاصة جزؤه الذي صدر باسم «حديقة إبراهيم»، الذي نال حظوة كبيرة، وكان له شغف زائد بمدح سيد الأنام ﷺ، وأنشد قصائد عديدة في شأن الإمام الشهيد أحمد بن عرفان، وكان يزهد في مقابلة الملوك والسلطين رغم ما كان له من نفوذ كبير، وسمعة بالغة، وكان ييغض الحكام

الإنجليز بغضاً شديداً، وإذا وجَّه إليه حاكم إنجليزي يحضر إليه مضطراً، ويقابله مكرهاً، ولا يمس شيئاً حتى يغسل يده، توفي في ٢١/ جمادى الأولى سنة ١٢٦٩هـ.

الشيخ نور الحسن وخلفه :

تلقى الشيخ نور الحسن دراسته الابتدائية من جده المفتي إلهي بخش ومن أبيه الشيخ أبي الحسن، ثم سافر إلى «دلهي» سنة ١٢٤٧هـ، وأكمل دراسته بين يدي الشيخ محمد إسحاق المحدث الدهلوي، والشيخ فضل حق الخير آبادي، والمفتي صدر الدين، ثم اشتغل بوظيفة رسمية ثم هجرها لأمر تتعارض مع الشريعة الإسلامية، واشتغل بالتدريس والإفادة، وأنشأ مدرسة في بلدة «كاندهله» كان يؤمها الطلبة من أماكن بعيدة، ويتلمذون عليه، وكان أستاذاً في «كلية آجره» قبل مجيئه إلى بلدة «كاندهله»، وخلال هذه المدة أتيحت له فرصة ليقراً على سيد أحمد خان مؤسس «جامعة عليجراه الإسلامية».

وكان يُعنى بالتأليف والتصنيف، وكتب حواشي كثيرة على الكتب الدراسية المختلفة، سَعد بالحج والزيارة سنة ١٢٧٧هـ مع الشيخ مظفر حسين الكاندهلوي والشيخ محمد يعقوب النانوتوي، والحاج عابد حسين، والشيخ محمد قاسم النانوتوي، ولحق بالرفيق الأعلى سنة ١٢٨٥هـ.

وكان له أربعة أبناء: (١) الشيخ ضياء الحسن المعروف بمحمد صادق، (٢) الشيخ ظهور الحسن المعروف بمحمد إبراهيم، (٣) الشيخ فيض الحسن المعروف بمحمد أكبر، (٤) الشيخ رياض الحسن المعروف بمحمد سليمان، واعتنى الشيخ نور الحسن بدراسة أولاده عناية بالغة، حتى برعوا في العلوم والفنون المختلفة.

كان الشيخ ضياء الحسن بارعاً في علم التفسير والفقه والحديث، وكتب تعليقات على بعض الكتب العلمية، وكان له شغف أيضاً بالأمور السياسية وقضايا البلاد، وكان يُعنى بها عناية فائقة، وكان قوي الذاكرة، حاضر البديهة، قوي الحججة، غزير العلم والفضل، ويمتاز بالنصح والمواساة ومساعدة الضعفاء والفقراء، أدى مناسك الحج مع والده سنة ١٢٧٧هـ، وتوفي في عام ١٣١٥هـ.

تزوج بنت الشيخ مظفر حسين الكاندهلوي، ورزق منها ابنان وثلاث بنات.

حفظ ابنه الأكبر الشيخ شمس الحق القرآن الكريم كعادة أبناء أسرته، ثم التحق بـ «جامعة عليجراه الإسلامية»، ودرس فيها اللغة الإنجليزية، واشتغل بوظيفة رسمية لمدة طويلة، والتزم طول هذه المدة بالأمانة، والصدق والصراحة، ولم يتخل عنها مهما كان من أمر، ولازم البيت بعد التقاعد، وكان ينفق معاشه على الفقراء والبائسين، وليس له أولاد.

وكان ابنه الثاني الشيخ رؤوف الحسن، وقد كان ناسكاً صوفياً زاهداً في الدنيا، بايع الشيخ عبد الرحيم الرائيوري، وكان يصرف أكبر جزء من دخله على الضيوف والفقراء وذوي الحاجة، حج مع الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي والشيخ محمد زكريا الكاندهلوي سنة ١٣٤٤هـ، وتوفي سنة ١٣٦٤هـ، وكان له خمسة أبناء: (١) الشيخ نجم الحسن، (٢) الشيخ احتشام الحسن، (٣) الطبيب قمر الحسن، (٤) الشيخ إظهار الحسن، (٥) الشيخ افتخار الحسن.

كان الشيخ نجم الحسن نموذجاً صادقاً لأسلافه رغم ثقافته الإنجليزية، وكان يلزم صحبة الشيخ عبد الرحيم، فصار من أكبر محبيه، وازداد زهده في الدنيا في آخر أمره فانهزل، وانفرد بنفسه، وآثر الخلوة، وداوم على الذكر والتسبيح، وكان الشيخ محمد إلياس يقول عنه:

«إنَّ العالم الرباني الكبير الشيخ عبد القادر الرائيفوري لم يمنحه الإجازة لغاية حيطته، لكنه كان خليقاً بها، وكان صاحب نسب عال، وتحلى بجميع الفضائل الروحية»^(١).

توفي سنة ١٣٣٦هـ في حياة والده، وخلف ثلاثة أبناء: (١) الشيخ مصباح الحسن، (٢) الشيخ عين الحسن^(٢)، (٣) الشيخ إعجاز الحسن.

(١) «أحوال مشايخ كاندهله».

(٢) توفي في مكة المكرمة، ودفن بجانب الحاج إمداد الله، والشيخ رحمة الله الكيرانوي مؤلف «إظهار الحق».

وكان الابن الثاني للشيخ رؤوف الحسن الشيخ احتشام الحسن، وكان قد أجازته الشيخ محمد إلياس - رحمه الله - ، وكان يعرف في الأوساط العلمية ببحوثه ومقالاته^(١).

وكان ابنه الثالث الشيخ قمر الحسن، وكان قد أقبل على الطب وقرأ الكتب الطبية بعد ما تلقى دراسته الأولى للفارسية والعربية واشتغل بمهنة الطب، توفي سنة ١٣٦٢هـ، وكان يجري على لسانه لدى وفاته: «الله ورسوله كلاهما حق»، وله بتتان.

وكان الشيخ ظهور الحسن ابن الشيخ نور الحسن الثاني قد أخذ العلوم الدينية عن أبيه، وقرأ الطب على الطبيب أحسن الله خان في «دلهي»، وبرع في هذا الفن، وصار مرجعاً، وكان يتولى إمارة البلدة، والقيادة الدينية فيها، ويصلي بالناس صلاة الجمعة والعيدين، فلقبه أهل البلدة بـ«الإمام جي»، وكان عالماً كبيراً خاشعاً متواضعاً عابداً ورعاً، رقيق القلب، بگاء، سعد بالحج والزيارة مع طائفة من العلماء سنة ١٣٢٠هـ، ورزق ابنان، هما: الشيخ عزيز الحسن، والشيخ رضي الحسن، وبتتان.

حفظ الشيخ عزيز الحسن القرآن الكريم كما جرت به العادة في تلك الأيام، وتعلم اللغة الإنجليزية في «جامعة عليجراه الإسلامية» بعد ما تلقى دراسته الابتدائية في بيته، واشتغل بالمحاماة لمدة من الزمن، ثم أثر العزلة ولازم البيت، وأقبل على تدريس القرآن الكريم، وكان طيب النفس، متوقد الذكاء، هادئ النفس، ذاكرًا لله سبحانه وتعالى، حج مرتين ولم يكن له أولاد ذكور إلا البتتان.

قرأ الشيخ رضي الحسن العلوم المتداولة بعد ما حفظ القرآن الكريم على مشايخ أسرته، وقرأ الفلسفة والمنطق على الشيخ عبد الحق الخيرآبادي، وأخذ الحديث عن الشيخ رشيد أحمد الكنگوهي، وقرأ كتب الطب على الطبيب عبد المجيد الدهلوي، وعين طبيباً خاصاً لنواب لوهارو في بداية أمره، ثم رحل إلى بلدة «كاندهله»، وأقام بها، واشتغل بالمدواة والمعالجة مع إشرافه على ضيعته، وكان راسخ القدم في العلم، صاحب فضل وزهد وورع، وكان موضع ثقة واحترام لدى العلماء والدعاة في

(١) هو مؤلف كتاب «أحوال مشايخ كاندله».

ذلك الوقت، توفي يوم العيد سنة ١٣٥٠هـ، وكان له ابن واحد وهو الشيخ إكرام الحسن وابنتان.

قرأ الشيخ إكرام الحسن الذي كان ابن أخت الشيخ محمد إلياس الكتب الابتدائية في بيته، ثم سافر إلى «عليجراه»، ودرس بها، ونال شهادة الليسانس (الإجازة) من الجامعة، ثم التحق بقسم الحقوق، وتخرج فيها، واشتغل بالمحاماة في بلدة «كيرانه» لمدة قصيرة، وكان موفقاً في هذه المهنة، ونال سمعة طيبة، لكنه لم يلبث أن تخلّى عن مهنة المحاماة، ولازم صحبة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، وانضم إلى إدارة مدرسة مظاهر العلوم، واستقرّ بها.

سعد بالحج والزيارة مع الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي وأعضاء أسرته الآخرين في سنة ١٩٥٦م، وكان يملك ذوقاً طيباً عالياً في الأدبين الفارسي والأردني، وكان يحفظ من الشعر الفارسي والأردني قصائد ومقطعات وأبياتاً مختارة، وكان قوي الذاكرة، وكانت حياته في غاية من البساطة والتواضع بحيث أنه لم يكن يستطيع أحد أن يعرف أنه يتقن اللغة الإنجليزية، وأنه درس في كلية عصرية. وكان الشيخ محمد إلياس يميل إليه ويعطف عليه، وأتيحت له فرص كثيرة لخدمة الشيخ محمد إلياس في مرض وفاته.

وكان الشيخ إنعام الحسن ابن الشيخ إكرام الحسن ممن أجازه الشيخ محمد إلياس، وكان قد تولى إمارة جماعة الدعوة والتبليغ بعد وفاة الشيخ محمد يوسف - رحمه الله - .

كان الشيخ فيض الحسن الابن الثالث للشيخ نور الحسن، وكان يعرف بمحمد أكبر، وكان قد ولد سنة ١٢٥٣هـ، وحفظ القرآن الكريم، وأخذ العلوم الدينية عن أبيه، وقرأ الفلسفة والمنطق على الشيخ فضل الحق الخيراآبادي، وبرع في الأدب العربي، وكان له يد طولى في المنطق والفلسفة، وظل أستاذاً في «جامعة عليجراه الإسلامية» من أول يومها إلى آخرها، وكان يقوم بتربية الطلاب كابنائيه وأحفاده، وكان يعرف بكرمه وعطائه، وتدينه وتورعه، وإقباله على العلم، وعكوفه على الدراسة. توفي في شهر شوال سنة ١٣١٣هـ ولم يتجاوز عمره الخمسين سنة، وله

تعليقات وشروح على «ديوان الحماسة» و«المقامات» للحريري، ورسائل عديدة مستقلة، وخلف ابنين، وهما الشيخ بدر الحسن، والشيخ علاء الحسن، وبنيتين.

وُلد الشيخ بدر الحسن سنة ١٢٧٧هـ، وحفظ القرآن الكريم، وتعلم اللغة العربية من أبيه، ودرس اللغة الإنجليزية في «جامعة عليجراه الإسلامية»، وظل مرتبطاً بها إلى آخر حياته، واشتغل بوظيفة رسمية بعد ما انتهى من دراسته، وأحيل إلى المعاش عن منصب القضاء الفرعي، وكان بارعاً في العلوم العربية ولا سيما في الأدب العربي، وكان دائماً يتلو القرآن الكريم سواء كان في بيته أم في المحكمة.

كان يحب العلم، ويميل إلى العلماء، ويصرف أوقاته في العبادة والتلاوة، ويقيم الليالي، أقام بمدينة «عليجراه» بعد ما استقال عن الوظيفة، وتوفي فيها سنة ١٣٤٠هـ، ولم يخلف إلا بنتاً وهي زوجة الشيخ نجم الحسن.

وُلد الشيخ علاء الحسن في عام ١٢٨٨هـ، وقرأ الكتب الدراسية الابتدائية على مشايخ أسرته، وتعلم اللغة الإنجليزية، وتولى منصباً رسمياً عالياً. كان كريماً تقياً، غيوراً أبنياً، لكنه رغم كل ذلك كان متواضعاً للغاية، ينفق أكثر ما يكسبه على الفقراء واليتامى والأرامل، بايع الشيخ عبد الرحيم الراثيفوري وتوفي سنة ١٣١٤هـ ببلدة «كاندهله»، وخلف ابناً هو ظهير الحسن، والتحق الشيخ ظهير الحسن بـ «جامعة عليجراه الإسلامية»، ونال منها شهادة الماجستير، لكنه لم يقبل منصباً رسمياً رغم سعة علمه، وحدة ذهنه، وفرط ذكائه، ونفوذ أصحابه، وسنوح الفرص الكثيرة له. وقضى حياته كلها في الدراسة والمطالعة، والدرس والإفادة وخدمة الناس ونصرة الدين، وكان مولعاً بدراسة الكتب الجديدة في كل علم وفن.

بايع الشيخ محمد إلياس، وشارك في الثورة التي وقعت في عام ١٩٤٧م، واستشهد وخلف بنتاً له وابناً يدعى الحافظ محمد فريد الحسن.

وكان الشيخ رياض الحسن ابن الشيخ نور الحسن الأصغر المدعو بمحمد سليمان ولد في عام ١٢٥٧هـ، وحفظ القرآن الكريم، وأخذ العلوم المتعارفة عن أبيه، وكان تقياً خاشعاً لله، وكان يتلو ثلاثة أجزاء من القرآن الكريم في صلاة التهجد رغم كبر سنه، ويعكف على الدراسة طول الليل، وله حاشية على «قصيدة البردة» باللغة العربية، وليس له أولاد.

الشيخ مظفر حسين الكاندهلوي:

كان الشيخ مظفر حسين ابن الشيخ محمود بخش ابن الشيخ شيخ الإسلام، لين الجانب، دمث الأخلاق، طيب النفس، صابراً على المكروه، محتسماً للأذى، مثابراً على الذكر والتسبيح، مكباً على الدرس والإفادة، زاهداً في الدنيا وراغباً في الآخرة، وكان له كعب عال في العلوم المعقولة والمنقولة ولا سيما في علم التفسير والحديث، توفي في شهر رمضان سنة ١٢٥٨هـ.

وُلد الشيخ مظفر حسين سنة ١٢٣٠هـ، وتلقى دراسته الابتدائية من عمه الفاضل المفتي إلهي بخش، ولم يكمل دراسته عليه إذ مات عمه، فأتلمذ على الشاه محمد إسحاق الدهلوي، وقرأ عليه ما بقي من الكتب الدراسية، وبايع الشيخ محمد يعقوب، ونال منه الإجازة، وورث عن أبيه الزهد في الدنيا، والبساطة في المعيشة، والاحتراز من الأثرياء وأصحاب الوجوه، وكانت ميزته الرئيسية التي تميزه عن غيره هي التورع الشديد والحذر البالغ في الأكل والشرب، وكان قد شاع في الناس أن معدته لا تقبل إلا الطيب من المأكول والمشروب، وكانت وقائع تواضعه واستقامته وصلواته متداولة على ألسن الناس، وكان يقضي ليالي رمضان كلها في العبادة والتلاوة، ولا يغمض عينيه طرفة، ولا يغفل عن الذكر ساعة، كان رقيق القلب، غزير الدمعة، تذرف عيناه خوفاً من الله سبحانه وتعالى.

وما قد قاله الشيخ رشيد أحمد الكنگوهي هو خير دليل على علو منزلته وسمو مكانته ورفعة شأنه، فقد قال:

«كان من تلاميذ الشيخ محمد إلياس ثلاثة رجال يمتازون بالتقى والعفاف والكرم والصلاح، وكان الشيخ مظفر حسين في مقدمتهم وعلى رأسهم، ويليهِ الشيخ عبد الغني، ثم الشيخ قطب الدين»^(١).

حكى عنه الشيخ محمود الحسن، أنه كان ذاهباً ذات يوم لبعض أعماله، فلقي في طريقه رجلاً مسناً يحمل على رأسه متاعه ولا يطيق حمله، وكان يسير ببطء من

(١) «الأرواح الثلاثة».

ثقل ما يحمله، فلما رأى الشيخ هذا المنظر تقدم إليه وأخذ منه متاعه وحمله على رأسه وبلغه إلى غايته، فسأله ذلك الرجل المسن: من أنت؟ وأين تسكن؟ فأجاب: إنني أسكن في بلدة «كاندهله»، ولم يذكر اسمه، فقال الشيخ: هناك رجل يقال له: مظفر حسين، وهو رجل له شأن عظيم، ووصفه بجلال الأعمال، وأسبغ عليه صفة من التقديس والجلال، ونزّهه عن كل ما يسيء إليه وينال منه، فقال له الشيخ مظفر حسين: إنه ليس فيه شيء يلفت النظر ويجلب له الشئ إلا أنه يصلي الصلوات المفروضة، فقال: إذا أنت لا تعرفه، أو تريد أن تحط من شأنه، فأجاب الشيخ مظفر حسين: إنني أقول حقاً، فغضب الشيخ وثار ثأثرته، وكاد الأمر يصل إلى مشادة إذ جاء رجل كان له سابق معرفة بالشيخ مظفر حسين، فقال للرجل: يا شيخ هذا هو الشيخ مظفر حسين بعينه، فعانقه واعتذر إليه وقبل ما بين عينيه، وجعل يبكي بكاءً طويلاً^(١).

وبالإضافة إلى ذلك تروى مئات من الوقائع التي تدل على بساطته وتواضعه وتورعه وحيطته، لا يستوعبها هذا الكتاب^(٢). كان لصحبته التركيز في النفوس، فمن جلس معه لا تفوته صلاة التهجد، حج ست مرات مشياً على الأقدام، ورحل إلى مكة المكرمة للزيارة الأخيرة لها سنة ١٢٨١هـ، وجمع نساء الأسرة بأسره قبل أن يغادر إلى الحجاز، وألقى كلمة أوصى فيها بتقوى الله عز وجل، وأصابه مرض فور وصوله إلى مكة المكرمة، ثم شفاه الله وعادت إليه صحته كاملة، فتوجه إلى المدينة المنورة فاعتل مرة ثانية، ومات في شهر محرم الحرام سنة ١٢٨٢هـ، ودفن بالبقيع.

علاقته بالسيد أحمد الشهيد وارتباطه بحركة الجهاد:

كانت علاقته ترتبط بالشيخ عبد العزيز الدهلوي وتلامذته الأفاضل، وأعضاء أسرته الشريفة ارتباطاً دينياً وروحياً، لكن لما توفي الشيخ عبد العزيز الدهلوي، وانتشرت دعوة خلفه الشاب انتشاراً باهراً، وطار صيته في الخافقين، وجعل العلماء والمشايخ في الهند ينضمون إلى مسلكه، وينخرطون في دعوته بصفة عامة، وكان المفتي الإسلامي بخش نفسه وأخوه من تلامذة الشيخ عبد العزيز الدهلوي.

(١) «الأرواح الثلاثة».

(٢) راجع للتفصيل: «الأرواح الثلاثة»، و«أحوال مشايخ كاندله».

وكان الشيخ مظفر حسين الكاندهلوي ممن تتلمذوا على الشيخ محمد يعقوب والشيخ محمد إسحاق، وكان السيد أحمد بن عرفان الشهيد من مسترشدي الشيخ عبد العزيز، فعلى أساس هذا الارتباط الوثيق، وعلى أساس أن السيد أحمد الشهيد كان شيخاً كبيراً، وكان صاحب طريقة في الهند، وكان قد رفع راية الجهاد ضد الإنجليز في هذه البلاد، وجاب في أغوارها وأنجادها، وارتاد مزارعها وحزونها لإعلاء كلمة الإسلام، ونشر الدعوة الإسلامية، ومقاومة التيارات الجارفة المعارضة للشرعية، ورحل إلى بلدة «كاندهله» أيضاً، والتقى بالمفتي إلهي بخش هناك، وبإيعه رغم كبر سنه وغزارة علمه وسعة نظره، ترجع قصة لقائه إلى سنة ١٢٣٥هـ، وكان لهذا اللقاء تأثير غامر على نفسه، وكان يجد لذة بذكر تلك القصة، ويغمره الشوق والهيام، وقد حكى قصة لقائه الأول مع الإمام الشهيد، وهي كما يلي:

«كان مما أنعم الله به عليّ أنني عندما سمعت شهرة السيد أحمد الحسيني وقصص فضائله وتوجيهاته، وحركته الإصلاحية والدعوية، وسرعة تأثيره، وعلمت أنه متبّع صادق لسيرة النبي ﷺ وسنته، استهوى قلبي واستمال نفسي واستبى لبي واستولى على مشاعري وأحاسيسي، وشغفت به قبل لقائه، وبلغ بي الشوق إلى أن نفذ صبري، وصرت كأني على أحر من الجمر لبرحاء الشوق والوجد».

وكان المفتي إلهي بخش في هذه الفترة قد نظم أبياتاً كثيرة في مدح الإمام السيد أحمد بن عرفان الشهيد، وألف كتاباً يلقي الضوء على طريقة أذكاره، وسماه بـ «ملهمات أحمدية»، والذي يصح أن يعتبر ملخصاً لكتاب «صراط مستقيم».

كان الشيخ أبو الحسن ابن المفتي إلهي بخش من المحبين للسيد أحمد بن عرفان الشهيد، والمقدرين له، والمولعين به، نظم قصيدة حافلة بعواطف الحب والحنان، والشوق والهيام، وذلك عندما عاد من مكة المكرمة بعد أداء مناسك الحج والزيارة، أقدم هنا معاني بعض أبيات هذه القصيدة التي وصف فيها السيد أحمد بن عرفان الشهيد فقال:

«لا أستطيع أن أصف هذا المجاهد الجليل والبطل العظيم؛ لأن قلبي ولساني يعجزان عن وصفه، والثناء على أعماله، والإشادة بفضائله، والإحاطة بمواهبه، هو

في الواقع عالم كبير، ومقدام باسل، يقول فضلاً، ويحكم عدلاً، فصيح الكلام، عفيف الطرف، بهي الطلعة، لئن الجانب، واثق بالله كل الثقة، يصبر على كل جفوة، ويحتسب في كل عمل، نسيج وحده في الحلم والأناة والتواضع ودماثة الخلق، والصدق والصراحة، والتجرد عن الدنيا، والتهالك على الآخرة، ميزته السماحة والعون، والبسالة والتواضع، والعفو والمسامحة، مفخرة للأمة الإسلامية، وبحر زاخر في الرغد والعطاء، وزهر باسم من أزهار حديقة النبي ﷺ، الدال على الخير، المرشد إلى سواء السبيل، جامع بين صفة الصديق سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه في الصدق، وصلابة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في الجهد والجد، وحياء عثمان بن عفان رضي الله عنه وعفته، وبطولة علي بن أبي طالب في الوعي والقال، عالي النسب، زينة الإسلام، جدير بالإمامة والزعامة، يصل نسبه إلى سيدنا وشفيعنا محمد عليه الصلاة والسلام^(١).

وبالإضافة إلى ذلك نظم قصيدة أخرى في استشهاد السيد أحمد الشهيد ومفارقتة للحياة، وهي قصيدة تُثير الشجون، وتُبكي القلوب، وتُسيل الدموع، وتدل على مدى ارتباطه بالسيد أحمد الشهيد وولائه الحميم له.

وكان ابنه الثاني الشيخ أبو القاسم قد بايع الشيخ السيد أحمد الشهيد، ولازم صحبته، وروى الشيخ أبو الحسن علي الحسن الندوي في الجزء الأول لكتابه الشهير الذي سماه بـ «سيرة الإمام السيد أحمد بن عرفان الشهيد»، قصة لقائه بالسيد أحمد الشهيد وضيافته ضمن وقائع زيارته لبلدة «دو آبه».

وكان من أحفاده الشيخ محمد مصطفى الجهنجانوي، والشيخ محمد صابر الجهنجانوي وكلاهما تتلمذا على المفتي إلهي بخش ورُبِّيَا في أحضانه، ولم يكونا مرتبطين بالسيد أحمد الشهيد ارتباطاً روحياً فحسب، بل سافرا معه ليخوضا في معركة الجهاد، واستشهد منهما الشيخ مصطفى، وعاد الشيخ محمد صابر، وقضى حياته كلها في الجهد والكفاح.

(١) سجل هذه القصيدة كلها الشيخ غلام رسول مهر في كتابه الشهير: «سيرة السيد أحمد بن عرفان الشهيد» ٢٤٢/١.

ومن أجل ذلك ترى أن هذه الأسرة الكريمة التي تسكن في بلدة جهنجانة، كانت معجبة بالسيد أحمد بن عرفان الشهيد، ومولعة بحركته، وكان يجري ذكره على لسان كل من ينتمي إلى هذه الأسرة الكريمة صغيراً كان أو كبيراً، رجلاً كان أو امرأة. يكتب الشيخ أبو الحسن علي الحسيني الندوي في كتابه «الشيخ محمد إلياس ودعوته الدينية»:

إن وقائع أسرة الشيخ عبد العزيز والسيد أحمد بن عرفان الشهيد الغربية، وقصصها الحبيبة المؤثرة، أصبحت أحداثاً في النوادي والمجالس داخل البيت وخارجه، يتسامع بها الناس ويتحدثون فيها، وكانت الأمهات والجذات لا يحكين لأبنائهن وأحفادهن حكايات القروء والبلغاوات، إنما كن يحكين قصص الإيثار والتضحية، والمغامرة والمخاطرة، والبطولة والدعوة التي تنفخ فيهم روح المقاومة والنزال، وتوقظ فيهم الوعي الديني، وتُنشئ فيهم العاطفة والغيرة، وكان لم ينقُص على هذه الوقائع المثيرة للدهشة والاستغراب فترة طويلة، وإنما كانت وقائع شهداها الشيخ مظفر حسين، وحكايات سمعتها ابنته.

إن الارتباط بالشيخ عبد العزيز، والاتصال بحركة الجهاد للسيد أحمد الشهيد، والاندماج في رسالته والاستمساك بغرضه، هي التي زادت هذه الأسرة إيماناً وحماساً وقوةً ونشاطاً، وجعلت هذه الأسرة رائدة لحركة شاملة قوية مؤثرة، تلمس آثارها ويسمع صداها في العالم في هذا الوقت في أنحاء العالم كله.

نساء الأسرة:

كان مما أفاء الله على هذه الأسرة من الخير والبركة أن رجالها لم يكونوا وحدهم يمتازون في العلم والدين، بل كانت النساء أيضاً يتميزن بالعلم والعمل، والزهد والورع، وكانت هذه الأسرة التي تقيم في بلدة «كاندهله» لا تزال مركزاً ومصدراً للصالح والخير منذ مدة طويلة، وكانت النساء يشتغلن بتلاوة القرآن الكريم في النوافل في البيت ويسمعنه خلف أقاربهن وأهل عشيرتهن، وتتجلى الأنوار وتنزل السكينة والرحمة، ويزداد كل شيء بهاء ونضارة في شهر رمضان المبارك لكثرة ما يتلى فيه من آيات القرآن الكريم، فلا تجد ناحية من نواحي البيت إلاً ويتلى فيه القرآن

الكريم، وتستمر هذه السلسلة وقتاً طويلاً^(١)، وكنَّ قد بلغن من علمهن وذوقهن إلى أن كن يتذوقن قراءة القرآن الكريم ويتلذذن بها، ويهتزن بالاستماع إليها ويطربن، وكنَّ إذا دخلن في الصلاة لا يشعرن بحادث يقع في بيوتهن أثناء الصلاة، ولا يشعرن بمن يأتي ويذهب.

وكان المنهج الدراسي لهن، القرآن الكريم وترجمة معانيه وتفسيره بالأردية و «مظاهر حق»، و «مشارك الأنوار»، و «حصن حصين»، ونال هذا المنهج الدراسي رواجاً وقبولاً في هذه الأسرة^(٢).

وكانت من أبرز نساء هذه الأسرة التي تشبه السيدة رابعة البصرية في السمات والهدي، والخلق والسيرة، بنت الشيخ مظفر حسين، وكانت تشتغل دائماً بالتسبيح والذكر والدعاء وأعمال الخير المختلفة، وقال الشيخ محمد إلياس مرة: إنني رأيت بريق صلاة الشيخ رشيد أحمد الكنگوهي في صلاة أمي، وكان من عاداتها أنها لم تكن تطلب الطعام، فإذا أحضره أحد، ووضع بين يديها أكلت، وإلاً صبرت وقضت اليوم بكامله طاوية، وقال لها أحدهم ذات يوم: كيف تقضين يومك بدون أكل، ألا يصيبك الضعف والوهن؟ فقالت: أستمد القوة من ذكر الله عز وجل والتسبيح له، والإنابة إليه، وكذلك كانت ابنتها الفاضلة التي يقال لها: «صفية بي»، فقد حفظت القرآن الكريم عن ظهر قلب، وكانت تختم القرآن كل يوم في شهر رمضان، وتضيف إلى ذلك عشرة أجزاء أخرى، وكان من عاداتها أنها كانت تتلو القرآن الكريم بلسانها وهي مشغولة بأعمال المنزل من الطبخ والخبز، والتنظيف، والخياطة والتفصيل والتطريز وما إليها^(٣).

الشيخ أبو القاسم وأولاده:

كان الشيخ أبو القاسم ابن المفتي إلهي بخش قد قرأ سائر الكتب الدراسية على أبيه، وتولى منصباً رسمياً، ولما قام السيد أحمد بن عرفان الشهيد بالزيارة لمنطقة

(١) كما رواه الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي.

(٢) «الشيخ محمد إلياس وحركته الدينية».

(٣) «الشيخ محمد إلياس وحركته الدينية».

«دو آبه» التقى به، وباع على يده، وتوفي سنة ١٢٥٧هـ، وخلف أربعة أبناء، هم:
(١) الشيخ محمد إسحاق، (٢) الشيخ محمد يعقوب، (٣) الشيخ أحمد علي،
(٤) الشيخ عبد الحق. . ولم يرزق الشيخ محمد يعقوب، والشيخ أحمد علي ولداً.

وكان للشيخ عبد الحق ابن يقال له: نصير الحق، وكان خليعاً ماجناً في بداية أمره، ثم تاب على يد الشيخ رشيد أحمد الكنگوهي، وباعه، وارتقى إلى المنزلة الرفيعة بالجهد والكفاح، فأجازه الشيخ رشيد أحمد الكنگوهي.

ورُزق للشيخ محمد إسحاق ابنان: وهما الشيخ محمد إسماعيل، والشيخ محمد أحسن، وكان الشيخ محمد إسماعيل ورعاً تقياً، عكوفاً على القراءة والكتابة، وقد نقل «كتاب الشفاء» للقاضي عياض إلى اللغة الأردية. وكان له ابن يدعى محمد إدريس، وكان محدثاً جليلاً، وعالمًا شهيراً، شرح كتاب «مشكاة المصابيح»، وهو كتاب قيم، طبع في دمشق، ونال قبولاً ورواجاً في الأوساط العلمية باسم «التعليق الصبيح على مشكاة المصابيح»، وعيّن رئيس قسم التفسير في دار العلوم بديوبند، ثم تولى منصب رئاسة الحديث في الجامعة الأشرفية في مدينة لاهور بباكستان.

وكان الشيخ محمد أحسن ابن الشيخ محمد إسحاق من مسترشدي الشيخ خليل أحمد السهارنفوري، واتصل بعد وفاته بالشيخ حسين أحمد المدني للاسترشاد، وترك ولدين: أولهما الشيخ حسن، وثانيهما محمد.

وموجز القول أن كل فرد من أعضاء هذه الأسرة رجلاً كان أم امرأة كان يمتاز بالعلم والدين، ويفوق أقرانه في الخير والصلاح، إنها هي السلسلة الذهبية، وكل فرد من أفرادها كان كالشمس التي تبدد الظلمات وتبهر السبل.

الشيخ محمد ساجد الجهنجهاونوي:

ما سبق من الأحوال لهذه الأسرة الكريمة العريقة في الدين تتصل من فروع هذه الأسرة، التي كانت تسكن في بلدة «كاندله» أما الآن فأذكر أحوال فروع من هذه الأسرة التي تسكن في «جهنجهان»، وهو فرع الطبيب محمد شريف، وكان الشيخ محمد ساجد ابن الشيخ محمد شريف (م ١١٢٠هـ) رجلاً فاضلاً، وعالمًا كبيراً، وطبيباً حاذقاً، وقد نقل المفتي إلهي بخش كثيراً من فتاواه، وكان الملك المغولي

شاه جهان قد عرض على جده محمد أشرف ضيعة واسعة فلم يقبل، بل اعتذر إليه على عادة الصالحين، ثم عرضها الملك على الشيخ محمد ساجد حسين فقبلها، فكان بذلك صاحب الرياستين، ومن مؤلفاته كتاب «عجائب الغرائب»، وكان أديباً أريباً، وشاعراً له ذوق رفيع، ورزق ولداً يسمى الغلام محيي الدين وابنه الحكيم كريم بخش، وخلف كريم بخش ولدين، وهما الشيخ غلام حسن والشيخ غلام حسين.

الشيخ محمد صابر، والشيخ محمد مصطفى الشهيد، وأولادهما:

تزوج الشيخ غلام حسن مع بنت المفتي إلهي بخش، ورزق منها ولدين: الحافظ محمد صابر، والحافظ محمد مصطفى الشهيد.

وكان الشيخ محمد صابر رجلاً زاهداً عابداً ورعاً خاشعاً لله ومبتهاً إليه، خاض معركة الجهاد مع السيد أحمد بن عرفان الشهيد، وقضى حياته كلها في مساعدة حركته ونصرتها، وكان ابنه على خطى أبيه في الزهد والورع، كان يغلبه شوق الجهاد في سبيل الله، وقد كُتف بصره في آخر أيامه، وكان لسانه يردد هذه الكلمة في كل وقت: «ناولني البندقية، أنا ذاهب إلى ساحة الجهاد».

خلف ولدين: (١) الحافظ محمد يوسف، (٢) الحافظ محمد يونس، ومنحهما الله سبحانه وتعالى قدراً كبيراً من الصلاح والتقوى، ونصيباً وافراً من العلم والدين، وترجمتهما في كتاب «مشايخ كاندله»، يقول المؤلف:

«قضى هذان الرجلان أيامهما الأولى خارج هذه البلدة لاشتغالهما بالوظيفة الرسمية، ثم عادا إلى بلدة «كاندله»، وأقاما بها، وكانا على منهج سلفهم الصالحين في الزهد والتقوى، وكانا يتميزان بحسن الظرف، وعذوبة الحديث، والنبيل والشرف، وبداهة الفكر، وحسن المحاضرة، والحرص الشديد على الخصال الإسلامية، كصلة الرحم، ونصرة المنكوب، ونجدة البائس والمعتقى، والنصح للجميع، والإكثار من تلاوة القرآن الكريم والمواظبة على الذكر والتسبيح. وللحافظ محمد يوسف ثلاث بنات من زوجته الأولى، تزوج الشيخ محمد يحيى الكاندهلوي بإحداهن، وبعد وفاتها تزوج بالأخرى، وأنجبت الثانية الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، ومن الأولى ولداً وبتناً.

رزق الحافظ محمد يونس خمسة أبناء: (١) الحافظ محمد عمر، (٢) الحافظ محمد عثمان، (٣) الشيخ محمد شعيب، (٤) الحافظ محمد داود، (٥) الحكيم محمد يامين.. رحل الحكيم محمد يامين إلى مكة المكرمة واستوطنها، وهاجر الآخرون إلى باكستان وأقاموا بها.

كان الحافظ محمد مصطفى الشهيد حفيد المفتي إلهي بخش، يسكن في بلدة «كاندهله»، وكان يعرف بعلو كعبه في العلم والفضل، وشغفه بالفنون الحربية، وحنينه إلى الجهاد، واشتغاله بالرياضة والعبادة، وتفوقه في الفتوة والفروسية، انضم إلى حركة السيد أحمد بن عرفان الشهيد، ولازم صحبته وخاض معه معركة الجهاد، وقضى نحبه في سبيل الله، وقد رزق ولداً سمي الحافظ عباد الله، ولم يرزق الحافظ عباد الله ولداً.

* * *

الشيخ محمد إسماعيل

ولد للشيخ غلام حسين بن كريم بخش ولدان: (١) الشيخ محمد إسماعيل، (٢) الشيخ محمد إسحاق.. وقد ولد الشيخ محمد إسماعيل في بلدة «جهنجهانه»، وكان من عباد الله الصالحين الذين أكرمهم الله بذوق الطاعة والعبادة، والمجاهدة والرياضة، والصبر والاحتساب، والقناعة والتوكل، والإيثار والتواضع، أراد الشيخ محمد إسماعيل أن يأخذ الطريقة عن الشيخ رشيد أحمد الكنگوهي فأبدى نيته له، وعرض عليه نفسه، فقال له الشيخ: أنت لا تحتاج إلى ذلك؛ لأنك اقتنيت من ثمار هذه الطريقة دون أن تبذل جهدك للحصول عليها، كان يشتغل دائماً في العبادة والتلاوة والذكر والتسبيح، وكان يخدم الناس ويواسيهم ويردد لسانه في كل وقت الأدعية الماثورة عن النبي ﷺ.

يقول عنه مؤلف كتاب «الأرواح الثلاثة»: كان كثير العبادة، دائم الذكر، بالغ التواضع، مداوماً على الأذكار التي وردت عن النبي ﷺ. ويقول عنه نجله الشيخ محمد إلياس: كان يعكف على الذكر والعبادة، ويستبق إلى خدمة الغرباء والأجانب، ويشتغل بتعليم مبادئ الدين، ويكثر من تلاوة القرآن الكريم، وكان قد بلغ غاية في

التواضع، فإذا رأى شخصاً يحمل الأثقال على ظهره أو رأسه أسرع إليه وحمل عنه ما يحمله، وكان ينزع الدلاء بيده ويسقي الناس من مائه، ثم يصلي ركعتين، ويرفع يده، ويشكر ربه على أنه أتاح له هذه الفرصة لخدمة عباده، وكان من عاداته أنه يحضر الأباريق في الحفلات الشعبية ليتوضأ بها الناس، ويوفر لهم أسباب الراحة، ويفعل كل ذلك ابتغاءً لوجه ربه، وتقرباً إليه، وكان من أعز أمانيه رعي الغنم وتلاوة القرآن الكريم.

وكان لصحبته أثر كبير في النفوس، من جالسه أو بايعه تغيرت حياته وتحسنت أحواله، وتبدلت ميوله وأهواؤه، ويتجلى فيه الصلاح والكرامة، وما كتبه مؤلف «أحوال مشايخ كاندله» عن تأثير صحبتته هو أصدق دليل على ذلك، فيقول: وجدت كل من لقينته من معارفه ديناً رغم ما بينهم من خلاف في العقيدة والسلوك والمنهج، ويقول عنه: ينعكس نور المعرفة على جبينه، إنه المتيّم الصادق، وصاحب الخلق الحسن، صدره عامر بمحبة الله، وتباري ذرى غبار قدمه أشعة الشمس، برؤيته يتجدد ذكر الله، والجلوس في مجلسه يرشد القلب إلى سبيل الله.

وُلد للشيخ محمد إسماعيل من زوجته الأولى الشيخ محمد، ثم توفيت زوجته، فتوجه إلى بلدة «كاندله» للمشاركة في عرس سنة ١٢٨٥هـ، وكانت «كاندله» مقر فرع من فروع أسرته منذ زمن بعيد، وألقى بهذه المناسبة كلمة بليغة مؤثرة، وكانت «أمي بي» بنت الشيخ مظفر حسين على قيد الحياة، وسمعت هذه الكلمة وتأثرت بها تأثراً بالغاً، وجمعت أعضاء أسرتها وقالت: كان يؤسفني أن الاهتمام بالعلم والدين في هذه الأسرة أخذ في الانحطاط، وكنت أخشى أن تنقطع صلتها عن الدين انقطاعاً كلياً، وأرى أن الشيخ محمد إسماعيل رجل متدين، وتدل موعظته على غزارة علمه، وفهمه الصحيح للدين، فأريد أن أزوج بنتي الكبرى به لترسخ قواعد العلم والدين في هذه الأسرة بهذا الارتباط، ولم يوافق أعضاء الأسرة الآخرون على هذا الاقتراح للفتاوت البالغ في العمر بينهما، فقد كان الشيخ محمد إسماعيل كبير السن، وكانت بالنسبة له صغيرة، لكنها لم تحفل بهذا الفتاوت، وألحت على هذا الزواج، وأخيراً زوجت ابنتها بالشيخ محمد إسماعيل، وزُفَّت إلى زوجها في نفس اليوم.

وبفضل هذا الزواج تغيرت حالة هذه الأسرة التي كانت تبتعد عن الدين والعلم شيئاً فشيئاً، وسرت حياة جديدة حياة العلم والدين، حياة الطهر والعفة، حياة الزهد والقناعة، حياة التواضع والإيثار، حياة الجهد والكفاح، حياة المقاومة والنزال، وارتبط الشيخ بهذه الأسرة، وتوثقت صلته بها بحيث أن صار الكاندهلوي بدلاً من الجهنجانوي واستوطن بلدة «كاندهله»، وبنى فيها بيتاً صغيراً له، وقامت بين هاتين الأسرتين صلة لم تنقطع بعد.

ذكر الشيخ احتشام الحسن الكاندهلوي هذا الزواج في شيء من التفصيل فيقول:

في الحقيقة كان ذلك من بصيرة جدتي «أمي بي» ومآثرها العليا التي غيرت اتجاه أسرة المفتي إلهي بخش، وحولها إلى طريق الرشاد والتقوى، ولم يأل الشيخ محمد إسماعيل وأبناءؤه الصالحون جهداً في رعاية شؤون هذه الأسرة، ولا تزال هذه الرعاية جارية^(١).

الاستغناء المثالي:

سبق في الصفحات السابقة أن الملك شاه جهان كان قد عرض على الحكيم محمد أشرف ضيعة، واعتذر إليه الشيخ ولم يقبلها، وضرب بذلك مثلاً رائعاً للاستغناء وعدم العناية بالمال، ثم منح الملك هذه الضيعة الشيخ ساجد حسين فقبلها لبعض مصالح دينية، وكان يستطيع أن يتصرف في هذه الضيعة، ويستعملها في مصالح ذاتية، ويتفجع بها في أيام الشدائد والمحن، لكنه لم يفعل من ذلك شيئاً؛ لأنه كان يستوحش من الدنيا وزهرتها، وكان مجبولاً على البساطة والسذاجة، ومطبووعاً على الاقتصاد في المعيشة، فصرف نظره عن هذه الضيعة، وهجر تلك البلدة التي كانت فيها الضيعة، وقضى حياته كلها في بلدة «كاندهله» صابراً محتسباً متوكلاً على الله واثقاً برحمته ومؤمناً بنصرته.

(١) «أحوال مشايخ كاندهله» ص (٢١٢).

بلدة «ميوات» وعلاقة الشيخ محمد إسماعيل بأهاليها :

جلس الشيخ محمد إسماعيل للدرس والإفادة بعد ما أكمل دراسته العربية، وتولى تدريس أبناء الملك المغولي بهادر شاه ظفر المرزا إلهي بخش سنة ١٨٥٥م، ثم تعرض المرزا إلهي بخش لبعض المشاكل والمصائب بعد فشل ثورة سنة ١٨٥٧م، فسأل الشيخ أن يدعو له؛ لأنه كان يعتقد أنه ممن يستجاب له، فدعا الشيخ له بالبركة، فأنقذه الله مما كان تورط فيه من ضيق وحرَج، فأتى بمعاشه وقدمه إليه، فأخذ منه قدرًا حقيرًا، وهذا راتبه الذي كان يقبض به كل شهر.

هاجر المرزا إلهي بخش من دلهي إلى قرية تسمى «نظام الدين»، واستوطنها، وبنى فيها بيتًا للشيخ محمد إسماعيل وبيتًا لأهل عشيرته، وبنى بجانبها مسجدًا صغيرًا، وأطلق عليه اسم «بنگله والي مسجد»، وتلمذ المرزا إلهي بخش عليه، وشرع في قراءة القرآن الكريم في شيخوخته، وختمه في حياته، وكان يحمل للشيخ محمد إسماعيل الحب والتقدير، ويأتي إليه بالغداء والعشاء، وذات يوم حان وقت الصلاة فخرج الشيخ محمد إسماعيل من المسجد ليبحث عمن يصلي معه فرأى رجالًا كانوا يأتون من بلدة «ميوات»، ويذهبون إلى مدينة دلهي، فسألهم الشيخ: لماذا تذهبون إلى دلهي؟ فقالوا: نريد أن نعمل هناك، فسأل الشيخ: كم تجدونه هناك من الأجرة؟ فأجابوا ما أجابوا، فقال لهم الشيخ: إذا حصلتم على مثل هذه الأجرة في هذا المكان، فهل تذهبون إلى دلهي؟ فقالوا: لا، فأتى الشيخ بهم إلى المسجد، وجعل يعلمهم الصلاة، ويقرؤهم القرآن الكريم، وكان يشغلهم في هذه الأمور الدينية طول النهار، ويعطي أجرهم في المساء، فتعلم هؤلاء الأجراء الصلاة في أيام عديدة، وتعودوا عليها، وتركوا أجرهم، وعمر بهم هذا المسجد، ثم أنشئت فيها مدرسة، فكانوا من أوائل المتعلمين فيها، وكان من عادة الشيخ محمد إسماعيل أن يرد هؤلاء الأجراء إلى بلدة «ميوات» بعدما تعلموا المسائل الدينية، والأحكام الشرعية الأساسية، ليخدموا الدين في منطقتهم، وهكذا فتح الطريق لأهل بلدة «ميوات» وجعلوا يختلفون إلى هذه المدرسة، ويتعلمون فيه الإسلام، ونال بذلك الشيخ محمد إسماعيل ثقتهم، وصار موضع احترام وتقدير.

وفاته :

أصاب الشيخ محمد إسماعيل مرض، فانتقل إلى مسجد يقع على مفترق الطرق الذي يسمى بـ «بهرام» بمدينة «دلهي»، ومات هناك في ٤/ شوال سنة ١٣١٥هـ، وألقى الله سبحانه وتعالى في قلوب الناس الحب له، واتفق الناس على عظمته وزهده وورعه، وصفاء قلبه، وطهارة نفسه، وكان قد طبع على المسالمة والمهادنة، ولم يشتك منه أحد أنه ظلمه أو اعتدى عليه، كان يقيم في دلهي وقتئذ علماء كانت تختلف عقائدهم ووجهات نظرهم، ويوجد فيها جمعيات ومنظمات كانت تتضارب أفكارها وآراؤها، وبلغ بهم العداء أنهم كانوا يتحاربون فيما بينهم، وكان لا يصلي بعضهم خلف بعض، لكن شخصية محمد إسماعيل كانت شخصية وحيدة يثق بها الناس، ويحملون لها الحب والتقدير، ولا يتنازعون في شأنها، ولذلك تجمع الناس لتشييع جنازته تجمعا كبيرا، يندر نظيره في الماضي القريب.

توفي الشيخ محمد إسماعيل ودفن في ناحية من نواحي «بنكله والي مسجد» بحي «نظام الدين»، وكان بين المكان الذي توفي فيه، والمكان الذي دفن فيه مسافة ثلاثة أميال، وكان الزحام يتضخم ويزداد في هذا الطريق الطويل، وربط القصب بجانبه سرير جنازته، ليسهل على الذين يشيعونه حمل سرير جنازته، وكان الناس يتهافون عليه، ولم تسنح لكثير منهم فرصة ليضع سريره على عنقه. وكان يشتمل هذا الحشد الكبير على طبقات مختلفة من الناس، وكان منهم العلماء والمشايخ، والأساتذة والموظفون والعاملون، فلما وصلت الجنازة إلى حي «نظام الدين» خاف الناس أن يحدث خلاف في مسألة الإمامة لصلاة الجنازة، فيكتب الشيخ محمد يحيى الكاندهلوي عن ذلك، فيقول:

كان شقيقي الأكبر الشيخ محمد طاهر رقيق القلب، كثير التواضع غزير الدمعة، فخشيت أن يشير هو نفسه إلى أحد من المشايخ ليصلي على الجنازة، ويعترض على إمامته رجال، أو يقترح أحد اسم إمام آخر، وقد يكون هذا الإمام أيضاً موضع خلاف، ويؤدي ذلك إلى حدوث نزاع ديني أو صراع حزبي، ويترك في النفوس أثراً سيئاً، فتقدمت وقلت: إنني أؤم صلاة الجنازة، وقبل جميع الناس هذا الاقتراح،

وصلوا خلفي، ولم يحدث أي نزاع ولا خلاف، وأقيمت صلاة الجماعة عدة مرات للحشد الكبير، فتأخر لذلك دفنه، وشعر خلال هذه الفترة أحد أصحاب البصيرة والإدراك النفسي كأن الشيخ محمد إسماعيل يقول:

«ودّعوني بسرعة، إنني أستحي من طول انتظار رسول الله ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم أجمعين».

الشيخ محمد صاحب:

ولد للشيخ محمد إسماعيل من زوجته الأولى ابن سمّاه «محمد صاحب»، وكان يمتاز بالحلم والتواضع، والجود والسخاء، والعطف والكرم، والإنابة إلى الله والتضرع إليه، يبدو وكأنه ملك جاء في صورة بشر، وتمثله هذه الآية الكريمة تمثيلاً صادقاً وهي: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾.

كان طويل الصمت، محسناً لا يسيء إلى أحد، رشيد الأمر، عفيف الطرف، مقبلاً على ربه، خاضعاً لأوامره، كان يسكن في المسجد الذي يقع في حي «نظام الدين» محل أبيه، وكانت في هذا المسجد مدرسة أنشأها أبوه، وكان معظم الطلاب في هذه المدرسة من بلدة «ميوات»، وكان كثير من الناس يأتون إليه من «دلهي» و «ميوات» ليسترشدوه، ويتوبوا على يده، وكانت عواطف المحبة والسماحة تجيش في قلب كل من يتصل به، ويتردد إليه، وكان يعد من المشايخ الذين يتجدد ذكر الله برؤيتهم، وكان يعظ الناس ببساطة، وبأسلوب سهل مفهوم لدى الجميع، يبدو كأنه يتكلم ولا يخطب وكان لكلامه تأثير على النفوس، وتحريك للعواطف، وإثارة للمشاعر والأحاسيس، كان يوقظ الوعي، ويُبكي الفؤاد، ويسبي اللب، وكان يروي خلال موعظته الأحاديث المتعلقة بالزهد والخلق ويشرحها بشيء من التفصيل، أخذ الحديث عن الشيخ رشيد أحمد الكنگوهي، وكان يلزم صلاة الليل، فلم تفته صلاة التهجد مدة/ ١٦ سنة قبل وفاته، وكان مواظباً على الصلاة بالجماعة، فصلى بالجماعة إلى آخر يومه.

ولما أصيب بالمرض انتقل إلى مسجد يقع في حيّ «قصاب پوره» بدلهي للمعالجة، فتوفي ليلة الجمعة في ٢٥/ربيع الثاني سنة ١٣٣٦هـ، وكان يصلي الوتر، وشيع جنازته حشد كبير، ودفن في حيّ «نظام الدين» بجانب أبيه.

الشيخ محمد يحيى الكاندهلوي :

ولد الشيخ محمد يحيى الكاندهلوي ابن الشيخ محمد إسماعيل الكاندهلوي يوم الخميس في شهر محرم الحرام سنة ١٢٨٧هـ الموافق ٢٣ مارس/آذار سنة ١٨٧١م، وكان دمث الأخلاق، خفيف الروح، حسن المحاضرة، متوقد الذكاء، عالي الهمة، حفظ القرآن الكريم وهو لم يجاوز السابعة من عمره، أمره أبوه بأن يختم القرآن الكريم كله في النهار ثم ينصرف إلى أي شغل، فيقول الشيخ محمد يحيى الكاندهلوي عن نفسه: كنت أبدأ قراءة القرآن الكريم بعد صلاة الفجر فوق سطح البيت، ولا أفطر إلا بعد ما أختمه، وكان من عادته أنه كان لا يستريح بعد ما يختم القرآن الكريم، بل كان يدفعه شغفه بالعلم إلى الانغماس في الدراسة فيكب عليها بنشاط وإمعان، فيقول هو نفسه:

إنني أختتم القرآن الكريم قبل صلاة الظهر في غالب الأحيان، ثم أتغدى وأتعلم اللغة الفارسية في وقت الفراغ برغبتى.

وكان أبوه ورعاً متزهداً شغوفاً بالعبادة، يحيى الليالي، وكان يوقظ ابنه الشيخ محمد يحيى والشيخ محمد صاحب في آخر الليل لصلاة التهجد ليتعوّداً عليها، وكان شقيقه الأكبر محمد صاحب يصلي ثماني ركعات طويلة في النوافل، لكن الشيخ محمد يحيى الكاندهلوي كان يصلي ركعات قصيرة في النوافل، ويقبل على المطالعة والدراسة، ويكب عليها.

كان الشيخ محمد يحيى الكاندهلوي يقول: إن أبي كان يهتم بالوضوء والذكر اهتماماً كبيراً، ويؤكد علينا أيضاً أن نهتم به، لكنني كنت مولعاً بالعلم والدراسة، فأحفظ كلمات اللغة العربية والفارسية وأنا أتوضأ، ويقول والدي عندما يسمع مني هذه الكلمات: لعلك تقرأ الأدعية المأثورة للوضوء.

إن هذه الحياة العلمية التي قضاها الشيخ محمد يحيى الكاندهلوي حياة كان من حقها أن يغتبط بها العلماء والأساتذة فضلاً عن طلاب المدارس الدينية، فينبغي أن يطلع العلماء والطلبة على جوانب حياة الشيخ محمد يحيى الكاندهلوي العلمية والدينية والدعوية، ويجعلوها نموذجاً لأنفسهم، ويروا كيف درس الشيخ محمد يحيى الكاندهلوي، وكيف طالع الكتب، وكيف صرف أوقاته، وأين صرف.

يقول الشيخ محمد يحيى الكاندهلوي عن دراسته للأدب: إنني قرأت المقامات للحريري على أستاذي في الأدب، وقرأتها في الطريق المؤدي إلى بيته، كنت أذهب معه إلى بيته كما أمرني به.

وكانت براعته في العلوم المعقولة والمنقولة في صغر سنه تبعث على الدهشة والاستعجاب، اعترف بها كبار العلماء في عصره، وكان يعتز كبار العلماء بلقائه والتحدث معه في الموضوعات العلمية، وكانت له اليد الطولى في الأدب العربي، وكان مجيداً في النظم والشعر معاً.

سافر إلى بلدة «كنكوه» في شوال سنة ١٣١١هـ ليأخذ الحديث عن الشيخ رشيد أحمد الكنگوهي، وذلك لأن شقيقه الأكبر قد قرأ كتب الحديث عليه، فرحل إليه ليُتلمذ عليه، وكان الشيخ رشيد أحمد الكنگوهي مصاباً ببدء نزول الماء في تلك الأيام، وكان قد ترك التدريس والإفادة منذ مدة، فأقام الشيخ محمد يحيى الكاندهلوي ببلدة «كنكوه» مدة طويلة، وكان يلزم صحبته ولا يغادر ذلك المكان ساعة حتى تصدى الشيخ رشيد أحمد الكنگوهي للتدريس، يقول الشيخ عاشق إلهي في كتابه «تذكرة الخليل»:

جلس الشيخ رشيد أحمد الكنگوهي للتدريس بعد فترة طويلة نظراً إلى رغبة الشيخ محمد يحيى الكاندهلوي الشديدة، بأمر من الشيخ خليل أحمد، وكان هذا الدرس الدرس الأخير له، وكان الشيخ رشيد أحمد يعرف شغف الشيخ محمد يحيى واجتهاده في الدرس، لا يدرس إلا إذا حضر الشيخ محمد يحيى الكاندهلوي.

وكان الشيخ رشيد أحمد الكنگوهي يحبه، ويثق به، فإذا خرج من داره لشغل كان يبعث قلقه وهمه، وكان يقول: إن الشيخ محمد يحيى عكازتي، كان من عادة

الشيخ محمد يحيى الكاندهلوي أنه يسجل ما يلقي إليه الشيخ رشيد أحمد الكنگوهي من الدرس بعد ما يعود إلى مقره، فصارت تعليقاته على كتب الحديث الشريف شرحاً ينذر وجوده، وقد لازم الشيخ رشيد أحمد الكنگوهي اثنتي عشرة سنة بكاملها، ونشأ في مهد عطفه وكرمه وحنانه ولطفه، ولم يغادر بلدة «كنگوه» إلا بعد وفاته. وكان الشيخ خليل أحمد يتمنى منذ أيام أن ينضم الشيخ محمد يحيى الكاندهلوي إلى هيئة التدريس في مدرسة مظاهر العلوم بـسهارنفور، ويتولى تدريس الحديث فيها؛ لأنه جرب ذكاه وفطنته حينما كان يدرس في دلهي، فدعاه لعدة أيام، وألح عليه أن يقيم بها، فالتحق بمدرسة مظاهر العلوم في شهر جمادى الأولى سنة ١٣٣٨هـ، وتولى تدريس الحديث الشريف فيها، واشتغل بهذا المنصب الجليل طول خمس سنوات متطوعاً، أنشأ مكتبة تجارية ليكتسب منها، وكان يعمل فيها بنفسه، وكان بكاءً يبكي في ظلام الليل ويناجي ربه ويتضرع إليه، وكان يلقي كل ما يلقيه بوجه طلق باسماء، ويدخل السرور على أصحابه بحسن ظرفه وفكاهته.

كان طلق الوجه، كريم المحيا، غزير الدمعة، عفيف اللسان، رقيق القلب، ويسكن كرجل عادي ببساطة، وكان له غرام شديد بالقرآن الكريم، يكتب الشيخ عاشق إلهي أن الشيخ محمد يحيى الكاندهلوي عندما وصل إلى بلدة «ميرتها» ليصلي بالتراويح في شهر رمضان المبارك على دعوة مني، كان يختم القرآن كله في تنقلاته طول النهار ويكون على لسانه السورة الأخيرة للقرآن الكريم لدى غروب الشمس، فلما نزل من القطار حان وقت صلاة العشاء، وكان دائم الوضوء فتقدم إلى المحراب، وقرأ عشرة أجزاء في ثلاث ساعات دون تلكؤ وتلعثم، يبدو كأن المصحف الكريم مفتوح بين يديه وهو يقرأ فيه، وغادر إلى بلدته بعد ما ختم القرآن الكريم في اليوم الثالث، ولقوة ذاكرته كان لا يحتاج إلى سامع.

يقول عنه الشيخ احتشام الحسن في كتابه «أحوال مشايخ كاندهله»: كان من عادته أنه يأتي إلى بلدة «كاندهله» ليصلي بأمه وجدته من الأم في رمضان، ويعود إلى بلده بعد أن يختم القرآن كله في ثلاث ليال، وكان قد ختم القرآن الكريم كله في ليلة واحدة في السنة التي توفي فيها.

وكان بالإضافة إلى شغفه بتلاوة القرآن الكريم وتعليم الحديث الشريف حريصاً على مواساة الناس ومساعدة ذوي الحاجة، والإحسان إلى الضعفاء والغرباء، والإنفاق على اليتامى والأرامل، وكان يخفي ذلك كله، فلا يعرف أحد، وقد بلغ من بساطته وغنى قلبه أنه يعيش بالكفاف، ولا يدخر شيئاً، ولا يمسك من ماله شيئاً، بل يصرف على الفقراء والمساكين وذوي الحاجة، وإن لم يسعه ماله اقترض لمساعدتهم، ولما توفي خلف قرصاً يبلغ ثمانية آلاف روبية، ولم يعرف أحد أين أنفق هذا المبلغ، أصيب بمرض الكوليرا في ٨/ من ذي القعدة سنة ١٣٣٤هـ ولحق بالرفيق الأعلى، ولم يطل مرضه إلاّ ساعات، ودفن في مدينة «سهارنפור» في مقبرة «الحاج شاه» التي تضم قبور كبار العلماء وفي مقدمتهم الشيخ محمد مظهر مؤسس مدرسة مظاهر العلوم.

الشيخ محمد إلياس رَحِمَهُ اللهُ

إن هذه الحركة الدينية والدعوية والإصلاحية التي طبق الآفاق ذكرها ويسمع صداها في مشارق الأرض ومغاربها، وتجوب بعثاتها في أنحاء العالم كله، وتلمس آثارها في كل بقعة من بقاع العالم، قد نشأت بمجاهدات الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي — رحمه الله — المُضنية، وأثمرت بجهوده الرائدة، وما تحمل في سبيلها من الأذى، وما لقي من أنواع الشدائد، ورويت أرض بلدة «ميوات» بدموعه، ودوى فيها تضرعه وابتهاله إلى الله، ودعواته في جنح من الليل، وتحولت هذه الأرض القاحلة الجرداء إلى أرض مخصبة منبتة، وانقلب سكانها العصاة الجهلة إلى مرشدين وهداة ومعلمين ودعاة.

وإن الداعية الإسلامي الكبير الذي يشتمل هذا الكتاب على ترجمة حياته وجوانب شخصيته، وأحواله ومجاهداته، وفصائله ومواهبه، وقدراته، ومؤهلاته، هو نجل هذا الشيخ الكبير، وقد نشأ في أحضانها، وتربى على يده، ونشر هذه الحركة التي تم إنشاؤها على يد أبيه في العالم كله.

وُلد الشيخ محمد إلياس — رحمه الله — سنة ١٣٠٣هـ، وسمي باسم إلياس اختر، وكانت جدته من الأم السيدة الزاهدة التي كانت تُعرف بـ «أمي بي»، وهي بنت

الشيخ مظفر حسين، تمتاز بزهدا وورعها، وتستوحش من الدنيا وبها رجها، وتبتغي ما يرضي الله، وتتجنب ما لا يرضيه، وكانت أمه حفظت القرآن الكريم عن ظهر قلبها، وكان من عاداتها أنها كانت تختم القرآن الكريم كل يوم بالإضافة إلى عشرة أجزاء منه في شهر رمضان لكل سنة، وتشتغل بالذكر والتسبيح بجانب ما تقوم به من شؤون البيت اشتغالا لا يستطيع أحد أن يتصوره.

فنشأ الشيخ محمد إلياس في أحضان مثل هذه الجدة الصالحة، والأم الزاهدة المتورعة، ورضع من لبانها، وقال مرة وهو يصف سيدات أسرته: هذه هي الأحضان التي نشأت فيها، وأين تلك الأحضان اليوم؟ وكانت جدته من الأم تحبه حباً جماً، وتهتم بتربيته اهتماماً بالغاً، وكانت تقول له: تفوح منك رائحة كرائحة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، وتضع يدها على ظهره حباً وعطفاً، وتقول: أشعر حينما أراك كأن الصحابة يمشون معك.

درسته الأولى:

قضى الشيخ محمد إلياس صباه في بلدة «كاندهله» في رعاية جدته من الأم، وقرأ القرآن الكريم على الحافظ منكو، ثم سافر إلى دلهي وأقام بها عند والده وحفظ القرآن الكريم، ثم قرأ الكتب الابتدائية على أبيه والشيخ محمد إبراهيم، وكان يقرأ على أبيه خلال إقامته بدلهي، ويتلمذ على الشيخ محمد إبراهيم عندما يذهب إلى بلدة «كاندهله».

كيف كان يراه المشايخ الكبار:

سبق ذكر ما كان يلقاه الشيخ محمد إلياس من العطف والحنان من قبل جدته، وما كانت جدته تشتم منه أريج الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، وكان الشيخ محمود حسن الملقب بـ «شيخ الهند» يقول عنه: يتجدد ذكر الصحابة برؤيته، ونرى كثيراً من كبار العلماء والدعاة والمصلحين أمثال الشيخ رشيد أحمد الكنگوهي والشيخ خليل أحمد السهارنفوري، والشيخ عبد الرحيم الراثيفوري يحملون له الحب والتقدير، ويضعونه موضع الثقة والاحترام.

إقامته في بلدة « كنگوه » :

كانت دراسة الشيخ محمد إلياس خلال مدة إقامته في بلدة « كاندلهه » غير منتظمة، فأخذ شقيقه الأكبر إلى الشيخ رشيد أحمد الكنگوهي بإيماء أمه في عام ١٣١٤هـ، وكانت بلدة « كنگوه » مركزاً كبيراً للعلماء والمصلحين، ومنطلقاً للدعوة الإسلامية في تلك الأيام، وكان هؤلاء العلماء الكبار يتهافتون على الشيخ رشيد أحمد الكنگوهي تهافت الظمان على الماء، والفراس على النور، فسنت للشيخ محمد إلياس فرصة لملازمة هؤلاء العلماء ليلاً ونهاراً.

وكان هيامه بالشيخ رشيد أحمد الكنگوهي يبعث فيه الإسلامية، ويغذي فكرته ويصقل مواهبه، ويقدم إليه ما ينفعه في الدنيا والآخرة، ويوقظ فيه الوعي الديني، فنشأ الشيخ محمد إلياس في هذا الجو الديني المبارك، ولم يجاوز إحدى عشرة سنة من عمره حينذاك، ويكون هذا العهد أحسن عهد للنشأة، وكان يقرأ على صنوه الكبير، ويلزم صحبة الشيخ رشيد أحمد الكنگوهي وكبار العلماء الآخرين، وكان شقيقه الكبير الشيخ محمد يحيى الكاندهلوي يحاول أن يتيح للشيخ محمد إلياس فرصاً كثيرة للاستفادة من هؤلاء العلماء والمشايخ، وكان يمتنع عن إلقاء الدروس حينما يأتي العلماء الذين تتلمذوا على الشيخ رشيد أحمد الكنگوهي، وتربوا على يده إلى بلدة « كنگوه »، ويقول: إن دراستك الآن أن تحضر إليهم، وتجلس معهم، وتستمع لأحاديثهم، وأدخله الشيخ رشيد أحمد الكنگوهي في بيعته رغم صغر سنه خلاف العادة، لما توسم فيه من الخير والصلاح، وكان قد بلغ من الإعجاب به أنه كان يستيقظ في الليل، ويحضر إليه، ويراه بعينه ثم يأتي إلى فراشه وينام، وكان الشيخ رشيد أحمد الكنگوهي يعطف عليه عطفاً كبيراً ويحبّه حباً جماً.

وكان الشيخ محمد إلياس يشتغل بالأذكار والأدعية منذ صباه ويثابر عليها، وقال مرة: كنت أشعر بثقل في صدري حين أذكر الله سبحانه وتعالى وأسبّحه، فقلت ذلك للشيخ رشيد أحمد الكنگوهي فارتعد، وقال: كان الشيخ محمد قاسم النانوتوي اشتكى منه ذات يوم، فتوجه إلى الحاج إمداد الله، وأخبره بذلك، فقال له الحاج إمداد الله: هذا يدل على أن الله سبحانه وتعالى يختارك لنصرة دينه، وإعلاء كلمته.

توفي الشيخ رشيد أحمد الكنگوهي سنة ١٣٢٢هـ، وكان الشيخ محمد إلياس بجواره يقرأ سورة يس، وتأثر بحادث وفاته تأثراً كبيراً، وحزن عليه حزناً شديداً، وكان يقول: إني أصبت بصدمتين عنيفتين في طول حياتي وهما: وفاة والدي، ووفاة الشيخ رشيد أحمد الكنگوهي.

دراسته للحديث:

تلقى الشيخ محمد إلياس دراسته الابتدائية للحديث الشريف من صنوه الكبير الشيخ محمد يحيى الكاندهلوي في بلدة «كاندهله»، ثم ارتحل إلى «ديوبند» وتلمذ على الشيخ محمود حسن، وقرأ عليه «الجامع الصحيح» للبخاري و«سنن الترمذي».

بايع على يد الشيخ رشيد أحمد الكنگوهي في البداية، ولم يزل يتقدم ويرتقي منذ صباه في سلوكه وأحواله، لكن حين توفي الشيخ رشيد أحمد الكنگوهي ازداد سلوكاً ومراقبةً، كان يشغل بالنوافل من صلاة المغرب إلى صلاة العشاء ولم يتجاوز عمره اثنين وعشرين سنة، ثم توجه إلى الشيخ محمود حسن ليأخذ عنه الحديث، فأبدى رغبته في مبايعته، ثم توجه إلى الشيخ خليل أحمد بإشارة من الشيخ محمود حسن، وبايعه وأخذ عنه الطريقة، ونال منه الإجازة والخلافة.

ولما تقرر ارتحال عدد من الأساتذة والمسؤولين عن مدرسة مظاهر العلوم إلى الحجاز لأداء مناسك الحج والعمرة تم تعيين أساتذة جدد، وكان من بينهم الشيخ محمد إلياس — رحمه الله —، تقاعد هؤلاء المدرسون الجدد عن مناصبهم بعد عودتهم من الحجاز، لكن بقي الشيخ محمد إلياس على منصبه، ثم سافر إلى الحجاز مع الشيخ محمود حسن للحج والزيارة سنة ١٣٣٤هـ، وسعد بالحج الأول وعاد إلى منصبه بعد عودته من الحجاز، وتوفي صنوه الكبير الشيخ محمد يحيى الكاندهلوي، وكان بمثابة أستاذه ومربيه ومرشده، وخلف هذا الحادث الفاجع لوفاته تأثيراً عميقاً عليه، ثم فوجيء بحادث وفاة أمه إثر حادث وفاة شقيقه، فأنهكت هذه الحوادث المتواصلة وأضنته.

في حي «نظام الدين» :

كان الشيخ محمد يحيى ينوب عن والده الشيخ محمد إسماعيل في حي «نظام الدين» طول حياته، وكان يشرف على المدرسة التي كان يتعلم فيها الطلبة القادمون من «ميوات»، ويختلف إليه عدد كبير من الناس الذين كانوا على صلة به ليتلقوا منه ويسترشدوا منه، فشجر هذا المكان بعدما أدركته الوفاة، وألحَّ الناس على الشيخ محمد إلياس الذي كان يقيم في دلهي خلال مرض أخيه لعيادته، والاهتمام بمعالجته، أن يملأ هذا الفراغ ويأخذ مكان أخيه، فسافر الشيخ محمد إلياس تلبيةً لدعوتهم واستجابةً لرغبتهم إلى سهارنفور بعد دفن أخيه واتخاذ إجراءات موقفة لإدارة المدرسة، وعرض أحواله على شيخه الشيخ خليل أحمد، فأذن له بالإقامة في حي «نظام الدين» بدلهي نظراً إلى رغبة الناس فيه وإقبالهم عليه، فحصل الشيخ محمد إلياس على الإجازة من المدرسة لمدة سنة، وتوجه إلى حي «نظام الدين» وأقام به، لكن أصابه مرض شديد خلال مدة إقامته به، واضطر إلى أن ينتقل إلى «كاندهله» وعاد إلى حي «نظام الدين» مرة أخرى بعدما شفي من مرضه، ولم تكن تلك المنطقة التي كان يقع فيها حي «نظام الدين» عامرة تلك الأيام، وكانت الغابة تحيط بها من كل جانب، ولا يوجد فيه إلاً مسجد صغير، وغرفة ضيقة، وعدد قليل من الطلبة الميواتيين الذين يسكنون فيها، وبعض الأكواخ والبيوت بجوار ضريح الشيخ «نظام الدين».

وكانت هذه الأيام يسودها الفقر والبؤس، كانت لا تتوفر الوسائل، ولا تنهياً الأسباب، فكان يجوع أحياناً، وكان الشيخ محمد إلياس يعلن بين آونة وأخرى، من يرد من الطلبة أن يقيم هنا فليقم، وإلاً فهو حر، ليذهب حيث شاء، لكن الطلبة كانوا لا يرضون بأن يهجروا هذا المكان على الرغم من أنهم يواجهون ضروباً من الشدائد ويلقون أنواعاً من المحن، كانوا يأتون بالحطب من الغابة على رؤوسهم، ويوقدون النار ويخبزون الخبز، ويأندمون بالصَّلَّة^(١) ويلذهم هذا الطعام، وواجه الشيخ محمد إلياس في أيامه الأولى شدائد، وعاش حياة الشظف والعنت.

(١) القطعة المتفرقة من العشب.

كان يقول الحاج عبد الرحمن الذي كان صديقاً ومرافقاً له: وكان يحب العزلة، ويخلو معظم أوقاته، يأتي إليه الغداء فيتغدى، وإن لم يأتِه استغنى عنه وصبر، ويتناول العشاء في بيته ويواظب على الصلاة مع الجماعة، ويذهب إليه الطلبة للدراسة حيناً، ويأتي هو نفسه إلى المسجد لإلقاء الدروس حيناً آخر.

بداية أعمال الإصلاح والتعليم:

قبل أن نذكر حركة الشيخ محمد إلياس الدعوية والإصلاحية ونتائجها وأبعادها يجب أن نلقي الضوء على بلدة «ميوات» وسكانها وعهدهم السابق لنتمكن من المقارنة بين العهد السابق والعهد الحاضر.

«ميوات»:

منطقة كبيرة تقع في الجهة الجنوبية لمدينة «دلهي»، تسكن فيها جالية تدعى بـ «ميرو»، فنسبت هذه المنطقة إلى هذه الجالية، وسميت بـ «ميوات». كان سكان هذه المنطقة يتسكعون في ظلام حالك، لا يعرفون عن العالم المثقف شيئاً في أيامهم الأولى، وكانوا يعيشون حياة قبلية تقوم على النهب والسلب، والقتال والنزال، ويقطعون الطريق، ويغيرون على المناطق المجاورة، وخاصةً دلهي عاصمة الدولة الإسلامية، وكانت أبواب العاصمة تغلق في المساء خوفاً منهم، لكنهم كانوا يظفرون بالتوغل في العاصمة، ويقومون بأعمال النهب والسلب، فعدى عليهم الملك ذات يوم، وفتك بهم فتكاً شديداً، لكنهم رغم كل ذلك تمكنوا ببسالتهم من إنشاء حكومة مستقلة في «ميوات»، وبقيت في شكل منطقة بعدما أغارت عليها الحكومة المركزية.

كيف أسلم هذا الشعب؟ ومتى أسلم؟

لا يستطيع أحد أن يرد على هذين السؤالين بالضبط؛ لأنه لا يوجد تفصيل لذلك.

كان هذا الشعب يتبع مزيجاً من العقائد الإسلامية والوثنية بعدما اعتنق الإسلام، ويرجع ذلك إلى عدم عناية الدعاة المسلمين بهذا الشعب الذي لم يكن عريقاً في الإسلام.

يكتب الميجار «باولت» الذي كان مدير الإسكان في إمارة «ألور» في أواخر القرن التاسع عشر: كان الميو شبه هندوس في عاداتهم وتقاليدهم، ولا ترى في القرية التي يسكنون فيها إلاً مسجداً أو مسجدين، وتضم مديرية «تجارا» اثنين وخمسين قرية، لكن لا يزيد عدد المساجد على ثمانية مساجد، وكانت معابدهم تشبه معابد الهنالك في البناء والهندسة، يقرب لها القرايين وتسمى بأسماء مشابهة لأسماء المعابد الهندوكية، وفي ليلة النصف من شعبان كانت تنصب راية السيد سالار مسعود الغازي وتعبد هذه الراية^(١)، كانت توجد في بعض المناطق مدارس دينية كانت تمهد الطريق للقيام بالواجبات الدينية.

وكان بعض الناس يبدون من أزيائهم كأنهم مسلمون، لكن كان يضاف إلى أسمائهم «سنگه» بصفة عامة، وكانوا يعبدون الروث، ويجهلون الصلاة، وإذا وجدوا أحداً يصلي يدهشون ويحسبون أنه مصاب بمرض أو يعاني من ألم، فنهض الشيخ محمد إسماعيل والشيخ محمد وبذلا قصارى جهودهما في سبيل الدعوة وخدمة الإنسانية البائسة المتكوبة، وبجهودهما نشأ اتجاه ديني في هذا المجتمع الذي يخضع للوثنية الهندية، ويتيه في متاهات الضلالة والغواية، ويدل على ذلك ما كتبه «الجازيت» الرسمية الصادرة من مديرية، «گورگاون» سنة ١٩١٠م.

تقول: نهض بعض علماء الدين في بلدة «ميوات» من مدة قصيرة، وجعل عديد الناس يصومون في شهر رمضان، ويصلون الصلاة المفروضة، أخذت نساؤهم يرتدين ملابس إسلامية بدلاً من الملابس الهندوكية، ويدل ذلك على نهضة إسلامية واتجاه ديني عام^(٢).

يرجع الفضل الكبير في هذا التحول العظيم الذي يبعث على السرور والبهجة إلى أولئك الميوأتين الذين كان لهم اتصال بهذه الأسرة الشريفة التي كانت تقيم في حي «نظام الدين» بدلهي، وكان في مقدمتهم وعلى رأسهم الحاج عبد الرحمن والشيخ عبد السبحان، فهم الذين طلبوا من الشيخ محمد إلياس أن يشرف بلدة

(١) «الشيخ محمد إلياس ودعوته الدينية».

(٢) «الشيخ محمد إلياس ودعوته الدينية».

«ميوات» بقدومه للعلاقة القديمة التي كانت بينه وبين أهل هذه البلدة، ويتيح الفرصة لأهلها لتجديد هذه الصلة، والمبايعة على يده، والاستفادة من صحبته.

كان الشيخ محمد إلياس يعرف أن هذا الشعب يملك مواهب كثيرة رغم بعده عن الحضارة والثقافة، وانفصاله عن العالم المتمدن المعمور، وجهله بالدين وأحكام الشريعة، وتشبهه بالأمية والجهل، ويمتاز بالبساطة والصلابة والهمة والجلادة، والفتوة والفروسية وتحمل المشاق، وخشونة العيش، والمخاطرة والمغامرة، ولذلك تمكن من الوقوف في وجه تيار الردة الجارف، ولم يندمج في الحضارة الوثنية اندماجاً كلياً، وبقي على دينه، وإن كان اسمياً، فعني الشيخ بهذا الأمر، ووضع نظاماً لمكافحة هذه الأمية، ومحاربة هذا الجهل، وتغيير طبيعة هذا التمرد والجهود.

إنشاء المدارس والكتاتيب:

كان الطلبة القادمون من «ميوات» يتعلمون في مدرسة كانت تقع في حي «نظام الدين» وكانوا يعودون إلى بيوتهم بعد إكمال دراستهم، وكان يتصدى عدد كبير منهم للدرس والإفادة، والدعوة إلى الله، فأراد الشيخ محمد إلياس أن يبسط شبكة من الكتاتيب والمدارس الدينية بهؤلاء الطلبة المتخرجين في هذه المدرسة، فاشترط أن يقوم هؤلاء الطلبة بإنشاء المدارس في هذه البلدة، وصرح مرة قائلاً:

طلب مني بعض معارفي بغاية من الإخلاص والحماس بأن أזור «ميوات» وأقوم بجولة دعوية فيها، فاشترطت أن يقوموا بإنشاء المدارس والكتاتيب الدينية فيها أولاً.

سافر الشيخ محمد إلياس إلى «ميوات» بعد أن أخذ منهم هذا الميثاق، ولما وصل إليها، طالب بإنجاز ذلك الوعد، فأنشئت مدرسة تعتبر الأولى في هذه البلدة، ثم توالى سلسلة فتح المدارس، فأنشئت في هذه المرحلة الأولى للشيخ محمد إلياس عشر مدارس، ثم ازداد هذا العدد بجهود العلماء المخلصين، وبلغ مائة أو أكثر في مدة قصيرة، لكن هذه المدارس والكتاتيب لم تكن على مستوى آماله إلاً جزئياً، ولم تظهر النتائج التي كان يتوقعها الشيخ محمد إلياس.

إنشاء حركة دعوية شعبية :

رأى الشيخ محمد إلياس أن هذه المدارس التي كانت أنشئت لغرس الإيمان والعقيدة وتصحيح مسار الحياة، وتغيير الوضع الذي يتعارض مع الشريعة، وبعث الروح الإسلامية، وتغذية الفكرة الإنسانية، والتشخيص لمظاهر الشرك ومواضع الانزلاق، ومقاومة الجائحات والتيارات المعارضة للإسلام لم تحقق ما عقده عليها من آمال، وما كان ينشده من أهداف، وأصيب بشعور خيبة عنيّف، وأحس بالهم وحزن قلبي شديد، وكان يتابع أعمالها وتقدمها في رحلاته المتعاقبة.

صادف الشيخ محمد إلياس في بعض رحلاته فتى، كان حليق اللحية، وكان مظهره معاكساً للثقافة الإسلامية، وكان زيه غير إسلامي، وصُدم الشيخ لما علم أنه متخرج من مدرسة دينية، وآلمه هذا التعارض بين التعليم والثقافة، فقلب هذا الحادث فكرته رأساً على عقب، وهز كيانه، وكسر خاطره، وأثار في نفسه الشكوك في نفعية المدارس والكتاتيب إذا لم ترافقها تربية دينية وتوعية ذهنية، بل إن التربية يجب أن تسبق التعليم، فقرّر في ذهنه أن هذه المدارس الدينية وحدها لا تستطيع أن تغير هذا الوضع السائد، ففكر في عمل يكون أكثر تأثيراً، وأوسع نطاقاً، وأكبر نفعية من هذه المدارس، فطرت ذهنه فكرة إنشاء حركة دينية إصلاحية دعوية شعبية تُعلّم الكبار الدين دون الاعتبار للون أو عرق أو ثراء أو فقر في جانب، وتدريب الناس على القيام بأعمال الدين وتوقظ فيهم الوعي الديني، وتربط صلتهم بالكتاب والسنة في جانب آخر.

كانت الصلة بين الشيخ محمد إلياس وبين سكان بلدة «ميوات» تتوثق يوماً فيوماً، وشعبيته كانت تزداد ازدياداً مطرداً، واستطاع في هذه الفترة القصيرة تسوية النزاعات القائمة بين أسر مختلفة، وحلّ القضايا المعلقة بين السكان من زمان بأسلوبه المؤثر وحكمته البالغة.

فكان الميواتيون يضعونه موضع ثقة واحترام بالغيث، ويحملون له في قلوبهم حباً وتقديراً، وكانوا يطيعونه، ويمثلون أوامره، ويسلكون منهجه.

من المدارس إلى حركة دينية تربية:

كان قد رسخ في ذهن الشيخ محمد إلياس أن هذه المدارس لا تستطيع أن تحدث ثورة ولا يجدي إدخال التحسينات والتغييرات في رجال الطبقة الخاصة نفعاً، إنما يحتاج الأمر إلى حركة دينية شعبية؛ لأنها هي الوسيلة الفعالة التي تستطيع أن تكافح هذه الأمية الفاشية، وتعالج هذا الوضع القائم، وتبدد هذا الظلام الحالك، وتزيح هذه السحابة السوداء التي حجبت النور، نور العلم ونور الوحي ونور الإيمان ونور المعرفة الإلهية، نور العقيدة الصافية، وعبر أحد الميواتين عن هذا الانطباع للشيخ محمد إلياس في جملة واحدة فقال:

«لا يمكن أن تتحسن أحوال المسلمين إلا إذا دخل الدين في عامة الناس».

الاجتماع الديني الأول:

فعقدت حفلة برئاسة الشيخ محمد إلياس في بلدة «نوح» بمديرية «گورگاوان» في الثاني من شهر أغسطس/آب سنة ١٩٣٤م في هذا الصدد، وحضرها عدد من وجوه هذه البلدة وأعيانها، وكان هذا العدد ١٠٧ على أقل التقديرات، وتحدث المشاركون في هذه الحفلة أولاً عن أهمية الإسلام، وتناولوا جوانبه المختلفة بالإشادة والتنويه، وتعاهدوا بامثال أوامر الله سبحانه وتعالى، والالتزام بكل ما شرعه ونزل به نبيه، وبذل الجهود الجماعية في سبيل الدعوة، وبث التعاليم الإسلامية في كل بقعة من بقاع المعمورة، والاستماتة في الذود عن حياض الإسلام والتفاني في سبيله، والاندماج في رسالته، وعقد الاجتماعات الشعبية لتحقيق هذا الهدف، وأكدوا بصفة خاصة على الكلمة، والصلاة والدراسة، وإنشاء المدارس واختيار المظهر الإسلامي، واستنكار البدع، وطمس معالم الشرك، والقضاء على المعتقدات الجاهلية، وحجاب المرأة، وعقد القرآن طبقاً للشريعة، وارتداء الثياب الإسلامية، والتمسك بالعقيدة الإسلامية، ورفض كل ما يتعارض مع الدين، وتأمين الحقوق المتبادلة، والمشاركة في كل حفلة دينية، والعناية بتعليم البنين والبنات دينياً، بجانب الدراسة العصرية، والاهتمام بالطهارة والنظافة والحفاظ على العرض والكرامة.

وقرر في هذا الاجتماع بالإضافة إلى ذلك أن مسؤولية الدعوة والإرشاد لا تقع على كواهل العلماء وحدهم، بل يجب على كل مسلم أن يشعر بالمسؤولية تجاه الدعوة، وسجلت هذه المقترحات التي اتخذت في هذا الاجتماع، ووقع عليها المشاركون جميعاً، ومنذ ذلك اليوم ظل الشيخ محمد إلياس يتردد إلى بلدة «ميوات» ويلقي المواعظ ويحارب البدع، ويكافح الجهل، وكان الناس يحضرون إليه ويسترشدونه، ويباعون على يده، ويهتدون إلى سواء السبيل.

سافر الشيخ خليل أحمد مع نفر من العلماء والمشايخ إلى «ميوات» في شهر ربيع الأول سنة ١٣٤٤هـ، وأقام ببلدة «فيروزپور»، فتهاافت عليه الناس من كل جانب لينهلوا من منهل.

منهج العمل والمبادئ والمتطلبات :

ينبغي هنا أن يقدم منهج هذه الحركة الدينية الشعبية التي نفخت روح الحياة في كل بقعة من بقاع العالم، وأحدثت ثورة دينية في هذه البلاد وأذهلت النفوس، وأثارت الدهشة والاستغراب.

وضع الشيخ محمد إلياس لهذه الحركة الشعبية ضوابط تتكون من النقاط الآتية :

١ - في منهج العمل اشترط أن يختار منهج نبوي فطري لتعليم الدين، وذلك أن تكون تحت إشراف المدارس الدينية والمعاهد الإسلامية جماعة مختصة بالدعوة، وتقوم بنشرها في كافة الناس دون اعتبار للون أو عنصر أو عرق، وتحفزهم إلى أن يتحملوا عبء الدعوة والإرشاد والتوجيه، وتجعلهم هداة ودعاة.

٢ - أن تبذل الجهود في سبيل الدعوة لإقامة الشرع وتمكين الدين بصورة عملية، وتلجأ إلى الجولات والرحلات لنشر الدعوة إلى الإسلام، ويسعى إلى تطبيق التعليمات الإسلامية.

٣ - أن يعتبر كل مسلم تعلم الدين وتعليمه ونصرته ونشره أعز أمنية وأكبر هدف في حياته.

٤ - يجب على كل مسلم أن يهجر بلده لعدة أيام، ويخرج من البيئة التي يعيش فيها، ويتوجه إلى بيئة أخرى ليتعلم الدين في هدوء منقطعاً إليه .

وحدد الشيخ محمد إلياس لهذا الطريق ستة مبادئ، هي الآتية: (١) تصحيح الكلمة، (٢) تصحيح الصلاة، (٣) تعلم الدين والالتزام بالذكر والتسبيح، (٤) إكرام المسلم، (٥) تصحيح النيّة، (٦) التفرغ للدعوة والإرشاد.

وبالإضافة إلى ذلك المنهج للعمل، ومبادئ الدعوة عيّن الشيخ محمد إلياس المتطلبات الآتية:

١ - تحديد وقت من الأوقات في كل أسبوع لتعليم مبادئ الدين في البيئة التي يعيش الداعي فيها، وتكوين جماعة تتجول في هذه البيئة وفي المناطق المجاورة تحت إشراف أمير، والالتزام بالضوابط التي وضعت لتلك الجولة كل الالتزام.

٢ - يجب على القروي أن يتوجه كل شهر لثلاثة أيام إلى القرى والأرياف التي تقع على بعد خمسة أميال من قريته، ويجب على المدني أن يتوجه إلى المدن المجاورة ويقوم بالدعوة إلى الإسلام ويتجول فيها ويختلط بسكانها، ويعقد الاجتماعات الدينية والشعبية، ويحث الناس على الخروج لتمكين الدين.

٣ - أن يهجر موطنه، ويترك راحته لمدة أربعة شهور، ويذهب إلى مراكز العلم والدين ليتعلم الدين، ويعرف الحلال والحرام وما يتعلق بحياته وحرفته من الأحكام، ويحفظ من القرآن ما يقوم به صلاته، ومن الأدعية المأثورة ما ينادي به ربه .

وضع الشيخ محمد إلياس لهذه الجولات الدعوية مبادئ وقواعد كان على الجماعات أن تلتزم بها، ووُزِعَ أوقات المشتغلين بالدعوة على القيام بالجولات، وعقد الحلقات والاجتماعات، وإلقاء الدروس والمواعظ، وقضاء المآرب وسد الحاجات بحيث لا تخلو لحظة من لحظاتها من فائدة.

بداية الجولات وتنقل الجماعات :

سافر الشيخ محمد إلياس إلى الحجاز للحج والزيارة مع الشيخ خليل أحمد سنة ١٣٤٤هـ، شعر خلال مدة إقامته بالمدينة المنورة بهم غريب يساور نفسه، وكان لا يرضى بالعودة إلى الهند، وكان يقول:

إن الله سبحانه وتعالى يريد مني خدمة، فشعرت باضطراب وهم نفسي بتولي هذه الخدمة، كيف أتولى أمرها، وكيف أؤدي هذه الخدمة، وأنا ضعيف، فقضيت أياماً في هذا القلق، ثم ذكرت ذلك لأحد الصالحين الذي كنت أعرف فضله وصلاحه وورعه، فقال: هذا أمر لا يبعث على القلق؛ لأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يستخدمك، فكلمة الاستخدام تدل على أن القدرة الإلهية تساعدك في القيام بهذا العمل الجليل، فعاد إلي الهدوء، واطمأن قلبي بهذا الرد المقنع.

جعل الشيخ محمد إلياس يقوم بجولات دعوية بعد عودته من الحجاز، وكان يعقد حلقات دينية شعبية يدعو الناس فيها إلى الاشتغال بالدعوة في عامة الناس، ويعلمهم أركان الإسلام الأساسية من الكلمة والعقيدة والصلاة، وكان الناس يجهلون هذا المنهج في بداية أمره، ولا يرضون به إلاً بجهد بالغ وصعوبة كبيرة.

عقد الشيخ محمد إلياس اجتماعاً شعبياً كبيراً في مديرية «نوح»، ودعا فيها الناس إلى القيام بجولات دعوية، والاختلاط بالناس، وتكونت جماعة بعد شهر على رغبة منه، وتجولت هذه الجماعة في القرى المختلفة المجاورة. خرجت هذه الجماعة من مديرية «نوح» يوم الجمعة، ووصلت إلى مديرية «گورگاون» في الجمعة الثانية، وإلى مديرية «تاوزه» في الجمعة الثالثة، وإلى مديرية «نكينه» في الجمعة الرابعة، وكان الشيخ محمد إلياس يذهب كل يوم الجمعة إلى المديرية التي كانت تقيم بها هذه الجماعة فيرتب لها النظام، ويعيد إليها التنظيم.

هكذا بدأت جماعة الدعوة والتبليغ أعمالها الدعوية والإصلاحية في هذه البلاد، وشقت طريقها إلى الأمام، وارتقت من أول يومها، ولا تزال ترتقي وتزدهر وتوسع دائرتها، وآفاق عملها.

رحل الشيخ محمد إلياس إلى الحجاز للحج والزيارة مرة ثالثة سنة ١٣٥١هـ، وقام بجولتين في «ميوات» بعد عودته من الحجاز، وبسط شبكة من الجماعات في طول هذه البلدة وعرضها، ولم يترك شبراً من الأرض إلا وطأه بأقدامه، وسقاه بدموعه، ومهد لدعوته ورسالته، ودعا أهل كل بيت في كل قرية إلى أن يتجولوا في دائرة خمسة أميال، وينشروا هذه الدعوة في أرجائها، فعادت هذه الجولات بنفع كبير، وأتت بنتائج مشجعة، فازداد عدد العلماء، وتبدد ظلام الجهل، وكثر عدد المعنيين بأمر الدعوة، وتحولت القرى إلى مراكز تربية، ومعاهد دينية.

وبدأ الشيخ محمد إلياس يرسل أهل بلدة «ميوات» في بعثات إلى خارج هذه البلدة، فكانت البعثة الأولى التي خرجت من هذه البلدة هي البعثة التي اتجهت إلى بلدة «كاندهله»، وهي كانت موطن الشيخ محمد إلياس، ويوجد فيها أعداد غفيرة من العلماء والدعاة، وأرسل الشيخ محمد إلياس جماعة أخرى إلى بلدة «رائيفور» حيث توجد زاوية العارف بالله الشيخ عبد القادر الرائييفوري، وأقامت هذه الجولات الصلة بين سكان «ميوات» وسكان بلاد أخرى، وجعل الناس يختلفون إلى «ميوات».

وانتشرت هذه الدعوة بسرعة غريبة في هذه البلدة، وأشرقت هذه المنطقة المختلفة في العلم والدين والمتسكعة في ظلام الجهل والأمية، والمتهالكة على أعمال النهب والسلب بنور الإيمان والعلم إشرافاً لا يعرف له نظير حتى في الدول الراقية إلى أمد بعيد، وصار سكان هذه البلدة الذين كانوا يجهلون الدين، ولا يعرفون الحلال والحرام، ويتشبثون بالعادات الجاهلية يقومون بالدعوة إلى الإسلام، ويكافحون الجهل والأمية، وينشرون الدين في المناطق النائية بالبساطة والسذاجة، متفرغين ومتفرعين عن المصالح الشخصية، وغير مكترئين بالسمعة والشهرة، وأصبحت المناطق التي كانت تخلو من المساجد حافلة بالمساجد بجهود هؤلاء الدعاة المخلصين، وغدت الأماكن التي كان لا يسمع فيها صوت القرآن الكريم يدوي فيها هذا الصوت المبارك، وأنجبت كل قرية من قراها عدداً كبيراً من الحفاظ والعلماء، وجعل الناس يهجرون الملابس الهندوكية وأخذوا يكتسبون الثياب الإسلامية التي كانوا يرتدونها في السابق، وبدأت العادات والتقاليد الجاهلية والوثنية التي كانت تمارس

في الأعراس تتلاشى، وانخفض معدل الجرائم والمآثم والذنوب والمعاصي انخفاضاً ملموساً، يقول رجل مسن من الميواتيين وهو يوضح الفرق بين الماضي الكالح والحال المشرق لبلدة «ميوات»:

إن الأهداف التي كانت تبذل لها الجهود الجبارة وترصد لها المبالغ الهائلة والأموال الطائلة تتحقق الآن بنفسها، والأمور التي كان منعها يؤدي إلى صراعات عنيفة، واشتباكات دامية، وحروب طاحنة، وتثور بها عواطف الانتقام، ويواجه من يحول دونها ويقف في وجهها تحدياً وعدواناً يمتنع عنها الناس بطيب خاطرهم دون أي توجيه لهم أو لفت أنظارهم.

إن الذين شاهدوا هذين العهدين لبلدة «ميوات» يستطيعون أن يقدروا كيف حوّل الشيخ محمد إلياس هذه البلدة التي كانت لا تبرق لتحولها بارقة أمل، وكيف أنهضها من عثارها، وبدل أرضها غير الأرض، وجعلها بلدة مثالية بمخاطرته وإيثاره ورزاقته، وحلمه، وتضحيته بكل ما يحرص عليه الناس من مطامع وشهوات، وآمال وأحلام، ويدل هذان الحادثان الآتيان على الوضع الذي كان يسود في ذلك العصر الذي كان يشبه العصر الجاهلي في الاستكبار والعداء للسافر للإسلام.

كان الشيخ محمد إلياس يتجول ذات يوم في قرية من قرى هذه البلدة، فلقى رجل من أهلها، فوضع يده على رأسه حباً له وعطفاً عليه، فاحمر وجهه، واثارت ثأثرته، وقال بصوت مقنط: ابتعد عني ونح يدك عن رأسي، إذا لمستني مرة أخرى ضربتك بهذه العصا، فلمس الشيخ رجله وقال: إنك لن تمنعني من مسّ رجلك، فبهت ذلك الرجل وخجل ورق قلبه الذي كان يبدو كأنه من حجر، وأطرق رأسه خجلاً حين رأى هذا التواضع الذي لم يكن قد شاهده من قبل.

ذهب الشيخ محمد إلياس مرة إلى قرية، وجعل يتكلم مع أحد سكانها حول الدعوة إلى الله، فاغتاظ ذلك الرجل وبلغ به غضبه أن لطمه، وكان الشيخ نحيفاً هزيلاً لم يستطع أن يتحمل هذه اللكمة، فجلس على الأرض، ولما أخذ بطرف ثوبه وقال: إنك فعلت ما فعلت وأريد الآن أن تستمع إليّ، فندم ذلك الرجل على ما صنعه، وألقى نفسه إلى قدميه، وقال: سامحني يا سيدي وإلاً لا يغفر لي ربي.

وهكذا نجد كثيراً من الحوادث التي تدل على أسلوبه في الدعوة، ومنهجه في اجتذاب صاحبه، وصدق لهجته، وطول كدحه، وتوجع قلبه، وتلهف فؤاده، وإراقة دموعه، وكثرة تواضعه، كان يشعر به كل من لقيه ويلهج لسانه بالشكر والدعاء له.

وُجّه إلى رجل كان يتجول في قرية سؤال: لماذا تقوم بهذه الجولة الدعوية؟ فأجاب عليه بغاية من البساطة والهدوء، والثقة والاعتزاز:

كنا نتسكع في ظلام كالح من الجهل والأمية، لا نعرف إلهنّا ولا نعرف نبينا فجزى الله عنا هذا الشيخ، هو الذي ساقنا إلى سواء السبيل، فنحن نريد الآن أن نبليغ هذه الثروة التي أفاءها علينا إلى إخواننا الذين يعيشون حياة الإلحاد والزندقة.

طبيعته المضطربة:

كان في لسان الشيخ محمد إلياس لكنة، وكان لا يستطيع أن يعبر عما في نفسه بوضوح، وبالإضافة إلى ذلك كان يستعمل كثيراً المصطلحات العلمية، والمعاني الدقيقة، والكلمات الغريبة، وكان يصعب على أهل بلدة «ميوات» الذين كانوا يجهلون هذه الكلمات والمصطلحات أن يدركوا معانيها، فاضطرب الشيخ لذلك وحاول أن يختار أسلوباً آخر، ولكن لا يجد أحداً يفقه كلامه، فيتضرع إلى الله، ويعرف عن وحشته وبؤسه، وعجزه وإخفاقه، ويتململ تململ السليم، ويتأوه وتأوه الحزين.

ولا يعرف أحد الشيخ معرفة صحيحة إلاّ من عاش معه، وشاهده في حياته الشخصية والعامة، ولذلك فشهادة الزوجة خير شهادة على سلوك المرء وطبيعته، ومن هنا نورد شهادة قرينة الشيخ محمد إلياس على طبيعته المضطربة وحرقة للأمة الإسلامية، حيث قالت حين وُجّه إليها سؤال عن خلقه، وطبيعته:

شاهدته بعد زفافي لا يذوق من النوم إلاّ القليل، يسهر الليالي، ويتململ في فراشه تململ السليم، فقلت له مرة: ما لك لا تستريح ولا تهجع؟ فأجاب: لا أستطيع أن أخبرك بذلك؛ لأنك إذا عرفت ما يؤرقني لطار نومك أيضاً، وأنفق الشيخ محمد إلياس ما كان في يده من مال، وما كان في جسمه من قوة، وما كان في قلبه من همه

على أهل «ميوات»، واستخدم كل ذلك في سبيل الدعوة إلى الإسلام، واقتفى في ذلك أثر سيدنا أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - ، فلم يترك في بيته شيئاً غير اسم ربه ونبيه، كتب في رسالة وجهها إلى بعض معارفه من «ميوات»:

إنني صرفت عليكم كل ما أملكه من همة وقوة، ولا أملك اليوم إلا نفسي، فعليكم أن تشاركوني في حمل أعباء الدعوة.

جاء الشيخ محمد إلياس بلدة «ميوات» من أقصاها إلى أدناها بقلبه الذي يتوجع على الإنسانية البائسة المنكوبة النائية الضالة، وأمسك بيد كل رجل لقيه، وطرق كل باب وقع عليه بصره، يطوي الليالي في أحيان كثيرة، وتجول في أيام الصيف والشتاء، ولا تثنيه العواصف العاتية، ولا تلويه الرياح القارسة عن همته وتقدمه، وإذا لم يجد إجابة ملئية أصابه قلق يشكوه إلى زملائه الذين كانوا التفوا حوله، وقبلوا دعوته، فكتب مرة في رسالة وجهها إليهم: «تأمل يا عيسى في هذا المجتمع الذي يسعى فيه كل فرد من أفرادهِ إلى تحقيق مآربه المادية، ولا يطالب فيه إلا رجل واحد بأن يتفرغ لوقت قصير للدين والعمل للآخرة، فيلوي رأسه، أليس ذلك تقليل قيمة الآخرة ورفع قيمة الدنيا».

ثم شهد العالم بأن سكان «ميوات» نفصوا أيديهم مما كانوا فيه، وتركوا أهلهم، وهجروا راحتهم، وضحوا بحياتهم وأموالهم، وانقطعوا إلى الدعوة، وخرجوا في سبيل الله، لا يلوون على شيء، كأنهم كانوا في ذلك على ميعاد، وأصبحت القرى التي كان لا يخرج منها رجل واحد ليوم واحد، يخرج منها أعداد غفيرة في وقت واحد لمدة شهور وأعوام، وصار الميواتيون الذين كانوا لا يرضون بأن يتجولوا في منطقة تمتد خمسة أميال يتجولون في كل بقعة من بقاع العالم، فقال الشيخ محمد إلياس وهو يشيد بهذه التضحية التي قدّمها أهل «ميوات»:

إن الذين يصرفون أوقاتهم في قضاء حاجاتهم الدنيوية ولا يهتمهم إلا كسب العيش، وإشباع النفس، وتوفير أدوات الراحة والإكثار من أثاث البيت عددهم فوق الحصر، وأما الذين يهجرون أهلهم وديارهم لرفع راية الإسلام، وإعلاء كلمة الحق، وتطبيق أحكام الشرع، وتنفيذ أوامر الله، وتعليم مبادئ الدين، فهم أهل هذه البلدة،

فيرجع الفضل في انتشار هذه الدعوة بهذه السرعة الغربية إلى الميواتيين وإلى من ينتمي إليهم ويتصلوا بهم.

الرحلة الأخيرة للحج وانتشار الحركة :

قام الشيخ محمد إلياس بالرحلة الأخيرة إلى الحجاز سنة ١٣٥٦هـ للحج والزيارة، وأدى مناسك الحج، واشتغل بدعوته في السفينة ثم خلال إقامته بالحجاز، ونالت دعوته القبول العام في هذه الرحلة الأخيرة له، وتعرف الناطقون بالضاد لأول مرة على هذا المنهج للدعوة الذي اختاره الشيخ محمد إلياس، وأعربوا عن تقديرهم لجهوده وأبدوا اهتمامهم بدعوته.

وبعد العودة من الحج أوقف الشيخ محمد إلياس كل ما كان يملكه من ذكاء وقوة ومواهب ومؤهلات على الدعوة إلى الإسلام، وصرف اهتمامه كله إلى إرسال بعثات تتكون من سكان بلدة «ميوات» إلى المدن والقرى في ولايات مختلفة، وكان بعض كبار رجال الأعمال في مدينة دلهي معجبين بشخصيته مولعين بحركته ودعوته، وكان لبعض المسنين منهم سابق معرفة بوالد الشيخ محمد إلياس وشقيقه، فكان يختلفون إلى حي «نظام الدين» ويساعدون الشيخ محمد إلياس في القيام بأعباء الدعوة، وكانوا يجتمعون كل ليلة من ليالي الجمعة في حي «نظام الدين» ويجتمعون بعدد أكبر يوم الأربعاء الأخير من كل شهر في المسجد الجامع بدلهي، ويستمعون لما يلقي إليهم الشيخ محمد إلياس من دروس ومواعظ تنفخ فيهم روح الإيمان والتضحية، والجهد والكفاح.

وولي الشيخ مقبول حسن إمارة كافة الجماعات، فتصاعدت نشاطات هذه الحركة بجهده وسعيه، وكان للحافظ فخر الدين إسماعيل كبير في توسيع نطاقها، ولفت أنظار الناس إليها، فقد كان يتوجه إليه وجهاء مدينة دلهي الجديدة، وحملة الشهادات العالية، ورجال التعليم والتربية، وقادة الفكر، وأساتذة الجامعات العصرية، وخاصة أساتذة الجامعة المليية الإسلامية، وكان على رأسهم الدكتور ذاكر حسين رئيس الهند الأسبق، وكان الشيخ محمد إلياس ينتهز هذه الفرصة الغالية، ويتحدث معهم بأسلوب مؤثر ترق له القلوب وتدمع له العيون.

وبالإضافة إلى هؤلاء المثقفين كان يحضر إليه عدد كبير من أساتذة المدارس العربية الإسلامية المختلفة، وعلمائها وطلبتها، وكان في مقدمتهم أساتذة دار العلوم التابعة لندوة العلماء، ومدرسة مظاهر العلوم، ودار العلوم بديوبند، فيلتقون بالشيخ محمد إلياس، ويتحدثون معه، ويتعرفون على منهجه، ويقتنون من ثمار دعوته، ويعودون إلى أوطانهم بشيء من لوعته وحرقة قلبه، وجدت ذلك في سنة ١٩٥٨م و١٩٥٩م عندما نشرت الصحف والمجلات بحوثاً ومقالات تناولت هذه الحركة بالبحث والدراسة، وألقت الأضواء على نتائجها وأبعادها.

وكان الشيخ محمد إلياس يتمنى منذ إنشاء هذه الحركة أن ينضم إليها العلماء، ويتولوا أمرها، ويهتموا بشؤونها، فلما رأى إقبال العلماء عليها، وعنايتهم بها أعرب عن سروره وبهجه في مناسبات مختلفة، ووجه الشيخ محمد إلياس جماعة تضم عدداً من العلماء والمثقفين إلى بلدة «مرادآباد»، وقضت هذه الجماعة ثلاثة أيام في هذه البلدة، تجولت خلالها في أزقتها، وسارت داعية في شوارعها، وقابلت أهل التجارة والصناعة، وعرضت عليهم هذه الفكرة إلا أنها لم تجد تجاوباً لائقاً في هذه الرحلة، وأصاب بعض العاملين فيها اليأس والشعور بالخيبة، فبعث الشيخ محمد إلياس بجماعة أخرى إلى نفس البلدة فعادت هذه الجماعة أيضاً خائبة كما عادت الأولى بدون أن تحرز أي نجاح في دعوتها أو تكسب نصراً.

وكادت هذه الخيبة تحطم القلوب، وتفقد الآمال وتكسر الخواطر، فتضرعت إلى الله بقلوب متكسرة، وابتهلت إليه ابتهاج العاجز الفقير، ثم توجهت إلى تلك البلدة التي عادت منها خائبة في السابق وبذلت جهودها بمزيد من الإنابة والخشوع، فمالت إليه النفوس هذه المرة، وتنافس الناس في حمل أعبائها، فكانت مفاجأة وبشرى سارة لهم، وحافزاً إلى العمل، فارتفعت همهم، وانتشرت هذه الدعوة بسرعة غريبة، ولم تنقض فترة طويلة إلا وصارت هذه البلدة مركزاً كبيراً للدعوة الإسلامية.

جعل الناس يختلفون إلى الشيخ محمد إلياس كثيراً في آخر أيامه، وتولى أمرها عدد من الناس الذين كانوا يُعرفون بكفاءتهم العلمية، وحنكتهم السياسية وخبرتهم للشؤون الإدارية، وحقت تقدماً كبيراً بجهود هؤلاء العلماء المخلصين ورزق لها

العاملون المخلصون الذين كانوا يملكون مواهب عالية، ومؤهلات فائقة وقدرات وكفاءات علمية.

اجتماع في «ميوات»:

عقد اجتماع ديني كبير في مدينة «نوح» سنة ١٣٦٠هـ، ولم يكن قد شهد قبل ذلك مثل هذا العدد في مثل هذا الاجتماع الكبير في بلدة «ميوات»، وبلغ عدد الحاضرين حسب بعض التقديرات أكثر من خمسة وعشرين ألفاً، وقال المفتي كفاية الله الذي قد حضر هذا الاجتماع: إنني اشتركت في الحفلات الدينية، والحفلات السياسية خلال خمس وثلاثين سنة فما رأيت طوال هذه المدة اجتماعاً مثل هذا الاجتماع المبارك، وكان هذا التجمع البشري الهائل الذي كان يشبه بحراً زاخراً في المد والجزر بمثابة مخيم روحاني كبير، وحفلة شعبية، ومركز خلقي تربوي، تحدث فيه الشيخ محمد إلياس مع رجال الطبقة العامة، والأثرياء والوجهاء والعلماء والمشايخ بصراحة بالغة، وبعد انتهاء هذا الاجتماع تكونت جماعات مختلفة من التجار والعلماء والطلبة تجولت في المناطق المختلفة لهذه البلاد، وخاصة بلدة «سهارنفور» و«خورجة»، و«ميرته»، و«باني بت»، و«كرنال»، و«رهتك»، وبالإضافة إلى ذلك اتجهت هذه الجماعات إلى «كراتشي» و«بشاور» بدعوة من الحاج عبد الجبار والحاج عبد الستار.

توجهت جماعة كبيرة تضم عدداً من التجار الكبار لمدينة «دلهي» وسكان بلدة «ميوات» إلى مدينة «لكناؤ»، ثم توجه إليها الشيخ محمد إلياس، وأقام بمضيف دار العلوم التابعة لندوة العلماء لمدة عدة أيام، كانت الجماعات تجول في أحياء المدينة كل يوم، وتعقد اجتماعات في أماكن مختلفة، كان الشيخ محمد إلياس يلقي فيها خطباً ومواعظ ويقابل العلماء والدعاة، ويتحدث معهم في أمور الدعوة، ويجدر بالذكر منهم الشيخ قطب ميان الفرنجي محلي، والشيخ عبد الشكور الفاروقي بصفة خاصة، فدوّى نداء الدعوة إلى الله في جو هذه المدينة، وأيقظ أهلها من الغفلة والسبات.

سافر الشيخ محمد إلياس إلى بلدة «راي بريلي» خلال إقامته بـ «لكناؤ» ومكث هناك يوماً، وعاد إلى «دلهي» عن طريق «كانفور».

مرضه ووفاته:

كان الشيخ محمد إلياس نحيف الجسم من بداية أمره، وكان قد أنهكه توجعه على الإنسانية وجزعه على الأمة الإسلامية، واضطرابه للدين والدعوة، فذبل كما يذبل الغصن، وذاب كما تذوب الشمعة، وأصابه مرض عضال في آخر أيامه فزاده ضعفاً وهزالاً، وكلما ازداد ضعفاً ازداد قلقاً واضطراباً، ولوعة وحرقة، وكان قد يُغْمَى عليه ويُصاب بنوبة، ولَمَّا يفيق ترتسم ملامح الاضطراب على وجهه وتلوح، وقد أغمي عليه مرة لساعتين، ثم انفتحت عيناه فجأة، وجرت على لسانه هذه الكلمات، وهي: «الحق يعلو ولا يعلى عليه»، ثم قال: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤٧) ورددها ثلاث مرات، ثم قال: «ليت العلماء يتولون أمر هذه الدعوة ثم نذهب».

وفي هذه الأيام الأخيرة لحياته ظل العلماء والدعاة والأساتذة والطلبة والمثقفون والدبلوماسيون يترددون إليه، وكان الناس يتجمعون حوله كل وقت في حي «نظام الدين»، ويصفون إليه، ويبلغون ما يسمعون منه إلى إخوانهم وزملائهم.

كان الشيخ محمد إلياس رهين الفراش، وكان صوته منخفضاً للغاية، لكن اضطرابه قد جاوز الحد، وكان لا يقر له قرار، فرفع يده إلى السماء في الصباح الباكر، ودعا دعاء سيدنا عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – وكان يشرب ماء زمزم، وقال: «اللهم ارزقني الشهادة في سبيلك واجعل موتي في بلد رسولك».

وقال لنجمله الشيخ محمد يوسف في الليلة الأخيرة له: أدن مني يا بني أكاد أفارق الحياة، ولَبَّى نداء ربه قبل أن يؤذن المؤذن لصلاة الفجر، فكانت وفاته في الحادي عشر من شهر رجب ١٣٦٣هـ، وكان الناس في شديد غمراهم وعظيم سكراتهم، وكان كل رجل يعرب عن حزنه وألمه، ويقول له بلسان الحال اعترافاً بفضله، وتقديراً لجهوده، وتحية على منته على الأمة الإسلامية:

فاذهب كما ذهبت غواصي مُزنة أثنى عليها السهل والأوعار

نزل خبر وفاة الشيخ محمد إلياس كالصاعقة، ونفذ كالسهم، وكل من سمع به توجه إلى «نظام الدين»، وظل الناس يحتشدون في مركز الدعوة، وكان فيهم عدد

كبير من العلماء والمشايخ، واجتمع ألوف من الناس في ذلك المكان الضيق، وغسله العلماء بأيديهم وكفنوه.

يصف الشيخ أبو الحسن علي الحسنى الندوي هذا الحشد الكبير وكيفية صلاة الجنازة، فيقول:

كان الزحام يزداد شيئاً فشيئاً، وكان لا يستطيع أحد أن يحصي هذا التجمع البشري الهائل إلا من أحصى رمل عاليج وحصى الحصباء، وانخفض سطح ماء البركة لكثرة عدد المتوضئين، واكتظت طوابق المسجد عاليها وسافلها، ونقلت جنازته إلى خارج المسجد، وكان من الصعب أن يحافظ على النظام، وكان كل رجل يبادر إلى أن يشيع جنازته، ويحمل سريره على كتفه، فوضعت جنازته تحت شجرة بجهد بالغ، وصلى عليها الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، ودفن في الضاحية الشرقية للمسجد بجانب أبيه وشقيقه.

ومع غروب الشمس في السماء توارت في التراب هذه الشمس التي أضاءت العالم بأشعتها اللامعة، وبددت الظلام بخيوطها الساطعة، وملأت القلوب إيماناً و يقيناً، والرؤوس عقلاً وحكمة.

وخلف هذا الرجل العظيم ابناً واحداً، وهو الداعية الإسلامي الكبير، وبتناً وهي قرينة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي.



الباب الثاني الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي

نسبه من جهة أبيه :

هو محمد يوسف بن محمد إلياس بن محمد إسماعيل بن غلام حسين بن كريم
بخش بن غلام محيي الدين بن محمد ساجد بن محمد فيض بن محمد شريف بن
محمد أشرف بن جمال محمد شاه بن نور محمد بن بهاء الدين بن محمد بن محمد
فاضل بن قطب شاه .

نسبه من جهة أمه :

أمه بنت رؤوف الحسن بن ضياء الحسن بن نور الحسن بن أبي الحسن بن
المفتي إلهي بخش بن شيخ الإسلام بن قطب الدين بن عبد القادر بن محمد
شريف بن محمد أشرف .

مولده ونشأته :

وُلد الشيخ محمد يوسف يوم الأربعاء في الخامس والعشرين من جمادى الأولى
سنة ١٣٣٥هـ، الموافق ٢٠ مارس/آذار سنة ١٦١٧م، ببلدة «كاندهله» في الولاية
الشمالية للهند، ونشأ في بيت علم وورع عُرف بالخلق الحسن، والنبل والشرف،
والنبوغ والسيادة الدينية، وكان والده الشيخ محمد إلياس — رحمه الله — لدى مولده
يتولى التدريس في مدرسة مظاهر العلوم بـ «سهارنפור» .

وكانت الأسرة التي نشأ فيها الشيخ محمد يوسف معروفة بالزهد والقناعة
والتدين والتعبد، حتى النساء فيها كنَّ في غاية من التزهد والتورع فضلاً عن الرجال،
وكان حفظ القرآن الكريم عادةً شائعة وسنةً متبعة في هذه الأسرة العريقة في العلم

والفضل والصلاح والكرم، وكان الصغار والشيوخ والنساء والرجال يحفظون القرآن الكريم بصفة عامة، وكانت النساء بجانب أعمال البيت يشتغلن بالذكر والتسبيح بصورة دائبة.

كانت سوق العلم نافقة، وكان جو الورع والتقوى والزهد سائداً، وقد أنجبت هذه الأسرة عدداً كبيراً من العلماء والفضلاء والمشايخ في عصور مختلفة، فلم يخل عهد من العهود من الصالحين والمصلحين والعلماء والدعاة.

نشأ الشيخ محمد يوسف في رعاية والده الشيخ محمد إلياس — رحمه الله — ، وكانت لهذه الأسرة صلة بكبار المشايخ والعلماء، على رأسهم الشيخ خليل أحمد السهارنفوري الذي كان يهتم كثيراً به، ويدعو له، ويشفق عليه ويرعاه.

حفظ القرآن الكريم:

حفظ الشيخ محمد يوسف القرآن الكريم ولم يتجاوز سنه العاشرة، وكان أستاذه الحافظ إمام خان الميواتي من أبرع حفاظ عصره، وكان الشيخ سيد أحمد الشقيق الأكبر للشيخ حسين أحمد المدني الذي كان عالماً جليلاً ومحدثاً كبيراً، وكان قد هاجر إلى المدينة المنورة، وأنشأ هناك مدرسة العلوم الشرعية بجوار المسجد النبوي الشريف قد بعث إليه شهادة حفظ القرآن الكريم من المدينة المنورة، وكان الشيخ محمد يوسف يقيم بحي «نظام الدين» في تلك الأيام في رعاية والده الشيخ محمد إلياس — رحمه الله — وترتيبه.

صلته بالشيخ خليل أحمد السهارنفوري:

كان الشيخ محمد يوسف منذ صباه يتمتع برعاية كبار العلماء والمشايخ الذين كانوا يتوسمون فيه مخايل النجابة والنبوغ وملامح الخير والرشد، فنشأ في أحضانهم، وترعرع في رعايتهم، واستهل حياته العلمية تحت إشرافهم وتوجيههم، وكان الشيخ خليل أحمد السهارنفوري يميل إليه، ويعطف عليه، ويضعه موضع حب خاص، وكان الشيخ محمد يوسف نفسه يتعامل معه معاملة الولد العزيز مع والده الحنون، فيخاطبه بالوالد، وكان في بيته خادمة تخبز الخبز، فذات يوم سمعت الشيخ محمد يوسف يقول:

لا آكل الخبز إلا الخبز الذي خبزه والدي بيده، فدخل الشيخ خليل أحمد منزله وقال: أنا أخبز الخبز لابني العزيز، ثم خبزه بيده وأطعمه.

حنينه إلى الحج والزيارة:

غلبه الحنين إلى الحج والزيارة وهو لم يتجاوز ثلاث سنوات من عمره، وكان لخادمة الشيخ خليل أحمد عَنَاقُ، فكان الشيخ محمد يوسف يجري وراءه طول النهار، ويقول مخاطباً له: إنني أرحل إلى الحجاز للحج والزيارة على ظهرك، وعندما يدخل الشيخ خليل أحمد المنزل، يسأله بغاية من العطف والحنان إلى أين تذهب يا بني؟ فيرد على الفور بغاية من البساطة والسذاجة: أذهب إلى الحجاز للحج والزيارة، فيقول له: كيف تذهب وليس عندك مركب؟ فيجيبه بثقة بالغة، أذهب إلى الحجاز على ظهر هذا العناق، فيسر الشيخ خليل أحمد بذلك الرد، ويتهلل وجهه.

تربيته:

كانت أمه بنت الشيخ رؤوف الحسن، وكانت تُعرف بالصلاح والتعبد والتورع والتقوى، وتمتاز بالاستقامة والصلابة، والتقشف في الحياة، والعمل بالعزيمة، والاشتغال بتلاوة القرآن الكريم.

وكان أبوه الشيخ محمد إلياس — رحمه الله — من أقوى الدعاة الذين عرفهم العالم الإسلامي في العهد الأخير، ولم ير مثله في قوة الإيمان بالغيب، والاعتماد على الله، وقوة الدعوة، والانقطاع إليها، والتهالك عليها، والتجرد لها، والنجاح في مهمته. وكانت له طريقة خاصة في التعليم والتربية، فاهتم بتربية نجله البار اهتماماً بالغاً، وقام بتربيته أحسن قيام، وراعى في ذلك كل صغير وكبير، واستخدم فيه أساليب حكيمة ولطيفة، وتنبه إلى دقائق الأمور التي كان لا يمكن أن تخطر ببال خبراء علم النفس، وكان قد بلغ في رجاحة عقله، وسمو فكره، ونفوذ ذهنه أنه يشخص الأمراض، ويحدد الأخطاء، ويضع إصبعه على مواضع الذهول والانزلاق.

كانت هذه الرقابة الشديدة التي كان يقوم بها الشيخ محمد إلياس — رحمه الله — عبئاً في أعين بعض الناس الذين كانت نظرتهم سطحية إلى الأمور، وكانوا يعتبرون

بعض التصرفات والسلوك أموراً صادرة عن الطفولة، لكن نظر الشيخ محمد إلياس كان عميقاً وفاحصاً، وكانت له فراسة إيمانية لا يصل إليها كبار علماء النفس والتربية الدنيوية، فكان لتربيته وتأديبه وتحذيره أثر بعيد المدى، عميق الجذور في نفس الشيخ محمد إلياس، وظهرت نتائجها في المراحل المتأخرة في حياته.

إن هذا المنهج التربوي هو الذي ساعده في تكوين شخصيته وصقل مواهبه وتنمية مؤهلاته، ونهوض همته، وإشعال جذوة الإيمان في قلبه، ومنحه حياة دعوية أشرفت إشراق الشمس في رابعة النهار، وأضاءت العالم بنورها، وأشعلت مجامر قلوب آلاف مؤلفة من الناس.

وكان يقول الشيخ محمد يوسف لأحد رفقاته وهو يقص عليه قصة من قصص تربية والده:

كان أبي الشيخ محمد إلياس – يرحمه الله – لا يحب أن أشرب الشاي، فكانت والدتي تعد الشاي لي، وتقدمه لي بعد خروج والدي من المنزل، واندلعت نيران الحرب العالمية خلال هذه الأيام، وارتفع سعر الشاي، فأردت أن أترك شرب الشاي لغلائه، وذهبت إلى أبي، وقلت له: سوف لا نشرب الشاي من الآن، فسُرَّ بذلك كثيراً، لكنه سألني عما دفعني إلى ترك شرب الشاي، فقلت له: لقد ارتفع سعر الشاي، فأنا لا أريد أن أثقل عليك بدفع هذا الثمن الغالي، ولم يعجبه هذا التفكير بل أثار غضبه، وتحول سروره حزناً عميقاً، وقال: لا تترك الشاي لمجرد ارتفاع الثمن، فإن الله سبحانه وتعالى الذي يقدر على أن يعطي روية يقدر على أن يعطي روبيتين.

ويحكى قصة أخرى:

ذات يوم جاء بعض الضيوف إلى منزلي للقاء والدي، فأحضرت لهم الشاي، فلما انفضَّ المجلس، وتفرق الجمع، ذهبت بالأكواب والأواني الأخرى إلى داخل المنزل، وفقدت ملعقة من الملاعق، فأعربت والدتي عن سخطها، وحملت ذلك على عدم مبالأتي بهذا الأمر، وفي هذه الأثناء دخل والدي، فأخبرته أمي بذلك قائلة: فقد يوسف ملعقة، فالتفت إليّ والدي وقال: هل كنت تملك تلك الملعقة، كيف فقدتها؟ فتعلمت من ذلك درساً لا أنساه في حياتي، وهو أن الأشياء التي لا نملكها

لا علاقة لنا بها، وتوصلت بذلك إلى نتيجة أن هذه الأشياء في الظاهر ملك الإنسان، لكنها في الحقيقة ملك الله سبحانه وتعالى كما جاء في القرآن الكريم:

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْتَ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾، ولذلك

كان الشيخ محمد إلياس - رحمه الله - لا يعتبر هذه الأشياء ملكاً له من هذه الناحية. ذكر الشيخ محمد يوسف منهج أبويه في التعليم والتربية في اجتماع كان يضم عدداً من معارفه وثقاته فقال:

كانت تربية والدتي تربيةً عجيبةً، فقد كانت إذا جاءت امرأة بفواكه أو حلويات، ونظرتُ إليها رغبةً فيها، تنهال عليّ بالضرب بعد عودة هذه المرأة وتقول لي: لماذا كنت تنظر إلى هذه الحلويات والفواكه طمعاً فيها.

إن حياة الترف والبذخ، والاهتمام الزائد بالكماليات والاستهانة بمال الله في سبيل اللذة والشهوة والفخر والزينة، هي التي تفسد الدين والأخلاق، وإن الأطفال الذين يقعون في مجتمع فاسد منحط أو ينشأون في أحضان الثروة والدلال، والحب المفرط من الوالدين يعودون ثقلاً على الأمة، وعبئاً على البلاد، ووبالاً على الأسرة.

وكان من النعم التي أسبغها الله سبحانه وتعالى على الشيخ محمد يوسف: هي أنه ولد في بيئة متدينة، ونشأ في أحضان العلماء والمشايخ، وكان عهد طفولته عهد بؤس وعسر، يجوع أهل بيته أحياناً، ولكن لا يعرف الناس، ولا يطلع أحد على هذه الأحوال إلا بعض الثقات والرفقاء والخدم، وكان الكبار والصغار كلهم يرضون بهذه الأحوال، ويضربون مثلاً رائعاً في الصبر والقناعة.

وقد ألقى الشيخ محمد يوسف الضوء على هذه الأوضاع التي مرّ بها أبوه في تلك الأيام وهو يرّد على سؤال وجهه إليه الشيخ رشيد الفارسي [كان من أعيان مكة المكرمة] الذي قدم إلى الهند أكثر من مرة في جولات دعوية بعد تقاعده عن الوظيفة التي كان يشغل بها في مكة المكرمة، فقال:

في عهد والدي كنا نجوع أحياناً، ويستمتع زملاؤه ورفقاؤه والعاملون في مدرسة كاشف العلوم بهذه الفاقة، وذات مرة كانوا قد أصيبوا بفاقة منذ عدة أيام، وكان لا يوجد شيء، لا في داخل البيت ولا في خارجه، فخرج الشيخ محمد إلياس

من غرفته، وجمع أساتذة المدرسة وطلابها وموظفيها حول بِرْكَةِ المسجد، وقال لهم: لا ترهقوا أنفسكم من أجلي، إذا أردتم أن تذهبوا إلى مكان آخر، أو تشتغلوا في مدرسة أخرى، فافعلوا ذلك، أما أنا فأعيش على ماء هذه البركة؛ لأنه لا يوجد في البيت ولا في المدرسة شيء يؤكل، فأجاب أهل المدرسة بصراحة وثقة ويقين: نحن لا نفارقك أبداً، ونعيش أيضاً على ماء هذه البركة، فاغرورقت عيناه بهذا الرد، ودخل غرفته، وخرج بعد برهة وقال: «إن الله سبحانه وتعالى يهون علينا هذا الأمر، ويزيل الفاقة».

ويذكر أحد زملائه وصاحب سره حالة الفقر والعوز التي عانى منها هو نفسه مع الشيخ محمد يوسف في عهد طفولته فيقول:

كلما يأتي الدقيق من مكان يلقي في صندوق كان قد وضع لذلك، وكان يخبز به في داخل البيت وخارجه، ونفذ الدقيق ذات يوم، وكان الناس جائعين منذ أيام، ففتح الشيخ محمد يوسف هذا الصندوق وأخرج الدقيق الذي كان قد اعتلق بشقوق الصندوق، ودخل في ثقبه، وبذل في ذلك قصارى جهده، فبينما كان كذلك إذ خرج الشيخ محمد إلياس — رحمه الله — من غرفته، ورآه منهمكاً في عمله، باذلاً في ذلك قصارى جهده، فسأله: ماذا تفعل؟ وتأثر بهذا المنظر، ودخل غرفته، وبعد قليل خرج قائلاً:

«يا بني لا نعاني بعد اليوم من الفاقة إن شاء الله».

نشأ الشيخ محمد يوسف وترعرع في هذه البيئة التي يسودها الفقر والبؤس، وقام والده الشيخ محمد إلياس بتربية نجله تربية يتحلى فيها بالجود والسخاء والإيثار والتضحية، والذكر والعبادة، وصدق عليه قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَيُؤْتِرُونَكَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾، ولم ير أحد قط أنه أكل طعاماً وحده في يوم دون أن يعبأ بما حل برفقائه وضيوفه من الجوع والسغب، يصف الشيخ محمد إلياس إدريس الأمبيتهوي الذي كان زميله في الدراسة ويصافيه ويرافقه منذ صباه الباكر هذه الميزة للشيخ محمد يوسف، فيقول:

إن الهدايا والتحف التي كان يقدمها الناس إلى الشيخ محمد إلياس — رحمه الله —

كانت ترسل إلى بيته، وتقدم إليه عند الفطور والغداء، لكن الشيخ محمد يوسف كان يأتي بالحلاوة والفواكه وما يوجد في البيت، ويجلس مع الطلبة في غرفته، ويأكل هو ويطعم غيره، ولا يترك منها شيئاً للغد.

نشأ الشيخ محمد يوسف بفضل هذه التربية نشأة مثالية نموذجية، كان يعيش بالكفاف، ويسافر بالمراكب العادية، يصرف كل ما يملكه على حركته، يتهالك على توفير أسباب الراحة للبعثات، لا يتشاغل فيما لا يعنيه، ولا يعنى بالأمور التي لا تجديه، ولا يضيع وقته في اللهو واللعب، والتزهد والتفرج.

يقول هو عن نفسه:

لا أذكر أنني اشتريت شيئاً من السوق إلا مرة واحدة في حياتي، وليس ذلك لأنني ما كنت أملك من المال أو كنت لا أطيق دفع الثمن، بل يرجع ذلك إلى أنني كنت أدخر كل ما كنت أحصل عليه من مال لشراء كتب السيرة النبوية.

ويكتب زميله الشيخ محمد إدريس الأنصاري:

كنت من أقرب أصدقاء الشيخ محمد يوسف، وكنت ألزمه منذ ثلاث سنوات وما رأيته خلال هذه المدة يتجول في الأسواق أو يتزهد في الحدائق، وإنما رأيته دائماً في البيت أو في المدرسة، كان يلعب بعد صلاة العصر، ويغتسل في نهر اليمنا، ويخدم الضيوف الوافدين.

وقد سبق أن كبار العلماء والمشايخ في ذلك العصر كانوا يعطفون على الشيخ محمد يوسف لكونه سليل أسرة كريمة عريقة في العلم والفضل، ولكونه نجل الشيخ محمد إلياس — رحمه الله — الذي اهتدى على يده آلاف مؤلفة من الناس، وفتحوا صفحة جديدة من حياتهم بجهوده الزائدة.

وكان في مقدمة هؤلاء العلماء والمشايخ: الشيخ خليل أحمد السهارنفوري، والشيخ عبد القادر الرثيفوري، والشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، الذين لعبوا دوراً بارزاً في تكوين شخصيته، والوصول به إلى هذه الدرجة من العلم والفضل، والصلاح والتقوى، والزهد والورع، والإيثار والتضحية، وتحمل الأذى والمشاق في سبيل

الدعوة، ولذلك كان يعامل الشيخ محمد يوسف هؤلاء المشايخ والعلماء معاملة الأبناء مع الآباء، كان يحضر إليهم، ويستمع إليهم، ويمثل أوامرهم، ويسلك منهجهم ويضيف إليهم كل خير، وينفي عنهم كل سيء، ويصفهم بجلال الأعمال، ويسبغ عليهم صفة من التقديس والجلال، وكان يرحل إلى «سهارنفور» و«ديوبند» و«رائيفور»، ليرتشف من مناهلهم ويقتبس من أشعة أنوارهم، وكان يضع عجزه وفقره بالقياس إلى هؤلاء العلماء في اعتباره.

إن الخطوات التي اتخذها هؤلاء العلماء والمشايخ في سبيل تعليمه وتربيته لا تستوعبها إلا مجلدات ضخمة.

الشغف الزائد بتلاوة القرآن الكريم:

نجد كل من ينتمي إلى هذه الأسرة الكريمة من بين رجل وامرأة مشغوفاً بتلاوة القرآن الكريم، نرى الآباء يشوقون أبناءهم إلى تلاوة القرآن الكريم، الأبناء يتسابقون إليها، والأمهات يفتخرون بها ويكثرن فيها، فكيف لا نجد الشيخ محمد يوسف مشغوفاً بها، وهو يفضلها على كل عمل.

يكتب الشيخ محراب خان الميواتي عن شغفه بتلاوة القرآن الكريم فيقول:
كان الشيخ محمد يوسف في الخامسة عشرة من عمره، فكانت جماعة تتوجه إلى «كاندهله»، فأشار إلي الشيخ محمد إلياس أن أصحابه في هذه الجولة الدعوية، فقلت ذلك له فرفض، فخيرته بين أمرين: إما أن ينخرط مع هذه الجماعة التي تتوجه إلى «كاندهله»، وإما أن يصلي بنا التراويح في رمضان الآتي، فقبل الثاني بغاية من السرور والبهجة.

نفوره من السؤال:

كانت طبيعة الشيخ محمد يوسف تأبى التساؤل منذ صباه، وكان يعده عيباً وعاراً وذلة، وكان يمنع الآخرين أيضاً من السؤال، ويحكي الشيخ محراب خان الميواتي قصة طريفة في هذا الصدد، فيقول:

كان الشيخ محمد يوسف مرة يأكل الخبز، وهو لم يجاوز عشر سنوات من عمره، فقلت له: أعطني خبزاً، فقال بهدوء وبساطة: إياك والسؤال.

خدمة الضيوف :

كان يغدو عدد كبير من الضيوف إلى حي «نظام الدين» بدلهي، وكان الشيخ محمد إلياس - رحمه الله - يكرمهم ويعتني بطعامهم شخصياً.

وكان قد كلف الشيخ محمد يوسف الذي كان عمره يتراوح بين اثني عشر وثلاثة عشر سنة بخدمة الضيوف والاهتمام بقطورهم وغدائهم، يحضر الطعام من المنزل كل يوم، وينظر إلى أن يفرغوا من طعامهم ليعيد الأواني إلى المنزل، وكانت مدرسة كاشف العلوم لا تتكفل نفقات الطعام للطلبة في ذلك العهد لضالة الموارد المالية، فكان الطلبة يعدون بأنفسهم الطعام بالتناوب، وكان الشيخ محمد يوسف يشاركهم في هذه الأعمال كلها، حتى تهيئة الوفود وإعداد مواد الأغذية.

ف ذات يوم كانت نوبته لإيقاد النار، فذهب إلى الغابة وأتى بالحطب وجعل يوقد النار، وكانت بالحطب أثر البلبل فلم يشتعل النار جيداً وإنما ارتفع دخان كثيف، وظل ينفخ بدون جدوى حتى تعب وكلّ، وكان الشيخ محمد إلياس ينظر إليه من بعيد، فانتظر برهة ثم جاء إليه وألقى الأوراق في الحطب، وأوقد النار بعود الكبريت واشتعلت النار، فقال: ينبغي لكل رجل أن يتعلّم هذه الأعمال قبل أن يباشرها.

دراسته الأولى :

حفظ القرآن الكريم من الحافظ إمام خان الميواتي، وهو لم يجاوز عشر سنوات من عمره، وأخذ القراءة والتجويد عن المقرئ معين الدين، وقرأ الرسائل المختصرة في النحو والصرف على أبيه، وقرأ سائر الكتب الدراسية من المعقول والمنقول عليه وعلى غيره من العلماء والأساتذة في مدرسة «كاشف العلوم» بدلهي، وحفظ «الأربعين» للشيخ ولي الله الدهلوي و«الملا جامي»، والقاضي ثناء الله الباني بتي، في المرحلة الابتدائية.

التعليم المتوسط :

قرأ الكتب الفقهية على الشيخ مقبول حسن الكنگوهي، وألحقه أبوه الشيخ محمد إلياس بمدرسة مظاهر العلوم بـ «سهارنفور» حين رحل إلى الحجاز للحج

والزيارة سنة ١٣٥١هـ، فقرأ «الهداية» (١ - ٢) على الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، وقرأ «المبدي» على الشيخ جميل أحمد، وعاد إلى «نظام الدين» بعد عودة أبيه من الحجاز، وقرأ «مشكاة المصابيح» على أبيه و«الجلالين» على الشيخ احتشام الحسن الكاندهلوي، وبدأ تحقيق الرواة من الصحابة والتابعين.

دراسته العليا للحديث النبوي الشريف :

أدخله أبوه الشيخ محمد إلياس في مدرسة مظاهر العلوم سنة ١٣٥٣هـ مرة ثانية، فدرس هناك كتب الصحاح الأربعة، فقرأ «الجامع الصحيح» للبخاري على الشيخ عبد اللطيف، و«الجامع الصحيح» لمسلم على الشيخ منظور أحمد خان، و«سنن الترمذي» على الشيخ عبد الرحمن الكيملفوري، و«سنن أبي داود» على الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي.

يكتب الشيخ إنعام الحسن وهو رفيقه في الدرس ما يدل على شغفه بالدراسة والمطالعة، فيقول:

قررت أنا والشيخ محمد يوسف أن واحداً منا يسهر في النصف الأول من الليل ويقوم بالمطالعة بينما ينام الآخر في ذلك الوقت، وعندما يبدأ النصف الأخير من الليل يصنع الذي كان يقوم بالمطالعة الشاي ويوقظ صاحبه ويشرب الشاي معاً، ثم ينام من قضى هذا الوقت ساهراً ويسهر الآخر في النصف الأخير ويقوم بالمطالعة حتى يؤذن المؤذن لصلاة الفجر، فيقوم ويوقظ صاحبه لصلاة الفجر، فكان الشيخ محمد يوسف يقوم بالمطالعة في النصف الأول من الليل يوماً، وكنت أنام، وفي اليوم التالي كنت أقوم بالمطالعة في النصف الأول من الليل، وهو ينام، لكنه اضطر إلى أن ينتقل إلى «نظام الدين» بـ «دلهي» من مدرسة مظاهر العلوم بـ «سهارنفور» لإصابته بمرض قبل أن تنتهي السنة الدراسية، وانتقل معه الشيخ إنعام الحسن أيضاً، وقرأ كلاهما الجزء الذي كان بقي من الصحاح الأربعة، بجانب «سنن ابن ماجه»، و«سنن النسائي» و«شرح معاني الآثار» للطحاوي و«المستدرک» للحاكم على الشيخ محمد إلياس - رحمه الله - في «نظام الدين».

عكوفه على الدراسة واشتغاله بالعلم :

كان الشيخ محمد يوسف مولعاً بالدراسة منذ صباه، وكان لا يغفل عن واجبه على عكس أترابه وأخذانه، وكان لا يضيع وقته في اللهو واللعب، وكان يقرأ الكتب التي تحدث عن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، تحدث عن تضحياتهم في رفع شأن الأمة، وبطولاتهم في ميادين الحرب، وحرصهم على نشر الدعوة الإسلامية ومغامراتهم في الذود عن الشريعة، والجوانب المهمة الأخرى المتعلقة بحياتهم بشغف زائد وعناية فائقة قبل أن يبدأ في دراسة الكتب الفقهية، لكنه حينما بدأ في دراسته كتب الحديث والفقه انقطع إليها، وعكف عليها.

يسرد الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي حادثاً يدل على مدى اشتغاله بالعلم وانهماكه فيه :

«كان يُلحَّ بعض الثقات في دلهي على عمي الشيخ محمد إلياس — رحمه الله — أن يأتي بنجله الشيخ محمد يوسف إلى حفلة الزواج، وكان يعز على الشيخ محمد يوسف أن يشارك في الأعراس لانهماكه في الدراسة فيرفض ذلك، وإذا أكرهناه على الذهاب إلى دلهي يأخذ مني العهد على أن لا أطلبه بالتوجه إلى مكانٍ ما، وإذا قال لي الشيخ محمد إلياس أن أصحابه معي أعذر إليه وأقول: إني لا أرغمه على الذهاب إلى ذلك المكان».

يقول الشيخ محمد صديق الذي كان يرافقه في القيام بأعمال مختلفة وهو يصف عكوفه على الدراسة :

كان الشيخ محمد يوسف يطالع الكتب في الغرفة العالية التي تقع في الضاحية الجنوبية للمسجد، ويكتب ويقرأ، ويسهر إلى منتصف الليل ويرقد في آخر الليلة، ويناديه الشيخ محمد إلياس عند صلاة الفجر، فيهب واقفاً على نداءه، ويستعد للصلاة، وكان يقول هو نفسه: كنت أسهر إلى الساعة الثالثة من الليل بصفة عامة، وأشتغل بالدراسة، ولا أشعر في هذا البرد القارس أن بطانيتي انزاحت عن رجلي.

زواجه :

تم عقد قران الشيخ محمد يوسف على بنت عمه الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي الكبرى في الحفلة السنوية لمدرسة مظاهر العلوم في ٣/ محرم سنة ١٣٥٤هـ بغاية من البساطة وبدون أي إعلان أو إعداد سابق له، فكان هذا الزواج مصادفة لكثير ممن لهم صلة بهذه الأسرة، فلم يعين له موعد سابق وشارك فيه عدد من العلماء والدعاة والصالحين الذين حضروا للحفلة السنوية في المدرسة، والمسؤولون عن مدرسة مظاهر العلوم ودار العلوم بديوبند، بجانب إعداد غفير من العلماء والمشايخ الذين وصلوا من مناطق بعيدة أخرى للاشتراك في المؤتمر.

الحج الأول :

كان الشيخ محمد إلياس - رحمه الله - يتمنى دائماً أن تجتاز هذه الدعوة التي شقت طريقها في هذه البلاد البعيدة عن مهد الإسلام ومهبط الوحي، ولا تزال تتقدم وتزدهر بجهود القائمين عليها، وبدأ المسلمون في شتى أنحاء هذه البلاد في الانضمام إليها والانخراط فيها، فكان يتمنى أن تجتاز حدود الهند وتصل إلى الخارج، وخاصةً إلى الديار العربية التي انطلقت منها هذه الدعوة، وتنال قبولاً ورواجاً فيها، ويقبل سكانها على هذه الدعوة قائلين: «بضاعتنا ردت إلينا»، وتغلبت هذه الفكرة على مشاعره، وتملكت أحاسيسه، وحفزته إلى أن يقوم بنفسه برحلة إلى الحجاز للحج والزيارة سنة ١٣٥٦هـ وكانت هذه الرحلة هي الرحلة الثالثة له.

وكان يرافقه في هذه الرحلة إلى الأرض المقدسة لشهود موسم الحج كل من الشيخ محمد يوسف، والشيخ احتشام الحسن، والشيخ نور محمد الميواتي، والشيخ طفيل، والشيخ إلياس، والشيخ سلطان العارفين، والشيخ إدريس الأمبيتهوي، والشيخ ظهير الحسن، والأستاذ محمود الحسن الكاندهلوي، وانضم الشيخ عبد الرحمن الميواتي والشيخ جميل أحمد إلى هذا الركب الميمون المتجه إلى الحجاز للحج، وكان الشيخ محمد يوسف لم يتجاوز الحادية والعشرين سنة حينئذٍ، وكان يشتغل بالدراسة.

فتوجه هذا الركب المبارك إلى مدينة «كراتشي» عن طريق بلدة «رائي وند» في الساعة التاسعة ليلاً في العشرين من شهر يناير/كانون الثاني سنة ١٩٣٨م بالقطار، وغادر كراتشي إلى جدة بسفينة تسمى بـ «ايس ايس رحمانى» في الثالث والعشرين من شهر يناير/كانون الثاني سنة ١٩٣٨م في الساعة الحادية عشرة ليلاً، ورسّت السفينة بسلامة الله في ميناء جدة في ١ فبراير/شباط سنة ١٩٣٨م ووصلوا إلى مكة المكرمة في ٤/ فبراير يوم الجمعة، ونزلوا بدار بالقرب من «باب إبراهيم»، واشتغلوا بالدعوة خلال إقامتهم بالحجاز، وألقى الشيخ محمد يوسف خطبة باللغة العربية في اجتماع عقد في جبل أحد، وحضره عدد كبير من الناطقين بالضاد، وكانت هذه الخطبة الخطبة الأولى التي ألقاها الشيخ محمد يوسف باللغة العربية، وأخذت كلمته بمجامع القلوب، ومهدت الطريق لهذه الدعوة في هذه المنطقة، وأبدى العرب تقديرهم لجهوده، وإعجابهم بدعوته، وأبدوا نيتهم للخروج في سبيل الله.

ذوقه العلمي والتألفي :

كان الشيخ محمد يوسف شغوفاً بالمطالعة العلمية عاكفاً على الدراسة منقطعاً إليها، يقضي ساعات بين الكتب حينما كان يدرس في مدرسة كاشف العلوم بدلهي، ومدرسة مظاهر العلوم بهارنפור، وقد تابع نشاطاته العلمية والتأليفية بعد ما أكمل دراسته، وتخرج من المدرسة، وصرف أكبر جزء من حياته في سبيل العلم، وانهمك في الدراسة طول حياة أبيه، وكان قد غلبه الحنين إلى التأليف، فظل يشغل به آناء الليل وآناء النهار، وكان يعز عليه أن يوجه اهتمامه إلى أمور أخرى مهما كانت مهمة، ما عدا الدراسة والمطالعة، حتى أنه كان لا يعتني بالحركة التي كان أبوه يقودها، ولا تهمة هذه الدعوة التي كان يسهر عليها والده، ويجاهد في سبيلها، وعاش على حبها، وتفانى في سبيلها.

يكتب الشيخ محمد منظور أحمد النعماني وهو يصف حاله في تلك الأيام :

«كان الشيخ محمد يوسف قد صرف عنايته كلها إلى الدراسة والتأليف والمطالعة، كان قد بدأ في تأليف الشرح على الكتاب القيم في علم الحديث المسمى بـ «لمعان الآثار» للإمام الطحاوي، وكان لا تهمة في تلك الفترة الدعوة التي قام بها

أبوه، وأضنى فيها نفسه، واستنفد فيها قواه، وأذاب فيها روحه، وكان يقتني أثر أستاذه ومربيه الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، وينسجم معه كلياً، وكان يساهم في النشاطات الدعوية والإصلاحية حيناً بعد حين، لكن هذه الأعمال الدعوية كانت في المرتبة الثانية بالنسبة له، فحصر نفسه في الدراسة ومطالعة كتب الحديث وتحقيقتها، والتأليف فيها، وتدل الرسالة التي وجهها إلى الشيخ أبي الحسن علي الحسيني الندوي على انهماكه في الدراسة وعدم عنايته بأمر الدعوة:

«لقد أحجمتُ عن دعوة والدي الشيخ محمد إلياس — رحمه الله — مدة طويلة، ولم أعبأ برغبته في أن أتحمس لدعوته، فكنت كلما أسمع عن رحلة كانت تأخذني قشعريرة، وكنت كلما سمعت عن لقاء أو إرسال جماعة كنت أخاف على نفسي، وكنت كلما يصدر والدي أمراً بالخروج كنت أتردد وأضطرب، وقد كان ذوقي ينسجم مع ذوق عمي وأستاذه الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، وكنت أخالف رأي والدي بجرأة وصراحة، حتى قال لي مرة حين اعتراه مرض: إنك أطعني في الأمور التي أطاعني فيها الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، ثم أخبرني عن الخروج في بعثة كانت تتجه إلى «ميوات» فتجولت فيها شهراً، واختلطت بسكانها، ولقنتهم الكلمة، علّمتهم الدين وربطتهم بالكتاب والسنة، ودعوتهم إلى الخروج في سبيل الدعوة، وشعرت خلال هذه المدة بسرور بالغ وطمأنينة غريبة وهدوء تام، لكن عندما رجعت من هذه الجولة عدت إلى أيامي الأولى، وعكفت على الدراسة، وشرعت في تأليف الشرح على الطحاوي، وغلبت هذا العمل على الدعوة».

شغفه الزائد بالمطالعة واقتناء الكتب:

كان الشيخ محمد يوسف يحرص على اقتناء الكتب العلمية بصفة عامة وكتب الحديث والفقه بصفة خاصة، لشغفه بالمطالعة، وغرامه بالدراسة واشتغاله بالتأليف والتدريس، وكان يبذل في ذلك قصارى جهده، ويصرف كل ما يملكه من وسائل وإمكانات.

يكتب الشيخ نور محمد وكان يرافقه في حله وترحاله ولازم صحبته من بداية أمره:

كان الشيخ محمد يوسف يختلف كثيراً إلى المكتبات ودور النشر في دلهي، وخاصة المكتبات التي كانت تباع فيها الكتب القديمة بسعر منخفض.

وفي سنة ١٣٥٦هـ التي رحل فيها الشيخ محمد إلياس إلى الحجاز للحج والزيارة كنا نعدّ الطعام بالتناوب، فكنت أخبز الخبز، والشيخ محمد يوسف يعدّ الإدام، وكان من عادته أنه يعدّ الطعام على عجل ليوفر الوقت للمطالعة أو البحث عن كتب، فيتوجه أحياناً إلى المكتبات، ويشتري الكتب الثمينة النادرة، وإذا لم يتمكن من الذهاب إلى المكتبات انصرف إلى مطالعة كتب حصل عليها، ولشغفه بالمطالعة وجمع الكتب نشأت لديه مكتبة خاصة، قدرت قيمة الكتب التي احتوت عليها لدى وفاته بأربعين ألف روبية على الأقل.

وكان شغفه هذا لا يعدله شغف ولا يساويه غرام، وكان لا يتردد في إنفاق كل ما يملكه على شراء الكتب، وقد حدث مراراً أنه باع ملابسه واشترى بها الكتب، ورغم ذلك لا يروى غليله ولا تشبع نفسه، بل يزداد حنينه إلى الكتب ويتصاعد، وكان يعتبر كل ما يدفعه من ثمن في شراء الكتب رخيصاً وزهيداً.

ذوقه الأدبي:

كان الشيخ محمد يوسف يملك ذوقاً أدبياً رفيعاً لطيفاً إلى جانب ذوقه العلمي والديني، وكان من أمره منذ طفولته أنه إذا اشترك في مجلس من المجالس الأدبية عادت إليه الحياة، ودبّ فيه الروح، وكانت تجري على لسانه أبيات مختارة باللغة الأردية والفارسية، وإذا أنشد بيتاً في المجلس يتمتع به المستمعون طويلاً، وإذا نطق بكلمة سرت في المجلس الروح وعاد إليه النشاط، وكان لديه دفتر يضم مئات من أبيات الشعر بالعربية والأردية والفارسية، والأقوال المأثورة والحكم والأمثال والنوادر، والنكت والأخبار.

كنت حضرت إليه في مطلع سنة ١٩٤٥م ومكثت عنده مدة من الزمن، وأراني هذا الدفتر خلال هذه المدة، ونقلت منه لأستفيد منه في حياتي.

وكان كثير من معارفه وأصدقائه الذين لازموا صحبته، وشاركوا في مجلسه

ورافقوه في رحلاته وجولاته، يحكون قصصاً كثيرة تدل على ذوقه الأدبي العالي ومعرفته العلمية، وكان الشيخ محمد يوسف يستشهد بالشعر والحكم والأمثال والنوادر والنكت والأخبار أثناء خطبه وأحاديثه، مما كان يزيد كلامه رونقاً وتأثيراً، ويتمتع به كل من له ذوق رفيع في الأدب والعلم.

تقواه وورعه الكامل :

ورث الشيخ محمد يوسف التورع والاحتباس الكامل في الحياة عن آبائه وأجداده، فكان يحتفظ بهذا التراث ويتمسك به، استعار الشيخ محمد إلياس - رحمه الله - مرة لممارسة الأعمال الدعوية بعض الأشياء التي كان يحتاج إليها، فلم يعجب ذلك الشيخ محمد يوسف، وحكى نفسه هذا الحادث، فقال :

كان الشيخ محمد إلياس يستعمل سيارات كان يملكها بعض رجال الأعمال في دلهي، وكنت أكره أن ندين للأثرياء والموسرين، فقلت لوالدي مرة: إنك تستعمل سيارات لا تملكها وهذا لا يليق بطريق الزهد والقناعة، فأجاب قائلاً: إنني لا أستعير هذه السيارات إلا لمصلحة الدين.

وكان يرجع الفضل في هذه المزايا والخصائص التي كان يتحلى بها الشيخ محمد يوسف إلى تربية والده الشيخ محمد إلياس - رحمه الله - وتوجيهه ورعايته.

كان الشيخ محمد يوسف لا يتردد في قول الحق رغم صغره، ولكنه كان يراعي احترام من هو أكبر منه كل الرعاية، وكان الشيخ محمد إلياس يُعرب عن بهجته بأسلوبه في قول الحق، ولا يسخط عليه.

وقد حكى الحافظ محمد صديق حادثاً غريباً في هذا الصدد:

«حضر المنشي غلام سرور الميواتي الذي وهبه الله سبحانه وتعالى ذوقاً رفيعاً في الشعر إلى الشيخ محمد إلياس، وأنشد أبياتاً كان قد نظمها في مدح حركة الدعوة والتبليغ، وكان الشيخ محمد يوسف قد حضر لهذه المناسبة، فشرع خلال استماعه لهذه الأبيات أن بعض الأبيات منها قلت في مدح الشيخ محمد إلياس - رحمه الله - فكره أن يمدح الشيخ محمد إلياس بوجهه، فأخذ قرطاساً وألقى فيه تراباً، ووضعه بين

يدي الشيخ محمد إلياس، وخرج من الدار صامتاً، فأعجب الشيخ محمد إلياس بهذا الأسلوب الذي اختاره نجله في قول الحق مع مراعاة الاحترام والتبجيل.

بداية أعمال التأليف:

سبق أن الشيخ محمد يوسف قرأ كتب الحديث من «المستدرک» و «شرح معاني الآثار» على أبيه، وحرص منذ ذلك اليوم على خدمة الحديث النبوي، وعقد العزم على تأليف كتاب يدور حول السنة، وبدأ فعلاً في تأليف «شرح معاني الآثار» للإمام الطحاوي برغبة من الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، وظل يشغل به حتى آخر يومه، وأطلق على هذا الشرح اسم «معاني الأخبار»، وهذا الكتاب هو أول كتاب ألفه الشيخ محمد يوسف، واستوعب ثلاثة مجلدات، وقد صدر الجزء الأول منه، وكان الجزء الثالث تحت التأليف حينما أدركته الوفاة.

مولد الشيخ محمد هارون:

رزقه الله سبحانه وتعالى بعد مضي أربع سنوات على زواجه في ليلة الرابع والعشرين من شهر رمضان المبارك مولوداً، أطلق عليه اسم «هارون».



الباب الثالث

نيابة الشيخ محمد يوسف والده

كان الشيخ محمد يوسف لم يبايع أحداً من العلماء الربانيين الذين كانوا يشتغلون بهذه الدعوة، ويقومون بتزكية النفوس وتغذية العقول في هذه المنطقة، وكان الناس يؤمنونهم من أقصى المعمورة، ويهتدون بهم ويسترشدون، وكانوا مرجعاً لعامة أهل هذه البلاد والخاصة منهم، وذلك لاشتغاله بالعلم، وعكوفه على الدراسة، وانهماكه في التأليف، ثم التفت إلى هذا الأمر حين استرعى الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، الذي كان بمثابة أستاذه ومربيه انتباهه إلى ذلك، فبايع على يد أبيه الشيخ محمد إلياس؛ لأن الله سبحانه وتعالى كان قد كتب له أن يقوم بأعباء الدعوة التي أنشأها أبوه، وتفانى في سبيلها.

ويقول الشيخ إنعام الحسن الذي كان زميلاً له منذ نعومة أظفاره، وساعده ورافقه إلى نهاية حياته، ثم تولى أمر هذه الدعوة بعد وفاته:

لما علم الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي إننا لم نبايع على يد الشيخ محمد إلياس حتى الآن، قال: كنت أظن أنكم قد بايعتم على يد عمي الشيخ محمد إلياس، وعلى كل لا تتأخروا الآن في هذا الأمر، فقلنا للشيخ محمد إلياس: إننا نريد أن نبايع على يدك، فاغتسل الشيخ، وبايعنا باهتمام بالغ وسرور كبير.

عُلُوُّ استعداده:

خلق الله سبحانه وتعالى في قلب كل رجل يؤمن بالله ورسوله الاستعداد وصلاحية القبول لأعمال الخير والرشد للتقرب إلى الله سبحانه وتعالى والارتباط به،

لكن الذين يطلعون على العلوم الدينية، ويعكفون على دراسة كتب الحديث آناء الليل وآناء النهار، ويتمتعون بثقة كبار العلماء ويحظون بعطفهم وحبهم، ويتمنون إلى أسرة كريمة عريقة في العلم والدين يفوقون غيرهم في هذا الاستعداد للقبول، والتوجه إلى أعمال الخير.

وكان الشيخ محمد يوسف من هؤلاء الرجال السعداء الذين يجمعون هذه الميزات، فحكى الشيخ أبو الحسن علي الحسيني الندوي ما قال عنه أبوه الشيخ محمد إلياس - رحمه الله - فقال:

إن الشيخ محمد يوسف يفوق كل من يسكن في هذه الدار في العلم والفضل.

كان الشيخ محمد إلياس على الرغم من أنه يعرب عن تقديره لمكانة نجله الشيخ محمد يوسف، في مجال العلم والدراسة، ويعرب عن إعجابه باشتغاله بالتأليف والمطالعة، كان يكره عدم التفاته إلى أمر الدعوة، وعدم انسجامه معها، وعدم تحمسه لها، وكان يحثه على الإسهام في نشاطاتها، وكان يود أن هذا القلق الذي يساوره في أمر الدعوة يساور نجله أيضاً، وهذه الفكرة التي تستولي على مشاعره وأحاسيسه، فلذلك كان يضطر في بعض الأحيان إلى اللجوء إلى توجيه ضغط على نجله وزجره وتوبيخه، ويأمره بأن يرحل إلى «ميوات».

كان الشيخ محمد يوسف قد ورث عن أبيه البر والصلاح، والفتانة والنباهة، والإذعان والاستسلام، والحب والمودة، والتدين والتورع، ولذلك كان يصرف عنايته عن أشغاله، ويتفرغ لعدد من الأيام امتثالاً لأمر أبيه، ويشارك في بعض الاجتماعات، وكانت هذه المدة التي يقوم بأعباء الدعوة، ويتجول في المدن والأرياف، ويختلط بالناس من كل الطبقات، تستيقظ فيه روح الدعوة، وتشتعل فيه الجمرة الكامنة، لكنه حينما يعود إلى داره ويشغل بالدراسة تخدم فيه تلك الروح، وتكمن فيه تلك الشرارة، وكلما يخرج الشيخ محمد يوسف للدعوة ويقوم بجولات دعوية، أو ينخرط مع جماعة على رغبة من أبيه يبتهج أبوه ويستبشر كأنما على ضالته.

خطبته في بلدة «نوح» :

ألقى الشيخ محمد يوسف كلمته الأولى حول الدعوة إلى الله في بلدة «نوح»، وكان والده أيضاً حاضراً، واعترف كل من حضر هذه الحفلة، واستمع الكلمة بكمال فضله، وفصاحة لسانه، وحسن كلامه، ونصاعة بيانه، وقال: إن هذه الخطبة التي ألقاها الشيخ محمد يوسف كانت خطبة بليغة قوية مؤثرة، خلاصة ناصعة، فاضت فيها قريحته، حكى أولاً حكايات الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، وذكر التضحيات التي قدموها في سبيل الدعوة، ودعا الناس إلى أن يخطوا خطواتهم ويقتدوا بهم ويتمسكوا بدعوتهم ورسالتهم ويؤدوا هذه المسؤولية الملقاة على كواهلهم، وحث على معرفة أهمية الدور الذي هم مكلفون به، والإيمان بصدق هذه الدعوة وانتصارها، والتأهب لبذل النفس والنفس في سبيل نشرها وحمايتها، وكان الشيخ محمد إلياس - رحمه الله - يستمع لهذه الخطبة وهو يتمشى.

يقول الحافظ صديق الذي كانت له صلة بكلا الشيخين: إن الشيخ محمد إلياس كان يبدي سروره ويقول: «سيكون لهذا الولد شأن».

خطبته في بلدة «كنسالي» :

ألقى الشيخ محمد يوسف كلمة ثانية له في مديرية «كنسالي» بعد هذه الكلمة التي ألقاها في بلدة «نوح»، وكانت هذه الكلمة أيضاً مثل الكلمة الأولى في القوة والتأثير، أكد فيها على الاشتغال بالدعوة والقيام بأعبائها والتفاني في سبيلها.

اجتماع «خيرتل» :

يقول الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي وهو يتحدث عن مشاركة الشيخ محمد يوسف في الحفلات الدعوية الشعبية، وإلقاء الكلمات فيها، وإبداء الشيخ محمد إلياس السرور لحضوره وإعجابه بكلمته:

إن قرية «خيرتل» قرية تقع على ثغور ولاية راجستهان، فتوجهت أنا والشيخ محمد إلياس والشيخ محمد يوسف والشيخ محمد ناظم الندوي إلى هذه القرية لحضور اجتماع عقد فيها سنة ١٩٤١م، وأمر الشيخ محمد إلياس نجله الشيخ محمد

يوسف بأن يلقي كلمة بعد صلاة المغرب بدلاً منه، فألقى كلمة لم تعجبني أنا ولا الشيخ محمد ناظم كثيراً، وبعدها انتهى من خطبته، أشاد بها الشيخ محمد إلياس، وأبدى إعجابه بها، وقال: ألقى محمد يوسف كلمة رائعة، فعجبنا وفكرنا فيما أعجب الشيخ محمد إلياس؛ لأننا لم نقدر هذه الخطبة، فانتبهنا إلى أن الشيخ محمد إلياس ينظر من وراء هذه الخطبة إلى المواهب الكامنة التي ستبرز في الأيام المقبلة.

وبعد هذه الخطب التي كان ألقاها في الحفلات الشعبية جعلت قريحته تنفتح وقلبه ينشرح، وصلته بهذه الدعوة تزداد وتوثق، وبدأ يتفرغ لتحمل أعباء هذه الدعوة، وتبليغ هذه الرسالة لمدة قصيرة، بالإضافة إلى الاشتغال بالدرس والإفادة والعكوف على الدراسة والمطالعة، ويقوم بذلك كله امتثالاً لأمر أبيه، فكلما يدعوه يستجيب له، وأينما يوجهه يمضي إليه.

وقد أراد الشيخ محمد يوسف ذات يوم أن يقوم بجولة دعوية إصلاحية في ضواحي البلدة لمدة أربعين يوماً، فخرج وتجول، واختلط بالناس ودعاهم إلى عقيدة التوحيد والسنة، وكان يذكر في بعض الأحيان الكيفيات التي كان قد شعر بها خلال هذه الجولة، ولما آل إليه أمر الدعوة بعد وفاة أبيه الشيخ محمد إلياس وانتقل إليه ذلك الاضطراب الذي كان يساور أباه، والحرقة التي كانت تخامره وتؤرقه، وجه رسالة إلى الشيخ أبي الحسن علي الحسيني الندوي أعرب فيها عن أسفه على عدم اهتمامه بأمر الدعوة في حياة أبيه لاشتغاله بالعلم والدراسة، وذكر بعض وقائع هذه الجولة التي أراحت ضميره، وخففت ثقله، وأطربت نفسه، وأعادت إليه هدوءه وطمأنينته.

وقد لقي الشيخ محمد يوسف أنواعاً من المحن وضروباً من الشدائد في هذه الجولة التي استغرقت أربعين يوماً، لكن طرأت عليه كيفيات روحانية عالية.

كان يعقد الحفلات، ويختلط بالناس على جميع المستويات ويدعوهم إلى الخروج في سبيل الله ويفيض عليهم روح العاطفة الدينية، وكان لا يلد له الطعام في القرية التي لا تخرج فيها جماعة، وكان لا يهمه في هذه الجولة إلا أن تكون جماعة ويبعث بها إلى مناطق مختلفة، ويقول الذين كانوا يرافقونه في هذه الجولة: إنه كان

يجوع في كثير من الأحيان، ويشترط للطعام الخروج في سبيل الدعوة إلى الله، وحدث ذلك أكثر من مرة، إذ جاء بعض رجال الأعمال في مدينة دلهي بالطعام والحلويات، وألحوا عليه أن يأكل فأبى، وقال بصراحة وصرامة: أنا لا أكل شيئاً إلا إذا تهيأت النفوس في هذه القرية للقيام بأعباء الدعوة والخروج في سبيلها.

عقد الاجتماع الأخير لهذه الجولة في بلدة «نوح»، وسارت جماعة من هذه البلدة وانضم إليها رجل من «ميوات»، وكان قد توفي ابنه قبل مغادرته هذه البلدة بساعات، ولم يمنعه حادث وفاة ابنه من القيام بهذه الجولة الدعوية، وذلك لأنه كان قد استمع لخطبة الشيخ محمد يوسف المؤثرة الدافقة بالإيمان، فقال: إنني أحتاج في هذا الوقت إلى الاشتغال بهذه الدعوة أكثر من احتياجي إلى الاشتغال بأمر آخر، وهكذا قدم نموذجاً رائعاً للإيثار والتضحية والفداء.

جولته في «كراتشي» بـ «باكستان»:

قضى الشيخ محمد يوسف هذه المدة التي دامت أربعين يوماً متجولاً في ولاية «السند» وفي عاصمتها «كراتشي» برغبة من أبيه، وتوجهت جماعة بدعوة من الحاج عبد الجبار والحاج عبد الستار اللذين كانا قد تعرفا على هذه الدعوة قبل عدة أيام، وطفقا يهتمان بها اهتماماً بالغاً إلى «كراتشي» في صفر سنة ١٣٦٣ هـ، ثم اتجهت إليها جماعة أخرى في مطلع شهر إبريل/ نيسان تحت إشراف الشيخ ضياء الحسن، فشهدت هذه المدينة لأول مرة النشاطات الدعوية بجهود هذه الدعوة.

وكان الشيخ محمد يوسف يقيم في كراتشي مع نفر من الدعاة في تلك الأيام، وكان يشتغل بالدعوة، وكانت هذه الرحلة التي قام بها الشيخ محمد يوسف مجددة للغاية، وانتفع بها الشيخ أيضاً انتفاعاً كبيراً، ونحن لم نطلع على تفاصيل هذه الرحلة المباركة غير أننا عثرنا على رسالة كتبها الشيخ محمد يوسف في تلك الفترة، وهي تدل على أن نشاطات هذه الحركة كانت تجري في ولاية السند بسرعة، وتنال قبولاً عاماً، وكان الشيخ محمد يوسف يشتغل في ضواحيها المختلفة، فوجه الشيخ إظهار الحسن الذي كان من ذويه، وكان قد ذهب إلى إمارة «بهاولپور»، رسالة إليه كتب فيها:

لمن المؤسف أنني لم أستطع أن آتي مع الجماعة، إنني وصلت إلى مدينة «بهاولپور» في الحادي عشر، وشاركت في العديد من الاحتفالات وفرغت الآن منها، وأريد أن أتوجه إلى «كراتشي» في الثامن عشر، وأطلب منك أن تبعث ببرقية إليّ حين تصل جماعتك إلى بلد آخر لألتحق بك بدلاً من أن أتوجه إلى «كراتشي»، وقد التقيت بأعداد غفيرة من الناس في «بهاولپور»، وتحدثت معهم حول هذه الدعوة وتأثيرها، وشرحت لهم الأهداف التي ترمي إليها، وأتيحت لي فرصة للتحدث مع القاضي سراج الدين المتقاعد، والقاضي جميل، والشيخ فاروق رئيس قسم الحديث، والشيخ غلام محمد شيخ الجماعة، والشيخ أسرار الحق أستاذ الجامعة العباسية بشيء من التفصيل، وسأتحدث مع أساتذة الجامعة العباسية وطلابها، والمسؤولين عنها في اليوم القادم إن شاء الله، وأجتمع اليوم بوزراء إمارة «بهاولپور»، والسيد عبد القادر، وأدعوهم إلى الانخراط مع هذه الجماعة ومساندتها، ولقد تقابلت مع عدد من وجوه هذه البلدة في منزل الشيخ محمد فاروق، ورأيت الشيخ محمد فاروق قد أعجبت به هذه الحركة، فقرر هو نفسه أن يشتغل بالدعوة في «بهاولپور»، ويذهب إلى «نظام الدين» في «دلهي» ليعرف منهجها ويتصل بالمسؤولين عنها.

إن هذه الرسالة التي كتبها الشيخ إظهار الحسن قد سلمت إلى البريد في ١٥/ مايو/ أيار سنة ١٩٤٣م، ووصلت إلى الشيخ محمد يوسف في ١٧/ مايو/ أيار حين كان مقيماً بمنزل الشيخ عبد الستار، ثم اتجه الشيخ محمد يوسف إلى المناطق الأخرى لولاية «السند»، واشتغل فيها بالدعوة والتوجيه، ثم قدم أناس ينتمون إلى طبقات مختلفة من ولاية «السند» وعاصمتها «كراتشي» إلى «نظام الدين» بـ «دلهي»، وتعلموا الدين وعرفوا منهج هذه الدعوة وأصولها، ثم عادوا إلى أوطانهم واشتغلوا بها.

مكة المكرمة
دار نشر مكتبات دار السلام

رحلته إلى «كهاشي ميكا» :

التفت الشيخ محمد يوسف إلى هذه الدعوة في أيام مرض أبيه أكثر مما التفت إليها في أيام صحبته، وكان يخصص لها وقتاً من الأوقات التي كان يشتغل فيها بالعلم والدراسة استجابة لرغبة أبيه، وتحقيقاً لأمنيته العزيزة، ويدل على ذلك ما كتبه الشيخ منظور أحمد النعماني، فيقول:

٨٥٢
١٠٣٢٩

١٠٠

كل ما يقوم به من الاهتمام بالدعوة، والعمل في سبيلها، ومن المشاركة في الاجتماعات، والتجول في أنحاء البلاد، والاتصال بالناس من جميع المستويات يقوم به امتثالاً لأمر والده، وتلبية لرغبته.

وأضاف يقول: وهكذا كان سلوكه في حياته، ووجهة نظره، ومنهج تفكيره في تلك الأيام، لكن حين اعتل أبوه، واشتد مرضه جعلت أحواله تتغير، ولم تنقض فترة طويلة حتى شهد العالم تلك المنزلة الرفيعة التي أحرزها الشيخ محمد يوسف في وقت قصير.

سارت جماعة تحت إمارة الشيخ محمد يوسف إلى «كهاث ميكا» في أيام مرض أبيه الشيخ محمد إلياس، وكانت هذه الرحلة ناجحة للغاية، وأقبل الناس على هذه الدعوة، ورحبوا بها ترحيباً حاراً وتحمسوا لها تحمساً لم يسبق له مثيل، يكتب الشيخ أبو الحسن علي الحسن الندي الذي كان يرافقه في هذه الرحلة:

قمنا برحلة دعوية إلى «كهاث ميكا»، وكانت هذه الرحلة موفقة، ولاحظنا خلالها كل ما كنا نلاحظه في الاجتماعات التي كانت تعقد في «ميوات»، وكان يشترك فيها الشيخ محمد إلياس - رحمه الله - من الهدوء والسكينة، والحب والمودة، والإيثار والتضحية، وكان يعرف كل منا أن الاجتماعات التي كان يشارك فيها الشيخ محمد إلياس، وخاصة تلك الاجتماعات التي تعقد في «ميوات»، كان يحضرها آلاف مؤلفة من سكان «ميوات» بشوق وحماس ورغبة ونشاط.

التعاون مع عمل الدعوة محلياً:

اشتغل الشيخ محمد يوسف بهذه الدعوة بجانب اشتغاله بالدراسة في المناطق المجاورة، ولكنه لم يتحمس لها كما كان والده يرغب فيه ويحرص عليه، وازدادت صلته بهذه الحركة في آخر أيام أبيه، وجعلت أحواله تتغير شيئاً فشيئاً، وقد يكون مرض الشيخ محمد إلياس واضطرابه الزائد قد أثر في قلبه تأثيراً كبيراً. وكان الشيخ محمد يوسف يكتب رسائل من قبل الشيخ محمد إلياس في بعض الأحيان، فنورد هنا رسالة وجهها إلى عضو متحمس لهذه الحركة الدعوية، ذكر فيها مشاركته في حفلة لعلها كانت عقدت في مرادآباد:

تلقيت رسالتكم قبل عدة أيام، وعرفت بها أحوالكم، لعل الشيخ محمد طيب قد عاد من جولته، فعليك أن ترسل إليه رسالة أخرى تدعوه فيها إلى المشاركة في هذه الحفلة، وأما عنوان الشيخ أبي الحسن فهو كما يلي: . . . ، فأخبره على هذا العنوان بأن يحضر هذه الحفلة، وحاول توجيه الدعوة إلى الشيخ فخر الحسن والتأكد من حضوره، لا يزال والذي مريضاً، وتأسفت حين علمت أنك لم توجه الدعوة للحضور في هذه الحفلة إلى العاملين المحليين في مرادآباد، فمن اللازم أن توجه إليهم الدعوة.

وكذلك عثرنا على عديد من الرسائل التي كتبها الشيخ محمد يوسف علاوة على هذه الرسالة المذكورة، وكان قد كتبها نيابة عن أبيه، وتدل هذه الوقائع التي ذكرناها والرسائل التي أوردناها على الصلة التي كانت تقوم بين الشيخ محمد يوسف وبين هذه الحركة، لكن الصلة التي كانت تقتضيها هذه الحركة ويحرص عليها أبوه، لم تقم طول الحياة.

قضية نيابة الشيخ محمد إلياس :

من القضايا المهمة الأساسية التي ثارت في أيام مرض وفاة الشيخ محمد إلياس وكانت تشغل بال كبار العلماء والدعاة في ذلك العصر، وكانت تبعث على قلق المسؤولين عن هذه الحركة والقائمين عليها، هي قضية من يخلفه بعد وفاته، فإن هذه الحركة كانت تستدعي فيمن يتولى أمرها إيماناً راسخاً، ويقيناً كاملاً، وعاطفة وقادة، وقوة احتمال وصبر، واستعداداً لكفاح مُضْنٍ، وطموحاً متصاعداً، وذوقاً رفيعاً، وهي خلال لا تتوفر في أحد من الناس في ذلك العصر.

وكان قد اجتمع في مركز الدعوة للنظر في هذه المسألة عدد كبير من العلماء والمشايخ من أمثال الشيخ عبد القادر الرائي فوري، والشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، والشيخ ظفر أحمد العثماني، والحافظ فخر الدين.

ويدل ما كتبه الشيخ منظور أحمد النعماني على مدى أهمية هذه القضية في نفوس قادة هذه الحركة، كتب ذلك بشيء من التفصيل والوضوح فيقول :

اشتد مرض الشيخ محمد إلياس قبل وفاته بثلاثة أشهر، ولكن لم يفقد مسترشدوه آمالهم في حياته نظراً إلى أحواله الخاصة، لكن ازدادت شدة مرضه قبل أسبوعين من وفاته، ولم يبق أي أمل في حياته عند مسترشديه، وكنت أنا ورفيقي الشيخ أبو الحسن علي الحسيني الندوي مقيمين في مركز الدعوة يومئذ بجانب عشرات من أتباعه ومحبيه، وكانت صلتنا بهذه الحركة لا تقل عن صلتنا برائد هذه الحركة، فكان من الطبيعي أن نفكر في مصير هذه الحركة بعد وفاة الشيخ محمد إلياس كما كنا نفكر في المرض الذي يعاني منه وخطورته؛ لأننا كنا نشعر بأن الذين يتصلعون بهذه الحركة، ويتحمسون لها، ويتفانون في سبيلها لا يقومون بها إلا حباً للشيخ محمد إلياس وصلة به، فكنا نخشى من أن حادث وفاة الشيخ محمد إلياس قد يكسر خواطرهم ويوهن قلوبهم، ويثبط همهم، ويقطع صلتهم بهذه الحركة فتذبل هذه الشجرة الباسقة، الوارقة الظلال التي غرسها الشيخ محمد إلياس بيده، وسقاها بدموعه ودمائه.

ففي ليلة من الليالي جلسنا أنا والشيخ أبو الحسن علي الحسيني لنفكر في هذه القضية، تشاورنا في هذا الأمر، فانتبهنا إلى أن هذه الحركة لا تبقى ولا تستمر إلا إذا تولى أمرها رجل يثق به الشيخ محمد إلياس، وينظر إليه كل من يشتغل بهذه الدعوة بكامل الحب والإجلال والولاء، فرأينا الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي يستحق هذا المنصب الجليل لمكانته في النفوس ولخدمته الطويلة في هذا المجال، فقررنا أن نتحدث معه حول هذا الأمر بصراحة، ونطلب إليه أن يتزعم هذه الحركة، ويقيم في «نظام الدين» بدلهي بصورة دائمة، ويشرف على شؤونها الإدارية، فتوجهنا إليه في الصباح الباكر، وقلنا له: إننا جئنا إليك لتتحدث معك حول أمر يبعث على القلق، ويدعو إلى التفكير منذ اشتداد مرض الشيخ محمد إلياس.

فحدد لنا موعداً لذلك وقال: نجلس في غرفة الشيخ رضا حسن بعد صلاة الفجر، فوصلنا إليه في الموعد الذي حدده، ووجدناه في الغرفة، فعرضت عليه ما قررنا في البارحة أصالة عن نفسي ونيابة عن الشيخ أبي الحسن علي الحسيني الندوي، فقلنا: نشعر بالخيبة لتدهور صحة الشيخ محمد إلياس واشتداد مرضه،

وازدیاد ضعفه ووهنه، ویساورنا قلق حین نفکر فی مصیر هذه الحركة بعد وفاته، لأننا نرى أن جميع العناصر التي انخرطت مع هذه الحركة انخرطت معها لاتصالها بالشيخ محمد إلياس اتصالاً وثيقاً، فنخشى أن تتفرق هذه العناصر التي انصهرت في حركة واحدة بجهود الشيخ محمد إلياس وإخلاصه، وتنفصل عراها، ويؤدي ذلك إلى خسارة فادحة للأمة الإسلامية، ولذلك فكرنا في هذا الأمر، وبحسنا عن حل لهذه المشكلة، فلم نجد لذلك إلا حلاً واحداً، وهو أن تواصل هذه الحركة نشاطاتها الدعوية وأعمالها الإدارية تحت رعايتك وبتوجيه منك، ونحن على ثقة — أنه إذا تم ذلك — أن هذه العناصر ستبقى مرتبطة بها، ولا يضطرب حبل نظامها، وذلك لأن هذه العناصر كلها تثق بك، وتحمل حباً وإكراماً لك وتضعك موضع ثقة وتبجيل، وإلا فإن هذه القوة ستفكك وتندثر، ونقول لك بصراحة في هذه المناسبة: إننا وهابيون^(١) بكل ما في هذه الكلمة من معنى، ولا يسعنا أن نأتي إلى هذه المنطقة لمجرد زيارة قبره، والمسجد الذي كان يصلي فيه، والغرفة التي كان يبيت فيها، فإذا أقمت هناك، وتوليت أمر هذه الحركة بقيت صلتنا بها، وارتباطنا بهذه الدعوة كما هي الآن.

استمع الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي لكلامنا بصمت وهدوء، ولما انتهت من كلامي قال: إن ما يخامرك من قلق واضطراب تجاه تدهور صحة عمي الشيخ محمد إلياس يخامرنا نحن جميعاً، وكل منا يفكر في هذا الأمر، ويشعر بخطورته، لكن لا نستطيع أن نخطو خطوة في حل هذه القضية التي شغلت بال الجميع؛ لأن من سنن الله تبارك وتعالى لعباده المخلصين المقبولين عنده الذين يضحون بحياتهم، ويتفانون في سبيله أن لا يضيع أي عمل من أعمالهم، ولا تبقى خدماتهم بعدهم بل تنمو وتثمر على مر الأيام، ويتنفع بها الناس.

وإني لا أرى أحداً من أتباع الشيخ محمد إلياس وأعوانه قد خصف عقله، ونضج فكره، ويصلح ليتحمل هذه المسؤولية الجسيمة، ويواصل مهمته، لكنني واثق كل الثقة بأن الله تبارك وتعالى سوف لا يضيع أعماله، وستحدث تلك المفاجأة،

(١) مصطلح شائع في الهند يطلق على الموحدين الذين يعارضون البدع والخرافات وتقديس القبور والضرائح.

ويظهر عن ظهر غيب رجل يتضلع بهذه المسؤولية، فإذا قضى الله سبحانه وتعالى أن يختارني لملء هذا الفراغ، فلا حاجة إلى التريغيب والإلحاح، وإذا قيس الله سبحانه وتعالى رجلاً آخر ليتولى أمرها، فلا يستطيع أحد أن يمسك بيده ويمنعه من ذلك، فادعوا الله سبحانه وتعالى لذلك، وارقبوا إني معكم من المرتقبين.

ويقول الشيخ منظور نعماني: لا أذكر بالضبط ذلك اليوم الذي جرى فيه هذا الحديث مع الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، لكن أذكر أن هذا الحديث قد أعاد إلى نفسي الهدوء والطمأنينة، وأزاح عني القلق والاضطراب وخفف من قلقي الذي كنت أشعر به.

وكلما اشتد مرض الشيخ محمد إلياس، ويشس الناس من صحبته راودت قضية استخلافه أذهان الناس، وتضخم ذلك السؤال، وجعل المشايخ الكبار وذوو الرأي الذين كانوا يحضرون في ذلك الوقت يفكرون في هذه القضية، ويتشاورون في هذا الأمر.

رأي الشيخ عبد القادر الرائييفوري:

كان الشيخ عبد القادر الرائييفوري الذي كان على صلة وثيقة بالشيخ محمد يوسف - نجل الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي - الذي كان يحبه ويعطف عليه نظراً لكفاءاته المتميزة، وقدراته الفائقة، ومؤهلاته العالية، وورعه وزهده، وعلمه وعمله، وحذره وحيطة. كان من رأيه أن أحداً غيره لا يستطيع أن ينوب عن الشيخ محمد إلياس في الأمور الدينية والإصلاحية والدعوية أحسن منه، لما وهبه الله سبحانه وتعالى من مزايا شخصية، ومواهب علمية، ولباقة نادرة، ونبوغ فذ، فاقترح بأن يستخلفه الشيخ محمد إلياس ويمنحه الإجازة.

يقول الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي:

توجه الشيخ عبد القادر الرائييفوري إلى «نظام الدين» بدلهي أكثر من مرة لزيارة الشيخ محمد إلياس أيام مرضه، وقال لي ذات يوم: إنه كان أشار على الشيخ محمد يوسف بالاشتغال بالذكر والتسبيح، لكنه ظل عاكفاً على دراسة الكتب في رحلته

الأخيرة التي قام بها الشيخ عبد القادر الرائي فوري يوم الاثنين ١١/ رجب سنة ١٣٦٣ هـ الموافق يوليو/ تموز سنة ١٩٤٤ م، وقد أبدى رغبته في أن أقول للشيخ محمد إلياس أن يستخلف نجله الشيخ محمد يوسف ويجيزه، فقلت للشيخ عبد القادر الرائي فوري: إنه لم يفعل شيئاً يستحق به هذه المنزلة الرفيعة حتى الآن، فقال الشيخ عبد القادر: لا بأس به، ثم قال ذلك للشيخ محمد إلياس بنفسه.

تعيين الشيخ محمد يوسف:

اشتد مرض الشيخ محمد إلياس، وتدهورت حالته الصحية للغاية، وجعل الناس يخافون على نفسه، وازداد قلقهم واضطرابهم، وتملكهم حزن وهم شديد، ودعا الشيخ محمد إلياس قبل وفاته بيومين بعض خدمه الذين كانوا موضع ثقته وحب، وفوض أمر تعيين خلفه إلى المشايخ الذين كانوا موجودين هناك.

يقول الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي:

توفي عمي الشيخ محمد إلياس - رحمه الله - يوم الأربعاء في ٢١/ رجب سنة ١٣٦٣ هـ الموافق ١٣ يوليو/ تموز سنة ١٩٤٤ م، حين كان يرتفع صوت المؤذن لصلاة الفجر، وكان قد ذكر قبل وفاته بيومين أسماء الرجال الذين كانوا جديرين بالنيابة عنه، وأسماءهم كما يلي:

- ١ - الحافظ مقبول حسن.
- ٢ - المقرئ داود.
- ٣ - الشيخ احتشام الحسن الكاندهلوي.
- ٤ - الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي.
- ٥ - الشيخ إنعام الحسن الكاندهلوي.
- ٦ - الشيخ رضاء الحسن البهوفالي.

ووكل إلى الشيخ عبد القادر الرائي فوري اختيار واحد منهم للنيابة، فاختار الشيخ محمد يوسف، وكنت أرى أن الحافظ مقبول حسن يستحق هذا المنصب لاشتغاله بالدعوة منذ مدة طويلة، ولأنه كان من الأوائل الذين كانوا مع الشيخ محمد إلياس، وكان يشتغل بالذكر والتسبيح، ويكثر من التلاوة والدعاء، ويثابر على التعليم

اليومي، لكن الشيخ عبد القادر الرائي فوري كان يميل إلى الشيخ محمد يوسف، فأبدى رأيه للشيخ محمد إلياس فقال: أظن أنه لا يتفق أهل بلدة «ميوات» على أحد مثل ما يجتمعون على الشيخ محمد يوسف، فقلت: فقد تم تعيينه.

يكتب الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي الذي كان يقيم في «نظام الدين» بدلهي خلال تلك المدة عن تعيين الشيخ محمد يوسف قائلاً:

وصلت رسالة من الشيخ محمد إلياس إلى الشيخ عبد القادر الرائي فوري، والشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، والشيخ ظفر أحمد، يقول فيها: إنني أعتد على هؤلاء الرجال، وأثق بهم كل الثقة، فمن كان منهم خليقاً بالنيابة فعليكم أن تختاروه لها، فقالوا له: إن الشيخ محمد يوسف جدير بها كل الجدارة؛ لأنه يستوفي جميع الشروط التي وضعها الشيخ ولي الله الدهلوي بالنيابة في كتابه «القول الجميل»، فهو يجمع بين العلم والورع، والفضل والنبوغ، فقال: أوافقكم على هذا الرأي، وأرجو أن يجعل الله فيه الخير والبركة، واستطرد يقول: لا يزال يساورني قلق في هذا الأمر، لكنه قد اطمأن بالي الآن، وأنا واثق بأن هذا العمل سيستمر ويتقدم بعد وفاتي إن شاء الله^(١).

بعد هذا الحديث الطويل الذي تناول الجوانب المختلفة لهذه القضية المهمة، وبعد هذا التشاور الذي جرى مع كبار المشايخ وذوي الرأي والخبرة الواسعة في مجال الدعوة والإصلاح، استخلف الشيخ محمد يوسف وصار نائباً لأبيه الشهير الداعي إلى الله الشيخ محمد إلياس رحمه الله.

فغمرت موجة من السرور كل من كان يتصل بهذه الأسرة الكريمة ولا سيما أهل «ميوات» ابتهجوا لهذا النبأ السار واستبشروا به، وارتاحت ضمائرهم واطمأنت قلوبهم، وتهللت وجوههم.

وكان الشيخ محمد يوسف مشغولاً بدراسة الكتب، وعاكفاً على المطالعة، ولا يعتني بهذه الدعوة التي يقوم بها أبوه، فإذ به يكلف بها، فيشغف ويتهالك عليها ويتململ لأجلها تمللم السليم بعد وفاة أبيه.

(١) «الشيخ محمد إلياس ودعوته الدينية».

يصف الشيخ محمد منظور النعماني التغير الذي حدث بعد النيابة في حياة الشيخ محمد يوسف فيقول: كنت لاحظت في حياة الشيخ محمد إلياس ثلاثة أمور بصورة غير عادية:

١ — حرقته للدعوة الإسلامية.

٢ — ثقته بالله ونصرته.

٣ — سبل المعارف والحكم.

وكان الشيخ محمد يوسف في جزعه للأمة وحرقة قلبه للدعوة، وهيامه بتجديد الدين، مثل أب شفق أصيب وحده الذي وهبه الله علماً وفضلاً ونبوغاً، وعقدت به آمال كثيرة، بمرض عضال ويخشى على حياته، وهو في صراع بين الحياة والموت، وهمُّ والده الوحيد وشغله الشاغل عن كل قضية من القضايا الشخصية شفاؤه؛ فيتضرع إلى الله واثقاً بوعده ونصرته بحيث أنه يشاهد أحكام القضاء والقدر بعينه.

لقد كان إذا تحدث عن الآخرة وعن صفات الله تبارك وتعالى وعن الشريعة التي جاء بها نبينا محمد ﷺ شعر العلماء والمدرسون بأن الحكمة الإلهية تنطقه، ويتمثل تفسير هذه الآية.

ولاحظ كل رجل أن هذه الميزات الثلاث التي ذكرناها آنفاً ظهرت في الشيخ محمد يوسف بعد وفاة والده الشيخ محمد إلياس، وتقدم في هذه المجالات الثلاثة بسرعة كبيرة تقدماً مطرداً، وشعر كل رجل عامة وخاصة بهذا التغير الذي حدث في حياة الشيخ محمد يوسف ومنهج تفكيره ووجهة نظره وسلوكه مع الناس.

ولم يكن الشيخ محمد منظور النعماني موجوداً عند وفاة الشيخ محمد إلياس وانحلت قضية النيابة حين سافر إلى بلده، فلما رجع من بلده وسمع قصة نيابة الشيخ محمد يوسف أخذته الحيرة وتملكه العجب، وأيقن صدق ما أشار إليه الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي في حديثه معه.

فيصف هو نفسه هذا الحادث القريب الذي وقع في غيابه فيقول:

كنت من سوء الحظ قد أتيت إلى مقرري ببلدة «بريلي» قبل يومين من حادث وفاة الشيخ محمد إلياس لأسباب شخصية، ووصلت إلى دلهي حين كان الناس عائدين من

دفنه ، وسمعت قصة النيابة بعد ما وصلت إلى دلهي ، وكنت لا أرى ذلك الوقت في سلوك الشيخ محمد يوسف شيئاً يميزه عن غيره إلا أنه كان نجل الشيخ محمد إلياس – رحمه الله – وكنت أرى أنه لا يولي لأمر الدعوة أي اهتمام ، ولا يلتفت إليها أي التفات ، وأجد المقرئ داود وبعض خدام الشيخ محمد إلياس القدماء يشتغلون بأمر هذه الدعوة أكثر منه .

فلم يسرني هذا النبأ ، بل ساورتني الوسواس من هؤلاء المشايخ الكبار ، وحفزني هذا الأمر إلى أن أسيء بهم الظن ، ونسيت ذلك الحديث الذي قد جرى مع الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي قبل اثني عشر يوماً في ظلام هذه الوسواس ، وقضيت النهار ، وبت الليلة في هذه الحالة .

وفي اليوم التالي صُلِّي بنا الشيخ محمد يوسف صلاة الفجر ، وألقى كلمة مؤثرة بعد الصلاة كما كان من عادة الشيخ محمد إلياس ، فبدأ لي كأن الشيخ محمد إلياس هو نفسه المتحدث ، فتذكرت في ذلك الحين ما قاله الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي قبل اثني عشر يوماً عنه : ﴿ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ .



الباب الرابع

من وفاة الشيخ محمد إلياس إلى تقسيم الهند

توفي الشيخ محمد إلياس في ٢١/ رجب ١٣٦٣هـ، الموافق ١٣ يوليو/ تموز ١٩٤٤م، يوم الأربعاء عند الفجر، وكانت النشاطات الدعوية مقتصرة في ذلك الوقت ومحدودة، وقد بدأت الجماعات تأتي إلى «نظام الدين» بدلهي من مختلف أنحاء البلاد، وانتشرت هذه الدعوة في بعض المناطق واستقرت، وكانت مدينة «مرادآباد» على رأس هذه المدن التي رسخت فيها قدمها، حيث انضم عدد كبير من علمائها ونفر من وجوها ومن كان لهم خبرة طويلة في الإرادة والأمور الاجتماعية إلى هذه الحركة، واتصلوا بالشيخ محمد إلياس — رحمه الله — .

وبالإضافة إلى ذلك كانت قد بدأت هذه الحركة نشاطاتها في كل من «لكهنؤ»، و«كانفور»، و«سهارنفور»، و«مظفرنغر»، و«پشاور»، و«السند»، و«كراتشي»، وكان لا يخلو يوم من الأيام إلّا وتأتي فيه جماعة من «دلهي» إلى «سهارنفور»، وتذهب، وكذلك تسير الجماعات إلى المناطق الأخرى لهذه البلاد، وتتوجه منها إلى عاصمتها «دلهي» .

ودخلت هذه الدعوة في المدارس والمعاهد العلمية بجهود أصحابها، وكان علماءها وطلابها والمسؤولون عنها يتوجهون إلى «نظام الدين» بدلهي، وكان المشايخ الكبار يلتفتون إليها ويهتمون بأمورها، وكانت الشخصيات الإسلامية البارزة تحضر إلى الشيخ محمد إلياس وتلتقي به، وارتبط كثير منهم بدعوته، وكان عدد وجيه من المشايخ والعلماء في «نظام الدين» حين توفي الشيخ محمد إلياس — رحمه الله — ، ونشأ فراغ كبير بوفاته في بادئ الأمر، واستولى اليأس على كثير من

المخلصين والعاملين في مجال الدعوة، لكن الله سبحانه وتعالى أراد الخير لهذه الحركة التي تقوم على الإخلاص والإيثار والتضحية، ووهب لها الشيخ محمد إلياس كل ما كان يملكه من مال ومتاع حتى ضحى بنفسه، وغرس هذه الشجرة بجهود متواصلة، ومحاولات مضيئة، فأراد الله سبحانه وتعالى أن تثمر هذه الشجرة وتمتد فروعها في العالم كله، ويجني الناس ثمارها في كل بقعة من بقاع العالم فضلاً عن هذه الديار.

واتخذت إجراءات تشييع الجنازة بعد النيابة، وتدفق الناس إليه من كل جانب لتشييع الجنازة وإلقاء النظرة الأخيرة عليه، وقد بلغ عدد الذين كانوا داخل المسجد وخارجه عدة آلاف، وألقى المفتي كفايت الله كلمة وجيزة بهذه المناسبة، ثم جاء الشيخ محمد يوسف وكانت الدموع تجري على خديه، فتلاً أولاً هذه الآية الكريمة: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ إلى آخرها، ثم فسر هذه الآية، وألقى كلمة مؤثرة قوية بهذه المناسبة، ذرفت منها العيون، ووجلّت منها القلوب، وأجهش الناس بالبكاء، وانقضت سحابة الحزن والكآبة التي كانت تغشاهم قبل الكلمة، وعاد إليهم الهدوء والطمأنينة، ونشأت فيهم روح الصبر والعزيمة.

ثم دفن الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي قبل صلاة العصر، وبات الناس الليلة مصابين بالقلق والاضطراب حتى جاء الغد، وصلى بنا الشيخ محمد يوسف صلاة الصبح، ثم قام في المكان الذي كان يخطب منه الشيخ محمد إلياس - رحمه الله - حين كان على قيد الحياة، وكانت العيون شاخصة، والأعناق متطلعة إليه، لأنه كان يتولى منصب القيادة والزعامة، والتوجيه والإرشاد، وكان الناس يجهلون بما وهبه الله سبحانه وتعالى من مواهب وقدرات، ومؤهلات وكفاءات، في مجال الدعوة إلى الله، وذلك لأنهم رأوه دائماً مشغولاً بالدراسة، عكوفاً على المطالعة، منصرفاً إلى التأليف، محباً للخلوة، معترلاً عن الناس لا يشارك في عمل من أعمال الدعوة ولا ينضم إلى جماعة من الجماعات إلا أحياناً، وإذا ألقى كلمة كانت علمية محضّة، لكن وهبه الله سبحانه وتعالى في ذلك اليوم قوة في النطق، وثروة من العاطفة التي اعترف بها كل رجل.

وقال بعض المستمعين: هذا ليس محمد يوسف، إنما هو الشيخ محمد إلياس؛ لأن الحماسة والإيمان، والهيبة والرغبة، والثقة والعاطفة التي تتميز بها خطب الشيخ محمد إلياس كانت تتجلى في خطبة الشيخ محمد يوسف، فأعجب الناس بحسن كلامه وذلاقة لسانه، ونصاعة بيانه، وقوة تأثيره، كان يسترسل في الكلام، ويتكلم بدون تلكأ وتلعثم، يبدو كأن المعاني تفيض والعواطف تجيش والكلمات تتدفق.

فألقى كلمة حماسية بقلب جريح وصوت شجي، وتأثر الناس بهذه الكلمة الفياضة التي خرجت من القلب المحترق المتقطع، وتذكروا تلك الأيام التي كان يخطب فيها الشيخ محمد إلياس - رحمه الله - وكان يشعر كل من يستمع لهذه الكلمة بأن الشيخ محمد إلياس جالس في غرفته، ويملي عليه هذه الكلمة، فبعثت هذه الكلمة في نفوس المستمعين الأمل والنشاط، ونفخت في قلوبهم روح المقاومة والتضحية، وحملتهم على مواصلة هذا العمل المبارك، والتفاني في سبيل الدعوة.

شرح الشيخ محمد يوسف أولاً الكلمة الطيبة، ثم حكى قصص الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين المؤثرة الخلافة، وكان من الحضور رجال كانوا يختلفون إلى الشيخ محمد إلياس منذ مدة طويلة، وكان منهم رجال انتشرت الدعوة بجهودهم وتضحياتهم في منطقة «ميوات» وغيرها من المدن والأرياف في هذه البلاد، وكان الشيخ محمد إلياس يثق بهم كل الثقة، ويشيد بجهودهم ومساعدتهم في مجال الدعوة، وكان منهم رجال تقربوا إلى الشيخ محمد إلياس بإخلاصهم وحبهم له، فصاروا الآن لا يجدون أحداً يلجأون إليه، ويستشيرونه، ويعرضون عليه ما ينوبهم من المشاكل والعوائق في سبيل الدعوة، فراعى الشيخ محمد يوسف هذه الأوضاع الدقيقة الحساسة، وقال: ينبغي لكل رجل أن يفعل ما كان يفعله عهد الشيخ محمد إلياس - رحمه الله - وأنا سأتعامل معه مثل ما كان يتعامل معه.

يحكي الحافظ محمد صديق من «نوح» بـ «ميوات»، وهو كان على صلة وثيقة بالشيخ محمد إلياس، فقال: إنني تنحيت جانباً حين بسطت السفارة للغداء في ذلك اليوم، فوقع عليّ نظره، فدعاني وقربني إليه، وأعرب عن سخطه على ابتعادي عنه، وقال: إنني سأتعامل مع كل رجل مثل ما كان يتعامل معه والذي حين كان على قيد الحياة.

رسالة مفصلة إلى مراكز الدعوة المختلفة :

كانت المناطق التي يشتغل أهلها بالدعوة، ويعلمون فيها الحرب على أهل البدعة والضلال، ويتجولون فيها لتجديد الدين، وتغيير مجرى الحياة، قد غشيتها سحابة كثيفة من الحزن والكآبة ب وفاة الشيخ محمد إلياس — رحمه الله — والعاملون في مجال الدعوة الذين كانوا يحظون بحبه وعطفه وثقته ورعايته، قد انكسر خاطرهم، وتحطمت قلوبهم، وفترت همهم، واضمحلت أعصابهم، وتثبطت عزائمهم، فبعث المسؤولون عن «مركز نظام الدين» بدلهي إلى سائر المراكز الفرعية التي كانت تقع في مناطق الهند المختلفة رسالة تقوم بتسليية قلوبهم، وتسرية كربهم وهمهم، وتفيدهم بما اتخذوا في «نظام الدين» من إجراءات، وكيف اختاروا الشيخ محمد يوسف للنبابة عن أبيه الراحل، ولقنوهم فيها بالصبر والعزيمة والثبات على هذه الفاجعة التي دهم بها جميع المسلمين في الهند، وعدوا فيها حادث وفاته خسارة فادحة للأمة الإسلامية وخاصة للعاملين في مجال الدعوة.

وما كان قيس هلكه هلك واحد ولكن به نيران قوم تهدما
ودعوا كل من ينخرط مع هذه الحركة إلى الاشتغال بهذه الدعوة اشتغالا لا يشبه خوف، ولا يلويه إغراء، ولا يصرفه طمع، وإلى بذل الجهود المتواصلة، وربط الصلة بالشيخ محمد يوسف، والاستشارة منه، والعمل حسب رضاه :

[نص الرسالة]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مدرسة كاشف العلوم

نظام الدين — دلهي الجديدة

إخواننا في الله! السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

لعلكم وصلكم عن طريق الصحف والإذاعة نبأ حادث وفاة الداعية الإسلامي الكبير الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي — رحمه الله — الذي توفي يوم الأربعاء في ١١/ رجب قبل صلاة الفجر إثر مرض طويل، إنا لله وإنا إليه راجعون، ويعرف كل منا

صلة الشيخ بالدعوة، وشغفه بها، وانقطاعه إليها، وتهالكه عليها وتفانيه في سبيلها، وازداد اشتغاله بها في الأيام الأخيرة التي اشتد فيها مرضه، وتدهورت فيها صحته، وازداد فيها ضعفه، ووهنت فيها قواه، وعزّ عليه النطق، وتعدّر عليه الحراك، وصار لا يستطيع أن ينطق بكلمة تامة، فإذا اضطر إلى أن يتكلم، يتكلم بصوت خافت بطيء، لكن لم يتغافل عن هذه الدعوة أي لحظة، فكان يدعو خدمه أثراً بعد أثر، ويستند فيه إليه، ويضع شفّتيه على أذنيه، ويناشد بمواصلة هذا العمل، فهكذا ظلّ مشغلاً بالدعوة إلى الله، إلى أن استأثره الله برحمته بهذه الرسالة.

نريد أن نقول لكل من يضمّر في قلبه الحب والتقدير له بصفة خاصة ولكل من يدين بالإسلام بصفة عامة أن الشيخ محمد إلياس، وإن كان قد فارق الحياة واحتجب عنا في الظاهر، لكن العمل الذي كان بدأه، وأذاب فيه نفسه، وسهر عليه لياليه، ويذل فيه جهده، وأنفق عليه ماله ومتاعه، وربط به الناس لإعلاء كلمة الله ونصرة دينه، وبث تعاليمه، يستمر بفضل الله وكرمه، ويجري على نحو ما اختار له من المنهج ووضع له من القواعد والشروط، وأعدّ له من الخطة والمشروع.

فنرجو من الذين وصلت إليهم دعوة الشيخ محمد إلياس — رحمه الله — ، ولا سيما الذين سعدوا بالمشاركة في هذا العمل مشاركة عملية، وخرجوا في الجماعات، وتجولوا في البلاد واختلطوا بعامة الناس، وعقدوا الحفلات الدينية الشعبية في مناطقهم أن لا يعتبروا وفاة الشيخ محمد إلياس نهاية هذا العمل، ولا يتوقفوا عن المشي والسير في سبيله، كان الشيخ محمد إلياس — رحمه الله — يرمي بهذه الدعوة إلى إيقاظ النائمين، وتنبيه الغافلين، وإنهاض العائرين، والإمساك بأيدي التائهين والعابثين فحقق هدفه، وأدى مسؤوليته، وبلغ غايته ومراده، والتحق بالرفيق الأعلى، فينبغي لنا بهذه المناسبة أن نتذكر تلك الخطبة التي كان ألقاها سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه على وفاة الرسول محمد ﷺ في المسجد النبوي، بين يدي الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين قال فيها:

«أيها الناس! من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، وإن الله قد تقدم إليكم أمره، فلا تدعوه جزعاً، وإن الله قد اختار

لنبيه ما عنده على ما عندكم، وقبضه إلى ثوابه، وخلف فيكم كتابه وسنة نبيه، فمن أخذ بهما عرف، ومن فرق بينهما أنكر، وتلا هذه الآية الكريمة: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾.

فإذا انصرفنا عن هذا العمل، ونفضنا أيدينا منه، وقطعنا صلتنا عنه، وقعدنا في بيوتنا لما تسرب إلينا من اليأس، وخيم علينا من الحزن والكآبة وعانينا من الكمد والأدناف، فإنه بذلك يسرّ الشيطان، ويكون فتحاً عظيماً له، ويدل ذلك لا سمح الله بذلك، على أن ما قمنا به من الدعوة إلى الله لم نقم به إلا إرضاءً للشيخ محمد إلياس، وثقة به، وخوفاً منه، وإدلالاً عليه، وإذا كان الأمر كذلك فقد ظلمنا أنفسنا، وظلمنا روح شيخنا الطاهرة؛ لأنه لم يدع أحداً في يوم من الأيام إلى نفسه، إنما وهب نفسه وحياته للدعوة إلى الله، وقد نصح دائماً خدمه ومحبيه وخاصة في أيام مرضه أن لا يدعوا أبداً إلى أنفسهم، بل يدعوا عباد الله إلى عبادة الله وحده، فيجب علينا أن نواصل هذا العمل على ذلك النهج الذي سلكه الشيخ محمد إلياس — رحمه الله — في حياته.

إخواني، ترك حادث وفاة الشيخ محمد إلياس على العاملين في مجال الدعوة والقائمين عليها أثراً عميقاً، فنتهز هذه الفرصة، ونبذل قصارى جهودنا لربط صلتهم بهذه الدعوة؛ لأن هذه الفرصة لا تسنح مرة ثانية، فقوموا وانهضوا لإعلاء كلمة الله، ونصرة دينه، وحماية شريعته، والدعوة إليه؛ لأن هذا العمل يسرّ روحه الطاهرة، ويفضي إلى رفع درجاته عند الله سبحانه وتعالى، فنطلب إليكم أن تشاركونا في أداء هذه المسؤولية الجسيمة التي وقعت على كواهلنا الضعيفة بعد وفاة الشيخ محمد إلياس — رحمه الله — ففيه الصبر لنا والسلوان، والرقى والنجاح في الدنيا والآخرة.

ويجدر بالذكر هنا أن نجله الشيخ محمد يوسف حفظه الله وخدامه الآخرين يقيمون الآن في «نظام الدين»، فليوجه كل أحد منكم إليه رسالة في هذا الصدد.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

خدام الشيخ محمد إلياس

— رحمه الله —

الاجتماع الأول في بلدة «نوح» :

في «جورجانوان» بمديرية «ميوات» بلدة يقال لها: «نوح»، كانت نسبة المسلمين فيها عالية، وانضم عدد كبير من سكانها المسلمين إلى هذه الدعوة وكانوا من ثقات الشيخ محمد إلياس - رحمه الله - ومحبيه، وكان منهم من كان من أصحاب السلطة والنفوذ، والعزة والمكانة إلى الاشتغال بالدعوة والخضوع لأوامر الله، والاتصال بالمشايخ الكبار.

انخفض عدد المسلمين في هذه البلدة بعد انقسام البلاد، لكنها ظلت عامرة لكونها مركزاً للمناطق المجاورة، ومنطلقاً للدعوة والتربية الإسلامية، وبوجود مدرسة عربية كبيرة يؤم إليها الطلاب، كان الشيخ محمد إلياس - رحمه الله - قد أنشأ مدرسة دينية عربية في هذه البلدة سنة ١٣٤١هـ، وأطلق عليها اسم «معين الإسلام»، وكان تعقد كل سنة حفلة دينية شعبية في هذه المدرسة يشترك فيها عدد كبير من رجال الأعمال من دلهي، وممثلي المدارس العربية المختلفة كدار العلوم التابعة لندوة العلماء بلكهنؤ، ودار العلوم بديوبند، ومدرسة مظاهر العلوم بسهارنفور إلى جانب عدد كبير من العلماء والدعاة والطلبة، وكان الشيخ محمد إلياس - رحمه الله - يولي عناية خاصة بهذه الحفلة، وكانت تعقد هذه الحفلات كحفلة من حفلات المدرسة السنوية لكنها تتحول في الواقع إلى حفلة دينية شعبية كبيرة، يشترك فيها العلماء والدعاة من «ميوات» وضواحيها المختلفة، ويقوم سكان المنطقة باستضافة القادمين والاحتفاء بهم، وتنتقل بذلك هذه المنطقة إلى مدينة عامرة مزدحمة بالسكان، ويتضخم عدد سكانها لكثرة المشاركين في هذه الحفلة حتى تمتلئ المساجد، ويضطر الناس إلى أن يصلوا في الشوارع والطرق.

عقدت في هذه البلدة حفلة في الفترة ما بين ٨ - ٩/ ذي القعدة سنة ١٣٦٠هـ الموافق ٢٨ - ٢٩ - ٣٠ نوفمبر/ تشرين الثاني سنة ١٩٤١م وكانت حفلة كبيرة، حضرها عدد كبير يبلغ خمساً وعشرين ألفاً، ومنذ ذلك اليوم لا تزال تعقد هذه الحفلة كل سنة تحت رئاسة الشيخ محمد إلياس - رحمه الله - وكانت الحفلة الأخيرة التي عقدت في حياة الشيخ محمد إلياس قد عقدت في ٣٠/ جمادى الآخرة سنة ١٣٦٣هـ

الموافق ٢٣ يوليو/تموز سنة ١٩٤٤م لكنه لم يستطع أن يشترك فيها لاشتداد مرضه وتدهور صحته، فشارك فيها نجله الشيخ محمد يوسف بدلاً عنه، وكانت هي الحفلة الأولى التي حضرها الشيخ محمد يوسف كأمر لهذه الحركة ونائب لوالده الكريم، وشارك معه في هذه الحفلة بعض كبار المشايخ من أمثال الشيخ ظفر أحمد العثماني، والشيخ محمد منظور النعماني، والشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي، والشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، والشيخ أمير أحمد الكاندهلوي، والبروفيسور عبد الغني، والشيخ عزيز الرحمن.

كان من عادة الشيخ محمد إلياس أنه كان يعقد دائماً حفلة كان يدعو إليها أعيان «ميوات» ووجوهها، ف ضرب موعداً لهذه الحفلة، وأخبر الناس بذلك، لكن حالته الصحية، وآلامه الشديدة حالت دون الاشتراك في هذه الحفلة ثم أدركته الوفاة، وعقدت الجلسة في ١٣ أغسطس/آب سنة ١٩٤٤م الموافق ٢٣/شعبان ١٣٦٣هـ بعد وفاته، وحضر هذه الحفلة من المشايخ الكبار الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، إلى جانب عدد من المسؤولين عن هذه الحركة والقائمين عليها.

وكانت تعقد هذه الحفلة بعد ٣٢ يوماً من وفاة الشيخ محمد إلياس — رحمه الله — ، وكانت سحابة الحزن تغشى قلوب أهل «ميوات»، فكان من اللازم في مثل هذه الظروف أن يشارك في هذه الحفلة بجانب الشيخ محمد يوسف كل من كان يشترك فيها حين كان الشيخ محمد إلياس على قيد الحياة، لكن لا يشعر أهل «ميوات» بفراق الشيخ محمد إلياس شعوراً كبيراً، فعقدت هذه الحفلة كما كانت تعقد من قبل، وحضرها الميواتيون بنفس الشوق والحماس الذي كانوا يشتركون به من قبل، واستمعوا لما ألقى فيها من الخطب والمواعظ، وخصصوا أوقاتهم للقيام بالدعوة، واستضافوا المشاركين في هذه الحفلة كما كانوا يستضيفونهم في حياة الشيخ محمد إلياس — رحمه الله — ، وسارت جماعات كثيرة إلى مناطق مختلفة، وسجل عدد كبير من الناس أسماءهم، وألقى العلماء والدعاة خطبهم ومواعظهم، وحث الشيخ محمد يوسف المشاركين في هذه الحفلة على الاشتغال بهذه الدعوة، والانقطاع إليها بحماس وثقة وهمة وحكمة، كانت نسبة الشيخ محمد إلياس

— رحمه الله — ملموسة بارزة في هذه الحفلة، والأعمال التي كانت تجري في حياة الشيخ محمد إلياس كانت تجري كالعادة.

حلول شهر رمضان المبارك والاهتمام به :

كان الشيخ محمد إلياس يولي شهر رمضان المبارك اهتماماً خاصاً، وكانت الجماعات من «ميوات» تأتي كثيراً إلى «نظام الدين» في هذا الشهر، وتتوجه إلى المناطق المختلفة النائية، لم يمضِ على وفاة الشيخ محمد إلياس خمسة وأربعون يوماً إلا وحل شهر رمضان المبارك، اهتم الشيخ محمد يوسف بهذا الشهر اهتماماً بالغاً، وكتب رسائل كثيرة، ووجهها إلى العاملين في مجال الدعوة، وطلب من المشايخ الكبار أن يدعوا لهذه الحركة، وألحّ على الميوّاتيين أن يقضوا هذا الشهر في «نظام الدين»، واستعد لذلك هو نفسه أيضاً.

اهتم الشيخ محمد يوسف بهذا الشهر المبارك من ناحيتين :

الناحية الأولى: أن الشيخ محمد إلياس — رحمه الله — كان يولي بهذا الشهر اهتماماً خاصاً، وذلك لأن هذا الشهر يرتبط بالدعوة ارتباطاً وثيقاً، وتتهيأ النفوس للقيام بأعباء الدعوة في هذا الشهر المبارك أكثر مما تهتم بها خلال الشهور الأخرى.

الناحية الثانية: هذا هو أول شهر رمضان المبارك بعد وفاة الشيخ محمد إلياس — رحمه الله — ، وكان الجو يسوده الحزن والكآبة، وكانت السحابة المحزنة التي غشيت القلوب لم تنقشع بعد، فاهتم الشيخ محمد يوسف بهذا الشهر اهتماماً لم يسبق له مثيل.

وتبين الرسالة التالية التي وجهها إلى بعض رفقاءه قبل حلول هذا الشهر بعدة أيام على سبب اهتمامه بهذا الشهر، وازدياد شغفه بالدعوة فيه :

مدرسة كاشف العلوم، «نظام الدين»، دلهي الجديدة

١٨/ شعبان المعظم سنة ١٣٦٣هـ

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

إن هذه الحركة التي أنشأها الشيخ محمد إلياس — رحمه الله — كانت تهدف إلى

غرض واحد لا غير وهو أن نوثق صلتنا بالإسلام، ونقضي حياتنا في ضوء الكتاب والسنة، ونتجنب العادات والتقاليد المعارضة للدين والشريعة، ونحيي ما كان عليه الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين من العقيدة والعمل والفكر والمنهج، ونبلي تلك الرسالة التي جاء بها نبينا محمد ﷺ لإسعادنا إلى كل من يجهلها، أو يتغافل عنها من إخواننا المسلمين، ولا يتم ذلك إلا عن طريق الرحلات، والاختلاط بعامة الناس، وتبادل وجهات النظر معهم، وإقناعهم بالإسلام وتعليمهم الدين، فلا بد لنا أن نعوّد نفوسنا على الخروج من بيوتنا وهجر راحتنا لأداء هذه المسؤولية الملقاة على كواهلنا، لا نبتغي بذلك إلا وجه الله عز وجل ورضاه.

والذي يصعب عليه السفر لتجديد الدين، وإحياء السنة، وربط الصلة بالخالق بينما يسهل عليه السفر للمصالح الشخصية والأغراض المادية والبحث عن فرض العمل، لا يستطيع أن يقدر النعم التي يفيئها الله سبحانه وتعالى على من يقوم بالدعوة إلى الله، وقد يعزّ علينا الخروج من منازلنا، وهجر راحتنا؛ لأننا لا نعرف قيمة الخروج في سبيل الله، ونجهل نتائجها وأبعادها، ونعتبر هذه الحركة حركة لا تتوخى إلاّ تصحيح الكلمة والصلاة، وننسى أن هذه الحركة تقوم إلى جانب تصحيح الكلمة والصلاة بصقل كل ما نعمل به في حياتنا اليومية فيصبح ذلك العمل مقبولا عند الله، ويثاب عليه العامل.

وبالإضافة إلى تحقيق هذا الهدف المنشود، تساعد هذه الرحلات على إقامة الصلة بين العبد وربّه، وتزداد هذه الصلة قوة شيئاً فشيئاً، وتنشأ كيفية الاضطراب، ثم تتجول هذه الكيفية إلى الاستقامة والثبات، ولأن هذه الأعمال كلها روحية، فلذلك تتم في شهر رمضان المبارك بأحسن صورة، بصلة هذا الشهر بالعبادة والأعمال الروحية، ولأنه يهدف إلى تنوير الأعمال والارتقاء فيها، فإذا بدأنا هذا العمل الجليل في هذا الشهر المبارك، وبذلك الجهد في سبيله تغشانا الرحمة وتنزل علينا السكينة التي توقفت عنا بذنوبنا، وإذا انتشرت هذه الدعوة في هذا الشهر المبارك تضاعفت الاستقامة وتجلت الأنوار سبعين مرة بالنسبة للشهور الأخرى، وإذا تهيأ اثنا عشر ألف رجل للخروج في سبيل الدعوة إلى الله، وبث تعاليم الإسلام بجهود الذين يريدون أن

يروا راية الإسلام خفاقة، وأحكام الشرع مطبقة، وكلمة الإسلام عالية، والنشاطات الدعوية متصعدة، فيستقر هذا العمل، وترسخ قدمه، ويقف هذا الشهر في وجه الجائحات والتيارات المعارضة للدين والشريعة، ويسدّ مسالكها، ويحول عواصف الزندقة والعبث والمجون والاستهتار بالدين إلى نسمات إيمانية عطرة، ويتحول الإعراض عن الدين والاستخفاف به إلى الاندفاع إليه، والتهالك عليه، والترحيب به.

وعلى كل فإن هذا الشهر يقتضي أن نعمل فيه أكثر مما نعمل في الشهور الأخرى، ويأتي هذا الشهر ليرفع كل عمل عن مستواه، فأكثرنا من أعمال الخير في هذا الشهر المبارك، لتعود إليكم بالنفع الأكبر، وإذا أردتم أن ترتقي نفوسكم فالزموا الزوايا، واعتزلوا عن الناس، وإذا أردتم أن تحدثوا ثورة دينية في حياة العامة من الناس فاستعدوا للخروج في سبيل الدعوة في هذا الشهر المبارك، لتحسن أحوال العامة وتنشأ الاستقامة والنورانية في الأعمال، فالعمل هو ما قام به الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، والأجر كما هو، لكنه يحتاج إلى الاحتذاء بحذوهم، والمسير على منوالهم، فنراهم يضحون لنشر الدعوة الإسلامية بخلوة شهر رمضان المبارك، كانوا يفطرون إذا احتاجوا إلى الإفطار، لكنهم لا يتوقفون عن الرحلة، فيحتاج الإسلام إلى ذلك المنهج في هذه الأيام، فشجعوا نفوسكم، واخرجوا في سبيل الدعوة.

وجه الشيخ محمد يوسف رسالة أخرى إلى جميع المشايخ والدعاة في ٩/رمضان المبارك سنة ١٣٦٣هـ وأطلعهم فيها على النشاطات الدعوية التي كانت تجري في هذه البلاد، وطلب منهم الدعاء لازدهار هذه الحركة وريقها.

وفي جانب آخر سارت جماعات مختلفة إلى مناطق شتى، توجهت منها جماعة كانت تتكون من ١٣ أو ١٤ شخصاً إلى «مرادآباد»، وشكلت هناك جماعة كانت تتألف من مئة رجل، وقدمت هذه الجماعة إلى «ميوات»، ووفدت أعداد غفيرة من سكان «مرادآباد» إلى «نظام الدين» بـ «دلهي»، وقضوا هناك شهر رمضان المبارك، واشتغلوا بالدعوة، وتوجهت جماعة إلى «عليجراه»، و «أيته»، و «آجره»، وجماعة كانت تضم عدداً كبيراً من العلماء ظلت متجولة في «ميوات».

وكان قد تجمع العلماء والمشايخ في «نظام الدين» إلى جانب الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، وكان الشيخ حسين أحمد المدني في السجن منذ سنوات، وسمع هناك نبأ حادث وفاة الشيخ محمد إلياس، فلما أطلق سراحه في السادس من شهر رمضان المبارك سنة ١٣٦٣هـ توجه إلى «نظام الدين» عن طريق «سهارنفور» و«ديوبند» على الفور، وأعرب عن خالص التعازي وصادق المواساة لنجل الشيخ محمد إلياس ولأسرته ولكل من يشتغل بالدعوة، وبات ليلة السادس من شهر رمضان في «نظام الدين»، وصلى بالناس التراويح في تلك الليلة، وقرأ من نصف الجزء الرابع عشر إلى نهاية سورة بني إسرائيل ثم ذهب إلى «ديوبند» مساء اليوم الثاني، وكان الشيخ محمد إلياس يصلي بالناس التراويح في رمضان لكل سنة، فصلى بالناس في هذه السنة الشيخ محمد يوسف حفظه الله، واعتكف عدد لا بأس به، والتزم الناس في هذا الشهر بالنظام الذي كان يجري في رمضان في السنوات السابقة، ولأسباب عديدة تصعدت النشاطات الدعوية، وخرجت جماعات بكثرة ونسبة متصاعدة، وتكثفت الجولات والرحلات.

زيارة لمدينة «سهارنفور» وبلدة «رائيفور»:

كان الشيخ محمد يوسف يتوجه إلى «سهارنفور» بصورة دائمة خلال مدة دراسته ويقضي فيها معظم أوقاته، وكان قد سافر إلى «سهارنفور» مع والده أكثر من مرة، وكانت بلدة «كاندهله» موطنه، وكانت تقع بالقرب من مدينة «سهارنفور» فكان يتردد إليها كثيراً، لكن هذه الزيارة التي كان يقوم بها كانت الأولى بعد وفاة أبيه، فرحل إلى «سهارنفور» في ٢٠/شوال سنة ١٣٦٣هـ، ومن هنا توجه إلى «رائيفور» مع الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، ودخل على الشيخ عبد القادر الرائييفوري، فاحتفى به، وأبدى سروره بقدومه، وفتحت هذه الرحلة لسهارنفور، ورائيفور باباً للرحلات، فارتحل إلى «سهارنفور» و«رائيفور» مرات عديدة، وكان يؤكد على المشتغلين بالدعوة أن يتوجهوا إلى «ديوبند»، ليقابلوا الشيخ حسين أحمد المدني، ويزوروا «رائيفور» ليعضروا مجالس الشيخ عبد القادر الرائييفوري، ويدل على ذلك ما كتبه في رسالته التي وجهها إلى أحد ثقاته، ولفت فيها نظره إلى هذا الأمر، فكتب يقول:

لقد تقرر في مشورة أن تقيم في «رائفور»، وتمكث ثلاثة أشهر واثنين وعشرين يوماً، ف قضى هذه الأيام عند الشيخ عبد القادر الرائي فوري مطمئناً مرتاحاً، ولا يذهب من بالك خلال إقامتك بها أن صحبة الشيخ لها قيمة ونفع يزيد عن الأكسير، فهي تحمل الأخلاق، وتهذب النفوس، وترقق القلوب، ويجب عليك أن تراعي آدابها، وتلتزم بقواعدها، وتحاول أن تغرس في قلبك حب الله ورسوله وتقوم بإيجاد الحنين إلى ذكره وتسيبجه، لقد قصرت في ذلك كثيراً، فعليك أن تنتهز هذه الفرصة الغالية، ولا تأل جهداً في الحصول على هذه الثروة العظيمة، وأدعو الله سبحانه وتعالى أن تظفر بهذه الثروة والعطاء، وتفضي إقامتك إلى الفوز والنجاح، بلغ تحياتي إلى الشيخ، واطلب لي منه الدعاء.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته
محمد يوسف

حفلة «گلalte»:

عقد اجتماع ديني دعوي في قرية «گلalte» من قرى بلدة «ميوات» بعد عودته من «سهارنفور» و«رائفور»، وعُني الشيخ محمد يوسف بهذا الاجتماع عناية بالغة، وكان هذا الاجتماع الاجتماع الثاني الذي كان يعقد في «ميوات» بعد الاجتماع الذي كان عقد في بلدة «نوح»، وقد اشترك فيه كثير من القدماء من سكان «ميوات» وعدد كبير من العامة.

وكان هذا الاجتماع اجتماعاً مثالياً لمثل هذا الحضور، وقدم العاملون في مجال الدعوة إلى «نظام الدين» للمشاركة في هذا الاجتماع، ومن هنا توجهوا إلى قرية «گلalte» وكان منهم عدد كبير طوى هذه المسافة الطويلة مشياً على الأقدام، ولا سيما سبعون رجلاً ذهبوا من «مرادآباد» إلى «گلalte» لحضور هذا الاجتماع سيراً على الأقدام، وقد بلغ بهم الحنين أنهم لم يشعروا بأي تعب وكلل رغم هذه المسافة الطويلة.

وقدم الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي من «سهارنفور»، والشيخ عبد القادر الرائي فوري من «رائفور» في ٢٩/شوال سنة ١٣٦٣ هـ إلى «نظام الدين»، وكان سبب

مجيئهما إلى «نظام الدين» أن يقيما فيها عدة أيام، ويتوجهاً منها إلى «گلالتہ» ويحضران الاجتماع، فغادر هذان الشيخان إلى «گلالتہ» صباح يوم الأحد، وعقد الاجتماع في نفس اليوم، فألقى الشيخ محمد يوسف كلمته كالعادة وشكل جماعات كثيرة، وشارك في هذا الاجتماع بعض رجال السياسة إلى جانب رجال الدين، وكان من المشاركين البارزين في هذا الاجتماع الحافل علي بهادر خان والشيخ أبو الحسن علي الحسيني الندوي، والشيخ محمد منظور النعماني بجانب عدد كبير من العلماء والدعاة والطلبة القادمين من المدارس العربية المختلفة كدار العلوم التابعة لندوة العلماء بـ«لكهنؤ»، ومدرسة مظاهر العلوم بـ«سهارنפור»، ودار العلوم بـ«ديوبند»، ومدرسة شاهی بـ«مرادآباد».

وكان منظر هذا الاجتماع منظراً بهيجاً خلابةً، يستهوي القلوب، ويستميل النفوس، ويبعث على البهجة والسرور، وكان الذين انضموا إلى هذه الحركة، واشتغلوا بالدعوة حديثاً، وقدموا إلى «ميوات» لأول مرة أعجبوا بهذا الاجتماع إعجاباً كبيراً، وأنشد ولد من «ميوات» بهذه المناسبة أبياتاً في ذكر الشيخ محمد إلياس — رحمه الله — بصوت شجي، رقت بها القلوب، وذرفت منها العيون، وتذكر الناس ذلك العصر الذي كان يعيش فيه الشيخ محمد إلياس — رحمه الله — . وكان قد نظم هذه الأبيات الشيخ سعيد الدين وفا الدهلوي عند وفاة الشيخ محمد إلياس، وكل بيت من هذه الأبيات كان يعبر عن حزنه ولوعته وشجاءه، وسُمِّي هذه القصيدة بـ«ذكری حبيب»، وقد أرخ فيها الشاعر أيضاً وفاة الشيخ محمد إلياس على حساب الجُمْل وهي ١٣٦٣هـ. ولما أنشد ذلك الولد هذه الأبيات الموجهة المؤثرة بصوت جميل شجيٍّ ساد الصمت، ودهش الجميع، وكان يشعر كل رجل منهم بأنه أصيب باليُم، وكان في آخر هذه القصيدة أبيات خففت ذلك الألم، وشفت تلك اللوعة، ومسحت تلك الدموع المهرقة، وكانت بمثابة بَلَسَم لجروحهم، فنورد هنا ترجمة هذه الأبيات ملخصة:

يقول الشاعر: اتعظ يا أخي بالفرصة التي فاتتك، وانتهز هذه الفرصة التي لم تفت بعد، صحيح أن الشيخ محمد إلياس قد أدركته الوفاة، لكن لا تنسى أن أمثال

الشيخ عبد القادر، والشيخ ظفر أحمد، والشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، والشيخ احتشام الحسن الكاندهلوي، والحافظ مقبول حسن الكنگوهي، والمفتي كفاية الله (كانوا من كبار المشايخ في ذلك العصر) على قيد الحياة، وهم يعطفون عليك، ويميلون إليك، ويشرفون على شؤونك، وفوق كل ذلك تجد أمامك نجل الشيخ محمد إلياس وخليفته الشيخ محمد يوسف الذي تزداد العين ضياءً برؤيته، ويمتلئ القلب سروراً بزيارته، فاحضروا مجالسه واتصلوا بالشيخ إنعام الحسن الكاندهلوي، والشيخ المقرئ رضاء الحسن البهوپالي والمقرئ داود، هم أعوانه وأنصاره.

عقد هذا الاجتماع في النهار، وألقى فيه بعض العلماء الواقدين أيضاً الكلمات، وعاد الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، والشيخ عبد القادر الرثيفوري وقادة هذه الحركة الآخرين إلى «نظام الدين»، وأقاموا بها إلى اليوم العاشر من ذي القعدة، ثم توجهوا إلى سهارنفور، وعاد الشيخ محمد يوسف إلى «نظام الدين» في الثاني عشر من ذي الحجة مرة أخرى، وسافر إلى «سهارنفور» في الخامس عشر من ذي الحجة.

جولتان في بلدة «ميوات»:

كان الناس في شديد غمراهم في «ميوات» بوفاة الشيخ محمد إلياس — رحمه الله — ، وكان كل رجل يسكن في هذه البلدة، ويتصل بالشيخ محمد إلياس أي اتصال كان يشعر باليُثم، ويبدو أن هذه الشجرة التي غرسها الشيخ محمد إلياس بيده، وسقاها بدموعه وعرق جبينه، ووهب لها جميع طاقاته وإمكانياته ستذوي وتذبل، وإذا لم ينهض أحد ليتبنى هذه الفكرة، ويتولى أمر هذه الدعوة، ويملا هذا الفراغ الذي حدث بعد وفاة الشيخ محمد إلياس — رحمه الله — فيصيبها ضرر كبير، فكانت تقتضي هذه الظروف أن يتجول الشيخ محمد يوسف في هذه البلدة كما كان يجول فيها أبوه الشيخ محمد إلياس في أيامه الأولى، ويזור كل قرية، ويتوجه إلى كل بلدة، ويلتقي بسكانها، ويتكلم مع أهاليها، ويربطهم بهذه الدعوة التي آل إليه أمرها.

بدأ الشيخ محمد يوسف هذه الجولة الدعوية لهذه المناطق المجاورة تلبية لرغبة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي ورغبة أهل «ميوات»، واستصحب معه عدداً كبيراً من

الذين كان لهم خبرة طويلة في هذا المجال، والذين كانوا يلتزمون بالقواعد ويعرفون بالانضباط، وقد بعثت الرسائل إلى جميع المناطق التي كانت تجري فيها أعمال الدعوة قبل بدء الجولة لتفيد أهلها أن الشيخ محمد يوسف ورفقاه سيزورون هذه المنطقة، ويستعرضون أحوالها، فينبغي لهم أن يشاركوا في هذه الجولة بنسبة عالية.

بدأت هذه الجولة الدعوية في نهاية شهر ذي الحجة سنة ١٣٦٢هـ، واستغرقت اثني عشر يوماً، توجه الشيخ محمد يوسف أولاً إلى «رائي سينا» في «جرجاوان»، وأقام بها يوماً، وألقى خطبة بهذه المناسبة، قال فيها:

كان قد تسرب إليّ اليأس بوفاة والدي الشيخ محمد إلياس — رحمه الله — ، لكن حينما قمت بهذه الجولة، زال همي، وارتاح قلبي، وارتفعت همتي، وانبسطت طبيعتي.

وكان سبب إرجاء هذه الجولة أنني كنت أتردد في القيام بها، فقال الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، إن هذه البلدة تحتاج إلى الدعوة الإسلامية أكثر من غيرها، ودعاني بعض القدماء أمثال الشيخ محراب خان والشيخ ميان جي منگل، والشيخ ميان جي محمد عمر، والشيخ ميان جي رحيم بخش، والشيخ نواز خان إلى زيارة هذه البلدة، ووعدوا بالمساعدة، وقالوا إن سكان هذه البلدة عيونهم شاخصة إليك، وآمالهم منوطة بك، فحفزني ذلك إلى القيام بهذه الجولة وتهيأت لها.

ألقى الشيخ محمد يوسف في هذه البلدة كلمة متحمسة في أسلوب دعوي، استلبت النفوس واختلبت العقول، ولم يستطع الناس أن يتماسكوا من البكاء لسماع هذه الكلمة التي تفوح منها رائحة كلام الشيخ محمد إلياس، وصاحوا جاء الشيخ محمد إلياس.

أقام الشيخ محمد يوسف بجميع القرى التي كانت تقع في سفوح الجبال، يبيت الليلة في قرية، ويقضي النهار في قرية أخرى، يمسي في مكان ويصبح في مكان آخر، فكان هذا الركب الديني يسير بحيث يتأثر به كل من ينظر إليه نظرة واحدة، وكان يضم هذا الركب عدداً من المشتغلين بهذه الدعوة وخاصة الذين كانوا قدموا من خارج بلدة «ميوات» بجانب عدد من الطلبة والأساتذة والعلماء، وكانوا إما يتذكرون

وإما يتدارسون أن يتناقشون، وكان الشيخ محمد يوسف يركب مركبة ببساطة وسداجة، ويسافر مع زملائه، وكان إلى جانب هؤلاء الركاب عدد من المشاة، وكانوا يركبون في بعض المناطق الجمال والخيول، وكان في كل قرية يمر بها هذا الركب يتهافت أهلها عليه ويحتفون به، ويبدون السرور والبهجة على مجيئه، وكانت الاجتماعات تعقد دون أن يحدد لها موعد من قبل؛ لأن المواعيد كانت تحدد بعد وصول هذا الركب، وكان يحضر الشيخ محمد يوسف هذه الاجتماعات بعد استراحة يسيرة، وفي بعض الأحيان يحضرها دون أن يستريح رغم سفره الطويل، ووعورة الطريق، ويلقي كلمته بقوة ونشاط.

كانت هذه الجولة جولة موفقة منتجة، شارك فيها كثير من سكان مدينة «مرادآباد»، وكان من ميزة هذه الجولة أن اشترك فيها الحاج عبد الرحمن، وكان حديث عهد بالإسلام، وكان من ثقات الشيخ محمد إلياس وأخص زملائه.

بدأ الشيخ محمد يوسف هذه الجولة من بلدة «رائي سينا» ومرّ خلالها ببلدة «سوننا پیسپاکا»، «باولا»، «گوالده»، «ینبا»، «هيتري»، «حميراكا»، «روب باس»، و «تجارة» حيث صلى صلاة الجمعة.

وكان المسلمون الذين يسكنون في بلدة «تجارة» يستوحشون من هذه الدعوة، وينفرون منها، فعندما قام الشيخ محمد يوسف ليلقي كلمته علت أصواتهم، وأحدث بعضهم فوضى، وأخلّوا بالنظام، فتضايق من ذلك الشيخ محمد يوسف، وانكسر خاطره، ولم يستطع أن يتحدث إليهم، وتوجهت الجماعة إلى قرية أخرى، يقال لها: «لنسالي»، وانطبقت عليها هذه الآية الكريمة، ﴿وَإِذَا حَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾، ثم عادت إلى دلهي مارة ببلدة «مانكس»، و «رام كره»، وألقى الشيخ محمد يوسف الخطب في هذه المناطق كلها، دعا الناس فيها إلى الخروج في سبيل الدعوة إلى الله، وتاب على يده عدد كبير من المسلمين وبايعوه.

مكث الشيخ محمد يوسف في «نظام الدين» بدلهي عدة أيام بعد القيام بهذه الجولة، ثم استأنف جولته التي استمرت من ٢١/ ذي الحجة ١٣٦٣ هـ، إلى ٢/ محرم الحرام ١٣٦٤ هـ، زار خلالها القرى والأرياف التي تقع في سفوح الجبال. لقد كانت

هذه الجولة موفقة، شارك فيها عدد كبير من خارج هذه البلدة، وكان الشيخ محمد يوسف أينما يتوجه يلقي حفاوة بالغة من جماهير المسلمين، وتهلل وجوهم بشراً، وتغورق عيونهم بدموع الفرح، وكانوا يستقبلونه استقبالا عظيماً، لم يسبق له مثيل من منطقة ما، وكانوا يخرجون من البلدة ويسافرون لاستقباله والاحتفاء به، وعقدت خلال هذه الجولة اجتماعات دينية في مناطق مختلفة، من «سنگھار»، «آلي»، «كوت»، «أتاور»، «روبراكا»، «ملاني»، «نوح»، وحضرها العلماء والدعاة وطلبة المدارس العربية.

ومما يجذب القلوب، ويجلب النفوس في هذه الحفلات الشعبية هو الزواج الجماعي الذي كان يتم خلال هذه الاجتماعات، وكان الشيخ محمد يوسف يلقي خطبة واحدة، ويعقد قران اثني عشر أو خمسة عشر شاباً في وقت واحد، وببساطة بالغة، والمنظر الثاني الخلاب الذي كان يشهده المشاركون في هذه الحفلات هو منظر البيعة الجماعية، فكانت تمتد عمامة أو رداء، وفي بعض الأحيان يربط به رداء آخر لكثرة المبايعين، ويجلس على جانبي هذه العمامة أو الرداء خمسون من الشباب والشيوخ والأطفال، ويمسكون بالعمامة أو الرداء، ويبايعون الشيخ محمد يوسف، ويتوبون على يديه، وكان يشهده ألوف من المسلمين، ويتأثرون به، وتجددت بهاتين الجولتين صلة جماهير المسلمين بهذه الحركة، وتصدعت النشاطات الدعوية في هذه المناطق كلها، وتذكر بها الناس تلك الجولات التي كان قد قام بها الشيخ محمد إلياس لهذه المناطق قبل ثلاثين أو خمس وثلاثين سنة.

لم يكتف الشيخ محمد يوسف بهاتين الجولتين، بل ظل يتردد إلى «ميوات»، ويعقد الحفلات في المناطق المختلفة، وكان يفرض على كل جماعة تأتي إلى «نظام الدين» أن تتجول في المناطق المجاورة لبلدة «ميوات»، وأصبحت بلدة «ميوات» مركزاً رئيسياً للدعوة الإسلامية بفضل جهود الشيخ محمد يوسف المُضنية، وكان يتوجه إليها بين الحين والحين، وكانت تقدم هذه البلدة نماذج رائعة للدين وشعائر الدين بصورة مستمرة، وكل جماعة تتوجه إليها، وتقيم بها عدة أيام تلمس آثارها، وتعود فيها معجبة بها.

وقد وصف رجل رجل إلى «ميوات» ما شاهده فيها من التدين والاشتغال بالدعوة، فيقول:

توجه ركبنا الذي كان يضم عدة أشخاص إلى «ميوات»، ومررنا ببلدة «گرگانوان» و «نوح» والقرى المختلفة، وأقمنا فيها، وفي كل قرية نزلنا فيها لقينا حفاوة بالغة من سكانها الذين استبشروا بلقائنا كما يستبشر رجل بلقاء شقيقه بعد طول الفراق، وضيفونا ضيافة لا تجد لها مثيلاً، كنا قرأنا أمثلتها في القصص وتاريخ العرب القدماء، وإذا ألقى أحد منا خطبة كان يصغي إليها الجميع من الشيوخ والنساء حتى الصغار ويلبون هذه الدعوة، ويخرجون في سبيلها، وكانوا يهتمون بالصلاة اهتماماً بالغاً، ويدل على ذلك ما شاهدناه عندما كنا نمر بقرية، فحان وقت صلاة العصر، وكنا نركب عجلة، وكان على جانبي الطريق مزارع، فرأينا ستة أو سبعة أطفال تراوح أعمارهم بين اثني عشر وخمسة عشر عاماً، كانوا يرعون الغنم، فلما حانت صلاة العصر تركوا غنمهم واصطفوا وقاموا للصلاة، فإذا بهؤلاء الأطفال الرعاة الذين يلبسون القمصان البيضاء والمآزر البيضاء، وعلى رؤوسهم العمام البيضاء يقفون أمام ربهم خاشعين متذللين بحيث يتأثر بهم كل من يراه، فأعجبنا بهذا المنظر فاغتبطنا بهم، وما زلنا ننظر إليهم طول الطريق.

وكان الشيخ محمد إلياس يدعو الناس من جميع المستويات إلى زيارة هذه البلدة ويحثهم على ذلك، وكان يريد بذلك أن يشاهد القادمون إليها هذه الصورة المتحركة للتدين والتوزع، ويتأثروا بها، ويتبنوا هذه الفكرة ويطبقوها في مناطقهم.

فكتب في الرسالة المؤرخة في ١٨/ ذي الحجة، والتي وجهها إلى رفقائه في «مرادآباد» حينما طلبوا منه إرسال جماعة إلى «مرادآباد»، ما يلي:

ينبغي لكم أن ترسلوا الناس إلى «ميوات» بنسبة متصاعدة بدلاً من أن تطلبوا ذلك من العاملين القدماء في مجال الدعوة في هذه البلدة؛ لأن الغرض الذي ترمون إليه لا يتحقق إلا بعد ما تخرجون من بيوتكم وتلتقون بالعاملين القدماء، فلا بد من أن تخرج جماعات كثيرة من بلدتكم وتتوجه إلى «ميوات»، لأنها تجد العاملين القدماء فيها، وكان والدي الشيخ محمد إلياس - رحمه الله - يقول: إن بلدة

«ميوات» هي مدرسة للدعوة والإرشاد، فلا بدّ لكل جماعة تتوجه إلى «مرادآباد» والمناطق المجاورة لها من أن تتوجه إلى «ميوات» عن طريق دلهي، وتقيم بها أسبوعاً على الأقل.

محمد يوسف

وكان الشيخ محمد يوسف يحاول بالإضافة إلى ذلك أن يرافق هذه الجماعات التي كانت تأتي من خارج بلدة «ميوات» رجال ممن تربوا على يد الشيخ محمد إلياس وعاشوه فترة طويلة من الزمن، والتزموا بالقواعد التي وضعها لهذه الحركة وأمضوا وقتاً طويلاً في «نظام الدين» بدلهي، من أمثال الشيخ ميان جي چودھري لتكون هذه الجولة موفقة، ولا يضيع وقت أحد ممن خرجوا في سبيل الدعوة إلى الله، وكان لا يفرق في ذلك بين من يعلم وبين من يجهل، وبين من يشتغل بالدعوة وبين من تشغله مهنة أخرى، ويزداد اهتمامه بهذا الأمر حينما يعقد اجتماع.

يصف الشيخ نسيم أحمد فريدي الاجتماع الذي عقد في «ميوات» فيقول:

حضرت إلى «ميوات» ذات مرة، وأمضيت فيها يوماً أو يومين، وعندما أردت أن أعود إلى بلدي، ودخلت على الشيخ محمد يوسف لأودعه، قال لي بلطف وحب بالغين: سيعقد اجتماع في «ميوات»، فأودّ أن تحضره. وانهقد هذا الاجتماع واشتركت فيه، وكان أول اجتماع حضرته في «ميوات»، ولم تتح لي فرصة أخرى لحضور اجتماع آخر في «ميوات»، ولا أستطيع أن أنسى ما شاهدته في هذا الاجتماع في سكان بلدة «ميوات»، من الوعي الديني، والحمية الإسلامية، والاشتغال بالدعوة، والتحمس لحضور هذا الاجتماع بهذه النسبة المتصاعدة، وحينهم إلى الخروج في سبيل الله، وتفرغ الأوقات لنشر هذه الدعوة، والاحتفاء بالضيوف القادمين إليها، ونظم هذا الاجتماع، والإصغاء إلى الكلمات التي كان يلقيها الشيخ محمد يوسف، وعقد قران الأبناء والبنات بتواضع تام، بهذه المناسبة، وذلك يبعث على السرور والبهجة من الوجهة الدينية.

يقضي عدد كبير من المشاركين في هذه الحفلة أوقاتاً للخروج في سبيل الله، فيودعهم الشيخ محمد يوسف بأدعية متحمسة تثير في نفوسهم شراً، وتذكّي في

قلوبهم جذوة، وتبسط شبكة للعاملين في مجال الدعوة في بلدة «ميوات» كلها، وينبثقُ الدعاة في مختلف أنحاء البلاد.

حفلة «مالب»:

تقع بلدة «مالب» على بعد ثلاثة أو أربعة أميال من بلدة «نوح» من مديرية «گرگانوان»، وكان من المقرر أن يعقد فيها اجتماع يوم الجمعة ١٢/ محرم الحرام، وتوجهت إليها جماعة من «نظام الدين» بدلهي، وكانت تضم هذه الجماعة عدداً كبيراً من سكان «بشاور» و «كلكتة»، وكان يشرف عليها الحاج أرشد، وانضمت إلى هذه الجماعة جماعة كانت قدمت من «لكهنؤ»، وكان في هذه الجماعة الدكتور ذاكر حسين خان رئيس جمهورية الهند الأسبق، فوصلت هذه الجماعة إلى «گرگانوان» بالقطار في الظهيرة، ومن هنا ذهبوا إلى الجامع مشياً على الأقدام، وعقد الاجتماع في الليل، وفي اليوم التالي وصلوا إلى بلدة «نوح» بالسيارة، وصلوا هناك الجمعة، وعقد اجتماع بهذه المناسبة، ثم توجهوا إلى «مالب»، وكانت هذه الجماعة تتكون من أكثر من مائة شخص، وتوجه الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي إلى «نظام الدين» بدلهي من «سهارنفور» في ١٠/ محرم الحرام، وتوجه إلى «مالب» يوم الجمعة ١٢/ محرم الحرام بالسيارة، وكان يرافقه في هذه الرحلة الشيخ محمد يوسف، وصلى الجميع الجمعة في بلدة «نوح»، وانعقد الاجتماع في «مالب» ليلاً.

وكان من ميزة هذا الاجتماع أنه اشترك فيه جماعات كثيرة من مناطق مختلفة، وكانت فيها جماعة «لكهنؤ» أيضاً، وكانت تتألف من خمسين رجلاً، وكان فيها الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي، والشيخ محمد منظور النعماني، وغصَّ المسجد الذي انعقد فيه هذا الاجتماع رغم سعته، وكانت نزلت هذه الجماعات بيوتاً مختلفة، وأقام الذين جاؤوا من «كلكتة» و «لكهنؤ» و «بشاور» في البيوت التي كانت تقع في الجانب الغربي للمسجد، وكان الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي يقيم في بيت كان يكتظ دائماً بالطلاب، فكانوا يستفيدون من صحبته، ويرتشفون من منهل علمه وفضله، ويتلقون التربية الروحية منه، وكان يقيم في المسجد عدد كبير من الميواتين والمسؤولين عن هذه الحركة، وكان في الضاحية الشمالية للمسجد كوخ، وكان يقيم

فيه بعض العاملين القدماء الذين جاؤوا من «نظام الدين» بدلهي والمدن الأخرى، أما الشيخ محمد يوسف فكان يقيم في حجرة تقع في الجانب الشرقي للمسجد، وبدأ هذا الاجتماع بعد صلاة العشاء ودام إلى الساعة الثانية من الليل، وألقى فيه عدد من العلماء الكبار الخطب والمواعظ، وبعد ما انتهى الاجتماع اضطجع كل رجل في مكانه؛ لأن داخل المسجد كان قد امتلأ من قبل للبرد القارس، فلم يجد عديد من الناس مكاناً للنوم، وكنت أيضاً ممن شاركوا في هذه الحفلة وشاهدوا هذا الحشد الكبير، فأذكر بهذه المناسبة ما حدث لي في هذه الحفلة.

بحثت عن فراش بعد انتهاء هذا الاجتماع، فلم أجده لشدة الزحام، وكان البرد في عنفوانه، فدخلت المسجد وبحثت عن مكان لأقي نفسي من هذا البرد القارس، ولم أجد مكاناً أجلس فيه فضلاً عن أن اضطجع فيه، فخرجت من المسجد، وجلست في ناحية في فناء المسجد، وبت الليلة في ذلك المكان، وكان البرد قارساً، والرياح تهب بشدة، ولم تكن عندي إلا بطانية بالية خرقعة، فلا أستطيع أن أعبر عما قاسيته في تلك الليلة، كنت أخشى كل لحظة أن يصيبني برد، وفي الساعة الرابعة من الليل بدأت أشعر بأنني لا أحتمل هذه الحالة، ولم أجد في هذا الحشد الكبير أحداً ممن أعرفه، فإذا برجل أزاح بطانيتي عن رأسي وقدم إليّ كوباً من الشاي الحار، وقال لي: أرسل إليك هذا الشاي الشيخ محمد يوسف، واعتبرت هذا الشاي في هذه المناسبة الدقيقة هبة من السماء، وعادت إليّ الحرارة، بل يصح أن أقول: عادت إليّ الحياة، ولم أستطع إلى الآن أن أعرف كيف أرسل إليّ الشيخ محمد يوسف هذا الشاي، وكيف عرف أنني أحتاج إليه وما هو وضعي، إنه كان من تقدير الله تعالى.

وكان هذا الاجتماع الاجتماع الثاني الذي عقد في «ميوات»، وفي اليوم التالي عادت الجماعات التي تم تشكيلها في البارحة، وتوجهت الجماعتان الكبيرتان من «ميوات» إلى «بيشاور»، و«كلكتة»، وعاد الشيخ محمد يوسف والشيخ محمد زكريا الكاندهلوي.

اجتماع مدينة «مرادآباد»:

لم يعقد أي اجتماع كبير في ولاية الهند الشمالية أتراباديش، في حياة الشيخ

محمد إلياس - رحمه الله - ، إلا أن الجماعات كانت تنتقل من مكان إلى مكان، وتعتقد اجتماعات محلية في مناطق مختلفة في الولاية، وكانت مدينة «مرادآباد» من المدن السعيدة التي بادرت إلى الدعوة والخروج في سبيلها في حياة الشيخ محمد إلياس، وكانت تخرج منها الجماعات، وكان الشيخ محمد إلياس قد زار «مرادآباد» بنفسه قبل بدء حركة الدعوة فيها، ثم أرسل جماعة إليها بعد أن بدأ نشاط الدعوة فيها، ولكن هذه الجماعة خابت في عملها لعدم اعتناء السكان بها، فأرسلها الشيخ مرة أخرى، وعادت الجماعة هذه المرة أيضاً يائسة، ثم أرسل الشيخ الجماعة مرة ثالثة، ونصحها بأن تتضرع إلى الله وتدعوه لنصرته، فذهبت الجماعة إلى غابة قريبة، وتضرعت إلى الله، وبكى أعضاؤها في الدعاء، فتغير الوضع وانفتح الباب، وسعدت هذه الجماعة بإصغاء الناس واهتمامهم بها اهتماماً بالغاً.

وكان من أسباب بدء عمل الدعوة في «مرادآباد»، أن الشيخ المقرئ محمد داود أحد مسترشدي الشيخ محمد إلياس الذي قضى فترة في «مرادآباد» لأسباب صحية، وكان الشيخ عبد الملك الجامعي، والشيخ افتخار فريدي بجهوده قد سافر إلى «دلهي» وقضيا فترة في «نظام الدين» في حياة الشيخ، ثم عقد اجتماعاً في «مرادآباد»، ولم يستطع الشيخ محمد إلياس أن يحضر هذا الاجتماع بنفسه، ولكنه أناب المفتي كفاية الله، ثم وصل أربعون شخصاً في رمضان المبارك، وبعد وفاة الشيخ محمد إلياس توالى الجماعات الوافدة في «مرادآباد» إلى المركز بـ «نظام الدين»، وبذلت جهوداً لتوسيع نشاط الدعوة في «مرادآباد»، وبسطت شبكة لجماعات الدعوة، ولم يبق حي من الأحياء إلا وأرسلت إليه جماعة، وكان تمهيد الطريق إلى الدعوة في «مرادآباد»، وتعميم الحركة فيها، وربط سكانها بهذا العمل يقتضي أن يعقد فيها اجتماع ضخم ليتنشر هذا العمل عن طريقها في الولاية بكاملها ويثمر، وكانت هذه الفرصة سانحة، والجو صافياً بفضل هذه الجهود التي بذلت فيها أخيراً، ولم تكن الظروف ملائمة له في السابق مثل ما كانت ملائمة في هذه المرة، واستقبل الناس فكرة عقد الاجتماع، ورحبو بها، ولما عقد الاجتماع وصل ألوف من الناس من خارج «مرادآباد» فضلاً عن سكان المدينة، واشترك خمس مئة ميواتي، وخرجت ثلاثون جماعة قبل انعقاد الاجتماع إلى الخارج للدعوة إلى حضوره، ووصل مئتان من

سكان «مرادآباد» إلى «نظام الدين» لدعوة الشيخ محمد يوسف، واشترك عدد كبير من العلماء والمشايخ من مدينة «مرادآباد» ومن المناطق المجاورة.

انعقد الاجتماع في ١٤ - ١٦/يناير/كانون الثاني ١٩٤٥م الموافق ٢٧ - ٢٩/محرم الحرام ١٣٦٤هـ في مسجد شاهي بمرادآباد، ومما يجدر بالذكر أن الشيخ عبد القادر الراثيفوري وشيخ الإسلام حسين أحمد المدني، والمفتي كفاية الله الدهلوي والشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، كانوا في مقدمة العلماء الذين اشتركوا في هذا الاجتماع، وكان من بين الذين نظموا هذا الاجتماع الشيخ محمد منظور النعماني، والشيخ افتخار فريدي، والشيخ فضل عظيم مرادآبادي، والشيخ عبد الملك الجامعي مرادآبادي.

وحيث أن هذا الاجتماع كان أول اجتماع كبير في هذه الولاية، لذلك نقدم برامج الاجتماع بشيء من التفصيل:

كان الشيخ محمد منظور النعماني، والشيخ فضل عظيم مرادآبادي والشيخ عبد الملك الجامعي مرادآبادي، والطبيب خليف أحمد مسؤولين عن نظام التعليم، ألقى الشيخ محمد يوسف خطبته الأولى بعد صلاة الفجر في المسجد في اليوم التالي، وبدأ حلقة التعليم في الساعة الثامنة، وكان الشيخ أبو الحسن علي الحسن الندوي معلم هذه الحلقة، واشتملت هذه الجلسة على تصحيح تلاوة القرآن، وتصحيح الصلاة وقراءة من كتب الفضائل، وحكايات الصحابة، وألقى السيد رضا حسن البهوفالي خطبة على أصول التعليم، ثم توجهت الجماعات بعد صلاة الظهر للدعوة، وطافوا في مختلف الأحياء، وكانت كل جماعة تشتمل على خمس وعشرين عضواً، وألقى الشيخ محمد يوسف خطبة قبل الدعاء، واشترك في الدعاء الشيخ محمد زكريا والشيخ عبد القادر الراثيفوري، وفي اليوم الثاني ألقى المفتي كفاية الله الخطبة الصباحية، ثم ألقى الشيخ محمد منظور النعماني والحاج عبد الرحمن الميواتي خطبة بعد حلقة التعليم.

وفي اليوم الثالث ألقى الشيخ محمد يوسف خطبة الصباح، ثم تحدث الشيخ أبو الحسن علي الحسن الندوي، والشيخ حسين أحمد المدني، وألقى الشيخ محمد

يوسف كلمة لدى انتهاء حلقة التعليم، وبعد العشاء ألقى الشيخ محمد يوسف الدرس، واختتم الاجتماع بالدعاء (كما رواه الشيخ محمد منظور النعماني).

وكان قد وصل وفد من رجال الدعوة من «مرادآباد» إلى «رائيفور» في ٢٥/محرم يوم الخميس، ووصل الشيخ عبد القادر الرائيقوري مع عشرين من مسترشديه يوم الجمعة إلى «سهارنفور»، وبعد صلاة الجمعة وصلوا جميعاً إلى «مرادآباد»، ووصل الشيخ حسين أحمد المدني يوم الاثنين إلى «مرادآباد»، وتوجه إلى «بستي» يوم الثلاثاء، ووصل الشيخ محمد يوسف والشيخ إنعام الحسن من «نظام الدين» إلى «مرادآباد» مباشرة في ليلة السبت، وعاد جميعهم مع الشيخ محمد زكريا والشيخ عبد القادر الرائيقوري إلى «سهارنفور» يوم الثلاثاء، وأقاموا بها أربعة أيام، ثم عادوا إلى «دلهي».

كان من مزايا هذا الاجتماع أن وصل إلى «ديوبند» لدعوة الشيخ حسين أحمد المدني بعض مشايخ «مرادآباد» الذين كانوا من مسترشدي شيخ الهند محمود حسن، وكانوا لم يخرجوا إلى «ديوبند» بعد وفاة شيخ الهند لتأثرهم بوفاته، لكنهم أفاقوا من الصدمة، وخرجوا من معتكفهم لأهمية هذا الاجتماع، ولحرصهم على إنجاحه، ووافق الشيخ حسين أحمد المدني على حضور هذا الاجتماع بسبب سفر هؤلاء المشايخ واحتراماً لهم رغم أشغاله المكثفة، وألقى الشيخ محمد يوسف في اليوم الأخير من هذا الاجتماع خطبة مؤثرة ومثيرة للإيمان، لا يزال تأثير هذا الخطاب في ذاكرة كثير من المشتركين خالدة.

وكان ملخص كلمته: أن الحركة تصون من الفتن، ثم ذكر أن المنافقين زمن النبوة أرادوا إحداث الفرقة بين المسلمين في إحدى الغزوات، فقال رسول الله ﷺ للمسلمين: لا تمكثوا بل تقدموا وواصلوا السير.

ثم ذكر أمثلة كثيرة، وحكى حكايات كثيرة المعنى في الصباح، وتوجه خمسون شخصاً من أعضاء هذه الجماعة إلى «رائيفور» يوم الجمعة صباحاً، ووصل الشيخ منظور النعماني في الساعة الثانية عشرة من «ديوبند»، وتحدث بعد صلاة الجمعة في الاجتماع، ثم عاد إلى «ديوبند» في الساعة الخامسة مساءً، وعاد الشيخ محمد يوسف

من «ديوبند» إلى «سهارنفور» مع جماعة في ليلة السبت في الساعة الحادية عشرة، وقضى يوم السبت في الجولات الدعوية واللقاءات الشخصية، ثم انعقد اجتماع كبير في مسجد دار الطلبة في ليلة الأحد، وألقى فيه الشيخ محمد يوسف خطبة استغرقت عدة ساعات، وبعد الاجتماع توجهت أنا وهو إلى «رائيفور» ووصل الشيخ منظور النعماني أيضاً إلى «رائيفور»، وعدنا من «رائيفور» ليلة الثلاثاء، وعادت الجماعات التي كانت تعمل في «رائيفور» يوم الأحد بعد الظهر بعد الاستيذان من الشيخ عبد القادر الرائيقوري، يرافقها الشيخ محمد منظور النعماني، وافتخار فريدي، وبعد أن مكثت فترة وجيزة في «سهارنفور» توجهت يوم الاثنين صباحاً إلى «بيشاور» مرة بـ «لُدهيانه» و «جالندهر»، وكانت هذه الجماعة تتألف من ٥٣ شخصاً^(١).

قامت هذه الجماعة بجولة مكثفة للقرى والأرياف والمدن في «بنجاب»، وأقامت اتصالات واسعة بالمسلمين في المناطق القريبة والنائية، وحملت إليهم الرسالة، وظلت على صلة بالشيخ محمد يوسف، تطلعه على سير أعمال الدعوة، وتجاوب السكان معها، وأرسل الشيخ محمد منظور النعماني بعد وصوله إلى «لُدهيانه» رسالة مفصلة إلى الشيخ محمد يوسف وأطلعه فيها على ظروف العمل، ونتائج عمل الدعوة، وطلب منه الدعاء، فرد الشيخ محمد يوسف على الرسالة بالرسالة الآتية:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

تلقيت رسالتكم أمس بعد وصولكم إلى «لُدهيانه»، واطلعت على الأخبار، والأحوال للجماعة، فسررت جداً، أنكم خرجتم بعمل جليل يؤدي إلى انتعاش العمل الإسلامي، وانتشار أشعة شمس الإسلام، وتعلق بنتائج دعوتكم آمال جسيمة، فندعو لكم بكل خير وسعادة.

لقد قلت لكم أن تواصلوا الكتابة إلينا لنكون على معرفة تامة بنشاط جماعتكم، وطلبت منكم أن تعرضوا بإيجاز أحوال دعوتكم في المراكز العلمية وزوايا التربية الروحانية في المنطقة، وذلك أمر مهم يجب الاهتمام به، وعندما يعود العاملون من

(١) «تذكرة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي».

«مرادآباد» وغيرها من المدن بعد قضاء فترة دعوتهم العملية في الميدان، رغبوا في جماعة، وأنا شخصياً تأثرت تأثراً بالغاً، واستفدت كثيراً، وشاهدت نتائج مبشرة، والحمد لله^(١).

بعد هذا الاجتماع توجهت جماعة للمرادآباديين إلى مركز التبليغ بـ «نظام الدين»، وكانت تتألف من مئتي شخص، وكان أميرها الشيخ عبد الحق المدني، وانعقد في «مسجد الغابة» بـ «دلهي» اجتماع كبير، ألقى فيه الشيخ عبد الحق المدني كلمة دعوية مؤثرة.

جماعة كبيرة توجه إلى بيشاور:

كان اجتماع «مرادآباد» دعماً كبيراً لعمل الدعوة، داخلياً وخارجياً، وانضم إلى العمل مئات من الناس لم يكونوا متأثرين به قبل الاجتماع، وبدأ بعد ذلك الاتجاه إلى الخروج في سبيل الدعوة في الناس، وخرجت جماعات عديدة، وتصعد النشاط الدعوي في «نظام الدين» لقدوم جماعات مختلفة وخروج الدعاة، ولأول مرة خرجت جماعة إلى هذه المسافة البعيدة، وقاد الشيخ محمد يوسف جماعة دعوية في رحلتها إلى «سهارنفور»، ثم خرج الشيخ محمد منظور النعماني مع جماعة إلى «بيشاور»، وقامت هذه الجماعات بالدعوة خلال السفر في عربات القطار وعلى أرصفة المحطات، وعقدت اجتماعات في كل مكان نزلت فيه، وعقد اجتماع ضخم في «سهارنفور» في المسجد الجامع، تحدث فيه الشيخ عبد الحق المدني، وتحدث الشيخ محمد يوسف في اجتماع عقد في مسجد مظاهر العلوم الكبير، وسجل الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي الانطباعات الآتية في مذكراته عن هذه الرحلة الدعوية.

وصل العزيزان الشيخ محمد يوسف، والشيخ محمد إنعام الحسن إلى «سهارنفور» من «نظام الدين» يوم الأربعاء ٤/ ربيع الأول ٦٤ هـ الموافق ٢٨ فبراير/ شباط ١٩٤٥ م، يرافقه في الجماعة أكثر من ٢٠٠ شخص من «مرادآباد» و «دلهي»، و «ميوات» وأماكن أخرى، ونزل بعضهم في «ديوبند»، وتوجه العزيزان

(١) رسالة الشيخ عبد الحق إلى الشيخ افتخار فريدي.

محمد يوسف ومحمد إنعام الحسن إلى «ديوبند» يوم الخميس مساءً، ووصلت جماعة في إمارة الشيخ عبد الحق المدني المرادآبادي متكونة من ثمانين شخصاً إلى «سهارنفور» يوم الخميس، وانعقد اجتماع في المسجد الجامع للمدينة في ليلة الجمعة بعد ما قضت الجماعة النهار في عمل الدعوة واللقاءات، وألقى الشيخ عبد الحق المدني في هذا الاجتماع خطاباً ثم عاد مع جماعة إلى «مرادآباد».

وحدث على الخروج في سبيل الله، والتضحية في سبيله، بدأ خطبته بعد صلاة الفجر، وكانت حديث القلب الجريح، ثم بدأ التشكيل وتقدم عدد قليل من الناس للخروج، وكان العدد قليلاً، فلم تشكل الجماعات للخروج إلى المناطق المجاورة، وقد حكى الشيخ منظور النعماني هذا المنظر، كنا نحث الناس على الخروج في سبيل الدعوة، ونبذل ما كان في وسعنا من جهد لإقناعهم وحملهم على الخروج، لكن لم نجد استجابة لاثقة، وكان الشيخ محمد يوسف في زاوية من المسجد بعد إلقاء خطابه، فلما بلغه أن الناس لم يتحركوا، ولم يستعدوا للخروج نهض في غاية من الحماس والانفعال، وتناول الميكروفون من يدي، وبدأ يتكلم بقوة وعاطفة «أيها الناس إنكم اليوم غير مستعدين للخروج إلى مناطق مجاورة كـ «بجنور»، و «چاندبور»، و «رام بور»، ولمدة محدودة كـ ثلاثة أيام، وسيأتي يوم تخرجون إلى «سوريا»، و «مصر»، و «العراق»، ولكن عمل الدعوة سيعم في ذلك الوقت وينتشر، فيقل أجر الخروج».

كان هذا الاجتماع أول اجتماع، وكان اجتماعاً غريباً لم يكن مألوفاً، وكانت الدعوة جديدة، ولم يكن الخروج في سبيل الله مألوفاً، فاستغرب الناس هذا البيان. وإني شخصياً لاعتمادى على الأمور الظاهرة والتأثر بالجو العام، لم يؤثر في ما قاله الشيخ محمد يوسف عن الخروج إلى «سوريا» و «مصر» و «العراق»، واعتبرت ذلك نوعاً من المبالغة، والتحمس الزائد، فإني كنت أرى بنفسى وأشهد أن الناس لا يخرجون إلى مناطق مجاورة، فكيف يمكنهم الخروج إلى بلدان بعيدة كـ «سوريا» و «مصر» و «العراق»، فاعتبرت ذلك خلاف العادة، وأمرأً مستحيلاً، ولكن شاء الله أن يتحقق هذا الأمر المستحيل في مدة قريبة، ولعل أول جماعة خرجت إلى خارج

الهند، ووصلت إلى البلاد العربية كانت مشتملة على الدعاة من «مرادآباد»^(١).

اشترك في هذا الاجتماع من خارج «مرادآباد» حوالي ألف شخص، وخرجت جماعات إلى «بجنور»، و«چاندپور»، ومن خرج في هذه الجماعات تأثر بالعمل تأثراً بالغاً، وتغيرت حياته، وانضم إلى هذا العمل.

يقول أحد الدعاة الذين خرجوا من هذا الاجتماع في رسالة له إلى أحد أصدقائه: «نحن جميعاً شاكرون لكم على ما تكرمتم به من توجيهنا للخروج إلى «مرادآباد» في الصباح، وتوجه خمسون شخصاً من أعضاء هذه الجماعة إلى «رائيفور» يوم الجمعة صباحاً، ووصل الشيخ منظور النعماني في الساعة الثانية عشرة من «ديوبند»، وتحدث بعد صلاة الجمعة في الاجتماع، ثم عاد إلى «ديوبند» في الساعة الخامسة مساءً، وعاد الشيخ محمد يوسف من «ديوبند» إلى «سهارنפור» مع جماعة في ليلة السبت في الساعة الحادية عشرة، وقضى يوم السبت في الجولات الدعوية واللقاءات الشخصية، ثم انعقد اجتماع كبير في مسجد دار الطلبة في ليلة الأحد، ألقى فيه الشيخ محمد يوسف خطبةً استغرقت عدة ساعات، وبعد الاجتماع توجهت أنا وهو إلى «رائيفور» ووصل الشيخ منظور النعماني أيضاً إلى «رائيفور»، وعدنا من «رائيفور» ليلة الثلاثاء، وعادت الجماعات التي كانت تعمل في «رائيفور» يوم الأحد بعد الظهر بعد الاستئذان من الشيخ عبد القادر الرائي فوري، ويرافقها الشيخ محمد منظور النعماني وافتخار فريدي، وبعد أن مكثت فترة وجيزة في «سهارنפור» توجهت يوم الاثنين صباحاً إلى «بيشاور» مارة بـ «لُدهيَّانه» و«جالندهر»، وكانت هذه الجماعة تتألف من ٥٣ شخصاً^(٢).

قامت هذه الجماعة بجولة مكثفة للقرى والأرياف والمدن في «بنجاب»، وأقامت اتصالات واسعة بالمسلمين في المناطق القريبة والنائية، وحملت إليهم الرسالة، وظل على صلة بالشيخ محمد يوسف، تطلعه على سير أعمال الدعوة، وتجاوب السكان لها، وأرسل الشيخ محمد منظور النعماني بعد وصوله إلى «لدهيانه»

(١) «الفرقان»، عدد الشيخ محمد يوسف.

(٢) تذكرة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي.

رسالة مفصلة إلى الشيخ محمد يوسف، وأطلعه على ظروف العمل، ونتائج عمل الدعوة، وطلب منه الدعاء، فرد الشيخ محمد يوسف على رسالته بالرسالة الآتية:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته:

تلقيت رسالتكم أمس بعد وصولكم إلى «لدهيانه»، واطلعت على الأخبار والأحوال للجماعة، فسررت جداً، إنكم خرجتم بعمل جليل يؤدي إلى انتعاش العمل الإسلامي، وانتشار أشعة شمس الإسلام، تعقد بنتائج دعوتكم آمال جسيمة، فندعو لكم بكل خير وسعادة.

لقد قلت لكم أن تواصلوا الكتابة إلينا لتكون على معرفة تامة بنشاط جماعتكم، وطلبت منكم أن تعرفوا بإيجاز أحوال دعوتكم في المراكز العلمية وزوايا التربية الروحانية في المنطقة، وذلك أمر مهم يجب الاهتمام به، وعندما يعود العاملون من «مرادآباد» وغيرها من المدن بعد قضاء فترة دعوتهم العملية في الميدان، رغبتهم في أن يطبقوا ما تعلموه خلال هذه الرحلات وما تدربوا عليه من أعمال ووظائف، وما ألفوه من منهج حياة في حياتهم الشخصية وفي أسرهم وعائلاتهم، ولا ينقطعوا عن هذا العمل، هذا المنهج للحياة، ولا تشغلهم مسؤولياتهم العائلية كلياً عن مسؤولياتهم الدينية وواجباتهم الدعوية، فيزول عنهم ذلك التأثير الذي خلفه العمل الدعوي خلال رحلاتهم، ويجب أن ينه هؤلاء العاملون، أن الوقت الذي خصصوه للدعوة كان أقل مما كان يجب عليهم أن يخصصوه، وأن الطريق الأفضل لتلافي ذلك التقصير أن يرسلوا العاملين الجدد للدعوة، ويعدوا النفوس لها.

العبد الفقير إلى الله

محمد يوسف، غفر له

١١/ مارس/ آذار ١٩٤٩م

غادرت هذه الجماعة ليلة ١١ - ١٢ مارس/ آذار «لاهور» إلى «بيشاور»، وكان أحد أعضاء هذه الجماعة الشيخ عبيد الله البلياوي مشغولاً بالدعوة في «بيشاور» قبل وصول هذه الجماعة إليها ويمهد الطريق لها، وكان يطلع الشيخ محمد يوسف على

تقدم عمل جماعته، وقد كتب الشيخ محمد يوسف رداً على رسائل الشيخ البليايوي رسالة تحمل التوجيهات الآتية للعاملين في «بيشاور»:

«إن الدعوة في «بيشاور» لها أهمية كبرى، ولها خطورة كبيرة (لموقعها وطبيعة سكانها) فلا بد من اتخاذ كل حذر وحيلة واحتراس خلال الدعوة، فإن الدعوة في المستقبل ستتحصر على نتائج هذه الجولة».

وعادت هذه الجماعة بعد قضاء أربعين يوماً، وقامت بالدعوة في الأماكن الآتية، «ديوبند»، «سهارنفور»، «لدهيانه»، «أمترسر»، «لاهور»، «بيشاور»، «كوهات»، «بندي»، «غجرات»، «كوجرانواله».

وفاة الشيخ عبد الرحمن الميواتي:

توفي في ٤/ ربيع الآخر ١٣٦٤هـ يوم الاثنين الحاج عبد الرحمن الميواتي، وكان يقيم في «مركز نظام الدين» بعد دخوله في الإسلام من عهد الشيخ محمد إسماعيل - رحمه الله -، وكان من أرشد تلاميذ الشيخ محمد، ومن ثقات الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي، وأقرب رفقائه وأعوانه، وكان يحترمه ويكرمه الشيخ محمد يوسف احتراماً فائقاً لصلته بالأكابر، وكان لوفاته تأثير عميق على جميع العاملين في المركز، وخاصة الشيخ محمد يوسف الذي حزن حزناً شديداً عليه، ووصل الشيخ عبد القادر الرائيقوري، والشيخ محمد زكريا الكاندهلوي في اليوم الثاني من وفاته إلى «مركز نظام الدين»، وأقاما ثمانية أيام، ثم عادا إلى «سهارنفور» في ١٢/ ربيع الآخر.

ثلاثة اجتماعات في ثلاثة أماكن:

فتح باب عقد الاجتماعات في مدن مختلفة بعد اجتماع مرادآباد، ولحضور عدد كبير من سكان المدن الأخرى في اجتماع مرادآباد، انتشر عمل الدعوة إلى الأماكن الأخرى، وحمل هذه الرسالة المشتركون في الاجتماع إلى مدنهم، واتخذوا إجراءات لعقد اجتماعات قبل هذا الاجتماع في مدنهم، فعقدت اجتماعات مختلفة في «جوالابور» (مديرية سهارنفور) و«بروت»، (مديرية ميرته) في شهر واحد، في مواعيد مختلفة.

وصل الشيخ عبد القادر الرائيپوري في ٣/ جمادى الأولى ١٣٦٤هـ إلى «سهارنفور» وتوجه إلى «جوالابور»، وانهقدت اجتماعات في «جوالابور» يوم الاثنين ويوم الثلاثاء (٣ - ٤/ جمادى الأولى)، وودعت الجماعات في اليوم الثالث، وألقى الشيخ محمد يوسف حسب عادته كلمة مؤثرة عاطفية، وشكل الجماعات، وودعها، ورجع المشتركون من «جوالابور» يوم الأربعاء بعد الظهر.

وكان الاجتماع الثاني في «بروت»، اشترك في هذا الاجتماع الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، انعقد الاجتماع في ١٤/ جمادى الأولى ١٣٦٤م، وفي نفس اليوم توجه الشيخ محمد يوسف مع محمد زكريا إلى «نظام الدين».

انعقد الاجتماع الثالث في «أجراة»، في ٢١/ جمادى الأولى ١٣٦٤هـ، اشتركت في هذا الاجتماع جماعة تتكون من ٢٥ شخصاً في إمارة الشيخ الحافظ مقبول حسن الكنگوهي، وبعد الاجتماع توجه رجال هذه الجماعة إلى «رائيپور» يوم الجمعة صباحاً، وكان العمل قد بدأ فعلاً في «مظفرنجر»، والأرياف المجاورة لها، وبدأ الناس ينضمون إلى هذه الدعوة، وزارت هذه المنطقة جماعات، وخرجت منها جماعات كثيرة.

زيارته لـ «ديوبند»:

كان الشيخ محمد يوسف على صلة دائمة بمشايخ عصره، وكان موضع ثقة هؤلاء المشايخ ويكثر من زيارته لهم والاستشارة منهم، كان يحمل للشيخ حسين أحمد المدني حباً وتقديراً خاصاً، ويعتبر زيارته سعادة لنفسه، وكان من عادته أن يزوره ولو لدقائق في طريقه إلى سهارنفور والعودة منها كل مرة، ويجتمع به، وإذا كان في وقته متسع قضى ليلة كاملة، وذلك عندما لم يكن يسافر بالسيارة الخاصة، وإنما كان يسافر بالقطار، فكان ينزل على محطة ديوبند لوقوف القطار عليها، ويدخل على الشيخ حسين أحمد المدني ويقضي معه ما يتوفر له من الوقت.

رحلته إلى «سهارنفور»:

أمّ الشيخ محمد يوسف الناس صلاة التراويح في رمضان ١٣٦٤هـ، وتوجه في اليوم الثاني من شهر شوال إلى وطنه «كاندهله»، وكان يريد أن يذهب إلى سهارنفور،

ولكن انزلت رجله وهو يخرج من المسجد، وأصابه جرح في ذقنه، فأجل رحلته إلى سهارنفور، وعاد إلى دلهي ثم توجه إلى سهارنفور مرة أخرى في ٧/ شوال، وكان من المقرر أن يتوجه الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي أيضاً إلى «رائسبور»، لكنه لم يتمكن من القيام بهذه الرحلة للحتمى التي اعترته في ذلك الحين، فمكث الشيخ محمد يوسف عنده يومين، ثم توجه إلى رائسبور في يوم الاثنين، وعاد في نفس اليوم مع الشيخ عبد القادر الرائيپوري إلى سهارنفور لعيادة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي وتوجه إلى دلهي يوم الأربعاء.

مشورة دينية مهمة في حي «نظام الدين» :

جرت مشورة دينية مهمة في «مركز نظام الدين» بعد عودته من سهارنفور، وكان قد تقرر عقد هذا الاجتماع للمشورة قبل شهر رمضان، وكانت الإجراءات تتخذ له منذ شهر فوجهت الرسائل إلى العاملين القدامى للحضور في هذا الاجتماع، وكان من ميزات هذا الاجتماع أنه قد اشترك فيه عدد كبير من العاملين القدامى الذين انضموا إلى هذه الحركة في عهد الشيخ محمد إلياس ورافقوه طويلاً في ظعنه وإقامته، وكانوا محل ثقته وحبه بالإضافة إلى اشتراك بعض العلماء الكبار من أمثال الشيخ عبد القادر الرائيپوري والشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، واستغرق هذا الاجتماع ثمانية أيام، وكان بمنزلة مخيم تربوي أقيم تحت إشراف العلماء والمشايخ لدراسة الطرق النافعة لعمل الدعوة وإعداد النفوس للقيام بهذا العمل الجليل بنشاط جديد، وجرت هذه المشورة ما بين ١١ و ١٩ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٤٥م وشارك فيه السيد علي أكبر شاه عضو المجلس التشريعي أيضاً.

اخترنا من هذه الرسائل التي وجهها الشيخ محمد يوسف إلى مناطق مختلفة رسالتين إحداهما عامة والأخرى خاصة لنعرف لغته، وأسلوبه ومنهج تفكيره.

رسالة وجهت إلى الطبقة العامة :

إخواني وأحبائي!

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

قرر الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي والشيخ عبد القادر الرائيپوري أن يقضيا العشرة الثانية من شهر ذي القعدة في «مركز نظام الدين»، ونحن بحاجة إلى إعداد

نفوس كثيرة لقضاء وقت طويل في «مركز نظام الدين» لتعلم الدين ومعرفة المنهج الصحيح لعمل الدعوة؛ لأن العمل لا يزال في إقبال وتقدم، ومما لا شك فيه أن للعاملين القدامي منزلة رفيعة ومكانة عالية عند الله سبحانه وتعالى، ولكن لا ننسى أن المسؤولية تزداد بتقدم العمل، والحاجة تشتد إلى بذل الجهد وأداء المسؤولية دراسة العمل واستعراض الوضع واختيار الطريق الصحيح لنشر الدعوة على قدر سعتها ورواجها، فيجب عليكم أن تنفقوا على هذا العمل الجليل النبوي وقتاً أطول من قبل، وتبؤوا مقاعدكم على مقربة من رسول الله ﷺ في الجنة.

رسالة وجهت إلى العلماء والمشايخ:

سادتي الأكارم!

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

إنَّ الدعوة التي تقوم في هذه الأيام المليئة بالفتن والمحن هي من الأعمال المهمة الموهوبة من الله سبحانه وتعالى التي نستطيع بها مكافحة هذه الفتن وإخماد نارها وصيانة المسلمين من الوقوع فيها، ومن ناحية أخرى فهي دعوة صريحة إلى بذل الوقت والمال والتضحية بالأنفس والأرواح في سبيل الله.

فإذا عنيّا بهذا العمل وركزنا جهودنا عليه، وأنفقنا عليه من الوقت والمال جزءاً كبيراً، واخترقنا الحواجز التي تقف في سبيلنا من الأشغال والأعذار، فسيلقى هذا العمل قوةً ورقياً، وينال به الإسلام ازدهاراً وتقدماً، وإذا توجهت عناية أمثالكم من العلماء والمشايخ إلى هذا العمل، ونهضوا لنشر هذه الدعوة وترسيخ قواعدها وساعدوا العاملين لها بإسداء النصح وتقديم الآراء وتخصيص الأوقات، فسيؤدي ذلك إلى تحسين هذا العمل وتطويره، وتوسيع نطاقه وجذب الناس إليه، وأقول لكم بكل صراحة: إن جهودنا لا تثمر، وآمالنا لا تتحقق، ولا تزال تستهدف الأموال التي أنفقناها، والأوقات التي أمضيناها، والمجهودات التي بذلناها عرضةً للخطر، إلّا إذا جرت هذه الأعمال تحت رعايتكم وتوجيهاتكم، فمتى يأتي الوقت لخروجكم في سبيل الله، وتخصيص الأوقات لعمل الدعوة، فقد مضى وقت طويل ولم نكسب كثيراً، وضاعت الجهود الكثيرة ولم تنتج، فأرجوكم أن تشرفونا بمشاركاتكم في هذا

الاجتماع لنستفيد من آرائكم الثمينة، وتوجيهاتكم السديدة في عمل الدعوة الذي يجري في مناطقكم وضواحيها بفضل الله سبحانه وتعالى.

ومن المقرر أن يصل الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، والشيخ عبد القادر الرائيپوري وغيرهما من العلماء والمشايخ في ٤/ ذي القعدة، فاشتراكم في هذا الاجتماع يزيدنا سروراً وبهجةً ويؤدي إلى رقي هذا العمل.

دعا الشيخ محمد يوسف كل من يحمل في قلبه همّاً للدين، ويُعَدّ من العلماء والمثقفين للحضور في هذا الاجتماع، وكان الدكتور عبد العلي الحسنی من الذين خصه الشيخ محمد يوسف بالدعوة إليه، فوجه إليه رسالة قبل انعقاد هذا الاجتماع بشهر، وكتب فيها: سيعقد اجتماع في حي «نظام الدين» لدراسة أمور الدين واستعراض الوضع له، ومن المتوقع أن يحضره عدد كبير من العلماء والمشايخ الذين رافقوا الشيخ محمد إلياس — رحمه الله —، فحضوركم في هذا الاجتماع وتوجيه الدعوة إلى السيد سليمان الندوي للحضور من الأمور اللازمة، لأنني أرى أن هذا العمل لا يسير طبقاً للمبادئ المقررة لهذه الدعوة إلاّ بالمشورة وعقد الاجتماع.

استمرّ هذا الاجتماع الاستشاري أسبوعاً كاملاً، وكان موفقاً للغاية، من حيث العمل والجهد والنتيجة، وأفضى إلى حفز الهمم ودفع الناس إلى العمل، فتصاعدت النشاطات وقويت العزائم من جديد، ونال الشيخ محمد يوسف بهذا الاجتماع قوة كبيرة وتأيداً بالغاً، وزالت الحواجز والغربة، ومالت إليه القلوب واستأنست به.

رحلته إلى «مرادآباد» :

لقيت هذه الدعوة حفاوة بالغة في مديرية «مرادآباد»، وصارت هذه المديرية مجالاً كبيراً لأعمالها ونشاطاتها، وتكاثر عدد أتباع الشيخ محمد يوسف ومسترشديه وثقاته، وكان لأهالي هذه المديرية صلة عميقة وارتباط وثيق بالشيخ محمد زكريا الكاندهلوي ولا سيما الشيخ عبد القادر الرائيپوري.

فغادر الشيخ عبد القادر الرائيپوري والشيخ محمد زكريا الكاندهلوي يوم الاثنين ٣/ محرم الحرام — ٥/ يناير/ كانون الثاني ١٩٤٦م إلى مديرية بريلي، وعاد

منها في ٦/ صفر إلى «مرادآباد» حيث انضم إلى هذا الركب الشيخ محمد يوسف والشيخ أبو الحسن علي الحسيني الندوي، ومكث هؤلاء المشايخ في «مرادآباد» أربعة أيام، عقد خلالها عدة اجتماعات، خاطب فيها الشيخ محمد يوسف الحضور، ولحق بهم العاملون القدامى وقضوا معهم وقتاً، ثم وصلت هذه الجماعة المكونة من العلماء والمشايخ إلى سهارنفور، وكانت هذه الرحلة موفقة إلى حد كبير، باعتبار العمل، وانتشار الدعوة وإقبال الناس عليها وتحمسهم لها، وتوجهت جماعة سكان «بيشاور» و «مرادآباد» إلى «كلكتة» تحت إمرة الحاج نور إلهي.

الدعوة في «لندن» :

كان من المآثر الدينية للشيخ محمد يوسف أن عمَلَ الدعوة وصل إلى البلدان الخارجية في عهده الأول بعد توليه قيادة الحركة بقليل، فقد نقل هذا العمل إلى هذه البلدان الدعاة الذين جلسوا في مجالسه، واستمعوا إلى خطبه، واسترشدوا بتوجيهاته، ثم انتشر هذا العمل إلى العالم كله، وقد حث الشيخ محمد يوسف أصحابه فور توليه القيادة على الخروج إلى الدول الخارجية، وإيصال عمل الدعوة إلى خارج الهند، وخرجت طليعة هؤلاء العاملين من اجتماع مرادآباد، وكان هذا الاجتماع منطلقاً للدعوة إلى الخارج.

لقد انضم إلى هذه الحركة في حياة الشيخ محمد إلياس عدد من المثقفين بالثقافة العصرية، أصحاب مناصب عالية من المسلمين لتأثرهم بالشيخ الكبير وحضورهم في مجلسه، وسماعهم لخطبه، وخرجوا في سبيل الدعوة، وكانت لديهم خبرة ومعرفة بالبلدان الأوروبية، كان في طليعتهم الدكتور ذاكر حسين خان شيخ الجامعة الملوية الإسلامية، والذي عين رئيس جمهورية الهند في آخر حياته، كما كان من المسترشدين له الأستاذ راحت رضوي، الذي كان من أسرة متدينة ثرية تسكن في «كلكتة»، واشترك في أعمال الدعوة رجال هذه الأسرة بفضل جهود الحاج أرشد البيشاوري مهندس الهاتف، وتوثقت صلاتهم بالشيخ محمد يوسف، وقام رجال هذه الأسرة بجهود مرضية في نقل الدعوة إلى الخارج.

بدأت الجولة الدعوية في لندن في ٢٠/ يناير/ كانون الثاني ١٩٤٦م بجهود هذين

العاملين الذين يعرفان طبيعة الحياة في لندن، واشتغال الناس بأعمالهم، وسخونة الجو وعدم ملائمته لمثل هذه الأعمال الاجتماعية والإصلاحية يستطيعون أن يعرفوا صعوبة الجولة الدعوية التي يقوم عليها أساس حركة الدعوة، ويمكنهم أن يتصوروا العراقيل والعقبات التي تعترض في سبيل هؤلاء العاملين في بداية هذا العمل، ولكن جزى الله خيراً أولئك الأولين السابقين الذين فتحا الباب لهذه الدعوة الشفهية واللقاءات الدعوية في هذا المجتمع المادي، والحياة الصاخبة في الدول الأوروبية، وداوماً عليها وقاما بترسيخها، ومن باب الصدق كان الدكتور ذاكر حسين في ذلك الحين في لندن، لحضور مؤتمر تعليمي، وهو الذي افتتح الجولة، ولمكانة الدكتور ذاكر حسين في نفوس المثقفين والمتعلمين، وشهرته العالمية، نال هذا العمل اهتمام الناس، ولقي استجابة منهم في وقت قصير.

بدأت الجولة الدعوية أولاً في أوساط الهنود في لندن، اشترك فيها السكان المحليون أيضاً، وكان أمير هذه الجولة الأستاذ راحت رضوي اللكهنوي وكان ذلك بداية مباركة لهذا العمل، ثم بدأت الجماعات تتردد إلى المنطقة، وتوسع نطاق العمل، وسيأتي تفصيله.

العلماء والمشايخ الكبار يزورون مركز نظام الدين ويقىمون فيها أسبوعاً:

كان الشيخ محمد يوسف يحرص دائماً وخاصة في عهده الأول أن ينضم إلى اللقاءات والاجتماعات كبار العلماء والمشايخ الذين يتمتعون بمكانة علمية ودينية، وينسجمون مع هذا العمل، وكانت لهم صلة بالشيخ محمد إلياس لكيلا يشعر المتسبون إلى الدعوة والعاملون في سبيلها، والذين يقيمون بمركز الدعوة، بفراغ أو حرمان من شخصية إصلاحية وإرشاد رباني، فكان يعقد اجتماعات، ويوجه الدعوة إلى هذه الشخصيات المعروفة للإفادة والإرشاد والتوجيه، وتقوية القلوب، فكان العلماء يزورون «مركز نظام الدين» في مناسبات مختلفة، ويقىمون بها أياماً، ومن هذا القبيل هذا الاجتماع الذي عقد في المركز.

وقد ذكر الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي هذا الاجتماع للمشايخ في مذكرته بالكلمات الآتية:

وصل الشيخ عبد القادر الرائيپوري يوم السبت ١٢/ ربيع الأول ١٣٦٥هـ من «رائيپور»، واشترك في الاحتفال بختم القرآن الكريم للحافظ عبد الرحيم في مدرسة «ريڑهي»، ووصل المقرئ سعيد أحمد خان أيضاً من سهارنفور يوم الأحد صباحاً، وبعد ختم القرآن الكريم توجهوا جميعاً إلى «سهارنفور»، وسافرنا يوم الاثنين إلى «دلهي»، ووصلنا إلى «نظام الدين»، وكنا ١٦ شخصاً، وأقمنا بـ «نظام الدين» أسبوعاً.

والجدير بالذكر أن هؤلاء العلماء والمشايخ عندما كانوا يقيمون بالمركز كان المنتسبون إلى الدعوة، والمسترشدون في «ميوات»، و «دلهي»، والأماكن المجاورة يتدفقون إليه، وقيم بعضهم أياماً، فيصبح ذلك بمثابة اجتماع شعبي عظيم، ويتنزه الشيخ محمد يوسف هذه الفرصة القيمة بعرض دعوته على المجتمعين بقوة وحماس، ويجري تشكيل الجماعات، وتسجل الأسماء، ولوجود هذه الشخصيات الدينية العظيمة، والجو الديني الغامر، تُقبل النفوس على الدعوة، ويستعد الحاضرون للخروج، وينجز في هذه المدة القصيرة ما لا يمكن إنجازه في مدة طويلة أو في اجتماع كبير، وتسري في عمل الدعوة روح جديدة، وتنتعش نفوس العاملين، ويجدون دافعاً جديداً وحافزاً قوياً على العمل، وتشحن بطارية نفوسهم، كما تعقد حلقات التعليم والذكر، وتعم مظاهر الإنابة إلى الله، والتضرع إليه، والخشوع في الصلاة، والعبادة، ويجد الناس حلاوة لا يجدونها في مناسبات أخرى، ويتحول المركز من هذه الفترة إلى مركز تربية النفوس، وتزكيتها، وجلاء النفوس وصقلها.

الاجتماع الكبير في «رحيم آباد» :

ومن المناطق التي قبلت هذه الدعوة كانت «رحيم آباد» (باقي نجر) التي تبعد عن «لكهنؤ» بحوالي ٢٥ ميلاً من الجانب الغربي، ويسكن في هذه المنطقة أسر مختلفة وقبائل وأصحاب مهن وصناعات، وفيهم أصحاب إقطاعات من الأشراف والنبلاء، كان منهم الشيخ الحاج فياض علي أحد الأثرياء وأصحاب نفوذ في المنطقة، وقد تأثر بهذه الدعوة وأسهم فيها، وباشترائه بدأ الناس يلتفتون إلى هذا العمل، ويولونه الاهتمام، وكان الحاج فياض علي يزور المناطق المجاورة، ويلتقي

برؤساء القبائل ويدعوهم إلى الاشتراك في هذا الدعوة، وكان يخصص في كل شهر عشرة أيام لعمل الدعوة، فلما وصل الشيخ محمد يوسف؛ قوي هذا العمل وامتدت جذوره، وانضم عدد كبير من سكان المنطقة إليه، وسجل الحاج فياض علي وعدد كبير من رفقته ومعارفه أسماءهم للخروج من المنطقة في سبيل الدعوة، وسافروا إلى «دلهي»، وتقرر عقد اجتماع مركزي في «رحيم آباد» لموقعه الجغرافي، واتصاله بعدة مدن كـ «هردوئي»، و «سنديله»، و «لكهنؤ»، وكان يتوقع أن الاجتماع سيؤثر في سكان هذه المدن المجاورة، فعقد هذا الاجتماع على دعوة من الحاج فياض علي، وبعض العاملين المعروفين في «لكهنؤ» في ٦ - ٧ - ٨/ مايو/ أيار ١٩٤٦هـ، الموافق ٣ - ٤ - ٥/ جمادى الآخرة ١٣٦٥هـ (الاثنين، الثلاثاء، والأربعاء).

وضعت بذور هذه الدعوة في لكهنؤ في عهد الشيخ محمد إلياس، خلال زيارته للمدينة، وبدأ العمل فيها وفي المناطق المجاورة، تقرر عقد اجتماع عام لثلاثة أيام يوم الأربعاء، واتخذت له إجراءات واسعة، ووصل الشيخ افتخار فريدي الذي كانت له خبرة واسعة في تنظيم الاجتماعات الدعوية إلى «رحيم آباد»، واتخذ الترتيبات اللازمة للاجتماع، وأعدّ خطة العمل في المنطقة، وحيث أن هذا الاجتماع كان الاجتماع الأول في المنطقة الشرقية حاول العاملون في «لكهنؤ» و «رحيم آباد»، وأولو الهمة العالية أن يحقق هذا الاجتماع النجاح المطلوب، فقاموا بحركة مكثفة في المناطق المجاورة، وأرسلوا جماعات متعددة من العاملين من أصحاب الخبرة لجمع الناس، وحملهم على الخروج من مناطقهم للاشتراك في الاجتماع ثم الخروج في سبيل الله، وعقد الاجتماع في الساحة الفسيحة، أمام منزل الحاج فياض علي بالقرب من مدرسة دينية كانت متصلة بحديقة الشيخ مشتاق علي.

وكان من بين المشايخ والعلماء الذين اشتركوا في هذا الاجتماع الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، والشيخ محمد يوسف ورفقته، والشيخ عبد الحليم الصديقي، والمقرئ الشيخ محمد طيب القاسمي مدير دار العلوم ديوبند، والشيخ ظفر أحمد التهانوي، والشيخ عبد الشكور الفاروقي اللكهنوي، والشيخ عبد الحق المدني، والشيخ محمد منظور النعماني، والشيخ أبو الحسن علي الحسيني الندوي، والشيخ

حليم عطاء السلونوي شيخ الحديث بدار العلوم ندوة العلماء، والدكتور عبد العلي الحسيني رئيس ندوة العلماء، والشيخ محمد عمران خان الندوي البهوفالي مدير دار العلوم بندوة العلماء؛ وأساتذة دار العلوم ندوة العلماء، وجماعات كثيرة قادمة من «مرادآباد»، «كانفور»، «رائي بريلي»، «باره بنكي»، «دلهي»، «ميوات» وأماكن أخرى.

توجّه الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي ٢/ جمادى الآخرة ١٣٦٥هـ، الموافق ٥/ مايو/ أيار ١٩٦٤م يوم الأحد صباحاً من سهارنפור، وانضم إليه في محطة مرادآباد الشيخ محمد يوسف، ووصلا إلى بريلي عند العصر، ثم توجهوا إلى «رحيم آباد» بالليل في الساعة الواحدة، ووصلا إلى «رحيم آباد» يوم الاثنين بعد الظهر.

وقد كان من مزايا هذا الاجتماع أن العلماء والمشايخ وعامة الناس، أقاموا في مكان واحد، وكان للغداء أيضاً نظام واحد لا فرق فيه بين العامة والخاصة، ولم يكن في الطعام أي تمييز، فكان يقدّم طعام واحد إلى كل مشترك مهما كانت مكانته كما كان نظام التعليم، والجولة، والاجتماع مساوياً، يستوي فيه الخاصة والعامة، وقد ضمّ هذا الاجتماع عدداً كبيراً من أصحاب المناصب العليا، والثروة وأصحاب الفضيلة، وأصحاب اتجاهات ومذاهب مختلفة، فلم يميز بينهم في شيء، ففضى جميع هؤلاء المشتركين الأيام الثلاثة في هذا المخيم التربوي في جو واحد، وقد سجل الشيخ محمد زكريا انطباعاته عن هذا الاجتماع بالكلمات الآتية:

«كانت الميزة الكبرى لهذا الاجتماع أنه لم يميز في الطعام بين العامة والخاصة لمصلحة محلية، ولم يقدم إلى أي شخص شيء إلاّ طعاماً واحداً يشتمل على الخبز والعدس، وقُدّم في وجبتين الخبز والمرق».

وكان نظام هذا الاجتماع كنظام الاجتماعات الأخرى، حلقتان للتعليم، جولة دعوية في القرى والأرياف المجاورة، عقد اجتماعات فرعية، اجتماع عام بالليل، ولم يعهد سكان هذه المنطقة بمثل هذا الاجتماع الكبير قبل ذلك، ولم يؤثر في الناس الذين جاءوا من المناطق المجاورة، الرياح العاتية والمطر الغزير الذي اقتلع أطناب الخيام، وجعل المطر التنقل والتحرك من مكان إلى مكان آخر عسيراً لكثرة الوحل في

الطريق، ولكن لم يؤثر ذلك في النظام، وواصل الدعاة أعمالهم ولم يؤخروا جولتهم، ولا حلقة التعليم، ولا الاجتماع الذي انعقد في موعده ومحلّه.

ومن المتحدثين في هذه المناسبة كان الشيخ عبد الحليم الصديقي، والشيخ ظفر أحمد التهانوي، والمقرئ الشيخ محمد طيب، والشيخ عبد الشكور الفاروقي اللكهنوي وغيرهم، وكان خطاب الشيخ عبد الشكور الفاروقي مقبولاً بصفة خاصة لكونه بأسلوب سهل مقنع، لا يزال يذكره الناس، ويجدون حلاوته وتأثيره، وألقى الشيخ محمد يوسف عدة خطب بقوة وحماس، وبأسلوبه المعروف المجدد للإيمان والمثير للعاطفة، وإن كان الناس في هذه المنطقة القروية يجدون أولاً صعوبة في فهم لغته ولهجته ومنهجه الخاص؛ لانتمائه إلى المنطقة الغربية لولاية الهند الشمالية، ولسكان المنطقة الشرقية للولاية لهجة أخرى وأسلوب آخر للبيان، إلا أنهم تعودوا عليه وألفوه سريعاً، وكان العامل الأكبر في تقريب الأذهان، وإزالة هذه الفوارق، العاطفة الجياشة للشيخ محمد يوسف، وقلقه، وتوقد ذهنه، وحرقة قلبه، وخطابه المباشر الذي يخلو من القصص والحكايات، والزوائد التي تطيل الكلام وتنمق البيان، فكان كلامه ينتقل إلى قلوب المستمعين، ويؤثر على أذهانهم مباشرة، ولذلك كان الناس يبدون استعدادهم للخروج في سبيل الدعوة ويسجلون أسماءهم فور انتهاء خطابه، وتشكل الجماعات، فخرجت من هذا الاجتماع جماعات عديدة.

انتهى الاجتماع، وغادر هؤلاء المشايخ يوم الخميس «رحيم آباد» وبدأ ذلك المكان العامر الذي كانت تندفق فيه الحياة، يقفر، وظل الناس يعودون إلى حيث جاؤوا، أو يخرجون في جماعات حاملين أمتعتهم، وتوجه الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي إلى «سهارنפור»، ووصل الشيخ محمد يوسف إلى «لكهنؤ»، وأقام يوماً واحداً في منزل الدكتور عبد العلي الحسني^(١) رئيس ندوة العلماء في وسط المدينة، ثم توجه مع رفقته إلى «كلكتة».

خلف هذا الاجتماع أثراً طيباً على «لكهنؤ»، والمديريات المجاورة وتصعدت حركة الجماعات، وقام سكان «رحيم آباد» برحلات إلى «نظام الدين» و«ميوات»،

(١) الشقيق الأكبر للشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي.

وازداد النشاط الدعوي في المنطقة، وزاد الاجتماع العاملين شغفاً وولوعاً بالدعوة، وارتباطاً بالجماعة، وقوى صلتهم بها، وزادهم إيماناً و يقيناً، وكان ذلك أول اجتماع يشترك فيه سكان مديرية «جوندا»، و «بستي» بعدد كبير.

الرحلة إلى «كلكتة» :

نقل الحاج أرشد إلى «كلكتة» وكان قد وهبه الله عاطفة إيمانية، وشغفاً بهذا العمل، إنه كان يستأنف عمل الدعوة في كل مكان ينتقل إليه، فكان إذا انتقل إلى مكان لا يعرف فيه الناس هذه الحركة، كان يضع أساسه وينشئ قاعدة للعمل، ويكسب الود من السكان، ويجتمع حوله الدعاة وينفخ فيهم روحاً جديدة، وينقل إليهم عاطفته الجياشة، فيحولهم دعاة متحمسين، فلما انتقل الحاج أرشد إلى «كلكتة»، نقل هذه الدعوة إليها، وعرض الدعوة على أهل العلم، وأهل الإيمان، وأقنعهم سريعاً بأهمية هذا المنهج للدعوة، وحملهم على الجهد في سبيله، فكان أول من تأثر بدعوته الإخوة الرضويون الذين قبلوا دعوته، واتخذوها شعاراً لهم، ورغب هؤلاء الإخوة أن يزور الشيخ محمد يوسف «كلكتة»، ليستمع سكانها إلى خطبه الإيمانية، ويستفيدوا من مجالسه، وأحاديثه، ويتأثروا بشخصيته المثالية، وكانت هذه الرغبة هي التي حملت الشيخ محمد يوسف على القيام بزيارة «كلكتة»، فتوجه إليها بعد انتهاء اجتماع «رحيم آباد» ماراً بلكهنؤ، وكان يرافقه في هذه الرحلة الشيخ المفتي زين العابدين والشيخ أبو الحسن علي الحسيني الندوي والشيخ عبيد الله البلياوي، وعدد كبير من العاملين من «ميوات» و «دلهي»، وأقام الشيخ محمد يوسف ورفقته في مسجد الحافظ جمال الدين، وكان الحافظ جمال الدين من أقرب أصحاب الإمام الشهيد أحمد بن عرفان، وكانت الاجتماعات تعقد في مسجد ناخدا، ومهدت زيارة الشيخ محمد يوسف السبيل لعمل الدعوة في «كلكتة»، ونشأ بها جو جديد، وأقبل الناس على هذه الحركة، وبدأت جولات ولقاءات دعوية، وعقدت اجتماعات عامة، واجتماعات فرعية، وعقدت حلقات التعليم، ودوى في الفضاء الذكر والتهليل والتسبيح، وكان برنامج الشيخ محمد يوسف حافلاً بالزيارات، واللقاءات والخطب.

قضى الشيخ محمد يوسف مدة إقامته بـ «كلكته» كلها في الدعوة، فلم يكن يهيمه شيء إلا أمر الدعوة، وحمل الناس على الخروج في سبيل الدعوة، وكان ذلك شغله الشاغل وهمّه الوحيد، يفكر فيه في سائر أوقاته، ويجتهد في سبيله، التقى به خلال إقامته بـ «كلكته» أحد كبار الأثرياء في المدينة، وقَدَّم إليه خمسة ملايين روبية، وطلب منه بأن يستفيد من هذا المال في دعوة رجال قبيلة «آدي باسي» إلى الإسلام، فرفض الشيخ هذا المبلغ الكبير قائلاً: إنه في حاجة إلى نفوس، وليس في حاجة إلى فلوس، وقال: أفضل من هذا المبلغ أن تحمل خمسين شخصاً على الخروج في سبيل الله، ولم يقبل المبلغ.

أقام الشيخ محمد يوسف في «كلكته» عدة أيام، وانضم بفضل جهوده عدد كبير من الناس إلى الجماعة، وسجلوا أسماءهم، وتغيرت حياة كثير من الذين كانوا مقصرين في العمل، وكانوا منحطين خلقياً، فتابوا وتحسنت أحوالهم، وغير الدعوة حياة سكان «كلكته» بصورة عامة، وعقدت اجتماعات عامة كبرى في داخل المساجد، واكتظت المساجد بالمصلين، وتغيرت الظروف العامة، بدأ الناس يستبشرون ويذكرون الله، وهم في الأسواق العامة.

عادت هذه الجماعة في ١٥/ جمادى الآخرة يوم السبت من «كلكته» إلى «سهارنفور»، وبعد يومين في «سهارنفور» عادت الجماعة إلى المركز بـ «نظام الدين».

جماعة «قلات» في «دلهي»:

كانت «بلوشستان»، وهي اليوم ولاية في «باكستان» إمارة مستقلة قبل الاستقلال، وكانت منطقة قبلية، بعيدة عن الحضارة، ولذلك كان سكانها معروفين بالتحفظ، والتمسك بالدين، والقيم الخلقية والاجتماعية المعروفة، وكان لبعض أمرائها صلات قريبة بالشيخ محمد شفيع القرشي، وكان الشيخ محمد شفيع من أقرب مسترشي الشيخ محمد إلياس، وكان من أثرياء «دلهي» ووجهائها المعروفين، فلما وصل إلى «أفغانستان» توثقت صلاته بالوزير من «بلوشستان»، وعرف إليه الدعوة، ولتأثر بعض وجهاء «قلات» بهذه الحركة وصلت جماعة من بعض العاملين

البلوشيين والعلماء إلى المركز بـ «نظام الدين»، وقامت بجولة دعوية في «دلهي» و «ميوات».

وصلت هذه الجماعة في منتصف إبريل/نيسان ١٩٤٦م، ورحب بها الشيخ محمد يوسف، وكتب رسائل إلى بعض أصحابه المخلصين، والعلماء، ودعا كبار الدعاة والعاملين إلى الوصول إلى المركز، وكان من هؤلاء الأعيان الذين كتب إليهم في هذا الصدد الدكتور عبد العلي الحسيني رئيس ندوة العلماء، وأحد أعيان مدينة «لكهنؤ»، كتب إليه الرسالة الآتية، يحثه فيها على الوصول إلى «دلهي»:

«إن أهم شيء في الوقت الحاضر هو أن جماعة من «قلات» وصلت إلى المركز، وتتكون هذه الجماعة من عدد من الوجهاء، وأصحاب النفوذ أحدهم قاضي القضاة والآخر المشرف على الشؤون الدينية، وكذلك فيها دعاة، ومسؤولون عن الأمور الدينية في مختلف أنحاء الإمارة، وأبدى حاكم الإمارة عزمه على تعميم حركة التبليغ في منطقته، ونشر منهجها، وإصلاح ظروف المنطقة، فالحاجة ماسة إلى تربية هذه النفوس تربية صحيحة حسب مبادئ الحركة ومنهجها، لكيلا ينحرف منهجهم عن منهج الجماعة ولا تضيع هذه الفرصة المواتية.

وكان أحد خريجي ندوة العلماء والمهتمين بحركة التبليغ، والعاملين فيها يقيم في ذلك الوقت في «نظام الدين»، وكتب الدكتور عبد العلي الحسيني رسالة يبدي فيها رغبته في أن يعود هذا العالم إلى «لكهنؤ»، فقرر ذلك العالم أن يعود إلى «لكهنؤ»، ونظرا لهذه الجماعة القادمة من «قلات» كتب الشيخ في رسالته إلى الدكتور عبد العلي الحسيني:

«إن الشيخ مظفر حسين الكشميري مستعد للعودة إلى «لكهنؤ» بناء على طلبكم، ولكنني طلبت منه أن يقيم إلى أن تعود جماعة «قلات» وأرسلته إلى «ميوات» منها، وأرجو منكم أن تكتبوا إليه بأنه ليس لديكم أي مانع، لكي ينشغل بالدعوة هادئ البال، كما أرجو إرسال جماعة من «لكهنؤ»، وأسألكم وجميع المخلصين لديكم الدعاء للجماعة».

العبد محمد يوسف

١٧/ إبريل/نيسان ١٩٤٦م

لما وصلت هذه الجماعة القادمة من «قلات» إلى «دلهي»، كان عدد من العاملين في الدعوة في مختلف أنحاء البلاد موجودين في المركز، أو كانوا في طريقهم إليه، ولذلك قوبلت هذه الجماعة باستقبال وترحيب حار، وكتب الشيخ في رسالته الموجهة إلى الدكتور عبد العلي الحسني:

«يعم هذه الأيام جو صالح، ملائم للدعوة، ويتصاعد تحرك الجماعات، فقد وصلت عدة جماعات من «لاهور» وغيرها من المدن، وستأتي جماعة من «أجمير» في ١٨/إبريل/نيسان، وتصل جماعة مكونة من المثقفين وأصحاب المناصب العليا من «مرادآباد» في ٢٢/إبريل/نيسان».

الرحلة إلى «قلات»:

بدأ عمل الدعوة في «قلات» بعد عودة هذه الجماعة إليها، على منهج الدعوة، وبناء على طلب أصحاب النفوذ والمسؤولين في «قلات»، أرسلت جماعة من العاملين إليها من دلهي، وكانت تتألف من ثمانين عاملاً، وكان أميرها الحافظ مقبول حسن الكنگوهي، وعقد اجتماع ضخم في المسجد الذي يقع في الطريق إلى «قلات»، وخرجت جماعة كبيرة من هذا الاجتماع إلى «قلات»، وكانت هذه الجماعة تشتمل على مائة شخص، وتوجهت هذه الجماعة إلى «قلات» مارة من «شكارپور» و«كويته»، ثم انتشرت جماعات بعد «قلات» إلى «بتن»، «سراوان»، «جهالادان»، وعادت إلى مقرها بعد العمل أسبوعاً.

وصل الشيخ محمد يوسف إلى «كراتشي» في ٢٥/جمادى الآخرة ١٣٦٥هـ، الموافق ٢٨/مايو/أيار ١٩٤٦م، يوم الثلاثاء في الساعة الثانية عشرة ظهراً، واشترك في الاجتماع، ثم أقام في «كراتشي» سبعة أيام، قضاها في الدعوة والأعمال الأخرى التي يقوم بها خلال زيارة أي مدينة، كاللقاءات، وحضور الاجتماعات، وحلقات التعليم، والمجالس. وتوجه إلى «قلات» في ٣/يونيو/حزيران ١٩٤٦م - ٢/رجب ١٣٦٥هـ يوم الاثنين، وسافر الشيخ منظور النعماني بالقطار إلى «كراتشي»، ولحق به في السفر إلى «قلات».

كانت مدة الإقامة في «قلات» سبعة أيام، وعاد إلى «سهارنفور» في ١٢/ يونيو/ حزيران ١٩٤٦م ١١/ رجب ١٣٦٥هـ ثم سافر إلى «نظام الدين» في نفس اليوم.

قطع السفر في «قلات» في حافلة، وفي إحدى الرحلات انقلبت الحافلة، وأصيب بعض الركاب بجروح، وكان يرافقه في هذه الرحلة الشيخ محمد عمر القلاتي، وكان يترجم كلامه إلى اللغة البلوشية، وهكذا توطدت العلاقة بين الشيخ عبد الصمد القلاتي قاضي القضاة في «قلات»، وبين الشيخ محمد يوسف، وقام اتصال بينه وبين المركز، ودامت هذه الرابطة إلى آخر العهد، وتحدث الشيخ محمد يوسف، والشيخ محمد منظور النعماني بعد صلاة الجمعة في جامع «قلات»، وحضر هذا الاجتماع أمير «قلات» وشقيقه، وطالت كلمة الشيخ محمد يوسف كعاداته، لكنها كانت كلمة مؤثرة، تأثر بها جميع المستمعين، وكان لها أثر طيب على المنطقة بكاملها، وارتبط بهذه الحركة عدد كبير من سكانها، وتغيرت بتأثير كلمة الشيخ محمد يوسف أحوال سكان المنطقة، وهبت ريح الإيمان وتذوق الناس حلاوة الإيمان واليقين وعمهم الشوق إلى الدعوة، وخرجت جماعات عديدة، واستمر هذا الاتجاه مدة طويلة تخرج منها الجماعات وتأتي إليها الجماعات، وكان الشيخ يرسل الجماعات إلى «قلات» باستمرار، ويحمل الناس على الاشتراك في عمل الدعوة في تلك المنطقة، وكتب إلى العاملين رسالة يحثهم فيها على مواصلة العمل والاجتهاد في سبيل الدعوة، وتحمل المكافأة في سبيلها، يقول فيها:

«إنه لمن فضل الله العظيم أن فتح باب العمل في «قلات»، وسخرت القلوب للخروج في سبيل الدعوة، ومما يخص هذه المنطقة أن العلماء والحكام وعامة الناس يشتغلون بعمل الدعوة بدون أي تمييز، وتكاد مدة الجماعة التي كانت تعمل هناك تنتهي، وستعود هذه الجماعة، ويقضي أمر الدعوة أن يستمر العمل، وإذا توقف هذا العمل ولم تذهب جماعة جديدة، فإن الظروف التي تهيأت للعمل ستندهر؛ لأن النتائج المرتقبة لم تحصل بعد، ولم تصل إلى الغاية التي كنا نقصدها، وقد كتب المقرئ السيد رضا حسن يطلب فيها إرسال جماعة جديدة قبل انتهاء شهر

يونيو/ حزيران: فيجب علينا وعليكم جميعاً أن نضحى بأوقاتنا، ومسؤولياتنا، ونحمل أنفسنا على الخروج في رحلة أربعين يوماً لانتهاز هذه الفرصة المواتية والاستفادة من الظروف المتاحة لتوسيع نطاق العمل، وإذا قصرنا في هذا العمل وشغلنا حياتنا، وراحتنا، وتكاسلنا في الأمر، ولم نقدم التضحيات في سبيل الدعوة، وتأثر العمل أو لحق به ضرر، فإن الذين يشتغلون بالدعوة هناك، ويضحون في سبيلها بأوقاتهم ومكاسبهم المادية، ومسؤولياتهم الدنيوية، يعذرون ونؤاخذ نحن على تقصيرنا، وتخلفنا وتخاذلنا في هذا الأمر، فيجب علينا أن نشترك في الاجتماع الذي يعقد يوم الأربعاء في المسجد الجامع، ونجتهد لتشكيل جماعة إلى «قلات» بصفة خاصة، وللعمل في أماكن أخرى بصفة عامة.

اهتمام خاص برمضان في «نظام الدين»:

كان شهر رمضان ينال اهتماماً خاصاً في «نظام الدين» في عهد الشيخ محمد إلياس، فأولى الشيخ محمد يوسف بعد وفاة والده بأول رمضان بعد توليه الإمارة اهتماماً خاصاً كما كان محمد إلياس يوليه به، وخرجت جماعات كثيرة، وتم تشكيل جماعات متعددة، وشوهد إقبال كبير على الدعوة، ولكن هذا الشهر لرمضان الذي كان رمضان الثالث بعد وفاة الشيخ محمد إلياس كان يمتاز عن غيره في الاهتمام به، فقد وصل الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي في ٢٨/ شعبان ١٣٦٥هـ الموافق ٢٩/ يوليو/ تموز ١٩٤٦م مساء ليقضي الشهر بكامله في «نظام الدين».

وكان عدد المعتكفين في هذا الشهر أكثر من غيره من شهور رمضان في الأعوام السابقة، فقد بلغ عددهم ٤٢ معتكفاً، وكان فيهم من جاء من أماكن بعيدة، واعتكف الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي في الزاوية الغربية بجوار الغرفة، وكان الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي معتكفاً في الزاوية الغربية في الجهة الجنوبية، وخصص المعتكفون الآخرون أماكن للاعتكاف حيث وجدوا المكان في سائر المسجد.

وقرأ الشيخ محمد يوسف القرآن الكريم في صلاة التراويح، وكانت صلاة التراويح تنتهي في الساعة الحادية عشرة والنصف، ثم كان يجلس الناس في مجلس

الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، الذي كان يستمر حتى الساعة الواحدة والنصف، ثم يقصد مجلس الشورى للمسؤولين، ثم النوافل والسحور، ثم ينام الناس بعد صلاة الفجر، وقبل النوم كان الشيخ محمد يوسف يلقي كلمة تستمر ساعتين تقريباً، يستمع إليها الناس بشغف واهتمام رغم السهر طول الليل، ثم يستيقظ الناس في الساعة العاشرة، ويبدأون تلاوة القرآن الكريم، ثم تعقد حلقات التعليم، وبعد الظهر كان الشيخ عبيد الله البلياوي يقرأ على الشيخ محمد زكريا كتاب «حصن حصين»، يشترك فيه الشيخ محمد يوسف أحياناً، وخلال هذا الشهر من رمضان نشبت اضطرابات دموية قاسية في «كلكتا» على الاحتفال بعيد باكستان القومي، وانتشرت هذه الاضطرابات في «بومباي» وغيرها من المدن الهندية.

حلّ هذا الشهر من رمضان في «نظام الدين» كالربيع، دوى المسجد فيه ذكراً وتلاوة، فكان مركزاً للتربية الروحانية، ومدرسة للتعليم، فلا يخلو وقت من الذكر والتلاوة والتعليم، يتم بعضهم القرآن كله في يوم واحد وبعضهم أقل منه أو أكثر، وكان الشيخ محمد زكريا، والشيخ محمد يوسف مثالين في الاشتغال بالعبادة والتربية، والمجاهدة، وتلاوة القرآن، لا تنقضي دقيقة إلا في هذه الأعمال، يحيون الليالي، ولا ينامون إلا وقتاً محدوداً في النهار.

المشايع يقضون في «نظام الدين» فترة الاضطرابات والقلقل:

تعكر صفو الحياة في «الهند» أثر الاضطرابات الدموية في «كلكتة»، وتدهور الوضع الطائفي في معظم أنحاء البلاد، وكان قد وقع الانفصام بين المسلمين والهندوس قبيل تقسيم «الهند»، وأدّى سوء الظن وعدم الثقة إلى الصراع المسلح، وتسمّم الوضع في «دلهي» إلى حد أنه كان ينذر بخطر جسيم، وكان يخشى أن تقع فيها أحداث دامية في أي وقت، وكان الاستفزاز يتصاعد يوماً بعد يوم.

وصل الشيخ عبد القادر الرائي فوري في ١٦/ ذي الحجة ١٣٦٧هـ إلى «سهارنفور»، واشترك في اجتماع للشورى لمدرسة مظاهر العلوم، وكان يعتزم أن يتوجه بعد ذلك إلى «دلهي» ليقضي بعض الوقت في «نظام الدين».

يقول الشيخ محمد زكريا: كان الشيخ الرائيقوري يقصد أن يقيم في «نظام الدين» لمدة طويلة بعد انتهاء اجتماع «سهارنفور»، فتلقى في «سهارنفور» برقية من الشيخ رشيد أحمد، أن الطرق غير مأمونة، فكتب أنه لا يستطيع الحضور، ونصحني أن لا أسافر أيضاً في مثل هذه الظروف، وكان من المقرر أن يضع حجر الأساس لمسجد الجامعة المليية الإسلامية في «دلهي»، ثم يتوجه من «دلهي» إلى «لكهنؤ»، لكن الأوضاع الحرجة غيرت هذا البرنامج، فأرجأ السفر إلى «دلهي»، وفي الوقت نفسه وصل الشيخ أبو الحسن علي الحسيني الندوي إلى «سهارنفور» في ١٨/ ذي الحجة، ليرافق الشيخ في سفره إلى «دلهي»، ثم يرافقه إلى «لكهنؤ»، ولكن عندما أجّل سفر الشيخ الرائيقوري إلى «دلهي»، سافر الشيخ أبو الحسن علي الحسيني الندوي إلى «دلهي» وحده، ومكث الشيخ الرائيقوري في «سهارنفور» إلى ٢٤/ ذي الحجة، ثم سافر معي بالقطار إلى «دلهي» في ٢٤/ ذي الحجة، والتقينا في المحطة بالشيخ رشيد، فأوضح لنا خطورة الوضع، وودّعنا في سيارة مغلقة إلى «نظام الدين»، ومكثنا في «نظام الدين» أسبوعاً ثم عدنا إلى «سهارنفور».

علم الناس باجتماع هؤلاء المشايخ في «نظام الدين»، فوصلوا إلى المركز رغم خطورة السفر والظروف المحرجة، ومخاوف الفتنة، واحتمال نشوب اضطرابات في أي وقت وفي أي مكان، واستفادوا منهم، وانتهزوا هذه الفرصة الغالية، وألقى الشيخ محمد يوسف خلال هذه المدة خطباً مؤثرة حماسية، رقت القلوب والشعور المرهف في المجتمعين بتأثير الظروف، وحثهم على المجاهدة، وتحمل المكاره في سبيل الدعوة، وأكد على أهمية التعليم، وتربية النفس، والتخلق بالأخلاق الإسلامية، كما كانت مجالس هؤلاء المشايخ الكبار، وأحاديثهم فيها تجذب القلوب، وتميل النفوس وتلقن بذل النفس والنفيس في سبيل الله.

السفر إلى «لكهنؤ» و «رائي بريلي»:

كانت الدعوة قد ابتدأت في عصر الشيخ محمد إلياس — رحمه الله — في «لكهنؤ»، وازدادت نشاطاً خلال أسفاره إلى «لكهنؤ»، و «رائي بريلي»، و «كانفور»، وكان يرافقه في هذه الرحلات العاملون من «ميوات» و «دلهي»، الذين كانت لهم

خبرة تامة في هذا الميدان، وبعد وفاة الشيخ محمد إلياس استمرت هذه الصلة بالجماعة، وقام سكان «لكهنؤ» و«رحيم آباد»، و«كرسي»، و«نجرام»، وغيرها من المديریات بالسفر إلى «دلهي» لقضاء بعض الوقت في «نظام الدين»، وتعززت هذه الصلة بوصول الشيخ محمد يوسف، وزيارته لهذه الأماكن بمناسبة انعقاد الاجتماعات الدعوية، وكانت هذه الزيارة الثانية للشيخ محمد يوسف.

وكان من فضل الله العظيم أن تقرر سفر الشيخ محمد يوسف إلى «لكهنؤ» والمناطق المجاورة، وكانت هذه الرحلة رحلة خالدة، كان لها أثر عميق على النفوس، فقد كان يرافقه في هذه الزيارة الشيخ محمد عبد القادر الرائيقوري، والشيخ محمد زكريا الكاندهلوي وعلماء ومشايخ آخرون، كان منهم الشيخ بير هاشم خان أحد مشايخ السند في السلسلة المجددية، وقام الشيخ محمد يوسف بهذه الزيارة مع المشايخ في شهر فبراير/شباط ١٩٤٧م، وكان يرافقه علاوة على هؤلاء المشايخ الكبار عدد كبير من العاملين في الدعوة، فقد وصل الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، والشيخ عبد القادر الرائيقوري قبل يوم من وصول الشيخ محمد يوسف مع جماعة كبيرة إلى «لكهنؤ» عن طريق «كانفور»، ووصلوا من المحطة إلى دار الضيافة لندوة العلماء بعد صلاة العشاء، وفي صباح اليوم الثاني، أي ٨/ربيع الآخر، توجهوا إلى «رائي بريلي»، التي تقع على بعد ٨٨ كم من «لكهنؤ»، وعلى بعد حوالي الكيلومتر ونصف كيلو متر تقع «دائرة الشيخ علم الله»^(١)، وهي قرية يرجع تاريخها إلى ٣٠٠

(١) الشيخ علم الله الحسيني أحد الصالحين الربانيين الكبار في عهد الإمبراطور أورنج زيب عالمكير، ينتمي إلى شيخ الإسلام المجاهد الكبير الأمير قطب الدين أحمد المدني، الذي هاجر إلى «الهند» في أوائل القرن السابع للهجرة، وجاهد في سبيل الله في «كتزه مانك فور» المعروف في ذلك الوقت بـ «إله آباد» قبل «إله آباد» الأخرى، وكان من المسترشدين المقبولين للشيخ العارف بالله السيد آدم بنوري أكبر مسترشدي الشيخ أحمد السرهندي، وأكمل مراحل الإصلاح، ولم يتجاوز عمره ١٥ سنة، وظهر في ذريته عدد وجيه من العلماء والمشايخ في كل عهد باستمرار، وكان في مقدمتهم السيد أحمد بن عرفان الشهيد.

أنشأ الشيخ علم الله الحسيني قرية على شاطئ نهر «سي»، وسماها بـ «دائرة شاه علم الله»، وأقام هو نفسه في هذه القرية، وبنى على شاطئ هذا النهر مسجداً في شكل بناء الكعبة =

سنة، وهي واقعة على شاطئ نهر «سي»، واشتهرت هذه القرية بالعلماء والمشايخ في عصور التاريخ المختلفة منذ أن استوطنتها الأسرة الحسنية، فقد أنجبت كبار المجاهدين وأهل القلوب من الصالحين الربانيين، وفي مقدمتهم الإمام أحمد بن عرفان الشهيد، وهي اليوم وطن العلامة السيد أبي الحسن علي الحسني، وكانت هذه القرية غاية هؤلاء المشايخ، ويكتب الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي في سيرة الشيخ عبد القادر الرائيثفوري عن هذه الزيارة ما يلي:

«وصل الشيخ عبد القادر الرائيثفوري - رحمه الله - مع الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي وجماعة كبيرة من الدعاة والصالحين إلى «لكهنؤ»، وأقاموا في دار الضيافة لندوة العلماء، ومن هناك توجهوا إلى «رائي بريلي» موطن هذا العبد الفقير لأربع وعشرين ساعة، ترافقهم جماعة كبيرة من العلماء والمشايخ الكبار، كان منهم الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، والشيخ محمد يوسف، وبير هاشم خان المجددي، والشيخ احتشام الحسن الكاندهلوي، والشيخ ظهير الحسن الكاندهلوي، والشيخ محمد شفيق القريشي (راولپندي)، والشيخ عبد الباري الندوي، والشيخ محمد منظور النعماني، ونزلت هذه القافلة على الشاطئ الآخر لنهر «سي» أمام مسجد الشيخ الرباني علم الله الحسني جد الإمام أحمد بن عرفان الأكبر، وعبرت النهر في زوارق، وكانت إقامة هؤلاء المشايخ التي دامت ٢٤ ساعة فترة مباركة هبت فيها النفحات الربانية التي اشتتم رائحتها جميع سكان القرية، وتذوقوا طعمها وحلاوتها، ولا تزال ذكريات تلك الزيارة حية تنعش النفوس لمن شهدها، ورجع هؤلاء العلماء في اليوم التالي.

وصل هؤلاء العلماء القادمون من «لكهنؤ» في جماعة مباركة في ٨/ ربيع الآخر ١٣٦٦هـ - ٣٠/ فبراير/ شباط ١٩٤٧م، يوم الأحد في الساعة التاسعة صباحاً، ذهب لاستقبالهم جميع سكان القرية والقرى المجاورة وعدد كبير من المناطق البعيدة من

= المقدسة، وتوفي سنة ١٠٩٦م في هذه القرية، وزار هذه القرية كبار العلماء أمثال الشيخ حسين أحمد المدني، والشيخ محمد إلياس الكاندهلوي، والشيخ عبد القادر الرائيثفوري، والشيخ محمد زكريا الكاندهلوي.

المدينة، ونُظم لراحتهم إقامتهم في دور مختلفة، وكان هذا الكاتب قد وصل إلى وطنه قبل يوم لاتخاذ الترتيبات لإقامتهم، وانتَهز الشيخ محمد يوسف هذا اليوم الواحد أيضاً لعمل الدعوة، وقام برحلة دعوية إلى قرية مجاورة تسمى «ميدان فور» وعقد اجتماعاً تحدث فيه بعد العصر الشيخ شفيع القريشي، وبعد المغرب عقد اجتماع كبير في المسجد الجامع بـ «رائي بريلي»، المعروف بالمسجد العالمگيري (نسبة إلى الإمبراطور أورنج زيب عالمگير، لأنه أقيم في عهده).

وتحدث في هذا الاجتماع الشيخ محمد يوسف، وألقى الشيخ محمد يوسف خطاباً خاصاً بعد العشاء في مسجد «دائرة الشيخ علم الله الحسني»، وكان يسيطر على ذهن الشيخ محمد يوسف في هذا الوقت العمل في الدول العربية، وبعد انتهاء خطابه لقي أحد سكان القرية الذي كانت له براعة في اللغة العربية، وذوق أدبي عال، وهو الشيخ السيد أبو الخير الحسني فقال له: أنت تفيد في العمل في أوساط العرب.

لقد تمتعت هذه القرية بفيوض كبار العلماء والمشايخ الذين زاروها، وأقاموا فيها في سائر عهود التاريخ بعد أن عمرت، لوجود أنفاس العارفين وبركات الصالحين، أعرب كل من زارها وقبل ذلك الشيخ حسين أحمد المدني أعرب عن رغبته بأن تتاح له فرصة للإقامة فيها مدة من الزمن.

غادرت هذه القافلة المباركة في اليوم التالي ١١/ربيع الآخر بالقطار إلى «رامبور» ثم إلى «دلهي».

الرحلة إلى «كراتشي»:

إن «كراتشي» و «بومباي» ميناءان شهيران في «الهند»، يتوجه منهما الحجاج إلى «الحجاز» بعدد كبير كل عام، وكان عمل الدعوة يجري في هاتين المدينتين الساحليتين منذ مدة، وتعدد هذا العمل منذ ١٣٤٦هـ، وفي هذا العام بدأت جماعات التبليغ تغادر إلى الخارج، وكانت عادة تسافر من «كراتشي»، وقد سافر الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي أيضاً هذا العام للحج، ونظم هذا السفر الشيخ محمد يوسف ليتقوى هذا العمل باشتراكه في «الحجاز» خلال إقامته بها، وبهذا الاعتبار كان سفر الشيخ أبي الحسن علي الحسني للحج والدعوة.

غادر الشيخ أبو الحسن علي الحسيني الندوي في ٥/ شعبان ١٣٦٦ هـ، أما الشيخ محمد يوسف فتوجه أولاً إلى «كراتشي» بالطائرة في ٧/ شعبان، وكان يرافقه في هذه الرحلة الشيخ احتشام الحسن الكاندهلوي، وأقام بـ «كراتشي» تسعة أيام^(١)، عقدت خلالها عدة اجتماعات في أماكن مختلفة، ولقاءات مع الحجاج في معسكراتهم، وعقدت اجتماعات لهم، تحدث فيها الشيخ محمد يوسف، وشرح منهج العمل الدعوي بين الحجاج، وحث على إرسال الجماعات إلى «الحجاز» للحج والدعوة بين الحجاج، وبيّن كيف يقضي الحجاج أوقاتهم خلال إقامتهم بـ «الحجاز»، ونظمت أيضاً جولات في مخيمات الحجاج، وعقدت لقاءات شخصية.

غادرت جماعة كبيرة تشتمل على الشيخ فضل عظيم المرادآبادي، والحاج نور إلهي المرادآبادي، والشيخ عبد الملك الجامعي المرادآبادي، والمفتي زين العابدين اللائبوري في ١٦/ شعبان في باخرة إسلامية، وكانت هذه الباخرة الثانية التي سافرت فيها الجماعة، وكان الشيخ أبو الحسن علي الحسيني الندوي وهذا الكاتب أيضاً في هذه الجماعة، وكان الشيخ سعيد خان قد سافر قبل ذلك في باخرة علوية مع جماعة تبليغية، وعاد الشيخ محمد يوسف بالطائرة إلى «دلهي»، وبهذه الرحلة إلى «الحجاز» للشيخ محمد يوسف بدأت رحلات الجماعات إلى «الحجاز» للدعوة والتبليغ.



(١) سافر الشيخ محمد يوسف إلى «كراتشي» بدعوة من الحاج عبد الجبار الذي كان يشترك في الدعوة في حياة الشيخ محمد إلياس.

الباب الخامس

تقسيم الهند، وانعكاسه وعواقبه

وعمل الدعوة في المناطق المنكوبة بالاضطرابات

تقسيم الهند:

كان عام ١٩٤٧م الذي تحررت «الهند» فيه من الحكم الإنجليزي بالتقسيم إلى دولتين: «الهند» و «باكستان»، أظلم عهد وأسوأه في التاريخ عندما سالت الدماء الإنسانية على أرضها، وتحول الإنسان الذي وهبه الله تعالى الخصال النبيلة والرحمة والحنان والرافة والمودة، ذئباً مفترساً، وبهيمة ضارية.

وأصبح هذا الإنسان الذي كان من صفاته أن يرق قلبه، وتثور فيه عاطفة الرحمة إذا رأى حيواناً مفترساً في ألم، وتسيل الدموع من عينيه، فأصبح هذا الإنسان العطوف، الحنون، قاسياً يثور الدم في عروقه للانتقام، ويقتل بني جلدته، يفترس الأطفال الأبرياء، ويبطش بالضعفاء، ويهتك الأعراض، ويتهك بالحرمان، ويمارس أقسى أنواع الظلم والجبر والقهر والبطش، لقد انقسمت البلاد، وبدأ السكان ينتقلون من شطر إلى شطر آخر من البلاد، وشاهدت العيون مصداق الآية: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَآةَ أَهْلِهَا أُذْلًا﴾.

تعد منطقة «نظام الدين الأولياء» ضاحية من ضواحي مدينة «دلهي»، وهي تشكل ممراً من «بنجاب الشرقية»، وكان المسلمون جزءاً ملحوظاً من سكان هذه العاصمة، وكانت لهم مشاركة ملموسة في جميع مجالات الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية في التجارة والصناعة، لذلك كان من الطبيعي أن يستهدفوا في هذه الفتنة الهوجاء.

انقضى شهر رمضان ١٣٢٦هـ - أغسطس/ آب ١٩٤٧م في جو من القلق والاضطراب، تصاعدت فيه الأخطار، وعمّت فيه الشائعات التي تهيج النفوس وتقلقها، وقد قضى الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي هذا الشهر بكامله في «نظام الدين» وقرأ المقرئ رضا حسن البهوفالي، القرآن الكريم في التراويح في المسجد، أما الشيخ محمد يوسف فقرأ في المنزل، ووصل الشيخ محمد منظور النعماني مع جماعة إلى «نظام الدين» في ٢٥/ رمضان، وكان الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي قد سافر للحج إلى الحجاز، وانقسمت البلاد في ١٥/ أغسطس/ آب ١٩٤٧م، وكانت العصبة الإسلامية قد احتفلت بيوم الحداد في «كلكتة» قبل عام، مما أدى إلى اندلاع اضطرابات دموية هائلة تسمم بها جو الهند كلها، وتعكر صفو الحياة.

التبليغ والدعوة في اللاجئين:

اندلعت الاضطرابات الدموية في «بنجاب» الشرقية وإمارات «ألور» و «بهرت بور» الهندوسية، ولجأ الميواتيون الذي كانوا أميين عامة، ويستغلون بالزراعة إلى دلهي بعد ما شردوا من أوطانهم.

كان هؤلاء الميواتيون اللاجئون رغم انتمائهم إلى منطقة «ميوات» التي انتشرت فيها حركة التبليغ بعيدين عن الدعوة، لا يعرفون عنها شيئاً؛ لأنهم كانوا مشتبين في مناطق نائية، وكانت عقائدهم أيضاً مشوبة بالمعتقدات الفاسدة، فلم تكن بينهم وبين رجال حركة التبليغ أي صلة، وكانوا يتركزون في الميدان الفسيح أمام المسجد الجامع، وكان الشيخ محمد يوسف يقلقه هذا البؤس والشقاء الذي كان يسودهم، وقد تأثر بوضعهم وعدم معرفتهم لمبادئ الدين، حتى كلمة الإسلام كانت غريبة عليهم، ولم يكن أحد يساعد الشيخ محمد يوسف ويشاركه همومه وأحزانه على هذه الأوضاع الفاسدة، فقد كان معظم كبار العاملين في الجماعة، وخاصة الحاج عبد الجبار، وكبار التجار القادمين من «كراتشي» وأماكن أخرى، الذين كانوا يقضون رمضان في «نظام الدين»، معتكفين لا يستطيعون الخروج.

وكان الهم الوحيد الذي كان يشغل بال الشيخ محمد يوسف، والخطوة الأولى التي كان يريد أن يخطوها، هي تعليم هؤلاء اللاجئين المبادئ الدينية، الكلمة

والصلاة، وبث الشعور الديني فيهم، وإثارة عاطفة الخشوع والإنابة والتوبة إلى الله، فإن هذه المحنة هي في رأي الشيخ محمد يوسف نوع من العذاب، ولا يمكن درأ هذه المحنة، والنجاة من هذا العذاب إلا بالإنابة إلى الله، وذلك هو المخلص الوحيد والمخرج من المحنة، أما الأمور الأخرى كالتغذية، والإسكان وتوفير وسائل الراحة والطمأنينة وتأمين السلامة، وإقرار الأمن، فقد كانت منظمات إسلامية وجماعات تقوم بها خير قيام، وبالإضافة إلى هذه الخدمات التي كانت المنظمات الإسلامية تؤديها لهم، كان عدد من الموظفين الكبار الذين كانت لهم صلة بجماعة التبليغ يهتمون بشؤونهم كتوفير الدعم المالي، والغذاء، والكسوة، فكانت تهم الشيخ محمد يوسف الدواعي والبواعث لهذه المحنة وإزالتها، وقد سيطر هذا الهم على ذهنه وشعوره، وبلغ هذا الحد أنه طلب من الحاج عبد الجبار أن يترك اعتكافه، ويخرج لدعوة هؤلاء اللاجئين، وقال له أن يستخدم نفوذه في البنجابيين في «دلهي» الذين له صلة قرابة بهم، ويحملهم على تولي خدمة هؤلاء اللاجئين، وكان الشيخ محمد يوسف يقول بكل قوة وحزم: إن قلوبهم في هذا الوقت منكسرة، فإن أنابوا إلى الله وتابوا إليه توبة نصوحاً بجهودكم، فإن هذه السحب الكثيفة التي تتراكم عليهم ستنتشع، ويرفع الله العذاب عنهم.

وتلبية لرغبة الشيخ محمد يوسف وامثالاً لأمره، تكونت جماعات للعمل في معسكر اللاجئين، ووصلت إليهم رغم الأخطار المحدقة، فقد كان خطر التجول سائداً، وكان الجيش يحرس هذا المعسكر حراسة شديدة، وعسكرت الجماعة في «مسجد بانعي السمك» الذي كان أمام هذا الميدان في الجانب الجنوبي، وكان يتعسر عليهم الوصول إلى معسكراتهم، لكنهم كانوا يخاطرون بأنفسهم في ذلك، ويصلون إليهم كلما أتيحت لهم فرصة بسرعة فائقة، ويعملون في اللاجئين.

وقد كان هؤلاء اللاجئين يقيمون في «مسجد بانعي السمك» أولاً، لكنهم كانوا لا يهتمون بالطهارة والنظافة ويقضون معظم الوقت في الكلام أو النوم، فانتشرت القذارة في المسجد، فأخرجهم سكان المنطقة والمسؤولون عن شؤون المسجد من المسجد، فاضطروا للجوء إلى الميدان المكشوف تحت السماء، يتحملون المطر والشمس المحرقة، وزادهم ذلك بؤساً وشقاءً، وتردت أحوالهم فأحاط بهم التدهور

الخلقي والانحراف الديني والبؤس والشقاء، وغمرهم سيل البلاء والوباء وكل من يعرف شؤونهم تدمع عينونه، وتغلبه الشجون، ويغمره الأسى، وفي هذه الأوضاع المحرجة والأخطار المحدقة، بدأت جماعة التبليغ عملها، لا تشني هماتها أخطار الموت أو الأذى، ولا يلويها خوف الخذلان والجفاء، فخاضت غمرات الموت واثقة بوعده الله ونصرته.

كان ذلك في شهر رمضان، كانت هذه الجماعات تصوم وتقطع مسافة طويلة في الصوم، وعندما يحين موعد الإفطار، لا تجد شيئاً تفطر به، فقد كانت عاطفة إنقاذ هؤلاء المنكوبين، ومعاونتهم تخفف عنهم وطأة الجوع والحر والأذى في الطريق، وكانت تنتقل من منطقة إلى منطقة أخرى ماشية على الأقدام ساعات وساعات متوالية للعمل في هؤلاء اللاجئين المشتتين، توظف فيهم الشعور الديني وتثير فيهم العاطفة الإسلامية، والإنابة إلى الله، وتلقنهم الارتداع عما يسخط الله ويتنافى مع الشريعة الإسلامية، وتقضي حاجاتهم، وكانت هذه الجماعات تسير على الأقدام، لأن المراكب العامة، ووسائل المواصلات كانت في أيدي اللاجئين القادمين من «باكستان» من غير المسلمين، وكانوا لا يسمحون للمسلمين بركوب مركباتهم، ولم يكن ذلك حال عامة العاملين في مجال الدعوة، بل كان الشيخ محمد يوسف أيضاً يسير على الأقدام، ويحتمل الأذى في الطريق، ويجول في أوساط اللاجئين باضطرابه وقلقه وشجونه.

وقد وصف أحد العاملين في أوساط اللاجئين الذي كان معوقاً، قد فقد رجله فكان لا يستطيع السير إلاً متكئاً على العكازة، ولكنه كان نشطاً يتحرك في اللاجئين ويشجع غيره من العاملين، ويثير همهم، وصف مجاهدة الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي، وحالته النفسية بالألفاظ الآتية^(١): «وبكثرة السير على الأقدام تورمت رجلاه، كان يجهد نفسه للاتصال بكل شخص ثم يجمع عدداً منهم ليتحدث إليهم، ويثبت همهم، ويعلمهم الإيمان والثقة بالله، والتوكل عليه، ولم يبال في هذه المدة بما احتمله من الأذى، وما صبر عليه من الجوع والعطش».

(١) الشيخ افتخار فريدي.

دعاء مؤثر :

في ليلة تقسيم البلاد كان الشيخ محمد يوسف مشغولاً بصلاة التراويح في بيته، واجتمع جميع المصلين في المسجد بعد صلاة التراويح في فناء المسجد لدى إعلان الاستقلال في الساعة الثانية عشر، وشغلوا أنفسهم بالدعاء متضرعين إلى الله، خاشعين له، منيبين إليه، وقام الشيخ محمد منظور النعماني يدعو بأسلوبه المؤثر المشجي المدمع للعيون، المرقق للقلوب، وعلت الأصوات بالبكاء، وبكى الشيخ محمد منظور النعماني وأبكى الناس، وسالت الدموع من العيون، وقد كانت القلوب وجلة والنفوس خاشعة لهذا الحدث العظيم، وبدأ الشيخ محمد منظور النعماني دعوته بالدعاء القرآني الآتي :

﴿ اَللّٰهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تَوَكَّلْ عَلَى الْمَلِكِ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِسَمِّكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

الاضطرابات الطائفية في «دلهي» وعزيمة الدعاة إلى الله وثباتهم :

اندلعت الاضطرابات الدموية في «دلهي»، والمناطق المجاورة لها، بعد عيد الفطر، وسدت جميع الطرق، وتحول وسط المدينة إلى مسرح للقتل والنهب، وتسفك الدماء في الشوارع، وكان الشيخ محمد يوسف عاكفاً على العمل في وسط اللاجئين في ذلك الحين ويصر عليه، وكان يوجه إليه اهتمام من يحضر المركز، وأعد العاملون في التبليغ من سكان المدينة الذين كانوا يحضرون كل يوم خميس برنامجاً لأربعين يوماً، كانوا يشتغلون في مكانهم في النهار ويعودون إلى المركز في المساء، ويقضون الليل في المركز، ثم يتوجهون إلى مراكز عملهم في الصباح، وكانوا يخاطرون بأنفسهم في هذا النظام ويواجهون الشدائد، فقد كانت جميع الطرق المؤدية إلى «نظام الدين» خطرة، يخشى فيها الاعتداء، وقد أحاط بهم المشاغبون عدة مرات، وحاولوا الهجوم عليهم، واستشهد بعضهم فعلاً في الهجوم، وأصيب آخرون بجروح، وقطعت أنامل بعضهم في الدفاع عن النفس، ولكن همتهم ظلت عالية، وثبتوا وصابروا، وأبدوا همة وعزيمة في الصمود والمثابرة في وجه الأعداء، وروح المقاومة والصبر عند المحن والشدائد، وأثمرت عمليات الإسعاف والدعوة التي قام

بها الدعاة من «مركز نظام الدين» في معسكرات اللاجئين بروح التضحية والتفاني غير مباينين بالعواقب والأخطار المحدقة، وحمي الوطيس، وتحولت المدينة كلها تنوراً تشتعل فيها النيران؛ وتُقتل فيها النفوس، وتنتهك فيها الأعراض، ولم تكن حياة أحد مأمونة، ولكن رجال التبليغ كانوا يؤدون واجباتهم، ويقومون بالإسعاف والنجدة، ويخاطرون بأنفسهم في الدعاء إلى الله في لهيب هذه النيران الطائفية.

وشرد المسلمون في «دلهي» ولجأوا إلى المقبرة التاريخية لـ «همايون» و «عرب سرائي» وإلى شوارع «نظام الدين»، والقلعة القديمة، أما المشردون من الميواتيين الذين كانت لهم صلة بـ «نظام الدين» فلجأوا إلى «مركز نظام الدين».

القلب المتحرق والنفس القلقة للشيخ محمد يوسف:

كان الشيخ محمد يوسف يحمل قلباً مضطرباً يتحرق إذا شاهد أخاه في بؤس، ولم يكن يقدر على أن يعيش بهدوء بال، والإخوة المسلمون في هذه المحنة، يشرد فيها المسلمون ويقتلون وتنتهك أعراض نسائهم، فانصرفت عنايته إلى إسكان هؤلاء المشردين، وإعادة الثقة إلى نفوسهم، وتربيتهم تربية دينية، وبث الوعي الديني فيهم، فكان يسهر الليالي في همّهم، ويجهد نفسه ويكد لراحتهم في النهار، وكان أحد سكان «نظام الدين» رجلاً ثرياً، يملك عدة منازل، فلما تدفق اللاجئون، سأله الشيخ محمد يوسف أن يتخلى عن بعض دوره لإسكان هؤلاء اللاجئين ولكنه اعتذر وقال: إن ابني يسكن في دار، وأنا في دار أخرى، وفي الدار الثالثة يقيم صهري، فقال الشيخ محمد يوسف لما سمع هذا الاعتذار القاسي وعدم المبالاة بشقاء الإخوة: اخش الله واحذر، وساعد إخوتك في هذه المحنة، ألا يمكن أن تقيم أسرتك الكاملة في دار واحدة لبعض الوقت ويسكن في الدور الأخرى المشردون، لكنه لم يقبل هذه المشورة، ورفضها، وشاء الله أن يلحق به ضرر الاضطرابات، ويصل إليه لهيب هذه النيران، فشوه يوماً بنفسه في معسكر اللاجئين مشرداً، فقد فقد كل شيء حتى الأهل والأقارب لا يعرف عنهم أين ذهبوا.

كان اللاجئون الذين يقيمون بالقرب من المركز يأتون إلى المركز للمياه، وكانوا لكثرة عددهم يأخذون المياه من الحوض فكان يكدر ماؤه، وأحياناً ينفد، ويقلق ذلك

رجال المركز، فكانوا يزجرونهم ويمنعونهم من استسقاء الماء من الحوض، ولكن الشيخ محمد يوسف إذا علم ذلك يردعهم، ويقول لهم: ارحموا واتركوهم على حالهم، فإنهم منكوبون، بل قدموا تسهيلات أخرى بقدر ما تستطيعون أن تقدموا.

يصف الشيخ افتخار الفريدي الذي كان في «نظام الدين» في تلك الفترة الرهيبة، وكان يشاهد الهم الذي كان يراود الشيخ محمد يوسف، ويحرك عاطفته على المشردين:

«شرد سكان «نظام الدين»، وهاجروا حتى الساكنين في منطقة الضريح، ولكن مركز التبليغ في «نظام الدين» ظل عامراً كما كان، وكان الشيخ محمد يوسف يقول لكل قاطن فيه: اجمع ما ادخرت من مال ومتاع، وساعد هؤلاء المنكوبين، وأنفق عليهم، وأطعمهم وأسقمهم، وضمن سلامتهم، وابذل جهدك في إسعافهم، أنت لا تعلم كيف نهب هؤلاء اللاجئون؟ ولماذا أصيبوا بهذا الحرمان والشقاء؟ إنهم نهبوا لأنهم ينطقون بكلمة الإسلام، وسلبوا لأنهم يحملون في قلوبهم الإيمان، وهذه جريمتهم في أعين الظالمين، ولذلك شردوهم من ديارهم، وأخرجوهم من بيوتهم، فحاولوا إحياء حقيقة الإيمان في قلوبهم، جددوا هذه النسبة، وحققوها في نفوسهم، ليعيشوا مسلمين، ويسيروا على الطريق السليم، وكان الشيخ محمد يوسف بنفسه يأتي من بيته بما يملكه، ويوزعه على هؤلاء البؤساء والمنكوبين، ولا يدخر منه شيئاً.

منهج الدعوة والتبليغ:

كان عمل الدعوة والتبليغ في الألوف من المشردين المشتتين في الخيام أمراً صعباً ومعقداً، أولاً كان الطريق غير آمن، ثم لم يكن يستطيع كل شخص أن يحتمل هذا الأذى، ويشاهد بؤس المشردين ومحتهم، لقد كان منظرًا يشجن القلوب، ويدمع العيون، ويثير الشجون، وكان لا سهل الوصول إلى كل شخص، ومن كان يحتمل ذلك ويصل إلى الخيام مواجهاً كل الشدائد والعقبات كان لا يملك نفسه، ويفقد أعصابه بمشاهدة تلك المناظر للبؤس والشقاء، ويزداد همه وقلقه عندما يجد كثيراً منهم في حالة غفلة ولا مبالاة بالأمور الدينية والأحكام والشعائر الدينية، وإغفالها في هذه الأوضاع الشاقة، والمحنة والبلاء كما كانوا في الأيام العادية عندما

كانوا في بيوتهم متنعمين، فكانت تتصاعد شجونهم وتتحسر قلوبهم، ويتندى لها جبينهم خجلاً وحياءً، وعندما يعود هؤلاء العاملون ويكون هذه الأحوال لإخوتهم في المركز كان يسود الحزن والكآبة الجميع.

قسم العاملون المسؤولون عن الإسعاف مدينة «دلهي» إلى أربعة مناطق (احتشد فيها المسلمون بعد التشرّد من بيوتهم) يزورون منطقة ثم منطقة أخرى في الليل والنهار، ويعالجون مشاكل المشردين حسب استطاعتهم ووسائلهم، بلطف وحكمة، ومواساة ولا يسعفونهم مادياً، بل كانوا يسعفونهم إيمانياً وروحياً أيضاً، يحاولون أن يثيروا فيهم الوعي الديني والشعور بالمسؤولية أمام الله والإيمان بوعده ونصرته، والإنابة إليه، والتوبة عما سبق، ويدعونهم إلى التفكير وترك عدم المبالاة والغفلة.

مساعدة الشيخ حفظ الرحمن السيوهاروي:

كان الانتقال من مكان إلى مكان، والتنقل لأعمال الإسعاف يحمل أخطاراً جسيمة يتعرض القائمون بها للاعتداءات من قبل العناصر المخربة، ويثير الشبهات والشكوك والريب في نظر المسؤولين عن الأمن، ورجال الشرطة والجيش فكان كل من خرج من بيته، طارده رجال الأمن، أو هجم عليه المفسدون، أو اعتقله رجال الشرطة للاستجواب، أو اغتاله المقاتلون الذين كانوا يطوفون في الشوارع ولم يكن يتدخل في الأمر أحد، حتى أصحاب المناصب العليا وأصحاب النفوذ في الدوائر الحكومية الذين كان لهم اتصال بالحركة، ومعرفة برجالها كانوا ينصحون بالتزام الصمت، وعدم إثارة العصبية، ويمنعون من الخروج من المركز، ووقف عمليات الإسعاف في تلك الظروف الحرجة.

في هذا الظلام الحالك، وفي هذا الجو المكفهر لمع بريق من الأمل، فقد كان شيخ الإسلام حسين أحمد المدني نفسه يتابع الأعمال الإسعافية، ودور رجال المركز، وظل على اطلاع تام على أمن المركز، وتأمين سلامة كل من يقيم فيه؛ ويثبت همهم، ويرفع معنوياتهم، وقد أبدى الشيخ حفظ الرحمن السيوهاروي أروع مظاهر مجاهدته، ومخاطرته، ومروءته، وجراته في هذه الأوضاع الحرجة، وساعد الجماعة بكل ما يملكه من وسائل مادية ومعنوية ونفسية، وظل على معرفة تامة

بأحوال المركز، والشيخ محمد يوسف ورفقائه، ووفر لهم جميع الوسائل لمواصلة أعمالهم، وكان الشيخ محمد يوسف يذكره دائماً، ويذكر منه وإحسانه ودعمه في وقت خابت فيه مساعي الآخرين وهبطت همتهم، وخذلوا وتنكروا، فقدم الشيخ حفظ الرحمن معونته ومدّ يده، وأظهر للجميع أن التبليغ هو عمله، وأن هذه الجماعة جماعته، وأنه واحد من أعضائها، فكان يتخذ إجراءات لتأمين سلامتهم ووقايتهم أينما ذهبوا وانتقلوا وباشروا أعمالهم.

يصف الشيخ افتخار الفريدي الذي كان يتصل به أحياناً، ويطلب مساعدته لرحلات الجماعة وتأمين سلامتها:

«قدم الشيخ حفظ الرحمن السيوهاروي كل مساعدة كلما احتجنا إليها في مسألة تحرك الجماعات في الظروف المحرجة، فكلما ذهبت إليه جماعة وعرضت عليه مسائلها، كان ينصت إليها، ويهتم بها، ويوليها الأهمية القصوى رغم اشتغاله بأمور وشؤون الآخرين من المنكوبين والمتضررين الذين كانوا يتوجهون إليه لحل مشاكلهم، ومعالجة قضاياهم في تلك الظروف، وكان يصعب في مثل هذه الأوضاع الحرجة، وزحمة الأشغال والأفكار أن يحافظ أحد على هدوء باله، ويصبر، ويلازم الحلم. كان الشيخ حفظ الرحمن يسمع قضايا الجماعة بكل هدوء وصبر، ويعالجها ويكتب توصية لها، وينسب العمل إليه، ويقول إن الجماعة تقوم حسب تعليماته، فكانت الجماعة بهذه التوصية تصل إلى أي مكان، ولا يزاحمها في ذلك رجال الشرطة، وعلاوة على ذلك كان الشيخ حفظ الرحمن بنفسه يشترك أحياناً في وظائف الجماعة، ويأتي إلى «نظام الدين»، ويتطلع أخبار الجماعة، ليطمئن عليها».

كان هذا السلوك من الشيخ حفظ الرحمن في تلك الظروف بمثابة بلسم على الجروح، ومواساة، وتشجيع على مواصلة الأعمال التي أخذتها الجماعة على عاتقها، وأحياناً تقع بعض الأمور والأحداث التي تؤدي إلى إزعاج الشيخ حفظ الرحمن، ومضايقته، ولكنه لا يسخط، ولا يقصر في حل المشكلة، ولا يتغير سلوكه، وكان الشيخ محمد يوسف لا يقبل المشاركة في أي اجتماع سياسي محض، إلا إذا كانت فيه مصلحة دعوية، وقد وقعت في هذه الأوضاع القلقة أحداث وقع

الشيخ محمد يوسف في وضع محرّج لالتزامه بهذا المبدأ، وعمله بهذا التحفظ .

عقد في منطقة «كهاستيره» في «ميوات» في مثل هذه الأوضاع اجتماع للهندوس والمسلمين على المستوى الحكومي، وكان لسكان هذه المنطقة من المسلمين صلة بالشيخ محمد يوسف وبحركته، وكانوا قد تضرروا رئيسياً بالاضطرابات، ولكن هذا الاجتماع كان سياسياً محضاً، وكان من عادة الشيخ محمد يوسف أنه لا يشترك في هذه الاجتماعات، بل كان يعتبر هذه الاجتماعات منافية لمنهجه وعمله، وسبباً لأخطار جديدة، فقرر أن لا يشترك في هذا الاجتماع، فذهب إليه الشيخ حفظ الرحمن، والشيخ أحمد سعيد اللذان كان لهما صلة خاصة بالشيخ محمد يوسف وكانا يعطفان عليه، ويؤيدانه، وطلباً منه الاشتراك في الاجتماع، لكن الشيخ محمد يوسف اعتذر بكل احترام وتقدير لهما وبين لهما أسباب عدم اشتراكه، ولم يبد الشيخ حفظ الرحمن السيوهاروي أي رد فعل أو امتعاض رغم صراحة الشيخ محمد يوسف، ورفضه رفضاً باتاً لطلبه، ورغم خطورة الوضع، وموقفه الحرج، ولم يذكر ذلك في حياته، صراحة أو إشارة، بل دام في مساعدته ومعونته، ولم يتغير سلوكه وصلته بالشيخ وجماعته، وبذل جهده لمعالجة مشاكلها، وحل قضاياها التي ثارت بعد ذلك، وكان هذا السلوك والرعاية والعطف والإيثار من الشيخ حفظ الرحمن ما جعل الشيخ محمد يوسف مديناً له، ومعتزلاً بفضلته وإحسانه، فكان يذكره دائماً في مجالسه العامة والخاصة، وكان يعترف به كل من كان مع الشيخ محمد يوسف من أصحابه ورفقته .

جرح القلب:

كان لتدمير «دهلي»، وسفك دماء المسلمين، وخاصة تشرد المعارف والذين كانت لهم صلة بالدعوة، ونهب أموالهم، وإحراق بيوتهم، أثر عنيف على قلب الشيخ محمد يوسف، لقد كانت صدمة قلبية لا تزول، فقد قضى الشيخ محمد يوسف أجمل أيام حياته في ربي هذه الأرض وإخصابها، وصرف فيها قواه وطاقاته الهائلة، وقبل ذلك وجه والده الشيخ محمد إلياس عنايته القصوى إلى تربية سكان هذه المنطقة، وقدم توضّحات عالية في إعدادهم، فلما رأى الشيخ بأم عينيه تدمير هذه المنطقة،

وتشرد سكانها، وبؤس مواطنيها ممن كانت لهم صلة قريبة منهم صُدم صدمة عنيفة، وأصيب قلبه بجروح لا تدمل، وكان يُحزن الشيخ خطر ضياع إيمانهم وبقينهم، وتزحزح عقيدتهم أكثر مما كان يحزنه تدمير بيوتهم وضياع أموالهم، وكان هذا الحزن يضمّره، وينهكه:

صُبَّت علي مصائب لو أنها
صُبَّت على الأيام صرن لياليا

لقد اشتعلت النيران في «ميوات» التي قضى في إصلاحها الشيخ محمد إلياس حياته كلها، وبفضل جهوده نشأت فيها مئات من المدارس والكتاتيب الدينية التي خرّجت ألوفاً من الحفاظ والمقاريء، فلقد تحولت أنقاضاً وأقفرت في ساعات.

مدارس آيات خلت من تلاوتي
ومنزل على مقفر العرصات

أقفرت تلك الأماكن التي كان يرتفع فيها دوي القرآن الكريم ليلاً ونهاراً، وتلقى فيها دروس دينية، ويرتفع فيها الغبار، ولا داع فيها ولا مجيب.

العزيمة المثالية والصمود كالجبل :

لم يصل لهيب هذه النيران إلى بعض المناطق في «ميوات» فبقيت على نجوة منها، وكان من فضل الله العظيم أن المناطق التي سبقت إلى قبول الدعوة، وخرج رجالها في سبيلها، ورسخت فيها جذور هذه الحركة كانت هي المناطق التي نجاها الله من هذا الدمار الشامل، ووقاها من سموم الاضطرابات، ولكن الوضع في «دلهي» عامة انقلب ظهراً لبطن، فقد انتشرت فيه الاضطرابات، وعمت وشملت جميع المناطق سوى مناطق تعد على الأنامل، ولم ينج أحد من هذه الأعمال الوحشية حتى الدعاة الذين كانوا يقضون أوقاتهم في الدعوة، وكانت لهم صلة بالمركز في «نظام الدين»، واضطر ألوف منهم إلى الهجرة من البلاد، ووصلت شعل النيران إلى المركز والمناطق المجاورة، وكان يُخشى أن يتدخل فيه المعتدون في أي وقت، وكان لا يؤمن بالليل أن يأتي النهار، ويسلم السكان، ولا يؤمن في النهار أن ينقضي الليل بأمن وسلام، وبقي المقيمون في المركز مدة طويلة، كأنهم في سفينة وسط بحر

هائج، وأمواج عاتية تضطرب وتتأرجح، وكان بعض أصحاب العزيمة والقوة والإيمان الراسخ، اهتزوا في بعض الأحيان وفقدوا الأمل، ولم يحتملوا هذا الوضع، ولم يثبتوا في هذا الامتحان واضطروا إلى الهجرة، وقد وصف هذه الظروف القاسية والمحنة الشاقة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي بكلماته الآتية:

«كانت القطارات الخاصة باللاجئين تنطلق من محطة سكة الحديد بـ «نظام الدين»، فكان من الطبيعي أن يتجمع ويحتشد المهاجرون من «الهند» إلى «باكستان» على أرصفة المحطة، وكان الازدحام يبلغ في بعض الأيام إلى حد أن المحطة كانت لا تسع لهذه الجموع المحتشدة، فكانت الطرقات والشوارع والمباني والمساحات في المنطقة المجاورة، والمساجد الواقعة في «نظام الدين» تمتلئ بالنازحين، ويصعب التنقل بينهم، وعندما تسافر هذه القطارات ويرتحل هؤلاء النازحون توحش المنطقة كلها، وتحدث هذه الهجرة الجماعية في نفوس الساكنين في «نظام الدين» وساوس وشبهات حول مصيرهم، وظلت هذه المخاوف تتصاعد في بعض النفوس، فكانوا يلحقون بالنازحين الذين كانوا يودعونهم، وكانوا يسافرون معهم، وكنت أنا والشيخ محمد يوسف نختلف في هذا الأمر، فإنه كان إذا استأذنه أحد للهجرة كان يغضب عليه ويزجره، ويحاول رده، ويخوفه بأن الفرار من الموت لا يجدي، أما أنا فإذا استأذنتي أحد كنت أقول له بكل سرور.

وكان الشيخ محمد يوسف يسأل في خطبه، من يريد أن يموت هنا؟ فكان الناس متأثرين بكلامه، يقولون له: نحن، ويسجلون أسماءهم، لكنهم عندما كانوا يشاهدون هذا السيل من اللاجئين، كانت عزائمهم تتزلزل فيلحقون بهم، وأثبت الشيخ السيد رضا البوفالي ثباته وعزمه الفائق في هذا الصدد، فقد عزم عزمًا أكيداً بأنه وحتى لو أن الشيخ محمد زكريا، والشيخ محمد يوسف ارتحلا، فإنه سيبقى هنا ويموت هنا.

ومما يدل على الحالة القلقة التي كانت تسود في ذلك الوضع أن أحد أساتذة المدارس الحكومية استقال من وظيفته الرسمية لخدمة الدعوة بدون أن يستشير شيخه، وكان من مسترشدي الشيخ عبد القادر الراثيپوري، وكان في هذه الأيام في «نظام الدين»، وكان عازماً على البقاء هنا والموت هنا، وكان يحث الناس على

الثبات والبقاء في «الهند» مهما كلف ذلك من ثمن، ويحرضهم على تحمل الشدائد والمكاره، فكان قرر كثير من الذين آثروا الهجرة أن يتخلوا عن نية الهجرة، ولكنه تأثر مرة بهذا السيل الجارف، وقال لي: إن هذه الأرض لا تصلح لخدمة الدين، فإن كنا نريد مواصلة هذه الحركة ومداومة هذه الدعوة، فينبغي لنا أن ننتقل إلى «باكستان»، فإنه بلد المسلمين ويتنقل إليها المسلمون في «الهند» كلها، ومن يبقى هنا، وهل يستطيع أحد أن يبقى هنا كمسلم، فأرجوك أن تتوسط في هذا الأمر، وترضي الشيخ محمد يوسف على الهجرة، فأني أسافر الآن بالقطار الخاص، قلت له كعادتي بكل سرور: أنا أجيئك مني أصالة ونيابة عن الشيخ محمد يوسف أيضاً.

فقال: إني أرغب أن يسمح لي الشيخ محمد يوسف بلسانه، وكان مضطرباً للغاية وكان موعد القطر يقترب، فأرسلت ولداً إلى المنبر حيث كان الشيخ محمد يوسف يتحدث، وقلت له أن يأتي إليّ لدقيقة، فترك الشيخ محمد يوسف خطبته وقال للمستمعين: سأتي إليكم بعد قليل، اجلسوا مكانكم، وكان ذلك الشيخ المستأذن جالساً بجانبني فقلت له: إن هذا الشيخ يريد الهجرة، وقد أذنته مني ونيابة عنك، لكنه يريد أن تسمح له بلسانك، فقال الشيخ محمد يوسف: وماذا بعد إذن الشيخ محمد زكريا، أسمح لك بكل سرور، وعاد الشيخ إلى المنبر لمواصلة كلامه، وغادر الشيخ الذي كان يستأذن في الهجرة، وقبل سفره جمع جميع من كان في المركز من خاصة الناس وعامتهم في المطعم الذي كان على باب المركز، واستدعى من كان في المسجد، وألقى خطبة مؤثرة، قال فيها: ليس هنا سبيل للدعوة، وكان هدفنا الرئيسي خدمة الدين، ولم نجتمع هنا لعبادة القبور، ومن أراد خدمة الدين عليه أن يرافقني، ومن أراد عبادة القبور، يبقى هنا، وإن الشيخ محمد يوسف مستعد للسفر، ولكنه يمتنع عنه لمجرد الشيخ محمد زكريا الذي يريد الشهادة هنا، فلا يرى أحد إليه، أقول حقاً، أعرف جيداً أن أمنية الشيخ محمد زكريا الوحيدة هي أن ينال درجة الشهادة.

كان لقوله: إن الشيخ محمد يوسف مستعد للسفر خلفية، وهي أن بعض المخلصين المقربين، الذين كانوا مشغولين بعمل الدعوة كانوا قد قرروا السفر إلى باكستان، وكانوا يلحّون على الشيخ محمد يوسف أن عمل الدعوة لا يمكن أن يواصل

هنا، وإن أرض «باكستان» خير مكان له، فلا سبيل لعمل الدعوة في أرض «الهند»، وكانت الظروف السائدة في تلك الأيام تقتضي ذلك، فكانوا إذا أصروا على الشيخ محمد يوسف وألحوا عليه ردّ الشيخ محمد يوسف رداً واحداً، وهو إذا قبل الشيخ محمد زكريا ذلك قبلته، وإن أنكر ذلك أنكرته، ولذلك كان بعض هؤلاء المخلصين يجتمعون كل يوم في المسجد وهم يحملون ٢٥ - ٣٠ تذكرة للطائرة بعد الظهر، ويصرون على الهجرة إلى العشاء، ويقولون نذهب من أجل عمل الدعوة، وكنت أرد رداً واحداً، أن هناك مشايخ أعظم مني، وهم في «الهند» مثل الشيخ حسين أحمد المدني، والشيخ عبد القادر الرائيپوري، ولا أستطيع أن أتخذ أي قرار بدون استشارتهم.

وكان هؤلاء المخلصون يطلبون منا بأن نرسل إليهم من يحصل على الإذن، فقلت لهم: لا، هذا لن يكون، فإنهم سيسمحون، ولكن لا أرضى بذلك، ولا يمكن اتخاذ أي قرار نهائي إلا باستئذانهم شفهاً والنظر في المسألة وملابساتها، وكانت الطرق غير مأمونة، كنا لا نستطيع أن نخرج من المسجد، ولم يكن يستطيع هؤلاء المشايخ أن يتصلوا بنا أو يخرجوا من مكانهم، فقال هؤلاء الناس: إنني أتمنى الشهادة، ولذلك أصر على البقاء هنا، أما الشيخ محمد يوسف مستعد للسفر، وبتحريض ذلك الشيخ المهاجر، هاجر من كان قرر قبل ذلك البقاء في المركز بقاء دائماً، وسافر الشيخ الذي حرضهم على الهجرة في المساء بالقطار الخاص.

خطر الهجوم على المركز:

صار المركز ملجأً لللاجئين، ومركزاً للمخلصين، ومنطلقاً لعمليات الإسعاف، وأعمال الدعوة، فكان لذلك شوكة في أعين المفسدين، فدبروا عدة حملات عليه، ولكن الله سلّم، وأيّد الساكنين فيه ونصرهم بفضلها الخاص، يقول الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، وهو يصف هذه الأخطار التي كانت تهدد المركز وكيف نصر الله القاطنين فيه:

«كانت الأخبار تصلنا حيناً بعد حين، أن العناصر المفسدة تدبر غارات على المسجد بـ «نظام الدين»، ولم تكن هذه الأخبار غير متوقعة في تلك الأوضاع، فقد

كان الجو السائد موبوءاً، وثبت فيما بعد أن تلك الأخبار كانت صحيحة، ولم تكن بدون أساس، فقد حاول المفسدون عدة مرات الهجوم على المسجد، ولكن الله نصرنا، ووقانا من اعتداءاتهم المدبرة نصراً واضحاً، لا نعتبره إلاً فضلاً عظيماً من الله ورحمةً منه، وقد علمنا أن عدة آلاف تجمعوا في منطقة «بوكل» المجاورة وهم متسلحون، ويعزمون الهجوم على المسجد في الليل، ولكن كان فضل الله علينا أن نزل المطر الغزير في تلك الليلة، وكانت تصاحبه الرياح العاتية والرعد والبرق والثلج الذي غمر المنطقة كلها، وسدَّ الطرق المؤدية إلى المركز، ولم يستطع هذا الجمع الحاشد أن يتقدم إلينا خطوة واحدة، فرجعوا على أعقابهم خائبين.

وكذلك سمعنا مرة أن الجموع احتشدت للغارة ولم يتحقق هذا الخطر أيضاً، وعلمنا بعد يوم أنهم شاهدوا جنوداً أمامهم وقفوا في سبيلهم، ومنعواهم من الزحف، وقال بعض الهندوس: إن الموتى خرجوا من قبورهم، ووقفوا في سبيلنا، ومنعونا، بالإضافة إلى الأخبار.

وقد نصبت مرة المدافع الرشاشة حول المسجد، وقيل: إن هذه المدافع الرشاشة نصبت لقصف المسجد وتدميره، ولم نعرف سبب ذلك إلاً بعد أيام، فعلمنا أن قذيفة سقطت بالقرب من الجنود المرابطين في المنطقة، وأشيع فيهم أن هذه القذيفة جاءت من المسجد، فنصبوا المدافع الرشاشة لنسف المسجد، ولكن بفضل الله أخر الضابط المسؤول تنفيذ العملية لأسباب لا يعلمها إلاً الله، ثم علموا أن القذيفة جاءت من مكان آخر في الجهة الشرقية، فأزالوا هذه المدافع، ونجّنا الله من كيدهم.

رأي بعض المخلصين بالانتقال من المركز ورفض الشيخ محمد يوسف هذا الرأي:

ظل المركز أياماً كسفينة في بحر هائج خلال تلك الموجة العارمة للاضطرابات التي اكتسحت المدينة بكاملها، وزلزلتها زلزالاً شديداً، وكان يخشى كل صباح ومساءً أن يهجم عليه المعتدون، فنصح بعض المخلصين من أهل الرأي أن ينتقل إلى مكان آخر يكون فيه بنجوة من تيار الاضطرابات، ولكن ما زلت قدم الشيخ محمد يوسف،

وأظهر صرامته وصموده، وثبت في مكانه كالجبل الأصم، وأبدى همته العالية، ومعنويته الثابتة، وساعده فيه وشجعه الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي بعزيمته وثباته، فتعالت همته وسمت، ويحكي الشيخ محمد زكريا هذه الأوقات الحرجة والبلاء العظيم فيقول:

«لقد حان في تلك الظروف القلقة وقت عندما أصرَّ بعض المخلصين والمحبين في وسط المدينة نظراً للأخطار والتهديدات المذكورة أعلاه، إننا إذا كنا عازمين على عدم الهجرة إلى «باكستان» ننتقل إلى مكان آخر يكون مأموناً في وسط «دلهي»، وقيل هذه النصيحة كثير من سكان المركز وازداد هذا الإصرار واشتد، حتى وافق عليه الشيخ حفظ الرحمن، وجاء فعلاً بعربات رسمية إلى «نظام الدين» لينقلنا جميعاً إلى داخل «دلهي»، وكان الشيخ الحافظ فخر الدين أكثر الناس إصراراً وتأكيداً على الانتقال، وبلغ هذا الإصرار حد الأمر، وأخيراً خضع الشيخ محمد يوسف له وأبدى استعداداه، ولكنه لم يقبل هذا الأمر بطبيب النفس بل لم يرفضه لإكرامه، فتأخر في تنفيذ إجراءات الانتقال ثم تدهورت صحة أم هارون (زوجة الشيخ محمد يوسف) إلى حد أنها لم تكن في حالة للسفر، ولم تكد تتحرك، وكان يخشى أن تلفظ أنفاسها الأخيرة قبل وصولها إلى الغاية، فأجل السفر، وعاد الشيخ حفظ الرحمن ثم جاء مرة أخرى، ثم عاد، وأخيراً قال: إن تهئية وسائل المواصلات لا تيسر كل وقت، ولذلك أنه يذهب، ولا يأتي بها إلا إذا اتخذنا القرار للانتقال، إلا أنه كان يستفسر أحوالنا كل يوم أو بعد يومين وأحياناً يأتي شخصياً.

يحكي الشيخ افتخار الفريدي، الذي كان حاضراً في تلك الظروف، وآثر البقاء مع الشيخ محمد يوسف قائلاً:

«تقرر مرة الانتقال إلى مدرسة «حسين بخش»، واتخذت جميع الإجراءات له، وضبطت الأمتعة، وألقى الشيخ محمد يوسف أمام الحاضرين كلمة مؤثرة، وبايعهم على البقاء في المركز واستقبال الموت، ودخل في هذه البيعة ٢٣ شخصاً بطيب خاطر».

تفتيش المنزل :

قام المسؤولون عن الأمن بالتفتيش المنزلي عدة مرات، مرة لأنهم أخبروا أن الأسلحة مكتنزة في المركز، فدخلوا المنزل وفتشوا كل شيء، وكان الجنود من طائفة «جوركها» مسلحين، ودخلوا المنزل وفتشوه، ولكنهم بفضل الله لم يعثروا على ما يشير الشكوك أو يصدق ما بلغهم من شائعات، ولم يلقوا القبض على أحد، ولم يضايقونا.

كان الشيخ محمد يوسف في هذه الفترة الحساسة، يقضي معظم أوقاته في إلقاء الكلمات، والتحدث إلى اللاجئين في المركز وعين غيره من العاملين أن يواظبوا على التسبيح، والذكر والتلاوة وقراءة سورة يس، و«الحصن الحصين»، وكتب الأدعية الأخرى المأثورة، وأكد للنساء والضعفاء والمرضى من الرجال أن يقضوا أوقاتهم في التلاوة والدعاء، فكان دوي التلاوة والدعاء يدوي في الفضاء طول الوقت، فكان من بركات هذا الاشتغال والعزم والثبات والثقة بالله، والإيمان واليقين، والذكر والدعاء والتضرع إلى الله، وخدمة الناس أن كشف الله الغمة ونقّس عنهم الكربة، ووقاهم من هذه المحنة، وصانهم من كل شر وفتنة.

العزيمة الصديقية :

أبدى الشيخ محمد يوسف في تلك الفترة الحساسة المليئة بالأخطار، الثبات الذي لا يوجد له نظير، والهمة العالية، والثقة الكاملة بوعده الله، وعكف على نشر دين الله وسنة رسوله ﷺ والدعوة إليه، ومن سمع خطب الشيخ في تلك الأوضاع شاهد فيها ذلك اليقين الراسخ والإيمان العميق، والعزيمة الصماء التي لا تزعزعها المحن والشدائد، ولاحظ فيها الاستهانة بالباطل مهما تظاهر به من قوة، وعدم المبالاة به، فلم تكن المناظر المخيفة التي تقشعر منها الجلود تحمل أي أهمية وحقيقة في نظره، إنه كان يؤمن إيماناً راسخاً بأن الدعوة إلى الدين الخالص إذا عرضت بالمنهج الصحيح، واستعدت بعض النفوس للتضحية في سبيله، وأثبتوا صمودهم، ووقفوا له حياتهم، فإن الباطل مهما بلغت قوته ومكره لا يستطيع أن يقف في وجهه، وتصيح النار أمناً وسلاماً، حتى في هذا الوقت الرهيب، وهذه سنة الله ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ لِسَنَةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.

كان الشيخ محمد يوسف يشحن خطبه بهذه الموضوعات التي تحيي في النفوس الثقة بالله، وتعزز الإيمان واليقين، وتبعث على التضحية والمجاهدة، وتحمل الأذى، وكانت هذه الكلمات المثيرة، المهيجة للنفوس تثبت القلوب، وتريح النفوس وترسخ أقدام الذين يفقدون أعصابهم، وفترت همتهم، يقول في إحدى كلماته:

«أصلحوا نفوسكم، واقتدوا بأسوة الرسول ﷺ، وسيصلح ما قدر الله من الصلاح، ومن لم يقبل طريق الصلاح، وعلى العكس فرش أشواكاً في سبيل صلاح الآخرين، فإن الله تعالى سيكسره كما يكسر قشر البيضة، إن الدول التي تعتبرونها قوى العالم الكبرى لا تعدل عند الله نسج العنكبوت، لقد نسج العنكبوت خيوطه لفقدان الصالحين والأتقياء في هذا العالم، فإذا صلح الناس وامثلوا بأوامر رسول الله ﷺ، فإن لمسة واحدة من عذاب الله تكتسح الحضارات الكبرى للروم والفرس كما تزيل الإبلالة نسج العنكبوت، وسيكون ذلك مصير «أمريكا» و «روسيا».

كان الشيخ محمد يوسف يعتقد أن هذه المحن وهذا الدمار الشامل يرجع إلى سوء أعمال المسلمين أنفسهم، ولا تزول هذه المحن إلا بإصلاح النفوس والاجتهاد في سبيل الإصلاح والدعوة، وكان يرى أن القوى المادية التي لا تقوم على الإيمان بالله، والأعمال الصالحة لا تستطيع أن تزيل هذه المحن، وتوقف هذا التدمير.

كان الشيخ محمد يوسف يؤمن إيماناً راسخاً بأن السعي في سبيل الله والتضرع إليه، والخروج في سبيله، يجلب العزة والكرامة، ويغير عذاب الله ويحوله رحمةً منه ورضواناً، ويقول:

«تقبل دعوات المجاهدين في هذا السبيل كدعوات أنبياء بني إسرائيل، فقد استجاب الله دعواتهم، وظهرت خوارق للعادة في نصرتهم، وظهر أمر الله، وزهق الباطل، ونصر الله عباده، فكانوا هم المنصورين، كذلك لو اجتهدنا في سبيل الله، وأبلىنا فيه بلاءً حسناً، فإن الله سيتقبل أعمالنا ودعواتنا ويظهر دينه، وينصر عباده خرقاً للعادة، فإن بذلت هذه المساعي على المستوى العالمي تغير مصير العالم كله، وحدث انقلاب في قلوب أهل العلم كله بفضل هذه المساعي.

العلاج الناجع :

لم يكن الشيخ محمد يوسف يرضى بأن يكون جزاء عداء المواطنين من غير المسلمين واعتداءاتهم وحقدتهم بالمثل، ولم يكن يصوّب أن يُجزى الحجر بالحجر، بل كان يعتقد أن الطريق الصحيح أن تُجزى السيئة بالحسنة، والاعتداء بالعفو، وكان يبحث على التركيز على العمل الصالح، والإيمان بالله والدعوة وإعلاء كلمة الحق، ويعتبر ذلك أفضل منهج للوضع الراهن، وكان حال الشيخ في تلك الأوضاع الساخنة، كما جاء عن الرسول ﷺ كأنه منذر جيش يقول: صَبَّحكم ومَسَّاكم، كذلك كان الشيخ محمد يوسف يبشر وينذر، وينبئ من عذاب الله وغضبه.

سافر الشيخ محمد يوسف بعد مدة قصيرة من تقسيم «الهند» إلى «باكستان»، ووصل إلى «لاهور» بعد جولته الدعوية، كان ذلك اليوم يوم الجمعة، وكان عليه أن يلقي كلمته في مسجد القبة الخضراء، وكانت جماعات التبليغ قد جالت في المناطق المجاورة، ووجهت الدعوة لحضور هذا الاجتماع، فاجتمع جم غفير من الناس، وكان من العادة المتبعة أن يخطب في هذا المسجد كل جمعة الشيخ عبد المجيد القرشي، مؤسس لجنة السيرة، وفي العهد الأخير تحولت «لاهور» إلى أحد ملاجئ النازحين المسلمين من «الهند»، الذين يبلغ عددهم مئات الألوف، فشن الشيخ القرشي حركة بعنوان «كل مصل غاز وكل غاز مصل»، يعني يجب أن يصبح كل غاز مصلياً، وكل مصل غازياً، فكان يدرب المصلين على الأعمال العسكرية، ويدرب رجال القوات المسلحة والشرطة الباكستانية على المواظبة على الصلاة وتعليم الدين.

تقرر هذه الجمعة أن يتنازل الشيخ القرشي عن خطبته، ويتحدث الشيخ محمد يوسف بدلاً منه، فألقى الشيخ محمد يوسف خطبة مثيرة، قدم فيها دعوته بأسلوبه الخاص، وأنهى خطبته بدعائه المتميز، فمالت القلوب إليه وشعر الشيخ القرشي بأن هذه الفرصة مواتية لدعوته، فأراد أن يستغل العواطف التي ثارت في القلوب، فتناول الميكروفون، وبدأ دعوته على أساس خطاب الشيخ محمد يوسف، فقام الشيخ محمد يوسف وأخذ الميكروفون منه وقال:

«إن العذاب الذي يتزل بسبب المعاصي، ونقض عهد الله، والاعتداء على

حدوده، لن يرفع بعرضكم العسكري، ولا تستطيع مدافعكم وقنابلكم أن تمنع هذه الوقائع، إن العلاج الوحيد هو ترسيخ الإيمان في القلوب، والرجوع إلى الله، والامثال بأمره والافتداء بأسوة نبيه، وهذا الإجراء وحده يستطيع أن ينقذكم، وينقذ العالم الإسلامي معكم».

وانفضَّ الاجتماع، ولم يستطع الشيخ القرشي أن يستأنف كلامه، وقد حكى الشيخ محمد يوسف هذه القصة بنفسه بعد عودته إلى «دلهي»، وعندما قال له أحد معارفه الذي كانت بينه وبين جواهر لال نهرو رئيس الوزراء الأول صلات، وكان نهرو يكرمه، وينصت إلى كلامه: إنه يدبر لقاءه مع رئيس الوزراء لينقل إليه هذا الكلام، أو يسمح له أن ينقل له هذا الكلام بنفسه، قال له الشيخ محمد يوسف: لا، كلا، لقد قلت ذلك لسكان باكستان، فإذا تحدثتم إلى المستر نهرو، أو المسؤولين الآخرين عن حكومة «الهند»، فقل لهم: إن العسكرية لا تستطيع أن تنقذكم، فعليكم أن ترفعوا الظلم، وتقسطوا بين الناس، وترضوا الله، وعندئذ تنجو بلادكم، وتنجون أنتم من عذاب الله.

الاضطرابات تندلع في المنطقة الشرقية لولاية بنجاب:

انتقلت المنطقة الغربية لـ «بنجاب» إلى «باكستان»، وبقيت المنطقة الشرقية في «الهند»، وكانت وطأة تقسيم البلاد على هذه المنطقة شديدة، فقد كانت هذه المنطقة عامرة بالحياة الإسلامية، ويعيش فيها المسلمون بنسبة تفوق نسبة المسلمين في أماكن أخرى، فقد كانوا فيها نسبة أغلبية، فكانت فيها مئات من المدارس الدينية والزوايا الروحية، وقد شهدت هذه المنطقة نشاطاً ملحوظاً لحركة التبليغ قبل التقسيم، وامتدت جذور هذه الحركة في أرضها، وانضم ألوف من الناس إلى الدعوة، ولكن مرور خط التقسيم من وسط هذه الولاية قد حول المنطقة التي انتقلت إلى «الهند» بركاناً انفجر بعد مدة قصيرة، فأقفرت المدارس التي كانت عامرة بالأساتذة والطلاب والمراكز الإسلامية ودور النشر، وأجبرت هذه الظروف القاسية العلماء والعاملين في ميادين العمل الإسلامي على الهجرة، ونزحت غالبية السكان المسلمين إلى «باكستان»، وهجرت وطنها الحبيب وقتل ألوف من المسلمين، ولجأ كثير ممن لم

يستطيعوا الهجرة إلى مكان آخر إلى الكهوف والمغارات لوقاية أنفسهم من اعتداءات المعتدين، كما عمّت حوادث الردة في الطبقات الفقيرة والمنعزلة مكرهين، واشتدت حدّة التوتر عندما تدفق سيل من النازحين الهندوس والشيخ من منطقة «بنجاب» الغربية بـ «باكستان»، واستوطنوا هذه المنطقة الشرقية، فحاولوا أن يحولوا هذه المنطقة إلى منطقة خاصة بهم، وأن لا يبقى فيها أثر للحياة الإسلامية.

أقلق هذا الانقلاب الدموي العلماء المخلصين والدعاة، فقد كانت «بنجاب» مركزاً كبيراً للدعوة الإسلامية والتعليم والتربية، وكانت بها آثار الحياة الإسلامية اللامعة، ومعالم الحضارات الإسلامية المشرقة، والآثار التاريخية الفاخرة، وقد أثمرت فيها مساعي الشيخ عبد الرحيم الرائيقوري، وتلميذه الشيخ عبد القادر الرائيقوري وكان بهما تلاميذهما ومسترشدهما يواصلون الدعوة والتربية الإسلامية.

الأخطار التي تعرضت لها الجماعات المتجهة إلى المنطقة الشرقية لولاية «بنجاب»:

إن الظروف القاسية التي مرت بها الجماعة الأولى المتجهة إلى «باكستان» بعد تقسيم البلاد والأحداث الرهيبة التي ترتاع منها القلوب، وتقشعر منها الجلود، تنعكس برسالة وجّهها أحد رجال هذه الجماعة بعد وصوله إلى «لاهور» إلى الشيخ محمد يوسف — رحمه الله — سجّل فيها انطباعاته عن هذه الرحلة المليئة بالأخطار، وتدل هذه الرسالة على أن الرجل الذي يخاطر بنفسه مؤمناً بربه، ملتزماً بأحكامه، داعياً لشريعته يسّر الله له الأمر، ويفتح له أبواب النصر.

كانت الحكمة في هذه الفترة الحالكة تقتضي أن يبقى كل رجل على مكانه، ولا يخرج لنشوب اضطرابات طائفية، أو يلجأ إلى معسكرات اللاجئين، ويسلم نفسه إلى رجال الحكم والسلطة، لكن الإيمان يقول: إنه لا يقدر على المنع والإعطاء، والإماتة والإحياء إلا الله سبحانه وتعالى، فلماذا الخوف من المخلوق دون الخالق، فنهضت جماعة تتكون من ستة أشخاص لتقوم برحلة دعوية في هذه الظروف القاسية، وفيما يلي تلك الرسالة بكاملها:

من لاهور — ٢٤/ أغسطس/ آب ١٩٤٧م
سيدي الشيخ محمد يوسف حفظه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

عندما وصلنا إلى المحطة أفادنا بعض الثقات أن الرحلة إلى «بهتندا» تحمل خطراً كبيراً، فعرضنا الأمر على الأمير، فأبى إلا أن نواصل هذه الرحلة، وأجاب في جملة واحدة: فإذا عزمت فتوكل على الله، وقال بصراحة: إنه ليس من شأن المسلم أن يكون مذعوراً من الأوضاع المناوئة له والأمور الظاهرة ويجزع منها، وإنما له أن يصمد أمامها ويذل الصعاب بالتوكل على الله والعزيمة، فأطعنا الأمير ورضينا برأيه، وتوضأنا وأدبنا الصلاة واشتغلنا بالتعليم، وكان معنا في العربة عدد من الركاب، ولكن نزل الجميع ولم يبق منهم إلا الحمال الذي كان يقصد محطة «بهتندا».

ولما وصل القطار إلى المحطة التالية رأينا جمعاً كبيراً من المشاغبين والمتطرفين من الهنادك يحملون الخناجر والرماح والسيوف، وينظرون إلينا بعيون تبرق بالشر والقساوة، وكانوا يوقفون القطار حيث يشاؤون، ويأمرون له بالسير متى يشاؤون، وطاقم القطار كله يخضع لهم ويمثل لأمرهم، ولما جاءت محطة، وتوقف القطار رأينا هناك جثتين جثة متلطخة بالدماء، وأخرى كانت لطفل صغير، وطرحتها المشاغبون على سكة الحديد ثم انطلق القطار، ووصل إلى محطة «مالتا»، ووجدنا هناك حشداً ضخماً من المشاغبين، فأوقفوا القطار، وتشاوروا قليلاً، ثم توزعوا إلى أربع عصابات، وعصابة وقعت على ممر القطار لتمنعه من السير، وهي تحمل الخناجر والرماح، وعصابة أخرى دخلت العربة وتحولت هناك إلى عصابتين، عصابة جعلت تنهب الأموال والأمتعة، وتترع حلي النساء وتعدي على النساء والصبيات، وأخرى تبحث عن الرجال المسلمين وتسلمهم إلى العصابة الواقعة أمام العربة لتصنع ما تشاء.

والعصابة الثالثة تقف على الجانب الآخر للقطار، وكان هدفها أن تطلق الرصاص على كل من يريد الهروب من ذلك الجانب، أو تقتله طعناً بالرماح.

والعصابة الرابعة كانت تحفر الأرض بالمعاول وترمي الجثث إلى الحفرة وتحشو عليها التراب.

اختفينا تحت مقاعدنا في العربى لرؤية هذه المجزرة البشعة، وبقي الأخ رحمت علي وقد كان حليق الشارب واللحية جالساً على مقعده، وكان معه ولد من أقاربه في سن الرابعة عشر من عمره، وبجانبه رجل هندوكي يبدو من تصرفاته كأن به مس، ومن حسن حظنا أن هذا الرجل الهندوكي، استأنس إلينا وتعاطف معنا، وحين اقتحم المشاغبون عربتنا وجعلوا يبحثون عن المسلم، قال لهم الأخ رحمت علي: إن هذه العربى قد خلت من المسلمين، وليس عندنا إلا جثة واحدة لمسلم ألقى في هذه العربى لنرميها خارج المحطة عندما ينطلق القطار، (ويجدر بالذكر هناك أن المشاغبين رموا في هذه العربى جثة لإدخال الهبة في قلوب المسلمين)، وإذا أردتم التفتيش بعد ذلك فافعلوا، فصعدت هذه العصابة العربى ولكن لم يقع علينا بصر أحد منها، فنزلت واقتحمت العربى اللاحقة، وهكذا فعلت في كل عربى من عربات القطار، أزهرت الأرواح وأراقت الدماء وانتهكت الحرمات، ثم سار القطار وظننا أن هذه المجزرة قد انتهت، ولكننا شهدنا نفس المجزرة في المحطة الآتية، وأوقف القطار خلال مسافة ٤٦ ميلاً ١٣ مرة، وأعيد ذلك العمل كل مرة حسب خطة مرسومة، ولكننا نرى هذه المجازر من تحت مقاعدنا، حتى تسللنا نحن الخمسة إلى مرحاض العربى وقضينا فيه أربع ساعات، ونحسب أن المشاغبين اقتحموا هذه العربى ثلاث مرات، لكن الله سبحانه وتعالى وقانا من الوقوع في أيديهم، لكن صيحات الصغار وزفرات النساء، وآهات الرجال لا تزال تدوي في آذاننا وأسماعنا، ومشاهد تلك المجزرة ارتسمت في قلوبنا وأذهاننا، ولم يستطع الزمن أن يطمسها ولن يستطيع.

تستطيع أن تقدر من خلال هذه الرسالة الجو الذي كان يعيش فيه المسلمون في تلك الأيام، كانت المنطقة الشرقية لولاية «بنجاب» تصلى بنار الاضطرابات الطائفية، وصارت كورا للمسلمين الأبرياء، وكانت قلوب الهنادك والشيخ تمتلىء بالحق والضعينة والنفور والعداوة والغيط والحق على المسلمين، وكان المسلمون يتعرضون للإبادة والتدمير، وبلغ بهم الخوف إلى أن لزموا البيوت وتركوا الجلوس في الأبنية، والخروج إلى الأسواق، والمشي في الطرقات.

وكان من أمنية الشيخ محمد يوسف أن يخرج المسلمون إلى هذه المنطقة المنكوبة الموحشة، ويتجولوا فيها لنشر الدعوة، ويذكروا فيها اسم الله وقيموا

الصلاة، ويشجعوا المسلمين الذين لجأوا إلى المناطق النائية ويقدموا صورة أصيلة للإسلام إلى غير المسلمين، ويزيلوا التصور الخاطيء الذي استقر في أذهانهم لبعده المسلمين الذين يجاورونهم عن تعاليم الإسلام، وممارستهم أعمالاً لا تتطابق مع أحكام الشرع أي تطابق.

وكان الشيخ محمد يوسف يعتقد أن هذا العداء الذي يوجد بين المسلمين وغير المسلمين لا يقوم إلا على أساس من الجهل بالدين، فإذا عاد المسلمون إلى الإسلام يعود التضامن والوئام، ويؤدي ذلك إلى انتشار الإسلام في هذه البلاد.

لكن القيام بهذا العمل في هذه الفترة الرهيبة كان من أصعب الأعمال وأخطرها، وكان يساوي القفز في النار أو الخوض في غمار الموت، ولا يتشجع عليه أحد حتى أولو العزم من الرجال الأبطال.

وبعد تقسيم البلاد بستتين أو ثلاث سنوات خمدت نار الاضطرابات الطائفية، وهدأت الأوضاع، فزارت الجماعات المختلفة هذه المنطقة الشرقية لولاية «بنجاب»، وواجهت صنوفاً من المحن وأنواعاً من المشاكل، ولولا نصر الله لهذه الجماعات لما أمكن لها أن تعود سالمة من هذه المنطقة المنكوبة.

نستطيع أن نذكر أحداثاً كثيرة لتعرض هذه الجماعات للمحن والبلايا خلال القيام بعمل الدعوة، ولكن نكتفي هنا بذكر حادثتين كنموذج عن ذلك:

«توجهت جماعة من «دلهي» إلى «رائيفور» ودخلت على الشيخ عبد القادر الرائي فوري ولقيت عنده رجلاً شهد هذه المجزرة عن كثب، فحكى للجماعة ما رآه من الأحوال، وقال في غاية من الحزن والأسى: إن موجة الارتداد اكتسحت المنطقة كلها، وغير كثير من المسلمين أسماءهم، ويدعون بأسماء غير إسلامية، فتأثرت الجماعة بكلامه تأثراً بالغاً، وتوجهت إلى «سهارنفور»، وزارات الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي واستأذن أميرها للذهاب إلى المنطقة المنكوبة فأذن لها بشروط، وهي: (١) الاهتمام بالدعاء، (٢) الاهتمام بصلاة التهجد، (٣) الاهتمام بصلاة الحاجة. وقال: إذا استوفيتم هذه الشروط الثلاثة نصركم الله كما نصر الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين.

فجرت المشورة بين رجال هذه الجماعة المشتعلة على ٢٧ رجلاً، فتهاً سبعة رجال منهم للذهاب إلى هذه المنطقة التي انفجر بركانها، وكانت الأوضاع تنذر بالخطر، وكان الموت فراغاً فاهه ليلتلع كل من يتقدم، وكان الأقارب والأصدقاء يمنعونهم من الخروج، ويرددون الآية: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾، لكن هؤلاء الرجال السبعة شتموا عن ساق الجد وأخبروا بذلك الشيخ محمد يوسف، فأعرب عن غبطته وسروره، ودعا لهم بالخير والبركة والعافية والسلامة، واهتم بتلاوة سورة يس. نورد هنا ما حكى أحد العاملين في هذه الجماعة عن قصة هذه الرحلة فيقول: غادرت هذه الجماعة بلدة «رامفور» في ١٨/ مارس/ آذار ١٩٥١م بعد صلاة الجمعة، وودعها إخواننا العاملون بعيون دامعة، ووصلنا المنطقة الشرقية لولاية «بنجاب»، ومكثنا في بلدة «خضرآباد»، ولما رأى الشيخ هذه الجماعة أخذتهم الدهشة، وثاروا غضباً لرؤية وجوه المسلمين، وحاصروا المسجد الذي يقيم فيه المسلمون وجعلوا يرفعون الهتافات ضد الإسلام والمسلمين، وكانوا يحملون الخناجر والسيوف ويسبّون ويشتمون، فأيقنا بالموت، وصرنا ننتظر الشهادة، ولكن الله سبحانه وتعالى ألهم أمير هذه الجماعة في هذه الفترة العصبية، فنهض للتحدث مع هؤلاء المشاغبين الظمء إلى دماء المسلمين، فحمد الله وأثنى عليه ثم تحدث إليهم بصوت شجي مؤثر عن الإسلام وعرفهم به، واشتغل الآخرون بالذكر والدعاء أثناء حديثه، فنزلت نصرة الله ونفذت كلمة الأمير إلى قلوب الأعداء، فرقت قلوبهم وذرفت عيونهم وخفتت أصواتهم ورموا ما بأيديهم من الخناجر والرماح والسيوف، وجرت على ألسنتهم كلمات الحب والوفاء بدلاً من كلمات النفور والعداء، واستغرقت كلمة الأمير نصف ساعة، وعندما انتهى من الكلام قام إليه رجل وقال بصوت جهوري مخاطباً الجميع: إن هؤلاء الأشخاص قدموا إلينا، ويدعون إلى الوحدة والتضامن ومكافحة الظلم والعدوان، فينبغي لنا أن نستمع إليهم، ولا يتجرأ أحد على أن يسيء إليهم أو يضايقهم، فأنا أول من يدافع عنهم.

أرسيت قواعد عمل الدعوة في المنطقة الشرقية لولاية «بنجاب» بجهود هذه الجماعة وتوسع نطاق العمل فيها بمضي الأيام، وتشجيع الآخرين على الانضمام إليها، وبعد أيام عديدة شكّل الشيخ محمد يوسف جماعة أخرى تشتمل على ٣٠ أو ٤٠ رجلاً

للعمل في هذه المنطقة، وتوجهت الجماعة إلى تلك المنطقة وتجولت فيها، ويسجل أحد العاملين الأحداث التي عرضت لهذه الجماعة خلال عمل الدعوة فكتب يقول:

غادرت الجماعة أثر دعاء الشيخ محمد يوسف، ووصلت إلى «تهكة» مروراً بـ «خضرآباد»، وواجهت هناك صعوبات بالغة وذهب بها رجال الشرطة إلى المخفر، وجرى الحديث بينهم حول مصير رجال الجماعة، هل يسجنون أو يقتلون؟ فلما رأى العاملون هذه المؤامرة التي تنسج لهم اشتغلوا بالدعاء والذكر، فسألهم الضابط ما هذه الكلمات التي تردونها، فأجاب الأمير: إننا نذكر الله سبحانه وتعالى وندعوه، فقال: نشعر باهتزاز الأرض عندما تخرج هذه الكلمات من أفواهكم فعودوا إلى بلدكم؛ لأنكم تتعرضون للخطر إذا واصلتم الرحلة، ثم قال: عندي مصحف أخذته من أخيكم المسلم، وهو أمانة فخذوه معكم، ثم أطلق سراحنا، فتشاورنا هل نتقدم إلى الإمام أم نعود إلى الورا فحكى لنا الأمير بهذه المناسبة قصة سيدنا موسى عليه السلام وفرعون وقصة عبور النيل وحثنا على مواصلة السير، فتقدمنا ووصلنا إلى المخفر الذي عدنا منه، ولقينا هناك ذلك الضابط، فأعجب بقوة إيماننا وعدم خوفنا، وخرج معنا إشفاقاً علينا، فمررنا بالأسواق والشوارع العامة والأحياء العامرة والأزقة الضيقة، ويشرف علينا الرجال والنساء، حتى وصلنا إلى «نرائن جر»، وأردنا أن نمكث هناك في مسجد من المساجد لكن لم يسمح لنا أحد من المسلمين بالإقامة في المساجد خوفاً وفرعاً، فأنزلنا الشيخ في معابدهم واجتمعوا حولنا، ودلّوا على عناوين المسلمين لنقابلهم وتحدث إليهم في أمور الدين.

هكذا اقتحم الدعاة المخاطر ونشروا الإسلام في هذه المنطقة التي فاقت مناطق «الهند» كلها في إراقة دماء المسلمين وإزهاق أرواحهم، وهتك أعراضهم، ونهب أموالهم، وضبط ضيعاتهم، ومصادرة ممتلكاتهم، وتحويل مساجدهم إلى معابد وثنية أو مرابض وإصطبلات.

فعاد إليها الإسلام من جديد بفضل جهود هذه الجماعات، وعمرت المساجد، وأنشئت الكتاتيب، وعلا صوت الأذان من المآذن مرة ثانية..

وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.



الباب السادس

جولات الشيخ محمد يوسف، والاجتماعات الدينية في الهند

نقدم هنا انطباعاً عاماً عن الاجتماعات الدعوية، قبل أن نقدم تقريراً مفصلاً عن جولات الشيخ محمد يوسف، والاجتماعات التي حضرها، ونقدم البرنامج المقرر لكل اجتماع، لياخذ القارئ فكرة واضحة عن تأثير هذه الاجتماعات ونفوذها في القلوب، والنتائج الحاسمة التي كانت تتمخض عنها، وكيف كان الجو، والبيئة العامة تتأثران بها وتتوران بأنوارها.

ونخص هذا الباب بذكر تلك الاجتماعات التي كانت تعقد في مكان خاص، وتتخذ لها إجراءات ويمهد لها السبيل، ويهيأ لها الجو، قبل سنة كاملة من عقدها، وكان الشيخ محمد يوسف يشترط لحضوره في الاجتماع أن تتخذ هذه الإجراءات التمهيدية للاجتماع، وتراعى فيها جميع هذه الشروط والمتطلبات، وتبذل فيها جهود جبارة.

تحديد الموعد:

كان من العادة أن سكان أي موضع إذا أرادوا عقد اجتماع كبير، أن يكونوا وفداً لهم، ويتوجهوا إلى «دلهي» لمقابلة الشيخ محمد يوسف، ويقدموا إليه فكرتهم، ويكونوا حجم هذا الوفد باعتبار حجم الاجتماع، ويكون ممثلاً لسكان الموضع، فكان من فائدة هذه العادة أن الذين كانوا يشتركون في الوفد كانت صلتهم بالجماعة تزداد وتتوثق، فيقضي أعضاء الوفد وقتاً في «نظام الدين» يسمعون خطب الشيخ محمد يوسف، ويشتركون في مجالسه، ودروسه، ويسمعون تقارير الجماعات التي تعود إلى «نظام الدين» بعد الدعوة، ويتعرفون على طبيعة العمل، ثم يعين موعد الاجتماع، ويعود الوفد إلى محله بمسؤوليات وأشواق، وعواطف جديدة، وحماس

زائد، واعتقاد راسخ، فيصبح المشتركون في الوفد المسؤولين الحقيقيين عن عمل الدعوة، والاجتماع، ويتغير بذلك جو المنطقة كلها؛ لأن هؤلاء العاملين ينفخون فيها روحاً جديدة، وتهب رياح الإيمان، وينشط عمل الدعوة والتبليغ.

وكان موعد الاجتماع يتقرر في شوري، فإذا كان الاجتماع لثلاثة أيام، تعين مواعيد الاجتماع الثلاثي، وإذا كان الاجتماع ليوم واحد، يعين يوم واحد من أي شهر في ضوء برامج الشيخ المقررة، ثم ينتشر العاملون في المناطق المجاورة، ويعقدون الاجتماعات التحضيرية لهذا الاجتماع الكبير.

تفريغ الأوقات للدعوة قبل الاجتماع:

كان الشيخ محمد يوسف يحث على تفريغ الوقت قبل الاجتماع، ويحث على أن ينشط عدد كبير من العاملين للدعوة، ويخصصوا وقتاً من الأوقات لتمهيد الطريق وإعداد الأذهان للدعوة، وللحضور في الاجتماع في المناطق المجاورة وفي منطقة الاجتماع وأن يستعد عدد منهم للخروج إلى أماكن بعيدة لأربعين يوماً، وكان يستلزمه ذلك إعداد الجو اللائق للاجتماع، ليستعد عدد كثير من المشتركين في الاجتماع للخروج في سبيل الله، وتعد أذهانهم قبل الاجتماع.

وقد أرسل الشيخ محمد يوسف رسالة إلى العاملين في «كلكتا» في صدد اجتماع «مكراهات» تقدم فيما يلي مقتطفات منها، ليعلم لماذا كان الشيخ يولي بالعمل الجاد قبل عقد الاجتماع هذه الأهمية، ولم يكن موقفه هذا خاصاً باجتماع «مكراهات» بل كان ذلك منهجه الدائب لجميع الاجتماعات الكبرى.

يقول الشيخ في رسالة:

«يلزم إحاطة «مكراهات» بالعمل المتواصل، لكيلا يأتي الناس إلى الاجتماع للاشتراك فقط، بل يجب أن تعد أذهانهم قبل الاجتماع للخروج في سبيل الدعوة، ويأتوا منخرطين في جماعات، يجب أن يقنعوا بالخروج للمناطق المجاورة والبعيدة، ويكون خروجهم للاشتراك في اجتماع «مكراهات» تمهيداً لخروجهم إلى مناطق بعيدة، وتربية لهم».

ويقول في رسالة أخرى كتبها إلى میان بخش :

«عليكم أن تبدلوا جهوداً بعد التشاور الاجتماعي بينكم، وبين الشيخ محمد داود، والشيخ رحمة الله، والحافظ إسماعيل، ليستعد الناس للخروج في سبيل الدعوة، وتعد أذهانهم للتضحية بالوقت، واتباع المبادئ والأصول، والهجرة عن الوطن، واعتبار هذا العمل عملاً حاسماً خطيراً، ويمهد له الطريق، وإلا فإن مجرد عقد الاجتماعات، والتحرك للدعوة، والتنقل في المناطق المجاورة والبعيدة بدون تعلم الدين، والتربية له، وبدون نية الحصول على رضا الله، وإخلاص العمل له فتنة كبيرة، وبلاء عظيم».

تشكيل جماعات للعمل في المنطقة وفي الخارج :

كان من شروط الشيخ محمد يوسف للاشتراك في الاجتماع أن تخرج جماعة معتبرة للدعوة في داخل البلاد وخارجها، وكانت الاجتماعات تريد هذا العدد، ولكن كان يتعين عدد الخارجين في سبيل الله قبل عقد الاجتماع، فقد كانت الجماعات التي تعمل قبل الاجتماع تلتقي بالناس وتحثهم على الخروج في سبيل الدعوة، وكان الشيخ محمد يوسف يتابع نتائج أعمال هذه الجماعات، ويقدم إليها التعليمات والتوجيهات ويرشدها، فلم يكن الشيخ يقبل الاشتراك في الاجتماع إلا بعد أن يقتنع ببذل مجهود سبق له، ويتأكد بأن الاجتماع سيكون وسيلة للإضافة إلى العاملين، وتوسيعاً لنشاط الدعوة، وليتضح اهتمام الشيخ بهذا الجانب نقدم رسالة وجهت إلى أحد المسؤولين عن جماعة الدعوة والتبليغ بمناسبة اجتماع «نهتور»، وتلقي هذه الرسالة الضوء على طبيعة الصلة التي كانت تقوم بين المركز، وموضع الاجتماع، وتدل على الجهود التي كانت تبذل في منطقة الاجتماع قبل عقد الاجتماع، وقد كتب هذه الرسالة المسؤولون عن الاجتماع قبل عقد الاجتماع في «نهتور» بشهرين :

«بدأت الاستعدادات للاجتماع، والحمد لله على ذلك، ويسهم الناس في النشاطات الدعوية بحماس بالغ، وشغف زائد، ويواجه العاملون عقبات ومعوقات لكنهم يتغلبون عليها، ويذللوننا بنصر الله وتوفيقه، وهم متفائلون، يثقون بوعد الله ونصره، غايتهم بعيدة لكنهم يعقدون الآمال بتأييد الله، وأنه سيوفقهم ويمهد لهم

الطريق ويوصلهم إلى الفوز، وينجح اجتماعنا بإذن الله، ونحن جميعاً نلتبس منكم ومن جميع المسؤولين في المركز بـ «نظام الدين» الدعاء، ونرجوكم أن ترشدونا إلى الطريق السليم للعمل، والمنهج الكفيل بنجاح الاجتماع، كما نرجوكم أن تخبرونا عن نفقات السفر إلى الأماكن الآتية، فإننا ندير إرسال الجماعات إليها: «بومباي»، «كلكتا»، «مدراس»، «حيدرآباد»، «كشمير»، «آسام»، «بورما»، «جزر أندمان»، «مالابار»، «بهار»، «أوريسه»، «يوي»، «أيم بي»، «سي بي»، «غجرات»، «راجستهان»، «بنجاب»، «پانديجري».

كان ذلك منهج الاجتماعات العامة، فقد كانت تخرج منها جماعات كبيرة إلى أماكن بعيدة، ولا يتحقق ذلك إلا إذا بُذلت مجهودات مركزة ومكثفة قبل انعقاد الاجتماع لإعداد النفوس، وكان الشيخ محمد يوسف نفسه يهتم اهتماماً بالغاً بذلك قبل كل اجتماع، ويرسل تعليمات بذلك، وكان يرسل العاملين المجريين الذين كان لهم معرفة تامة وخبرة واسعة في هذا المجال، ومن الذين كانوا قضوا فترة طويلة في عمل الدعوة إلى مكان الاجتماع للتوجيه والإرشاد، وكان منهم الميواتيون الذين كانوا يعرفون بالانضباط، ويهتمون بالمبادئ والأصول للجماعة، وغير الميواتيين الذين كانوا قضوا فترة طويلة مع هؤلاء الميواتيين، وكان يجول جميع الجماعات التي تتوجه إلى المركز بـ «نظام الدين» في تلك الفترة إلى مواضع هذه المسافة عاملة في الطريق، سواء كانت تسافر راجلة أم تسافر على المراكب، إنها تقوم بعمل الدعوة أثناء السفر، وتوجه الدعوة إلى كل من يلتقي برجالها، وتصل إلى محل الاجتماع، وقد سجلت أسماء عدد من الذين وعدوا بالخروج في سبيل الدعوة، وبهذا الطريق كانت شبكة الجماعات تنشر في المناطق المتصلة بمنطقة الاجتماع، ويستعد الناس للخروج في الاجتماعات الخارجية والداخلية أو تخصص وقت من الأوقات قبل انعقاد الاجتماع، وعندما ينعقد الاجتماع يأتي هؤلاء الناس بامتعتهم عازمين على الخروج، وكان الشيخ يسأل كل من يأتي إليه لتجديد موعد الاجتماع، كم يخرج من الجماعات إلى الخارج، وكم يخرج لداخل البلاد، فإذا تأكد واقتنع بنجاح الاجتماع عين الموعد، ثم اتخذت الترتيبات للاجتماع.

اجتماع عظيم:

كان من عادة الشيخ محمد يوسف أنه لا يحضر أي اجتماع وحده بل كان يرافقه رجال الشورى من المركز، والميواتبون الذين قضوا فترة طويلة في مجال الدعوة، ولهم خبرة تامة في تنظيم الاجتماعات، والعلماء والذين يجالسونه، ويسمعون خطبه وتوجيهاته، وتسبق الاجتماعات حركة مكثفة للجماعات، وتوجه الدعوة لحضورها إلى الدعاة المقدمين من المناطق البعيدة، فتتوجه الجماعات من أقصى البلاد وأدناها ومن البلدان الخارجية إلى موضع الاجتماع الكبير فتتحول المنطقة إلى مخيم كبير للدعوة، والتربية، والتعليم، ويتدفق الناس إليها من كل صوب، فتصبح هذه المنطقة المعزولة بمثابة مدينة عامرة تتدفق بالسكان، وتشاهد تنقلات الجماعات، وحلقات التعليم، وجولات الدعاة ومن حضر الاجتماعات في «بهوفال»، «جهاسي»، «كاوي»، «لكهنؤ»، «كانفور»، و «مگراهات»، يشهد بهذا التجمع الكبير للمسلمين، ونفحات الإيمان التي هبت في المنطقة ثلاثة أيام، والحركة والحياة والشغف والحماس في العاملين، كأن نشوة طرأت عليهم، ولا يصدق كيف تحولت هذه المناطق في ساعات إلى مدن زاخرة هائجة، بالغادين والرائحين؟، وتدوم هذه الحياة، والحركة، والنشاط، والزحمة ثلاثة أيام، وتصبح المنطقة مدرسة، ومركز تربية، ومعسكر تدريب، تعقد فيه حلقات الدروس في وقت من الأوقات، وتلقى خطب، وتشكل جماعات خاصة وعامة، وفي الليل يعقد اجتماع عام، ويلقي الشيخ محمد يوسف كلمته الإيمانية المثيرة، يسود بها جو خاص، تغمر الناس العواطف، وتنفعل نفوسهم، ويبلغ شغف كثير منهم وإنصاتهم للكلمة حدًا ينسون أنفسهم وحاجاتهم، فيجلسون ساعات وساعات، لا يغيرون هيئة جلوسهم ولا يشعرون بالحاجة إلى الطعام والشراب، كلامه يخرج من القلب ويدخل القلب، ويتغلغل إلى الأعماق، ويغير الأذهان ويوقظ الوعي، ويشعل جمرة الإيمان، ويسيل الدموع من العيون، ويصيب بعضهم رعدة، وتقشعر منه الجلود، وتهتز به النفوس، ويعم البكاء والعيول ويصاب بعضهم بنوبة، لشدة الانفعال، ويسري اليقين إلى القلوب، وعندما ينهي الشيخ كلمته يتهافت عليه الناس للمصافحة، وطلب الدعاء مسحورين مفتونين بقوة إيمانه، وعمق يقينه، وصدق لهجته.

وقد حكى الشيخ نسيم أحمد الفريدي قصة اجتماع بالكلمات الآتية :

«إن المولعين والمفتونين بسحر كلام الشيخ محمد يوسف أحدثوا مشكلة حيث كل شخص منهم يتطلع إلى مصافحته، وللزحمة الشديدة وضعت حراسة الميواتين لمنع المتقدمين للمصافحة في دار الضيافة التي كان يقيم فيها الشيخ محمد يوسف واقتلعت عتبة الباب بدفع الناس، ونزعت الرزات لباب غرفة الشيخ، وكان الناس يتدفقون كالسيل، ويزدحمون حول الشيخ مجادلين للمصافحة والتحية، وكان يخشى أن هذا السيل الجارف يجرف الضعفاء والشيخ ويبتلعهم».

ولما ينتهي خطاب الشيخ يطالب المسجلون للأسماء بأن يقدم أسماءهم للخروج، وتكون عند هؤلاء المسجلين قوائم للذين سجلوا أسماءهم قبل الاجتماع، فيطالبون بأسماء جديدة، ويقف الناس لتقديم أسمائهم، وتخصص غرفة لتشكيل الجماعات، يجتمع فيها المسجلون لأسمائهم لترتيبهم، وتكوين الجماعات بهم للداخل ولخارج البلاد، وتحدد مواعيد السفر، ويعد نظام السفر، ويعين الأمير، ويتعين طريق السفر.

وفي اليوم الثالث كان من العادة المتبعة أن يلقي الشيخ خطابه الأخير إلى الساعة الحادية عشرة، يبين فيه أصول الدعوة، وطريق الجولة، وأسلوب الخطاب، واللقاءات الشخصية، وآداب السفر، ليكون كل داع جديد على معرفة تامة بمنهج الدعوة، وقواعدها.

وبعد هذه الكلمة المثيرة المفصلة التوجيهية يرفع يديه للدعاء، ويكون هذا الدعاء حديث القلب، ونداء النفس المكلمة يتضرع إلى الله، ويسأله كل صغير وكبير، وكانت دعوته تشجي القلوب وتسيل الدموع، وسنذكر الدعاء بالتفصيل في باب خاص للدعاء إن شاء الله في آخر الكتاب، وبعد الدعاء يجري توديع الجماعات، ويتقدم كل مشترك في الجماعة لمصافحة الشيخ على المنصة، ويودع الشيخ كل داع بدعاء له، وتقوم صفوف طويلة للدعاة، ويستمر هذا التوديع ساعات، ويبدو هذا المنظر شيقاً ومثيراً، وبمشاهدة هذا المنظر يشعر من لم تتح له الفرصة للخروج بالحرمان، وتندى عيونهم، ويعزم بعضهم على الخروج في فرصة أخرى.

كثرة الخارجين في الجماعات :

يخرج من هذه الاجتماعات التي يشترك فيها الشيخ محمد يوسف ألوف من الناس، وتتكون جماعات من عشرة أو خمسة عشر شخصاً أو أكثر، ويعمل مئات من الدعاة في داخل البلاد، وآخرون يتوجهون إلى خارج البلاد، ويتفاوت عدد الخارجين من الاجتماعات باعتبار أهمية الاجتماع، وموقعه، ونسبة حضور الناس فيه، ولكن عادة كان يخرج من الاجتماعات الكبرى حوالي ألفين وخمسمائة شخص، فإذا نقص عدد الجماعات في اجتماع، ازداد العدد في اجتماع آخر، وارتفع هذا العدد في الاجتماعات الأخيرة التي اشترك فيها الشيخ، كما كانت تتفاوت الأوقات، فبعض الجماعات تخرج لمدة قصيرة، وجماعات أخرى تخرج لمدة طويلة.

برنامج الشيخ في الرحلات الدعوية :

ما هو نظام الشيخ وأشغاله في الرحلات الدعوية؟ كيف كان يقضي يومه، ويوزع أوقاته؟ إنه لموضوع مهم يلقي الضوء على المجهود الجبار الذي كان يبذله الشيخ، والتفاني في سبيله.

نقدم فيما يلي انطباع أحد الدعاة الذي اشترك في اجتماع «كاوي» في عام ١٩٦٤م، وشاهد برنامج الشيخ من الصباح إلى الساعة المتأخرة من الليل، وكان يرافقه في أسفاره وإقامته، يقول:

غادرنا «دلهي» في قطار «جتا السريع» في ١٨/ديسمبر/كانون الأول ووصلنا إلى «بهوفال» في ١٩/منه، وعقد اجتماع في «حكيم پور»، وألقى الشيخ محمد يوسف خطاباً أمام الموظفين المسلمين في مصنع الطائرات في «بهوفال»، وتوجه في نفس اليوم مساءً مع جميع رفقته إلى «بروده»، وقبل رحلته إلى «بروده» سافر إلى «سهسور» بالسيارة وتحدث في الاجتماع.

في الصباح بدأ درس حياة الصحابة بعد الفطور، وعقدت حلقتان: حلقة للهنود، وحلقة للعرب، واشترك الشيخ إنعام الحسن في حلقة العرب، واستمرت هذه الدروس ساعتين، وكان الشيخ يشرح خلال التعليم بعض الإشكالات، ويرد على

الأسئلة، ثم كانت فسحة، ثم الغداء، وبعد الغداء استراحة قصيرة، ثم صلاة الظهر، وبعد صلاة الظهر يبدأ التعليم.

وصل الشيخ ورفقته إلى «بروده» في الساعة الثالثة والنصف، ونزل على المحطة واجتمع بالإخوة، ورفع يديه للدعاء، ثم أدى صلاة العصر في مسجد قريب من المحطة، وتناول الشاي في بيت أحد الإخوة، ثم توجهت هذه القافلة إلى «كاوي» في سيارات وعربات وحافلات، وصلّوا المغرب في أحد المصانع الواقعة في الطريق، ووصلوا جميعاً إلى «كاوي»، وصلّوا العشاء، ثم توجهوا إلى بيت أحد الإخوة للعشاء.

في صباح اليوم التالي بدأ الاجتماع، وألقى الشيخ خطبته الأولى التي دامت ثلاث ساعات، ثم جرى تشكيل الجماعات، وبعد التشكيل تفرق الناس للفقور، والحاجات الأخرى، وبعد فترة قصيرة بدأت حلقات التعليم واستمرت هذه الحلقات إلى الساعة الثانية عشرة، ثم الغداء، وصلاة الظهر، ثم خطبة لأحد العاملين، ثم صلاة العصر، وبين صلاة العصر، وصلاة المغرب حلقة التسبيح والذكر، وبعد صلاة المغرب خطاب عام، ألقى أولاً أحد الدعاة العرب كلمة، ثم تحدث الشيخ محمد يوسف، وبعد كلمته جرى تشكيل الجماعات، واستمرت هذه الأعمال إلى الساعة الحادية عشرة تقريباً ثم صلاة العشاء، وطعام العشاء، ولم تتح فرصة للاستراحة إلا في الساعة الواحدة بالليل، وذلك وقت النوم، أوى فيه العاملون إلى مضاجعهم، وهكذا جرى ثلاثة أيام متتالية، إلا أن اليوم الثالث كان يختلف اختلافاً يسيراً، فقد أُلقيت فيه كلمة مختصرة بعض صلاة الفجر، ثم قدم الفطور ثم عقدت الجلسة التوجيهية.

واشتملت هذه الخطبة التوجيهية على تعليمات وإرشادات عن منهج الدعوة وأسلوبها، ومنهج قضاء الوقت، ورعاية الحقوق، والالتزامات للاستفادة من الجولة الدعوية استفادة كاملة، ثم ودّع حول مائة وخمسين جماعة.

وبعد هذه الجلسة الختامية اشترك في اجتماع للنساء، وفي صباح اليوم التالي توجه إلى «آنند» عن طريق «بروده»، واشترك في «آنند» في اجتماع للمدرسة وخاطب

الطلاب والأساتذة، وأدى صلاة الظهر، وزار البناية الحديثة للمدرسة، وألقى كلمة وجيزة بهذه المناسبة، وبعد صلاة العصر سافر إلى «راندير»، وأدى صلاة المغرب في ساحة موقف الحافلة في «بروده»، ووصل إلى «راندير» في الساعة التاسعة ليلاً، وتوجه إلى المدرسة الحسينية، وقضى الليلة هناك، وفي اليوم التالي عقد اجتماع في المدرسة تحدث فيه أولاً أحد الدعاة العرب، وسجل الطلاب أسماءهم، ثم اشترك في ختم «الصحيح» للبخاري وألقى كلمة بهذه المناسبة، وبعد الظهر اشترك في حفل ختم «الصحيح» للبخاري في المدرسة الأشرفية، وتحدث فيه، وبعد المغرب توجه إلى «دابهيل»، وأقام في دار الضيافة للمدرسة، وألقى كلمة في المسجد الجامع بعد العشاء، وبعد صلاة الفجر ألقى الخطاب في مسجد المدرسة، ثم سافر إلى «سورت»، وتحدث في المسجد الجامع في «سورت»، وغادر «سورت» إلى «دلهي» بعد الظهر بقطار «جتا السريع».

تأثير الاجتماعات:

كان اشترك الشيخ محمد يوسف في أي اجتماع يحدث في النفوس نشوة وحماساً وحرارة وقوة قبل شهور من انعقاد الاجتماع، ويعم الجو الإيماني وتشيع الحركة الإيمانية، ولكن النفحات الإيمانية، والأحوال والكيفيات النورانية تسود المنطقة بكاملها، وتغمر القلوب بعد انعقاد الاجتماع وخطب الشيخ محمد يوسف الإيمانية فيه، وتتغلغل في النفوس المشاعر والأحاسيس المتدفقة المتقدة بالحرارة الإيمانية إلى مدة طويلة، وتصبح ذكريات هذا الاجتماع حديث المجالس، ويبقى تأثيره على ألسن الناس الخاصة منهم والعامة إلى شهور عديدة، ويتذكره الناس، ويشحنون بذكره بطارية قلوبهم.

يصف أحد المشتركين في مثل هذا الاجتماع انطباعاته بهذه الألفاظ: كان موقع الاجتماع على بعد حوالي ميلين من البلدة، لكن محل الاجتماع صار بمثابة سوق عامرة فتحت فيه جميع أنواع الدكاكين، وأقيم مخيم كبير يسع لأكثر من أربعين ألف مشترك، وبدأت الجماعات من المدن المختلفة والقرى المجاورة تصل إليه قبل يوم من انعقاد الاجتماع، وكانت أماكن هذه الجماعات مخصصة، وكان لكل جماعة

جناح خاص، ووضعت اللوحات باسم الجماعة على كل جناح، ونظمت حلقات التعليم، ووصل الشيخ محمد يوسف، واستقبله جمع غفير من الناس في المحطة، وبدأت خطبه بصورة منتظمة، وكانت الكلمة الأخيرة مثيرة حافلة بالعاطفة الإيمانية الجياشة، فساد الناس الصمت، كان على رؤوسهم الطير، وقد تحدث عدة ساعات، ولم يشعر بتعب ولا سآمة، وقد هزّ الجميع بكلمته وبِعزمه وبقينه، وكان الجمع في سيل عارم من الإيمان واليقين لا يبقى أحداً من دون أن يغمره، وغادر الشيخ بعد هذا الخطاب.

وظلت ذكريات هذه الخطب طرية، منعشة للقلوب شهوراً، وظل الجو معموراً بها، فكانت كلماته على ألسن الناس، كل رجل يصف يقينه وإيمانه وتأثيره على النفوس حتى السكان الذين كانوا يعارضون عقد الاجتماع، ودعوة الشيخ قبل انعقاد الاجتماع، انفعلو بتأثير خطبه، وانضموا إلى حركته، وجعلوا يمدحونه ويطنونه.

بداية الاجتماعات:

ركز الشيخ محمد يوسف عمله على «دلهي» والمناطق المجاورة لها بعد تقسيم البلاد عدة شهور، يعمل في اللاجئين المسلمين ويرسل الجماعات إلى مخيمات هؤلاء اللاجئين لتصحيح العقيدة، وبناء السلوك الإسلامي، ولكن بعد تحسن الظروف وتهذئة الجو، وانفتاح مجالات العمل، وتأمين الطرق التي كانت عرضة للخطر بسبب الاضطرابات الدامية، بدأ الشيخ عقد الاجتماعات؛ لأن الاجتماعات كانت منطق العمل، ومأوى جرحى القلوب، وبلسماً للمصابين والمنكوبين تثبت أقدامهم، وتسكن قلوبهم، وتريح بالهم، وتعيد إلى قلوبهم الإيمان والثقة بالله وكان كذلك، فإن الاجتماعات أعادت الحياة الإسلامية، وغيّرت الجو، وأزالت عن النفوس القلق والاضطرابات، ونفخت في القلوب العزة والكرامة والجرأة والشهامة بتغلغل الإيمان في النفوس، وبدأ المسلمون الذين كانوا يؤثرون البقاء في أماكنهم خوفاً من الهلاك، ينتقلون من مكان إلى مكان، حتى إلى الأماكن الموحشة التي كان يخشى فيها الخطر، ودخلوا في تنور الاضطرابات واثقين بالله ونصرته، وهم يرددون: ﴿يَنَارُ كُوْنِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَيَّ إِنِّي هِيَ﴾، فجعل الله هذه النار برداً وسلاماً لهم طرق الدعوة،

وعندما عم هذا الجو، وعادت إلى عامة المسلمين الثقة والجرأة، بدأ الشيخ محمد يوسف ينظم الاجتماعات العامة الكبرى.

اجتماع «رائيفور»:

افتتح الشيخ محمد يوسف سلسلة الاجتماعات العامة بعد أن دارت رحى الاضطرابات، وهزت الأرض بها إثر تقسيم البلاد من مكان كان معموراً بذكر الله، وكان ملتقى للذاكرين والعابدين والصالحين في رعاية شيخ مصلح رباني كبير، كان معلم الإيمان واليقين ومربياً روحياً، وهذا المكان هو «رائيفور» على بعد ٢٢ ميلاً من مدينة «سهارنفور»، ويقع في زاوية من هذه القرية التي يسكنها رجال قبيلة «راو» الشيخ عبد القادر الرائيفوري التلميذ الرشيد للشيخ عبد الرحيم الرائيفوري، فانعقد الاجتماع العام الأول بعد التقسيم في هذه القرية.

وصل الشيخ محمد يوسف إلى «سهارنفور» من «نظام الدين» في ٣/ ربيع الأول ١٣٦٧هـ - ١٤/ فبراير/ شباط ١٩٤٨م، ووصل الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي من «لكهنؤ»، وكان يرافقه الشيخ محمد منظور النعماني بالقطار، وفي صباح اليوم التالي توجه الجميع إلى «رائيفور»، وفي «رائيفور» عقد اجتماع كبير، وعقد قبل هذا الاجتماع اجتماع تحضير في المسجد الجامع في مساء الأحد، وألقى الشيخ محمد يوسف كلمة تمهيدية فيه، وكان هذا الاجتماع اجتماعاً مثالياً، وكان نموذجاً لمنهج الاجتماعات العامة، مهدت به سبيل الاجتماعات الكبرى التي عقد بعد ذلك في أنحاء أخرى، واشترك في هذا الاجتماع عدد كبير من سكان «رائيفور» كما اشترك فيه كثير من اللاجئين القادمين من «بنجاب» الشرقية واستوطنوا «رائيفور».

وفي اليوم التالي يوم الاثنين سافر جميع هؤلاء المشايخ إلى «سهارنفور» وعاد الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي إلى «لكهنؤ»، وعاد الشيخ عبد القادر الرائيفوري الذي كان قد وصل إلى «سهارنفور» معه قبل يوم إلى «رائيفور»، وعاد الشيخ محمد يوسف إلى «دلهي»، وفي هذه الرحلة طلب الشيخ الرائيفوري من الشيخ محمد يوسف بالسفر إلى «باكستان»، والقيام بجولة دعوية فيها.

اجتماع «كرسي»:

تقع «كرسي» على بعد ١٧ ميلاً من «لكهنؤ» في مديرية «باره بنكي»، ويقطن فيها عدد لا بأس به من المسلمين، وكان عمل الدعوة يجري في «لكهنؤ» منذ مدة، وكان قد عقد اجتماع في «رحيم آباد» في ضواحي «لكهنؤ» قبل التقسيم بعام، واشترك فيه جميع هؤلاء المشايخ، ففكر القائمون بأعمال الدعوة أن يعقدوا اجتماعاً في جانب آخر من مدينة «لكهنؤ»، وكان لكثير من سكان «كرسي» صلة استرشاد بالشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، وصلة الدعوة بالشيخ محمد يوسف، فتقرر عقد اجتماع عام في «كرسي» (Kursi).

عاد الشيخ محمد يوسف من «باكستان» في ١٩/مايو/أيار سنة ١٩٤٨م إلى «سهارنفور»، ومن «سهارنفور» غادر إلى «لكهنؤ»، ومن «لكهنؤ» رافقه الشيخ أبو الحسن علي الحسيني الندوي، والشيخ محمد منظور النعماني إلى «كرسي»، واشترك جماعة كبيرة من الدعاة القادمين من «دلهي» وأماكن أخرى في هذا الاجتماع.

انعقد هذا الاجتماع في يوم ٢١، ٢٢، ٢٣/مايو/أيار، وبعد خطاب الشيخ محمد يوسف العام جرى تشكيل الجماعات، وانتهى الاجتماع يوم الاثنين، وعاد الشيخ إلى «لكهنؤ»، وفي اليوم الثاني غادر إلى «سهارنفور»، ومن «سهارنفور» توجه إلى «رائيفور»، ويقول الذين حضروا اجتماع «كرسي»: إنه كان أكبر اجتماع حضره في تلك الأيام الحرجة، والأوضاع القاسية في البلاد.

اجتماع «لكهنؤ» لإعداد تخطيط للدعوة في «لكهنؤ»:

كان عمل الدعوة يجري في مدينة «لكهنؤ» من عهد الشيخ الكبير محمد إلياس الكاندهلوي، وكان ينتشر في المناطق المجاورة بفضل جهود الشيخ أبي الحسن علي الحسيني الندوي، والشيخ محمد منظور النعماني، ولكن كانت الحاجة تمس إلى توسيع التعاون مع رجال المركز في «نظام الدين»، والاستشارة منهم في توسيع نطاق العمل، ولهذا الغرض كانت تجري مراسلة بين الشيخ أبي الحسن علي الحسيني الندوي والشيخ محمد يوسف، وبطريق هذه الرسائل تقرر أن يعقد لقاء في

«سهارنفور» للتشاور حول ظروف الدعوة، وتوسيع نطاق عملها، فوصل الشيخ إلى «سهارنفور» في ٢١/ يونيو/ حزيران ١٩٤٨م، وفي اليوم التالي وصل الشيخ أبو الحسن علي الحسيني الندوي والشيخ محمد منظور النعماني كما وصل معهما عدد من العاملين الآخرين من «مرادآباد»، و«رام پور»، و«لكهنؤ»، وعقد الاجتماع، وحضر بهذه المناسبة أيضاً الشيخ عبد الرب الصوفي، ويُحَث في هذا الاجتماع تدابير لتوسيع نطاق العمل، وسافر الشيخ أبو الحسن علي الحسيني الندوي، والشيخ محمد منظور النعماني إلى «ديوبند» لحضور إعداد المناهج الدراسية، وعاد الشيخ محمد يوسف إلى «كاندهله»، ومن «كاندهله» سافر إلى «سهارنفور» و«رائيفور» ثم عاد إلى «دلهي».

عقد في «لكهنؤ» اجتماع في يوم ٢٦/ أغسطس/ آب ١٩٤٨م في ساحة ندوة العلماء، واشترك فيه العاملون في الدعوة من «لكهنؤ» ومدن الولايات الأخرى من أصحاب الغيرة الدينية، والعاطفة الدعوية، للتشاور حول طبيعة العمل والبحث عن مجالات جديدة للدعوة، وطرق إيصالها إلى مناطق جديدة، وبلغ عدد المشتركين الذين كانت لهم خبرة في هذا المجال أكثر من مائتين شخص، وفي ضوء ما تقرر في هذا الاجتماع جرى تنظيم عمل الدعوة، ووضعت خطة جديدة للجولات الدعوية، والاجتماعات العامة في المدن الأخرى بالإضافة إلى مدينة «لكهنؤ» وضواحيها.

اجتماع «نوح»:

عقد اجتماع دعوي في «نوح» في مديرية «جرجاواں» في ٢٧/ ذي الحجة ١٣٦٨هـ، واشترك فيه مشايخ «مركز نظام الدين»، والمفتي كفاية الله، والشيخ أحمد سعيد الدهلوي، والشيخ حفظ الرحمن السيوهاري، والشيخ حبيب الرحمن اللدهياني، وألقى الشيخ أحمد سعيد الدهلوي خطبته حول أهمية عمل الدعوة، ودامت هذه الخطبة عدة ساعات، واشترك في هذا الاجتماع عدد كبير من سكان «ميوات» والمناطق الأخرى.

اجتماع مهم في «سهارنفور»:

كانت للشيخ محمد يوسف صلة خاصة بمدرسة مظاهر العلوم بـ «سهارنفور» فإنه تعلم فيها، وكان والده الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي في هيئة التدريس فيها مدة من الزمن، ثم توقفت هذه الصلة في الأيام الأخيرة؛ لأنه كان عضواً في الهيئة العليا للمدرسة، وبصلته بالمدرسة كان الأساتذة والطلاب في المدرسة على اتصال وثيق به، وكانوا يشتركون في عمل الدعوة، ويقضون بعض الأوقات في «نظام الدين»، وشعر الشيخ محمد يوسف بأهمية اشتراك أهل العلم في عمل الدعوة بصفة خاصة، وأن يكون لهم دور ملحوظ فيه، وكان يشعر أن مسؤولية الدعوة ترجع إلى العلماء وطلاب العلم الديني، وكان يعتقد أن العلم له ثلاثة أهداف، ولا تتحقق هذه الأهداف إلاً بالجهد، وهذه الأهداف كما يلي:

١ - ترسيخ اليقين في القلب حسب ذلك العلم.

٢ - العمل في ضوء ذلك العلم.

٣ - نشر ذلك اليقين والعمل في العالم كله.

وكان الشيخ محمد يوسف كلما أتاحت له فرصة للتحدث إلى الطلاب والأساتذة والمدارس الإسلامية كان يركز حديثه على هذه النقاط الثلاث، فألقى خطاباً في ٤/ جمادى الآخرة ١٣٧٠هـ في قاعة الحديث للمدرسة، وألقى فيه الضوء على واجبات الأساتذة، وطلبة العلم الديني، بالنسبة لعمل الدعوة، وأوضح أهداف كسب العلم، وآدابه، وأهميته في الحياة.

اجتماع «مجرهات»:

بعد اجتماع «رحيم آباد» في ١٩٤٦م سافر الشيخ محمد يوسف إلى «كلكتة»، واشترك في الاجتماع الذي عقد فيها، وكان لهذا الاجتماع تأثير كبير على النفوس، ومهد له الطريق إلى توسيع نطاق عمل الدعوة في تلك المنطقة وضواحيها والمدن المجاورة لها، وشعر سكان المدينة بضرورة عقد اجتماع في المنطقة المجاورة للمدينة، وهي «مجرهات»، وبدأت الاستعدادات لعقد هذا الاجتماع، وانبث الدعاة في المنطقة لإعداد النفوس للخروج في سبيل الله، ووصلت جماعات في ٢١/ جمادى

الآخرة ١٣٧٠هـ الموافق ٣٠/مارس/آذار ١٩٥٠م يوم الجمعة من «مركز نظام الدين» بـ «دلهي»، والمناطق الأخرى، وكان في جماعة «دلهي» الشيخ محمد يوسف، والشيخ إنعام الحسن، والحافظ فخر الدين، وتوجه هؤلاء المشايخ أولاً إلى «كلكتا»، ثم توجهوا منها إلى «مجراوات»، واشترك في هذا الاجتماع الشيخ محمد طيب مدير دار العلوم بديوبند أيضاً، وكان هذا الاجتماع منطلقاً للعمل، وحافزاً كبيراً إلى توسيع عمل الدعوة في ولاية «بنغال» كلها، فقد اشترك فيه جماعات من سائر مدن «بنغال»، وحضره عدد كبير من العلماء والأساتذة وكبار الدعاة، فكان هذا الاجتماع ملتقى كبيراً للعاملين والدعاة والأساتذة والطلاب في المدارس الإسلامية، وعاد الشيخ محمد يوسف والجماعة المرافقة له في ٢٧/جمادى الآخرة.

اجتماع «كرهي دولت» و «كيرانه» :

عقد اجتماع في «كرهي دولت» و «كيرانه» في مواعيد مختلفة، عقد اجتماع «كرهي دولت» في ٢٦/ذي الحجة ١٣٧٠هـ واشترك فيه العلماء وطلبة المدارس الدينية مع جمع غفير من المسلمين من القرى المجاورة، واشترك فيه الشيخ محمد يوسف.

وعقد اجتماع «كيرانه» في صفر ١٣٧١هـ، وكان أكبر من الاجتماع الأول، فقد اشتركت فيه جماعات من الخارج، ويجدر بالذكر منها جماعة من جامعة عليجراه الإسلامية التي كان أميرها الشيخ جميل أحمد الحيدرآبادي، وقد انتشر هذا العمل الدعوى بجهود الشيخ جميل أحمد في «حيدرآباد»، وكان له نفوذ كبير في أوساط المتعلمين والمثقفين في الجامعات العصرية.

وانعقد اجتماع في «سرهند» في ٢٧/صفر ١٣٧١هـ، وهي المنطقة المعروفة التي ينحدر منها مجدد الألف الثاني الشيخ أحمد السرهندي، ولم يشترك في هذا الاجتماع الشيخ محمد يوسف بنفسه، ولكن اشترك فيه الحافظ مقبول حسن الكنگوهي نيابة عنه، وبهذا الاجتماع فتحت مجالات العمل الدعوي في «بنجاب» الشرقية، وانضم إلى هذه الحركة المسلمون الذين كانوا قد اختفوا في الجبال والمغارات والقرى النائية، وأخفوا إسلامهم بسبب الاضطرابات الدموية الساحقة التي

اجتاحت الولاية، وكانوا يخافون الاختلاط بالسكان الآخرين، والاتصال بالمسلمين، فنفخ هذا الاجتماع روحاً جديدة فيهم، فتجروأوا على الخروج وإقامة الصلة بالمسلمين الآخرين.

اجتماع «بهوفال» :

ظلت مدينة «بهوفال» مركزاً للثقافة الإسلامية ومصدر قوة للمسلمين، وكان لها دور كبير في خدمة العلم ونشر الثقافة الإسلامية ودعم العلماء والباحثين، وكان هذا الشعور أقوى في الأميرات وخاصة في عهد الشيخ جمال الدين مدار المهام، ووزير الدولة، وأمير الملك النواب صديق حسن خان القنوجي، صاحب المؤلفات الشهيرة، والتقى فيها العلماء والباحثون في رعايته، وبذلك كانت هذه المدينة مركزاً علمياً وثقافياً كبيراً للهند كلها، واحتفظت بكثير من خصائصها ومميزاتها ولونها وروحها رغم الانقلاب السياسي الذي هز هذه البلاد كلها، وغير الموازين، وكان يخشى بعد تقسيم البلاد أن هذه المنطقة تتعرض لتحول رئيسي كبير، ويواجه فيها المسلمون مشاكل تحدث فيهم الشعور بالنقص، لتأثرهم بالأحداث التي كانت تقع في أجزاء أخرى من البلاد، ولكن بفضل جهود العلماء وبركة الصالحين والأتقياء الذين كانت هذه المنطقة تزخر بهم بقيت هذه الإمارة في نجوة من تأثير الأحداث المؤلمة، ولم تحدث فيها فجوة أو فراغ بالانقلاب، وقد أرسى قاعدة عمل الدعوة في هذه الإمارة الشيخ محمد عمران خان الندوي الذي كانت له صلة بالشيخ الكبير محمد إلياس، ونجلاه الشيخ محمد يوسف، وكانت له تجربة في عمل الدعوة منذ إقامته في «لكهنؤ»، عندما كان عميد دار العلوم لندوة العلماء، وخصص لهذه الحركة الجامع التاريخي الكبير «تاج المساجد» الذي لا يوجد له نظير في الجوامع الهندية في سعتة، والساحات الفسيحة التي تحيط به، وهي ذكرى الأميرة شاهجهان بيحوم، ورمز إخلاصها وعزيمتها.

تمتاز «بهوفال» ومديرياتها بنسبة عالية من المسلمين في سكانها، وكان المقرئ رضا حسن الذي كان من مسترشدي الشيخ محمد إلياس وأعوانه وعدد من العلماء الكبار وخاصة الشيخ عبد الرشيد مسكين الذي كان من الشخصيات البارزة في

«بهوفال»، ومن كبار علمائها، قد وجهوا الدعوة إلى الشيخ محمد إلياس بواسطة المفتي كفاية الله لبدأ العمل في «بهوفال»، وقد بدأ العمل فعلاً بنطاق محدود بجهود المقرئ رضا حسن، ولكن رقي هذا العمل وازدهاره وانتشاره وسعته كان في نصيب الشيخ محمد عمران خان الندوي، وكان مكتوباً في حظه، فعقد اجتماع رئيسي بدعوة من أهالي «بهوفال»، ورغبةً من الشيخ محمد عمران خان الندوي وتأييده في ٥، ٦، ٧/فبراير/شباط ١٩٥٢م، واشترك فيه الشيخ محمد يوسف بجماعة كبيرة من «مركز نظام الدين»، وكان يرافقه الشيخ محمد إنعام الحسن، والشيخ محمد منظور النعماني، والشيخ أبو الحسن علي الحسيني الندوي، واستمر الاجتماع في «بهوفال» ثلاثة أيام ٥، ٦، ٧/فبراير/شباط ١٩٥٢م، وكان يمتاز بكثافة الحاضرين، وكثرة عدد الوافدين وكثرة الجماعات التي خرجت من هذا الاجتماع، والنسبة العالية للجماعات التي اشتركت فيه من مختلف أنحاء «الهند»، فكان اجتماعاً مثالياً، وكان له تأثير عميق خالد على المناطق الواقعة في وسط «الهند»، وجنوب الهند، وخاصةً «حيدرآباد»، وغمرت آثاره مناطق واسعة في أقصى «الهند» وأدناها، وحتى خارج «الهند».

كان هذا الاجتماع منطلقاً كبيراً لعمل الدعوة، ونموذجاً للاجتماعات العامة في «الهند»، ومنذ ذلك الاجتماع أصبح من العادة أن يعقد اجتماع حاشد كل عام في «بهوفال»، في هذا الجامع الكبير، ويعتبر هذا الاجتماع اجتماع الهند كلها ولا يساوي هذا الاجتماع اجتماع آخر، لكثرة عدد الحاضرين والنظام والتأثير الخلاب، وقد اشترك في جميع هذه الاجتماعات الكبرى الشيخ محمد يوسف. كان من سمات هذا الاجتماع أنه كان أكثر الاجتماعات الدعوية توفيقاً ونجاحاً في كثرة عدد الجماعات الداخلية والخارجية، وخاصة في عدد الجماعات الأجنبية، ولا يزال هذا الاجتماع يعقد إلى يومنا هذا بنفس الحماس والقبول والإقبال عليه كما كان يعقد في آخر حياة الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي — رحمه الله — .

اجتماع «أساره» :

كانت الجماعات تتردد من «سهارنفور» إلى «دلهي» منذ عهد الشيخ محمد إلياس، وانتشر العمل في المناطق القروية للمدينتين، وكانت تعقد اجتماعات فرعية

إقليمية في ضواحي المدينتين، ومن هذه الاجتماعات اجتماع «أساره»، اشترك في هذا الاجتماع الشيخ محمد يوسف مع جماعة من أعوانه، واشترك فيه الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي قادماً من «سهارنفور»، ودام هذا الاجتماع ثلاثة أيام، شكلت فيه الجماعات، وألقيت فيه الخطب، وعقدت فيه حلقات التعليم، وبعد الاجتماع توجه هؤلاء المشايخ إلى «كاندهله»، وفي صباح اليوم الثاني عاد الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي إلى «سهارنفور»، والشيخ محمد يوسف وجماعته إلى «دلهي».

اجتماع «كانفور»:

وصل الشيخ محمد إلياس إثر رحلته إلى «لكهنؤ» في عام ١٩٤٣م إلى «كانفور»، وكان يرافقه في هذه الرحلة السيد سليمان الندوي، وجماعة كبيرة من العاملين من «لكهنؤ»، ووضعت نواة العمل فيها، وبدأت هذه الشجرة تؤتي أكلها، وتمتد فروعها، فلمس العاملون الضرورة لعقد اجتماع كبير، وبعد التشاور مع الشيخ محمد يوسف، حدد موعد الاجتماع.

عقد هذا الاجتماع في فترة ٩ - ١١/ شعبان ١٣٧١هـ الموافق ٤ - ٦/ مايو/ أيار ١٩٥٢م في الساحة الفسيحة لـ «كلية حليم الإسلامية»، وتعاون في هذا الاجتماع العاملون في الدعوة من «لكهنؤ» مع العاملين في الدعوة في «كانفور» تعاوناً أخوياً وثيقاً، واشتركت في هذا الاجتماع بالإضافة إلى جماعات مختلفة من «الهند» جماعات من خارج «الهند»، واهتم سكان «كانفور» بتنظيم هذا الاجتماع اهتماماً بالغاً، واتخذوا لراحة الوافدين والضيوف إجراءات لائقة من المسكن والغذاء، وتنظيم حلقات التعليم، واللقاءات الدعوية، وقاموا بمناصرة الضيوف بهمة وعزم وسخاء، وقبل ذلك كانت تعقد اجتماعات في أحياء «لكهنؤ» المختلفة، وكانت المدينة قد وزعت على أربع مناطق، وكان أحد هذه الاجتماعات يعقد في حي «أمين آباد»، واشترك الشيخ محمد يوسف في اجتماع عقد في مبنى نعمة الله بـ «أمين آباد»، وألقى خطبة طويلة انتهت في الساعة الواحدة بالليل.

كان نظام اجتماع «كانفور» كما يلي:

— خطاب الشيخ محمد يوسف بعد صلاة الصبح، ثم تشكيل الجماعات.

- حلقات التعليم من الساعة الحادية عشر إلى الساعة الثانية عشر .
- وكان الشيخ محمد يوسف يشترك في إحدى الحلقات ، ويلقي خطابه .
- جولة دعوية بعد صلاة الظهر .
- حديث شخصي للشيخ محمد يوسف .
- العشاء بعد صلاة المغرب .
- الاجتماع العام بعد صلاة العشاء .

انتهى الاجتماع في يوم الثلاثاء ، وعاد الشيخ محمد يوسف يوم الأربعاء إلى «دلهي» ، وخلف هذا الاجتماع تأثيراً حسناً على جو «كانفور» بصفة عامة ، ولم يبق حي من أحياء «كانفور» إلا وعملت فيه جماعة من الجماعات ، ولم يبق أحد إلا وصلت إليه الدعوة ، وألقى الشيخ محمد يوسف عدة كلمات مفصلة ومؤثرة ، في الخاصة والعامة ، وعقد اجتماع خاص لرجال الأعمال والتجارة واجتماع لطلاب المدارس والكليات العصرية ، واجتماع للأعيان والعلماء ، وتحدث في جميع هذه الاجتماعات الشيخ محمد يوسف بأسلوبه الخاص ، حسب الوضع والمخاطب ، وانفتح باب عمل الدعوة بهذا الاجتماع في «كانفور» وضواحيها المختلفة ، وبدأت الجماعات تتردد وتختلف من «كانفور» إلى المناطق الأخرى ، ومنها إلى «كانفور» .

اجتماع «مرادآباد» :

انعقد الاجتماع الأول في «مرادآباد» في عام ١٩٤٥م ، ثم انتشر عمل الدعوة في المنطقة ، وخرجت جماعات متعددة لأهالي مدينة «مرادآباد» إلى مختلف أنحاء البلاد وخارجها عدة مرات ، كما تولى المراديون مسؤولية تربية الحجاج ، ونشر الدعوة فيهم ، ونقل الدعوة إلى «الحجاز» ، والعمل في الحجاج خلال الحج ، وعقدت بعد ذلك اجتماعات فرعية في «مرادآباد» ، ولكن الاجتماع الذي عقد في ٣ / إبريل / نيسان ١٩٥٣م الموافق ١٧ / رجب ١٣٧٢هـ وكان أكبر اجتماع ، استغرق ثلاثة أيام بعد الاجتماع الأول الذي انعقد في عام ١٩٤٥م واشتركت في هذا الاجتماع جماعات بعد جولات طويلة في أقاصي البلاد وأدانيها ، وخرجت منه جماعات لمدة طويلة ، واشترك في الاجتماع الشيخ محمد يوسف مع جماعة من رفقته من «نظام الدين»

بدلهي، وكان وفد الشيخ محمد يوسف مكوناً من ٢٥ شخصاً، وألقى الشيخ محمد يوسف في هذا الاجتماع كلمة مؤثرة مجلجلة، كان لها تأثير عميق في القلوب وصدى في مدينة «مرادآباد» كلها، وكان من تأثير هذه الكلمة البليغة أن الذين كانوا قد وعدوا بالخروج في الجماعة زادوا من مدة خروجهم في سبيل الله.

اجتماع «أجراره»:

عقد في «أجراره» اجتماع في ١٨/ إبريل/ نيسان ١٩٥٣م الموافق ٣/ شعبان ١٣٧٢هـ، وكان هذا الاجتماع أكبر اجتماع في هذه المنطقة، واشترك فيه الشيخ محمد يوسف وألقى كلمة فيه، وشكلت جماعات، وغادر في نفس اليوم إلى «لكهنؤ» واشترك في اجتماع «لكهنؤ».

الاجتماع الثاني في «رائيفور»:

لم يكن هذا الاجتماع مقررًا من قبل، ولم يكن يعرف عنه أحد قبل انعقاده، ولم تتخذ إجراءات، وحدث أن الشيخ محمد يوسف وصل إلى «سهارنفور» في ١٦/ محرم الحرام ١٣٧٣هـ يوم السبت، لزيارة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، وكان معه الشيخ رشيد الحسن البهوفالي، وعدد آخر من رفقته وأعوانه، وعلموا بعد وصولهم إلى «سهارنفور» أن الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي قد سافر إلى «رائيفور» لزيارة الشيخ عبد القادر الرائييفوري، فتوجه الجميع إلى «رائيفور»، وبمناسبة وجود هؤلاء المشايخ تقرر عقد الاجتماع بإعلان مفاجيء، وأرسل الدعاة إلى المناطق المجاورة لجمع الناس للاجتماع، وانعقد الاجتماع من غير موعد له في مسجد رائيفور، وكان الشيخ محمد يوسف قد اعتذر أولاً، وقال: إنه جاء لزيارة الشيخ، وليس للاجتماع، ولكن الشيخ أصرَّ عليه، فقبل الشيخ محمد يوسف ذلك، وامثالاً لأمره ألقى خطبة في الاجتماع الذي انعقد يوم الأربعاء لست ساعات في مسجد «رائيفور» الجامع، واستغرق خطاب الشيخ أربع ساعات، ثم شكلت الجماعات بساعتين، وكان ذلك اجتماعاً حاشداً، فقد احتشد فيه الناس بعدد كبير لما سمعوا نبأ وصول الشيخ محمد يوسف واجتماع المشايخ الكبار في المنطقة.

جولة «مظفر نجر» :

تمتاز منطقة «مظفر نجر» والقرى المجاورة لغالبية السكان المسلمين، وكانت الجماعات تتردد إلى هذه المنطقة، وتقوم فيها بجولات دعوية على الأقدام وبالقطار والحافلات، ولكن أهل المنطقة رغبوا في أن يشرف الشيخ محمد يوسف هذه المنطقة بنفسه، ويخاطب السكان، ليزداد حماس العاملين، ويتوسع نطاق عمل الدعوة، فقام الشيخ محمد يوسف بجولة موسعة لهذه المنطقة، استغرقت ثلاثة أيام، وتحدث في المناطق التي زارها خلال هذه الجولة وقام بتشكيل الجماعات.

الجامعة الإسلامية بـ «عليجراه» :

انضم إلى حركة الدعوة طلاب الجامعة الإسلامية بـ «عليجراه» وأساتذتها والمسؤولون قبل عدة سنوات، وكانوا يخرجون في سبيل الدعوة عن طريق المركز في «نظام الدين»، وكانوا يستمعون إلى خطب الشيخ محمد يوسف خلال إقامتهم بالمركز وفي الاجتماعات الكبرى التي كانوا يشتركون فيها، وقد سرت فيهم بفضل هذه الخطب الإيمانية العاطفة الدينية، وتغلغلت في قلوبهم روح الإيمان واليقين، وقد زار عدد منهم الدول الأوروبية للدراسات العليا، وانتهزوا هذه الفرصة لنشر الدعوة في الأوساط الأوروبية، ثم وسّعوا دائرة عملهم، ونقلوا هذه الدعوة إلى الكليات والجامعات، وكونوا جماعات من طلاب هذه الجامعات وأساتذتها، وكان هؤلاء الأساتذة والطلبة في الدراسات العليا يرغبون في أن يزور الشيخ محمد يوسف الجامعة، ويلقي كلمة أمام طلابها وأساتذتها والمسؤولين عنها، لكي يتشر هذا العمل في البيئة الجامعية بصفة عامة، فقبل الشيخ محمد يوسف هذه الرغبة الملحة، ووصل إلى «عليجراه» في طريق عودته من «مظفر نجر»، والمناطق المجاورة، وألقى كلمة مؤثرة في اجتماع عقد فيها كان لها تأثير عميق في نفوس الدارسين والأساتذة، وسجل عدد كبير منهم أسماءهم للخروج في سبيل الدعوة.

اجتماع «پتھرگره» :

عقد اجتماع في «پتھرگره» في مديرية «مظفر نجر»، واشترك فيه الشيخ محمد يوسف مع أعوانه، ثم زار المناطق المجاورة لها، وعقدت اجتماعات فيها، وانضم

إليه في هذه الجولة التي استغرقت ثلاثة أيام من ١٥ إلى ١٨/ مارس/ آذار ١٩٥٤م الشيخ أبو الحسن علي الحسيني الندوي الذي كان في «ديوبند» حينئذٍ، وكان يرأس حفلة لاتحاد الطلبة من دار العلوم «ديوبند»، وعاد الشيخ محمد يوسف إلى «نظام الدين»^(١).

اجتماع «سهارنفور»:

لم يعقد حتى الآن اجتماع عام كبير في «سهارنفور» رغم انتشار عمل الدعوة فيها، والزيارات المتكررة للشيخ محمد يوسف لها، فلما استقر العمل في «سهارنفور»، تقرر عقد اجتماع رئيسي يشترك فيه المسلمون من المناطق المجاورة، والمدن الكبرى، فانعقد هذا الاجتماع لثلاثة أيام من ٢٤/ شوال ١٣٧٣هـ وكان مقر الجماعات القادمة والضيوف في المدرسة الإسلامية العالية، وأقام الشيخ محمد يوسف أيضاً في المدرسة مع الضيوف الآخرين ثلاثة أيام، ولم يغادر هذا المكان للقاء أحد من أقاربه الذين كانوا يقيمون في بيت الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، كما أقام الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي نفسه في هذه المدرسة مع الجماعات، وكان الشيخ الرائيثوري في ذلك الوقت في «باكستان» وكان هذا الاجتماع أكبر اجتماع عقد في «سهارنفور»، ألقى فيه الشيخ محمد يوسف كلماته في الصباح والمساء في كل يوم، وشكلت الجماعات، وفي أثناء انعقاد الاجتماع توفي الحافظ فخر الدين في «دلهي»، ولم يستطع الشيخ محمد يوسف تشييع جنازته لاشتغاله بأمر الدعوة، وعاد الشيخ بعد انتهاء الاجتماع إلى «دلهي».

تعليم «الصحيح الستة» في المركز بـ «نظام الدين»:

وكان الشيخ محمد يوسف يرغب منذ مدة أن يبدأ في مدرسة «نظام الدين» تعليم «الصحيح الستة»، وكان الطلبة من هذه المدرسة يكملون دراستهم في الحديث النبوي الشريف في المدارس العليا الأخرى في «سهارنفور» و «ديوبند»، ولكن تأخر تحقيق هذه الأمنية، إلى أن وافق الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي على رفع مستوى الدراسة إلى الصحيح، يقول الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي في مذكرته:

(١) «مذكرة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي».

«كان الشيخ محمد يوسف يصر منذ مدة أن يبدأ التعليم العالي للحديث في مدرسة «نظام الدين»، وأعاد هذه الرغبة في أوائل عام ١٣٧٤هـ وكنت أنوي السفر إلى الحجاز، فوافقت عليه بعد العودة من الحج في ٤/ربيع الأول ١٣٧٤هـ يوم الجمعة بعد صلاة العصر بدرس من «سنن أبي داود»، وألقى هذا الدرس الشيخ محمد يوسف، وفي ٧/من ربيع الأول يوم الاثنين ألقى الشيخ محمد إنعام الحسن درساً من «صحيح البخاري»، وألقى الشيخ عبيد الله البلياوي درساً من «سنن الترمذي»، وهكذا بدأت مرحلة تدريس الصحاح.

اجتماع «بهوفال» وعدم اشتراك الشيخ محمد يوسف فيه :

ينعقد الاجتماع العام في «بهوفال» كل عام، وكان يشترك الشيخ محمد يوسف في سائر الاجتماعات مع رفقته، وانهقد اجتماع في شهر نوفمبر سنة ١٩٥٤م، وكان الشيخ محمد يوسف مريضاً، فلم يستطع السفر إلى «بهوفال»، وكان اعتذار الشيخ محمد يوسف عن الحضور مبعث قلق وهم لمنظمي الاجتماع؛ لأن كثيراً من الناس، من «الهند» وخارجها، كانوا يشتركون في اجتماع «بهوفال» للاستماع إلى الشيخ محمد يوسف بصفة خاصة، وكان يخشى أن يكون لعدم اشتراكه تأثيراً على الاجتماع، ويكتب الشيخ محمد عمران خان الندوي، الذي كان مسؤولاً عن عقد هذا الاجتماع: «إذا لم يشترك الشيخ محمد يوسف في هذا الاجتماع، فإن الاجتماع سيؤجل».

وأصرّ الشيخ محمد عمران على اشتراك الشيخ محمد يوسف في الاجتماع، ولكن شاء الله غير ذلك، فتفاقم مرض الشيخ محمد يوسف، وتدهورت حالته الصحية مزيداً، وارتفعت درجة حرارته إلى حد أن الأطباء منعه من السفر، واستمرت هذه الحالة الصحية أسبوعاً كاملاً، فلم يستطع أن يسافر بأي حال من الأحوال، وانهقد الاجتماع بدونه، واشترك الشيخ محمد إنعام الحسن، والحافظ مقبول حسن الكنگوهي، والشيخ منظور النعماني، والشيخ أبو الحسن علي الحسيني الندوي.

اجتماع المدرسين في «ميوات» :

كان قد انتشرت الكتابيب، والمدارس الدينية في منطقة «ميوات» بفضل جهود الشيخ محمد إلياس - رحمه الله - ، وكان يدرس فيها الميواتيون، ويتعلمون فيها الدين، وكان جميع هؤلاء الأساتذة يقومون بالإشراف على نظام الدعوة في «ميوات»، وكان من العادة أن يعقد اجتماع لهؤلاء الأساتذة والمدرسين لتنظيم عملهم، وتوجيههم وتوعيتهم، وكان الشيخ محمد يوسف يلقي فيه كلمة توجيهية حول موضوع أهمية التعليم والتعاون والتربية الدينية، والدعوة والإرشاد، وكان من هذا القبيل هذا الاجتماع الذي عقد في ٢٩/فبراير/شباط ١٩٥٥م في مركز التبليغ بـ «نظام الدين»، وللإشتراك في هذا الاجتماع الهام وصل الشيخ محمد زكريا، والشيخ أسعد الله مدير مدرسة مظاهر العلوم إلى «دلهي» من «سهارنفور»، واشترك في هذا الاجتماع سائر المعلمين والأساتذة من «ميوات».

اجتماعات أخرى :

انعقدت في هذه الفترة عدة اجتماعات منطقية، كاجتماع «واسنا»، وهي منطقة تقع على مقربة من مدينة «دلهي»، اشترك فيه الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي وشيخ الإسلام حسين أحمد المدني، بالإضافة إلى عدد من مشايخ «نظام الدين»، ثم انعقد اجتماع في مدينة «عليجراه» في المسجد الجامع للمدينة، وقد سبق أن عقد اجتماع في الجامعة الإسلامية بـ «عليجراه»، واشترك فيه الشيخ محمد يوسف والشيخ إنعام الحسن بصفة خاصة.

وبدأت سلسلة انعقاد الاجتماعات في «لكهنؤ»، و«كانفور»، وضواحيها والمديريات المتصلة بهما، وبدأ يتسع نطاق هذه الاجتماعات، وكانت هذه الاجتماعات تشبه اجتماع «بهوفال» في ضخامة عدد المشتركين، ومشاركة جماعات من «الهند» وخارجها، وكان يشترك فيها الموظفون برجال الأعمال، والزراعة، وكان من نظام هذه الاجتماعات أن يعقد اجتماع كبير في «كانفور»، وآخر في «لكهنؤ»، ويساعد في إنجاح هذه الاجتماعات الجهود التي كان يبذلها العاملون في «كانفور»، و«لكهنؤ» متعاونين، فعقد اجتماع كبير في «كانفور» في ١٩/مايو/أيار سنة ١٩٥٧م

لثلاثة أيام، وعقد قبل ذلك اجتماع تحضيرى في «لكهنؤ» في ساحة مدرسة إصلاح المسلمين، وتحدث فيه الشيخ عبيد الله البلياوي، وكان الشيخ محمد يوسف يقيم في مركز التبليغ الواقع في حي «كجهري روڈ»، فتدفق الناس إليه عندما علموا قدومه، ثم توجه الشيخ محمد يوسف ورفقته إلى «كانفور» التي تبعد من «لكهنؤ» حوالي ثمانين كيلو متراً.

وكان من مزايا هذا الاجتماع الذي انعقد في الكلية الإسلامية أنه عقدت فيه جلسات خاصة لأعيان المدينة والمسؤولين والمثقفين، وألقى الشيخ محمد يوسف في إحدى هذه الجلسات خطبة مؤثرة مثيرة، وألقى فيها الضوء على أسباب الانحلال الخلقي والفساد، ووصف طريق الإصلاح والبناء، وامتازت هذه الجلسات بنسبة عالية من الحضور.

ولقي الشيخ محمد يوسف بهذه المناسبة وفد من قرية «هسوه» من مديرية «فتحپور»، التي كانت موطن المجاهدين والعلماء والأشراف، وقد تدهورت أحوال المنطقة، وخربت بعد انتقال الأشراف إلى أماكن أخرى، وأصبحت مقفرة تنتشر فيها الجهالة، ويعم فيها الفساد، وتشيع فيها البدع والأباطيل، فوجهوا إليه الدعوة لزيارة المنطقة لدعوة الناس إلى الخير، فتحدث الشيخ محمد يوسف إلى أعضاء الوفد، ولقنهم طريق العمل، ثم أرسل أحد ثقاته إلى المنطقة لإصلاح شؤون الناس، ودعوتهم إلى الخير، وفتحت بذلك مجالات العمل في تلك المنطقة.

الرحلة إلى «مدراس»:

كانت الرحلة الأولى التي قام بها الشيخ محمد يوسف إلى منطقة نائية في داخل «الهند» رغم جولاته الكثيرة التي قام بها إلى المناطق القريبة إلى مدينة «مدراس»، ووصل الشيخ عبد الحميد من «مدراس» في ٤/ رجب ١٣٧٧ هـ ليرافق الشيخ ورفقته بالطائرة إلى «مدراس»، ولما علم الشيخ أنه يريد السفر إلى «مدراس» بالطائرة، قال له: «إنني أريد أن أنقلكم من الطائرة إلى المشي على الأقدام، وأنتم تريدون أن أنتقل من المشي على الأقدام إلى السفر بالطائرة! ورفض هذا الاقتراح، وسافر بالقطار رغم توفير الوقت في السفر بالطائرة، وما فيه من الراحة، وتحمل مشاق السفر وواجه

الشدائد والآلام فيه، فوصل إلى «مدراس» في ٥١ ساعة، وتوجه من «مدراس» إلى «دندي كل» محل الاجتماع.

انعقد الاجتماع في ٢٨ - ٣٠ يناير/كانون الثاني، وألقى الشيخ محمد يوسف عدة خطب في الاجتماع، وانتهاز بعض المنتسبين إلى الحركة هذه الفرصة لعقد قران أبنائهم وبناتهم، وكان من عادة الشيخ محمد يوسف أن يلقي كلمة وجيزة حول الطريقة الشرعية للزواج، وألقى بهذه المناسبة خطبة وجيزة، ونقلت هذه الكلمة إلى اللغة التاملية، وفيما يلي ملخص هذه الكلمة:

قال بعد الخطبة المسنونة:

هذه سُنَّة لكنها تؤدي بطريقة لا تتلاءم مع السنة النبوية، إننا نُنفِقُ بهذه المناسبة طاقاتنا وثرواتنا وأنفسنا في الخرافات والتقاليد التي لا صلة لها بالسنة، لقد كان الرسول ﷺ وأصحابه الكرام من البشر، وكانت لهم متطلبات الحياة مثلنا، لكنهم كانوا يُنْفِقُونَ أموالهم وأنفسهم في سبيل الله أكثر مما كانوا ينفقونها في قضاء متطلبات الحياة. إن هناك أعمالاً تزدهر بها الأمة، وأعمالاً تنحط بها الأمة وتردى، فمن كان همه الحياة ومتطلباتها، وأهدافها، ومن كان همه الوحيد كسب المال، وإنفاقه في إرضاء نفسه كان مصيره الفناء، سواء كان ذلك في حياة الأفراد أم كان في حياة الأمم والشعوب والمجتمعات.

لقد كان رسول الله ﷺ يتزوج، وأصحابه كانوا يتزوجون، تزوجوا وهم فقراء، وتزوجوا وهم أصحاب سلطة وولاية، لكن كان زواجهم يتم بنفقات يسيرة زهيدة، لقد تزوج الرسول الله ﷺ إحدى عشرة مرة، فلم يهتم بالوليمة اهتماماً كبيراً، وأنفق في زواج ابنته فاطمة نفقة يسيرة للغاية، وكان سلمان الفارسي حاكماً، وكان أهل زوجته زينوا البيت وعلقوا الستائر، فقال: هل أصيب ببتكم بالحمى فغطيتموه بالستار؟ فقليل له: من أجل زواجك، فقال: لقد منع حبسبي محمد ﷺ أن نسكر في بيت زين بالستائر، ولم يدخل بيت زوجته إلا بعد أن نزع تلك الستائر، ثم رأى الجواري والأمتعة، فقال: لا أقدر على تأدية الحساب يوم القيامة فلم يقبل شيئاً منها، ورأى نساء اجتمعن لتوديع العروس فودعنهن وأعادهن إلى بيوتهن ثم دخل غرفته،

وزين بيت عبد الله بن عمر للزواج فرفض أبو أيوب الأنصاري أن يشترك في حفل الزواج.

كان هؤلاء الأتقياء يُؤثرون على أنفسهم، ويُنفقون على الفقراء والمساكين ويقدمون كل ما يملكونه للإِنفاق في سبيل الله، فإذا كنا نريد أن نحصل لنا البركة في زواجنا، وفي أولادنا فعلينا أن نقفدي بأسوة الرسول ﷺ.

وبعد «دندي كُل» قام بجولة للمناطق المجاورة، فوصل إلى «حيدرآباد» في ١٧/ رجب، ومكث بها أربعة أيام، ثم عاد إلى «دلهي» في ٢٢/ رجب، ومن «دلهي» سافر إلى «سهارنפור» لزيارة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، وزار معه «كنگوه»، ثم عاد إلى «دلهي».

اجتماعات «بستي» و «آجره» :

قام الشيخ محمد يوسف بجولات مكثفة في المديريات الشرقية لولاية «أترابرايش» واشترك في الاجتماعات التي عقدت في هذه المديريات، وكانت اجتماعات مديرية «بستي»، فانعقد الاجتماع الأول في ٢٨/ شوال — ١٨ مايو/ أيار ١٩٥٨م، واشترك في هذا الاجتماع الذي استمر ثلاثة أيام الشيخ عبيد الله البلياوي من «دلهي»، والشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي من «لكهنؤ» وجماعات من مناطق متعددة، كما اشترك في هذا الاجتماع الشيخ محمد عمران خان الندوي والشيخ محمد منظور النعماني.

وفي ١٩/ يوليو/ تموز ١٩٥٨م انعقد اجتماع عظيم في «آجره»، وانعقدت بعد ذلك اجتماعات منطقية في المناطق المجاورة لـ «آجره».

اجتماع «سيتاپور» :

كان من العادة أن تعقد الاجتماعات العامة بالتناوب من «لكهنؤ» و «كانفور»، وتقرر أن يعقد اجتماع في «سيتاپور» بطلب من بعض العاملين القداماء، وكانت «سيتاپور» مركزاً من مراكز الدعوة بجهود بعض المخلصين، وكان في مقدمتهم الأستاذ ظفر أحمد الصديقي أحد كبار المحامين في المدينة، وتعتبر مدينة «سيتاپور»

من المدن الشهيرة ذات تاريخ مجيد منذ العهد الإسلامي، ومن المناطق التي كان لها دور ملحوظ في التاريخ الإسلامي «خير آباد»، «لاهرپور»، «هرگام»، وقد أنجبت هذه المناطق علماء وساسة كباراً في التاريخ الإسلامي وفي العهد البريطاني.

انعقد هذا الاجتماع في ١٤ - ١٦ سبتمبر/أيلول ١٩٥٨م، واشترك فيه الشيخ محمد يوسف مع جماعة كبيرة من «نظام الدين»، والشيخ أبو الحسن علي الحسيني الندوي والشيخ محب الله التركي^(١).

اشترك في هذا الاجتماع ألوف من المسلمين من المناطق المجاورة ومن «لكهنؤ» و«كانفور» والمناطق الشرقية لولاية «أترپراديش»، وعقدت قبل الاجتماع الأول اجتماعات تحضيرية في سائر المناطق المجاورة لإعداد الناس للخروج، وألقى الشيخ محمد يوسف عدة خطب في هذا الاجتماع، وخرجت جماعات كثيرة من الاجتماع، وكان منظر الدعاء لدى توديع الجماعات منظراً خلاباً، كانت الدموع تسيل من العيون، وكان الصمت يسود على الناس، وكان على رؤوسهم الطير.

وبعد انتهاء الاجتماع عاد الشيخ إلى «دلهي» معرجاً على «لكهنؤ»، حيث قابل الشيخ عبد الشكور الفاروقي.

اجتماع «مجرهات»:

انعقد الاجتماع الأول في «مجرهات» في جمادى الآخرة ١٣٧٠هـ، ومنذ ذلك الوقت انتشر عمل الدعوة في هذه المنطقة، وانهقدت اجتماعات منطقية عديدة، وانهقد الاجتماع العام الثاني في «مجرهات» بعد ثماني سنوات، اشترك فيه الشيخ محمد يوسف، والشيخ إنعام الحسن، والشيخ محمد هارون الذين وصلوا إلى «مجرهات» عن طريق «كلكتة»، وكان هذا الاجتماع من أهم الاجتماعات العامة التي عقدت في «الهند» باعتبار عدد الجماعات التي خرجت من الاجتماع، وضخامة عدد

(١) الشيخ محب الله التركي، أحد الصالحين من «تركيا»، وكان قد انخرط في سلك جماعة التبليغ، وقام بجولات عديدة، وقد ساعد الشيخ عمر ميتا في ترجمة معاني القرآن الكريم بطلب من رابطة العالم الإسلامي تحت إشراف الأستاذ الحاج راشد.

المشاركين في الاجتماع، وتأثير الاجتماع الديني في المنطقة بصفة خاصة وفي «الهند» بصفة عامة.

وكان من تأثير هذا الاجتماع أن وصلت إلى «الهند» جماعة من العرب وقامت بجولة في مختلف أنحاء البلاد مع عدد من كبار الدعاة من «مركز نظام الدين»، وانضم إلى هذه الحركة عدد من الدعاة من «سيلان» و «بهوفال» و «كلكتا» و «مجرهات» وبلغ عددهم أكثر من مئة وخمسين.

اجتماع «سيكري»:

وصل الشيخ محمد يوسف والشيخ إنعام الحسن إلى «سهارنفور» في ١٨/ جمادى الآخرة - ١٩/ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٥٩م، وكان معهما اثنان من الإخوة العرب الذين خرجوا في سبيل الدعوة ووصلوا إلى «الهند»، وتوجه الجميع إلى «سيكري» لحضور الاجتماع، ووصل الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي أيضاً من «سهارنفور» للاشتراك فيه، وبعد انتهاء الاجتماع سافر الشيخ محمد يوسف والشيخ إنعام الحسن إلى «كيرانه» والمناطق المجاورة للاشتراك في الاجتماعات المنطقية.

اجتماع «لكهنؤ»:

كانت أول زيارة للشيخ محمد يوسف «لكهنؤ» في عام ١٩٤٦م، ثم تكررت هذه الزيارات لحضور اجتماعات عقدت في المناطق المجاورة لـ «لكهنؤ»، فزارها في عام ١٩٤٧م وعام ١٩٥١م وعام ١٩٥٢م، ثم زارها في عام ١٩٥٧م بمناسبة انعقاد اجتماع عام.

وكان الاجتماع الذي عقد في سنة ١٩٦٠م اجتماعاً خاصاً باعتبار أنه عقد حسب شروط الشيخ محمد يوسف، فاشترك في هذا الاجتماع باهتمام بالغ، وأشرف على نظامه إشرافاً دقيقاً، واستمر هذا الاجتماع ثلاثة أيام من ٢٣ - ٢٥ شعبان ١٣٧٩هـ - ٢١ - ٢٣ فبراير/ شباط ١٩٦١م. وكان من ميزة هذا الاجتماع أنه عقد في الساحة الفسيحة لندوة العلماء، وكان المسجد الجامع للندوة مقر الجماعات، كما نزلت جماعات الخواص في غرف المدرسة، فكان هذا الاجتماع أكبر اجتماع في هذه

المنطقة، اشتركت فيه جماعات من داخل «الهند» وخارجها، وكان من المشتركين عدد من الدعاة الذين وصلوا من «بريطانيا»، وعقدت اجتماعات للخواص من العلماء ورجال الأعمال، وأساتذة الجامعات والموظفين، وسبقت الاجتماع العام اجتماعات تحضيرية، فتم بذلك تعبئة الرأي العام، فضائق ساحة المدرسة بما رحبت، وتغير الجو في المدينة بكثرة غدوات وروحان الجماعات، وكان يبدو حي الجامعة كأنه مدينة عامرة مصغرة، فيها خيام، وأسواق، ودوت في الفضاء خطب الشيخ محمد يوسف الرنانة المجلجلة التي هزت النفوس، وخلبت العقول.

وكان من مزايا هذا الاجتماع أن بعض رجال المخابرات لما سمعوا عن هذه الحركة المنتشرة في المدينة، وصلوا إلى محل الاجتماع للاستطلاع، والتعرف على ما يجري في هذا التجمع الكبير للمسلمين خوفاً من أن تدبر مؤامرة سياسية، فتعجبوا وثاروا لسماع خطب الشيخ، ونظام الاجتماع، ولم يستطيعوا أن يسجلوا شيئاً وعادوا خائبين، ولما سألهم أحد من كان له صلة بهم ماذا سجلتم؟ قالوا: ماذا نكتب؟ لم نسمع كلمة عن هذه الدنيا والحياة فيها إلاّ الخير والدعوة إلى العمل الصالح، وأكثر ما جرى في الاجتماع كان يتصل بالحياة الآخرة، والسماء والملوكوت، والجنة والنار، فماذا نسجل؟

وكان هذا الاجتماع أكثر نجاحاً وتأثيراً من الاجتماعات الأخرى، ومهد هذا الاجتماع الطريق، وفتح أبواباً لتوسيع مجال العمل الدعوي في «لكهنؤ» والمدن المجاورة، وخلق جواً دينياً عاماً، ووثق صلة الناس بهذا العمل، وتغير جوّ السخرية بالدين، والاستخفاف بالدعوة الذي كان يسود قبل ذلك إلى حد كبير، وسكت المعارضون للدين.

اجتماعات متعاقبة:

كان الشيخ محمد يوسف متواصل السفر، وكان لا يجد فرصة للاستراحة، ولا يمكث في بيته، كان يواصل الرحلات الدعوية، ويوصل الكلام في الاجتماعات واللقاءات، كان ذلك همه الوحيد وشغله الشاغل. غادر الشيخ «دلهي» في ٩/ ذي القعدة ١٣٧٩هـ - ٦/ مايو/ أيار ١٩٦٠م يوم الجمعة إلى «حيدرآباد»، وتحدث في

اجتماعات متعددة في «حيدرآباد»، وعاد إلى «دلهي» في ١٦/ ذي القعدة، ثم توجه إلى «بهوفال»، ومن «بهوفال» إلى «سرونج»، وحضر عدة اجتماعات، وعاد إلى «دلهي» في ٢٠/ ذي القعدة — ١٧/ مايو/ أيار، وسافر إلى «سهارنفور» في ٢٤/ ذي القعدة، وبعد يوم واحد عاد إلى «دلهي».

اجتماع «مظفر نجر» و «جهنجان»:

كان من عادة الشيخ محمد يوسف أنه كان قبل سفره إلى «باكستان» يحضر اجتماعات كبرى في «الهند»، وقد تقرر سفره في شهر محرم عام ١٣٨٠هـ فاشترك في اجتماع «مظفر نجر» و «جهنجان»، وكان ذلك في فصل الأمطار، وكانت الأمطار الغزيرة تنزل باستمرار.

سافر الشيخ إلى «سهارنفور» عن طريق «كاندهله» في ١٩/ محرم ١٣٨٠هـ ١٥/ يوليو/ تموز ١٩٦٠م يوم الجمعة، وكان من المقرر أن يعقد الاجتماع في «مظفر نجر» يوم السبت، واشترك الشيخ في الاجتماع رغم الأمطار الغزيرة التي كانت تعم المنطقة كلها، وقد سدت الطرق، وصارت مغمورة بالمياه، ويدل على ثبات الشيخ وحمته وروحه المعنوية العالية، أنه علم من رجل من «مظفر نجر» أن الأمطار الغزيرة حالت دون اتخاذ أي إجراءات لعقد الاجتماع، ولا تزال الطرق مغمورة، لكنه عزم على السفر، واثقاً بالله، ووصل إلى «مظفر نجر» وسط الأمطار، وخطب والمطر ينزل، وفي الصباح من اليوم التالي توجه إلى «جهنجان»، وكانت الأمطار هناك أكثر غزارة، وعنفاً، وبدأ الاجتماع، والسما تمطر، فخاف الناس وأرادوا الانصراف، فزجرهم الشيخ قائلاً: لستم من ورق، تخافون المطر، وأنتم في سبيل الله، فجلس الناس، واشتد المطر، وازداد الشيخ تحمساً وقوة، وفاضت عاطفته، وتَفَنَّتْ قريحته، والناس جالسون، لا يعبأون بالماء، وابتل الشيخ كلياً، وحاول رجل من الحاضرين لوقيته من المطر أن يرفع المظلة، فزجره الشيخ بعنف، وقال له: خذ مكانك واتركني، وواصل كلامه في المطر ساعتين، ثم عاد إلى دار الضيافة إلا أن المطر والابتلال بالماء أحدث ألماً شديداً في ظهره، وعاد الشيخ يوم الثلاثاء إلى «نظام الدين» عن طريق «كاندهله».

إضراب الطلاب في دار العلوم ديوبند ونشاط الجماعة :

حدثت قلاقل في دار العلوم «ديوبند» في صفر ١٣٨٠هـ، وقام الطلاب بإضراب تأجل من أجله اجتماع مجلس الشورى الذي كان من المقرر أن يعقد في ١٣ - ١٤ من نفس الشهر، وتدهورت الأوضاع واشتد سخط الطلاب، فتقرر أن تعقد اجتماعات للدعوة لتهدئة الأعصاب، وإعادة الطلبة إلى النظام ببث الوعي الديني فيهم، فكان لهذه الاجتماعات تأثير طيب في نفوس الطلبة، وصفا الجو إلى حد كبير.

يقول الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي :

«وصلت جماعة تتكون من ٢٢ شخصاً، كان منهم أفريقيان وججراتيان ومدراسيون بقيادة الشيخ محمد موسى السورتي، وكان يسود الهياج والشغب في دار العلوم «ديوبند»، فدعا الشيخ محمد موسى فور وصوله جميع أصحابه إلى أن يؤدوا صلاة الحاجة بخشوع تام وتضرع إلى الله، ثم التقى أعضاء هذه الجماعة بالطلبة فرادى وجماعات لإزالة سوء التفاهم، وتقرر أن يعقد اجتماع عام لإصلاح الظروف، وأقامت هذه الجماعة إلى ٢٩/ صفر في «ديوبند»، وعادت برسالة الشيخ محمد طيب مدير دار العلوم «ديوبند» إلى الشيخ محمد يوسف يقول فيها: «من المقرر أن ينعقد اجتماع لمجلس الشورى لدار العلوم ديوبند في ٣ - ٤ أكتوبر/ تشرين الأول، وسأمكن في دار العلوم إلى آخر هذا الشهر، فأرجو أن يحدد موعد الاجتماع في هذه الفترة».

وقد رافق هذه الجماعة وفد من دار العلوم «ديوبند» لتحديد موعد الاجتماع بعد التباحث مع الشيخ محمد يوسف، وردّ الشيخ محمد يوسف على هذه الرسالة بأن عقد اجتماع كبير في دار العلوم «ديوبند» بدون استعداد سابق لا يليق بمكانتها، ومن الأفضل أن تعقد اجتماعات صغرى في ضواحي «ديوبند»، والقرى المجاورة لها، وعندما يعد الجو، وتستعد النفوس وتقبل على هذا العمل الدعوي، لعقد اجتماع كبير في «ديوبند» يسهم فيه الناس إسهاماً كبيراً، ويتعاونوا مع الاجتماع تعاوناً واسعاً، وفي الأوضاع الحاضرة أخشى أن الاجتماع إذا عقد يقوم بعض الناس لمعارضته، فقبل معظم الناس هذا الرأي إلا أن بعضاً منهم أصروا على عقد اجتماع فوري، ولكنهم لم

يكونوا من المخلصين لدار العلوم، فلم يقبل الشيخ محمد يوسف رأيهم، فعقد حسب رأي الشيخ محمد يوسف الاجتماع الأول في ٢٥/ربيع الأول ١٣٨٠هـ على بعد خمسة أميال من «ديوبند»، اشترك فيه الشيخ محمد طيب نفسه، ثم عقدت اجتماعات متتالية، وعقد الاجتماع الثاني في غرة ربيع الثاني ١٣٨٠هـ - ٢/أكتوبر/تشرين الأول في «كتيره» بالقرب من «ديوبند»، ولم يستطع الشيخ محمد يوسف الاشتراك فيه، إلا أن الشيخ عبيد الله البلياوي اشترك فيه، وأقام الشيخ محمد يوسف في «سهارنفور»، ثم انعقد اجتماع آخر في ١٤/جمادى الأولى ١٣٨٠هـ في «تلهري» وهي منطقة مجاورة لـ «ديوبند»^(١).

اجتماع «بروت»:

«بروت» منطقة عامرة تقع في مديرية «ميرته»، انعقد فيها اجتماع عظيم في ١٧/ديسمبر/كانون الأول ١٩٦٠م - ٢٧/جمادى الآخرة ١٣٨٠هـ اشتركت فيه جماعات متعددة من «سهارنفور» و «دلهي»، والمناطق المجاورة، واشترك فيه الشيخ محمد يوسف، وألقى خطاباً فيه، ثم سافر إلى «كاندهله» في غرة رجب ١٣٨٠هـ لتعزية الشيخ لطف الرحمن الذي توفي في ٢١/جمادى الآخرة، ثم توجه إلى «سهارنفور» و «رائيپور»، لزيارة الشيخ محمد زكريا والشيخ عبد القادر الرائيپوري وعاد إلى «دلهي».

اجتماع «داسنه» والرحلة إلى «سهارنفور» و «رائيپور»:

وصل الشيخ محمد يوسف في ٢٠/شعبان ١٣٨٠ - ٧/فبراير/شباط ١٩٦١م يوم الثلاثاء إلى «سهارنفور» بعد الاشتراك في اجتماع «داسنه»، وكان اجتماع «داسنه» اجتماعاً اشتركت فيه جماعات الدعوة في ولايات «الهند» المختلفة، والمدن الهندية الكبرى، وخرجت من الاجتماع عدة جماعات للدعوة في مناطق مختلفة في «الهند»، والتقى بالشيخ قريشي الذي قدم من «كلكتا»، وكان من أبرز العاملين في الدعوة في «بنغال»، ثم عاد الشيخ محمد يوسف إلى «دلهي» يوم الخميس مساءً، ورجع إلى

(١) «مذكرة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي».

«سهارنفور» في ٢٦/شعبان يوم الاثنين ورافق الشيخ عبد القادر الرائيپوري إلى «رائيپور»، وفي نفس الأثناء وصل الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي إلى «نظام الدين» في غياب الشيخ محمد يوسف، عائداً من حيدرآباد، ولما علم أن الشيخ محمد يوسف في «رائيپور»، توجه إلى «رائيپور»، وقضى الشيخ محمد يوسف رمضان تلك السنة في «نظام الدين» بـ «دلهي» بعد عودته من «رائيپور»، وصلى بالناس التراويح وختم القرآن الكريم في صلاة التراويح.

اجتماع «جنگوه»:

كان من عادة الشيخ محمد يوسف أن يزور «جنگوه» لمجرد الزيارة ولقاء الإخوة والعلماء، ولكنه زارها في ٢٧/رجب ١٣٨١هـ / ٥/يناير/كانون الثاني ١٩٦٢م يوم الجمعة لحضور الاجتماع العام، فوصل أولاً إلى «سهارنفور» وتوجه منها إلى «رائيپور» مع الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، ومن هناك يمم إلى «جنگوه» يوم الأحد بعد الظهر، وتحدث في عدة اجتماعات منطقية، وعقدت في الأماكن الواقعة في الطريق إلى «جنگوه»، ثم زار «ديوبند»، و «سهارنفور»، و «كاندهله»، في طريق عودته إلى «دلهي».

اجتماع «چهاپي»:

عقد في فبراير/شباط ١٩٦٢م اجتماع عظيم في «چهاپي»، ويمتاز هذا الاجتماع بكثرة الوافدين، وقد تدفق إليه الدعاة من مختلف أنحاء ولاية «غجرات» وغيرها، وكان الاجتماع بمثابة موسم: ﴿يَأْتِيكَ مِنْ كُلِّ فَيْحٍ عَمِيقٍ﴾، عقد هذا الاجتماع في دار العلوم بـ «چهاپي»، ويقدر الحاضرون في هذا الاجتماع عدد الذين اشتركوا فيه بأكثر من خمسين ألف رجل، وكان من مزايا هذا الاجتماع أن عدداً كبيراً من العلماء والمشايخ والأساتذة اشتركوا في هذا الاجتماع كما اشترك فيه عدد لا بأس به من رجال الأعمال والتجارة، والموظفين الرسميين، واشترك فيه بالإضافة إلى هذا العدد الهائل من المسلمين أعداد غفيرة من غير المسلمين، ويحكي أحد الحاضرين في هذا الاجتماع انطباعات غير المسلمين الذين اشتركوا في هذا الاجتماع بالألفاظ الآتية:

«دهش الناس — مسلمين وغير المسلمين — بهذا الجمع الغفير، والنظام الأنيق والجرؤ المثير، والتحمُّس الشديد، فقال بعضهم: لم نشهد اجتماعاً ضخماً مثل هذا الاجتماع، ولعلنا لا نشهد في المستقبل أيضاً، وتعجب الناس بما شاهدوه من مناظر الأخوة والمحبة والتسامح والتعاهد، والانضباط، ورعاية النظام في الاجتماع، وكانت العيون ندية، والقلوب وجلة، وكان تأثير الشيخ محمد يوسف غامراً، يؤثر في كل شخص كان له اتصال به، وكانت كلماته تعبر عن حبه وشغفه، وإيمانه، وبقينه، وتوقده، واحتراق قلبه للدعوة، فأثرت خطبه في قلب كل مستمع، وغيرت مشاعره وأحاسيسه. وخرجت من هذا الاجتماع جماعات كثيرة إلى مختلف أنحاء البلاد وخارجها، ويقدر أن عددها بلغ أكثر من مائة وخمسين جماعة، اثنتي عشرة جماعة لخارج البلاد، كانت منها «بريطانيا»، و«مراكش»، و«مصر»، و«سوريا»، و«العراق»، و«ماليزيا»، وشرقي «أفريقيا»، و«تركيا»، وتوجهت جماعة من هذه الجماعات إلى «الحجاز» للدعاء.

رحلة إلى «رائيپور»:

قضى الشيخ الرائيپوري رمضان عام ١٣٨١هـ في «رائيپور»، ولذلك وصل المسترشدون له من أنحاء بعيدة للهند لقضاء رمضان أو بعض أيام شهر رمضان في «رائيپور»، ولم يستطع الشيخ محمد يوسف لأسباب صحية أن يصلّي بالناس التراويح في هذا العام، وقضى الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي النصف الأول من شهر رمضان في «سهارنفور» ثم سافر إلى «رائيپور» في السابع عشر منه، ورافقه الشيخ محمد يوسف وعاد إلى «دلهي» بعد يومين، وبعد العيد سافر مرة أخرى إلى «سهارنفور» في الرابع من شهر شوال، ومن «سهارنفور» سافر إلى «رائيپور» مع الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، وعقد اجتماع في «دهاما» اشترك فيه الشيخ محمد يوسف والشيخ محمد زكريا الكاندهلوي.

اجتماع «بستي»:

انعقد الاجتماع الثاني في «بستي» في ٢٢ — ٢٤ ذي الحجة ١٣٨١هـ — ٢٧ — ٢٩ / مايو / أيار ١٩٦٢م، اشترك فيه الشيخ محمد يوسف مع الشيخ محمد إنعام

الحسن مازاً بـ «الكنهز»، وكان اجتماع آخر عقد في «بستي» في السابق، وقد اشترك الشيخ محمد يوسف في ثلاثة اجتماعات عقدت في «بستي»، وكانت هذه الاجتماعات كلها موفقة للغاية، وخرجت منها عدة جماعات.

اجتماع «ميرت»:

رغم انحراف صحة الشيخ محمد يوسف، وإصابته بعدة أمراض كانت تمنعه من الجلوس طويلاً، لكنه كان بعاطفته واهتمامه الزائد بعمل الدعوة يتغلب على هذه الأمراض، ورغم آلامه يشترك في جلسات الصباح والمساء، ويلقي خطابه كالعادة، ولا يبالي بما يلاقي في ذلك من تعب وإرهاق، وفي هذه الظروف الصحية غير الطبيعية عقد اجتماع في ١٢ - ١٤/محرم، الموافق ١٦ - ١٨/يونيو/حزيران ١٩٦٢م، فاشترك فيه الشيخ محمد يوسف، وتفاقم مرضه، واشتد ألمه، لكنه لم يأل جهداً في الاجتماع، ولم يترك أي فرصة للكلام، والتوجيه للجماعات التي تخرج من هذا الاجتماع، فاضطر إلى تأجيل العودة إلى «دلهي»، وأقام في «مظفر نجر» للعلاج، وشفاه الله من ذلك المرض الذي كان يعاني منه.

اجتماع «جهنجان»:

عقد اجتماع في «جهنجان» في ٢٦/محرم ١٣٨٢هـ، وكانت مواعيد هذا الاجتماع قد حددت قبل انعقاد الاجتماع بزمان، وكان الشيخ قد وعد فعلاً بالاشتراك فيه، ولكن مرضه الذي أصابه في «ميرت» واضطر إلى معالجته في «مظفر نجر» قد طال، وأصرَّ الشيخ محمد يوسف على الاشتراك في ذلك الاجتماع، وقال للطبيب: ... لقد طال العلاج، وقد كنت قلت لي: إنك سوف لن تمنعني من الاشتراك في الاجتماع، وينتهي العلاج قبل ذلك، لكن بعض المخلصين كتبوا إلى الشيخ محمد زكريا ليمنعه من السفر في مثل هذه الحالة، فمنعه، ولم يشترك الشيخ محمد يوسف في اجتماع «جهنجان».

اجتماع العرب في «سهارنفور»:

بدأت جماعات العرب تأتي إلى «الهند»، وتقوم بال جولات الدعوية في مناطقها المختلفة منذ زمن بعيد، وذلك بفضل جهود الجماعات الهندية التي كانت تعمل في

البلاد العربية، فجاءت جماعة من هذا القبيل، وكان من بين أعضاء هذه الجماعة الشيخ محمد يوسف الحلبي، فوصلت هذه الجماعة إلى «نظام الدين»، وقضت بعض الأيام في المركز، ثم سافرت إلى «ديوبند»، ورافقها من «نظام الدين» الشيخ محمد عمر البالنپوري، وكانت هذه الجماعة مكونة من خمسة وعشرين عضواً، وبلغ عدد أعضائها لدى وصولها إلى «سهارنفور» من «ديوبند» ١٢٥ شخصاً، ثم ارتفع هذا العدد خلال العمل في «سهارنفور» إلى ٢٥٠ شخصاً، وكانت هذه الجماعة في الواقع مدرسة متجولة، ومخيماً متنقلاً، يجري في السفر والإقامة: الذكر، والتعليم، والمناقشة، والدعوة، والعمل.

نزلت هذه الجماعة في دار الطلبة الحديثة، وعقد اجتماع ضخيم، ألقى فيه الشيخ محمد يوسف الحلبي كلمة باللغة العربية، ونقل هذه الكلمة إلى الأردية الشيخ محمد عمر البالنپوري، وكانت هذه الجماعة تشتمل على بعض الإخوة النجديين، فألقوا كلماتهم بالعربية، ونقلت كلماتهم إلى الأردية، وانضم إلى هذه الجماعة الشيخ محمد يوسف، والشيخ إنعام الحسن في ٢٨/٢ صفر في «سهارنفور» وغادرت هذه الجماعة من «سهارنفور» إلى «لكهنؤ»، ووصلت إلى ندوة العلماء، وعقد اجتماع كبير في مسجد ندوة العلماء، وتحدث فيه العلماء في هذه الجماعة، وكانت كلمة أحد علماء نجد مؤثرة للغاية.

الجماعة الثانية للعرب:

وصلت جماعة أخرى للعرب إلى «نظام الدين» في ٢٣/ربيع الأول ١٣٨٢هـ الموافق ٢٧/أغسطس/آب ١٩٦٢م، وكان فيها الشيخ العلامة عبد الفتاح أبو غدة، أحد كبار علماء الشام، ووصلت هذه الجماعة إلى «سهارنفور» بعد إقامة قصيرة في «ديوبند».

كانت جماعة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة تريد أن تقيم في «سهارنفور» للدعوة، وكان الشيخ يقصد أن يحضر الدروس في مدرسة مظاهر العلوم، لكن الشيخ ضياء الدين قد أصرَّ على أن تسافر الجماعة إلى «كلكتا» مباشرة؛ لأن فرص العمل في تلك المدينة أوسع وأهم من فرص العمل في «سهارنفور»، وكانت هذه الجماعة قد

وصلت إلى «سهارنفور» يوم الخميس، وكان قد أعد لها نظام ليوم الخميس والجمعة، فقضت هذين اليومين بانهماك بالغ وجهد دائم، وعناية فائقة، وألقى الشيخ عبد الفتاح أبو غدة خطبته في مركز التبليغ بـ «سهارنفور» ليلة الجمعة، وفي الجمعة صباحاً عقد اجتماع للخواص دام من الساعة الثامنة إلى الساعة العاشرة صباحاً، ومن الساعة العاشرة إلى الثانية عشر قام الشيخ عبد الفتاح أبو غدة بزيارة مكتبة المدرسة العامة، وبعد صلاة الجمعة عقد اجتماع كبير في المسجد الجامع، ورجع من الاجتماع في الساعة الرابعة، وتناول الغداء، وبعد صلاة العصر قام بزيارة المكتبة مرة أخرى، وبعد صلاة المغرب تحدث في اجتماع آخر عقد في أحد المساجد الكبرى في المدينة، وسافرت هذه الجماعة يوم السبت عن طريق «مرادآباد»، ونزلت في مركز الدعوة والتبليغ في «لكهنؤ»، وخلال إقامة هذه الجماعة في «لكهنؤ» عقدت عدة اجتماعات كان أكبرها اجتماع ندوة العلماء، تحدث فيه الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، كما تحدث في مسجد حَيّ «لال باغ»، وخلال وجوده في «لكهنؤ» زار الشيخ «فرنجي محل» للاطلاع على ذخائر الكتب في المكتبات الشخصية.

اجتماع «ماليجاون»:

تعد «ماليجاون» من المناطق العامرة في مديرية «ناسك»، وتعرف بالنسبة العالية للمسلمين الذين يشتغلون بأعمال التجارة، ويملكون مصانع ومعامل كثيرة، ولهم دور ملحوظ في صناعة القماش، ومعظم سكان هذه المدن ينتمون إلى ولاية «أتراباديش» وخاصةً مدينة «أعظم جراه»، و«فيض آباد»، حيث انتقل أجدادهم في عام ١٨٥٧م أو بعده للبحث عن فرص العمل، وإمكانيات الرزق والتجارة. وتوجد في هذه المناطق مدارس وأهل العلم، ويسهم هؤلاء التجار والصناعون في الأعمال الخيرية، ومساندة المشاريع الإسلامية بسخاء، ويتعاونون فيها تعاوناً كبيراً، ويسهمون في نشاطات الدعوة أيضاً إسهاماً بارزاً، ومن بين الذين كان لهم اتصال وثيق بالجماعة الأستاذ عبد الرحمن، كانت جماعات التبليغ تختلف إلى هذه المنطقة، وتقوم فيها بجولات دعوية منذ مدة، ولكن لم ينعقد فيها اجتماع عام يشترك فيه الشيخ محمد يوسف ورفقته.

تقرر عقد اجتماع عام في ٢١ - ٢٣ / أكتوبر / تشرين الأول ١٩٦٢م
٢١ - ٢٣ / جمادى الأولى ١٣٨٢هـ، ووصل الشيخ محمد يوسف للاشتراك في هذا
الاجتماع في ٢٠ / أكتوبر / تشرين الأول مساءً، واشترك فيه جمع غفير من الناس،
وخرجت منه جماعات كثيرة، وبعد انتهاء الاجتماع عاد الشيخ محمد يوسف إلى
«دلهي» في ٢٥ / أكتوبر / تشرين الأول يوم الخميس قبل الظهر.

جولة في جنوب الهند:

وكان الشيخ محمد يوسف قام بجولة «لدندي جل» و «حيدرآباد» قبل ذلك،
وقد سبق ذكر تلك الجولة، وهذه هي الجولة الثانية للجنوب. بدأت هذه الجولة في
١٥ / ذي الحجة ١٣٨٢هـ الموافق ١٠ / مايو / أيار ١٩٦٣م وزار فيها الشيخ محمد
يوسف الجنوب بكامله، وكان لـ «حيدرآباد»، و «مالابار»، و «مدراس»، النصيب
الأوفر في هذه الجولة، وعقدت اجتماعات في مدن كثيرة وشكلت جماعات، وكان
من أهم الاجتماعات التي اشترك فيها عدد أكبر من المسلمين اجتماع عقد في
«حيدرآباد»، عقد هذا الاجتماع في «حيدرآباد» في ١١ - ١٤ / مايو / أيار، وسبق هذا
الاجتماع نشاطات مكثفة في المنطقة لإنجاح هذا الاجتماع، ولاشتراك الشيخ محمد
يوسف فيه قام العاملون في المنطقة بجهود مكثفة لجمع عدد أكبر من الناس، فقاموا
بتمشيط المنطقة بالجولات واللقاءات الشخصية والاجتماعات الفرعية، وكان من أهم
الذين سعوا لنجاح هذا الاجتماع، واهتموا به الدكتور وحيد الزمان، ويبدو اهتمامه
من رسالة كتبها إلى الشيخ عبيد الله البلياي:

«الحمد لله أن الاجتماع المقرر عقده في «حيدرآباد» في ١١ / مايو / أيار يستلقت
اهتمام الناس، وقد خرجت جماعات كثيرة على المناطق المجاورة لتشكيل الجماعات
لحضور هذا الاجتماع، وتعبئة الناس له، ويبذل العاملون ما في وسعهم من مساعٍ
لجعل هذا الاجتماع موفقاً إلى أبعد حد، وسينعقد هذا الاجتماع في «باركس ميسرم»
وهي منطقة العرب، وستقيمون أنتم والشيخ محمد يوسف في محل الاجتماع، وإننا
نرجو منكم دعاءً خاصاً لنجاح هذا الاجتماع. وبوصول عدد من العاملين القداماء من
«نظام الدين» قبل موعد الاجتماع للأعمال التمهيدية تعقد على الاجتماع آمال جسيمة».

ونجح هذا الاجتماع فعلاً نجاحاً بارزاً، أولاً باعتبار حضور عدد كبير من الناس فيه، باعتبار خروج جماعات كثيرة منه، ويجدر بالذكر ما بذله الشيخ جميل الحيدرآبادي من جهود مُضْنِيَّة في إنجاح هذا الاجتماع.

عاد الشيخ محمد يوسف ورفقته من جولة الجنوب في ٨/ محرم ١٣٨٣ هـ يوم السبت، وتوجه إلى «سهارنפור»، وعاد إلى «دلهي» بعد أن قام فيه يوماً.

اجتماع رجال الأعمال:

كان الشيخ محمد يوسف حريصاً على نشر الدعوة في رجال الأعمال والتجارة، كما كان حريصاً على نشرها في رجال العلم ورجال الطبقات الأخرى، وكان يشغله فكر تعميم الدعوة ونشرها إلى جميع طبقات الأمة العامة منها والخاصة، وكان يدعو رجال التجارة والعمل أن يفرغوا أوقاتهم للدين كما يفرغون أوقاتهم لأعمالهم التجارية والصناعية، وأن ينفقوا في سبيله من مالهم وطاقاتهم مثل ما ينفقونه في أشغالهم الدنيوية، فكان كلما انعقد اجتماع عام يجمع رجال الأعمال في حلقة خاصة، ويحثهم على نشر هذا العمل في طبقتهم، وحيث أن التجار يقومون برحلات إلى الدول الأجنبية لأغراض تجارية، يسهل عليهم السفر في سبيل الله، فإذا خصصوا بعض أوقاتهم خلال رحلاتهم التجارية لخدمة الدين، وتمرنوا عليه بالخروج في سبيل الله وتعلموا الدين، وعرفوا منهج الدعوة، وأنشأوا فيهم الصلاحية للعمل الدعوي، فإنهم سيكونون دعاة في أسفارهم وإقامتهم، وسيكونون ناقلين لهذا المنهج الدعوي إلى البلدان التي يزورونها للتجارة، وإلى الأوساط التي يختلطون بها، ولا تقف في هذا السبيل حواجز اللغة، ولا الوسائل ولا الثقافة، وسيكونون خير ممثل لهذه الحركة.

لتحقيق هذا الغرض دعا الشيخ محمد يوسف إلى اجتماع عام لرجال التجارة في «نظام الدين» بدلهي، وانهقد هذا الاجتماع في ٥ - ٦/ ربيع الأول ١٣٨٣ هـ الموافق ٢٧ - ٢٨/ يوليو/ تموز ١٩٦٣ م في «بنية چوست كهмба» (٦٤ أسطوانة) ولم يشهد قبل ذلك اجتماع ناجح موفق كما كان هذا الاجتماع، ويصف الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي هذا الاجتماع بالكلمات الآتية:

«كان الشيخ محمد يوسف يفكر في عقد اجتماع للتجار في «نظام الدين» منذ مدة طويلة، واستشار عدة مرات في هذا الصدد، وكان يريد بذلك إقناع التجار بأن إنفاق المال لا يكفيهم، بل يجب عليهم أن يعطوا أوقاتهم كذلك بالإضافة إلى إنفاق المال، وقد جرت محادثات مع عدد من التجار، وقد رزق الله سبحانه وتعالى الشيخ محمد يوسف قوة عظيمة، فأصدر تعليمات في أوائل ربيع الأول ١٣٨٣ هـ بل في أواخر شهر صفر، وكانت تعليماته مؤيدة من الله تتجلى فيها ثقته وإيمانه، فكتب رسالة إلى الحاج يعقوب في «بومبائي»، وطلب منه أن يعد جميع التجار في «بومبائي» لهذا العمل، ويأتي بمن يستطيع منهم للاشتراك في هذا الاجتماع، كذلك كتب رسائل دعوية إلى التجار في المناطق الأخرى أيضاً، وشاء الله تعالى أن وصل إلى «نظام الدين» عدد كبير من التجار ممن لم يكن في الحسبان أن لهم صلة بهذا العمل، بتأثير رسالة الشيخ محمد يوسف، وقد قال لي أحد التجار: إني كنت أفكر في زيارة «دلهي» منذ عشر سنوات، ولكن لم أكن أجد وقتاً لذلك، ولكن رسالة الشيخ محمد يوسف حركتني، وحملتني على أن أفرغ وقتي له، وأعرضت عن المسؤوليات التي كانت تشغلني، وصرفت ذهني عنها.

واشترك في هذا الاجتماع رجال الأعمال من «بومبائي»، و «مدراس»، و «كلكتا»، و «مالياجون»، و «حيدرآباد»، و «بهوفال» ومدن أخرى، حتى من «الباكستان» وبلغ عددهم أكثر من ألفين وخمسمائة، وانهقد هذا الاجتماع في ٥/ ربيع الأول ١٣٨٣، الموافق ٢٧/ يوليو/ تموز ١٩٦٣ م واستمر يومين، واكتظت بناية «٦٤ أسطوانة»، وقد قام سكان «دلهي» بتنظيم الاجتماع وتأمين وسائل راحة الضيوف خير قيام، وتحملوا جميع نفقات هذا الاجتماع، وأنفقوا فيه بسخاء، فجزاهم الله خير الجزاء، وأنتم تعرفون أن الشيخ محمد يوسف لانشغاله الكامل بعمل الدعوة، وهمه البالغ بهذا الموضوع لا يولي موضوع الراحة والغذاء أي اهتمام، ولا يخطر بباله هذه المسألة، ولكن سكان «دلهي» لم يقصروا فيه، بل بالغوا فيه، وقد أبدى كثير من رجال الأعمال والتجارة إعجابهم وتقديرهم للنظام ووسائل الراحة التي اتخذت خلال أيام الاجتماع، وألقى الشيخ محمد يوسف خطباً مثيرة مهيجة أمام

التجار، حملتهم على إعادة الفكر في منهج حياتهم ومستقبلهم، وجعلتهم يشعرون بأنهم أضاعوا عمرهم.

وأصدر الشيخ محمد يوسف أمره بأن لا يعود هؤلاء الضيوف إلى بيوتهم بدون زيارة «سهارنفور» و «ديوبند»، ولذلك أجبرت أنا على استقبال جمع غفير من رجال التجارة والاستفسار عن أحوالهم كعادتي، وكان قد دهش كل شخص لما رأى في هذا الاجتماع من النظام والتأثير، ولما سمع فيه من الخطب والكلمات، وكان يقول: أنا حائر ماذا أفعل؟ وما لا أفعل؟ ووصل الشيخ جميل أحمد الحيدرآبادي إلى «سهارنفور» بعد انتهاء هذا الاجتماع في ١٠/ربيع الأول، وأقام عدة أيام، وكان يحكي مناظر تأثير ذلك الاجتماع بلطف بالغ.

جماعة العرب:

خلفت الجماعات التي كانت تزور البلاد العربية وتعمل فيها تأثيراً طيباً، ودفعت الناس إلى الخروج في سبيل الله، وأحدثت الذوق للدعوة في قلوب إخواننا العرب، وكان الإقبال على هذه الدعوة يزداد ويتوسع في الدوائر العربية، وبدأت جماعات العرب تخرج إلى البلدان الأخرى، وكانت تشتمل هذه الجماعات على العلماء والتجار والموظفين، وتصل إلى «مركز نظام الدين»، ثم تتوجه إلى المناطق الأخرى للهند، وكان من هذه الجماعات جماعة تتكون من الشيخ جمال جودت والشيخ سعيد الطنطاوي، شقيق الأديب الإسلامي الكبير علي الطنطاوي، وكان معهما علماء آخرون من «سوريا»، وكذلك زار «نظام الدين» العاملون في مجال الدعوة من «مكة المكرمة»، وبعد إقامة قصيرة في «نظام الدين» سافرت هذه الجماعة إلى «عليجراه» في ٢٠/ربيع الأول ١٣٨٣هـ الموافق ١١/أغسطس/آب ١٩٦٣م، ثم وصلت إلى «لكهنؤ» وتحدث المشتركون فيها في مركز التبليغ، وفي اجتماع ضخم عقد في ندوة العلماء، ثم توجهت هذه الجماعة إلى «سهارنفور»، ومن «سهارنفور» سافرت إلى «ديوبند»، وتحدث العلماء في هذه الجماعة في عدة اجتماعات في جميع الأماكن التي زاروها.

اجتماع «نهتور» :

انعقد اجتماع «نهتور» في ٢٥/ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٦١م، واشترك فيه ألوف من الناس، وكان العاملون في مجال الدعوة في تلك المنطقة واصلوا جهودهم قبل الاجتماع بشهور لتعبئة الرأي العام، وإعداد النفوس للخروج في سبيل الله، وأثمرت جهودهم، فكان الاجتماع موفقاً للغاية، اشتركت فيه جماعات متعددة، وخرجت هذه الجماعات للعمل في المناطق الأخرى، وعقدت اجتماعات فرعية لإعداد الجو، واشترك في الاجتماع الشيخ محمد يوسف ورفقته، وتحدث في الجلسة الرئيسية للاجتماع، وألقى فيه الضوء على خلافة الأرض، واليقين والإيمان، والأعمال الصالحة، والمجاهدة والدعوة، والتعليم والتربية، والذكر والصلاة بتفصيل وبأدلة مقنعة.

وفاق هذا الاجتماع على الاجتماعات الأخرى في كثافة عدد الحاضرين، وقيل: إن الحاضرين كانوا إلى حد آخر النظر، كأنه سيل متدفق، وكان الشيخ محمد يوسف في خضم هذا الجمع الحاشد الملتف حوله كأنه علم، ويصف الشيخ نسيم أحمد الفريدي هذا البحر المتلاطم بالألفاظ الآتية:

«كان اجتماع «نهتور» أعظم وأضخم اجتماع عقد في ولاية «أتراباديش»، وكانت زحمة الناس تعرقل السير، وكان يحرص كل شخص على أن يصافح الشيخ محمد يوسف أو يلقي عليه نظرة على الأقل، ووضع المسؤولون عن الاجتماع حراسة عليه بالنظر إلى تهافت الناس عليه، لكن الذين كانوا يتغلبون على هؤلاء الحراس، ويصلون إلى غرفة الشيخ، كانوا قد اقتلعوا عتبة الباب، وعندما كان يخرج الشيخ للاشتراك في الاجتماع كان يحتشد الجمع من الناس كالبحر المتلاطم حوله، فكانوا يعرقلون مسيره، وكان يخشى أن يسقط الضعفاء ويداسوا بالأقدام، وتعذر وصول الشيخ إلى المنصة في الجلسة الأخيرة في الليل، وبعد جهد شاق من أصحابه تمكن من الوصول إليها، وبدأ خطبته بالخطبة المسنونة، ثم قال:

«هل جئتم لزيارتي أم لسماع كلامي والعمل به؟ فإذا كنتم تريدون أن تسمعوا كلامي فاسمعوا، فساد الصمت على الحشد العظيم، وكان فيهم عدد لا بأس به من غير المسلمين أيضاً.

ألقى الشيخ محمد يوسف خطبته في موضوع الأخوة الإنسانية، والمعاملات والأخلاق والمساواة والعدالة، وقال: إن الدين ليس سياسياً، إنما هو عقيدة وسلوك، لا مصلحة فيه ولا محاباة لأحد.

اجتماع «بندوه»:

عقد اجتماع دعوي في «بندوه» (بنغال الغربية) في ٢٧/فبراير/شباط ١٩٦٤م، كان قد نظمه الدعاة من «كلكتا»، واتخذوا له الإجراءات اللازمة، وقاموا بتهيئة الجو في هذه المنطقة بعقد جلسات فرعية، وجولات منطقية، ولقاءات شخصية ليشترك فيه عدد أكبر من الناس، وقبل انعقاد الاجتماع بأيام وصلت جماعة إلى «سهارنفور»، وزارت الشيخ محمد يوسف الذي كان قد وصل إلى «سهارنفور» لبحث إجراءاته لسفر الحج، يكتب الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي عن هذه الجماعة، وهذا الاجتماع:

«وصلت جماعة كبيرة من «كلكتا» في ٢٢/فبراير/شباط ١٩٦٤م إلى «سهارنفور»، لبحث إجراءات الاجتماع الذي كان سيعقد في «بندوه»، وكانت هذه الجماعة تعرف أن الشيخ محمد يوسف يوجد في هذه الأيام في «سهارنفور»، ولكنه كان تأخر في قدومه إلى «سهارنفور» للاشتراك في حفلة زواج ابني العزيز محمد طلحة، وذلك لأنني لم أستطع أن أسافر، فكتبت إليه أن يعرج على «كاندهله» في سفره من «دلهي» إلى «سهارنفور»، وينوب عني في إجراءات زفاف زوجة طلحة، ويأتي بها إلى «سهارنفور»، وكانت هذه الجماعة مستعجلة، فسافرت إلى «كاندهله» مباشرة، ولم تمكث في «سهارنفور»، وعادت مع الشيخ محمد يوسف بعد يوم مع العروس، وكنت قد عرفت على أن لا أشهر زواج طلحة، ولكن دخلت هذه الجماعة بدون قصد في موكب الزواج، وغادرت في المساء، وتقرر أن مواعيد اجتماع «بندوه» ستحدد بعد مرور عيد الألوان للهنادك، لأن هذا العيد عادةً يشير الاضطرابات، وعندما تهدأ الأوضاع يمكن تحديد الموعد بالهاتف، وتوجه الشيخ محمد يوسف والشيخ إنعام الحسن إلى «بهت» للاشتراك في الاجتماع هناك، وبعد الاجتماع عادوا جميعاً إلى «دلهي».

سافر الشيخ محمد يوسف ورفقته إلى «كلكتا» بعد انقضاء عيد الألوان للهندوس في ٢٩/فبراير/شباط ١٩٦٤م، ومن «كلكتا» إلى «بندوه»، وعادوا بعد يومين إلى «دلهي»، ولِدُنُوْ موعِد سفرهم للحج لم يستطيعوا إطالة مدة إقامتهم في «بندوه» وكان سفرنا بالطائرة، وسفر الآخرين كالعزيز هارون بن يوسف والرفقة الآخرين بالباخرة، فسافر الإخوة المسافرون بالباخرة قبلنا في ٢١/مارس/آذار بباخرة «المظفري»، ووصلوا إلى جدة في ٢٨/مارس/آذار، وسافرنا نحن في ٢٩/مارس/آذار.

اجتماع «مراد نجر» و «بِهْت»:

انعقد اجتماع هام في «مراد نجر» في ١٠/ربيع الأول ١٣٨٤هـ، ووصلت جماعة العرب من «الكويت» في ١٢/جمادى الآخرة ١٣٨٤هـ الموافق ٢٢/سبتمبر/أيلول ١٩٦٤م إلى «ديوبند» و «سهارنفور»، وبعد الجولة الدعوية فيهما اشتركت في اجتماع «بِهْت»، وكان من المقرر أن يعقد اجتماع فيها في ٧/نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٦٤م، ولكن الانتخابات عكرت الجو، فرغب سكان المنطقة في تأجيل الاجتماع؛ لأن الجو لم يكن ملائماً له، ولكن الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي والشيخ محمد يوسف أصراً على عقد الاجتماع، فعقد الاجتماع، وكان موفقاً، وحضره عدد كبير من الناس.

اجتماع «كاوي»:

«كاوي» تقع في ولاية «عجرات»، وانعقد فيها اجتماع عظيم للدعوة في رجب ١٣٨٤هـ الموافق نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٦٤م لم يعهد مثله في هذه المنطقة، فقد اشترك فيه ألوف من الناس من المناطق البعيدة، وخرجت من الاجتماع أكثر من مائة جماعة، وكان برنامج الشيخ محمد يوسف حافلاً باللقاءات، والخطب في جلسات متعددة، وحلقات متنوعة وسبق الاجتماع عقد اجتماعات فرعية كثيرة في المناطق المجاورة لإعداد الجو، وتجولت الجماعات فيها، وأقامت اتصالات مع رجال مختلفين، وهبت نفحات الإيمان.

يكتب الأستاذ عيسى بالنفوري عن الاجتماع، فيقول: «استفسر الشيخ محمد يوسف عن اجتماع «كاوي» فقال المنظمون للاجتماع: إن هناك عقبات قانونية، إلا أننا سوف لا نقصر في إعداد الجو، وسنواصل جهودنا لعقد الاجتماع في موعده وإنجاحه.

فقال الشيخ: إذا كانت هناك صعوبات، وعوائق تحول دون عقد الاجتماع، فحلّها صلاة الحاجة، فادعوا الله سبحانه وتعالى، وتضرعوا إليه لحاجاتكم، فإنه هو الموفق، وهو يهدي السبيل، فواظب المسؤولون عن الاجتماع على صلاة الحاجة والدعاء، فشاء الله أن ييسر ويذلل جميع العقبات، ويذلل جميع المعوقات.

غادر الشيخ محمد يوسف والشيخ إنعام الحسن إلى «بهوفال» في ١١/ رجب ١٣٨٤هـ مساءً واشترك هناك في اجتماع، ثم توجه إلى «بروده»، ومن «بروده» إلى «كاوي» وبعد الانتهاء من اجتماع «كاوي» اشترك في اجتماع «بهرج» وفي ختم البخاري في «دابهيل» و «راندهير»، وألقى في جميع هذه المناسبات كلمات مفصلة حول الموضوع، وفضل الدعوة، ودور العلماء في الدعوة، وغادر إلى «دلهي» ٢٦/ نوفمبر/ تشرين الثاني.

الاجتماع الأخير في «مرادآباد»:

ومن المصادفة الغريبة، أن أول اجتماع اشترك فيه الشيخ محمد يوسف بعد وفاة أبيه الشيخ محمد إلياس، كان اجتماع «مرادآباد»، وكان آخر اجتماع اشترك فيه في «الهند» قبل مغادرته إلى «باكستان» حيث توفي إلى رحمة الله، كان اجتماع «مرادآباد»، وكان هذا الاجتماع هو الاجتماع العام الأخير في حياته في «الهند».

انعقد هذا الاجتماع في ٢٤/ رجب ١٣٨٤هـ الموافق ٣٠/ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٦٤م واستمر ثلاثة أيام، يكتب عنه الشيخ نسيم أحمد الفريدي في رسالة له فيقول:

«كانت الزيارة الأخيرة له لـ «مرادآباد» زيارة خالدة، خلفت تأثيراً عميقاً على النفوس، ولم يكتفِ في هذه الزيارة بحضور الاجتماع العام بل التقى بالطلاب والأساتذة في المدارس، وألقى خطاباً تخلد في الذاكرة مدة طويلة، كان اجتماع

«مدرسة شاهی» اجتماعاً من جميع الاعتبارات حضره عامة الناس، والأساتذة والدارسون والعاملون في مجالات الحياة المختلفة، ولم تشهد هذه المدرسة بعد شيخ الإسلام حسين أحمد المدني اجتماعاً مثله، وكانت المناسبة ختم «الجامع الصحيح» للبخاري، وبعد أن ختمه الشيخ المحدث فخر الدين تحدث الشيخ محمد يوسف، وكان موضوع كلمته «مسؤولية العلماء والطلبة، وأهمية التعليم والتعلم».

وكانت الكلمة جامعة شاملة مثيرة توجيهية، فيها عبر ودروس، وكانت عبارة عن بصيرته النافذة ورسوخه في العلم، وصلته بالحديث النبوي الشريف وصاحبه، وخبرته الدراسية، فلو سلك عليها الطلاب والأساتذة في مدارسنا واقتبسوا من نور توجيهاته، لهبّت رياح الإيمان من جديد. وبهذه المناسبة أزال الشيخ محمد يوسف بعض الشبهات والشكوك التي تساور بعض النفوس في صدد عمل الدعوة ومنهج التبليغ رغم حسن النية والإخلاص للعمل.

ومن «مرادآباد» وصل الشيخ محمد يوسف إلى «أمروهه»، واشترك هناك في ختم «الجامع الصحيح» للبخاري في المدرسة الواقعة في المسجد الجامع، وألقى خطبة حول موضوع العلم أمام الطلاب والأساتذة، وعامة الحضور، بيّن فيها الفرق بين العلم الصحيح والاستخدام الصحيح للعلم الصحيح، وقال: لا يكفي أن يكون العلم صحيحاً، بل لا بد له أن يستخدم لتحقيق الأهداف النبيلة والأغراض السامية، فإذا لم يكن استخدامه صحيحاً وسليماً، يؤدي إلى خسارة عظيمة، وكانت هذه الخطبة ملهمة، كان لها تأثير عميق على النفوس، وكانت هذه الخطبة الأخيرة التي سمعتها من الشيخ محمد يوسف، ولم يقدر لي بعد ذلك أن أستفيد من كلامه.

اجتماع «سهارنفور»:

انعقد اجتماع «سهارنفور» في شعبان ١٣٨٤هـ، ونقّبتس تفاصيل هذا الاجتماع من مذكرة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي:

«كانت الجهود تبذل في «سهارنفور» منذ شهور لعقد اجتماع عام، ولانعقاد هذا الاجتماع في «سهارنفور» كان للشيخ محمد يوسف اهتمام بالغ، وكانت مواعيد الاجتماع ١٣ - ١٥/ شعبان ١٣٨٤هـ الموافق ١٨ - ٢٠/ ديسمبر/ كانون الأول

١٩٦٤م من يوم الجمعة إلى يوم الأحد، وكان من المقترح أن يلقي الشيخ محمد يوسف خطبته يوم الجمعة، ثم يذهب إلى «كاندهله» ويصل إلى «سهارنفور» قبل العصر، ويلقي كلمة بعد العصر في «سهارنفور»، وأعلن بذلك، ووصل الناس في عدد ضخم لسماع خطبته، لكنه لم يستطع أن يصل في الموعد المحدد لخلل وقع في سيارته، وتأخر في الوصول، وكان الاجتماع على وشك الختام، وبدأ الدعاء فأكمل هو الدعاء، وأطال دعاءه، ثم ألقى خطبة يوم السبت صباحاً في المدرسة الإسلامية التي كان الاجتماع يعقد في ساحتها، ثم تحدث في اجتماع النساء بعد الظهر إلى العصر في مدرسة تجويد القرآن، وعقد بهذه المناسبة اجتماع للخواص والأعيان، وكان فيهم عدد كبير من غير المسلمين، وتحدث الشيخ في هذا الاجتماع من العصر إلى المغرب، وكان كلامه مؤثراً، ونافعاً وعاطفياً، أثر في نفوس المستمعين من المسلمين والهندوس والشيخ، وقال بعضهم متأثراً بكلامه ومعجباً بمنهجه: إنه لم يسمع مثل هذا الكلام في السابق، وعاد الشيخ محمد يوسف والشيخ إنعام الحسن يوم الاثنين بعد الظهر إلى «نظام الدين»، ولم يأت أحدهم إلى البيت خلال هذه المدة، وكانت إقامتهم في محل الاجتماع ليلاً ونهاراً.

وقضى الشيخ محمد يوسف شهر رمضان في «نظام الدين»، وبعد انقضاء هذا الشهر سافر إلى «كاندهله»، ووصل الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي أيضاً إلى «كاندهله» بهذه المناسبة، ثم عاد إلى «سهارنفور»، وعاد الشيخ محمد يوسف إلى «دلهي»، وكانت جماعة كبيرة من الدعاة من ولاية «بهار» و «بنغال» تنتظره لتحديد موعد الاجتماع في «بهار»، فوافق الشيخ محمد يوسف على مواعيد في شهر أكتوبر/تشرين الأول للاجتماع في «بهار»، ولكن سبقه قدر الله ومشيئته، فتوفي الشيخ محمد يوسف في ٢/إبريل/نيسان ١٩٦٥م في «باكستان»، — رحمه الله — رحمةً واسعة، وجزاه خير الجزاء.



الباب السابع

الدعوة في «باكستان» و «بنجلاديش»

طبيعة عمل الدعوة في «باكستان»^(١):

نزع مئات الألوف من مسلمي «الهند» إلى «باكستان» بعد استقلال «الهند» وإنشاء دولة «باكستان»، وخاصة سكان «دلهي» و «ميوات» الذين كانت لهم صلة عميقة وارتباط وثيق بهذه الحركة منذ عهد الشيخ محمد إلياس، وفي عهد نجله الشيخ محمد يوسف، وكانوا ممن يضمرون لهما الحب والإجلال، ويضعونهما موضع التقدير والاحترام، وقد أجبروا على الخروج من وطنهم العزيز، وفيهم من كان من السابقين إلى هذه الحركة، والمشتغلين بدعوتها منذ عهدها الأول، وفيهم من نشأ وتربى في رعاية الشيخ محمد إلياس، وشارك في نشاطاته فرسخت هذه الفكرة في ذهنه واستقرت في قلبه، وامتزجت بلحمه ودمه.

وعندما استقر هؤلاء النازحون في البلد الجديد، بادروا إلى دعوة الناس إلى الدين الصحيح، والعقيدة السليمة، وسابقوا إلى محاربة المعتقدات التي تتعارض مع الشريعة المطهرة، واختاروا لهذا العمل معسكرات اللاجئين، وكان عمل الدعوة قد وصل إلى «بنجاب» و «السند» والشغور قبل الاستقلال، وكذلك وصل الدعاة إلى «بنغال»، فانضم المشتغلون بالدعوة الذين كانوا يعملون في هذه المناطق إلى الدعاة القادمين من «الهند»، وتعاهدت هذه القوى العاملة وتكاثفت، فسار العمل سيراً حثيثاً، وتقدم بخطى واسعة بتعاون القوى المحلية، وتم اختيار «رائي وند» كمركز جديد للدعوة، وتقع «رائي وند» على بعد ٢٨ ميلاً من «لاهور»، وفي «لاهور» اختير «بلاك پارك»، وفي «كراتشي» اختير «مكي مسجد» كمركزين إقليميين للدعوة.

(١) قبل انفصال «بنجلاديش» عن «باكستان» كانت تسمى «باكستان الشرقية».

كانت «باكستان» دولة جديدة، انتقلت إليها عناصر مختلفة من القارة الهندية كلها، وكان يهم هؤلاء الدعاة أن تصان هذه الحركة من الانحراف عن منهجها المقرر لدى انتشارها في هذه الأرض الجديدة، فروعى منذ البداية أن يسير هذا العمل تحت إشراف الدعاة الذين نشأوا في رعاية واضعي هذا المنهج، وقضوا فترة من حياتهم في تربية هؤلاء المشايخ والعلماء، وأن يجري هذا العمل تابعاً لمركز وقيادة خاصة، كان عدد من العاملين الذين قضوا فترة من حياتهم في نشر الدعوة في «الهند» كانوا منبئين في مختلف أنحاء «باكستان» البعيدة والقريبة، للقيام بعمل الدعوة بنظام وتنسيق، ولترسيخ جذوره أقيمت في «باكستان» في أول الأمر سبعة مراكز في الجناح الغربي للبلاد:

١ — كراتشي.	٢ — راولبندي.
٣ — لاهور.	٤ — حيدرآباد.
٥ — بشاور.	٦ — كوثه.
٧ — ملتان.	

وكانت هذه المراكز تعقد اجتماعات وتشرف على تحرك الجماعات وتنقلها، وتنظم نشاطاتها.

وفي الجناح الشرقي للبلاد، أقيمت ثلاثة مراكز:

- ١ — ككراتل.
- ٢ — شيتا جونج.
- ٣ — كُهلنا.

كانت هذه المراكز تنظم نشاطات الحركة في هذا الجناح، وكانت معظم الجماعات في هذه المنطقة تقوم برحلاتها على الأقدام كما كانت تخرج جماعات للحج على الأقدام، وسيأتي ذكرها في باب الجماعات التي تقوم بالجولة راحلة.

«رائيوند»:

كان الشيخ الكبير محمد إلياس الكاندهلوي قد مرَّ بـ «رائي وند» في طريقه إلى «لاهور» خلال رحلته الأولى للحج، وكان الشيخ محمد يوسف يرافقه في هذه

الرحلة، ومن كان يعرف في ذلك الوقت أنَّ هذه البلدة الصغيرة ستصبح يوماً مركزاً كبيراً لعمل الدعوة في «باكستان» كلها، وتعتقد فيها اجتماعات لا يوجد لها مثيل، وفي عهد الشيخ محمد يوسف عقدت اجتماعات عامة رئيسية في رحلات مختلفة قام بها إلى «باكستان»، وكان كل اجتماع منها اجتماعاً مثاليًا؛ لتأثيره على النفوس وضخامة عدد الحاضرين فيه، ونذكر على سبيل المثال اجتماعاً واحداً من هذه الاجتماعات:

يكتب أحد الحاضرين في الاجتماع في رسالة وجهها إلى الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، فيقول: انتهى اجتماع «رائي وند» بحمد الله بتوفيق ونجاح كاملين، وودع الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي الجماعات بدعاء مؤثّر للغاية، دام عشرين دقيقة، سالت الدموع من جميع الحاضرين طول هذه المدة، ويقدر عدد الحاضرين بصورة عامة بخمسة عشر ألفاً، وخرج لتعلّم الدين والأخلاق، والاجتهاد في سبيله حوالي ست مائة شخص^(١).

عقد في الرحلة الأخيرة للشيخ محمد يوسف إلى «باكستان» اجتماع ضخم في «رائي وند»، فاق جميع الاجتماعات السابقة، ولكن الاجتماع الذي عقد بعد وفاته كان عديم المثال باعتبار كثرة الجماعات التي خرجت منه، ويصدق ذلك كل من سُدَّ بالحضور في هذا الاجتماع، وشاهد هذا المنظر الخلّاب، ويصف أحد الحاضرين الذين شاهدوا هذا المنظر بالألفاظ الآتية:

«انتهى الاجتماع بحمد الله بعافية وخير تامين، وزاد الاجتماع الحاضرين ثقة وإيماناً بأنّ الدعاء سلاح المؤمن، وبه يتم ما لا يتم بشيء آخر، وبأني الدعاء بالأعاجيب، لقد انعقد الاجتماع بدون الشيخ محمد يوسف، ولكن بركات دعائه شوهدت في هذا الاجتماع، ولمسها كل من حضر الاجتماع، وأخّرَ الاجتماع نجاحاً لم يحققه اجتماع آخر سابقاً، فقد كان عدد الحاضرين في الاجتماعات لم يتجاوز خمسة عشر ألف شخص، ولكن العدد في هذا الاجتماع قد بلغ خمسة وعشرين ألف شخص، ويقدر الصحفيون أنّ العدد كان أكثر من خمسين ألف، ونشرت بعض الصحف أنّ العدد كان مائة ألف، وقد اشترك فيه الدعاة من كلا الجناحين للبلاد،

(١) رسالة للشيخ جميل أحمد الحيدراًبادي.

وحضره عدد كبير من سكان الجبال الذين وصلوا في الحافلات، وذكر أنَّ إحدى الرحلات الجوية من «داكا» إلى «لاهور» كانت تنقل جماعات التبليغ وحدها، وقد أقيمت معسكرات وسراقات في اليوم الأول، وضافت هذه المخيمات في اليوم الثاني، ونصبت مخيمات أخرى لتزايد عدد الجماعات والحاضرين، وكان الفصل فصل صيف، وكان الحر شديداً، ولم يكن أي أمل لحضور الشيخ محمد يوسف يجذب النفوس ويحمل الناس على الحضور، ولكن التأييد من الله، وبركات دعاء الشيخ قد جذبت هذه النفوس الطيبة.

وتجاوز عدد الجماعات عن عدد الجماعات السابقة، فسافرت جماعة إلى «تركيا»، وجماعة إلى «الكويت»، وتوجهت جماعات كثيرة إلى مدن مختلفة وبلغ عددها خمساً وثلاثين جماعة، وتلقي هذه الرسالة الضوء على ضخامة هذا الاجتماع وتأثيره على النفوس، وتشير إلى أنَّ «رائي وند» أصبحت في هذه المدة القصيرة مركزاً رئيسياً لنشاطات الدعوة في «باكستان»، وكذلك كانت الحال في «باكستان» الشرقية حيث أصبحت «داكا» مركزاً كبيراً لأعمال الدعوة في الجناح الشرقي، وكان عدد العاملين يزداد ويتضاعف عقب كل زيارة يقوم بها الشيخ محمد يوسف.

انعقد بعد وفاة الشيخ محمد يوسف اجتماع ضخم في «داكا» لا يوجد له مثيل، ويقال: إنَّ هذا الاجتماع فاق اجتماعات «رائي وند» في ضخامة العدد.

الدعاة المخلصون في «باكستان»:

ألقى الشيخ محمد يوسف في «رائي وند» عدة خطب، غيرت قلوب ألوف من العاملين، ونفخت فيهم روح العمل، والكفاح، واحتمال الأذى، والصبر على المكاره، ورفعت روحهم المعنوية، وملأت قلوبهم بالإيمان واليقين، وأعادت إليها الثقة والاعتزاز بالدين، فندروا حياتهم كلها لخدمة الدين ونشر الدعوة، ويفضل هذه الاجتماعات جرى اتصال بين العلماء والعاملين في الدول العربية وبين السكان المحليين، واستفاد الدعاة في هذه المنطقة بكلماتهم وتوجيهاتهم، ولا تزال تُشعُّ هذه المراكز أشعة الدعوة، وتشرق بها مناطق شاسعة في الشرق والغرب، وقد زار هذا المركز عدد من العاملين في «أوروبا»، وتعرّفوا على نظام الدعوة الذي يشرف عليه

هذا المركز، ونقلوا هذا المنهج للعمل المتبع في هذه المنطقة إلى مناطقهم.

ولا شك في أنَّ هذا الجهد الذي قام به المنتسبون إلى هذا المركز في نشر الدعوة وتنشيطها، وتوسيع دائرتها، وتنظيم الجماعات، وترويج هذه الحركة بالإيمان والإخلاص، وحسن النية، والعمل الصالح، هو مجهود عظيم ليس من السهل أن يوصف بالألفاظ.

وفوق ذلك كله كان لمركز التبليغ في «باكستان»، الفضل الكبير في نشر الدعوة في الأقطار الإسلامية خارج «الهند» كـ «مصر»، و «سوريا»، و «العراق»، و «الأردن»، و «تركيا»، و «السعودية»، و «دولة الإمارات العربية المتحدة»، والأقطار غير الإسلامية في «أوروبا» و «أفريقيا» و «آسيا».

فقد قضت الجماعات التي انطلقت من مركز «باكستان» فترات طويلة في نشر الدعوة في هذه الدول، وتحملت المشاق في السفر على الأقدام، وبالمراكب والسفن والطائرات، وتتابع هذه الجولات، وتكثفت، وتواصلت، إلى أن تهيأ الجو لهذا العمل، وفتحت له الأبواب وتهيأت له الفرص، وأقبلت عليه النفوس، وأنشأت مراكز جديدة في كثير من هذه الدول لممارسة نشاط الدعوة، وتنظيمه، كما قامت هذه الجماعات المتجولة بإقناع عدد كبير من الذين قبلوا هذا المنهج للدعوة، وكانوا جدداً فيه، أن يزوروا «الهند» و «باكستان»، ويختلطوا بالدعاة الذين قضوا أعمارهم في هذه الحركة، وعاشوا في هذا الجو، ليقودوا هذه الحركة في بلدانهم، فزالت بذلك الحدود الجغرافية، والثقافية، واللغوية، وصارت هذه الحركة عالمية.

ولم تضعف صلة أهل «باكستان» وارتباطهم الوثيق بشخصية الشيخ محمد يوسف، رغم تقسيم هذه البلاد، وتأزم العلاقات السياسية بين البلدين، ووجود حواجز ومعوقات كثيرة بسبب الظروف السياسية، واستمرت هذه الصلة والتعاون بين الدعاة في البلدين، وتكررت الزيارات بينهم، وازدادت هذه الصلة توثقاً باشتراك الشيخ محمد يوسف في الاجتماعات التي عقدت في «باكستان»، ويكفي دليلاً على شعبية الشيخ محمد يوسف في تلك البلاد وإقبال الناس عليه، تهافتهم عليه تهافت الفراش على ضوء وسبقهم إلى الاستفادة منه والتقرب إليه.

ويدلّ على شغف الناس بالشيخ محمد يوسف والإقبال عليه والإعجاب بحركته روح الفداء، والحب الغامر الذي شوهدت مناظره خلال رحلته الأخيرة لـ «باكستان»، وسنذكر هذه الرحلة بالتفصيل في باب مستقل، ويحتاج هذا الموضوع إلى تفصيل وإسهاب لكثرة عدد الدعاة المخلصين المجاهدين في سبيل الدعوة وجهودهم المضنية، ونشاطاتهم الدعوية المتعددة الجوانب، فنكتفي هنا بذكر الاجتماعات التي اشترك فيها الشيخ محمد يوسف، وأفاد بأحاديثه فيها.

الاجتماع الأول في «كراتشي» بعد تقسيم «الهند»:

تمّ تقسيم «الهند» إلى دولتين مستقلتين: «الهند»، و «باكستان» في ١٥/ أغسطس/ آب ١٩٤٧م الموافق ٢٣/ رمضان المبارك ١٣٦٦هـ، وكانت المرحلة الأولى مرحلة انتقالية حاسمة، شاهدت فيها الدولتان اضطرابات هائلة، انقلبت فيها الموازين، وتغيّرت الخريطة السكانية للبلدين تغيّراً رئيسياً، فكانت هذه الفترة فترة قلق واضطراب وعدم استقرار، وعندما خفّت حدة التوتر، اتخذت الدعوة في «باكستان» إجراءات لعقد اجتماع للدعوة في «كراتشي»، وانهقد هذا الاجتماع في ٢٦/ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٤٧م، وكان ذلك هو الاجتماع الأول للدعوة في «باكستان» اشترك فيه الشيخ محمد يوسف.

سافر الشيخ محمد يوسف في غرّة صفر ١٣٦٧هـ يوم الاثنين إلى «سهارنפור»، وكان الشيخ عبد القادر الرائيپوري أيضاً في «سهارنפור» في ذلك الوقت، فأقام ثلاثة أيام، ثم عاد إلى «دلهي»، وكانت هذه الرحلة استعداداً للسفر إلى «باكستان».

غادر الشيخ محمد يوسف إلى «كراتشي» مع الشيخ بشير أحمد في ٨/ صفر ١٣٦٧هـ بالطائرة، واشترك في الاجتماع الذي عقد في ٢٦/ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٤٧م وعاد إلى «دلهي» في ٣١/ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٤٧م.

الاجتماع الأول في «لاهور»:

ارتفعت الروح المعنوية للعاملين في مجال الدعوة في «باكستان» بصفة عامة، وفي «كراتشي» بصفة خاصة بخطب الشيخ محمد يوسف، وعلت همهم، ونشطت

القوى العاملة، وبدأ العمل ينتشر ويتقوى في سائر أنحاء «باكستان»، وشوهد نشاط ملموس في المتسبين إلى هذه الحركة، وحيث أن «لاهور» هي مركز ثقافي علمي كبير في «باكستان»، ففكر العاملون أن يعقد فيها اجتماع كبير يشترك فيه الشيخ محمد يوسف، وتقرر أن يعقد الاجتماع في ٥ - ٦ - ٧ مارس/ آذار ١٩٤٨ م.

وبُذلت جهود جبّارة في المناطق المجاورة، والأماكن البعيدة الشاسعة لتنشيط هذا العمل، وإعداد النفوس، وتعبئة الجوّ، وقام العاملون بجولات مكثّفة، ولقاءات، ووجّهوا إلى الشيخ محمد يوسف الدعوة للاشتراك في هذا الاجتماع، ولما أنّ هذه الدعوة قد وجهها العاملون القدماء الذين قضوا فترات طويلة في «مركز نظام الدين»، وكانوا من أوائل الذين انضموا إلى هذه الحركة، وافق الشيخ على هذه الدعوة، وكانت هذه الفترة بالنسبة للمسلمين في «الهند» فترة رهيبة، وكانت تواجههم مشاكل كثيرة يتقرّر بها مصيرهم، وكانت المشاورات الحاسمة تجري بين القادة المسلمين وعلمائهم في هذا الصدد.

وصل الشيخ عبد القادر الرائيوري إلى «دلهي» في ١٩/ ربيع الآخر ١٣٦٧ هـ الموافق أول مارس/ آذار ١٩٤٨ م، وجرت مشاورات مع الشيخ أبي الكلام آزاد والشيخ حفظ الرحمن في هذا الصدد، ثم توجه إلى «نظام الدين»، وعاد إلى «سهارنفور» في ٤/ مارس/ آذار، وفي نفس اليوم غادر الشيخ محمد يوسف إلى «لاهور» بالطائرة، واشترك في الاجتماع هناك.

وبعد الاشتراك في هذا الاجتماع ألقى الشيخ محمد يوسف عدة خطب في مساجد مختلفة في لاهور، وأقام بها إلى ١٣/ مارس/ آذار، ونظراً لحدوث الاضطرابات الطائفية، وعدم الاستقرار في «الهند»، والأخطار المحدقة بالدعوة الإسلامية، أشار عليه المخلصون والثقات أن يهاجر إلى «باكستان»، ولكن الشيخ رفض هذه الفكرة رفضاً باتاً، وسافر إلى «كراتشي» في ١٣/ مارس/ آذار، وأقام عشرة أيام، واشترك في عدة اجتماعات إقليمية، وتحذّث فيها، وعاد إلى «دلهي» في ٢٣/ مارس/ آذار.

الرحلة إلى «راولپنڊي» :

عقد اجتماع للدعوة في «راولپنڊي» في ۷ - ۹/مايو/أيار ۱۹۴۸م، وكان من دعاة هذا الاجتماع والمهتمين به الأستاذ محمد شفيع قريشي، أحد ثقات الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي ومسترشديه، وزميله في التجارة ملك دين محمد، الذي كان من كبار التجار في «دلهي» قبل تقسيم البلاد، وانتقل إلى «باكستان» بعده، وكان يشتغل بالتجارة في «راولپنڊي»، وأمر كلا الرجلين على الشيخ محمد يوسف أن يشترك في الاجتماع، وكانت الظروف في البلاد غير مستقرة، فلما استشار الشيخ محمد يوسف الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي في شأن رحلته، اشترط الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي موافقة الشيخ حفظ الرحمن من زعماء «جمعية علماء الهند»، الذي كانت له صلات بالزعماء السياسيين، ونفوذ في الدوائر السياسية العليا، فقال الشيخ حفظ الرحمن: لا أرى بأساً في رحلة واحدة أو رحلتين، أما الرحلات المتكررة فلا أسمح بذلك، ورغب الشيخ محمد يوسف في مرافقة الشيخ أبي الحسن علي الحسيني الندوي إلى رحلة «باكستان»، ويأتي إلى «دلهي»، ولكن الشيخ الندوي لم يستطع أن يرافقه لعدم وجود مقعد في الطائرة، وسافر الشيخ محمد يوسف وحده إلى «باكستان» بالطائرة في ۸/مايو/أيار.

كان اجتماع «راولپنڊي» ناجحاً وموفقاً للغاية، فقد اجتمع في هذا الاجتماع عدد كبير من الدعاة والعاملين المتقدمين، وتمّ تشكيل الجماعات بنسبة عالية.

اجتماع «بيشاور» :

بعد سنتين من اجتماع «راولپنڊي» تقرّر عقد اجتماع في «بيشاور»، وتقع هذه المدينة على حدود «باكستان»، وتحمل أهمية استراتيجية كبيرة، فتقرّر أن يشترك فيه الشيخ محمد يوسف، فعقد الاجتماع في ۲۰ - ۲۲/إبريل/نيسان ۱۹۵۰م، وقد سجّل الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي انطباعاته عن هذا الاجتماع بالكلمات الآتية:

«غادر الشيخ محمد يوسف في ۱۷/إبريل/نيسان ۱۹۵۰م الموافق ۹/رجب ۱۳۷۰هـ يوم الثلاثاء إلى «لاهور» للاشتراك في اجتماع «بيشاور»، وكان من المقرّر

أن يعقد الاجتماع في ٢٠ - ٢٢ من إبريل، فوصل إلى «لاهور» يوم الأربعاء مساءً، وفي صباح الخميس سافر إلى «بيشاور» بالطائرة، وكان يرافقه في هذا السفر الحافظ فخر الدين، إلا أنه وصل متأخراً، وعاد في ٢٤/إبريل/نيسان ١٩٥٠م إلى «كراتشي»، وغادر إلى «دلهي» بالطائرة في ٥/مايو/أيار، وكان الشيخ عبد القادر الرائيپوري يقيم في تلك الأيام في «باكستان»، واشترك في اجتماع «بيشاور»، ورافق الشيخ محمد يوسف في سفره من «لاهور» إلى «بيشاور»، وسافر الشيخ الرائيپوري من «بيشاور» إلى عدة أماكن أخرى في المنطقة، وعاد إلى «دلهي» في ١٠/مايو/أيار ١٩٥٠م، وسافر الشيخ محمد يوسف إلى «سهارنپور» في ١٢/مايو/أيار ١٩٥٠م.

كان اجتماع «بيشاور» يختلف عن الاجتماعات الأخرى بعدة اعتبارات، ومن أهم مزاياه أنه قد اشترك فيه مريان ربانيان كبيران، وهما الشيخ عبد القادر الرائيپوري الذي له أتباع ومسترشدون منتشرون في «الهند» و «باكستان»، والحافظ فخر الدين، وهو من كبار مسترشدي الشيخ خليل أحمد، وله أتباع ومسترشدون في «دلهي»، وحضره عدد كبير من العاملين المتحمسين في مجال الدعوة من المدن والأرياف في ولاية «سرحد» (الغور)، بالإضافة إلى العاملين في الولايات الأخرى من البلاد، وبهذا الاعتبار كان هذا الاجتماع ممثلاً عن جميع الطبقات والمناطق، وبفضل هذا التمثيل الواسع وصل عمل الدعوة إلى سائر مناطق هذه الولاية، وتمَّ تشكيل جماعات تمثل معظم المناطق المعروفة من الولاية.

وأقام الشيخ محمد يوسف بعد هذا الاجتماع عشرة أيام في «كراتشي»، وعقدت خلال هذه المدة عدة اجتماعات فرعية، ولقاءات شخصية، ومجالس دعوية وعلمية.

اجتماع «سِكْهَر»:

اشترك الشيخ محمد يوسف في اجتماع «سِكْهَر»، الذي انعقد في ١١/إبريل/نيسان ١٩٥٢م، وكان يرافقه ثمانية أشخاص، وقد سافر جميعهم إلى «لاهور» بالطائرة، واجتمعوا في اجتماع «سِكْهَر»، ثم قاموا بجولة لمدن «السند» الأخرى، ومن الأماكن التي زارها خلال هذه الرحلة كانت «لاهور»، «لائل بور»، «سرجودها»، «كراتشي»، «تندوالله يار»، و «حيدرآباد»، وفي جميع هذه الأماكن

تحدث الشيخ محمد يوسف في الاجتماعات واللقاءات، واستفاد عدد كبير ممن لقيه أو استمع إليه أو حضر مجلسه، وعاد الشيخ إلى «دلهي» بعد هذه الجولة.

جولة «باكستان» الأولى:

كان الشيخ محمد يوسف قام بزيارة عدة مدن من «باكستان» للاشتراك في الاجتماعات، وكان يشترك فيها ويعود إلى «الهند» بعد الانتهاء منها، ولكن في هذه المرة قام بجولة موسعة للبلاد لترسيخ جذور الدعوة فيها، وزار بصفة خاصة «كراتشي»، «ملتان»، و«بهاول بور»، وعقدت بمناسبة زيارته عدة اجتماعات، واستغرقت هذه الجولة ٢٢ يوماً، وانتشر عمل الدعوة بفضل لقاءاته وأحاديثه في المناطق الريفية التي لم تكن تعرّف على هذا المنهج، وإنما كان عمل الدعوة محصوراً في المدن، وشكلت جماعات لسكّان الأرياف، وكذلك كانت هذه الجولة ناجحة في كسب تعاون الخواص والأعيان والمثقفين، الذين التقى بهم الشيخ في اللقاءات الشخصية، أو أتيحت لهم فرصة الاستماع إليه في مجالسه الخالصة.

رحلة «داكا»:

وصل عمل الدعوة إلى «باكستان» الشرقية عن طريق بعض العاملين الذين اشتركوا في نشاطات الحركة قبل تقسيم البلاد، ثم هاجروا إلى «باكستان» الشرقية، ولكن لم تتحقق أي زيارة للشيخ محمد يوسف إلى هذه المنطقة، فرغب بعض المخلصين من أصدقاء الشيخ وأعوانه أن يزور الشيخ محمد يوسف هذه المنطقة لتنشيط العاملين في مجال الدعوة، ولتعميق جذور هذه الحركة، وانقضت حوالي سبع سنوات ولم تسنح للشيخ فرصة لزيارة المنطقة الشرقية، وإنما كان يزور المنطقة الغربية، وقدّر الله هذه الزيارة المرتقبة في ١١/يناير/كانون الثاني ١٩٥٤م الموافق ٥/جمادى الأولى ١٣٧٣هـ، وكان يرافقه في هذه الزيارة الشيخ محمد إنعام الحسن و ٩ أشخاص آخرون، فسافروا إلى «كلكتا» عن طريق «لكهنؤ»، ومن «كلكتا» سافروا بالطائرة إلى «داكا»، واستمرّت هذه الزيارة أسبوعاً، عقدت خلالها اجتماعات، وتمّ تشكيل عدّة جماعات.

كان هذه هي الرحلة الأولى إلى «باكستان» الشرقية، ولكنها كانت مثمرة للغاية، وعاد الشيخ إلى «الهند» في ٢٠/يناير/كانون الثاني ١٩٥٤م بالطائرة إلى «كلكتا»، ومن «كلكتا» سافر إلى «دلهي» بالقطار.

اجتماع «رائيوند»:

وصل الشيخ محمد يوسف إلى «لاهور» في ٦/شعبان ١٣٧٣هـ الموافق ١٠/أبريل/نيسان ١٩٥٤م، ومن «لاهور» توجه مباشرة إلى «رائيوند»، وألقى خطاباً في اجتماع كبير بعد صلاة العصر، وتحدث في حلقات مختلفة، وبعد ثلاثة أيام قضاهما في الدعوة عاد إلى «لاهور»، وكانت إقامته بـ «لاهور» ستة أيام اشتغل خلالها باللقاءات وإلقاء الخطب والمشاورات لتنظيم عمل الدعوة، ثم عاد إلى «دلهي».

اجتماع «كهلنا»:

عقد اجتماع في «كهلنا» بعد الرحلة إلى «داكا» التي سبق ذكرها، وكان الإخوة في «باكستان» الشرقية يصرون على اشتراك الشيخ محمد يوسف في هذا الاجتماع، ولكن الشيخ لم يستطع الاشتراك فيه، ولم يسمح له الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي بالسفر، وعاد الشيخ قريشي الذي سافر لهذا الغرض إلى «دلهي»، ولم تنجح مساعيه لإقناع الشيخ بالسفر، وأرسل الشيخ محمد يوسف نيابة عنه الشيخ عبيد الله البلباوي والشيخ بشير أحمد، وكان انعقاد هذا الاجتماع في ٧ - ٩/نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٥٤م.

اجتماع «رائيوند» الثاني:

انعقدت عدة اجتماعات فرعية في «رائيوند»، اشترك في بعض هذه الاجتماعات الشيخ محمد يوسف وأعوانه، وكان هذا الاجتماع الثاني حلقة من هذه السلسلة للاجتماعات، وانتهاز فرصة اشتراك الشيخ محمد يوسف في هذا الاجتماع الإخوة العاملون المتقدمون في «باكستان»، وتجمعوا في «رائيوند»، وكان من حسن المصادفة أن الشيخ عبد القادر الرائيپوري كان موجوداً في تلك الأيام في «لاهور»، وكان ذلك أيضاً من دواعي السفر إلى «باكستان».

وصل الشيخ محمد يوسف إلى «سهارنفور» في ١٨/ رجب ١٣٧٤ هـ الموافق ٤/ مارس/ آذار ١٩٥٥ م، وكان يرافقه الشيخ إنعام الحسن وتسعة أشخاص آخرون، وغادروا إلى «لاهور» بالليل، واستقبلهم على محطة القطار بـ «لاهور» الشيخ عبد الحميد وعدد كبير من أتباع الشيخ عبد القادر الرائيپوري، وتوجّه الشيخ محمد يوسف من المحطة مباشرة إلى الشيخ عبد القادر الرائيپوري، وفي اليوم التالي وصل الجميع إلى «رائيوند»، واشتركوا في اجتماع «رائيوند»، وتحدّث في حلقات مختلفة من الاجتماع ثم قام بجولة لعدة أماكن، وأقام في «راولبندي» ثلاثة أيام، واشتغل خلالها بالدعوة، وتشكيل الجماعات، والتحدّث في الاجتماعات واللقاءات وتبادل وجهات النظر مع الإخوة العاملين، ومن «راولبندي» توجه الشيخ محمد يوسف إلى «كراتشي»، ومن «كراتشي» سافر إلى «لائل پور»، وأماكن أخرى، وعاد إلى «سهارنفور» في ٢٠/ مارس/ آذار ١٩٥٥ م، واستغرقت هذه الجولة ١٦ يوماً.

اجتماع «شيتاغونج»:

اشترك الشيخ محمد يوسف في اجتماع «داكا»، ولم يشترك في اجتماع «كهلنا» رغم دعوة الإخوة الباكستانيين، واشتد إصرار الإخوة على اشتراك الشيخ في اجتماع «كهلنا»، ووافق الشيخ على هذه الدعوة، وغادر مع جماعة من كبار العاملين، وفي مقدمتهم الشيخ إنعام الحسن الكاندهلوي في ١١/ جمادى الآخرة ١٣٧٥ هـ الموافق ٢٥/ يناير/ كانون الثاني ١٩٥٦ م إلى «شيتاغونج» عن طريق «كلكتا»، وكان من المقرر أن ينعقد هذا الاجتماع في ٢٩ - ٣٠ - ٣١ من الشهر نفسه ١٩٥٦ م، وباشتراك الشيخ محمد يوسف في هذا الاجتماع الرئيسي اشترك الشيخ في الاجتماعات الفرعية التي عقدت في مناطق مختلفة، وعقد اجتماع في «داكا» أيضاً و «كهلنا»، واشترك الشيخ في كليهما، وغادر إلى «كلكتا» في ٥/ يناير/ كانون الثاني ١٩٥٦ م، واستغرقت هذه الرحلة ١٣ يوماً.

الرحلة الثانية إلى «باكستان»:

قرّر الإخوة الدعاة في «باكستان» عقد اجتماع في «رائيوند» في ٥ - ٧/ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٥٦ م ووجهوا الدعوة إلى الشيخ محمد يوسف للاشتراك

فيه، وكان الشيخ محمد يوسف يرى أنَّ الاجتماعات التي يشترك فيها المتقدمون من الدعاة وأصحاب الخبرة أن تعقد بها آمال بأنها ستكون منطلقاً للدعوة في مناطق جديدة وتجذب عاملين جددًا، كان يوليها اهتماماً بالغاً، ولا يترك هذه الفرصة المتاحة، وكان اجتماع «رائيوند» من هذا القبيل، ووافق الشيخ على حضور الاجتماع، وأعدَّ برنامجاً لجولة «باكستان»، ولو لمدة قصيرة، وغادر «دلهي» مع الشيخ محمد إنعام الحسن في ٢/ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٥٦م يوم الثلاثاء صباحاً، وكان الشيخ حسين أحمد المدني في تلك الأيام مريضاً، وكان الشيخ محمد يوسف يحمل احتراماً وتقديراً لكبار المشايخ والعلماء، وكان الشيخ حسين أحمد المدني في مقدمتهم، فكان موضع إجلال ومحبة زائدة، وكذلك كان الشيخ المدني يحب ويشفق عليه كثيراً، ويتابع نشاطاته، فتعرج على «ديوبند»، وعاد الشيخ ثم واصل سفره إلى «سهارنفور»، ومن «سهارنفور» توجه إلى «لاهور» للاشتراك في اجتماع «رائيوند».

اشترك الشيخ محمد يوسف في اجتماع «رائيوند»، وتحدث في جميع الحلقات والجلسات الرئيسية، وقد تجمع بهذه المناسبة ألوف من العاملين والمنتسبين إلى الدعوة، وعدد كبير ممن حضروا للاستماع إلى خطبته والاستفادة من مجالسه، وتم تشكيل جماعات لداخل البلاد وخارجها، وفي نفس اليوم غادر إلى «كراتشي»، واشترك في اجتماعات «ميران شاه» و «راولبندي»، ثم عاد إلى «لاهور» وتوجه إلى «سهارنفور» عن طريق «أمرتسر»، وكان الفصل فصل الأمطار، وقد غمرت المياه الطرق، وكان طريق «سهارنفور» مسدوداً لنزول الأمطار الغزيرة، والفيضانات، فاضطر إلى اختيار طريق «أنبالا» و «كرنال»، ووصل مباشرة إلى «دلهي» بدلاً من «سهارنفور»، ومن «دلهي» توجه الشيخ في اليوم التالي إلى «ديوبند» لعيادة الشيخ حسين أحمد المدني، ثم سافر إلى «سهارنفور»، ورافقه الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي في السفر إلى «رائيپور»، حيث زار الشيخ عبد القادر الرائيپوري، وكان ذلك من عادة الشيخ محمد يوسف أن يزور هؤلاء المشايخ الكبار قبل أي رحلة طويلة، ولدى العودة منها، ليستشيرهم ويلتمس دعاءهم، ويطلعهم على برامجه وسير عمل الدعوة.

الرحلة الثالثة إلى «باكستان» :

كان من المقرر عقد اجتماع دعوي كبير في «رائيوند» في ١٠ - ١٢/ربيع الأول ١٣٧٦هـ، فغادر الشيخ محمد يوسف في ٩/ربيع الأول بقطار «فرنثير ميل» ووصل إلى «رائيوند» عن طريق «لاهور»، وقام بجولة موسعة بعد الاجتماع لمختلف المناطق، توجه أولاً إلى «كوهات»، وكان «كوهات» قد شهد اجتماعاً عظيماً قبل عام، لم يشترك فيه الشيخ محمد يوسف، إلا أن الشيخ أبا الحسن علي الحسيني الندوي اشترك فيه، واشترك فيه الشيخ رحمت الله، ورفقته من «نظام الدين»، ولذلك كان وصول الشيخ محمد يوسف إلى «كوهات» ذا أهمية كبيرة لسكان المنطقة، فاستقبل استقبالاً حاراً لدى وصوله، وأعد برنامج حافل لزيارته وأحاديثه، وعقد اجتماع رئيسي تحدّث فيه الشيخ، ومن «كوهات» توجه إلى «راولبندي»، و«ميرپور»، و«كراتشي»، وغادر إلى «سهارنفور» في ٢٩/ربيع الأول، وسافر إلى «رائيپور» مع الشيخ محمد زكريا لزيارة الشيخ عبد القادر الرائيپوري.

اجتماع «داكا» :

عقد هذا الاجتماع في «نرائن گنج» في ٢٦ - ٢٨/أكتوبر/تشرين الأول ١٩٥٨م الموافق ١٢ - ١٤/ربيع الآخر ١٣٧٨هـ، وأصرّ الإخوة العاملون في «باكستان» الشرقية على اشتراك الشيخ محمد يوسف، ولتوجيه الدعوة إليه سافر الشيخ غلام رسول من «كلكتا» إلى «سهارنفور»، ولكن الشيخ محمد زكريا لم يوافق، إلا أن الشيخ عبد القادر الرائيپوري وافق على زيارة «باكستان» الشرقية، وغير الشيخ محمد زكريا رأيه نزولاً لرغبة الشيخ عبد القادر الرائيپوري، ولكن الشيخ محمد يوسف تردد في السفر، وأرسل الشيخ بشير مكانه، فاشترك في هذا الاجتماع الشيخ بشير والشيخ عبيد الله البليايوي، ومن «داكا» توجهوا إلى «كراتشي» واشتركوا في اجتماع «رائيوند» في ٩ - ١٠/نوفمبر/تشرين الثاني، وعاد إلى «سهارنفور» في ١٣/نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٥٨م.

الزيارة الرابعة لـ «باكستان» :

بدأ الشيخ محمد يوسف جولة طويلة في ٢٠/يناير/كانون الثاني ١٩٥٩م، الموافق ١٠/رجب ١٣٧٨هـ، وكان يرافقه في هذه الجولة ١٥ رفيقاً، ووصل إلى

«لاهور»، وغادرها إلى «رائيوند» في نفس اليوم، وعاد إلى «لاهور» بعد يوم، ثم أقام خمسة أيام، ثم توجه إلى «راولبندي»، ووصل إلى «بيشاور» في نفس اليوم مساءً، وكان الفصل فصل الشتاء، وكان البرد على أشده، والمطر ينزل بغزارة، لكن رداءة الجو لم تثبط همة الشيخ العالية، فقد كانت همته مثل الجبل الذي لا يتزعزع من مكانه، فواصل رحلته في هذا البرد القارس والمطر المنهمر بغزارة، وغادر «بيشاور» في ٣٠/ رجب صباحاً ووصل إلى «راولبندي»، ومن «راولبندي» إلى «كجرنواله» ثم إلى «كراتشي»، وأقام في «كراتشي» أسبوعاً، قام خلاله بجولة مكثفة للمناطق المجاورة وتحدث في عدة مواضع، ثم سافر إلى «لائل پور» في ١٦/ شعبان ومن «لائل پور» إلى «لاهور» مرة أخرى.

بدأت هذه الزيارة لـ «باكستان» الغربية من «لاهور»، وانتهت بزيارة «لاهور» بعد ٢٦ يوماً، عقدت خلالها عدة اجتماعات ولقاءات، وتحدث الشيخ في معظم هذه الاجتماعات، واللقاءات، وتشرف بزيارته، وسعد بسماع أحاديثه ألوف من الناس، وفي ٦/ شعبان بعد انتهاء هذه الجولة بدأت جولة «باكستان» الشرقية، ويصف الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي هذه الزيارة بالكلمات الآتية:

«وصل إلى «داكا» من «لاهور» في ٧/ شعبان يوم الاثنين صباحاً بالطائرة، وأقلعت طائرته من «لاهور» في الساعة الثانية ظهراً، ووصلت إلى «داكا» في الساعة الخامسة، ولاارتفاع الطائرة لم يشعر الركاب بالوقت فلم يؤدوا صلاة العصر، ولكنهم عندما نزلوا علموا أنه مضى على صلاة المغرب وقت طويل.

كانت هذه الجولة لـ «باكستان» الشرقية لمدة أسبوعين، سافر فيها إلى عدة مناطق، واشترك في عدة اجتماعات، وعاد إلى «الهند» عن طريق «كلكتا» في ٣/ مارس/ آذار ١٩٥٩م، الموافق ٢٢/ شعبان ١٣٧٨هـ، ووصل إلى «سهارنفور» ماراً بـ «لكهنؤ».

الزيارة الخامسة لـ «باكستان»:

بعد عام تقريباً بدأ الشيخ محمد يوسف جولته لـ «باكستان» من الجناح الشرقي، غادر الشيخ محمد يوسف والشيخ إنعام الحسن إلى «سهارنفور» في أول إبريل/ نيسان

١٩٦٠م، الموافق ٤/شوال ١٣٧٩هـ عن طريق «كاندهله»، وبدأ رحلته في ٦/شوال ١٣٧٩هـ الموافق ٣/إبريل/نيسان ١٩٦٠م، ووصل إلى «كلكتا» بقطار «الكاميل» ومن «كلكتا» سافر إلى «داكا»، وفي ١١/إبريل/نيسان الموافق ١٤/شوال غادر إلى «كراتشي» بالطائرة، وقام بجولة في «باكستان» الغربية، واستغرقت هذه الجولة ١٨ يوماً، ووصل إلى «سهارنפור» بالقطار يوم السبت في ٣٠/إبريل/نيسان ١٩٦٠م مساءً، ووصل إلى «دلهي» في اليوم التالي.

الزيارة السادسة لـ «باكستان»:

قام الشيخ محمد يوسف بجولة طويلة في «باكستان» الغربية في شوال ١٣٨٠هـ، بدأت في ١٠/شوال ١٣٨٠هـ الموافق ٢٨/مارس/آذار ١٩٦١م ورافقه الشيخ إنعام الحسن من «دلهي» والحاج فضل عظيم المرادآبادي من «سهارنفور»، ووصل الجميع إلى «لاهور» في اليوم التالي، واشتركوا في اجتماع «رائيوند»، ثم قام الشيخ محمد يوسف ورفقته بجولة لأماكن متعددة في «باكستان».

يكتب المفتي زين العابدين اللاثل پوري عن هذه الجولة التي قام بها الشيخ محمد يوسف في رسالة وجهها إلى الشيخ عبيد الله البلياوي والسعيد خان:

«وصل الشيخ في ٢٩/مارس/آذار، وتم تشكيل سبع مائة شخص - والحمد لله على ذلك - للخروج في إصلاح حياتهم، والشكر لله على توفيقه ومنه، فقد كان الاجتماع في «رائيوند» موفقاً للغاية، فقد اشترك فيه أمريكيان وماليزيان وحجازيان، وبعد الاجتماع قضى الشيخ ثلاثة أيام في «لاهور» ويومين في «بيشاور» وأربعة أيام في «راولبندي»، ويومين في «سيالكوت»، ويومين في «بلكان»، و «دودهاالا»، وكانت زيارته لهذه الأماكن ممهدة لطريق الدعوة، فقد أقبل على هذا العمل عدد كبير من الناس، وقد عدت إلى «لاثلپور» أمس، وتوجه الشيخ إلى «لاهور»، وسيسافر اليوم إلى «كراتشي»، حيث يقيم ستة أيام، ثم يسافر إلى «حيدرآباد»، ويقضي هناك يومين، ثم يتوجه إلى «سكهر» ليومين، ومن هنا يذهب إلى «بهاولپور» ليوم، ويقضي يوماً واحداً في «ملتان»، كما يزور «بهكر» و «سرگودھا» و «بهيز»، وسيعود إلى «الهند» في ٢٩/إبريل/نيسان».

ويكتب الشيخ إنعام الحسن الكاندهلوي في رسالة وجهها إلى الشيخ عبيد الله البلياوي الذي كان في «مكة المكرمة» في تلك الفترة:

«لقد كان سفر الشيخ مباركاً وناجحاً للغاية، ولعل الأخ فضل عظيم أطلعكم على بعض نتائج هذا الاجتماع، فقد خرجت من جميع الأماكن — بحمد الله — جماعات، وفي كل زيارة خرجت ثلاث أو أربع جماعات وأكثر، والتفت الخاصة والعامة إلى العمل في «باكستان»، وقد غادرت جماعة إلى «نيجيريا»، وهي تشتمل على الأخ شبير، وفضل حسين البيشاوري، وچودھري نذير أحمد، وفقهم الله جميعاً لما فيه الخير، وتقبل مساعيهم، وخرج من «جنجهركلان» و«رارة» مائة وخمسون شخصاً باعتبار رب كل بيت، وقد أقبل الميواتيون على هذا العمل وشاعت فيهم طريقة خروج رجل من كل بيت، ورغب الإخوة المتقدمون في الخروج لأربعة شهور، وستة شهور، وثمانية شهور، كما وافق عدد كبير منهم على أن يخرجوا لأربعة شهور كل يوم، وكان اجتماع «راولبندي» موفقاً للغاية، وقد شوهد هناك إقبال عظيم على هذا المنهج للدعوة، نسأل الله التوفيق الدائم والاستقامة في العمل، وألقى الشيخ بعد الجمعة في «نيلاگنبد» خطاباً استمع إليه عدد كبير من الناس بهدوء تام، وقدم حوالي ١٨٠ شخصاً أسماءهم، وفيهم الجدد والقدماء، وكان هذا الجمع يشتمل على جميع الطبقات، وأكد الشيخ في هذه الخطبة على أهمية الاستقامة في العمل، والتمسك بالمبادئ والمواظبة على الجهد.

وقد اجتمع عدد كبير من العاملين من أصحاب الخبرة في هذا المجال، وكانت تجري مشاورات بينهم، وتتخذ إجراءات لإرسال جماعات إلى دول مختلفة نسألكم الدعاء للتوفيق.

ويجري تشكيل جماعات لـ «الفلبين» و«بريطانيا» ودول أخرى، فندعو الله سبحانه وتعالى أن يسهل هذا العمل، ويوفقنا لما فيه الخير، ويعيننا على تذليل العقبات.

وقد خرجت فعلاً جماعة إلى «أندونيسيا» في إمارة الشيخ زبير التشاجونجي، ووصلت.

نرجو أنكم ستقومون بالدعوة في مخيمات الحجاج، للخروج في سبيل الدعوة بعد الحج، ولم نعرف شيئاً عن الإخوة المصريين، ولا نعرف هل يتعاون الحجاج المصريون والسوريون في هذا العمل أم لا.

يكتب المفتي زين العابدين في رسالة له:

«وصلت من «رائبوند» بالأمس، وتقرر في المشورة أن تتوجه جماعة إلى «نيجيريا» في آخر مايو عن طريق «جدة» و «مصر» وجماعة إلى «أمريكا» في منتصف يوليو عن طريق «البصرة» و «بغداد»، و «تركيا»، و «لندن» بالقطار، وتأتي الجماعتان الأوليان في سفن الحجاج الفارغة من «كراتشي» إلى «جدة» أو عن طريق «البحرين».

قضى الشيخ محمد يوسف شهراً كاملاً في الاجتماعات والجولات، ثم مكث أياماً للعلاج، وكان يعاني من مرض البواسير، واشتد هذا المرض، ولم يشفَ شفاءً كاملاً، وكان من المقرر أن يعقد اجتماع في «بستي»، وقد وعد الشيخ محمد يوسف بالحضور فيه، ولكن حال العلاج دون السفر، ولم يستطع أن يعود إلى «الهند»، وأقام في «راولپنڊي»، وكتب الشيخ رسالة يعتذر فيها عن عدم الاشتراك في الاجتماع، وأتاب عنه الشيخ محمد منظور النعماني والسيد أبو الحسن علي الحسيني الندوي.

يقول الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي وهو يذكر بقاء الشيخ محمد يوسف في «باكستان» للعلاج، وعودته المتأخرة:

«وصلت في ٢٩/ ذي القعدة برقية من الحاج متين أن الشيخين محمد يوسف وإنعام الحسن قد تحسنت صحتهما، وأن العلاج كان له أطيّب الأثر، وكان الشيخ محمد يوسف يعاني من هذا المرض منذ مدة طويلة، وكان يجري علاجه، والآن بدأ علاج الشيخ إنعام الحسن أيضاً، وتغيرت مواعيد السفر عدة مرات، واعتذرا عن الاشتراك في الاجتماعات التي عقدت خلال هذه المدة في «الهند»، وفي نفس الأثناء وصلت برقية من الشيخ القريشي في ١٠/ محرم الحرام ١٣٨١هـ بأن الشيخ محمد يوسف والشيخ إنعام الحسن يغادران إلى «سهارنفور» يوم الاثنين، ووصلا فعلاً يوم الثلاثاء بالقطار، وفي مساء الثلاثاء غادرا إلى «رائپور»، وكانا في حاجة إلى الاستراحة والاستجمام كما أشار الطبيب الباكستاني، فطلب منهما أن يقضيا أسبوعاً

كاملاً في «رائيپور»، لأن الزحمة في «نظام الدين»، وأعمال الدعوة سوف لا تتيح لهما فرصة الاستراحة، ولذلك طالبت إقامتهما في «رائيپور»^(١).

وبعد قضاء فترة الاستجمام وصل الشيخ في ١٨/ محرم الموافق ٣٠/ يوليو/ حزيران ١٩٦١م يوم الاثنين صباحاً إلى «سهارنفور»، وكان الشيخ يشعر بآلام البواسير، وكان لا يقدر على الجلوس، ولذلك سافر من «سهارنفور» إلى «دلهي» ماراً بـ «كاندهله» مضطجماً في سيارة.

الرحلة إلى «باكستان» الشرقية:

قام الشيخ محمد يوسف بعدة أسفار إلى «باكستان» الشرقية واستفاد سكان «باكستان» الشرقية من هذه الأسفار استفادةً عامةً، وقد بدأت حركة الدعوة تنتشر في «باكستان» الشرقية، فلا يمرّ يوم إلا وتخرج جماعة في سبيل الله، فرغب العاملون في الدعوة في هذا الجزء من «باكستان» أن يقوم الشيخ بجولة مكثفة لهذه المنطقة، فلما تصاعدت هذه المطالبة وافق الشيخ على جولة فيها، وغادر «دلهي» مع رفقته في ١٠/ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٦٢م، واستغرقت هذه الجولة شهراً وخمسة أيام، عقدت خلالها اجتماعات في أماكن كثيرة من «باكستان» الشرقية، وكانت زيارة الشيخ لـ «داكا» والمناطق المجاورة لها استمرت أحد عشر يوماً، عقدت خلال هذه المدة اجتماعات وجلسات في القرى والمدن والأرياف، وتم تشكيل الجماعات، ووصل الشيخ إلى «شيتاغونغ» في ٢٤/ نوفمبر/ تشرين الثاني وزار الأماكن المتصلة بهذه المدينة الساحلية، إلا أن الظروف في «شيتاغونغ» لم تسمح له بأن يقوم بجولة مفصلة فأقام يومين، وعاد إلى «سهارنفور» في ديسمبر/ كانون الأول، ومن «سهارنفور» توجه إلى «رائيپور»، وعاد إلى «دلهي» ماراً بـ «كنكوه».

الرحلة السابعة لـ «باكستان»:

سافر الشيخ محمد يوسف في ٢١/ مارس/ آذار ١٩٦٣م، الموافق ٢٤/ شوال ١٣٨٢هـ إلى «سهارنفور»، وعاد إلى «دلهي»، وسافر مع الشيخ إنعام الحسن والشيخ

(١) من مذكرة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي.

محمد عمران خان الندوي وآخرين إلى «لاهور» بالقطار، ومن هنا توجه إلى «رائيوند» للاشتراك في الاجتماع الذي يعقد فيها، وكان اشتراك الشيخ في اجتماع «رائيوند» يجذب النفوس إلى الاجتماع، وينفخ فيه الروح، ويبعث في العاملين النشاط والحركة، ويرفع همهم، ويملاها حماساً وقوة، فكان يتم تشكيل جماعات لا حد لها ولا حصر، وكان يأتي للاشتراك في هذا الاجتماع رجال من كل فج عميق، ويلتقي العاملون الذين لم تسنح لهم فرصة اللقاء، وأطال الشيخ مدة إقامته في «رائيوند» لأسباب عديدة ثم قام بجولة في أنحاء أخرى من «باكستان» إلى ٦/ ذي الحجة، وبهذا الاعتبار امتدت جولته إلى شهر واثني عشر يوماً، عقدت خلال هذه الفترة اجتماعات ولقاءات في المناطق المدنية والريفية، وتحدث الشيخ في هذه الاجتماعات بصورة مستمرة، وعاد إلى «سهارنفور» في ٧/ ذي الحجة، وبعد زيارة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي وصل إلى «دلهي» في ٨/ ذي الحجة.

الرحلة الثامنة إلى «باكستان» :

كانت جميع الرحلات التي قام بها الشيخ محمد يوسف ورفقته إلى «باكستان» بدأت من «الهند»، ولكن الرحلة التي سيذكرها الآن تختلف عن جميع هذه الرحلات السابقة فإنها كانت جزءاً من رحلة طويلة.

لقد قام الشيخ محمد يوسف والشيخ محمد زكريا الكاندهلوي برحلة الحج والزيارة في عام ١٩٦٤م، وكانت هذه الرحلة هي الرحلة الأخيرة للحج التي قام بها الشيخ محمد يوسف في حياته، وسيأتي ذكرها في باب خاص للحج، وفي طريق عودته من الحج توجه الشيخ محمد يوسف من «جدة» إلى «كراتشي» بالطائرة، ووصلت الطائرة عند غروب الشمس، فأدى صلاة المغرب على المطار، وكان المطار مزدحماً غاية الازدحام؛ لأن الشيخ محمد يوسف ورفقته كانوا يعودون من الحج والزيارة، وكان معهم الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، وله أتباع منتشرون في «باكستان»، وكانوا في غاية من الشوق إلى زيارته والاجتماع به، ولم تسنح قبل ذلك فرصة لزيارته «باكستان»، فازدحم المطار، وتدفق الناس إليه، وتهافتوا على الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي لإلقاء نظرة عليه، وخوفاً من أن يصيبه أذى أعلن الشيخ

محمد يوسف أن لا يصافحه أحد، وتقدم الشيخ محمد يوسف نفسه، وحال بين الشيخ محمد زكريا والمزدهمين وبدأ يتحدث إلى الناس، وقال لهم: لم تضيعون وقتكم الثمين في المصافحة، اسمعوا مني كلاماً ينفعكم في حياتكم الدنيا والآخرة، ثم ألقى خطاباً مؤثراً استهوى النفوس، وأدمع العيون، وبعد حديثه تفرق الناس، وسار الركب الميمون إلى المسجد المكي.

وكان المسجد المكي مكتظاً بالمجتمعين فيه، ولحق بهم هذا الجمع الذي كان في المطار لاستقبال هؤلاء الضيوف، فانعقد بذلك اجتماع ضخم بدون أي استعداد له أو برنامج، وكان أحد الدعاة يخاطبهم، فلما وصل الشيخ محمد يوسف خاف أن يفرق الناس، ويهرعون إليه لمصافحتهم، فوصل إلى المنصة مباشرة، وأخذ الميكروفون ليتحدث إلى الناس، واستمر هذا الاجتماع إلى منتصف الليل.

وصلّى العشاء بعد الساعة الواحدة من الليل، ثم تناول العشاء، وفي الصباح بدأ الشيخ محمد يوسف خطابه بعد الصلاة مباشرة، وامتدت خطبته إلى الضحى، وبلغ من نقاهة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي بسبب هذا السفر الطويل، إنه لم يتناول الغداء إلا في «دهديان» حيث انتهى السفر، وغادر «كراتشي» في ٢٩/يونيو/حزيران إلى «لاثل پور»، وكان الحر شديداً، وكان الناس يحتشدون على كل محطة لسكة الحديد، وبالرغم من الحر الشديد كان يخرج من عربته المكيفة في كل محطة للقاء المستقبلين، كذلك كانت الرحمة أشد في محطة «ملتان»، فقد اجتمع فيها العلماء والطلاب من مدرسة خير المدارس، وعلى رأسهم الشيخ خير محمد، وأصرّ الجميع على أن يقطع الشيخ سفره، ويأخذ قطاراً آخر بعد ساعات ليستفيد منه العلماء والطلاب والمحبون استفادة أوسع، ووافق المسؤولون عن المحطة على نقل عربته المكيفة إلى قطار آخر لإراحته، ولكن الشيخ اعتذر قائلاً أن الناس ينتظرونه في «لاثل پور»، وإن هذا التأخير في الوصول سيضايقهم ويبعثهم على القلق، فشرع الجميع بالخيبة، وتأسفوا عليه، ووصل الشيخ إلى «لاثل پور» في ٣٠/يونيو/حزيران صباحاً، وأقام يومين وتحدث إلى الجمع الغفير من الناس، وفي اليوم التالي سافر إلى «سرگودھا» وأقام بها يوماً واحداً، وتوجه من «سرگودھا» إلى «دهديان»، وهو موطن

الشيخ عبد القادر الرائيپوري، ومثواه الأخير، وأقام في «دهديان» عدة أيام، وكانت الأمطار تنزل بغزارة، تغير بها الجو، وكانت الليالي باردة، وحضر بهذه المناسبة جميع أتباع الشيخ عبد القادر ومسترشديه، وجاء بعضهم من أماكن بعيدة، وكان فيهم بعض كبار الصالحين والمصلحين والعلماء والدعاة.

غادر «دهديان» في ٦/ يوليو/ تموز صباحاً، ووصل إلى «راولبندي» بعد المغرب، وعقد بهذه المناسبة الجنرال حق نواز اجتماعاً ومأدبة غداء، اشترك فيها كبار الضباط والموظفون الرسميون، وهم يزيدون عن مائتي شخص، وفيما يلي تفاصيل هذه الرحلة الباكستانية مقتبسة من رسالة كتبها الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي إلى الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي:

«وصلنا إلى «لائل پور» بعد ثلاثة أيام قضيناها في «كراتشي» وقد اتخذ الإخوة المحبون جميع إجراءات الراحة والسلامة، ولم يقصروا في ذلك شيئاً فقد حجزوا المقاعد في الدرجة الأولى المكيفة، ولكننا لم نستطع أن نستفيد منها استفادة تامة، فقد كان الجمع الغفير في سائر المحطات يجبرنا على النزول من العربة، والتحدث إليهم في هذا الحر الشديد على الرصيف، ولم نستطع النوم في الليل أيضاً، ولعل هذه الزحمة الشديدة للمستقبلين في المحطة كانت بسبب كون زيارتي لـ «باكستان» الزيارة الأولى، فقد اكتشفت في «الحجاز» هذه المرة أنني محدث، فقد تهافت عليّ الناس في طلب الإجازة في الحديث، وكنت أعتذر وأقول إنني غير كفوء، ولكن الإصرار والإلحاح منهم كان يجبرني على أن أجيزهم، وكذلك اشتهر عند وصولي إلى «باكستان» بأني شيخ، فتدفق إليّ الناس لحصول البركة، وطلب الدعاء، ولكثرة ازدحام الناس كنت أغلق الباب.

غادرنا «لائل پور» يوم الأربعاء بعد العصر إلى «سرگودھا»، وتوجهنا من «سرگودھا» يوم الخميس بعد العصر إلى «دهديان»، وكان الحر في منطقة «لائل پور» إلى «سرگودھا» كلها غير محتمل، ورغم المراوح الكهربائية المتعددة والتبريد بالثلج كنت لا أجد راحة، ويقال: إن درجة الحرارة في هذه المنطقة كانت بين ١١٧، و ١٢١، وكان الناس يخوفوننا أن الحر في «دهديان» أشد، ولا تتوفر هناك تسهيلات

في الكهرباء ولا التكييف ولا المراوح، وهي مثل «سرگودھا» في درجة الحرارة، ولذلك كنا نخشى على أنفسنا، ولكن الله شاء غير ما كنا نخشى، وكان ذلك ببركة الشيخ عبد القادر الرائيپوري — رحمه الله —، وقد كان في حياته يهتم غاية الاهتمام براحتي، وظهرت بركته، فتحسن الجو تحسناً، وأصبحت هذه المنطقة مثل المصايف كـ «المنصوري» و «چکروتہ» في «الهند».

وكنا نستخدم البطانيات في الليل للبرد، وتهب رياح باردة في الظهيرة مثل أيام الشتاء وتنعش النفوس، واستمتعنا بهذا الجو اللطيف المنعش، وقضينا هذه الأيام الثلاثة مشغولين ببرامج مكثفة، وكان الإخوة يصرون على تحديد مدة الإقامة، ولكن البرامج التالية لم تكن تسمح لنا بتحديد الإقامة، فكانت هذه الأيام الثلاثة آخر أيام رحلة الشيخ عبد القادر الرائيپوري إلى «باكستان»، فكانت الرحمة شديدة، وكنا نغلق الأبواب حتى النوافذ، ولكن ازدحام الناس يستمر طول الوقت، وقد وصل الشيخ فضيل أحمد، والحافظ عبد العزيز، والشيخ عبد العزيز وأخوه المفتي عبد الله، والأستاذ منظور أحمد، والشيخ سعيد أحمد ليرافقونا، وكنا نقصد مجالس الذكر في «دهديان».

ويختتم الشيخ رسالته وهو يصف مغادرته :

«كان الناس يزدحمون على المحطات في سائر الأسفار في «باكستان» ازدحاماً شديداً، وكنت لا أخرج من العربة إلا أن الشيخ محمد يوسف كان يخرج لدى وقوف القطار، ويخاطب الجمع الحاشد بصوت جهوري، وبعاطفة جياشة، ويتحدث بكل ما أوتي من قوة، وقد حدث ذلك أيضاً في «الهند» خلال رحلتنا من «دلهي» إلى «بومباي» :

وصلنا إلى «دلهي»، وأقمنا ثلاثة أيام، ثم توجهنا إلى «كاندهله» في ١٩/ يوليو/ تموز يوم الأحد، وفي «كاندهله» أقمنا في حديقة مجاورة، ولم ندخل القرية لكيلا ينتهي سفر الحج، وبعد الدعاء وشرب الشاي توجهنا إلى «كيرانه» لعبادة الشيخ عزيز إلياس الذي كان أصيب بمرض عضال بعد عودته من الحج، وتناولنا الغداء، ثم سافرنا إلى «ديوبند»، ووصلنا إلى «سهارنفور» لدى المغرب، واحتشد

الناس في المدرسة، وألقى الشيخ محمد يوسف أولاً خطاباً طويلاً، ثم صافح المجتمعون، وتوجهنا إلى «كنكوه» يوم الاثنين، وإلى «رائسپور» يوم الثلاثاء، ثم عدت أنا إلى «سهارنفور»، والشيخ محمد يوسف إلى «دلهي»، وقال لي الشيخ محمد يوسف عند مغادرته إلى «دلهي» وكانت الدموع تترقرق في عينيه: الآن تنتهي هذه الرحلة التي جمعتنا أربعة شهور.



الباب الثامن الدعوة في أرض الحجاز

الحج ودوره في الدعوة:

منذ أن تولى الشيخ محمد يوسف قيادة حركة الدعوة والتبليغ توجهت عنايته القصوى، إلى نفخ روح الدعوة في الحجاج خلال رحلتهم إلى «الحجاز» وفي مخيماتهم في الأماكن المقدسة، وذلك لغرضين أساسيين: أولهما أن يعودوا من الحج دعاة إلى الله، وأن يسري روح الإسلام والتعاليم الإسلامية في حياتهم فيكونوا نموذجاً صالحاً لغيرهم، ثانياً، ليؤدوا شعائر الحج خير تأدية بروح الطاعة والانقياد، وفكر في تحويل هذه الرحلة إلى وسيلة للدعوة إلى الله، وأعد له خطة منسقة.

والجدير بالذكر أن هذه الفكرة ترجع أساساً إلى الشيخ الكبير محمد إلياس — رحمه الله — ، وكان قد بدأ هذا العمل في إحدى رحلاته، ولكن الشيخ محمد يوسف طبق هذه الفكرة، ووسّعها وانتشر هذا العمل في عهده، ولا يكون من المبالغة إذا قيل: إن عمل الدعوة في الحجاج، وتحويلهم إلى الدعاة بعد عودتهم من الحج كان من أولويات الشيخ محمد يوسف، فإن «الحجاز» مركز لسائر المسلمين في العالم لوجود قبلتهم في تلك الأرض المقدسة، وهم يقصدونه من سائر أنحاء العالم، ليشهدوا مناسكهم ويؤدوا شعائر الحج، والحج ملتقى عالمي عظيم، يلتقي فيه سكان المعمورة كلها من أصحاب اللغات المختلفة، والثقافات المتنوعة والعناصر المتباينة من العامة والخاصة وأصحاب السلطة والفكر والنفوذ، فإذا تحولت هذه المناسبة لالتقاء الشعوب من العالم كله إلى مجال الدعوة، فمن الطبيعي أن تنطلق الدعوة إلى سائر أنحاء العالم، واستولى هذا الفكر على ذهن الشيخ منذ تولية القيادة، وشغل باله وأهمّه، وتساعد إلى حد أنه ظل يضطرب،

ويساوره القلق له، وصرف همه إلى هذا الجانب في رسائله وخطبه، وتدل على ذلك إحدى رسائله، فيقول:

«إن الحج ليس بأمر يقتصر على ذات الحاج، بل إن الله تعالى يدعو إلى بيته ليتفقد أوضاع المسلمين، والحالة الدينية، ومدى الجهد الذي يبذل لإعلاء كلمته، وما هو مدى تأثير الدين على نظام العالم، فإذا كان هذا الجهد خالصاً لوجه الله، وقام به الحاج حسب التعاليم الشرعية، ونال رضا الله، وقضى حياة طاهرة نقية في هذه الأيام، فإنها تخلف تأثيراً عميقاً على العالم كله، ويتأثر به نظام العالم، وتنزل عليه الرحمة والنعمة، وإذا كانت هذه الأيام خالية من الجهد الديني، ومجردة عن تأثير الدين ونفاذه في الحياة وعمت المساوىء والمعاصي، كان لها أثر سيئ على العالم كله، وعمت المشاكل والبلاء والشقاء».

غرض الحج:

قام بعض الإخوة من «مرادآباد» برحلة الحج في عام ١٩٤٦م، ولاحظوا جهل الحجاج للفرائض والواجبات والمناسك والشعائر بصفة عامة، فأطلعوا الشيخ محمد يوسف لدى عودتهم من الحج على ما شاهدوه من الأحوال السيئة في مخيمات الحجاج، ومن جهلهم للآداب والفضائل، وعدم معرفتهم لمبادئ الحج والمناسك، وأن بعض الحجاج لا يعرفون حتى الأمور الدينية البسيطة، ومن المؤسف للغاية أنهم يهجرون الصلاة بسهولة، وخاصة أثناء التنقل في السفينة أو الطائرة، والمراكب الأخرى، ويعوزهم الذوق والشوق والمشاعر والأحاسيس التي يجب أن تتغلب عليهم خلال تأدية المناسك، بل تسودهم الغفلة واللامبالاة، ويقضون هذه الرحلة كرحلات أخرى، ويقضون أيامها ولياليها كأيام وليالي سفر عادي، وأن هذه المناظر تشجي القلوب وتدمع عيون الغيارى على الدين، وأصحاب الوعي الديني، وأكثر من ذلك، إن هؤلاء الألوف المؤلفة التي تأتي من أدنى العالم وأقصاه، لا تعرف من المناسك شيئاً، وإنما تتبع المطوفين والمزورين، وتردد ما يملئ عليها بفهم ودون فهم، وتقضي هذه الفترة من غير شعور وإدراك، ولا تجني من ثمار هذه الرحلة المباركة ما يجب أن تجني، وتعود إلى الوطن، وقد ضاعت هذه الفرصة السانحة.

وكان الشيخ محمد يوسف يشعر به قبل ذلك، وكان قد صرح به في كلماته ولقاءاته أكثر من مرة، لكنه لم يجد طريقاً للإصلاح ونفخ الروح في الحج، فلما حكى له الدعاة هذه الحكاية وجه الشيخ الدعوة إلى إصلاح أحوال الحجاج، وتربيتهم تربية دينية، وتعليمهم لمبادئ الدين، وتوعيتهم بمناسك الحج بقوة وصراحة، وبدأ حركة للعمل في أوساطهم، وأعد الدعاة للعمل في مخيماتهم، ووضع لذلك نظاماً وثيقاً شاملاً، وأرسل رسائل إلى مراكز الدعوة والتبليغ، وحث فيها العاملين على الاهتمام بهذا الموضوع، تقول إحدى هذه الرسائل:

«إن الهدف الحقيقي للحج أن يتم إكمال الحياة الإسلامية بمحاكاة سيرة النبي ﷺ، وشمائله الفردية والاجتماعية، الذاتية والخارجية خلال التنقلات لأداء الشعائر، بالهيام والوله، والغرام والولع في «مكة المكرمة»، فإذا قامت جماعة تتكون من عشرة أو عشرين شخصاً في قيادة أمير، تؤدي الحقوق الاجتماعية، وتعلم مبادئ الدين وتتضرع إلى الله للتوفيق للاقتداء بأسوة الرسول ﷺ، وتبدي الأسف والقلق على ما ضاع من فرائض وواجبات خلال هذه الرحلة المباركة، أصبح هذا السفر مثمراً ونافعاً للغاية، ويجب أن يحمل الحجاج على أن يخصصوا بعض أوقاتهم بجانب تأدية الواجبات والفرائض، من الذكر والتلاوة، والطواف والنوافل من الصلاة في «مكة المكرمة»، و«المدينة المنورة» للخروج بدين الله، داعين الله على طريق الرسول ﷺ وأصحابه، ونشره في المكان الذي يتوقع أن ينتشر فيه هذا الدين في العالم كله، وإذا تحقق ذلك، فإن له أجراً لا يمكن أن يتصوره، وهذه فرصة ذهبية لحصول نعم الله تعالى ورحمته».

برنامج موسع:

وضع الشيخ محمد يوسف للعمل خلال موسم الحج برنامجاً موسعاً نافعاً:

- ١ - التركيز على جميع مواضع الالتقاء، والأماكن التي يتجمع فيها الحجاج من أجل السفر كالمحطات والمواقف، ودور الضيافة.
- ٢ - تنشيط الجماعات الدعوية في المناطق الساحلية والموانئ التي يسافر منها الحجاج خلال أيام الحج.

٣ - تنظيم حلقات التعليم والذكر في السفن التي يقضي فيها الحجاج أوقاتهم فارغين وشغل أوقاتهم بها.

على هذا المنهج الذي قرره الشيخ محمد يوسف للعمل بين الحجاج اشتغلت جماعات الدعوة، وبذلت مجهودها، ووجهت الدعوة إلى الاهتمام بهذا المجال الدعوي، وأكدت على ضرورته وأهميته، وبعد مدة قليلة توجهت عناية عدد أكبر من العاملين في مجال الدعوة إلى توعية الحجاج، وتربيتهم تربية دينية، وفي عام ١٩٥٠م كتب أحد العاملين رسالة إلى أحد العلماء الريانيين الكبار يشرح فيها أهمية هذا العمل، وانطباعات عن مشاهداته وتجاربه في المناطق الساحلية، وفي مراكب الحجاج:

«منذ سنوات عديدة يجري السعي لإيقاظ الوعي الديني في الحجاج بمعونة بعض الأفراد المحليين والأجانب بتوفيق الله عز وجل، ويتم سفرهم هذا وفق السنّة، ويوجد الشعور في الحجاج أن يودوا شعائر الحج بحقوقها، وآدابها ويعودوا إلى أوطانهم حاملين مشاعر التقديس والاحترام للأماكن المقدسة والأماكن المجاورة، وأن توجد فيهم عاطفة لخدمة الدين وتدفعهم الدعوة لدى عودتهم إلى أوطانهم إلى الاجتهاد في سبيل الدين والسعي إليه. إن معظم الحجاج لا يهتمون بالصلاة، ولا يواظبون عليها، ولذلك يبذل الجهد لإقناع أهل العلم والمعرفة لأمر الدين، بأن يقضوا بعض الوقت في تعليم من يجهل الدين، ويرغبوا من لا يعرف الدين في أن يتعلم الدين، ويجتهد فيه، ويعينوا لهم أميراً يرشدهم للقيام برحلتهم حسب السنّة، وكان من فضل الله ومنّه وإحسانه أن المجهودات الضئيلة التي تبذل في هذا السبيل تأتي بثمار طيبة مشجعة، وتحدث تغييراً في أحوال الحجاج، لكن لا يحدث فيهم التغيير الكامل كما تقتضيه أحوالهم، ولذلك تقرر أن تعقد اجتماعات للحجاج قبل سفرهم في أماكنهم لتوعيتهم بأهمية هذه الرحلة وآدابها، وأن يتم تعيين الأمراء قبل بدء الرحلة لبدء السفر على طريق السنّة.

وكتب الشيخ محمد يوسف في رسالة يؤكد فيها على أهمية العمل في أوساط الحجاج، وعلى معرفة أحوالهم، ودعوتهم إلى أن يقضوا أوقاتهم بطريقة تنفعهم وتجديهم.

«عليكم أن تتفقدوا أحوال الحجاج بجهد وهمة، وحاولوا أن يتعودوا على الاهتمام بالصلاة، والجلوس في المساجد في المجالس، وينشأ فيهم الذوق والنزوع إلى كسب العلم، ويرغبوا في الجلوس في مجالس العلم، ويطالعوا الكتب التربوية، ومواد القراءة الدينية، ويتمرنوا على الدعوة، ويخرجوا في سبيل الله، ويجتهدوا في سبيل الدين، ويتعودوا على خدمة الخلق، ويتحلوا بالتواضع، وإكرام المسلم، ويشغلوا أوقاتهم بالذكر والتلاوة والدعوة، ويتجنبوا المعاصي والمنكرات في محل إقامتهم وفي جولاتهم، فعليكم أن تهتموا بهذه الأمور في مواضعكم، وأن ترسلوا الجماعات إلى أماكن أخرى، واسعوا إلى نشر الدعوة في الموانئ وجميع مواضع تجمع الحجاج، وأرسلوا الجماعات للعمل في بيئاتهم لتعم في الحجاج بالمساعي العامة بركات الحرمين الشريفين، وتنتشر فيوض الأراضي التي وطأها أقدام الأنبياء الكرام، وشرفها الرسول ﷺ وأصحابه الكرام بالإقامة فيها، وأن ترعرع أعمال المساجد وتنتشر وتزدهر، ويتجدد عهد السيادة الخلقية والإيمانية والروحانية والنورانية للأمة الإسلامية، وتنجو الأمة من مزالق الأسواق وخداعها، وتتقربوا إلى الله، وتستحقوا من الأجر والثواب والتوبة عند الله ما لا يتصورونه».

ويكتب رسالة أخرى:

«أرسلوا إلى الحجاج جماعات تدعوهم إلى الارتقاء في حضن الحرمين الشريفين عاملين في سبيل الدعوة طول طريق الحج».

صيانة الوقت:

وبهذا الطريق اهتم الشيخ محمد يوسف بأن تسافر جماعات للحجاج راجلة توجه الدعوة في أثناء السفر، وبذلك ينقضي وقتهم في الدعوة ويتعلمون المناسك، وكان أشد ما يهمه أن لا يضيع وقت الحجاج، وأن يتوجهوا إلى الحج بعد التربية.

فيكتب في إحدى رسائله:

«ينبغي أن تنشأوا في الحجاج الذين يسافرون على الأقدام بعد تفقد أحوالهم عاطفة الخروج في الدعوة إلى الله، وبقدر ما تنشأ هذه العاطفة فيهم فهم يؤثران في تغيير مجرى الحجاج الذين وفدوا من مختلف أنحاء العالم من المادية إلى الروحانية،

وكذلك هؤلاء الحجاج يؤثرون في إيجاد الرغبة إلى الحياة الإيمانية على سكان المناطق التي يمرون بها.

وقد اهتم الشيخ محمد يونس اهتماماً خاصاً بأن الحجاج الذين يتوجهون إلى الحجاز لعمل الدعوة في الحجاج، ويكونوا بأنفسهم مهتمين بهذه الأمور ومراعين لها رعاية كاملة، ويتحلوا بهذه الصفات، ويلتزموا بالقواعد التي وضعت لعمل الدعوة، وإلا فإنه يخشى أن تظهر نتائج سلبية.

فيكتب في رسالة:

«يجب أن يبذل الجهد في الحجاج، وخاصة الميواتيين منهم؛ لأن يحترزوا عن الاضطرابات الذي يتعرض له الحجاج في الوقت الحاضر، وأن يقوموا برحلتهم كلها إلى «الحجاز» بطريق يؤدي إلى شيوخ الدين وازدهاره في تلك المنطقة، وأن يحظى المسافرون بنفحات ذلك الجو المبارك، الروحانية والإيمانية، ويمتعوا أنفسهم بها بنصيب وافر، ويجب أن يكون السفر بالإقدام بنظام وآداب، ويتم تعيين عاملين موثوق بهم للتوجيه والإرشاد، ويجب أن يبذل السعي لإرسال جماعات من الآن إلى جميع الأماكن التي توجه إليها الرسول ﷺ وأصحابه البررة، وتحملوا الأذى فيها في سبيل الحق، وأن يحمل العاملون على الاهتمام بحلقات التعليم والتعلم اهتماماً بالغاً، كما يجب لفت انتباههم إلى خدمة الحجاج، والمواطنين العرب، فإن الفئة الأولى هي ضيوف الرحمن، والضيف له حقوق، وأي إساءة إليها يسبب كراهية وسخطاً، والفئة الثانية هي التي تشكل جيران الحرمين الشريفين والإساءة إليها وسوء الأدب معها يكسب سخط الله وغضبه».

الجماعة الأولى:

إن الجماعة الأولى التي نهضت لإنجاز هذه المهمة العظيمة وهي العمل في الحجاج، كانت تشتمل على الإخوة العاملين في الدعوة من «دلهي» و«مرادآباد»، كان فيهم الحاج فضل عظيم المرادآبادي، والحافظ مقبول الدهلوي (أحد مسترشدي الشيخ محمد إلياس) وآخرون الذين ألقوا أنفسهم في التيار الجارف وأرادوا واجبه في العواصف الهوجاء، وتحملوا الشدائد وتجشموا المشاق وصدقوا في ذلك ما عاهدوا الله.

الجماعة الثانية :

بعد هذه الجماعة التي كانت طليعة العمل في الحجاج أعد الشيخ محمد يوسف جماعة ثانية بقيادة الشيخ عبيد الله البلياي، واعتذر الشيخ عبيد الله البلياي أولاً أنه لا يتقن اللغة العربية ويصعب عليه التكلم بها، وأصرّ الشيخ محمد يوسف، وقال: طيب، اذهب إلى «كراتشي» أولاً وجاهد هناك وتمرن، فوافق الشيخ عبيد الله، وتوجه إلى «كراتشي» مع المحافظ سلطان الدهلوي وجماعة، ومن «كراتشي» سافر إلى «الحجاز»، وكان في الجماعة محمد شفيح القريشي، والشيخ نور محمد الميواتي، والشيخ عبد الملك المرادآبادي، والحاج عبد العليم الميرتهبي، وسافر إلى «الحجاز» أيضاً چودھري نواز خان الميواتي، وأقام بعضهم سنة كاملة، وتوجهت جماعة ثالثة من «كراتشي» إلى «الحجاز» في يوليو/ حزيران ١٩٤٧م الموافق ١٠/ شعبان ١٣٦٦هـ بالباخرة، وكان أميرها الشيخ سعيد خان، وقامت هذه الجماعة بالدعوة والتعليم في الباخرة بنشاط بالغ، ونظمت اجتماعات، وقامت بجولات وعقدت لقاءات مع الركاب، وعمّ الجو الروحاني من الشوق والهيام، والذكر والتسبيح، ومذاكرة المسائل والفضائل، وتحول السفر مخيماً تربوياً دعوياً وعلمياً.

العمل في موانئ «كراتشي» و «بومبائي» :

إن السواحل والموانئ تشكل بوابات، وكل من يسافر للحج يمر بهذه الأبواب ذهاباً وإياباً، ولذلك تحمل هذه الموانئ والسواحل أهمية خاصة، وعمل الدعوة في هذه المواضع له نفع بعيد المدى، بل هو أنفع من العمل في موضع آخر، ويسهل العمل في الحرم الشريف بعد العمل في هذه المواضع ويكون أكثر تأثيراً، ونظراً لأهمية هذه المواضع اهتم الشيخ بعمل الدعوة في الأماكن الساحلية واختار ساحل «كراتشي»، وأرسل المنشي الله دتا والحاج شفيق مع جماعة إلى «كراتشي»، وبدأ العمل على ساحل «بومبائي» أيضاً بين الحجاج الكرام، وأرسلت عدة جماعات قبل شعبان إلى أماكن مختلفة، واستمر هذا النشاط الدعوي بين الحجاج إلى شهر ذي القعدة، عندما تغادر الباخرة الأخيرة، وكان يشغل بال الشيخ محمد يوسف هذا الموضوع كثيراً، وكان يهمله أن يقضي الحجاج أوقاتهم في أعمال دينية، ويشغلوا

بالدعوة، وكان يتابع سير عمل الدعوة في الحجاج، ويوجه إلى العاملين تعليمات في رسائله، ويقول في رسالة:

«يهمني هذه الأيام كثيراً، ويشغل بالي، أن هؤلاء الألوف من الحجاج الذين يتجدون عن حياتهم الأساسية والبدائية، إذا عادوا من سفرهم ولم تشحن بطارتهم، ولم تفعم قلوبهم بحرارة الإيمان، والعاطفة الدينية، فإن سفرهم سينتهي ولا شك في ذلك، ولكن تفوتهم هذه الفرصة الذهبية، ليطوفوا بالبيت ويجولوا في الحرم بالهيام والغرام، وذلك لتقصيرنا وقلة بضاعتنا وفتور همتنا في إيصال الدعوة إليهم، ولذلك يجب أن يأتي أحدكم ممن أتيت له فرصة الوصول إلى تلك الأماكن للعمل بين الحجاج، وأن القلوب بيد الله، ولا يعلم أحد ما هي الساعة التي يقبل الله فيها هذا المجهود المتواضع، فيقدر انفتاح مجال من مجالات حياة الرسول ﷺ المباركة بفضله ومثله».

ويكتب في رسالة إلى بعض العاملين في الحجاج الذين وفقهم الله في توجيه بعض الحجاج إلى عمل الدعوة:

«تلقيت أخبار المساعي الطيبة والصالح والخير، من رسائلكم وسررت بها كثيراً، جعل الله سبحانه وتعالى بلطفه وكرمه هذه المجهودات المتواضعة الضئيلة وسيلة للعودة إلى الإيمان الاجتماعي، والعودة إلى المنهج النبوي الكريم في العالم كله، المنهج الذي تركه الرسول ﷺ لأمته يجب أن ينظر إلى العمل السابق، ويعترف بالتقصير فيه، ويزاد عمل التوبة والاستغفار ويضاعف المجهود، وتكشف المساعي في المستقبل بوضع مجال أوسع للعمل في عين الاعتبار، ويجب أن يستمر الاتصال بالحجاج الكرام الذين أرسلتم لتعليم الدين والتجوال في مجال الدعوة على منهج الصحابة الكرام وأن يرغبوا في مضاعفة مجهودهم والاستقامة في العمل بكتابة الرسائل إليهم كوسيلة للتحريض والتأكيد، وإلاً فلتضرعوا إلى الله سبحانه وتعالى، وتدعوه بكل خشوع وابتهاال، لينجز الحجاج ما وعدوه، ولتكتبوا إلى الصالحين للدعاء لتحقيق هذه الوعود».

وكان من نتيجة اهتمام الشيخ محمد يوسف، أن بدأ العمل في الموانئ في

المرحلة الأولى، وازداد قوة وانتشاراً بمر الأيام، وفي السنوات الأخيرة كان يبدأ هذا العمل قبل شهر من بدء ارتحال الحجاج إلى الموانئ، ويقول الشيخ محمد عمر البالنهوري في رسالة إلى أحد العاملين في الدعوة:

«يقوم أكثر من ستين شخصاً بنشاطات الدعوة في الحجاج الكرام، من جولة دعوية وحلقات للتعليم، وتشكيل جماعات، وتنظيم حلقات الذكر والدعاء، ويرسل الحجاج الكرام للدعوة في الحجاج، كما يجري تشكيل جماعة للدعوة داخل الباخرة أيضاً، ويعيّن أمير، ويرحل الحجاج العاملون في مكة المكرمة والمدينة المنورة بعزم أكيد للعمل بعد عودتهم».

الدعوة على ظهر السفينة:

تنقضي أيام الرحلة على السفينة عادةً بدون شغل، ولا يتم الحجاج الذين يسافرون إلى «جدة» عن طريق «البحرين» و«البصرة» أو «عدن» و«كامران» بتأدية الصلوات في أوقاتها، ويشغلون أوقاتهم الفارغة في أعمال غير مجدية، بل يضيعونها في بعض الأشغال المضادة.

كان الشيخ محمد يوسف يوجه توجيهات إلى الجماعة التي تقوم بالدعوة في أوساط الحجاج، أن ينبهوا الحجاج بصفة خاصة إلى ألا يضيعوا أوقاتهم خلال رحلتهم في الباخرة، بل يقضوا أوقاتهم في تعلم مسائل الصلاة والحج، وأن تحافظ الجماعات على المبادئ وأن تضع برنامجاً، منسقاً ليتعلم الحجاج أمور الدين، بل يتجولوا دعاة.

أرسل الشيخ أبو الحسن علي الحسيني الندوي رسالة إلى الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي في ٢٥/شعبان ١٣٦٦هـ من الباخرة، وهو بين «عدن» و«كامران»، وتلقي هذه الرسالة الضوء على منهج عمل الدعوة في الباخرة، نقتبس منها:

«تحولت باخرتنا حياً دعوياً متجولاً، نؤذن في أوقات الصلاة، ونقيم الصلاة بالجماعة، يشترك فيها معظم الحجاج، ويمتلئ كل مكان يليق بالصلاة بالمصلين، حتى المكتبة يصلي فيها الناس وكل مكان يجاورها يمتلئ بالمصلين، ويلقي الشيخ

زين العابدين كل يوم خطاباً، وأحياناً يتحدث الشيخ عبد الملك، وتقام حلقة التعليم في الصباح، وبعد العصر نقوم بجولة في الباخرة، ونلتقي بالحجاج، ونحدث معهم حول الدعوة، وفي الصباح نقرأ كتب الفضائل، وهكذا لا نحرم نحن الغرباء من بركاتكم وفيوضكم».

ويكتب أحد الدعاة الذين سافروا مع جماعة دعوية للحج: «انقضى هذا السفر بحمد الله في أعمال الدعوة من البداية إلى النهاية، وسار نظام الدعوة كالعادة في «ميناء بومباي» وفي الباخرة، وبعد الوصول إلى «جدة» أقيمت الصلاة في الباخرة في خمسة مواضع من الدرجة الأولى إلى السفلى، وكانت حلقات التعليم تعقد بعد كل صلاة، ويجري نظام التشكيل للجماعة، كما كان يعقد اجتماع للنساء في كل يوم مرة، وتعاون العلماء من الحجاج معنا واشتركوا في نشاطنا، وألقوا خطبهم بالميكروفون في مناسك خاصة».

في أرض الحجاز:

نصبت الجماعات التي وصلت إلى «الحجاز» خيامها، حيث يتركز الحجاج كمنزل الحجاج أو دور المعلمين، وكانت هذه الجماعات تعقد أولاً اجتماعها في دور المعلمين أو في أماكن أخرى مخصصة للحجاج، وتقوم بجولات بينهم، وتركز على منزل الحجاج حيث يقيم أكبر عدد من الحجاج، وتعد الاجتماعات وتقيم حلقات التعليم في مسجده، ويلتقي الدعاة بالحجاج في غرفهم، وفي مراكز أخرى يجتمعون فيها، ويوجهون إليهم الدعوة، وفي الحرم المكي الشريف كان مركز عمل الجماعة أمام باب الزيارة خلف المصلي الحنفي، عقدت فيه حلقات التعليم، ولاقت الجماعات في بداية الأمر صعوبات كثيرة، لكن زالت هذه الصعاب تدريجياً، ويشترك في هذه الحلقات الحجاج والمهاجرون، وبعد الحج أقامت الجماعة أربعين يوماً في «مكة المكرمة» من أجل الدعوة، كانت تقوم فيها بجولات دعوية ولقاءات شخصية، واشترك في هذه الجماعة الأولى المصلح الديني المعروف من «السند»، وهو الشيخ هاشم خان الذي انضم إلى هذه الحركة في عبد الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي.

في «المدينة المنورة» :

بعد أربعين يوماً توجهت الجماعة إلى «المدينة المنورة»، وكان النظام في «المدينة المنورة» كالنظام المتبع في «مكة المكرمة»، وهو عقد حلقات التعليم والجمعة، واللقاءات الشخصية، وجمع الناس باللقاءات الشخصية إلى أماكن الاجتماع، وتفضل الشيخ حبيب أحمد المدني ابن الشيخ السيد محمود، الشقيق الأصغر لشيخ الإسلام حسين أحمد المدني، وهو من أثرياء «المدينة المنورة» ومن أعيانها ويدير مدرسة العلوم الشرعية بالمدينة المنورة بجوار الحرم الشريف، تفضل بتخصيص دار في زقاق، بجوار المدرسة الشرعية، تقيم فيها الجماعة وتباشر منها نشاطاتها الدعوية، فكانت الاجتماعات تعقد في هذه الدار، وانتشر هذا العمل أولاً في دوائر الباكستانيين والهنود، وكان بعض العرب يشتركون في هذه الاجتماعات، ولكن عددهم كان في أول الأمر قليلاً، وقرر الشيخ عبيد الله البلياوي، والشيخ نور محمد الميواتي، والشيخ محمد واصف التركستاني تمديد مدة إقامتهم إلى سنة كاملة، وبذل هؤلاء العلماء جهوداً مركزة مكثفة في نشر الدعوة في المهاجرين بصفة خاصة، ووضع أساس لعمل الدعوة، وفي هذا العهد بدأ عمل الدعوة يتغلغل إلى أوساط العرب، وتعرف عدد من أعيان المدينة من العرب، وأصحاب النفوذ، ورجالات العلم على هذا المنهج للدعوة، وبدأوا يتعاونون معنا.

في رباط الحجاج :

توجد في المدينتين المقدستين رباطات للحجاج، كـ «رباط بهوپال»، «رباط تونك»، و «رباط حيدرآباد» وغيرها، يقيم فيها الحجاج والمعمرون، فكان هؤلاء الدعاة يزورون هذه الرباطات، ويطبقون الاتصال بالمقيمين، ويوجهون إليهم الدعوة لحضور اجتماعاتهم، واختير لهذا العمل «رباط كشمير» أولاً، وكان يقيم فيه مهاجر هندي، وهو الشيخ محمد خياط، ووصل أولاً الشيخ عبيد الله البلياوي مع جماعة إلى هذا الرباط، وأقام في غرفة الله بخش المهاجر، وجعلها منطلقاً للدعوة بين الحجاج المقيمين في الرباط، وعقد اجتماعاً، تحدث فيه الشيخ نور محمد الميواتي، والشيخ محمد واصف التركستاني، وكان هذا الاجتماع نواة للاجتماعات

التي عقدت في المنطقة، وبهذا الطريق بدأ عمل الدعوة في الرباطات، وعقدت اجتماعات فيها.

جولات واجتماعات في أزقة «المدينة» وأحيائها:

اتخذت الدعوة لربط الحجاج بهذا العمل وإيناسهم به طريقة وهي أن توجه إليهم الدعوة للتنقل في المناطق المجاورة لهذه المدينة المقدسة كسبيل للتشويق، وربط هذه السياحة بالدعوة، فقام المسؤولون عن الدعوة بوضع نظام له، وأرسلوا الجماعات إلى القرى المجاورة لليلة أو ليلتين للتجول فيها وفي أحيائها، وشغل أوقاتهم بالتعليم والدعوة خلال هذه الجولات، فكان من تأثير هذه الطريقة أن اشترك في هذا العمل الحجاج الذين كانت أذهانهم فارغة من كل شيء، وكان لا يهمهم إلا تأدية المناسك، فانخرطوا في سلك الدعوة والدعاة، ونشأت فيهم العاطفة الدينية، وسرت فيهم الروح الإيمانية، وتحول حجهم من مجرد تأدية الشعائر إلى رحلة إيمانية، وعادت الحياة إلى حجهم وعرفوا حقيقة الحج.

وبفضل جهود هؤلاء الدعاة، انتقلت جماعة للحجاج والمهاجرين إلى بعض الأحياء العربية الصميمة، وامتزج رجالها بالبيئة العربية الخاصة، وقضوا أوقاتهم في جو ديني، ومكان مفتوح بعيد عن ضوضاء المدن، وكان من هذه الأماكن التي زارتها هذه الجماعات، «جرول» في «مكة المكرمة» و«وادي أحد»، و«قباء»، و«العوالي»، و«وادي عقيق» وغيرها من الأماكن في «المدينة المنورة»، واستفاد الدعاة من هذه الجولات كثيراً وعادوا حاملين العواطف الدينية، والمشاعر الروحانية المضاعفة.

النتائج الطيبة والثمار الحسنة:

اهتم الشيخ محمد يوسف بعمل الدعوة في الحجاج، فكان يواظب على توجيه الجماعات إلى أماكن اجتماع الحجاج في كل موسم، وبدأت الجماعات تتوجه إلى هذه الأماكن من «الهند» و«باكستان» راجلة وراكبة، وكان يقيم بعض العاملين من هذه الجماعات في هذه المواضع سنة أو أقل منها، وهكذا استمر العمل، وازداد عدد العاملين.

خلال رحلة الشيخ محمد يوسف الأخيرة إلى «باكستان» في شوال ١٣٨٤هـ كانت عدة جماعات مشغولة بعمل الدعوة في الحجاج بـ «الحجاز»، ويصف المقرئ بدر الدين الميواتي إحدى هذه الرحلات للعمل في الحجاج في رسالة وجهها إلى شيخ الحديث محمد زكريا الكاندهلوي:

«ركب هذا الفقير بفضل الله وكرمه، وبفضل دعواتكم ومحبتكم ورعايتكم، الباخرة مع الشيخ محمد إسحاق الميواتي، والشيخ محمد سلمان الغجراتي، والشيخ عبد الرحمن من ميناء «بومبائي» إلى الأرض المقدسة، وبعد التشاور مع الإخوة والزملاء وضعنا نظام تأدية الصلوات بالجماعة في أوقاتها في الباخرة، وإلقاء الخطب في الصباح والمساء، وإقامة حلقات التعليم، والقيام بالجولات الدعوية الفردية والجماعية، وحث الحجاج على المحافظة على أوقاتهم في أيام الحج، ولفت انتباههم إلى الواجبات والفرائض، والآداب في المناسك، ووصلنا بسلامة الله إلى «جدة»، واستقبلنا على الميناء الإخوة القادمون من «مكة المكرمة»، واستغرقت إجراءات تفتيش الجوازات والجمرك، بعض الوقت.

وفي هذه المدة كان الإخوة يجتمعون في المسجد، ويواصلون نظامهم، وبعد جهد يسير خرجت جماعة من «جدة» إلى «مكة المكرمة» راجلة، وبعد الغسل في «ذي طوى» دخلت هذه الجماعة عن طريق «معللة» في «مكة المكرمة»، ووصلت إلى «مكة المكرمة» حسب المشورة مباشرة، قضينا شهر رمضان كاملاً في الحرم الشريف، وواصلنا جهود الدعوة، ونشرنا هذا المنهج خلال الشهر المبارك بكل اهتمام، وكانت حلقات التعليم تعقد في الحرم الشريف للناطقين بالأردية والناطقين بالعربية كليهما، كما كانت تنظم جولات في أحياء «مكة»، وتخرج جماعات لعشرة أيام إلى خارج البلدة، وقد وفقنا الله للاعتكاف في العشرة الأخيرة من رمضان، ووصل اليوم الشيخ مسعود بجماعة إلى «المدينة المنورة» من «مكة المكرمة» بعد أن قضوا أسبوعين في الدعوة في الطريق وفي «المدينة المنورة» يجري هذا النظام، ويبدل الإخوة مساعيهم بكل اهتمام وشوق، وتخرج جماعات لثلاثة أيام إلى «أحد» و«جرف» و«مشرب إبراهيم» وغيرها من الأماكن.

الاتصال بطبقة الأغنياء والمسؤولين عن الدعوة:

انتقل عدد من كبار الدعاة الذين كانوا يشغلون مناصب عليا إلى «الحجاز»، وتولوا أهم المناصب فيها، وفي مقدمتهم الحاج أرشد، الذي كان مسؤولاً كبيراً في وزارة البرق والبريد والهاتف في «باكستان»، وعندما وضعت في «السعودية» خطة لإنشاء نظام تلقائي للهواتف حصلت الحكومة على خدمات الخبراء في هذا القطاع، وكان من السعداء الذين تم انتخابهم لتحمل هذه المسؤولية الحاج أرشد، وكان من المصادفة الغربية أنه كان بجانب خبرته الفنية الفائقة وكفاءاته المتميزة في هذا المجال، كان من الدعاة المتحمسين والمجاهدين في سبيله، وأهم أعضاء هذه الحركة الدعوية.

واختار الحاج أرشد لمصلحته موظفين وفنيين وراعى في الاختبار صلتهم بالدعوة، وعاطفتهم الدينية لكون مركز عملهم في «الحجاز»، واهتم بأن يكونوا لائقين بعملهم ومكان عملهم، وأن يساعده في العمل الفني والدعوي معاً، وبوصول الحاج أرشد إلى «الحجاز» لتولي هذه المهمة انتعش عمل الدعوة أيضاً، وسرت فيهم روح جديدة، وانتشر هذا العمل إلى مجالات جديدة، وفتحت له آفاق جديدة، وقامت صلة بينه وبين رجال الطبقات العليا، وأصحاب المناصب ورجال النفوذ، وكان يصل في كل موسم وفد يتكون من كبار المسؤولين من «باكستان»، وكان الحاج أرشد واسطة بينهم وبين العاملين في مجال الدعوة، وأصبح الحاج أرشد وسيلة لإيصال هذه الفكرة إليهم، وكانوا قبل ذلك لا يحملون أي فكرة عن هذا المنهج، بل كانوا يستوحشون منه لبعدهم عن الدعوة ورجالها.

وفي الجانب الآخر كسب الحاج أرشد بمهارته الفنية، وخبرته الفائقة وإنجازاته المتميزة، وجهده المتفاني في أداء مسؤولياته سمعة طيبة ونفوذاً كبيراً في الدوائر الرسمية العليا في «السعودية» وكسب ودهم وتأيدهم، وخلفه تأثيراً عميقاً على نفوس العاملين تحت إشرافه بشخصيته الساحرة.

وبدأ الحاج أرشد بتعاون أصدقائه وزملائه عمل الدعوة في الطبقات المثقفة العليا وأصحاب النفوذ في الموظفين والرسميين ورجال الأعمال بروح المحبة

والمودة، واجتهد فيه اجتهاداً بالغاً، واختار له أسلوباً مثقفاً يميل النفوس ويلين القلوب وحكمة بالغة تقنع العقول وتجذب البعداء، فصارت منطقة «الحجاز» بفضل هذه المساعي الطيبة مركزاً لعمل الدعوة، واتصل به رجال الطبقات العليا إلى حد بعيد.

ولا شك أن الذين شقوا هذه الطريق، ومهدوه للدعوة وكان لهم السبق فيه، هم الشيخ عبيد الله البلياي، والشيخ سعيد خان الكهروي والمفتي زين العابدين اللاثل پوري، والحاج فضل الرحيم المراد آبادي، والشيخ عبد الملك المراد آبادي وعدد آخر من المهاجرين الذين واجهوا الشدائد والمحن في فتح هذا الطريق، ووضع أسس هذا العمل الذي كان غريباً في بداية الأمر، فقد اعترضت في سبيلهم في بعض الأحوال عقبات ومعوقات يصعب تذليلها، وكانت تخيب آمالهم، وتثني همهم، وتفتت عزائمهم، لكنهم لم يياسوا ولم يقطنوا بل واصلوا جهودهم واثقين بنصرة الله وثبتوا وصابروا، ورابطوا، فأثمرت هذه الجهود، وظهرت نتائج مشجعة، ولا يسع هذا المجال لذكر تلك الصعوبات التي واجهتهم.

الاتصال بالسكان المحليين :

كان من المشاكل التي واجهتهم أن الشرطة في «الحجاز» كانت تستوحش من الجماعات، وأحياناً كانت تعترض في تنقلاتها، وتمنعها من القيام بأعمالها في بعض الأحيان، وذكر الشيخ عبيد الله البلياي في هذا الأمر للبحث عن مخرج، ومن توفيق الله اكتشف بذهنه الثاقب وتفقهه الفائق وحكمته البالغة طريقاً، وهو أنه تقرب إلى الشيخ السيد محمود، الشقيق الأصغر للشيخ السيد أحمد الفيض آبادي، وشيخ الإسلام حسين أحمد المدني، وهو من أثرياء «المدينة المنورة»، ومن أصحاب النفوذ في الدوائر الرسمية، وكان يعرف الشيخ محمد إلياس والشيخ محمد يوسف وأسرتهما معرفة شخصية، ويعرف نشأة هذه الدعوة، ومنهجها وتردد إليه، ووجدت الثقة بينهما بكثرة اللقاءات وتبادل وجهات النظر، وتوجيهه وإذنه بدأ العمل في أوساط الأعراب وبواسطة الشيخ محمود أيضاً، أقام اتصالاً بقاضي «المدينة المنورة» الشيخ ابن زاحم، وعرفه بهذا المنهج، وكسب ثقته وتأييده، لكي لا يكون أي مانع شرعي في سبيل القيام بهذه الدعوة في «المدينة المنورة».

واطلع الشيخ عبيد الله قاضي المدينة على منهج هذه الحركة وأهدافها، وقرأ عليه مقالة عن الدعوة، فأعرب القاضي عن تقديره وموافقته، وكان المجلس الذي قرأ فيه الشيخ عبيد الله مقالته، يضم عدداً كبيراً من أئمة مساجد «المدينة المنورة»، فسمع الجميع مقالته، ونصح الشيخ محمود الشيخ عبيد الله أمام قاضي المدينة أن يكون على اتصال به، ويطلع على نشاطات هذه الجماعة، ويلاقيه كل أسبوع لذلك، فمهد الطريق بتعاون قاضي المدينة للدعوة في المدينة، وبمساعدة الشيخ محمود، تم اللقاء بين الشيخ عبيد الله وبين أمير المدينة، وبوساطة أمير المدينة زالت جميع العقبات في سبيل الدعوة، وانتهت الموانع التي كانت تحول دون العمل بمراقبة رجال الشرطة، وبعد ذلك توجهت الجماعة إلى العوالي، وبدأت الدعوة في أوساط البدو علناً، وكانت هذه الجماعة تضم بعض السودانيين واليمنيين والمراكشيين.

قبائل البدو:

ذهبت جماعة إلى بعض القبائل من البدو التي لم تكن تعرف شيئاً عن الدين، وكانت هذه الجماعة تشتمل على بعض العلماء، ويصف الشيخ أبو الحسن علي الحسيني الندوي هذه الجولة بالكلمات الآتية، ويذكر فيها انطباعاته عن وضع هذه القبائل: «هذه هي الفرصة الأولى للخروج إلى خارج المدينة، تحيط بـ «المدينة المنورة» الحداثق، وعندما تنضج الثمار والتمر، تنتقل قبائل كثيرة إلى مناطق قريبة من هذه الحداثق، ويقيم رجالها خيامهم بالقرب منها، ويعيشون فيها إلى أن ينتهي ذلك الفصل، وقد اتفق لي أن زرت منطقة تبعد عن المدينة بحوالي سبعة أو ثمانية أميال في الشمال، وهي «الزهرة»، و «مقبولة»، و «سنبلة»، و «مزنة»، وقمنا بجولة في خيام البدو، والحداثق، وعقدنا الاجتماعات في مساجدهم، وشاهدنا مزاياهم وشيمهم العربية من حسن الوفادة، والبساطة في المعيشة، والانقياد للحق، ما لم نشاهد مثله في سكان المدن، كما شاهدنا من الجهل والبعد عن الدين ما يبعث على الأسف الشديد والحزن العميق، وعلمنا أن بعض القبائل التي تنتسب إلى «تميم»، و «مزنة»، و «جهينة» من البدو، وهي تعيش على مقربة من المدينة، يدفنون موتاهم بدون صلاة الجنازة، لعدم وجود من يصلي بهم، وتعم الأخطاء في قراءة سورة

الفاتحة، فإنهم يضيفون إليها بعض الألفاظ بدون اختتام، وشعرنا بضرورة مواصلة العمل فيهم، فنرى أن يعيش المعلمون والدعاة لمدة في أوساطهم عندما يعودون إلى قبائلهم، فإن الدعوة العابرة بين الرجل والمسافرين قد لا تكون له آثار بعيدة المدى، ويفكر إخوتنا أن ينظموا هذا العمل بعد الحج».

وفي «مكة المكرمة» أقام الشيخ عبيد الله البلياوي الصلة بأساتذة الحرم، وتحدث إليهم، واستشارهم، واستفاد منهم وهكذا فتحت مجالات العمل في المكانين، إلا أن فتح آفاق العمل الجديدة أحدث مشاكل جديدة أيضاً، وكان الدعاة يطلعون الشيخ محمد يوسف على هذه العقبات والمشاكل.

مشورة مهمة في صدد العمل في الحجاز:

ونظراً لهذه المشاكل التي نشأت في سبيل الدعوة في الأماكن العربية جمع الشيخ محمد يوسف الإخوة العاملين من أصحاب الخبرة في عمل الدعوة في «الحجاز»، للنظر في منهج الدعوة، والتفكير في التدابير لمواصلة العمل وتنميته، والبحث عن مجالات جديدة، وأرسل من أجل ذلك رسالة يشرح فيها أهمية هذه المشورة يقول فيها:

«إن العمل الذي أنجز حتى الآن في البلاد العربية خلال الموسم قد أحدث ظروفاً وملابسات يجب النظر فيها، وينبغي تحليلها بصورة جماعية، فإذا لم توضع خطة مركزة بعد التشاور بين الخبراء، الذين لهم اطلاع بمجربات الأمور، وظروف العمل، وطبيعة الوضع الذي يجري فيه، ولم يبذل جهد مضاعف لتوسيع نطاقه، فإن هذا العمل يخشى أن يقف عند الحد الذي وصل إليه، بل يخشى أن تضيق تلك الفرصة التي أتاحت ابتداء لهذه الجهود، وتغيب تلك الصور اللامعة التي تجلت حتى الآن، والإمكانات التي انفتحت، ولدراسة هذه الأوضاع قررنا عقد اجتماع بعد تفكير عميق، ليتضح جو العمل الذي تم تمهيده حتى الآن في جلسات متعددة، ولذلك نرجو أن تخصصوا لهذا العمل أقصى ما تستطيعون من الوقت وأن ترغبوا لإخواتكم الذين لهم خبرة في هذا المجال، ويجب أن لا تقل مدة إقامتكم أقل من أسبوع أو عشرة أيام».

وبعد هذه الجلسة الاستشارية عقدت جلسة أخرى بعد عامين في ١٣٦٨هـ، جرى فيها تبادل وجهات النظر وبحث فيها خطط لتوسيع مجال العمل ودعمه في الحجاز، اشترك في هذه الجلسة الاستشارية كبار العاملين في مجال الدعوة، والعلماء الذين لهم صلة بهذه الحركة، وتقرر من هذه الجلسة أن يواصل عمل الدعوة في الحجاز تحت إشراف الشيخ أبي الحسن علي الحسيني الندوي، وتوجيهاته بمراعاة الظروف، وطبيعة الحياة في المنطقة، وتقييم شخصيات في الحجاز بصورة دائمة للإشراف على تشكيل الجماعات وإرسالها إلى المناطق المجاورة، والبلدان القريبة، وأن يطلع الشيخ الندوي الجماعات التي تباشر عملها في الحجاز أن تنتقل إلى المناطق الأخرى بعد تأدية العمرة، على مبادئ الجماعة، ويعرفها بمنهجها، لتباشر نشاطاتها الدعوية في ضوء من هذه التعليمات، وعلى معرفة بمنهج الجماعة المقرر، وكتب الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي في هذا الصدد رسالة طويلة في ذي القعدة ١٣٨١هـ الموافق إبريل/ نيسان ١٩٦٢م عندما كانت عدة جماعات تسافر في سبيل الدعوة بعد العمرة، فكتب الشيخ رسالة تشتمل على التوجيهات، تقدم هنا جزءاً من هذه الرسالة:

«جزاكم الله خير الجزاء وأجزله، فقد خطوتم خطوة كبيرة لإحياء أعمال جسيمة قيمة نافعة بتوفيق من الله رب العزة والجلال، وفضله العظيم، وقد أوصلكم الله سبحانه وتعالى بمتنه وإحسانه إلى مكان يشع منه نور الهداية على العالم كله، والتقى حولكم ممثلون من أنحاء العالم كله، وأتاح لكم الفرصة للاتصال بهم، فعليكم أن تغتنموا هذه الفرصة الغالية، وتشغلوا أنفسكم بأعمال فيها حياة الأمة، ونهضتها ورقيتها وازدهارها، ويمكن فيها أمل انبعاث الأمة بالتمسك بتلك الأعمال، فإذا انتعشت هذه الأعمال، وأنت إلى حيز الوجود تبعث في هذه الأمة حياة جديدة، وعليكم أن ترسلوا الجماعات للجولة الدعوية بكثرة، ويجب أن يواصل الجهد في جميع مواضع الإجابة والقبول، وببذل أقصى مجهود للدعوة جماعياً وفردياً، وتعمر مجالس التعليم، ويداوم على التسبيح والذكر لله، ويسود جو التعاون والعطف، والمواساة والخدمة، ويعم روح التطوع والاحتساب والمحبة والايثار، ويوجه إلى ذلك اهتمام خاص، وأن تعد الاجتماعات أخرى لإرسالها إلى المناطق التي توجهت

إليها جماعات المعتمرين والحجاج وأن يدعى الناس إلى الخروج إلى مناطقنا، وينبغي أن تبذل جميع هذه الجهود والمسعى بفكر واهتمام، وإيمان ويقين بنصرة الله تعالى وتأييده وبثقة كاملة في استجابة الدعوات، وقبولها عند الله متضرعين إليه ليفتح باب الهداية والرشاد، ويدعى الآخرون أيضاً إلى الاهتمام بالدعاء والابتغال إلى الله والإجابة إليه.

الحاجة إلى داع وعالم له قدرة على التعبير بالعربية:

كانت الدعوة والاجتهاد في سبيلها إلى عام ١٩٤٦م في الحجاز مقصوراً على المهاجرين والحجاج الهنود بصفة عامة لمدة سنة، ولعدم قدرتهم الكاملة على التعبير والبيان لم ينتشر هذه العمل في علماء العرب، والدوائر المثقفة، وكان الشيخ عبيد الله البلياوي بجهوده المضنية، وسعيه المتواصل، وخلقه وتواضعه، وإكرامه لأهل العلم والدين، واحترامه للحرم وسكان الحرم، قد مهد السبيل لعمل الدعوة في أوساط العرب، وتعريف هذه الحركة إليهم إلى حد كبير، وزالت بهذه المساعي المتواصلة، والتأثير الشخصي له الوحشة بهذا المنهج، وبدأت بعض النفوس تقبل عليه، وخرج عدد من إخواننا العرب من أوطانهم في سبيل الدعوة، وخمدت بعض المعارضات والمناوشات التي تحدث عادة ببدأ عمل جديد ودعوة جديدة بمعالجة المخاوف والشبهات في أول الأمر.

فقد أقام الصلات بعلماء الحرمين، وخاصة الشيخ السيد علوي المالكي، والشيخ ابن عربي، والشيخ أمين الكتبي، والشيخ حسن المشاط، وهم أساطين الدرس الأربعة في الحرم المكي، فكان يحضر مجالسهم ويزورهم، ويتشاور معهم، كذلك كانت له صلات بعلماء نجد والقضاة، وكان يستفيد منهم علمياً، وبذلك زالت الحواجز بين هؤلاء العلماء وأصحاب النفوذ وبين المسؤولين عن الجماعة، وتأثر هؤلاء المشايخ بإخلاص رجال جماعة الدعوة والتبليغ، ومجاهدتهم وبساطتهم، ونظروا إليهم بنظرة الاستحسان والتقدير، إلا أن كبار علماء الحرمين كانوا بعيدين عن هذه الحركة وغير متأثرين بها، فكانت الحاجة ماسة إلى شخصية تملك قدرة على التعبير باللغة العربية، وله مكانة في النفوس بعلمه وأدبه، ويوصل هذه الدعوة إلى

الطبقة العليا من العلماء المثقفين، وينقل إليهم هذه الفكرة بصورة مؤثرة تجذب القلوب وتميل النفوس.

وأبلغ الشيخ عبيد الله البليايي الشيخ محمد يوسف، وأطلعته على هذه الظروف، وأكد ضرورة إرسال مثل هذه الشخصية العلمية المؤثرة القوية، وكان هذا الفكر يراود ذهن الشيخ محمد يوسف منذ مدة، وصادف أن انعقد على دعوة جواهر لال نهرو رئيس وزراء الهند المستقلة في عام ١٩٤٦م مؤتمر للدول الآسيوية، اشترك فيه عدد كبير من ممثلي البلدان العربية، فاستدعى الشيخ محمد يوسف الشيخ أبا الحسن علي الحسيني الندوي إلى «دلهي» ليخاطب هؤلاء الممثلين، ويوجه إليهم الدعوة، وأعد الشيخ أبو الحسن علي الحسيني الندوي مقالة لإلقائها على هؤلاء الممثلين بالعربية، ولكن لأسباب قاهرة لم يتمكن من إلقاء هذه الكلمة، واختتم المؤتمر جلساته، وكانت فكرة إرسال شخصية علمية إلى «الحجاز» لتوجيه الدعوة إلى العرب قد رسخت في ذهن الشيخ محمد يوسف، ليخاطب علماء العرب بأسلوب مؤثر قوي، وبطلاقة وأناقة، يؤثر في قلوبهم، ويشعرهم بأهمية هذا العمل، ويؤنسهم به، ويزيل العقبات والعراقيل التي تحول بسبب عدم القدرة على التعبير، وتنتشر هذه الدعوة في أوساط العلماء.

اختيار الشيخ أبي الحسن علي الحسيني الندوي لهذه الدورة.. ورحلته إلى الحجاز:

رغب الشيخ محمد يوسف الشيخ أبا الحسن علي الحسيني الندوي في الرحلة إلى الحجاز لهذا الغرض بناءً على طلب الشيخ عبيد الله البليايي، وأقنعه بأهمية هذا العمل، واستجاز الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي له، فسافر الشيخ أبو الحسن علي الحسيني الندوي في ٢٦/يونيو/حزيران ١٩٤٧م إلى الحجاز عن طريق «كراتشي»، وأقام في «كراتشي» إحدى عشر يوماً، وصل خلالها الشيخ محمد يوسف أيضاً إلى «كراتشي» ورافق الشيخ الندوي في هذه الرحلة بعض كبار الدعاة الذين كانوا يشتغلون بالدعوة منذ مدة طويلة، وكان لهم خبرة فيها، ولم يصل في ذلك الحين أي كتاب مطبوع للشيخ أبي الحسن علي الحسيني الندوي إلى أيدي العرب للتعريف به، وبمكانته العلمية،

فطبعت تلك المقالة التي كان قد أعدها للممثلين العرب الذين شاركوا في المؤتمر الآسيوي في مطبعة لطيفي بـ «دلهي»، وهذه هي المقالة الأولى التي طبعت له بعنوان «إلى ممثلي البلاد الإسلامية»، وعملت هذه الرسالة عملها، وصارت وسيلة للتعريف بمكانة الشيخ أبي الحسن علي الحسيني الندوي، وعمت في أوساط العرب.

الاجتماع وبدأ التعريف بالجماعة:

وصلت هذه الجماعة إلى «جدة» في ٢٩/شعبان ١٣٦٦هـ، وكانت الباخرة قد وقفت في «كامران» قبل «جدة» لوقت قصير، فلما صعد رجال الشرطة العرب والضباط للتفتيش في الباخرة انتهزت هذه الفرصة، وقدمت إليهم هذا الكتيب، وكسب الدعاة هذه الفترة للدعوة، أقامت هذه الجماعة في «جدة» ثلاثة أيام، ثم توجهت إلى «المدينة المنورة» في ٣/رمضان، وفور وصولها إلى «المدينة المنورة» بدأت سلسلة من الاجتماعات في طبقات مختلفة، وكانت تقوم بصفة خاصة بجولة دعوية بعد صلاة الجمعة في المسجد النبوي، وتعد اجتماعات في دار متصلة بالمسجد النبوي، واشترك في الاجتماع الأول الذي عقد يوم الجمعة الشيخ عبد الله الساس مدير المدرسة العزيزية بـ «مكة المكرمة»، وتعرف على نشاطات الجماعة، وتحدث مع الإخوة العاملين وألقى كلمة في تأييد هذا العمل، ازداد بها نشاط الجماعة ونالت القبول.

اجتماع الأتراك:

كان الشيخ عثمان الساعاتي عالماً تركياً له رسوخ في العلم، وقدرة فائقة في اللغة العربية، كان يدرس القرآن الكريم في «المدينة المنورة»، فعقد اجتماعاً للأتراك في داره، واستدعى الشيخ أبا الحسن علي الحسيني لإلقاء الكلمة أمام الأتراك، فألقى الشيخ أبو الحسن علي الحسيني الندوي كلمة مؤثرة، رقت بها قلوب المستمعين وساد التأثير فيهم، وكان موضوع كلمة الشيخ الندوي «أهمية الدعوة ودور الأتراك في حماية الدين والعالم الإسلامي ومميزاتهم القومية ومسؤوليتهم في الوضع الراهن»، وحث على النهضة الإسلامية، ونقل الشيخ عثمان أفندي كلمة الشيخ الندوي بأسلوب مؤثر بليغ إلى التركية.

حلقات العلماء :

كانت تقام حلقات العلماء بصورة عامة بعد صلاة التراويح، وكان الشيخ الندوي يتحدث في هذه الحلقات عامة، وتوزع مقالة الشيخ المذكورة على الحاضرين، وكان يشترك في هذه الحلقات العلماء المصريون، والشاميون، والحجازيون، والعراقيون، والأتراك، والمشايخ والأدباء. وقد كانت هذه الحلقات نواة للدعوة في الأدباء والعلماء والمشايخ، وانطلقت منها الدعوة إلى الطبقات المثقفة، وكان لها دور حاسم في انتشار الدعوة في المناطق العربية، وصادف أن اشترك في بعض الاجتماعات مسؤولون، وأصحاب نفوذ وشعبية كان لهم تأثير ونفوذ على مختلف طبقات الشعب، وعقد اجتماع كبير في المدرسة الشرعية بعد شهر رمضان المبارك، اشترك فيه عدد من علماء مصر، ورحبوا بهذا العمل ترحيباً حاراً، واستقبلوه استقبالاً شيقاً، وفي الوقت نفسه واصلت الجماعات جولتها في ضواحي «المدينة المنورة»، وضمت هذه الجماعات عدداً من العرب، وخاصة «العيون» و«أحد»، وأحيوا الليالي فيها، وعقدوا الاجتماعات واللقاءات في المنطقة.

الاتصالات بعلماء المدينة :

وصلت جماعة من «باكستان» الشرقية (البنغال) كان فيها الشيخ عبد العزيز اللكهنوي، وكان في المدينة شيخ من أصحاب العلم والصلاح، وهو السيد عبد الكريم المدني، وكان من مسترشديه عدد من البنغاليين، وتكريماً لهذه الجماعة القادمة من «بنغال» بـ «باكستان» الشرقية عقد اجتماعاً في «تكية مصرعيه»، وبالإضافة إلى ذلك جرت لقاءات مع قاضي «المدينة المنورة» الشيخ ابن زاحم، وابن التركي قاضي القضاة السابق، والشيخ محمد علي الحركان المدرس بالحرم المدني، والشيخ عبد الرحمن الإفريقي، والشيخ عثمان التركي، والشيخ صالح إمام المسجد النبوي، والشيخ إبراهيم حمدي مدير مكتبة شيخ الإسلام، وعدد من علماء مصر، وبهذه اللقاءات مع هذه النخبة الطيبة من العلماء والمشايخ أمكن تعميم الدعوة في أوساط العلماء، وكتب الشيخ أبو الحسن علي الحسيني الندوي رسائل إلى شقيقه الأكبر الدكتور عبد العلي الحسيني وشيخ الحديث الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، والشيخ

محمد منظور النعماني، يطلعهم على سير أعمال الدعوة في الحجاز، فيقول في رسالة أرسلها من «المدينة المنورة» إلى شقيقه الأكبر الدكتور عبد العلي الحسني:

«بدأت سلسلة الاجتماعات بين العرب واللقاءات معهم اليوم الثاني من وصولنا إلى أرض «الحجاز»، وعقد اجتماع للعرب يوم الجمعة بعد الصلاة، اشترك فيه عدد من كبار علماء نجد أيضاً، وقد نصرنا الله ووفقني للكلام والبيان فوق مستوى، وأعجب الناس به، وأعربوا عن تقديرهم وارتياحهم، ثم دعا أحد علماء الهند أصدقاءه من العرب إلى بيته، وتحدثنا إليهم، وبحثنا فرص العمل، وتبادلنا وجهات النظر، ثم عقد اجتماع في الجمعة الثانية أيضاً بعد الصلاة اشترك فيه بعض الموظفين في وزارة التعليم، وعلماء نجد، وبعد ما ألقى كلمتي، تحدث عدد منهم، ووعدوا بمعاونتهم في العمل، وعقد لقاء في دار أحد أطباء الأسنان، اشترك فيه أعيان المنطقة، وجرت كذلك لقاءات مع عدد من علماء المنطقة وشيوخها، وتعامل الجميع معنا معاملة حسنة، وسمعوا كلامنا بشغف وإعجاب وأحسنوا إلينا، وذلك من توفيق الله».

ويكتب في رسالة بعث بها إلى الشيخ محمد منظور النعماني:

«لما وصلت إلى الحجاز علمت أن عمل الدعوة الذي لا يزال في مرحلة بدائية لا يزال محصوراً في أوساط المهاجرين والمجاورين، ولم يلتفت إليه العلماء ولا المواطنون باهتمام، ولم يتعرفوا على هذا العمل الهام، ولا يقدرونه لعدم معرفتهم، وبعد وصولنا عقد الإخوة اجتماعات ولقاءات مع هؤلاء العلماء وسكان البلد، وأتيحت لنا الفرصة للقاء جميع علماء الحرمين، علماء نجد الموجودين هنا تقريباً».

يقول في رسالة بعث بها إلى شقيقه الأكبر الدكتور السيد عبد العلي الحسني:

«بدأت الاجتماعات تعقد منذ وصولنا، يشترك فيها الإخوة العرب، وقد عقد اجتماع للعرب بعد صلاة الجمعة، وكان من بين الذين حضروا هذا الاجتماع عدد من علماء نجد البارزين، وما كنا نعلم ذلك، وقد نصرنا الله نصراً عظيماً، ووفقنا لما هو أفضل وأعلى من كفاءتنا، وصلاحيتنا، وشرح لنا الصدور، ويسر لنا الأمر، ولقي الخطاب قبولاً واستجابة، وكان السرور بادياً من وجوه المستمعين».

وبعد الاجتماع وجه أحد العلماء الهنود الدعوة إلى جميع الإخوة العرب للغداء في بيته، وكانت هذه الفرصة أخرى للكلام، وشرح مبادئ الحركة، والتعريف بمنهج العمل، وتبادل وجهات النظر، وعقد اجتماع بعد صلاة الجمعة، في الأسبوع الثاني اشترك فيه بعض موظفي وزارة المعارف وعلماء نجد، وتحدث العلماء العرب بعد كلماتنا، وأكدوا لنا كل تأييد ونصر، وعقد اجتماع آخر في بيت أحد أطباء الأسنان اشترك فيه بعض الأعيان، وعلاوة على هذه الاجتماعات أتيت لي فرصة للقاء العلماء والمشايخ في هذه المنطقة، وشرح منهج الدعوة والتبليغ لهم، والحمد لله، أنهم سمعوا كلامنا باهتمام بالغ وتعاطفوا معنا.

وفي رسالة وجهها إلى الشيخ محمد منظور النعماني، كتب الشيخ الندوي:

«علمت بعد وصولي هنا أن عمل الدعوة لا يزال محدوداً، وهو محصور في دوائر المهاجرين والمجاورين للحرم، ولم ينل أي اهتمام لائق من المواطنين، وأهل العلم، ولا يوجد فيهم إقبال عليه، وانتهاز العاملون هنا فرصة وصولنا، فنظموا حلقات ولقاءات مع العلماء والدعاة وعلماء مكة وغيرهم من الأعيان، وأتيت لي فرصة للقاء معظم العلماء الموجودين، وعلماء الحرمين الشريفين وعلماء نجد، ولكن الأمر لم يتجاوز بعض الاعتراف والتقدير، وقد شعرت أن هناك عقبات ومشاكل إقليمية في سبيل الدعوة هنا، لا يمكن إدراكها من الخارج، ولذلك لم تتعمق جذور الدعوة في هذه التربة، ولم يعد هذا العمل إلا بمثابة الحبال على سطح الماء، وإنني أجتهد أن يتحول أحد من علماء نجد، وعلماء الحرمين الشريفين داعياً إلى الله على منهج هذه الدعوة، ولكن لم يبرز حتى الآن بريق من الأمل، وقد صادفت في بعض النفوس استعداداً لذلك، لكنهم لا يزالون يحملون بعض الشبهات، إلا أنهم ينظرون إلى هذا العمل بنظرة الإعجاب والتقدير».

وكتب إلى صديقه المخلص الشيخ محمد ناظم الندوي في رسالة له:

«بدأ عملنا بعد الصلاة والتراويح، تعقد اجتماعات محدودة في «المدينة المنورة» ويفوض إليّ أمر عرض الدعوة فيها، ثم تدور فناجين القهوة والشاي، وأضطر إلى شرب أكواب كثيرة لانتهاز فرصة اللقاء، وقد وصل ثلاثة من كبار علماء

«مكة المكرمة»، وأساتذة الحرم، أحدهم الشيخ محمد العربي، وهو من كبار أساتذة التاريخ والأنساب، والثاني الشيخ محمد أمين الكتبي، والثالث الشيخ حسن المشاط، وأتيحت لي فرصة اللقاء والتحدث إليهم.

الارتباط بعلماء مكة:

وصلت هذه الطائفة في منتصف ذي القعدة إلى «مكة المكرمة»، وعقدت عدة لقاءات مع علمائها، وكان الشيخ عبيد الله البليايي يقيم في مكة منذ مدة، منظم لقاءات بين الشيخ الندوي وهؤلاء العلماء، وخاصةً الشيخ العلامة العلوي المالكي وهو من العلماء المبرزين، وله يد طولى في علوم كثيرة، وهو خطيب وأديب معروف، وقد جرى بيننا حديث ودّي في جو مألوف، وأبدى الشيخ اهتمامه بالموضوع، وأكرمنا بلطفه، واستمرت اللقاءات بيننا، كما التقيت بالشيخ ابن الكتبي، والشيخ حسن المشاط، والشيخ ابن عربي، والشيخ محمد سويل، والشيخ عبد الرزاق حمزة، وسماحة إمام الحرم المكي الشريف، وعلماء آخرين في مناسبات مختلفة، وتبادلنا الآراء العلمية وبحثنا في الأمور الدعوية والإصلاحية، وبهذه اللقاءات زالت الوحشة التي تعم بالنسبة لعمل الدعوة في أذهان العلماء، وازداد الأنس والألفة، وضاعت الفجوة.

التعريف بعمل الدعوة في الأوساط العليا:

كانت أوساط العلماء ورجال الدين قد تعرفوا على هذا المنهج ولو بنطاق محدود، وكانوا متعاطفين مع هذا المنهج إلى حدّ كبير، ولكن أوساط الأدباء، ومعظمهم من الشباب كانت بعيدة عن هذا المنهج، لعدم معرفتهم به، بل كانت تستوحش منه إلى بعض الحد، وكان من هؤلاء الشيخ عبد القدوس الأنصاري مدير مجلة «المنهل» الذي كان رغم كونه من خريجي مدرسة العلوم الشرعية، وهي مدرسة دينية خالصة أديباً وصحفيّاً محضاً، تعرف الشيخ عبد القدوس الأنصاري على هذه الحركة بفضل هذه اللقاءات، وكان الشيخ أبو الحسن علي الحسيني الندوي يكثر من زيارة الشيخ عبد الرزاق حمزة إمام الحرم المكي، وكان عالماً متضلّعاً، بعيد النظر، ثاقب الفكر، رحب الصدر، وبواسطته جرى اللقاء مع سمو الأمير مساعد الذي كان

من الأسرة السعودية الحاكمة، وكان من أكثر الأمراء السعوديين علماً وثقافة، وحضر هذا اللقاء المفتي زين العابدين وكاتب هذه السطور.

وعلاوة على هذا اللقاء عقدت لقاءات علمية ودعوية أخرى مع العلماء والدعاة، واشتركنا في حفلات المدارس، وتحولت هذه اللقاءات والاجتماعات اجتماعات دعوية وعلمية باشتراك الشيخ أبي الحسن علي الحسيني الندوي وزملائه من رجال الدعوة والتبليغ.

وأخيراً توثقت العلاقات مع الشيخ عمر بن الحسن آل الشيخ وهو من ذرية الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وشقيق قاضي القضاة وشيخ الإسلام الشيخ عبد الله بن الحسن، ورئيس هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالرياض، وكانت له صلة خاصة بالأمير سعود بن عبد العزيز ولي عهد المملكة العربية السعودية، وكان من ثقافته، وبفضل الروابط به خابت مساعي الذين كانوا يشيرون الشكوك والشبهات في هذا المنهج ويعترضون عليه.

وبعد برهة من الزمن أتاحت فرصة للقاء الشيخ عبد الله بن الحسن الشقيق الأكبر للشيخ عمر بن الحسن، وكان هذا اللقاء نافعا ومثمرا لعمل الدعوة؛ لأنه عرف المنهج، وأعرب عن ارتياحه، وأبدى اهتمامه به وأيده، وكان بعض الناس قد أعطوه انطبعا سينا عن الجماعة، وقالوا له: إن رجال الجماعة هم فاسدو العقيدة، وكانوا يشيرون آراء فاسدة عن الجماعة ورجالها في أوساط العلماء أيضاً، ولكن الصلات مع العلماء والاتصال بأصحاب المناصب العليا، قد خيب هذه المساعي الفاسدة، وأزال هذه الشبهات المثارة، ودعم نشاط الحركة، ومهد لها طريق العمل.

بعث الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي برسالة إلى الشيخ أبي الحسن علي الحسيني الندوي في هذه الفترة يقول فيها:

«تقرر في مشورة جرت في آخر رمضان، أن يجري لقاءك مع وفد، مع جلالة الملك، لاطلاعه على هذا المنهج الدعوي، وتعريفه بكنهه، لكيلا يبقى أي شك وريبة عن هذا الطريق، ويتضح عنده أن هذه الجماعة لا صلة لها بالسياسة.

وبعد عودته من الحج والزيارة بعث سماحة الشيخ الندوي برسالة إلى سمو الأمير سعود بن عبد العزيز، ولي عهد المملكة العربية السعودية في ذلك الوقت، وحمل هذه الرسالة الشيخ عبيد الله البلياوي، وسلّمها إلى الشيخ عمر بن الحسن الذي قرأها أمام سمو الأمير سعود، ونشرت هذه الرسالة باسم «بين الجباية والهداية» فيما بعد.

العلامة السيد سليمان الندوي يتحدث في اجتماعات التبليغ:

وصل الشيخ محمد منظور النعماني والعلامة السيد سليمان الندوي في عام ١٩٤٩م إلى «الحجاز» للحج والزيارة، وكان العلماء العرب يعرفون العلامة السيد سليمان الندوي معرفة جيدة من خلال كتبه، وكانت شخصيته معروفة في الأوساط العلمية والدينية، فانتهمز رجال جماعة التبليغ فرصة وجوده في «الحجاز»، وعقدوا اجتماعات في مواضع مختلفة اشترك فيها العلماء العرب من بلدان مختلفة كـ «السودان»، و «الشام»، و «اليمن»، و «العراق»، و «تونس»، علاوة على علماء «الحجاز». عقد الاجتماع الأول من هذه الاجتماعات في بيت الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري، وكان اجتماعاً موفقاً للغاية، وتحدث العلامة السيد سليمان الندوي في اجتماع كان يضم عدداً كبيراً من علماء «مصر»، و «السودان»، و «مراكش»، وألقى العلامة السيد سليمان الندوي بأسلوب سهل مؤثر علمي رزين، الضوء على الدعوة والتبليغ، وكان لكلمته تأثير في النفوس، فقدم معظم العلماء الذين اشتركوا في الاجتماع وسمعوا كلمة العلامة الندوي عنايتهم، وأعربوا عن تقديرهم وتأييدهم لهذا العمل.

وفي نفس العام وصل الشيخ محمد معين الندوي والأستاذ عبد الرشيد الندوي مبتعثين من «نظام الدين» إلى «الحجاز» لإقامة طويلة، وكان لهما نشاط دعوي كبير في أوساط العلماء، وبجهودهما امتدت جذور هذه الدعوة، وأقبلت عليها النفوس التي كانت تستوحش منها، وصار عمل الدعوة مألوفاً ومقبولاً.

النشاط الدعوي في الدوائر الأدبية:

يحتل الأدباء والصحفيون مكانة خاصة في كل بيئة، ولهم نفوذ في أوساط المثقفين، فإنهم يغيرون النفوس بما يدبجه يراعهم، فإذا كانوا يحملون العاطفة

الدينية، فإنهم ينفخون روح الدين في النفوس بكتاباتهم المؤثرة، ويمثلون دوراً فعالاً في التأثير على النفوس، وتقريب أفكارهم إلى الأذهان، ويقدمون صورة مقبولة للدين والعمل له، لأن عامة الناس وخاصتهم يقرأون كتاباتهم، ويتأثرون بهم، وكان في «الحجاز» عدد ملحوظ من هؤلاء الأدباء، فكانت الحاجة ماسة إلى جذب هؤلاء الأدباء إلى عمل الدعوة والتبليغ.

وضعت خطة للعمل في أوساط هؤلاء الأدباء في عام ١٩٥٠م، وكانت في هذا العمل مساهمة كبيرة للسيد محمود الحافظ الذي كان نائب مدير المطبعة الحكومية، وكانت له صلات بالأدباء، فاختار لجمع الأدباء الأستاذ أحمد عبد الغفور العطار وبتعاونهما أمكن التعريف بعمل التبليغ في أوساط الأدباء والصحفيين.

اجتماع «بستان بخاري»:

عقد الأستاذ أحمد عبد الغفور العطار اجتماعاً للأدباء في «بستان بخاري» اشترك فيه معظم الأدباء من الشباب، كان منهم الشيخ سعيد العامودي مدير مجلة «الحج»، وعضو مجلس الشورى، والشيخ عبد القدوس الأنصاري رئيس تحرير مجلة «المنهل»، والشيخ محسن أحمد باروم، والشيخ حسين عرب، الذي عين وزيراً للأوقاف والحج بعد ذلك، وكان من بين رجال التبليغ الشيخ أبو الحسن علي الحسيني الندوي والشيخ سعيد أحمد خان، والحاج فضل عظيم المرادآبادي، والحاج عبد الواحد والأستاذ محمد الرابع الحسيني الندوي، والأستاذ رضوان علي الندوي، والأستاذ عبد الله عباس الندوي، والأستاذ محمد طاهر المنصورپوري، والطبيب إحسان الله البيشاوري.

أقيمت أولاً مأدبة غداء، ثم بدأت الأسئلة والأجوبة، وكان هذا الاجتماع منطلقاً إلى العمل في أوساط العلماء والأدباء، وأقيم اجتماع ثانٍ في «بستان بخاري»، تحدث فيه الشيخ أبو الحسن علي الحسيني الندوي لمدة ساعة ونصف ساعة، استعرض في كلمته صلته بالجماعة، وألقى الضوء على حياته العلمية، وذكر أسباب انجذابه إلى هذه الحركة الدعوية.

الرحلة إلى «وادي فاطمة» :

أقام اجتماع «بستان بخاري» صلة بين الفريقين، فريق الجماعة، وفريق الصحفيين والأدباء، ووجد بينهما تقارب وتعاون، وفي جو هذا التقارب وضع برنامج لرحلة إلى «وادي فاطمة» كان هدفها في الظاهر النزهة ولكن النية الحقيقية كانت تمهيد الجو ودعم هذا التعاون لمصلحة التبليغ، واشترك في هذه الرحلة الدعاة وأعوان حركة التبليغ مع الأدباء والصحفيين، ولم يوضع في برنامج الرحلة جدول أعمال التبليغ التقليدي، كالتعليم والجولة، والمذاكرة عمداً؛ لأن الطبقة التي كانت تشترك في هذه الرحلة لم يكن لها عهد بمثل هذه البرامج، فإذا فرض عليها هذا النظام كان من شأنه أن يوجد فيها الوحشة والغربة فتسبب هذه الرحلة بُعداً ونفوراً.

اجتمعت هذه المجموعة من أصحاب الميول المختلفة في «أبي شعيب» بـ «وادي فاطمة»، وقضت هذه المدة من الزمن في تأنس وتألف، وأجرت تبادل وجهات النظر حول مواضيع مختلفة، وخلقت هذه الرحلة التي كانت قصيرة أثراً طيباً في أذهان هؤلاء الأدباء والصحفيين وازداد التألف بينهم، وانسجامهم مع هذه الحركة ورجالها، وأزيل الحاجز النفسي الذي كان يقوم بينهم، وانتشر هذا العمل في عامة الناس وخاصتهم، علمائهم وأدبائهم.

الرحلة إلى الطائف :

انتخب أربعة علماء من الشباب لترسيخ الدعوة ونشرها في «الحجاز» في عام ١٩٥١م، وكان معظمهم من العلماء الذين أرسلوا من «نظام الدين» إلى «الحجاز»^(١) وقام هؤلاء العلماء بتعريف هذه الحركة في الأوساط العلمية بلقاءات، وجولات، ثم قاموا برحلة إلى «الطائف»، وكانت هذه الجماعة تشتمل على الشيخ أبي الحسن علي الحسيني الندوي، والشيخ سعيد خان، والشيخ محمد معين الندوي، والأستاذ محمد الرابع الحسيني الندوي، والشيخ أحمد عبد الغفور العطار، والتقى هذا الوفد بأمير

(١) الشيخ عبد الله عباس الندوي، الشيخ محمد الرابع الندوي، والأستاذ سيد رضوان علي الندوي، والأستاذ سيد محمد طاهر المنصورپوري.

الطائف الذي أكرم الوفد غاية الإكرام، ثم عقد اجتماع في «مدرسة دار التوحيد»، واجتماع آخر في «مسجد أمين العباس»، واستغرقت هذه الزيارة أسبوعاً نظمت فيها لقاءات مع العلماء والأدباء والصحفيين وأصحاب النفوذ، ورجال السلطة، وانهزت هذه الفرصة للتعريف بعمل الدعوة والتبليغ.

المدرسة الصولتية :

أنشأ الشيخ رحمت الله الكيرانوي مدرسة في «مكة المكرمة» باسم المدرسة الصولتية، وقد أنجبت هذه المدرسة كبار العلماء والدعاة، وشاعت بفضلها العلوم الدينية في ديار الحرم، ويقوم خريجو هذه المدرسة بخدمات قيمة لنشر الدين والعلوم الإسلامية في عدد من الدول العربية، وأبدى الشيخ محمد سليم وهو عالم خبير، اهتماماً بالغاً بعمل الدعوة، ومدّ يد التعاون إلى رجال هذه الفكرة، وقام برعاية كاملة لنشاطاتهم الدعوية، وفتح أبواب مدرسته على مصراعها لإقامة رجال هذه الحركة، وعقد الاجتماعات واللقاءات، وهياً جميع التسهيلات اللازمة، فصار مسجد المدرسة الفسيح مركزاً للجماعة، ومأوى للعاملين فيها، وأصبح شعار هذه المدرسة تهئية فرص اللقاءات مع العلماء، وإيجاد صلات مع أصحاب المناصب العليا، وتشجيع الجماعات ونصرتها، وذلك من أول يوم وقعت فيه أقدام العاملين في الجماعة في هذه الأرض الطيبة، وبدأ نشاطهم فيها، وعملت المدرسة كهمزة وصل بين علماء الهند وعلماء الدول العربية، والهنود والعرب، وكان الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي يقيم في هذه المدرسة في كل زيارة له لهذه البلاد، وتحدث في الاجتماعات الكبرى التي انعقدت في هذه المدرسة خلال رحلته الأخيرة، وكان الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي أيضاً يقيم بهذه المدرسة في هذه الزيارة، وكان وجوده يجتذب كبار العلماء والمشايخ من مختلف دول العالم، فكانوا يؤمنونه ويزورون هذه المدرسة، وتقوم بينهم وبين علماء هذه الحركة صلات.

ونورد بهذه المناسبة انطباعات الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي عن إقامته بهذه المدرسة في رحلته الأخيرة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم، ونصلي على رسوله النبي الأمي الكريم، أما بعد: فقد أتيت لنا فرص عديدة للإقامة بالمدرسة الصولتية خلال رحلات الحج والعمرة، وفي الرحلة الأخيرة أتيت لي الفرصة لحضور ختم كتب التفسير والحديث، جزى الله المسؤولين عن المدرسة خير الجزاء، فإنهم يبذلون المساعي الجبارة لخدمة العلوم الدينية حسب منهج السلف الصالح، ورغم الصعوبات والعقبات والعثرات فإنهم يواصلون جهودهم منقطعين عن كل شغل آخر لترويج هذه العلوم ونشرها، إن العلوم الإلهية التي جاء بها محمد رسول الله ﷺ هي النعمة الإلهية الكبرى، ولا تستطيع السماوات والأرض كلها أن تدفع ثمن ذرة من هذه العلوم الإلهية، وأن الغفلة عن هذه العلوم القيمة والإعراض عنها يجلب غضب الله ونقمته، وإن الذين يشغلون أنفسهم بنشر هذه العلوم بتوفيق من الله عز وجل، ويتخذون وسائل للحفاظ على الأمة المحمدية لهم منة على الأمة المحمدية بكاملها؛ لأنهم يحمون هذه الأمة من غضب الله وسخطه بجهودهم في سبيل العلم والدعوة، ونسأل الله تعالى أن يكلل جهود علماء المدرسة الصولتية بالقول الحسن، ويزيدهم أجراً ومثوبة، ويجعل هذه المدرسة سبباً لانتشار المدارس الدينية، ويوفق الأمة المحمدية للعودة إلى العلوم النبوية، والعمل بها، ويحيي الإيمان واليقين بنور هذه العلوم، ويكتب الفوز في الدنيا والآخرة.

محمد يوسف

بستي نظام الدين

سير الأعمال في الحجاز وطبيعتها في ضوء الرسائل :

تلقي الرسالة الثانية الضوء على سير أعمال الدعوة وتقدم حركة التبليغ وتصدر نشاطاتها في «مكة المكرمة» بفضل جهود جماعات التبليغ.

وصلت الرسالتان المؤرختان ١١/ رمضان و ١٥/ رمضان واطلعت بهما على الأحوال، وبعد إعداد نسخ الرسالتين أرسلت النسخ إلى «المدينة المنورة»، و «جدة»، و «الخبر»، كما اطلع عليهما الإخوة في «مكة المكرمة»، وقد وصلت

اليوم جماعة من «الرياض» تتكون من ٣٦ عاملاً إلى «مكة المكرمة» بسلام، ووصل الشيخ سعيد خان إلى «البحرين» يوم الخميس ٢٠/ رمضان، وفي نفس اليوم وصل من «البحرين» إلى «الخبر»، ومن «الخبر» إلى «الرياض»، واشترك في الاجتماع الذي عقد فيها، وشكل الجماعة، ووصل يوسف ملاجي أيضاً، وقيم بالمدرسة، وجميعهم منخرطون في الجماعة، ولذلك يعد لهم برنامج للعمل في داخل البلاد وخارجها.

لقد وصلت جماعات كثيرة من الطلبة من «المدينة المنورة»، و «أفريقيا»، و «الكويت»، و «الحجاز» بمناسبة العشرة الأخيرة في شهر رمضان، وسيعقد اجتماع يوم الخميس القادم، ويجري اللقاء مع هؤلاء القادمين في الاجتماع وفي الحرم الشريف، وقد صعد النشاط الدعوي بسبب كثرة القادمين في شهر رمضان، كانت جماعة قد توجهت إلى «الطائف» في العشرة الأولى من رمضان، وفي العشرة الثانية توجهت جماعة أخرى إلى «ينبوع» وجماعة من «المدينة المنورة» إلى «بدر»، ويأتي عدد من الإخوة يوم الخميس من «جدة» إلى «الشهداء»، ويتلو الأخ أرشد القرآن الكريم في التراويح في «الشهداء»، ويعتكف الشيخ محب الله وعدد من المهاجرين، ويعقد اجتماع الخميس كالعادة، وقررنا جلسة الشورى في «جدة»، وقررنا في الاجتماع السابق دعم الجماعات القادمة من الخارج إلى «الرياض»، وإعادة العمل في «الرياض» إلى الخطوط والمبادئ المقررة، والعمل في أسر الحجاج.

ويقول الشيخ بشير أحمد في رسالة أخرى، وهو يلقي الضوء على مسار العمل:

«ألقى الشيخ أبو الحسن علي الحسيني الندوي خطاباً بعد صلاة الصبح بالأمس واليوم أيضاً، ثم انعقد اجتماع للشاميين والمغاربة في مكتب المدرسة الصولتية، وأفاد الشيخ أبو الحسن علي الحسيني الندوي في حديثه وكان خطابه مؤثراً مرققاً للقلوب، فقد بدأ حديثه باللقاء الضوء على حياة الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي وما تحمل من مكروه في سبيل الدعوة إلى الله، ووضع قاعدة هذه الحركة، وترك هذا الخطاب أطيّب الأثر في نفوس المستمعين، ثم قام الشيخ سعيد خان ووجه الدعوة

باختصار إلى تفرغ الوقت للخروج إلى «الهند» و «باكستان»، وقضاء بعض الوقت محلياً مع الجماعات العاملة في سبيل الدعوة، وعرف الشيخ حسن انطباعاته عن الخروج إلى «الهند» للاطلاع على منهج الحركة، ومعرفة مبادئ الدعوة، وقد عقد اجتماع اليوم في المدرسة الصولتية بعد الفطور لحجاج «الهند» و «باكستان»، وتحدث في الاجتماع الشيخ محمد منظور النعماني، وبكى في خطابه وأبكى، ثم قام الشيخ سعيد بتشكيل الجماعات، وأنت بعض الأسماء للخروج إلى «المدينة المنورة» راجلاً، والعودة بعد العمل في بلد آخر.

ثم أنشأ مركزين، أحدهما بـ «المدينة المنورة» وآخرهما في «مكة المكرمة»، وبيت رجال الجماعة في «مكة المكرمة» ليلة الجمعة وفي «المدينة المنورة» ليلة الثلاثاء، ويجري فيها تشكيل الجماعات، يقع مركز «المدينة المنورة» في مسجد النور، ومركز «مكة المكرمة» في مسجد الشهداء، وكان الشيخ قد ألقى خطاباً في هذين المركزين خلال رحلته للحج، وبات فيها، وعقد اجتماع مسجد النور بباب العوالي بدون حضور الشيخ محمد يوسف، وفي اليوم الآخر من الاجتماع أصيب المهندس أرشد في حادثة اصطدام سيارة، وتوفي فيها، وكان انعقاد هذا الاجتماع في ١٣/١٤/١٥ شعبان ١٣٨٣ هـ، واشترك فيه من «باكستان» الغربية المفتي زين العابدين اللائل پوري، وإبراهيم عبد الجبار من «كراتشي».

وقد ألقى الشيخ محمد عمر البالنپوري الضوء بتفصيل أكثر على سير أعمال الدعوة في «الحجاز» في إحدى رسائله، يقول:

«بدأ العمل قبل الحج في «مكة المكرمة» و «جدة»، ووصل العرب بتأخير وعقدت اجتماعات، وحلقات بعد الفجر والمغرب بصفة عامة، وألقيت خطب في الحرم الشريف بلغات مختلفة، وعقدت حلقات التعليم بعد العصر، ثم انتشرت جماعات للتجول بين الناس لدعوتهم إلى المساجد، كما عقدت حلقات لحجاج دول مختلفة، وعرضت عليهم الدعوة على مأدبة الشاهي، وعقدت اجتماعات يومية بعد صلاة الفجر، وصلاة العصر لدول مختلفة، وكانت هذه الاجتماعات تعقد عادةً في المدرسة الصولتية، وعقدت بعض الاجتماعات في جدة، وكان بعض المشتركين على

معرفة بهذه الحركة، وسبق أن اطلعوا على منهجها، وكنا نجتمع العلماء والخواص باسم الشيخ أبي الحسن علي الحسيني الندوي، وأرسلت عدة جماعات من منى من مسجد الخيف إلى مواضع عديدة، كما عقدت حلقات في مسجد الخيف.

ومما يجدر بالذكر أن بعض المشتركين أنفسهم طالبوا بأن توجه الدعوة إلى مواطني بلدانهم، وكثير منهم يستفسرون عن المسائل والآداب، ولم نلاحظ هذا الاتجاه في المواسم السابقة، وذلك مما يدعو إلى الشكر ويبعث على التفاؤل والاستبشار، وقد بادر أهل الشام فهبأوا المواصلات للسفر إلى مراكزهم لعرض الدعوة على الحجاج الشاميين.

وقد كان منظر عرفات منظراً رائعاً خلافاً، فقد ردد أصحابنا بعد صلاة الظهر الخطبة التي كان رسول الله ﷺ ألقاها في حجة الوداع، وقضى أحبابنا الوقت كله بين الظهر والمغرب في الدعاء والذكر والبكاء، ودوّى الفضاء بالعويل، وانتقل كثير من الحجاج من خيامهم إلى خيمتنا، فكان هذا المنظر منظراً يميل النفوس، أعاده الله علينا جميعاً مرات وكُرّات، وتقبل الله منا جميعاً، والتقينا بعدد من الحجاج من دول مختلفة في جولاتنا في «منى»، وعقدنا اللقاءات مع الأعيان والعلماء، وعلمنا من خلال هذه اللقاءات أن جذور هذه الحركة قد امتدت ووصلت إلى دول مختلفة، وأن الناس بدأوا يطلعون عليها، ويرغبون في الانخراط في سلكها، وكانت الزحمة شديدة في الطواف، والسعي والزيارة، وقد انتهزنا هذه الفرصة، فعقدنا اجتماعاً في مسجد الشهداء، فاستعدت نفوس كثيرة للعمل في «العراق» و«لبنان»، و«الكويت»، وسيتوجه بعض الأصحاب إلى «الحبشة» أيضاً.

يرافقنا في هذه الرحلة الشيخ خالد حسنون من «الشام»، والشيخ غزالي من «الأردن»، وسيعود شاميان آخران، ولكنهما سينضممان إلى الجماعة بعد مدة، وسنحضر معهما إن شاء الله، وقد تقرر السفر إلى «جدة» غداً للعودة إلى «الهند» قريباً بأي مركب نجد مقاعد فيه.

ويكتب أحد الدعاة إلى الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي في رسالة:

«نقيم هنا بـ «المدينة المنورة» حسب توجيه الشيخ محمد يوسف، ورعاية

الشيخ سعيد خان للعمل في سبيل الدعوة، وبفضل دعواتكم وتوجيهاتكم نلاحظ هذه المرة إقبالاً عاماً على هذا العمل في الإخوة العرب، والمهاجرين أكثر من قبل، يجتمع في مسجد النور ليلة الثلاثاء عدد كبير من الناس، ويزداد عددهم بمرّ الأيام، وتعدّد حلقات العرب وغير العرب منفصلة، وتتوجه كل جماعة إلى أطراف «المدينة المنورة» للدعوة، وقد شكلت جماعة لأربعين يوماً، للدعوة في «تبوك»، وجماعة لشهر واحد للدعوة في «سكاكه»، وجماعة لعشرة أيام للدعوة في «خير»، وجماعة أخرى لعشرة أيام للدعوة في «ينبوع البحر» الذي تجري فيه الأعمال الإنشائية لتحويل المنطقة إلى ميناء دولي».

وبهذا الطريق استمر تشكيل جماعات مختلفة، ونشطت حركة الدعوة في مناطق متعددة من المملكة في حياة الشيخ محمد يوسف.

وتلقي رسالة للشيخ سعيد أحمد خان أرسلها إلى الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، الضوء على بعض هذه النشاطات الدعوية يقول فيها:

«لم نسعد منذ مدة طويلة بأي رسالة من حضرتكم، وكنت في غاية من الشوق إلى ملاحظاتكم وتوجيهاتكم، قواكم الله ورعاكم وتقبل مساعيكم، كنت في رحلة إلى «سكاكه» مع جماعة، حيث التقينا بالدكتور وحيد الزمان الحيدرآبادي الذي يشتغل هناك، وكان هو الذي وجه الدعوة لإرسال جماعة، وتقع هذه المنطقة على حدود «العراق»، وتقع إحدى قرى «الجنبدل» فيها على حدود «العراق»، وكان سيدنا خالد بن الوليد - رضي الله عنه - قد وصل إليها بكتيبة، ولا تزال أطلال قلعة قديمة تذكر ذلك العهد، وقد شيد في المنطقة جامع باسم سيدنا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ، وقد شيدت الحكومة المعاصرة جامعاً جديداً في منطقة أخرى، وأوقفت صلاة الجمعة في الجامع القديم، وقد التقينا بشيخ متورع، وحكى لنا راوياً أن سيدنا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال: يجب أن تستمر صلاة الجمعة في هذا الجامع وإلا فإن المنطقة ستواجه فتناً كثيرة، فلما حكى منامه على قاضي المدينة، اعتذر، وقال: هذه مسؤولية الحكومة، وأنا لا أستطيع أن أقرع باب الحكومة بهذا الغرض، وتجولنا في مناطق متصلة، وقد احتفى بنا أمير المنطقة، وهو من العائلة

الحاكمة، والتقينا بابنه الذي يدرس في «أمريكا»، وكان في عطلة آنذاك، وحاولنا إبلاغه رسالة الجماعة، وإقناعه بمنهج العمل، فوجدناه شاباً متواضعاً، وسررنا بملاحظة الاهتمام بأمور الدين في هذه المنطقة، وحرص الناس على معرفة أحكام الشريعة، ورغبتهم في الأجر والثواب، و«سكاه» منطقة مركزية، ويبلغ عدد سكانها حوالي ٢٥ ألفاً، تعمها حدائق النخيل أكثر من «المدينة المنورة»، وتم تشكيل جماعة بإمارة الدكتور وحيد الزمان، نسأل الله القبول والتوفيق والاستقامة في الدعوة.

استغرقت زيارتنا لتبوك تسعة أيام، وبذلنا ما كان في وسعنا في الوصول إلى أكبر عدد من المواطنين، ومعظمهم موظفون في دوائر الحكومة، ولذلك يعتذرون عن الخروج إلى الخارج؛ إلا أنهم يرافقوننا في جولتنا المحلية في القرى المجاورة، وأبدى مدير جمرک المطار اهتماماً بالغاً وتعاون معنا، كما وجدنا من إمام الجامع ونائب القاضي تجاوباً وتأييداً لائقاً.

ويقع مسجد يعرف بمسجد حجر في المكان الذي عسكر فيه الرسول ﷺ خلال غزوة تبوك، يقيم به المسافرون عامةً، ويوجد في المنطقة عدد من الهنود أيضاً، وقد ساعدونا مساعدة خاصة.

وتصاعد عمل الدعوة في الحجاج وأهل الحجاز وحجاج الدول العربية وبلغ قمته خلال الرحلة الأخيرة للحج التي قام بها الشيخ محمد يوسف، وسيأتي تفصيل هذه الرحلة في باب خاص بالحج، وقد عقدت بهذه المناسبة اجتماعات ضخمة، ونظمت لقاءات مع الخاصة والعامة من الحجاج والمشايخ والعلماء، وخرجت جماعات كثيرة، وتعرّف الناس على منهج الدعوة بنطاق لا يوجد له نظير في العهود السابقة، وقد انفتح برحلته باب جديد للعمل، ويمكن أن يوصف ذلك العهد بأنه كان نصراً عظيماً لعمل الدعوة، وقد وصل عمل الدعوة في هذه الفترة إلى ذروته، وكان عصارة ما تم خلال المدة التي تتراوح بين ١٩٤٦ - ١٩٦٤ م.



الباب التاسع الدعوة في العالم العربي

صلة المسلمين بالعالم العربي ومكانته في خريطة العالم :

إن الصلة العميقة التي تربط المسلمين بالعالم العربي ترجع أساساً إلى وجود مدينتين مقدستين كـ «المدينة المنورة» و «مكة المكرمة» فيه، وهما اللتين تتندى عين كل مسلم بذكرهما، وزيارتتهما هي أعلى أمانيه وأحلامه، وكل مسلم يعتبر نفسه فداء لهما، وهي صلة دائمة تتقوى وتتعزيز، وتستمر إلى يوم القيامة لا تساويهما صلة أخرى.

والسبب الثاني أن العالم العربي هو موطن الصحابة الكرام والسابقين الأولين في الإسلام الذين نقلوا رسالة الإسلام إلى أنحاء أخرى في العالم، وتحملوا في سبيله الشدائد والآلام، وجرت على أرضه معارك الحق والباطل، ورفرف علم الإسلام عليه قبل المناطق الأخرى في العالم، والأرض التي سعدت بأقدامهم، وانقضت فيها حياتهم، وشاهد سكانها آثار التربة النبوية، وفيها مقابرهم، ثم أثمرت فيها شجرة الإسلام ودامت فيها دولة المسلمين، وانتشرت منها تعاليم الإسلام، وامتد ظلها.

وأنجبت هذه الأرض علماء وفقهاء ودعاة نشروا في العالم كله العلوم الإسلامية، وقامت فيها مراكز التربية والدعوة الإسلامية، وسارت منها أفواج الغزاة والمجاهدين في سبيل الله، لا تخفى مآثرهم على أي دارس للتاريخ، وبفضل جهود هؤلاء العلماء والدعاة ورجال التربية، والسلطين والأمراء دامت هبة الإسلام على النفوس من القرن الأول للهجرة إلى أواخر القرن الثالث عشر، واحتل العالم العربي مكانة عالية مرموقة في خريطة العالم، وخفض العالم كله طرفه إجلالاً له وتكريماً لسكانه، ودامت سيادة سكان البادية على نفوس الحكام الجبابة والقوى القاهرة.

الغزو العسكري للقوى الأوروبية وتأثير الحضارة الغربية :

بدأت الدول الأوروبية تبسط نفوذها من أواخر القرن الثالث عشر للهجرة، واستولت في مدة قليلة على معظم أنحاء العالم العربي، وانخذلت أمامها الدول الإسلامية التي كانت ذات سيادة وقيادة، واستسلمت لها واستكانت، وبسطت الدول الأوروبية بعد استعمارها شبكة المدارس التبشيرية، ومراكز التربية الغربية.

وفي فترة قصيرة امتد الطغيان الغربي المسيحي، وسيل حضارته المادية إلى سائر المدن الكبرى، وغلبت الحياة الغربية على الحياة العربية الإسلامية وغمرت المثل التي كان يعتز بها العرب المسلمون من الغيرة والشهامة والحمية والأنفة والإيمان واليقين، وعاطفة الجهاد، والحنين إلى الشهادة وكرهية الكفر، وخضع لهذا التيار الجارف كل من خاصة الناس وعامتهم، فتغيرت العقائد والتصورات، وتغيرت الثقافة في الملبس والمأكّل والمعيشة.

حركة لانتشال غرقى الحضارة الغربية :

نهض نخبة من أهل الوعي الديني وأصحاب القلوب النيرة الخاشعة لمواجهة هذا الوضع الخطير الذي كان يهدد مصير الأمة الإسلامية عامة والأمة العربية خاصة، وبذلوا ما كان في وسعهم من مجهود للتوعية الإسلامية، وتحذير العرب من نتائج هذه الذلة والاستكانة، ولا يسعنا إلا أن نذكر في هذه الصدد جهود قادة الإخوان المسلمين، وما تحملوا في سبيله من شدائد، وما قدموا من تضحيات ومخاطر في سبيل النهضة الإسلامية، وهي مجهودات رائدة في هذا المجال لا يستطيع أحد أن ينكرها، وإن آثار الإيمان واليقين، وكبح أهواء النفس والتحفّظ وعاطفة الفداء على الدين، وما يلاحظ من صلة الشباب المثقفين بالدين، والنفحات الإيمانية التي تهب في المنطقة يرجع إلى هذه الجماعة إلى حد كبير إذا لم نقل كلياً.

وقد كان مرشد هذه الجماعة العام الشيخ حسن البنا الشهيد، الذي كان عالماً ربانياً، وقد أسس هذه الجماعة في عام ١٩٢٨م، وطاف من أجل نشر رسالتها الأرياف والقرى والمدن، وعقد جلسات في المساجد، وقام بالتعبئة لهذه الجماعة وأصلح شؤون المساجد، وعين فيها الأئمة والخطباء والدعاة، وأقام الصلة بعامة

الناس، وأصلح حياتهم بترويج الفضائل فيهم، وكان يعقد حلقات يعلم فيها تعاليم الإسلام، ويحيي العاطفة الإيمانية، وبجهوده تهيأت جماعة مؤمنة واعية من أهل العلم من الشبان، وهبّت النفوس من سباتها، وعاد من كان هدفاً للإلحاد والزندقة إلى العقيدة الصحيحة، واستنار بضياء الإيمان ونور اليقين، وأبلى في عام ١٩٤٧م هؤلاء الشبان المغمورون في المعركة مع اليهود بلاء حسناً يضرب به المثل، وقد أجبروا العدو أن يتراجع على أعقابه لجرأتهم الإيمانية، وعاطفتهم الجياشة، وحنينهم إلى الشهادة، ثم نهضت هذه الجماعة لإصلاح نظام الحكم في البلاد، وقرنت حركة إصلاح المجتمع بحركة إصلاح شؤون الحكم والحكام.

ومن هنا بدأت محنة هذه الجماعة التي لم تنته، بل أدت إلى استشهاد الإمام حسن البنا في عام ١٩٤٨م ومحاكمة القادة الآخرين للجماعة وتعذيبهم عقاباً لهذه الجهود التي بذلوها لإصلاح نظام الحكم، واستمرت هذه المحنة، ودخلت أدواراً مختلفة من محاكمات وتصفية وتشريد، فمرّ بهذه المحن والشدائد التي تقشع منها القلوب وتذرف منها العيون ألوف من الشباب المتحمسين الذين كانوا في طليعة الدعاة والمصلحين الذين وقف سيل الحضارة المادية والإلحاد والزندقة بجهودهم الدعوية والإصلاحية وكاد أن ينحسر، وأدى عدد كبير منهم ضريبة الفداء، ففقدوا أرواحهم في هذه المحنة.

جهود رجال التبليغ والمنهج الدعوي الخالص:

قضت الحضارة الغربية على طبيعة البساطة والتكشف والتواضع والإيثار، والمخاطرة والتضحية إلى حد كبير، ومال كبار العلماء والدعاة إلى حياة الرغد والتأنق في المعيشة، وسرت عدوى الحضارة إلى سائر شعب الحياة، فكان الأجانب في موضع شبهة وريبة، ومراقبة لتحركاتهم مراقبة دقيقة، فلما بدأت جماعة الدعوة والتبليغ عملها واجهت عقبات كثيرة وعراقيل متنوعة، وكان الناس يحترزون عن العاملين فيها لكونهم غرباء بأشكالهم وملابسهم، ولغاتهم، وثقافتهم، وعاداتهم، وبعد مدة نصرهم الله كما جاء في القرآن الكريم: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾، وقررت الجماعة أيضاً أنها ستبعد عن الحركات السياسية، ورجال الحكم وتتجنب أي

مواجهة معهم، كما تحترز عن قبول أي معونة منهم، فإذا عرضت لها مشكلة لا تقدم طلباً إلى الحكام للمساعدة، بل يلجأ الدعاة على عكس الطريقة المعتادة إلى صلاة الحاجة، ويطلبون النصر من الله، لأنهم خرجوا لإعلاء كلمته، وآثروا الغربة من أجله، وتمسكت الجماعة في أعمالها الدعوية بهذا المنهج، وببركة هذا الطريق سهّل الله مهمتهم، وفتح لهم السبل.

يحكي الشيخ عيسى محمد البالنپوري الذي قضى مدة طويلة في البلاد العربية وحصلت له تجربة في سبيل الدعوة:

توجهت جماعة إلى «الشام» في عام ١٩٦٢م، فلما وصلت إلى الحدود منعها حرس الحدود من الدخول، فرجعت الجماعة إلى الله، تدعو وتبتهل بعد صلاة الحاجة وتتضرع إلى الله، فسخر الله قلوب حرس الحدود الذين منعوا الجماعة، فسمحت لها بالدخول، ومكثت الجماعة في تلك البلاد مدة أطول حتى استطاعت إخراج جماعة تتكون من إحدى عشر شخصاً في سبيل الله.

ويصف الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي منهج هذه الجماعة بالكلمات الآتية: «إن الإخوة العاملين في جماعة الدعوة والتبليغ يبدأون جولتهم للدول الأجنبية عادة بمناسبة زيارة الحرمين الشريفين، سواء كانت هذه الدول عربية أم كانت غير عربية، فكانت الجماعة تخرج من «المدينة المنورة» عادة، وكانت الرحلة من «الحجاز» تحمل فوائد كثيرة علاوة على حصول البركة واليمن، إنها كانت تحل مشكلة العملة الأجنبية، ومن الفوائد الأخرى أن الحجاج الذين يأتون من دول مختلفة كانوا يتعرفون على منهج هذه الدعوة، وكانت تقوم بينهم وبين رجال هذه الجماعة الصلة القريبة، وتتاح لهم فرصة الاشتراك في برامجها، وتحدث فيهم عاطفة الخروج في سبيل الله، وكان يمهد ذلك طريق خروج جماعات منهم، ولكن الجماعة كانت تواجه رغم هذه الفوائد الكثيرة متاعب كثيرة، منها: قطع مسافات طويلة مشياً على الأقدام، والاكتفاء بالحمص في الغذاء أحياناً.

وقد مرت الجماعات بهذه المراحل الشديدة، لكن نصرة الله كانت غالبية، وكان التسهيل من الله أغلب، وقد كان المسؤولون عن حركة الدعوة والتبليغ يمنعون ذكر

هذه التسهيلات وأمثلة النصر من الله، ويحترزون من ذكرها في مجالسهم بأنفسهم، وهناك أمثلة كثيرة لزيارة الرسول ﷺ في المنام وتبشير، وأمره برعاية أصحابها، وقوله: إن جماعته تأتي ولا بد من وليمة في تكريمها، وتذكر قصتان فقط من قصص النصرة الإلهية للجماعة:

١ - وصلت جماعة إلى «حماة» في «الشام»، فرأى أحد العرب في المنام أن الرسول ﷺ يقول للعرب: إن هؤلاء الناس يشتغلون بعمل، فعليكم أن تعينوهم بالانضمام إلى عملهم، وعلم الناس خبر هذه الرؤيا فانضم إليهم عدد كبير منهم.

٢ - كذلك كانت جماعة تعمل في «حماة»، فدعتها إلى الغداء سيدة زاهدة عابدة صالحة كانت تصلي على النبي ﷺ عدة آلاف مرة في النهار، فاستشارت الجماعة الحاج محمود دوس، فقال لهم: يجب أن تقبلوا دعوة هذه المؤمنة الصالحة، إنها من ذرية الشيخ عبد القادر الجيلاني، وهي متورعة متزهدة غاية الورع والزهد، فلما وصلت الجماعة إلى منزل تلك المرأة الصالحة قالت: هل منك من يعرف العربية؟ فأشار الناس إلى الشيخ عيسى محمد البالنپوري، فقالت من وراء الحجاب: هل تعرفون لماذا دعوتكم وأنا لا أعرفكم؟ إنني رأيت في المنام أن تاجاً نزل من السماء، ووضع على رأس رجل هندي، فدعوتكم لأعرف هل يوجد فيكم ذلك الشخص المبارك، أم لا؟ إنه لا يوجد فيكم، فإني أذكر صورته.

وكتب الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي:

«كان مما يؤكد للعالمين في الجماعة من المشايخ، أن لا تقبل أي معونة من الحكومة، وأن يحترز عن دعوتهم إلى الغداء، ولا تقبل هداياهم، وصار ذلك طبيعة للجماعة، وميزة لها، ويجدر بالذكر هنا أن الله تعالى ينصر على الإخلاص وبذل الجهد، وتحمل المشاق والمتاعب، إن مع العسر يسراً:

إذا اشتدت بك البلوى ففكر في ألم نشرح
ففيها بين يسرين إذا فكرته فافرح

فكلما بذل العبد الجهد، وعمل بالإخلاص يسّر الله طريقه، وسهل أمره، وهذه سُنّة الله تعالى، فينبغي أن يخرج الداعي عازماً على أن يتفق من ماله، ويجهد نفسه

ويتحمل في سبيله ما في وسعه، وعليه يفتح الله الأبواب، وينزل رحمته، وأن هذه الجماعة لا تقبل التبرعات، وكل من يعزم على الخروج في سبيل الله يتحمل نفقات سفره، ويستعد لتحمل الشدائد التي تواجهه في هذه الرحلة الدعوية، فإذا تحمل ذلك وأنفق ما في وسعه من الإنفاق، فتح الله عليه باب اليسر، ولكن إذا كان في قلب شخص قبل الخروج أن المعونة تأتي إليه، ولا يواجه أي صعوبة في الخروج في سبيل الله، وقعت في سبيله عقبات ومشاكل، وفي قصص الصحابة وسيرهم عبر ودروس للدعاة، ومذاكرة هذه القصص من حياة الصحابة جزء للتعليم في حلقات التعليم لجماعة التبليغ، وقصص النصر من الله عز وجل على إنفاق المال اليسير، وبذل الجهد المتواضع كثيرة لا تعد، وهناك قصص خارقة للعادة أيضاً، وهي أيضاً كثيرة.

وقد اختار رجال الجماعة هذه الطريقة وهذا الأسلوب في رحلاتهم في كل بلد عربي مسلم، واتبعوه في الدول الأخرى أيضاً، فكانت النتيجة أن الجماعة لقيت الترحاب والاستقبال في كل مكان، وانتشر عملها في وقت قليل، وعرفها الناس وأقبلوا عليها إقبالاً عظيماً، ولا يعني ذلك أن الجماعة غيرت البيئة كلها في المنطقة التي عملت فيها، وتغيرت حياة الناس مائة في المائة، ولكن مما لا شك فيه أن البيئة التي عملت فيها الجماعة ساد فيها جو الإيمان وتغيرت بعض النفوس، وتأثروا ببساطة رجال الجماعة ومجاهدتهم، وساد الانطباع أن هذا العمل يساعد على تغيير الأحوال، وتصلح به الحياة، ويمكن إحداث انقلاب في التفكير ومنهج الحياة، ويغمر الجو بالعاطفة الإيمانية بفضل جهود هؤلاء العاملين في مجال الدعوة، وقد استعدت بعض النفوس متأثرين بعمل هذه الجماعة للخروج في سبيل الله، بتفريغ أوقاتهم، وقاموا بالرحلات إلى أماكن بعيدة ووصلوا إلى «الهند»، وقضوا فترة فيها.

كتب أحد العاملين في الجماعة التي قامت بجولة في البلاد العربية رسالة إلى الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، ذكر فيها الأحوال السائدة في البلاد العربية وتأثير نشاطات جماعة الدعوة والتبليغ بتفصيل، نقبس من هذه الرسالة:

في الجو الذي يعتبر فيه كل شخص أنه عالم دين، وخبير في الأمور الدينية، كم يبدو غريباً عرضنا لدعوة غير مألوفة وغير معروفة عامة بلغتنا المكسرة، وملابسنا

الأجنبية، ويضغطنا الباطني، وكم يبعث على السخرية، ومن يتجراً عليه في هذه العصر، ولكن بفضل الله العظيم ومنه أنه إذا واجهنا في بعض المواضع سخرية، وضحك علينا وعلى لحانا الأطفال والشباب، ولقينا مضايقات في بعض الأحيان، وجدنا من الشباب والشيوخ من أكرمونا واحترفوا بنا وأنصتوا لنا وقبلوا أيدينا وأبدوا محبتهم وتقديرهم.

إن هناك فوارق كثيرة بيننا وبينهم في المعيشة والثقافة؛ لأن الحكم الاستعماري الطويل قد أثر فيهم تأثيراً عميقاً، تغيرت به ثقافتهم فهم يتأنقون في الحياة ويأكلون بالملاعق والأشواك، ويفوقوننا في العلم والثقافة وأسلوب الكلام والذكاء والجرأة والمعرفة، وبيننا وبينهم بُعد شاسع وفرق كبير، لكن ما هو السبب في إقبالهم علينا، واهتمامهم بنا وإنصاتهم لكلامنا في اللغة العربية المكسرة غير الفصيحة، حتى المثقفين منهم خريجي المدارس العليا كالأزهر والزيتونة، وأئمة المساجد وخطبائها يسمعون كلامنا غير الفصيح برغبة وإكرام، واعترفوا بتقصيرهم وعجزهم في خطبهم بعد انتهائنا من الكلام علناً، أو في مجالسهم ولقاءاتهم الشخصية في كثير من الأحيان، فضلاً عن عامتهم، وذلك فضل الله ورحمته، وبركة هذا العمل المقدس ونتيجة دعاء مشايخنا.

في مجلس ضمّ كبار العلماء ورؤساء المدارس والمسؤولين عن الجمعيات والمنظمات، استعرضت نشأة هذه الحركة والصعوبات التي اعترضت في سبيلها في البداية، ثم انتشار أعمالها ونفعيتها، ثم وصولها إلى بلدان العالم المختلفة بتفصيل، وألقيت الضوء على مراحل تطورها وانتشارها وإقبال الناس عليها، وإعجابهم بها، فكان لهذه الكلمة تأثير على النفوس، فلما حان وقت الغداء بسطت المائدة على الطريقة الغربية، ووضعت أمام كل شخص الملاعق والأشواك والصحون، فانتهزت هذه الفرصة، وعرضت عليهم المنهج الإسلامي وسنن الأكل، وبدأنا نحن نأكل بالاشتراك في الصحون بعد غسل الأيدي باليد، فترك بعضهم الأكل بالأشواك والملاعق وبدأوا يأكلون باليد بطيب خاطر، ويدل ذلك على أننا ثبتنا على طريقتنا الإسلامية وتمسكنا بالمنهج الإسلامي للمعيشة، فإن هذه الطريق ستشيع في الناس تدريجياً، وتقبلها النفوس تلقائياً.

عند وصولنا إلى «مصر» و «ليبيا»، و «تونس»، و «الجزائر»، شاهدنا أن المسؤولين عن الجمرک يفتشون عفش القادمين بدقة، ويحرجونهم، لكنهم تركوا أمتعتنا بدون تفتيش ولم يفتحوا أي عفش، ومررنا بسهولة وبدون إضاعة الوقت، بينما انتظر المسافرون الآخرون ساعات واقفين، وشكرنا الله على ذلك، وبسطنا السجادة على الأرض، وبدأنا حلقات التعليم، وقضينا الوقت في التعليم والصلاة في أوقاتها، واشترك في هذه الحلقات بعض الموظفين في الجمرک، كذلك أقمنا حلقات التعليم في مواقف الحافلات ومحطات القطارات، وأدينا الصلاة في أوقاتها بالجماعة وأذنًا، وكان ذلك بدعاً لكثير من الناس، لم يعهد به من قبل.

ويذكر صاحب الرسالة في هذه الرسالة بعض الصعوبات التي واجهته خلال الرحلات، وكيف حلت هذه المشاكل:

وهكذا شاهدنا نصره الله تعالى في كل مرحلة، وتقدمنا في أعمالنا، فلما وصلنا إلى «تونس»، وأردنا أن نقيم في مسجد كنا قد أخذنا عنوانه من إخواننا، فقال لنا الإمام: إن جماعة أقامت بهذا المسجد في السابق عدة أيام، فلما خرجت وصلتنا تعليمات من الحكومة بأنه إذا أتت جماعة أخرى من هذا القبيل يجب أن نوجهها إلى مخفر الشرطة، فعليكم أن تأخذوا الإذن في مخفر الشرطة، فلما وصلنا إلى مخفر الشرطة وجهت إلى كل واحد منا أسئلة، وسجلت أجوبتنا، ثم أمرنا بأن نقوم بأعمالنا بالاستشارة مع كتابة العدل لشؤون الثقافة والإرشاد، وسمح لنا بالخروج من المخفر بعد ثلاث ساعات، ثم قمنا بجولة في أهم مدن «تونس» والأرياف، وفي كل مكان كان رجال الشرطة يراقبوننا ويفتشون جوازاتنا ويستجوبوننا عن برامجنا، ويسجلون أجوبتنا في دفاترهم، وفي أحد الأماكن منعنا إمام المسجد من التحدث أمام الناس وإلقاء درس الحديث، وقال لنا بعض الناس: إن جماعة مثلنا كانت قد زارت هذه المنطقة، وكانت تلقي درس الحديث، وكان رجالها ملتحين، يبدون متدينين لكنهم كانوا جواسيس، ولذلك تراقب الحكومة قدوم مثل هؤلاء الناس ونشاطاتهم؛ لأن العدو المستتر في لباس الصديق أكثر خطراً من العدو المكشوف المعروف؛ والذين كانوا يخرجون معنا في الجولة كانوا هم أنفسهم يتعرضون لتفتيش الشرطة في بعض

الأحيان، وذلك بقسوة وغلظة كانت تثبط همتهم، فكانوا يخافون الخروج معنا ولا يتجرأ عليه إلا ذو همة عالية.

رغم هذه الصعوبات والمشاكل التي كانت تعترض في سبيلنا استطعنا بحمد الله تعالى أن نجول في معظم القرى والمدن الشهيرة، وعقدنا اجتماعات في مئات من المساجد، وعرضنا عمل الدعوة على ألوف من الناس، ورافقنا عدد كبير من الناس في جولتنا في المناطق المجاورة، وأبدى بعضهم النية للخروج إلى «الهند» أيضاً، لكن حالت دون تحقيق أمنيتهن المشاكل القانونية والاقتصادية.

«مصر»:

كما سبق بدأ العمل منذ ١٩٤٦م في «الحجاز»، وعقدت عدة اجتماعات في وسط الحجاج وخاصة حجاج «مصر»، وكانت هذه الاجتماعات ملتقى لحجاج دول مختلفة، فتعرفوا على منهج دعوتنا، وكان فيهم علماء ومسؤولون كبار وعامة الناس، وبذلك فتح باب العمل في دول مختلفة من العالم العربي، وفي هذه الاجتماعات تقرر أن ترسل جماعات إلى دول عربية أخرى، لأن ذلك يؤثر على الحجاز أيضاً، وقام الشيخ عبيد الله البلياوي بأمر الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي بتشكيل جماعة كانت تتألف من الشيخ المفتي زين العابدين اللاثلپوري والشيخ سعيد خان كهريوي، والشيخ إبراهيم الميواتي، وتوجهت هذه الجماعة إلى «مصر»، ووضع بذلك أساس الدعوة في «مصر»، ثم ذهبت جماعة أخرى كان فيها الشيخ الأنصاري الكبير، والشيخ عبد الله البلويش، والشيخ محمد نور الخورجوي، وكان أمير هذه الجماعة الشيخ عبيد الله البلياوي، وازدهر عمل الدعوة بجهود هذه الجماعة في «مصر» وتوسع نطاقه.

وفي يناير/كانون الثاني ١٩٥١م وصل إلى مصر فضيلة الشيخ أبي الحسن علي الحسيني الندوي وكان يرافقه الشيخ محمد معين الندوي، والشيخ عبد الرشيد، وأقام بمصر خمسة شهور ونصف، وانضم إليهم الشيخ عبيد الله البلياوي بعد وصولهم إلى «القاهرة» بثلاثة أيام، ورافقهم في سائر جولاتهم، وتحدث الشيخ الندوي في اجتماعات مختلفة للعلماء والأدباء، فانتشر عمل الدعوة في أوساط أهل العلم، ونال

التقدير والاعتراف، وكان ذلك ممهداً للدعوة والتبليغ في أرض «مصر»، وتعريفاً بها، وكانت الحاجة ماسة إلى دعم هذا التعاون التمهيدي، بجولات موسعة لجماعات التبليغ بالطريقة المتبعة للحركة.

ونذكر فيما يلي جولة لجماعة التبليغ بالمبادئ التبليغية.

رحلة دعوية :

قامت جماعة للتبليغ برحلة دعوية إلى «المحلة الكبرى» في ١٤/إبريل/نيسان ١٩٥١م، أدى الشيخ الندوي ورفقته صلاة الفجر في ١٥/إبريل/نيسان ١٩٥١م، يوم الأحد في مسجد أهل السنة، ثم تحدث إلى الحاضرين، وطالبهم في كلمته بأن يخرجوا في جماعة، واكترت الجماعة شاحنة إلى منطقة مجاورة للمحلة الكبرى، وكانت الجماعة تتألف من أكثر من خمسين شخصاً، توجهت الجماعة أولاً إلى المسجد، وألقيت كلمة وجيزة في بيان أصول الخروج في سبيل الله، ثم وزعت الجماعة على جماعات صغيرة وأرسلت كل جماعة إلى قرية مجاورة، وقامت هذه الجماعات بجولة، ثم عادت إلى المركز قبل المغرب، واجتمع عدد كبير من سكان المنطقة والمناطق المجاورة للقرية، وتحدث إليهم الشيخ أبو الحسن علي الحسيني الندوي، ثم تحدث إمام مسجد «المحلة الكبرى» الأستاذ يوسف القرضاوي.

وعقد اجتماع آخر في اليوم الثاني، أي يوم الاثنين ١٦/إبريل/نيسان ١٩٥١م بعد صلاة الفجر، وتحدث فيه الأستاذ الندوي ومن رفقته تحدث الشيخ محمد معين والشيخ عبيد الله البلياي، ثم عاد الجميع إلى المحلة الكبرى، وعقد اجتماع للنساء، تحدث فيه الشيخ عبيد الله البلياي، وبعد العشاء تحدث الشيخ أبو الحسن علي الحسيني الندوي.

في مركز شباب سيدنا محمد ﷺ :

عقد اجتماع في مركز دار الأرقم في ١/مارس/آذار ١٩٥١م، تحدث فيه الشيخ أبو الحسن علي الحسيني الندوي، وكان موضوع كلمته: «حركة الشيخ محمد إلياس»، استعرض فيها تطور الدعوة الإسلامية في «الهند»، وما لعبته هذه الحركة من دور فعال في الإصلاح والتربية، وكان ذلك أول تعريف بهذه الحركة بالأسلوب

العلمي، ذكر فيه ما لقيه الشيخ محمد إلياس من صعوبات في جولته في «ميوات»، واستعرض المبادئ الستة للدعوة والتبليغ وآداب الخروج في سبيل الله، وفصائل التفرغ للدعوة، وبعد هذه الكلمة المستفيضة أبدت جماعة شباب سيدنا محمد ﷺ استعدادها لتبني هذه الطريقة، وقال الشيخ الندوي: إن الجماعة إذا قررت ذلك وتبنت هذه الطريقة فإنه سيسهم فيها بنفسه.

في مركز الجمعية الشرعية:

توجهنا إلى «المحلة الكبرى» مرة أخرى في ٨/ إبريل/ نيسان ١٩٥١م، وألقى الشيخ الندوي خطاباً بعد صلاة العشاء في «مركز الجمعية الشرعية» في التعريف بحركة التبليغ وكان في المستمعين الشيخ أحمد الشرباصي أيضاً، واستعرض فضيلته في كلمته نشاطات جماعة الدعوة والتبليغ في «الهند»، وتأثيرها على المجتمع الهندي، ألقى سماحة الشيخ الندوي في كلمته الضوء على ثمار هذه الحركة في «الهند»، وما أدت إليها من نتائج حسنة على المجتمع، ووجه في كلمته الدعوة إلى تشكيل جماعة للعمل في قرية من القرى على منهج «ميوات»، وكان لهذه الكلمة أثر طيب على نفوس المستمعين، وأبدى عدد كبير من الحاضرين استعدادهم للخروج في سبيل الدعوة، وفي اليوم التالي ألقى فضيلته الدرس في الصباح، وبعد الدرس أدى الجميع صلاة الضحى، وبعد صلاة العصر عقد اجتماع للنساء، وتحدث فيه الشيخ عبيد الله البلياوي، وبعد صلاة المغرب ألقى سماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسيني الندوي كلمته، وشرح فيها منهج جماعة الدعوة والتبليغ، وألقى الضوء على مبادئها، ثم توجه إلى «القاهرة».

إرسال جماعة من المناطق المجاورة وتأثير هذه الجماعة:

بدأت تنقل الجماعات بعد هذه الرحلة، وخاصة في الحجاز، وكان معظم الذين يشتركون في هذه الجماعات، الهنود والباكستانيون.

كانت المشكلة الكبرى التي كانت تواجهها هذه الجماعات مشكلة اللغة، وقد كان أعضاء هذه الجماعات لا يقدرون على التكلم باللغة العربية الفصحى، لكن العاطفة الصادقة، والإخلاص والاجتهاد، والإيثار والبساطة، والتضحية والرزانة،

كانت تسدّ هذا النقص، وتستتر هذا العيب، وتغمر القلوب بالمحبة والتقدير والمودة للعاملين.

وقد رافق إحدى هذه الجماعات الشيخ رحيم خان الذي كان قد قضى فترة طويلة مع الشيخ محمد إلياس، وتعلم منهج العمل فيه، فترى انطباعات سفره في رسالة وجهها إلى الشيخ سعيد خان والشيخ عبيد الله البلياوي.

كتب يقول:

«وصلتُ إلى «مصر» بفضل دعوتكم، وقد كانت الرحلة بالباخرة ممتعة للغاية، وقد أقمنا في «جبل الطور» يومين، وقمنا بجولة عامة فيه، أدينا الصلاة مع الأذان، ثم مكثنا يوماً واحداً في «السويس»، ووصلنا في اليوم التالي إلى «القاهرة»، والتقينا بالأحبة، ثم توجهنا إلى «المحلة الكبرى»، بدأنا نعمل فيها، وجدنا تربتها مخصبة، ثم انتقلنا إلى المناطق الريفية، وشكلنا جماعة للعمل في المدن والقرى، وقضينا الوقت في حلقات التعليم والجولة العامة واللقاءات الخاصة والعامة، والذكر والتلاوة».

بدأ العرب المحليون يبدون اهتمامهم بعمل الدعوة لتأثير تنقل الجماعات في المنطقة، واهتموا بالاشتراك في الجماعات.

يصف أحد العاملين هذا الإقبال على الجماعات في رسالة له:

«تستمر الدعوة العامة والخاصة في «القاهرة»، وقد توجهت الجماعة إلى منطقة مجاورة، وشاهدنا إقبالاً على عمل الدعوة في الناس بفضل الله تعالى، وقد توجهنا إلى السفارة الباكستانية بعد وصولنا إلى «القاهرة»، والتقينا بالشيخ أحمد الحسني، وقد كان موظفاً في السفارة في «جدة»، وتعرّف على عمل هذه الجماعة، وهو من أقرباء الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي، فعقد اجتماعاً للعاملين في السفارات الأجنبية في منزله، والتقينا في هذا الاجتماع بزعيم المعارضة النيجيري مع بعض أعضاء البرلمان، وسفراء «الجزائر» و«ليبيا» و«الأردن» و«أندونيسيا»، ومعظم الموظفين في السفارة الباكستانية، اشترك ثلاثة أشخاص منا في هذا الاجتماع، وتحدثنا إلى الحاضرين في جو ودّيٍّ أخوي، وأبدى أعضاء السفارات «النيجيرية»

و «الجزائر» و «الملايو» تقديرهم لهذا العمل، يجري هذا العمل هنا بخير في جو أخوي، ويتقدم بصورة مشجعة نلتمس دعواتكم».

كانت كل جماعة تصل إلى «مصر» لا تركز على العمل في المدن، والمناطق المتحضرة، بل تخرج إلى المناطق الريفية والضواحي، والمناطق البعيدة، ونقطع هذه المسافات الطويلة بالمراكب إذا تيسرت، وعلى الأقدام إذا لم يتيسر المراكب، وتلقي الضوء على هذه الجماعات رسالة كتبها الشيخ محمد يعقوب إلى الشيخ محمد يوسف، فكتب يقول:

«أقمنا في «المنيا» بعد العمل في «القاهرة» أربعة أيام، وأقمنا فيها أسبوعين، والتقينا في مختلف الأحياء بأئمة المساجد، ومن مينا توجهنا إلى «الزقازيق» راجلين على خط سكة الحديد، وأقمنا يوماً أو يومين في كل قرية، وبعد أسبوعين وصل إخوة آخرون، وبعد رحلة دامت يومين رجع الإخوة الآخرون إلى «المنيا»، ومن «المنيا» إلى «المحلة الكبرى»، ثم وصلوا إلى «الزقازيق» بعد أسبوعين، وقد وصلت الجماعة إلى «القاهرة» لأول مرة، واستقبل سكان المنطقة هذه الجماعة بمحبة وتقدير، ورافق سكانها الإخوة العاملين في الجماعة، واشتركوا في برامجنا في أوقات مختلفة، منهم من قضى معنا، ومنهم من رافقنا يومين، نشكر الله على إحسانه، ويرجع كل ذلك إلى دعواتكم.

ومن «الزقازيق» حيث أقمنا أسبوعين وصلنا إلى «بيت عمر»، مع بعض الإخوة المحليين، ثم عقدنا حلقة الاستشارة عن برامجنا في مناطق مختلفة، اشترك فيها الإخوة من «القاهرة» و «المنيا»، و «الزقازيق» و «المحلة الكبرى».

سمعنا أولاً من إخواننا بعد صلاة الجمعة وقبلها انطباعات، وقد أبدى سكان «القاهرة» و «المنيا» الذين رافقونا ندامة على تقصيرهم، وكانت تنهمر الدموع من عيون كثير منهم، ذكر الإخوة في «المحلة الكبرى»، كيف قاموا بالجولة في منطقتهم؟ وكيف انتقلت جماعتهم؟ وذكرنا نتائج هذه الجماعات، ثم وزعنا الحاضرين على حلقات صغيرة للتشاور فيما بينهم، وتحديد نظام العمل، وبعد صلاة العشاء اجتمع جميع الإخوة مرة أخرى، فتذاكرنا آداب المشورة، ثم تشاورنا حول قضاء الأوقات».

الاستقبال العام للدعوة:

كيف استُقبلت الجماعة، ولَبَّى عامة الناس الدعوة؟ تلقي الرسالة الآتية بعض الضوء عليه:

«جاء لاستقبالنا على الميناء من «القاهرة» عدد من الإخوة العرب، وألَحَّ الإخوة في «الإسكندرية» على أن نقيم في «الإسكندرية»، ولو يوماً واحداً، ثم رافقونا في عملنا بعاطفة وحفاوة بالغة، ثم توجهنا إلى «القاهرة» بعد يوم، ووصل الشيخ حبيب الله مع إخوته وأحبته في اليوم الثاني من «المحلة الكبرى» إلى «القاهرة»، ومعه عدد كبير من الإخوة العرب، وكان الجو مؤثراً للغاية وكان منظر اللقاء منظرأً خلاّباً، ترق له القلوب.

وقد كان استقبال العرب في «القاهرة» لعمل الدعوة استقبالاً شعبياً كأننا في بلدنا ومع إخواننا، شباب صالحون تبدو على وجوههم مخايل التقوى وآثار الورع، خشوع في الصلاة، وعاطفة خدمة الخلق، وتمسك بالمبادئ، وحرص على النصيحة، والعمل بها بدقة وحذر، وقد تأثرنا بهذا المنظر، وقد اخترنا ممن سار بنا في رحلتنا في «مصر» راجلين قبل ثلاث سنوات، بعض الإخوة للعمل في «مراكش» وقد استعدوا للسفر، ولكن عوائق السفر حالت دون تحقيق هذه الأمنية، إلّا أن جماعة للمصريين خرجت من «القاهرة» إلى «أسوان» عن طريق «أسيوط» وتبلغ المسافة حوالي ثمانمائة كيلومتر، وتقرّر قضاء أربعة شهور، وكان جميعهم من العرب، ووعد عدد من المصريين بالخروج إلى وطننا «الهند» أيضاً، ندعو الله أن يسهل عاطفة تعلم الدين، والدعوة إليه.

وقد التقينا في «مصر» بعدد كبير من المشايخ والعلماء، وكان مع الشيخ حبيب الله بعض الإخوة الذين أصيبوا بأمراض، إلّا أن عمل الدعوة يسير على ما يرام، وقد ألفت المصريون هذا العمل، واثتنسوا به كلياً، وقد أقمنا في «مصر» ثمانية أيام.

وضع الشيخ محمد يوسف أساس العمل في الدول العربية، ومنذ ذلك اليوم يستمر انتقال الجماعات، ولهذه الجماعات التي تخرج إلى الدول العربية تعمل «مصر» على جسر أو المعبر، وتمر هذه الجماعات بـ «مصر» بصورة لازمة.

«السودان»:

كان الشيخ عبيد الله البليايوي قد سافر إلى «السودان»، وتوجهت عدة جماعات إلى «السودان» أيضاً، وبمناسبة وجود الشيخ الندوي في مصر في عام ١٩٥١م تقررّت زيارة «السودان» من «مصر»، فوصل الشيخ عبيد الله والشيخ الندوي إلى «السودان»، وكان في السودان شخصيتان كبيرتان لهما نفوذ واسع على الشعب، أحدهما ميرغني باشا الذي يبلغ عدد مسترشديه ومتبعيه مئات الألوف، والثاني الشيخ عبد الرحمن المهدي ابن المصلح الكبير المهدي السوداني، وله أيضاً أتباع كثيرون في «السودان». وأنزل السيد ميرغني الشيخ الندوي والشيخ عبيد الله في منزل أحد مسترشديه وخلفائه في «الخرطوم البحري»، وأجرى الشيخان خلال إقامتهما بـ «السودان» لقاءات مع كبار العلماء والدعاة السودانيّين، والأعيان والمشايخ، وتحدثا في اجتماعات مختلفة، وتعرف الناس على هذه الحركة ومنهجها في عمل الدعوة والإرشاد بفضل رحلة هذين الشيخين وأحاديثهما وبجهودهما بدأ الإقبال على هذه الحركة، وخرجت جماعة من السودانيّين، وانتشر عمل الدعوة في مختلف أنحاء «السودان».

يقول أحد الدعاة الذي كان في الجماعة التي عملت في «السودان»، وهو يصف انطباعاته في رسالة له:

«غادرنا يوم السبت لدى المغرب بباخرة السوداني إلى «سواكن»، وكان على ظهر السفينة ستمائة من الحجاج التكرانيين وركاب آخرون، والتقىنا بالركاب من الحجاج والركاب الآخرين خلال الرحلة على ظهر السفينة، وعقدنا حلقات التعليم، والتقىنا بقبطان السفينة والموظفين الآخرين، وشرحنا لهم منهج عملنا، ووعدوا بالاشتراك في هذا العمل، ووصلنا إلى «سواكن» في اليوم الثاني عند العصر، وتحدث بعد العشاء الشيخ غلام رسول، ووجه الدعوة إلى الناس للاشتراك في عمل الدعوة، ونصرة الجماعة، وقضينا ثلاثة أيام في هذه المدينة، ثم وصلنا إلى «بور السودان» مع أربعة أشخاص خرجوا للدعوة، ووجدنا هنا أن المساجد كلها تابعة للحكومة، وتركنا أمتعتنا في دار الضيافة وخرجنا للقاء الناس، واجتمع عدد من الأعيان في صلاة الظهر، وبدأنا الجولة، ثم انتقلنا إلى «جامع عمر»، وأقمنا نظام الجولة والتعليم

والدعوة في المساجد، وسجل الناس أسماءهم للخروج لأربعة أشهر إلى «الهند» و «باكستان»، وقد لقينا من الشيخ عبد الرحمن والشيخ حسين الحسني كل معونة ونصرة، فقد قبلنا هذا العمل من صميم القلب، وقالوا لنا: إنهما سيحاولان بأنفسهما، ويوجهان الدعوة إلى الآخرين للخروج في سبيل الله، ولكن يجب أن لا نستعجل في الأمر، بل نجتهد في «الخرطوم»، ولذلك نساfer اليوم إلى «الخرطوم».

وتوضح الرسالة الأخرى التي أرسلت إلى الشيخ محمد إنعام الحسن بعد وفاة الشيخ محمد يوسف سير عمل الجماعة في «السودان»:

«توجهنا نحن الثلاثة بعد وصولنا إلى «بور السودان» إلى «سواكن» التي تبعد ثلاثين ميلاً، وقضينا أربعة أيام في «القرنطينة»، وخلال «القرنطينة» كنا نواصل عمل الدعوة، فكنا نلتقي بالحجاج، والموظفين في المستشفيات، ونوجه إليهم الدعوة، وقد أعطانا بعض الأطباء عناوين أقاربهم وأصدقائهم، وأقمنا الاتصال بهم على تلك العناوين، كما التقينا ببعض الشخصيات التي كنا قد حصلنا على عناوينهم من الحجاج خلال الحج، وقضينا ثلاثة أيام في «بور السودان»، والتقينا بالأحبة والعلماء المعروفين، ووعد عدد من الناس بالخروج، وغادرننا «بور السودان» ووصلنا إلى «جيت»، وأقمنا يومين، ووجدنا سكان هذه المنطقة مهتمين بأمور الدين، يعيشون في غاية من البساطة والتواضع، يتميزون بحسن الخلق، والرغبة في الدين، والحرص على الدعوة، فخرج أربعة أشخاص معهم إلى «عطرة» و «الخرطوم»، ونزلنا في «عطرة» في مسجد الشيخ أحمد نوادي، وقد شهدت هذه المنطقة عمل الدعوة قبل ذلك، ووصلت عدة جماعات إليها وعملت فيها، وذكر لنا سكان المنطقة أسماء بعض الدعاة، وكان أحد أنجاله يرأسل مع مشايخنا، ووعد أحدهم بالخروج معنا. كما احتفى بنا الشيخ أحمد نوادي، وأكرمنا، ورافقنا في رحلاتنا وجولاتنا ابنه الشيخ عثمان أحمد نوادي، كما لقينا بعض الأحبة الذين عرفوا هذا العمل وشاركوا فيه.

وبعد «عطرة» توجهنا إلى «الخرطوم»، وقضينا أسبوعين في «الخرطوم» وعقدنا اجتماعات في عدة مساجد، ولم يسمح لنا بالتوجه إلى جنوب «السودان» من «الخرطوم»، وخرج معنا بعض الأحبة لعشرة أيام وعشرين يوماً وزرنا «مدي»،

«كوسن»، «جبلين»، «جودة»، «القيقر»، و «رنك»، وقرى أخرى، واستقبلنا في كل مكان بحفاوة، وشاركنا بعض الناس لفترات محدودة، وشكلت جماعات محلية أيضاً في بعض الأماكن، وجددت برامج للجولة والتعليم، والآن نقيم في مكان واقع في الطريق إلى جنوب «السودان»، وسنقيم هنا إلى حين عودتنا، ويجري عمل الدعوة بنظام وانسجام بين الإخوة، ونواظب على أعمالنا من الجولة والتعليم والدعوة، وحث الناس على الخروج، وتشكيل الجماعات، ونحاول الاهتمام بالتلاوة والمواظبة على النوافل والتعليم الديني، ويتصف سكان هذه المنطقة بالضيافة والتواضع، ووجدنا «كوسن» منطقة جديدة للعمل، وفيها عدد كبير من السكان الذين لا يعرفون من أمور الدين شيئاً، بل بعضهم على غير دين.

وتوجه میان جی فی حیاة الشیخ محمد یوسف بجماعة بعد جماعة مع الشیخ عبید الله البلیاوی، والتقى بالقائد الكبير الشیخ عبد الرحمن المهدي والشیخ میرغني، وشرح لهما هدفه من الزيارة، وبین مبادئ الجماعة وأهدافها، وأبدى الشیخان تقديرهما لهذا العمل، ورخبا بنا ترحيباً حاراً وأبدیا سرورهما.

«العراق»:

تتوجه الجماعات الهندية والباكستانية عادةً إلى «الحجاز» والدول العربية الأخرى عن طريقين: طريق «عدن»، وهو معروف ويمر بـ «كامران»، والآخر طريق «الكويت»، الذي يمر بـ «البصرة» و«العراق»، وتسافر الجماعات إلى دول مختلفة مارة بهذه الأماكن وعاملة فيها أثناء السفر، كما تعمل في هذه الأماكن جماعات راحلة وركبناً، وتنتشر في الأماكن المجاورة خلال الإقامة في مكان، وقد سافرت جماعة من «بومبائي» عن طريق «البصرة» إلى الدول العربية، وأرسل الشیخ محمد عمر البالتپوري رسالة من الطريق، يصف فيها أحوال سفره:

«علمنا في «الكويت» بأنه لا يسمح لنا بالنزول في «البصرة»، فاهتمَّ الإخوة لهذا الخبر، وفكروا، فلجأنا إلى «الحصن الحصين»، وتذاكرنا باهتمام، واشتغلنا بالتلاوة والذكر والدعاء وصلاة الحاجة، وأصرَّ أهل «الكويت» على أن ننزل في «الكويت»، ولكن لم نقدر عليه، ونزلنا في «البصرة» والحمد لله على ذلك، وصادف أن زرنا

«قرية الزبير»^(١)، وكان الشيخ محمد يوسف مع إخوته مشغولاً فيها بعمل الدعوة وقد زاروا القرى الواقعة في جنوب البصرة، وعرفوها بالدعوة، فكان لها أثر طيب، ووجدنا في هذه القرية جماعة من المتوجهين إلى «تركيا»، وبعد يومين وصلنا إلى «بغداد»، وأقمنا حلقات في مساجد «البصرة»، وخرج معنا شخصان، وقطعنا مسافة خمس مئة كم بالقطار، واحتفلنا بالعيد في «بغداد»، ووصل يوسف بهائي مع رفقته إلى «بغداد»، وأقمنا في عدة مساجد، وعقدنا فيها حلقات التعليم والدعوة، كما زرنا مسجد الشيخ عبد القادر الجيلاني، ووجهنا الدعوة فيه، وكان الجو مساعداً للعمل، لقد توفي الشيخ إبراهيم قبل أربعة شهور، ويخلفه ابنه الشيخ نجم الدين، والتقينا به أيضاً، وأبدى سروره بقدمونا ودعا لنا، وهو من ذرية الشيخ عبد القادر الجيلاني، وقد زار «الهند» مراراً، والتقينا بإمام مسجد الإمام أبي حنيفة، الشيخ عبد القادر، ووجدناه رجلاً صالحاً كريماً متواضعاً، وله نفوذ كبير وأثر بالغ، ويتمنى زيارة «الهند»، وهو شديد الذكاء، بصير بالأمر، حاضر البديهة، قوي الحجة، متورع للغاية، يسعى إلى الاستقامة على الدين والتمسك بتعاليمه، والتخلق بأخلاقه رغم طغيان المادة والإباحية والسفور في النساء، والتقليد للغرب، والخضوع للشهوات، وذكر لنا أنه رأى قبل أربعين سنة شيخاً صالحاً في حالة الكشف يبشر بزيارة «الهند»، فلما قلت له: إن «الهند» بلد كبير مترامي الأطراف، فأين أذهب؟ فقال: إلى «دلهي»، مع أن ذلك الشيخ لم يكن يعرف مدن «الهند»، وأكد بالحاح أن أتوجه إلى «الهند»، ومنذ ذلك الوقت أتمنى زيارة «الهند»، وأرجو أن الله سبحانه وتعالى يتيح لي فرصة لزيارة «الهند»، فلما شرحت له مبادئ دعوتنا، وكيف تنتشر هذه الدعوة عجب كثيراً، وقال: بشرت بزيارة «دلهي»، و«دلهي» هي مركز الدعوة التي يقيم فيها المشايخ الذين يحملون العاطفة الدينية، ويجتهدون لها، وآثار دعوتهم تشاهد في منطقة تمتد مائتي ميل.

ويكتب الشيخ ضياء الدين الذي قام برحلات كثيرة في سبيل الدعوة وتوجه إلى «العراق» مع جماعة، يكتب رسالة يصف انطباعاته:

(١) قرية من قرى العراق القديمة، بها قبر الصحابي الجليل الزبير بن العوام.

«وصلت إلى «البصرة» في ١٨/ فبراير/ شباط، ووصلت خلال هذه المدة جماعة من «لندن»، وجماعة من «مراكش»، وجماعة من «تركيا» إلى «بغداد»، وكان عمل الدعوة قد وصل إلى هذا المكان قبل ذلك، والحمد لله على أننا استطعنا هذه المرة أيضاً الخروج إلى أماكن مختلفة واقعة في ضواحي «بغداد» وفي «بغداد» نفسها مع جماعة من العرب، ومن المؤسف أن العرب الذين لا يزالون يتصفون بالخلق العربي الإسلامي والعاطفة الدينية والغيرة الإسلامية، تتأثر الآن حياتهم بتأثير الحضارة الغربية، وتتسرب إلى حياتهم العادات والتقاليد التي تتعارض مع طبيعة هذا الدين الحنيف، وبغفلتنا وتقصيرنا بدأت رياض الدين التي كان النبي ﷺ قد غرسها بيده، ورواها أصحابه الكرام بدمائهم تجف أشجارها، وتذبل أزهارها وتصفّر خضرتها، ويجترى الأعداء أن يغرسوا حدائقهم وقد تغير الوضع، وبدأت آثار الاضمحلال، ليتنا كنا توجهنا إلى هؤلاء العرب قبل ذلك، وبذلنا جهودنا فيهم لإعادة هذه البساتين الإيمانية إلى خضرتها ونضارتها، وبهائنها وجمالها، لتفوح رائحة زهورها وتعطر العالم كله.

وعلى أي حال لم تفت الفرصة، ولم يضع الوقت كله، فإذا بذلنا الآن جهداً بتفريغ أوقاتنا للعمل في هذه المنطقة ستة أشهر أو سنة كاملة فإننا نرجو أن هذه الجهود العالمية ستعيد تلك الحياة التي كان النبي ﷺ قد تركها لنا، ترسل جماعات إلى «العراق» و«الشام» و«مصر» و«تركيا» و«لبنان» ومناطق أخرى، تقبل الله منا هذا الجهد المتواضع..

والسلام

«الشام»:

منطقة «الشام» منطقة خضراء، تتميز أرضها بجمال الطبيعة، وأهلها بالعاطفة الدينية، واحترام الشعائر الإسلامية، تكثر فيها المدارس والزوايا، ولم تغير الثورات المتتالية والانقلابات السياسية المتتابعة التي وقعت في البلاد صلة العلماء وعامة الناس بالدين، وقد زار الشيخ عيسى محمد البالنپوري هذه المنطقة بجماعة، ثم قام بجولة موسعة في الدول العربية الأخرى واجتهد فيها غاية الاجتهاد، يقول في رسالة له إلى الشيخ محمد يوسف:

«يجري عمل الدعوة بفضل الله العظيم ومنه، وبدعواتكم الكريمة وبركتها على ما يرام، ويتعرف العرب على هذا المنهج، ويدون اهتمامهم به، وقد جرت لقاءات مع علماء الشام فأبدوا سرورهم وتقديرهم لهذا العمل، وقالوا: نحن مقصرون، وفعلاً خرج معنا عدد كبير من الشاميين خلال جولتنا للقري، ويُقرض حظر التجول في «الشام» بسبب الانقلاب، ولكن جماعتنا تواصل عملها بعد العشاء أيضاً بفضل الله، ولا نواجه أي صعوبة في ذلك، وقد يسّر الله لنا العمل، وقد أوقفنا في بعض الأحيان رجال الشرطة عندما وجدونا في الشوارع بعد العشاء مستفسرين من أنتم؟ فلما سلمنا عليهم تركونا قائلين وعليكم السلام، الله يعطيكم العافية، وقد جمعنا طلاب المدارس الإنجليزية، وقد بلغ عددهم حوالي ثلاثمائة ومنهم بعض الأساتذة، فكان عليهم أطيّب الأثر، وقد أغلقت المدارس بعد الانقلاب، ولذلك خرج معنا الطلاب بسهولة بعدد وافر، فكانوا يسجلون ما كانوا يسمعون منا من آداب الخروج في سبيل الله، وعلمناهم طريقة التعليم، وبعد يوم أو يومين بدأوا بأنفسهم التعليم وتشكيل الجماعة، وبيان مبادئ الخروج في سبيل الله أحسن منا.

يطلب منا الإخوة العرب بأن ندعو لهم، فنقول لهم: أنتم أولاد الصحابة والتابعين، البركة فيكم، فلتتمس منكم الدعاء لنا، فقالوا: نعم، نحن العرب حقاً، ولكننا لسنا من رجال الدعوة، وقد قصرنا في هذا المجال، فزالت عنا البركة، وتأييد الله، ونصرته.

إنهم يندمون على ثقافتهم وملابسهم، وبفضل عمل الدعوة غيّر بعض الشباب ثقافتهم، وتركوا حلق اللحية، وقد التقينا بمفتي حلب لقاءً خاصاً، فرحب بنا ويكلامنا، وشرحنا له طريق دعوتنا ونتائجه. وقد شاهدنا خلال الجولة رجالاً ونساء يرقصون معاً، فذكرنا ذلك لسماحة المفتي، فتأثر به تأثراً بالغاً، ثم جاء المفتي إلى محلنا واشترك في حلقاتنا، وألقى كلمة مفيدة، وكان يقول لدى تشكيل الجماعات للناس أن يسجلوا أسماءهم، وقبل مغادرتنا «حلب» ذهبنا إلى محكمته للقائه والدعاء، وطلبنا منه أن يدعو لنا، فاعتذر المفتي، فقال: إنه لا يصلح للدعاء، أنتم خرجتم في سبيل الله فعليكم أن تدعو لنا وسأقول: آمين، فدعونا تلبية لطلبه، وأقبل

على الحاضرين في المحكمة، فقال لهم: انظروا إلى ملابسهم ووجوههم، كيف يتبع هؤلاء الأعاجم سنة النبي ﷺ وقد تركنا هذه السنة، وهو يقول ذلك وانهمرت الدموع من عينيه.

كذلك التقينا في «حماة» بعالم يبلغ عمره مائة وعشر سنوات، وعرضنا عليه دعوتنا ومنهجنا، وشرحنا له سير هذا العمل في «الهند»، فعجب وقال: كيف يجري هذا العمل في هذا العصر ثم دعا لنا، وقد خرج والحمد لله على ذلك أربعة أشخاص من «حلب» وسبعة من «حماة»، وشخص واحد من كل من «دمشق» و«حمص» للهند، وقد نصرنا الحاج محمود رواس في «حماة» كثيراً. إن تقدم العمل في «الشام» شجع للغاية، ونسأل الله تعالى السداد، والإعانة والتوفيق.

وكتب أمير جماعة أخرى سافر إلى «الشام»، يقول:

«وصلنا إلى «دمشق» في ٢٣/ديسمبر/كانون الأول ١٩٦١م، والحمد لله على ذلك. وقد وجدنا في الإخوة العرب استجابة كبيرة للعمل، وقد وهبهم الله الذكاء وقوة العمل، والمزايا الطبيعية الخاصة التي لا تيسر لنا إلا بعد مجاهدة طويلة، وهذه المزايا تكاد تصبح طبيعتهم وشيئتهم، إلا أن الحضارة الغربية تغزو القلوب، وتتغير الآن طرق المعيشة والثقافة، فلا يسهل التمييز بين مسلم وغير مسلم، ويعم السفور في النساء، ونشاهد مناظر تدمي قلوبنا إلا أنهم يعظمون القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، وينصتون إلى ذكر الله، ويهتمون به ويقدرونه، وتهديهم طبيعتهم القويمة، ويستعدون للخروج بسهولة، وقد كتبنا رسالة إلى «حلب» وتبعد «حلب» عن «دمشق» حوالي أربع مائة كيلومتر، وقد وصلت جماعة من «حلب» إلى «دمشق»، وتساعدنا في تنظيم نظام الدعوة والجولات، وسنسافر إلى «حلب» من «دمشق» في ٣٠/ديسمبر/كانون الأول، إن العرب يستحقون عناية خاصة منا، وطبائعهم ومزاياهم تقربهم منا، وتسهل قبول دعوتنا، وتثور العاطفة الدينية فيهم بأدنى تأثير».

ويكتب الشيخ محمد عمر الپالنپوري في رسالة له:

«أقمنا في بلاد «الشام» حوالي ٨ أيام، وتوجهنا إلى «دمشق» من «حلب»، وسافر عدد من الإخوة من «حلب» إلى «دمشق» على الأقدام، فأما الإخوة الآخرون

فمكثوا في «حلب» لمواصلة عمل الدعوة في ضواحي «حلب» مع الشيخ عيسى، وخرج معنا الشيخ سعيد جراب، وتحدثنا إلى موظفي المطافئ الذين جمعهم الشيخ سعيد، وتقرر عقد حلقات التعليم كل يوم، وغادرنا «حلب» وتركنا فيها المتوجهين إلى «تركيا»، ووصلنا إلى «دمشق» مارين بـ «حمص» و «حماة»، وقضينا بعض الوقت في الأماكن التي مررنا بها خلال رحلتنا إلى «دمشق».

وخرج معنا من كل مكان أقمنّا فيه للدعوة عدد من الأحبة، واستعد بعض الإخوة الشاميين للسفر إلى «العراق»، وسيوجههم إلى «العراق» الشيخ عيسى، وأبدى الشيخ سعيد استعداده للخروج إلى «لبنان»، ووصل فعلاً اليوم، وأبدى الشيخ حكمت استعداده للخروج إلى «مصر»، التقينا في «دمشق» بالشيخ الكتاني، فأعرب عن سروره البالغ، وهو يعد من كبار علماء «دمشق» المعروفين، ووجدنا فيه عاطفة جياشة وهماً كبيراً للملة الإسلامية، وهو عالم متواضع للغاية يخفي نفسه، ولكنه مستجاب الدعوات، وقد سبق أن تشرفنا بزيارته في «المدينة المنورة» في العام الماضي، وحكى لنا قصص نصره الله وتأنيده، ووعد بزيارة «الهند»، وعرضنا عليه الدعوة، وشرحنا منهنّا للعمل، وقد تقرر عقد اجتماع أسبوعي في «دمشق» أيضاً، ونسأل الله التوفيق والاستقامة، وقد أعددتنا جماعة للعرب في «دمشق» للعمل في القرى ٢٤ ساعة، ونرجو أن يستمر هذا العمل وقد توجه إلى «حماة» قبل أربعة أشهر بعض الإخوة، وأقاموا فيها مدة للدعوة.

«الأردن»:

يكتب أحد الإخوة القداماء الذي قضى فترة في «الأردن»، وكان أميراً لجماعة تتكون من العلماء، في رسالة له:

«الحمد لله نحن بخير جميعاً، ونرجو الله أن تكونوا في صحة وعافية كاملة، وصلت جماعة من «المدينة المنورة» إلى «عمان» بـ «الأردن» عن طريق «تبوك»، وخرج من هنا عدد من الإخوة، وأقمنّا في مساجد مختلفة، وشكلنا جماعات، والتقينا بالعلماء والمشايخ ورجال الإفتاء، وعقدنا اجتماعات عامة اشتركوا فيها أيضاً واتصلنا برجال الأعمال، والموظفين أيضاً، وأعددتناهم للدعوة، ثم توجهنا إلى

«الزرقاء» لثلاثة أيام، وخرج منها أيضاً عدد من الأحبة، وقد اطمأن لعملنا القاضي، ومدير الأوقاف، ولم تعترض سبيلنا أي مشكلة، ولا مانع من القيام في المساجد، وعقد حلقات التعليم فيها.

كتب أحد الإخوة العاملين في «عمان» في رسالة له :

«وصلت الجماعة بخير وعافية، وقد تكونت هنا جماعة تتألف من ستة أشخاص للخروج إلى «الهند»، ومن هنا سافرنا إلى «بيت عمر» وقد بذلنا الجهد فيها، إلا أننا لم نتمكن من إعداد جماعة، وقد استعد ثمانية عشر شخصاً للخروج إلى «الهند».

انضم إلى جماعتنا شخصان من «بيت لحم»، وشخص من «عمان»، ومن الجدير بالذكر أن المساجد هنا تابعة لوزارة الأوقاف، ولا يسمح لأحد بالإقامة في أي مسجد أو عقد اجتماع، فلا بدّ من الحصول على تصريح من وزارة الأوقاف، وقد فتح الله لنا أبواب العمل، فقد أقمنا بجامع قطب، وجعلناه مركزاً لعمل الدعوة، ثم نزلنا بـ «جبل الوحدات»، و «الوحدات» مستوطن للفلسطينيين، ويبعد من «عمان» بحوالي ميلين، وقد نزلنا في الجامع، وهو مكان مركزي، وبه جميع المرافق، وقد أصبح هذا الجامع مركزاً للتبليغ، ونقيم هنا منذ عشرة أيام، ومنه نخرج للجولة في المناطق المجاورة، وقد شكلنا جماعة للعرب للعمل محلياً، وقمنا بجولات في الحي مع الإخوة العرب وكان المتكلم من العرب، وكان الأمير أيضاً منهم، وهم الذين تولوا الدرس بعد الصلاة وبرنامجنا هنا كما يلي :

لقاء العرب بين المغرب والعشاء، الحديث بعد صلاة الفجر إلى صلاة الضحى، وقد توجهت ثلاث جماعات للعرب إلى المناطق المجاورة للمسجد في الأحياء القريبة، وأميرهم يتولى الجامع في الوحدات، وعيّن الشيخ محمد إبراهيم المدرس في مدرسة عمر بن الخطاب متكلماً، والحمد لله أن الشيخ محمد إبراهيم يشترك في العمل بنشاط كبير وحماس بالغ، ويخرج معنا في الجولات، ويتحدث إلى الناس، ويتبع منهجنا كلياً، فإذا قلنا له: إن هذا يخالف منهجنا يترك ذلك العمل، مثلاً إذا قلنا له: يجب أن يخاطب العلماء بطريق لا يشكل اعتراضاً أو إدانة؛ لأن ذلك يثير فيهم رد فعل، ويعتبرونه إساءة إليهم وإهانة لهم، قبل ذلك بدون تردد، وتختلف

طبيعة العمل هنا عن غيره من الأماكن، فإن العمران هنا في «عمان» منتشر وموزع، تقع بعض البنايات على جزء من الجبل، وبنايات أخرى في جزء آخر من الجبل، فإن «عمان» مجموعة للجبال، وعمرانها على الجبال، ونسعى أن نشكل جماعة تعمل في مسافة مائة ميل، ولا يصعب ذلك، فإن عمل الدعوة أصبح معروفاً لدى الناس، ويدخل فيه العرب أفواجا، فإذا استطعنا أن نغطي هذه المنطقة بمواصلة العمل فيها، والوصول إلى معظم سكانها، فإنه سيسهل لنا نشر الدعوة في هذه المنطقة.

«فلسطين»:

أقمنا في «عمان» عشرة أيام ثم توجهنا إلى «الخليل» وأقمنا هنا ثلاثة أيام، وفي «الخليل» مقابر مئات من الأنبياء الكرام، منهم خليل الله إبراهيم عليه السلام، ويعقوب عليه السلام، وإسحاق ويوسف عليهما السلام، وجميع هذه القبور قريبة من مسجد هذه المدينة، وتقع قبور يوسف عليه السلام وموسى عليه السلام قريباً من موضع إقامتنا، وقد شرح الله صدور سكان المنطقة لعمل الدعوة، فقد خرج من «عمان» عدد كبير معنا، وتبعد «عمان» بحوالي ١٢٣ كيلومتر، وقد رافقنا أحد الأثرياء من «عمان» في سيارته لأربعة أيام، وهو من أعيان البلد، وعقدنا اجتماعات للخواص في مكتب مدير الأوقاف، وقد وجدنا في المستمعين إقبالاً عظيماً، وقال أحد الحاضرين: اليوم فهمنا الإسلام، وسمعنا ذلك التعليق في أماكن أخرى أيضاً، وعقدنا حلقات التعليم في ثلاثة مساجد، ويرافقنا سبعة عشر شخصاً غير العرب، ومن هنا توجهنا إلى «بيت لحم» ليوم واحد، وجاء أمير البلدة إلينا في الليل، وأعرب عن تقديره لهذه الحركة وترحيبه بقدومنا إلى هذه المنطقة، وشجعنا ووعد بالخروج إلى «الهند»، وتحدثنا إلى اللاجئين الفلسطينيين، وخرج معنا عدد من الإخوة العرب من «بيت لحم»، وكان فيهم عدد من الأعيان، ويعتبر «بيت لحم» مولد سيدنا عيسى عليه السلام.

وقد قمنا بجولات موسعة في «القدس»، وأقمنا في مساجد مختلفة، وكان اجتماع الجمعة في «بيت المقدس» اجتماعاً ضخماً، وكنا قد شرحنا للخطباء منهجنا، وتحدثنا معهم، وفي كل جلسة أو كلمة نكسب المؤيدين للعمل، ويسجل الناس

أسماءهم، وقد عقدنا اجتماعاً للعلماء في «بيت المقدس» يوم السبت بعد صلاة الظهر، اشترك فيه عدد كبير من الطلاب في المراحل العليا، والضباط ورجال الشرطة، ووعد العلماء بالاشتراك في عمل الدعوة، كما وعد بعضهم بالاشتراك في الدعوة خلال الحج من «مكة المكرمة»، وأقمنا في «القدس» أيضاً في مسجد، ولم نزل حتى الآن في الفنادق، وفي آخر أيام الإقامة في «القدس» وصلت جماعة من المناطق المجاورة، وكان من باب الصدفة إن الشهر الذي كنا نازلين فيه في «القدس» كان شهر رجب، وهو شهر الإسراء والمعراج.

ومن «القدس» انتقلنا إلى «نابلس» وهو موضع يقع على بعد ٧٠ كيلومتراً، وأقمنا به ثلاثة أيام، ووجدنا الناس هنا أكثر إقبالاً على دعوتنا، وفي هذه المدينة مساجد كثيرة، وكذلك فيها مدارس، فعقدنا اجتماعاً لطلاب المدارس، وقام هؤلاء الطلاب بجولة في المدينة، وجمعوا الناس للاجتماع. واشترك في جلساتنا قاضي المدينة، والمفتي والمدرسون والمشايخ باهتمام كبير، ويشجعوننا، وأجرينا اجتماعاً خاصاً للأعيان، وشكلنا جماعة تتكون من سبعة عشر شخصاً منهم.

ثم انتقلنا إلى «إربد» وهي على بعد ١٥٠ كيلومتراً، وكان عدد العرب ٢٦، وكان المجموع ٤٣ شخصاً، وأقمنا ثلاثة أيام، وغطينا عدة مساجد، ثم عقدنا اجتماعاً لطلبة الثانوية وأساتذتهم، وقد سقط الثلج هنا في يوم كنا فيه في «بيت المقدس»، ولذلك البرد هنا شديد، ولكن الأحبة يواجهون هذا الجو بطيب خاطر مرتاحين، ونعقد هناك جلسات منفصلة للغة الأردنية، واللغة العربية، كذلك نقوم بجولات خاصة وعامة، ويواظب الإخوة العرب على أوقات الصلاة والذكر وقيام الليل، وخاصة الاهتمام بالتهجد في العرب عام، وقد واجهنا عقبة في مسجد «إربد»؛ لأن جماعتنا كانت كبيرة، ولكن تدخل في الأمر أمير المدينة الذي سبق أن استمع إلى كلامنا في «القدس»، وحضر اجتماعنا هناك، فأعرب عن أسفه وأقنع الآخرين، فهدأ الجو، واقتنع الناس.

إن سكان هذه المنطقة متضررون، لهم ظروف خاصة، لكنهم يفهمون كلامنا ويقدرونه، وخاصةً حينما ذكرنا أن سيدنا عمر بن الخطاب قال لأبي عبيدة الجراح

رداً على سؤاله في «بيت المقدس»: إن الله أعزنا بالإسلام، تأثر به الجميع وسالت الدموع من عيون كثير منهم، وكان ذلك منظرًا خلّاباً، وركت له القلوب. وقد رافقنا بعض الإخوة العرب منذ قدومنا، وبعضهم يرافقون لمدد مختلفة، وعلمنا أن أحد الإخوة العرب أخذ التأشيرة ويأتي إلى «الشام».

نتذكر بعد صلاة الفجر كل يوم المبادئ الستة للجماعة، يتولاها الشيخ إحسان الحق الباكستاني في العرب، ونحن نجمع الناطقين باللغة الأردية ونتحدث إليهم في هذا الوقت، وبعد الفطور تعقد حلقات التعليم، ثم تتوجه جماعات مختلفة إلى مساجد مختلفة، وبعد العصر درس من الكتاب، وقبل المغرب جولة عامة، وبعد المغرب البيان، وبعد العشاء طعام العشاء ثم آداب النوم وفضيلة التهجد ثم النوم، وهذه هي برامجنا اليومية، ونرجو أن يشيع نظام الجولة والتعليم، وثلاثة أيام في كل شهر، وأربعة شهور كل عام في «الهند» وفي كل مكان ليكون له أثر طيب على الدول الأخرى، ويشعر سكان البلدان الخارجية، والجماعات العاملة فيها بأهمية هذا النظام، نسأل الدعاء منكم والتوفيق من الله، وأن يعفو عن زلاتنا وأن يتقبل أعمالنا هذه.

«لبنان»:

في «لبنان» يعيش المسلمون والمسيحيون سواء بسواء، وقد تأثر هذا البلد بالحضارة الغربية أكثر من أي بلد آخر، فيبدو «لبنان» منطقة من «أوروبا» أكثر من كونها منطقة من البلاد العربية، تعم فيها مناظر الفسق والفجور، وقلة الحياء، والبغي والعصيان، فيصعب في مثل هذا المكان تحرك جماعات التبليغ، وقد واجهوا صعوبات، لكن واجه العاملون في الدعوة هذه العقبات بصمود وصلابة، ووزعت جماعات العاملين للجولة والاتصال بالناس في كل مكان، وأثمرت جهودهم، فخرج عدد من الناس.

يصف أحد العاملين في «لبنان» انطباعاته:

«وصلنا في جماعة تتكون من عشرة عاملين من «كجرات» إلى «بيروت»، وكان فيها الشيخ سعيد الشامي أيضاً، وبعد انتهاء إجازته غادر إلى «حلب» بعد أسبوع،

وقضينا يومين في المساجد، ثم كوّنّا جماعة تتألف من ١١ شخصاً لأربع وعشرين ساعة للعمل في موضع يبعد بثلاثين كيلومتراً من هنا، والحمد لله على أن الجماعة قضت وقتاً طيباً، وانضم إليها رجال جدد في كل مكان بعد اجتماعاتهم في مسجد المنطقة، ثم غادرنا إلى «طرابلس» التي تبعد بشمانين كيلومتراً، وكان معنا رجلان جديدان، وأقمنا أسبوعاً في المدينة ثم توجهنا إلى جبل يقع على بعد ثلاثين كيلومتراً من المدينة وأقمنا فيه، وكان معنا اثنا عشر شخصاً، وقد بقي الآن ثلاثة أشخاص، ورحل الآخرون بعد يوم، وقد قضينا في هذه المنطقة الريفية وقتاً طيباً عامراً، وفرّغ الناس يوماً أو يومين للخروج معنا، وأقمنا هنا أربعة أيام ثم عدنا إلى المدينة مع خمسة أفراد، وعاد جميعهم بعد يوم، وقد تأثروا جداً، وأجهشوا فيه بالبكاء لدى عودتهم عازمين على مواصلة الدعوة في أماكنهم، ثم بذلنا جهدنا في المدينة ثلاثة أيام، وكوّنّا جماعة تشتمل على عشرة أفراد للعمل في منطقة تبعد عشرين ميلاً، ووجدنا هناك استجابة عامة، وشاركنا عدد كبير من السكان، وهم يحبون العمل الديني، ويشاركون فيه رغم أن الثقافة هنا ثقافة غربية، وقد اصططح المجتمع بالصبغة الغربية، إلا أن العلماء لهم تأثير في النفوس، ويقبل الناس عليهم ويحترمونهم، وأخيراً نلتمس منكم الدعاء.

«حضر موت»:

سارت جماعة للتبليغ من «مكة المكرمة» إلى «اليمن»، ومَرّت بأماكن مختلفة ذات أهمية منها «حضر موت»، ويصف أحد العاملين في «حضر موت» انطباعاته في رسالة له تلقي الضوء على طبيعة تلك البلاد وسكانها:

«غادرت جماعتنا «جدة» في ٢٨/ أكتوبر/ تشرين الأول، ووصلت إلى «المُكَلَّا» في ٤/ نوفمبر/ تشرين الثاني، وكان سائر الركاب على السفينة من العرب، وقد قضينا فترة السفر كلها في الدعوة والتعليم، والجولة بين الركاب، واللقاءات الشخصية، ودأبنا على نظامنا، وكانت فرق المغنين والمطربين تجوب في السفينة، ولكن الجو تغير بفضل الله تعالى ببركة هذا العمل المتواضع، وندم جميع الركاب، وبدأوا يصغون إلينا، وأقمنا نظام الصلاة بالجماعة في السفينة، ووقفت سفينتنا في «ميناء عدن»

ليوم، وواصلنا العمل هناك، ونزلنا من السفينة، ووصلنا إلى الشاطئ بالقوارب، ودخلنا المدينة، وكان ذلك يوم اجتماع في أحد مساجد «عدن»، فاشتركنا في الاجتماع، وتحدثنا بالعربية والأردية، واستقبلنا سكان المدينة استقبلاً أخوياً حاراً، ورحبوا بنا، وأعربوا عن تقديرهم لعملنا، ثم ودّعونا إلى السفينة، وبعد العمل في «المُكَلَّا» خمسة أيام في مساجد مختلفة، انتقلنا إلى منطقة سواحل وهي تقع في جنوب شرقي «المُكَلَّا»، وهي منطقة أثرية فيها آثار عهد عاد التي أشار إليها القرآن الكريم، ﴿يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾.

وذكر لنا سكان المنطقة أن هناك جبلاً فيه آثار ذلك العهد من البيوت المنحوتة، ولكن الخوف والذعر يسود ذلك المكان، فلا يجترأ أحد أن يدخله.

وبعد «المُكَلَّا» توجهنا إلى «شحر» وهو واقع في ذلك الجبل الذي كانت تسكنه الأمم البائدة، ولا تزال تلاحظ آثار البيوت المحرقة، وآثار النار واضحة على الجبل، وقد مرت جماعتنا من هذا المكان وهي تبكي وتستغفر الله؛ لأن المكان كان مسكن الأمم المعذبة، ووجدنا هذه الآثار للأمم الغابرة في سائر هذه المناطق الساحلية، ونسأل الله تعالى أن يوفقنا للسداد، واتباع الهدى، والاعتصام بحبله المتين، والتمسك بالمبادئ السليمة، وأن نخشى الله في السر والعلن؛ إنها منطقة جبلية، والجبال مرتفعة شامخة، تحيط بها منطقة صحراوية قاحلة، وذلك من آيات الله، يرتاع الإنسان حينما ينظر إلى هذا التنوع، أنه لمنظر مهيب للغاية، كيف سخر الله جميع هذه الكائنات للإنسان، والغريب أن الاهتمام بالدين عام في هذه المناطق، فوجدنا المساجد عامرة طول الوقت، ويحرص الناس على الذكر قبل الصلاة جهراً يشترك فيه جميع الناس، ويحرص الرجال والنساء، على أداء الصلاة في المساجد، وحتى صلاة التهجد يؤدونها في المساجد.

وفي هذا البلد تشرفنا بزيارة شيخ كبير يعد من الصالحين، ويقال: إنه من أصل هندي من سكان منطقة «بهار»، لكنه يقيم هنا منذ ٢٥ سنة، وله نفوذ كبير على الناس لصلاحه وورعه، وزهده، وجهاده، وتوكله على الله، لا يخرج من منزله إلا مرة في الأسبوع، زرنه فبشرنا بخير، ودعا لنا، وكان مجلسه مجلس علم ونور، وله كشف

وكرامات يذكرها الناس، وقال لنا: إنه يرجو من هذا العمل خيراً كبيراً، إذا استمر بإخلاص وحسن نية، وسيكون سداً لكل فتنة وبلاء، ولكنه إذا انحرف عن طريق الإخلاص والتمسك بالمبادئ فيخشى عليه، وأعاد هذا الكلام عدة مرات، وقال: كان ذلك منهج الصحابة الكرام، وأن وجوهكم وملابسكم وثقافتكم دعوة في ذاتها للعرب، نسأل الله أن نظل دائماً عند حسن ظن الصالحين، ونستحق دعواتهم.

ومن مدن هذا البلد «تريم» وهو موطن الصالحين الريانيين ولا تزال فيه بقية السلف الصالح، يبلغ عدد سكانه ألفاً وخمسمائة، ولكن جوّه العام جوّ نوراني، ومن مشايخ هذا المكان الشيخ حبيب العلوي، وهو شيخ الإسلام، وقد تشرفنا بزيارته، فسّر بنا ودعا لنا، وقال: أين الرجال الذين يحلمون عبء هذه الدعوة؟ ونظم لنا برنامج يومين لضواحي «تريم»، وبعد عودتنا زرنا الشيخ محمد سالم الذي يدرّس «الجامع الصحيح» للبخاري، و«الجامع الصحيح» لمسلم، وأعرب الشيخ عن تقديره ومشاعره الطيبة.

«اليمن»:

«اليمن» معروف بالعاطفة الدينية، والانتماء الإسلامي، وقد كان مصنواً من غزو الحضارة الغربية قبل الثورة المصرية، وكان النظام القبلي شائعاً، وقد عرف «اليمن» ببلاد سعيدة مخصصة خضراء ذات صلة وثيقة بالدين.

يقول أحد الدعاة وكان قد زار «اليمن» في جماعة:

«وصلنا إلى «الحديدة» يوم الأحد لدى العصر، وقد كان السفر ممتعاً ونافعاً، يحمل الخير والبركة، باشرنا فيه نظامنا كالتعليم والجولة، كنا نكون جماعتين لهما، ونختلط بالمسافرين، ونوجه إليهم الدعوة، ونشركهم في برامجنا، والحمد لله على أن القلوب مالت إلينا واستجابت لدعوتنا، وشارك الناس باهتمام بالغ وشوق غالب في حلقاتنا، وتألفت القلوب وانسجمت العواطف والمشاعر، ووعد الحاضرميون بتأييدنا ونصرتنا عند وصولهم إلى أوطانهم، وبدأ بعضهم فعلاً المشاركة في الدعوة باللغة الإنجليزية، تقبل الله منا ومنهم جميعاً.

ونشكر الله تعالى على أنه نصرنا وسهّل أمرنا، وقد أقمنا في مسجد، وعقدنا حلقة التعليم، وقمنا بجولة عامة، ولقينا استجابة عامة في الناس، ومن حسن حظنا أن حاكم المنطقة يصلي في هذا المسجد، فالتقينا به، واستمع إلينا، وأيدنا، ووعد بكل مساعدة لنا.

«ليبيا» :

تحكم «ليبيا» الأسرة السنوسية، يعم فيها الجو الديني، وتكثر فيها الزوايا والمراكز التربوية، والمدارس والكتاتيب الدينية، ويخضع عامة الناس لتأثير العلماء والصالحين ويكرمونهم، وقد توجهت جماعة إلى «ليبيا» وكان أميرها عالماً دينياً كبيراً وهو من الذين قضوا فترة طويلة في التبليغ، فيقول أمير الجماعة في رسالة من «ليبيا» :

«وصلنا إلى «ليبيا» في ٣٠ مارس/ آذار في الساعة الحادية عشر ليلاً، وبتنا الليلة في قرية وكنا ثمانية، وخرجنا في الصباح إلى «دربه» مارين بـ «طبرق»، ووصلنا مع أربعة أشخاص جدد إلى «بيضا» وهي مدينة جديدة، فيها جامعة كبيرة، وعقدنا جلسة في المساء، اشترك فيها عدد كبير من الأساتذة والعلماء والطلاب، واشترك أيضاً عدد منهم في جولتنا، وقد سجل بعضهم أسماءهم للخروج في سبيل الدعوة، ووصلنا في اليوم التالي إلى «بنغازي» وهي مدينة كبيرة في «ليبيا»، ومكثنا هناك يومين، وعقدنا الاجتماعات في المساجد، وخرج عشرة أشخاص إلى «طرابلس» التي تبعد بحوالي خمسين كيلومتراً، ومعنا ستة من الإخوة العرب، و «طرابلس» آخر مدن «ليبيا»، وأكبر مدنها، ويقال: إن الصحابة الكرام وصلوا إلى هذا المكان.

وفي سكان «ليبيا» شغف بالعلم، وإن كان أقل من سكان «مصر»، ففي كل مسجد يدرس العلماء، ويميل الناس إلى الاشتراك في أي عمل له صلة بالدين بسهولة، وينصتون إلى كلام ديني، وأبدى بعضهم استعدادهم للخروج إلى «الهند»، وقالوا: إن جماعات كثيرة جاءت من «الهند» وآلآن عليهم أن يخرجوا إلى «الهند»، وسررنا بانتشار الحجاب في النساء، ونرجو أن الجماعات التي تزور هذه المنطقة ستجد جواً أفضل في كل قرية، وقد عقدنا جلساتنا في المساجد الكبرى، وفي كل

اجتماع كان عدد الحضور عظيماً، والاهتمام بالغاً، والجو مساعداً، ولم يكن في وقتنا سعة، فلم نستطع أن نطيل إقامتنا، إلا أن الاستجابة كانت واسعة، فقد خرج معنا في كل خروج للدعوة عدد كبير، وقطعوا معنا مسافات طويلة، تمتد إلى مئات الأميال، ونرجو أن الجماعات ستهتم بـ «ليبيا»، وتوجه إليها العاملون، فإن الإقامة الطويلة ستمهد الطريق، وتذلل الصعاب، وتزيل العقبات، وتميل القلوب أكثر إلى العمل الديني.

«تونس»:

توجهت الجماعة التي قضت في «ليبيا» بعض الوقت إلى «تونس» بعد انتهاء مدة عملها في «ليبيا»، وزارت مختلف مدنها، وكتب أمير الجماعة الذي كان قد أرسل رسالة من «ليبيا» في رسالة له بعث بها من «تونس»، يقول فيها:

«غادرنا «جدة» في ٢٦/نوفمبر/تشرين الثاني، ووصلنا إلى «تونس» في ٧/ديسمبر/كانون الأول مارّين بـ «مصر» و «ليبيا»، وأقمنا في «تونس» أولاً أربعة أيام، والتقىنا بالعلماء، وتحدثنا في مختلف المساجد، وبعد أربعة أيام توجهنا إلى «ريدس» وهي مجاورة لـ «تونس» وتقع على بُعد ١٤ كيلومتراً، وهي منطقة ريفية، فاستقبلنا سكانها أحسن استقبال، واستمعوا إلى أحاديثنا، وكانت المساجد تكتظ بالمصلين، ولا يخرج منها أحد إلا بعد انتهاء برنامجنا، وقضينا أربعة أيام في عمل الدعوة، ثم توجهت جماعة تتكون من اثني عشر رجلاً بالقطار إلى منطقة قريبة منا يوم الأحد، واشتغلنا بالدعوة يوماً واحداً، وكانت الاستجابة عامة، وقد وجدنا الظروف هنا على الطبيعة، وهي بحمد الله تبعث على الاطمئنان ومساعدة الدعوة، ووجدنا قبولاً عاماً في العلماء وعامة الناس للدعوة، وأكرم العلماء الجماعة إكراماً بالغاً، ووجهوا لنا الدعوة إلى الغداء، ونوّهوا بالجماعة في الاجتماع الذي عقد يوم الجمعة، ويجلس الناس في اجتماعاتنا ويسمعون الكلام الذي يجري فيها باهتمام بالغ، وإصغاء تام، ثم يتقدمون إلينا للقاءنا في جماعات صغيرة.

وأقمنا هنا ثلاثة أيام، ثم وجهنا جماعة تتكون من ٣٢ شخصاً، وفيهم عدد من المحليين إلى منطقة مجاورة، وبعد قضاء يومين هناك عادت الجماعة، ووصلنا إلى

«باجة»، وفي كل مكان لقينا آذاناً صاغية، وقلوباً واعية، وعيوناً دامعة، ونفوساً مستعدة للمساعدة، واستعد سبعة أشخاص، ويرجى أن العدد سيزداد، وسنعود إلى «تونس»، ثم نتوجه إلى «القيروان»، وهي عاصمة «تونس» القديمة، ونقضي بعض الوقت في هذه المنطقة، ونرجو أن إقامتنا في «تونس» ستدوم إلى ٧/ فبراير/ شباط».

«الجزائر»:

ويصف أحد المسؤولين عن جماعة وصلت إلى «الجزائر»، وواجهت أخطاراً في الطريق، ومرت بغابات كثيفة موحشة، فكتب يقول:

«تبعد «الجزائر» عن «طبرق» بحوالي ١٥/ كيلومتراً، ولم نجد أي وسيلة للمواصلات، فقضينا الليلة في غابات موحشة في خيمة نصبناها فوق جبل، ثم أرسلنا أحد أصحابنا إلى حدود «الجزائر»، وبعد قطع مسافة أربعين كيلومتراً عاد رجال الشرطة في سيارتين، ودخلنا في «الجزائر» في ٤/ إبريل/ نيسان، ولما أردنا أن ندفع الكراء ردّوا علينا قائلين: أأنتم ضيوفنا، وبعد مدة طويلة نسعد برؤية هذه الوجوه النيرة، وأعربوا عن سرورهم البالغ لقدومنا، وقد كانت البلدان التي زرناها قبل ذلك بلداناً كانت على معرفة سابقة بالعمل، وسبقت أن توجهت إليها جماعة، ولكن «الجزائر» بلد جديد، ولا يعرف أحد فيه طبيعة هذا العمل، ولكن الله سهّل لنا مهمتنا ونصرنا، فلم نواجه أي صعوبة في أي مكان.

وقد حصلت لنا في أيام الحج في العام الماضي تجربة العمل بين الأجانب، والتقىنا بمواطني البلدان المختلفة، كذلك وجدنا في الجزائريين الأحبة الذين كنا قد عرفناهم، وقد كانت تواجهنا صعوبات في النزول في المساجد، ولكن صبرنا على هذه المشكلة، وقررنا على أن نجعل المساجد منطلق أعمالنا، فانفتح لنا باب المساجد، وأقمنا في «الجزائر» في المساجد، ولم ننزل في أي فندق، وكان أصحابنا قد عزموا على أنهم سيتزلون في المساجد وحدها، مهما واجهنا من صعوبة في ذلك.

وقد أقمنا في «الجزائر» في أماكن مختلفة، وشكلنا جماعات، وقمنا بجولة في كل من «عنّابة»، و«قسنطينة»، و«الجزائر العاصمة»، و«دهران»، و«تلمسان»، وفي كل مكان ألحّ الناس على أن نطيل الإقامة؛ لأنهم مروا بمحن كثيرة، وجاهدوا

جهاداً كبيراً، فغلبت عليهم حرارة الإيمان، والتوكل على الله، ووجدنا فيهم إقبالاً عظيماً على الدين، وتأثراً بالغاً بالقرآن الكريم وشفعاً به يستعدون لأي تضحية بعد استماعهم للقرآن الكريم، حياتهم بسيطة متواضعة حياة شظف وجدية وصرامة، وتغورق عيونهم بكلام الدين والإيمان، ويقدمون أنفسهم للخروج في سبيل الله، وتوجد البساطة والتواضع في العلماء أيضاً، فيكرمون الغريب، ويتعهدونه، ويطالبون بإقامة الجماعة ويصرون على أن ترسل جماعات جديدة إليهم.

والجدير بالذكر أن حرارة الإيمان وروح الفداء والتضحية، والعاطفة المتدفقة التي توجد في الجزائريين توجههم إلى الفداء والتضحية بسهولة تامة، ولذلك لا بد من إرشادهم وتوجيههم توجيهاً سليماً، لكيلا تضيع صلاحياتهم وكفاءاتهم في التهور والجأش والانفعال، فلو بذلت جماعة جهودها، والتفتت إليهم التفاتاً خاصاً، فإن هذه الطبقة تصبح سبباً لانتشار عمل الدعوة في العالم كله، ولكن لا يسعنا الوقت ولم تطل إقامتنا فيها، وقد التقينا بعلماء الأزهر، وعددهم كبير في «الجزائر»، وهم الذين يتولون أمور الإرشاد والتوجيه في مختلف مساجد «الجزائر»، ووعد عدد كبير من المواطنين بالعمل محلياً.

و «الجزائر» بلد جبلي بصفة عامة، ولكن تعم فيها وسائل النقل والمواصلات كالسيارات، والقطار، وكنا خلال رحلتنا بالسيارات نواظب على التعليم وتذاكر سنن السفر، وفي دروسنا كنا نقرأ من «رياض الصالحين»، ويلتفت الركاب عادة إلى التعليم ويشتركون فيه، ويبدو السرور على وجوههم، وهم الذين يسهلون لنا أمر الإقامة في أماكن جديدة، ويساعدوننا في الإقامة في المساجد، ويحتشد الناس عادة إذا بدأ التعليم، ويبلغ عددهم مئات في بعض المناطق، نعرف أولاً رجال الجماعة، ونقول لهم: إنهم رجال الأعمال والتجارة، ولهم مسؤوليات أيضاً مثلكم ولكنهم خرجوا في سبيل الله، وفرغوا أوقاتهم للدعوة، وهذا هو دأبهم، وتتجدد فيهم العاطفة الدينية، يذكرون كيف خدم آباؤهم وأجدادهم الدين، وحملوا لواءه، وتحملوا الشدائد في سبيله، ثم يدون كراهيتهم لطغيان المادية واللا دينية، والإلحاد والزندقة التي تغزو الأذهان، وتسيطر على العقول اليوم، فنجد فيهم دعاة، ولم نواجه في أي

مكان صعوبة أو إنكاراً أو رفضاً، فكان الناس على استعداد في كل مكان ليوجه إليهم أحد الدعوة، فيكرسوا جهودهم للسعي من أجل الدين، ويضحوا في سبيله.

«مراكش»:

«مراكش» آخر بلد عربي في «إفريقيا»، ثم يقع جبل طارق، وتبدأ حدود «إسبانيا»، ووصلت جماعة إلى «مراكش» وكتب أحد المسؤولين عنها رسالة يقول فيها:

«دخلنا في حدود «مراكش» في ٢٤/ إبريل/ نيسان، وقد استغرقت هذه الرحلة شهرين ونصف شهر، بعد أن قضينا في كل بلد أسبوعاً أو عشرة أيام، ونشرنا هذا العمل في كل مكان جديد.

تقع على الحدود «وجدة»، وقد أقمنا فيها يومين، وكان معنا ٩ أشخاص، ثم توجهنا إلى «فاس» و «مكناس»، وفي جميع هذه الأماكن وجدنا إقبالاً والتفاتاً من أهلها، وخرج معنا أناس منهم، وأقمنا في «تازة» يوماً، وخرج معنا ثلاثة رجال، ومكثنا في «فاس» ثلاثة أيام، وكان عدد الحاضرين في الاجتماع الذي عقدناه في «فاس» أكثر من ألف شخص، وقدم الناس أسماءهم للخروج في أحياء مختلفة، وفي هذه المدينة مدرسة قديمة يرجع تاريخها إلى أكثر من ألف عام، وهو أقدم من جامع الأزهر، وقد اشترك الطلاب والأساتذة في اجتماعنا الذي عقد بالليل، وخرج سبعة أنفار منهم، ووصلنا إلى «مكناس»، وكان عدد من الأحبة من «وجدة» و «فاس»، وسعدنا بزيارة الشيخ تقي الدين الهلالي، وهو أستاذ الشيخ أبي الحسن علي الحسيني الندوي وجلسنا في درسه، وهو متضلع في الحديث والفقه، قوي الذاكرة، قوي الحجة، حاضر البديهة، متواضع للغاية، يحب العلم والعلماء، وأشار إلى هذا العمل في درسه، ودعا الناس إلى الاشتراك فيه، وقال: إن الاشتراك في عمل الدين فرض عين على كل مسلم سواء كان عالماً أم كان جاهلاً، فهو فرض عليه حسب صلاحياته واستعداده، وسيؤخذ تارك هذا العمل يوم القيامة، ثم قدم الدلائل القاطعة من القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، ما لم تكن في علمنا، وقد استفدنا كثيراً من درسه، وينقل كلامنا إلى العربية في أوقات الفراغ.

وقد بدأ بعض الإخوة يتكلمون بالعربية ويعبرون عما في ضمائرهم بالعربية ومنهم الأخ بلال، فهو يستطيع أن يتكلم بالعربية، ويتحدث في حلقات التعليم، ويشكل الجماعة فيها، وكذلك الحاج حبيب يستطيع أن يعبر بالعربية، أما الكلام في الجولة فيقدر عليه كل شخص، وتذاكر المبادئ الستة بعد صلاة الصبح بالعربية أحياناً، وأحياناً بالأردية، لكي يفهم الناطقون بالأردية لتأليف قلوبهم وإيناسهم، وجميع رفقتنا مطمئنون مرتاحون في «مراكش»، وتعلو همتهم إلا أن بعض الأحبة مُسْتَوْفَ ضِعْفَاء، وبعض الشباب مصابون بأمراض، لكن روح العمل تسوقهم جميعاً، ونحن نراعيهم حسب ظروفهم، وقد منّ الله علينا بشمار المجاهدة وينزل علينا السكينة، وذلك من بركة هذا العمل، ولتجري جميع الأعمال من التعليم والذكر والجولة، والنوافل، وخدمة الخلق، بكل اهتمام ودقة، والليالي هنا قصيرة في هذه الأيام، فنخشى أن تفوتنا صلاة التهجد، ولكن الأحبة العرب يوقظوننا، فتتاح لنا فرصة أداء صلاة التهجد، وقررنا في المشورة أن نواصل العمل في البلاد بأكملها بالتركيز على مكان واحد، ليكون ذلك المكان منطلقاً للعمل في أنحاء أخرى، ونعرف الأوضاع السائدة، ونحافظ على طبيعة العمل وروحه، فلا ننحرف عن جادتنا، والذين يتدربون في هذا المكان يوصلون العمل إلى أماكن أخرى، ويستشيرهم العاملون الجدد، لكي يستمر هذا العمل بعد خروجنا من هذه البلاد، على منهجه المقرر الأصيل ثم تستمر المراسلة، وأنهم يفوقوننا في قوة العمل والإرادة، فإذا تعلموا هذا المنهج وتدربوا عليه، فإنهم سيبدلون جهداً مضاعفاً، وقد أبدى عدد من سكان «وجدة» استعدادهم للعمل في بلادنا، وهم يتخذون إجراءات للجواز والتأشيرة، وقد رافقونا يومين فقط ثم تحدثنا إليهم في اليوم الثالث، ودعوناهم إلى الخروج، فسالت الدموع من عيونهم وقالوا: بلى، وسجلوا أسماءهم وبدأوا يتخذون الإجراءات الرسمية للسفر، وسيلتحقون بنا في «الرباط» بعد العيد، ويرى أصحابنا أن نسعى إلى إعداد الجو في المناطق الريفية المتصلة بمدينة «الرباط»، ونجعل «الرباط» مركزاً لنشاطاتنا؛ لأن الشيخ سعيد خان قضى مدة في هذه المنطقة، وبذل جهداً كبيراً، ويجب علينا أن نواصل هذا الجهد ونستثمره، ونوسع نطاقه، وذلك بتوسيع نطاق الجولات وحلقات التعليم وعقد الاجتماعات وتربية العاملين والدعاة،

وإرشادهم ومتابعة نشاطاتهم، وترسيخ مبادئ الدعوة فيهم، ولذلك نلتمس منكم الدعاء، والإرشاد والتوجيه، والأفضل لنا أن نركز جهودنا على مكان واحد بدلاً من الانتقال من مكان إلى مكان آخر، وقضاء مدة قليلة في كل مكان، فإذا تم إعداد جماعة راسخة في العاطفة والإيمان واليقين على المنهج السليم ننقل رجالها إلى أماكن جديدة، ونستعين بهم في كسب رجال جدد، يجب أن يمتزج سكان «الرباط» في المدن والقرى بكثرة، وينتقل الناس من مكان إلى مكان، ويكثر لقاءهم وبذلك يمهّد الجو الديني الدائم للعمل.

وسافرنا مع إخوة من «مكناس» إلى «زربون»، ومن «زربون» إلى «الرباط»، وكان معنا ٢٢ من الإخوة العرب، ونزل جميعهم في المسجد، واحتفلنا بعيد الأضحى في «الرباط»، وكان ذلك في ٤/ مايو/ أيار يوم السبت، وكان وقوف عرفة يوم الجمعة، وفي ٥/ من مايو/ أيار ذهبنا إلى «قنطرة»، وعدنا إلى «الرباط» في ٨/ مايو/ أيار، ويرافقنا عدد من الأجنة من «قنطرة»، ويتخذ آخرون إجراءات للجواز، وقد وضعت قاعدة للعمل محلياً، ويسير هذا العمل بانتظام، وسنعود عن طريق «أوروبا»، نזור فيها إن شاء الله «إسبانيا» و«فرنسا»، و«ألمانيا»، و«تركية»، وأخيراً «العراق»، وبهذا الطريق يسافر العرب أيضاً، ونرجو الدعاء أن يسهل الله أمرنا.

وفي رسالة أخرى يكتب نفس الكاتب وهو يُعرب عن انطباعاته:

«قمنا مع الإخوة من «الرباط» بجولة في «الرباط»، ويرافقنا جمع كبير من الناس، ونشرح لهم في حلقاتنا أهمية التعليم والذكر، وآداب الجولة، والبيان، وطريق تشكيل الجماعات، ومذاكرة المبادئ، ورعاية منهج الدعوة، وقد فوض أمر الدعوة المحلية إلى هؤلاء الإخوة العرب، وقد تقرر عقد الاجتماع الأسبوعي في جامع «عكاري» في «الرباط»، وقد اشتركنا في الاجتماع في أسبوعين، والآن هم يتولون أمره كلياً، وعندما كنا حاضرين، كنا نُسند لهم جميع الأمور ليتدربوا عليها، حتى الجولات الخاصة والعامة، واللقاءات الشخصية والاجتماعية، هم يتحملون مسؤوليتها، كذلك المشورة، والبيان، يتم برنامجها برأيهم.

وكان تشكيل جماعة لأربع وعشرين ساعة يوم الأحد من مسؤوليتهم أيضاً، ويقضي المحليون الليل أيضاً في المساجد، ويأتون بالعشاء من بيوتهم، وهم الذين يشرحون آداب الطعام والنوم، وفضائل التهجد، ويجري عمل الجولة في مساجد أخرى أيضاً، وبهذه الأعمال تشهد «الرباط» نشاطاً دينياً كبيراً، وجواً إيماناً هادئاً، وبعد تفويض هذه الأمور إليهم خرج بعض إخواننا إلى أماكن أخرى لتذكير الذين وعدوا بالخروج وإعداد أذهانهم وتثبيت هممهم ومساعدتهم في أمورهم، إذ عرض لأحد منهم عارض أو مانع، ثم عدنا إلى «الرباط»، والحمد لله على أن المحليين يهتمون بعمل الدعوة اهتماماً بالغاً، ثم انتقلنا إلى «الدار البيضاء» مع عشرين شخصاً من «الرباط»، ليتولى أهل «الرباط» العمل المحلي في «الدار البيضاء» أيضاً.

بعد العمل في عدة مساجد في «الدار البيضاء» توجهنا إلى قرية محمدية، وهي تبعد عن «الدار البيضاء» بحوالي ٤٥ كيلومتراً، مع خمسين شخصاً لثلاثة أيام، وأعدنا هناك برنامجاً للاجتماع المحلي في «الدار البيضاء»، وقمنا بتشكيل الناس في المجالس الخاصة لمناطقنا، وسجلنا أسماء عدد كبير من الراغبين في الخروج، سهل الله لهم الأمر، وتقرر عقد الاجتماع في «الدار البيضاء» في جامع «حضاري» وقد بات حوالي خمسين من العرب، وتناولوا العشاء معنا، وكانوا قد جاءوا بعشائهم من بيوتهم، وخرجت جماعتان للراجلين لمدد مختلفة، وقد رافقنا الإخوة العرب من «الرباط» التي تبعد ٩٠ كيلومتراً، وكانوا مرتاحين، ونحمد الله على أن عدداً من العرب يساندوننا ويرافقوننا في الجماعات التي تخرج لمناطق جديدة، ومنهم عدد من أصحاب الرأي يستشارون في أمور الدعوة والجماعة، وهم يرتبون البرامج، ويخرجون الجماعات ويراقبون على النظام، ونحن نحاول أن نسند الأمر إليهم.

اشترك في اجتماع عقد في «الدار البيضاء» عدد من كبار العلماء والمشايخ وكانوا مطمئنين للغاية، وأعربوا عن كلمات التأييد والتقدير، وقد ساقنا إليهم أتباعهم ومسترشدوهم الذين خرجوا معنا، وهم الذين كانوا واسطة بيننا وبينهم، فكرموا

بقدمهم في الاجتماع، ونحن أيضاً استفدنا منهم، ولتقي بهم بعد الاجتماع للاستفادة من توجيهاتهم ودعواتهم، وقد اجتمعنا هنا بعالم كبير وشيخ معروف لا يخاف في الله لومة لائم، يقول الحق، ولا يخشى أحداً إلا الله، يحترمه الملك ورجال حاشيته أيضاً، وقد حج هذا العام أيضاً، ويساندنا أتباعه، والشيخ رقيق القلب بكاء، وقد جلس في إحدى حلقات الهنود الناطقين بالأردو، فتأثر بسماع كلامهم، وكان أتباعه قد احتضنوا هذا العمل كلياً قبل قدومه.

وممن استساغ هذه الدعوة وتبناها في «الرباط» الشيخ فريد مصري، وهو الذي يتولى أمور الجماعة هنا كلياً، وينظم تنقل الجماعات ويتابع ثمارها، ويحافظ على آدابها، ويقيم الاتصال بالمسؤولين عن طريق المكاتبه بالبريد، ويستشيرهم في الأمور المهمة، وهو مستعد للسفر إلى «الهند».

وصلنا إلى مدينة «مراكش» مع ٦٢ من الإخوة العرب في ٨/ يونيو/ حزيران، وتبعد هذه المدينة قرابة ٢٤٢ كيلومتراً، وكان في الجماعة رجال الأعمال والتجارة والموظفون ورجال طبقات متعددة، وقضينا فترة السفر مشغولين بالتعليم والذكر، ومذاكرة المبادئ، وتعريف البعض على البعض، وعرفنا صلاحيات كل شخص لنختار منهم من يتولى هذا العمل محلياً، ويتولى إمارة الجماعات وكنا نوزع أنفسنا على جماعات صغيرة وننتشر في مساجد «مراكش» المختلفة ثم نجتمع في مكان واحد في الليل، ونرسل بعد صلاة العصر جماعات تتكون من ثلاثة أشخاص لنتنشر في المدينة، وتتصل برجال التجارة والأعمال، وأصحاب النفوذ، وتعرض الدعوة عليهم، وبعد بذل الجهود يومين وقضاء الوقت حسب منهج الدعوة نجتمع في اليوم الثالث، نبحث فيما بيننا الصلة التي تقوم بين دعوة الرسول ﷺ ودعوتنا، والتضحيات التي تقتضيها هذه الدعوة، والعواطف المادية والسياسية التي لا بد من الارتفاع عنها خلال القيام بهذا العمل الجليل، وكيف كانت حياة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين في «مكة» و «المدينة» في عهد سيدنا أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - ، ثم نستعرض نتائج هذه الدعوة في «ميوات»، وما خلفت حركة الشيخ محمد إلياس، ونجله الشيخ محمد يوسف وأعوانهما من تأثير وانتشار لهذه الحركة في أنحاء العالم

المختلفة وثمارها، وبعد مذاكرة هذه الأمور نقوم بتشكيل الجماعات لأربعة شهور للمناطق النائية، وإذا سهل الله الأمور فيمشي الحوار وتخرج جماعات متعددة، وإلاً فإن الأحباب هنا سيكتفون بالدعوة محلياً، فإن الناس يقبلون على هذا العمل، وفيهم استعداد كامل للخروج، ورغبة ملحة في الدعوة إلى الله.

انتهينا من الاجتماع الأسبوعي يومي الأربعاء والخميس ١٢ - ١٣/ يوليو/ تموز في «الدار البيضاء»، وقضينا يوم الجمعة في «الرباط»، وقررنا عقد الاجتماع يومي السبت والأحد لثمانى وأربعين ساعة في «قنطرة»، يشترك فيه العاملون في «مراكش»، و«الدار البيضاء» و«الرباط» و«وجدة» و«تازة» و«فاس» و«مكناس» و«سلة»، و«طبرقة» و«سيدي»، و«يحيى»، و«تقدم»، و«محمدية»، وغيرها من الأماكن، ويكون هذا الاجتماع اجتماعاً نهائياً، ونحاول فيه أن نشكل أقصى عدد ممكن من الجماعات، ونركز الجهد على الإخوة الذين حصلت لهم تجربة للعمل في سبيل الدعوة، إعدادهم للخروج، ثم نغادر إلى بلادنا، ولم نعين حتى الآن موعد السفر؛ لأننا ننتظر إكمال إجراءات السفر للإخوة العرب، تقبل الله جهودنا المتواضعة في سبيل الدعوة، ويرزقنا الخشوع في الصلاة وقوة الإيمان، ونور الإخلاص، والخلق النبوي، ويوفقنا لكلمة لا إله إلا الله لدى الموت، ويجنبنا عذاب القبر، ويدخلنا الجنة وينقذنا من النار.

عرضنا أمر الدعوة على جماعة «الدار البيضاء» في «مراكش»، وأخيراً سجل عدد منهم أسماءهم لأربعة شهور، وقد أجهش كثير منهم بالبكاء، وأغمي على أحد منهم، وهذه هي مزاياهم وصفاتهم التي قلّ نظيرها في بلادنا.

انعقد اجتماع في «قنطرة» في ١٥ - ١٦/ يونيو/ حزيران، اشترك فيه الأجنة من كل منطقة في «مراكش»، وكان عدد القادمين من الخارج حوالي مائتي شخص، ومن الأماكن التي اشترك منها القادمون «وجدة»، «فاس»، «الرباط»، «مكناس»، «الدار البيضاء»، و«مراكش»، وقد كان منظر قدوم الجماعات من العرب، وهم يحملون فرشهم وأمتعتهم، ويستغلون بالذكر والتعليم، والجولة والبيان، ويهتمون بالنوافل، ويحافظون على صلاة التهجد، كان منظرًا خلاّباً يؤثر في النفوس.

خرجت ثلاث جماعات، جماعة إلى «وجدة» التي تبعد خمسين كيلومتراً تصل إليها بعد العمل في الطريق، وتستغرق أربعة شهور، وجماعة إلى «مراكش» لأربعة شهور، وجماعة ثالثة إلى «طنجة» لأربعين يوماً، وكان الأمير والمأمور كلاهما مرتاحان، وخرج اثنان وعشرون شخصاً معنا حسب ترتيبنا، وقد كانت هذه المرحلة موفقة للغاية، ولاحظنا ثمار الدعوة، والقبول بين الناس، وعندما ودّعنا أحبائنا في اجتماع «قنطرة» كان الأجابة العرب يبكون بكاء من فقد ولده، وكان ذلك منظر الحب في الله».



الباب العاشر

الدعوة في الدول الإفريقية والآسيوية والأوروبية

بعد انتشار حركة الدعوة في الدول العربية تطرقت هذه الحركة الدعوية إلى الدول الإفريقية والآسيوية والأوروبية، الإسلامية منها وغير الإسلامية، ورسخت أصولها في تربتها، وكان الباعث الرئيسي على انتشار هذه الحركة في هذه الدول النائية الحجاج القادمون من هذه الدول الذين كانوا يتعرفون عليها خلال إقامتهم بالديار المقدسة، وكانوا يحملون دعوتها إلى بلدانهم، ويرسون دعائمها فيها.

تم وصول جماعات متعددة من «الهند» و «باكستان» إلى هذه الدول، وكان من الدول التي دخلت فيها هذه الحركة، «أفغانستان»، و «تركيا»، و «أندونيسيا»، و «ماليزيا»، و «بورما»، و «سنغافورة»، و «سري لنكا»، و «نيجريا»، والدول الإفريقية الأخرى، ومنها دول ذات أغلبية إسلامية، ومكثت الجماعات في هذه الدول مدة طويلة، وغطت معظم مدنها الكبرى، وبذلت فيها جهداً مُضنياً، واستقبلها الناس استقبالاً حاراً، وكان ابتعاد هذه الجماعات عن السياسة المحلية، والعصبيات القبلية قد كسب لهذه الجماعات الثقة والمحبة في نفوس المكان، فإن الشعار الوحيد، والهدف الأساسي لهذه الجماعات، كان الدعوة إلى أركان الإسلام الأساسية، والأعمال الصالحة، والخلق النبوي، وتعليم الدين، والحث على اتباع تعاليمه، ما لا ينافي فيه أحد، وجذب القلوب إلى هذه الجماعات، الجهد المُضني، والتفاني في سبيل الله، وتحمل المكروه، والإخلاص والإيثار، والبساطة في الحياة، والتجنب لأسباب التفرقة، والتمزق، والتمسك الشديد بالمبادئ، فمالت إليها نفوس العامة والخاصة والمسؤولين عن الحكومة، ونظروا إليها بنظرة احترام وتقدير بالغين، ولم يترددوا في الاشتراك في نشاطاتها.

ولا يسعنا أن نورد تفاصيل كل بلد وأحواله، ونقدم تقريراً مفصلاً عن نشاطات الجماعات العاملة فيه، ونتائج عملها، وإنما نكتفي بانطباعات بعض البلدان لإلقاء الضوء على مدى قبول الناس لهذه الحركة، ورحابة صدورهم لها، وحفاوتهم بها.

وصل إلى هذه الدول أولاً أولئك العاملون الذين كانوا من أقرب أصحاب الشيخ محمد يوسف، ونالوا التربية على يديه، وتوجهت جماعاتهم إلى الدول الخارجية بإرشاده وتوجيهه، ونزولاً عند رغبته، الذين مهدوا الطريق للقدامين بعدهم، وقد واجه هؤلاء السابقون الأولون صعوبات كثيرة ومتاعب مُرهقة تثبط الهمم، وتختيب المساعي، لكنهم صبروا، واحتملوا كل ما لاقوه في هذا السبيل.

«أفغانستان»:

توجهت إلى «أفغانستان» الجماعة الأولى في أغسطس/آب ١٩٥٧م، وكان أميرها الشيخ عبيد الله البليايوي، وكانت تتكون هذه الجماعة من عشرة أشخاص، وهم الشيخ عبيد الله، والحافظ عبد العزيز، والحافظ صديق، والحافظ سعيد الدين المرادآبادي، وشاهد حسين المرادآبادي، والحافظ سعيد ابن الحاج نسيم الدهلوي، والحاج نجم الدين الدهلوي، والحاج عزيز الرحمن، وسميع الدين الميرتهبي، والحكيم عبد الرشيد الميرتهبي.

وصلت هذه الجماعة الأولى إلى «كابول»، ومكثت عشرين يوماً، وعقدت اجتماعها الأول في «دار العلوم كابول»، تحدث فيه الشيخ عبيد الله البليايوي بالعربية، وكان لكلمته تأثير عميق على النفوس، وكان لهذا الاجتماع صدى في المدينة بكاملها، وأقيم اجتماع آخر في «قلعة جواد»، وقد حضر هذا الاجتماع كبار الشخصيات والأعيان من المدينة، وتحدث فيه أيضاً الشيخ عبيد الله البليايوي بالعربية، وبعد هذا الاجتماع ذهبت جماعة إلى «غزني» وأقامت هناك ثلاثة أيام، وقامت بالجولة، وعقدت حلقة الذكر والتعليم، وعلى بعد عشرة أميال تقريباً تقع مدرسة دار العلوم «الجامعة المحمدية» التي أنشأها الشيخ نور المشايخ، وقضى العاملون فيها ليلة، ومن «غزني» توجهت الجماعة إلى «قندهار»، وأقامت فيها سبعة أيام.

سبق في الصفحات السالفة أن شيخ الإسلام حسين أحمد المدني كان على صلة وثيقة، صلة محبة وتقدير مع الشيخ محمد إلياس مؤسس هذه الحركة، ولذلك كان يساند جماعة التبليغ ويدافع عنها بكل ما أوتي من قوة، ويمد إليها يد التعاون والرعاية، وكان في «أفغانستان» عدد كبير من تلامذته، ومتبعيه ومحبيه الذين كانوا في مناصب عالية، وكان لهم نفوذ كبير في الأوساط الدينية، فلما أرادت جماعة السفر إلى «أفغانستان» أيد الشيخ حسين أحمد المدني هذه الجماعة برسائل وجهها إلى عدد من مشايخ «أفغانستان»، والعلماء الأفغان المعروفين الذين كانوا من محبيه، لكيلا تواجه الجماعة عقبات خلال زيارتها لـ «أفغانستان»، فقام بتعريف الجماعة، وطلب مساندتها، فكتب في إحدى الرسائل:

طال شوقي إلى لقاءكم
أيها الغائبون عن نظري

إلى حضرة ذي الجاه والإكرام، الشيخ فضل ربي، وحضرات المشايخ والعلماء في «كابول»، لا زالت شمس فيوضكم، وبدور معاليكم لامعة، وبعد التحية الإسلامية والصلوات على النبي ﷺ، فإن حاملي هذه الرسالة من أحببتنا يتوجهون إلى خدمتكم، ولا يقصدون من زيارتهم تحقيق أي مصلحة سياسية أو قومية، وإنما هدفهم خدمة الدين وتأدية الفرائض الدعوية، وتذكير مسلمي «أفغانستان»، فخرجوا من «الهند» بهذا المقصد العالي، وهذا الهدف النبيل الذي نسيه عامة المسلمين، ولذلك أرجو من حضراتكم أن تتعاونوا معهم وتساعدوهم ولا تألوا جهداً في ذلك، وتثقوا بهم، وتسهلوا أمورهم.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

حسين أحمد المدني

رئيس جمعية علماء الهند

ورئيس أساتذة دار العلوم ديوبند

١٣/ محرم الحرام ١٣٧٠هـ

«تركيا» :

يتحدد بذكر «تركيا» تاريخها المجيد تاريخ الدولة الإسلامية التي كانت لها هبة على النفوس، ومكانة في القلوب، تلك الدولة التي لعبت دوراً كبيراً في تاريخ الإسلام، تاريخ البلد الذي أنجبت فاتح القسطنطينية، السلطان محمد الفاتح الذي رفع رؤوس المسلمين، وخضعت لحكام هذا البلد رؤوس حكام «أوروبا» قروناً، ولكن بعد مجد دام قروناً زالت هيبتها من النفوس بإلغاء الخلافة، وارتمى هذا البلد في حضن الحضارة الأوروبية، وتسلمت عليه القومية والعلمانية، فطمست معالمه، ودرست آثاره وطوت بساطه، وامحت مآثره التي خلّدها وسجّلها سلاطينه الأبطال الغياري في صفحات التاريخ، وانتهكت حرمة الإسلام وقداسته شعائره ولا يخفى ذلك على من له إلمام بالتاريخ، ولكن رغم هذه المآسي والظلم والاستبداد في محو آثار الإسلام، لا تزال الغيرة والحمية الإسلامية تعمر قلوب الأتراك، وتجلو صدورهم، وهي دفينّة في القلوب كالجمرة في الرماد، تشتعل حالما أثّرت، فلما وصلت إليه جماعة الدعوة والتبليغ استقبلها عامة الناس ورحّب بها العلماء، وتصف الرسالة الآتية هذه الحفاوة البالغة :

«اليوم ٤/ مايو/ أيار و ١٠/ من ذي الحجة، أي يوم الأضحى المبارك، اليوم الذي يدعو المسلمين قاطبة في جميع أنحاء العالم إلى التضحية والفداء في سبيل رضا الله سبحانه إلى يوم القيامة، وسيقدم لتخليد ذكرى الفداء مئات الألوف من المسلمين أصحابهم لنيل رضا الله، ولكننا نحن مواطنو البلد الهندي خرجنا لإحياء دين محمد ﷺ الحبيب، والاجتهاد في سبيله إلى «تركيا» التي تبعد خمسة آلاف كيلومتراً، وقد رحبت بنا عندما وطئت أقدامنا أرض «تركيا» كل قطعة منها، أما سرور وبهجة أولئك الذين تعلوهم نشوة بسماع اسم النبي ﷺ فلا يمكن تصويره بالألفاظ، وقد شاهدنا مناظر المحبة والإكرام والتقدير في أرض «تركيا» ما لم نجد نظيراً له في أي بقعة توجهنا إليها.

وقد عرف الناس قدومنا من «الهند» من بُعد ٥ آلاف كيلومتراً لمجرد الدعوة إلى الله، فاحتشد الناس وازدحموا للترحيب بنا، وتهافتوا علينا تهافت الفراش على

النور، وعانقونا بعد سماع كلامنا، وقَبَّلُوا أيدينا، ونظروا إلينا نظرة محبة وحنان كما تنظر الأم الرؤوم إلى وليدها، لقد كنا نجهل لغة هؤلاء المتهافتين علينا ولم يكن بيننا وبينهم وسيلة للتخاطب إلا اللغة العربية التي كان لا يفهمها إلا القليلون منهم، إلا أن الدموع كانت تنهمر من عيون الشيوخ والشبان حباً لهذه اللغة وحمية لهذا الدين وتقديراً لهذا الكلام، ولم يكن ذلك حال عامة الناس، بل كان العلماء والوعاظ يقبلون علينا وينصتون إلى كلامنا لشغف وشوق بالغين، ويسرعون إلى تقييده بالقلم، ويبادرون إلى تسجيله بآلة التسجيل.

شاهدنا خلال زيارتنا لـ «إستنبول» التي استغرقت أسبوعين مناظر الدولة التي لا يوجد لها نظير، عندما زرنا المراكز العلمية والمؤسسات الإسلامية، والمدارس الدينية، ازدحم الطلاب والأساتذة وتحلَّقوا حولنا، كأننا جئنا لهم بشيء جديد طريف، لم يسمعوا عنه، وأصرَّ الكتاب والصحفيون على أن نسمح لهم بنشر أخبارنا وتقاريرنا في صحفهم وجرائدهم، وألحَّ الشباب المتنورون وحملة آلات التصوير على أن لا نمنعهم من التقاط صور هذه الوجوه النيرة، فكنا نحاول أن نخفي ونستتر ونقول: إن الجهد الديني لا يمكن إحيائه بالألفاظ المنشورة في الصحف أو الصور التي تلتقطها عدسات التصوير، وإذا اعتبرت هذه الألفاظ والرسوم علاجاً للأمة المريضة، فيكون مثاله مثال مريض لا يسقى الدواء، بل تعرض عليه وصفة الدواء مكتوبة على الورق أو تردد أسماء هذه الأدوية بالراديو والمذياع وتلقى على أسماع المرضى صباحاً ومساءً، بل ينحصر الرقي في الحياة الدنيا، والسعادة في الآخرة أو الحصول على كمال الإنسان وخلقته على جهده وسعيه ومجاهدة نفسه.

وإن الجهد يصقل الإنسانية، بالتقرب إلى الله ونيل محبته، والسعي لإحياء سنة رسول الله ﷺ ومنهجه الشريف الذي هو الدين.

وفي هذه الأثناء أقام الدكتور إسماعيل مدير إدارة الأئمة والخطباء الذي اطلع على أفكارنا ومنهج عملنا، وقدر جهودنا، مأدبة عشاء في منزله تكريماً لنا، وأصرَّ على قبولنا لدعوته، فقبلنا دعوته لحضور مأدبة العشاء على شرط أن يوجه الدعوة إلى الأعيان، وأصحاب السلطة والنفوذ، والخواص من الناس لتتاح لنا فرصة لقائهم

والتحدث إليهم بهذه المناسبة، فجمع عدداً لا بأس به من الأعيان والمحامين والأطباء وأعضاء الجمعيات الخيرية والاجتماعية والمسؤولين عن الحركات والمؤسسات العامة.

والتقينا رئيس الجمعية الخيرية التركية الذي وصف لنا ما مرت به «تركيا» من محنة خلال الثورة على الدين، وما واجهه العاملون في سبيل الدين من مضايقات ومعاكسات، وكيف أقيمت الكتابات القرآنية والمؤسسات الدينية في هذا الجو المعاكس، وما تحمله العاملون من الأذى والشدائد، وسمعنا ما وصفه لنا باهتمام، وهنأناه على نجاحه في مهمته، وتغلبه على العقبات التي اعترضت في سبيله، وعرضنا عليه منهجنا للدعوة، والجهد الديني العام، واستفدنا بهذا اللقاء، وقضينا ذلك اليوم في اللقاءات العامة والخاصة، ووعد بعض رجال الأعمال بعد التعرف على منهجنا أن يزوروا «الهند» بعد خمسة أشهر بعد فصل الشتاء.

وأخيراً في أول مايو/أيار، حان وقت رحيلنا، فودعنا الأحبة، في «إستنبول» بدموع وحسرة، وركبنا الحافلة للرحيل إلى «أنقرة»، ورافقنا بعض الشباب إلى الباخرة للاطلاع على منهجنا والتباحث معنا حول أمور الدعوة، ثم ودّعونا عندما جرت السفينة وهم يتابعونا بنظراتهم، متلهفين على فراقنا، ووصلنا إلى «أنقرة» بعد تسع ساعات، والآن نحن في «أنقرة».

وتلقي الرسالة الآتية الضوء على سير عمل الدعوة في «تركيا»:

وصلنا بسلامة الله إلى «الإسكندرونة» التي تجمع بين «حلب» و «تركيا» برأ، في ١٧/مارس/آذار، وقد غادرنا «بومباي» في ٣١/يناير/كانون الثاني متوجهين إلى «تركيا»، وقد استغرق سفرنا شهراً ونصف شهر في «بصرة» و «بغداد» و «دمشق» و «حلب»، ومررنا خلال هذه الفترة بمراحل مختلفة، وأوضاع مساعدة وغير مساعدة، وسعدنا بمرافقة الشيخ محمد عمر إلى «حلب»، و «حلب» مدينة سكانها مختلطون، فيهم المسلمون والنصارى، وفيها خمسة مساجد، ونحن نازلون في مسجد حميدي، ولا يستحسن هنا الإقامة أو النوم في المساجد، ولذلك تغلق المساجد بعد الصلوات، وقد نزلنا في حجرات المدرسة في صحن المسجد، وقد

عاوننا إمام المسجد ومفتي «الإسكندرونة»، وساعدنا كثيراً، وبعد المشورة أعدنا برنامج الدعوة في المساجد الخمسة، وشكلنا جماعة «لأنطاكية» التي تبعد من هنا حوالي مائة كيلومتر لمدة ثلاثة أيام، وقد سجل ١٥ شخصاً أسماءهم للاشتراك في هذه الجماعة من مختلف المساجد، وعرضنا عليهم السفر إلى «الهند» أيضاً، وقبل عشرة أشخاص دعوتنا للسفر إلى «الهند»، والحمد لله على ذلك، وسنبحث فيما بعد تفاصيل هذه الرحلة والإعداد لها.

ونقوم بالجولة العامة قبل العصر أحياناً وبعد العصر، ونعقد حلقات التعليم أيضاً، ويشترك معنا في دعوتنا الشيوخ والشباب الأتراك باهتمام ويقدرّون عملنا وهم يبدون رغبتهم وتأييدهم وحبهم بإشارة بالعيون، واللسان، واليد لاختلاف اللغة، ويكون عندما يسمعون قصص الصحابة الكرام ومجاهداتهم وجهادهم، ونرجو أن جماعة كبيرة ستخرج في ٢٣/ مارس/ آذار إلى «أنطاكية»، ندعو الله أن ينصرنا، ويتقبل أعمالنا، كان خمسة أشخاص عزموا على الخروج إلى «الهند»، ولكن صعوبة إجراءات السفر حالت دون تحقيق آمالهم، وبقي الآن ثلاثة أشخاص في «دمشق»، والتحق بنا الشيخ ضياء الدين حسب ما تقرر في المشورة، فصرنا أربعة أشخاص، وسبق أن اجتهدت الجماعات القادمة من «باكستان» في هذه المنطقة، ويسلم عليكم الحاج عبد الرحمن أحمد آبادي، وإسماعيل جوكيشوري، والشيخ ضياء الدين، ونشكر الله تعالى أن هذه الدعوة قد كسبت تأييد الصالحين، وأئمة المساجد، وجميعهم يساندوننا ويدون تقديرهم وتعاونهم معنا في العمل، ويقوم الشيخ عبد الحميد إمام الجامع بنقل كلامنا من العربية إلى التركية، ويقوم الحاج عثمان بالترجمة إلى اللغة العربية والإنجليزية، ونجد غيرهما من المعاونين؛ لأن «الشام» قريبة منا^(١).

«إندونيسيا» :

«إندونيسيا» بلد إسلامي يقع على الجانب الشرقي للهند، وهو يشتمل على ألوف من الجزر، ويبلغ عدد سكانه مائة مليون^(٢)، وقد زار هذا البلد الشيخ

(١) رسالة الشيخ عبد الحميد البهوفالي إلى الشيخ محمد يوسف.

(٢) وذلك عند تأليف الكتاب، والآن بلغ عدد السكان أكثر من مائة وخمسين مليون نسمة.

عبد الملك المرادآبادي للدعوة ووزع عدة رسائل، وطبعها ونشرها، ثم وصل إليها الشيخ ميان جي عيسى بجماعة، وكانت هذه الجماعة تشتمل على الشيخ جميل أحمد الحيدرآبادي والشيخ عبد الحليم الباكستاني، وواجهت هذه الجماعة صعوبة كبيرة لعدم معرفة اللغة العربية، فما كان أحد يفهم كلامهم ولا كانوا يفهمون أحداً، فكانوا يستعينون بالإشارة.

ويصف ميان جي عيسى هذه المشكلة في رسالة له:

«لما وصلنا إلى «إندونيسيا» وانتهينا من إجراءات الجمرک، وجدنا سيارات التاكسي واقفة، فسألونا: أين نريد؟ فأشرنا إليهم المسجد، فسأل أحدهم: أي مسجد تريدون، قلنا له: المسجد الكبير، فأخذ منا ستين روبية إندونيسية ما يساوي ست روبيات هندية، وأوصلنا إلى مسجد كبير، وكان الناس يخرجون من المسجد بعد تأدية صلاة العصر، ومن باب المصادفة وجدنا رجلاً عربياً، فتكلمنا معه بالعربية وبذلك حلّت مشكلة اللغة، وسأل الأخ العربي عن غرض سفرنا، فقلنا له: جئنا للدعوة، فسرّ سروراً بالغاً، وأصرّ على أن نتوجه إلى بيته أولاً، وهناك جمع عدداً من الهنود الذين يعرفون اللغة الأردية كان منهم محمد الميمني، وهو من كبار رجال الأعمال، وكان الشيخ عبد الملك عند ما زار «إندونيسيا» في المرة الأولى قد أسند إليه إمارة الدعوة لدى عودته، فوصف الشيخ محمد الميمني لنا الظروف والأوضاع في البلاد، وسير عمل الدعوة، وقدم إلينا ذلك الكتيب الذي كان الشيخ عبد الملك قد وزعه، وأصرّ الأخ العربي على أن نتعشى عنده، فقبلنا دعوته، ووعد بأنه سيشارك في عمل الدعوة، وبدأنا الجولة العامة في اليوم التالي، وكان الناس يحتشدون كلما رأونا متجولين، وكانوا يتعجبون جداً من هذا العمل الغريب، وكذلك كانت المساجد تكتظ بالحاضرين عندما كنا نعقد الاجتماعات بعد صلاة العشاء، وكان يترجم كلامنا إلى الإندونيسية الأخ أبو بكر الحضرمي الذي قضى فترة طويلة في «الهند»، بعد صلاة العشاء.

ووجهنا الدعوة في بياننا حسب العادة إلى تفريغ أربعة شهور، والخروج أولاً إلى «الهند» لتعليم هذا المنهج، وكان الناس يلزمون الصمت أولاً، ولا يستجيبون لدعوتنا ويقولون: من الصعب السفر إلى «الهند»، ثم بدأنا اللقاءات الخاصة

واستمرت هذه اللقاءات عشرين يوماً تقريباً، وتشرفنا بلقاء القائد الديني الكبير الدكتور محمد ناصر، وكان دليلنا الشيخ خميس، وعرضنا عليه المبادئ الستة، فقال الدكتور ناصر: هذا عمل الصحابة الكرام، وطلب منا أن نقيم هنا سنة كاملة، وعلاوة على هذه اللقاءات عقدنا عدة اجتماعات كبرى، اشترك فيها رجال الأعمال وأصحاب العلم، وبدأ الإقبال على الدعوة بعد مدة، وبعد لقاءات واجتماعات متكررة، وبدأت الجماعات تتكون وتخرج إلى مناطق خارجية داخل البلاد، وعادة كانت الجماعات تنتقل من مكان إلى مكان على السيارات، وأقمنا في «باندانج» ثلاثة أيام، وكان الناس يسمعون خطبنا باهتمام بالغ وشوق زائد، وشكلنا جماعة إلى «جاكرتا»، وأقمنا في «جاكرتا» ثلاثة أشهر، وبعد شهرين عقدنا اجتماعاً كبيراً.

أيها الإخوة! لقد جئنا إلى هذا البلد لتسمعوا كلامنا وتخرجوا معنا إلى خارج البلد، فاعزموا واثقين بوعد الله ونصرته على السفر، واقضوا فترة في المركز في «الهند» لتشهدوا بعيونكم كيف يستمر هذا العمل، فاستجاب سبعة، فأخبرنا بذلك على الهاتف الدكتور فتعجب واستغرب، كيف وافق سبعة أشخاص على الخروج للدعوة، ثم ذهبنا بهؤلاء السبعة إلى الدكتور، فأكرمنا الدكتور إكراماً كبيراً وشجعنا، واستمر اللقاء ساعة، والحمد لله على أن سبعة أشخاص رافقونا إلى «دلهي»، وتعلموا الدين هنا، ثم عادوا إلى الوطن.

وبعد هذه الجماعة وجهودها وجولاتها ولقاءاتها توسعت دائرة الدعوة في «إندونيسيا» وبدأت الجماعات تتحرك من «باكستان» و «الهند» إلى «إندونيسيا»، ومن «إندونيسيا» إلى الخارج، ولقيت الجماعات التي زارت «إندونيسيا» ترحاباً وتعاوناً كما وجدت الجماعة الأولى من نفس الجهات التي ساعدت الجماعة الأولى.

«ماليزيا»:

مثل «إندونيسيا» تقع «ماليزيا» على جنوب شرقي «الهند»، توجهت جماعة كانت قد قضت فترة في «إندونيسيا» إلى «ماليزيا»، وكان أميرها ميان جي عيسى، وكانت هذه الجماعة الأولى التي تزور «ماليزيا»، فوصف الشيخ عيسى نشاط جماعته بالكلمات الآتية:

وصلت جماعتنا إلى «ماليزيا» في عام ١٩٦٢م، ولم يسمح لنا بالتزول في مسجد؛ لأن القانون في هذا البلد لا يسمح بالإقامة في المساجد، فالتقينا بمفتي الملايو، وشرحنا له غرض زيارتنا وسمع المفتي كلامنا باهتمام وتأثر به، واتصل على الهاتف بمسؤول عن الأمور الدينية، وطلب منه الحضور فوراً، وقال له: عنده ضيوف مكرمون، وهذه فرصة غالية لنيل الخير والرشد، وطلب منه الاستعجال لكيلا تفوت هذه الفرصة، فوصل المسؤول على الفور، وكان من باب الصدف أنه كان من اللذين تعلموا في دار العلوم بـ «ديوبند»، وكان يعرف الشيخ محمد إلياس معرفة جيدة، وكان قد التقى به أيضاً، فأعرب عن سروره البالغ، وذهب بنا إلى رئيس الأمور الدينية، وعرضنا على الرئيس بغيتنا، فعرض علينا قصره للإقامة، فاعتذرنا وقلنا له: إننا لا نقيم في المنازل الشخصية، وإنما نقيم في المساجد، فأمر بفتح أحد المساجد، فترلنا فيه، وعقدنا الاجتماع بعد صلاة المغرب، واستمر هذا النظام إلى صلاة العشاء، وكان عدد الحاضرين أكثر من عشرة آلاف، واستمع الناس إلى كلامنا بهدوء تام صامتين، ولما أنهينا كلامنا أصرّ المستمعون على أن نواصل الكلام، فعدنا إلى الكلام واستمر هذا المجلس إلى الساعة الثانية عشرة ليلاً، ثم طلب منا الرئيس بأن نتحدث إلى العاملين والموظفين في إدارته، وكان سفرنا هذا بهذا الاعتبار مكسباً كبيراً وذا نفع عظيم للملايو.

وكتب ميان جي عيسى في رسالة بعث بها من «كلكتان» (الملايو)، إن الذين يبحثون عن الحقيقة بالكلام والعمل، وينظرون إلى هذا العمل الدعوي أو يسمعون ما يقال لهم، يعجبون كثيراً كيف تعرض هذه الدرة الثمينة بهذا التستر والإخفاء والحذر، إن أسواق الجهود الإنسانية خالية اليوم من هذه الدرة، وهي تفتقد وتبحث عنها الأنظار، إنهم يقولون: ما شاهدنا هذا العمل ولا قرأنا عنه في الجرائد والمجلات، ولا سمعنا عنه في الإذاعة والخطب، فشرحنا لهم هذا عمل الرسول ﷺ وعمل الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، وقد اقتبسنا هذا المنهج من سيرتهم، ولا نهدف منه إلا إلى إحياء تلك السنن ومنهج الحياة الطيبة وترسيخها في حياتنا اليوم، وتجديد تلك الحياة، والسنن النبوية ببذل الجهد وتحمل الأذى، والفداء والتضحية لله ولرسوله ولدينه، فظهرت فرص العمل في مناطق مختلفة، وتقدم عدد كبير منهم

بعود الخروج إلا أن بعضهم أوفى بوعودهم ليومين أو ثلاثة أيام، وخرجوا معنا، وقد استعد نتيجة لهذا الجهد ثمانية أشخاص للخروج في الدعوة.

وعادت هذه الجماعة إلى «الهند» مرة بـ «سنغافورة»، وقضت فترة فيها، وباشرت عملها هناك، والتقيت بالمسؤولين والعلماء ورجال الأعمال والعامّة والخاصة وكان لها تأثير كبير.

«بورما»:

«بورما» بلد يتصل بـ «الهند»، وأغلبية سكانه بوذيون، وفيه عدد كبير من الهنود والباكستانيين يشتغلون بالتجارة، ومعظمهم غجراتيون مسلمون، وأول من فكر في السفر إلى «بورما» من أجل الدعوة هو الشيخ أكبر على البنغالي، والشيخ محمد داود الميواتي، ويجري عمل الدعوة في هذا البلد منذ عدة سنوات، وللشيخ الحافظ محمد صالح المظاهري ورفقته دور ملحوظ في توسيع دائرة عمل الدعوة في هذا البلد، ونال هذا العمل رعاية الشيخ المفتي محمود المظاهري، والشيخ إبراهيم المظاهري، رئيس تحرير دور جديد (رنجون)، ثم زار الشيخ افتخار فريدي وقام بتنسيق العمل في «بورما»، وتسوية الخلافات التي قامت بين مختلف الجهات، فوحد هؤلاء العاملين المتحاربين فيما بينهم وجمع كلمتهم، وألف بينهم، وعقد اجتماعاً للعلماء في «بورما»، ومعظمهم من خريجي مدرسة مظاهر العلوم، ثم عقد اجتماعاً لرجال التجارة، وقد خلف الانقلاب العسكري في «بورما» شقاء وحرماناً في المسلمين، وتأثر به رجال الأعمال المسلمون أكثر من غيرهم، ولذلك كانت قلوبهم متحطمة، يغلبهم اليأس والقنوط والشعور بالخيبة والحرمان وضنك العيش، فقبلوا هذه الدعوة، ورجعوا إلى الله.

بدأت جماعات راجلة تنتقل وتتجول في المناطق الريفية، والأماكن الوعرة، والجبال والمرتفعات النائية وتدعو إلى الله، وبذل الجهد في سبيله، وكان لهذا التنقل والتجوال أثر طيب، وانضم إلى هذه الحركة سكان المناطق المنعزلة والبعيدة الذين لم تكن الدعوة وصلت إليهم من قبل، ويدل على ذلك ما يعبرون به عن انطباعاتهم، أثر القيام بهذه الجولة الدعوية، أنهم يعودون بذكريات خالدة لا تمحى من أذهانهم،

وبحلاوة إيمانية لا تزول عن قلوبهم، وننقل بعض هذه الانطباعات من رسالة كتبها الشيخ فريدي من «بورما» إلى الشيخ محمد يوسف:

«وصلت إلى «رنجون» في ١٥/إبريل/نيسان ١٩٦٢م، ويحتفل الناس هناك بعيد غريب، وهو عيد الماء، وهو يوم عطلة، وانتهاز الإخوة هذه الفرصة فخرجوا في جماعات إلى جهات مختلفة، والجو هنا جو «عجرات»، ففي كل مكان وجدنا الغجراتيين، منهم السورتيون والميمينيون، وفيهم عدد من سكان «مدراس»، وجمعهم يهتمون بهذا العمل، وخاصة الميمينيون منهم أكثر اهتماماً بالدعوة من أي مكان آخر، وفي هذا البلد مساجد فاخرة والمسلمون يشتغلون بالتجارة، وتجاريتهم رابحة، فإذا تحولت قلوبهم إلى الجهد للإيمان، والتفرغ للدعوة وهبت نفحات الإيمان واليقين تغيرت البيئة بكاملها، وعطرت رياح الإيمان مساحة شاسعة وشاع الخير والرشاد، وتغيرت «روسيا» و«الصين» بهذا الطريق، وتحولنا إلى طريق الخير والسلام، فإن «بورما» تشكل معبراً إلى «ملايو» و«إندونيسيا» و«بنكوك» و«فيتنام»، و«الفلبين» ودول أخرى، وإذا تغيرت حياة المسلمين في «بورما» تغيرت حياة المسلمين في هذه البلدان، وصاروا دعاة وهداة إلى الخير، ويهب منهم الدعاة للعمل في «اليابان»، إننا نواصل الجهد، وقد وزعنا العمل على مساجد مختلفة وننتقل من مسجد إلى مسجد، وكل من نلاقه ونعرض عليه الدعوة يستجيب لها، وينشرح قلبه، ولم نجد حتى الآن أحداً احترز عن الدعوة أو أبى أن يقبلها أو أبدى امتعاضه، وقد عمّ هذا العمل في المدراسيين، وهم يهتمون بهذا العمل في «بورما» أكثر مما يهتمون به في «مدراس» نفسها، فإذا قدمت جماعة من الخارج تركوا أعمالهم، وانصرفوا إلى نصرتها ليل نهار، ورغم هذا الاهتمام بالدعوة والاشتغال بها، وجدنا بعض الأمور التي يجب إصلاحها، وتبعث على الهم، فأسألكم الدعاء لهم بالخير والسداد.

إن الذين ينهمكون في عمل الدعوة مخلصون، وأذكياء للغاية، إنهم يرسلون جماعات من هذه البلاد إلى «دهلي»، لكنهم أنفسهم لا يخرجون منذ مدة لاشتغالهم بأعمالهم، وفي المدارس العربية علماء وأساتذة ومعظمهم متخرجون من مظاهر العلوم، وأكبر علاج لهذه المنطقة إخراج الجماعات الراجلة. وتستمر اجتماعات

النساء في ذكرى الشيخ داود، إلا أن الاجتماع الأسبوعي ينعقد بصورة غير مرضية وبدون اهتمام كبير لائق به.

وقد استفادت الجماعات بهذه الرحلات الأولى، وتوسع نطاق العمل بها، وانتشرت الدعوة في طبقات مختلفة.

«سيلان»:

«سيلان» جزيرة تقع في جنوب «الهند»، ومعظم سكانها من غير المسلمين، والمسلمون فيها أقلية، وقد توجهت إليها عدة جماعات في فترات مختلفة، وتقع حول هذه الجزيرة جزر إسلامية مثل «لكاديب»، وقد انتقلت إليها جماعات الدعوة، ومنها جماعات راجلة، ويصف أحد أعضاء هذه الجماعات الشيخ محمد حنيفة، انطباعات سفر «سيلان» في رسالة وجهها إلى الشيخ محمد يوسف فيقول:

استمر خروج الجماعات حسب العادة، وعقد الاجتماعات في شهر رمضان المبارك، وبعد انقضاء شهر رمضان عقدنا اجتماعاً للعاملين القدماء، وتشاورنا حول أمور الدعوة، وعقدنا حلقات الذكر والتعليم وتشكيل الجماعات، وسيتوجه حوالي عشرين شخصاً إليكم للاستشارة، إنهم يشتركون أولاً في الاجتماع الذي يعقد بـ «دندي جل»، ثم يسافرون إلى «دهلي»، ونسألکم الدعاء لتحقيق هذه النوايا، وينوي أميرنا أيضاً كذلك السفر، وقد شاع هنا الخروج لثلاثة أيام في الجماعة، وتخرج هذه الجماعات من المركز منذ مدة، وكذلك يجري العمل على جولتين في الأسبوع، جولة محلياً، وجولة في الحي الآخر، وقد انعقد في هذا الشهر في ٢٢ - ٢٣ اجتماع في «هنتي كولا» لثلاثة أيام اشترك فيه العاملون، وتقع هذه المنطقة على الساحل الشرقي لـ «بورما»، وتحول هذا الاجتماع إلى اجتماع إقليمي، وساد جو الإخلاص والإيمان، والصلاة والذكر، والعلم والعمل، والخلق الحسن، وعاش الناس في هذا الجو الإيمان، وخرج بعد الاجتماع خمسة عشر شخصاً لمدة محدودة لهذا الجهد، ووعد الناس أيضاً بالخروج لأربعين يوماً وأربعة أشهر، وسنعد برنامجنا للاجتماع القادم حسب توجيهاتكم التي تضمنتها رسالتكم.

وقد وعد عدد من الناس بالخروج إلى «الهند»، لكنهم غير مستعدين للعمل محلياً، وإذا أبدى أحد استعداداً للخروج فلا يستعد العاملون القدماء أن يخرج معهم، ويتردد العاملون القدماء في الخروج في جماعات إلى الخارج، وذلك الأمر يهمننا كثيراً.

وبالإضافة إلى ذلك لا نجد هنا من له تجربة طويلة في عمل الدعوة، فنرجوكم أن ترسلوا من «دلهي» جماعة من أصحاب التجربة في عمل الدعوة، ويساعد قدمهم في دعم هذه الحركة، ويشجع العاملين الجدد، وعليهم أن لا ينتظروا الحصول على تأشيرات طويلة الأمد، بل من الأفضل أن يسافروا ولو على تأشيرات قصيرة الأمد، مهما تيسر لهم، فإن الدعوة لم ترسخ جذورها في هذه البلاد حتى الآن، وإنما هي في مرحلة بدائية، ونرجو منكم الدعاء لاستمرار هذا العمل وتأصيله، وأن يتيسر له رجال أكفاء تهمهم الدعوة وتشغل بالهم، وأن يوفقنا الله السداد والاستقامة، والثبات في هذا الجهد ويتقبل خطانا.

حركة الجماعات في «أفريقيا» :

تشتمل قارة «أفريقيا» الواقعة جنوب غرب الهند على دول ذات أغلبية إسلامية، ودول أخرى فيها المسلمون أقلية، ويبلغ عدد السكان المسلمين في عدد من هذه الدول ٩٠٪، كما يسكن عدد كبير من الهنود والباكستانيين الذين يشتغلون بالتجارة، ولذلك أصبحت «أفريقيا» محط الأنظار، وتسلب عليها الأضواء؛ لأنها تصلح لتكون مركز العالم في المستقبل، وأن يحصل لها مكانة خاصة في خريطة العالم. ولإدراك هذه الخطورة التي تحملها هذه القارة تنشط فيها حركات ومنظمات ومذاهب، وببذل دعائها جهوداً مكثفة فيها سواء كانت هذه الحركات من حركات الحق أم كانت من حركات الباطل.

ويلقي الضوء على هذه الأهمية «كتاب أفريقيا» لكتابه الشيخ أحمد عبد الله السدوس، وتوجد في «أفريقيا» مناطق نائية منعزلة لم تصل إليها الحضارة الغربية، ويعيش سكانها حياة الفطرة حسب التقاليد القبلية القديمة، ولم يتورطوا في كثير من المعاصي والمساوئ التي تنتشر في المناطق المتحضرة الراقية، وحياتهم حياة بساطة

وسذاجة، يقبلون ما يطيب لهم ويعرض عليهم سواء كان خيراً أم كان شراً، وتبذل الحركات الصهيونية والماسونية وغيرها من الحركات الباطلة مسخرة لجميع الوسائل المهيأة لها جهوداً جبارة في هذه القارة لاستغلال ثرواتها الطبيعية والبشرية وتستخدم لمصالحها الثروة والخدمات الإنسانية والتربوية، والقوى المادية ووسائل الرقي، وترسل الدول الكبرى بعثاتها ووكالاتها إليها لتتعاون مع هذه الحركات والمنظمات العاملة في القارة الأفريقية، ولكن الإسلام هو الدين الوحيد الذي يكسب القلوب بدون استخدام الوسائل والقوى التي تسخرها المذاهب والحركات والأديان الأخرى.

وقد شعر الشيخ أبو الحسن علي الحسيني الندوي خلال زيارته لـ «مصر» و «السودان» في عام ١٩٥١م بهذه الإمكانيات لانتشار الإسلام، وكان شقيقه الأكبر الدكتور عبد العلي الحسيني يهتم اهتماماً خاصاً بالعالم الإسلامي، وتاريخه وجغرافيته، وخاصة القارة الأفريقية، وإمكانيات الدعوة الإسلامية فيها، ثم توثقت صلته بالشيخ محمد يوسف الكاندهلوي الذي كان حريصاً على نشر الإسلام في هذه القارة، وأدرك الشيخ أبو الحسن علي الحسيني الندوي أن منهج الدعوة والتبليغ الذي اختاره الشيخ إلياس الكاندهلوي هو أصح وأنسب طريق لنشر الإسلام في هذه القارة، وإن إمكانيات الدعوة هائلة، ومستقبلها باهر فيها.

وقد أرسل الدكتور عبد العلي رسالة إلى الشيخ أبي الحسن علي الحسيني الندوي ألقى فيها الضوء على فرص العمل للدعوة في «أفريقيا»، وشرح أهمية هذه القارة وأوضح منهج العمل فيها، ونقتبس هنا من هذه الرسالة التي تلقي الضوء على هذا الموضوع:

تقع «السودان» في الجنوب، وهي متصلة بشرقي «أفريقيا»، وتتصل بها «أوغندا» و «كينيا» و «الحبشة» و «الكونجو»، وفي الغرب تقع «السودان الفرنسية» وتمتد المستعمرات الفرنسية في الغرب، إلى المحيط الأطلسي، وفي الغرب الجنوبي تمتد إلى بحر الرودلف، وفي هذه المناطق الواسعة يعيش التكرونيون، وتراهم يرافقون القوافل التجارية، فإذا بذل الجهد لنشر الدين الإسلامي في هذه المنطقة الواسعة الشاسعة، ليس من البعيد أن تهب فيها نفحات الإيمان، ويذوق الناس حلاوة

الإيمان، ويجعلهم الله تعالى وسيلة لإقرار الأمن والسلام في العالم، فإذا نهض هؤلاء القوم براهة الإسلام ممثلين حضارته، نهضوا كما نهض العرب والبربر في صدر الإسلام، فانتشر الإسلام في «مصر» إلى أقصى الغرب، وأسلمت على أيديهم البربر الذين كانوا يعيشون في ساحل بحر الروم، وكانوا مصدر قوة الإسلام مدة طويلة، وبفضل جهودهم وصل الإسلام إلى الصحراء الكبرى، واخترق هذه الحدود ووصل إلى «نيجيريا» و«السنغال» و«غينيا»، و«غينيا»، ويكثر عدد المسلمين في هذه المناطق بفضل هذه الجهود التي بذلت في القرون الأولى، ويعيش معهم الكفار الوحوش، وهم أغلبية في «أوغندا»، و«الكونجو»، والمناطق الجنوبية، وفي المنطقة الجنوبية لـ «السودان» يزداد عدد الكفار الذين لا يعرفون العربية وهم في أشد حاجة إلى الدعوة الإسلامية.

كان الشيخ محمد يوسف يهتم اهتماماً خاصاً بـ «أفريقيا»، وكان يدرك خطورتها، وكان ينظر ببصيرته الثاقبة إلى أن هذه المنطقة في انتظار أو على ميعاد للدعوة الإسلامية، وإنها إذا هبت هبت بكاملها، ولذلك أرسل جماعات مختلفة إلى هذه القارة، ولم يمض وقت كبير إلّا وأقبل سكان هذه المنطقة على الدعوة، وخاصة أهل العلم ورجال التجارة الذين استوطنوا «أفريقيا» منذ مدة طويلة، فلبّوا هذه الدعوة، وانضم كثير منهم إلى هذه الحركة مع كل ما كانوا يملكونه من مال ووقت.

ووصلت الجماعات الأولى إلى «أفريقيا» في عام ١٩٥٦م، والدول التي سبقت إلى قبول هذه الحركة «كينيا» و«أوغندا» و«تنزانيا» و«ملاوي» و«زيمبابي» و«موزمبيق» و«أفريقيا الشرقية»، و«روديسيا»، و«أفريقيا الجنوبية»، و«موريشس»، والذين نقلوا هذه الحركة إلى هذه الدول كان منهم الغجراتيون الهنود الذين وصلوا في إمارة الشيخ موسى السورتي، ورحبت بهم الجالية الهندية التي كانت تشتمل عامة على رجال التجارة والعمل، وساعدتهم بالاشتراك في أعمالها^(١) وفرغت من أوقاتها، ونشرت هذه الحركة في مختلف الأرجاء.

(١) رواية الحاج إبراهيم إسحاق الإفريقي.

ونشرت الدعوة إلى عام ١٩٦٥م وانتشرت في جنوب «أفريقيا» وشرق «أفريقيا»، وسخرت قلوب أصحاب الفكر والعلم والعمل، وانضم إلى هذه الحركة عدد ملحوظ من المثقفين وأصحاب الثروات والصلاحيات الفائقة، وسخروا طاقاتهم وحياتهم لدعم هذه الحركة ونشر رسالتها، وقاموا بزيارات متكررة لمركز هذه الحركة بـ «نظام الدين»، واشتركوا في الجماعات العاملة في «الهند» و «باكستان»، ورافقوا هذه الجماعات في جولاتها لـ «أفريقيا»، وساعدوا في عقد اجتماعات كبرى، وتنظيم جماعات راجلة.

كيف بدأ عمل الدعوة في «أفريقيا»؟ وكيف انتشرت؟ وما هي نتائج هذه الجهود؟

ترد على هذه الأسئلة الرسائل الآتية التي أرسلت إلى الشيخ محمد يوسف والشيخ محمد زكريا الكاندهلوي والمشايع الآخرين من أماكن مختلفة، وتحمل هذه الرسائل أهمية كبيرة وتأثيراً بالغاً.

كتب أمير جماعة عملت في «مباشرة» و «زنجبار» و «دار السلام» ومدن أخرى في رسالة له:

«ببركة هذا العمل صام عدد كبير من المسافرين، واشتركوا في الصلوات، وكان منظر صلاة التراويح في الباخرة منظراً خلاباً، وصلنا إلى «مباشرة»، واستقبلنا العاملون في تلك المنطقة عند الميناء، وأقمنا أحد عشر يوماً، ثم غادرنا إلى «موريشس» في ١٢/فبراير/شباط، وكانت السفينة فرنسية، فواجهنا صعوبة كبيرة في وجبات الأكل، ووقفت السفينة في خمسة أماكن، وهي «زنجبار» و «دار السلام» و «مايونكا» و «ديكو» و «تماتو»، ومن هذه المناطق مناطق تتصل بـ «مدغشقر»، وكنا قد أرسلنا الرسائل إلى هذه المناطق كلها، فكان الناس يستقبلوننا عند كل ميناء، وكنا نباشر عمل الدعوة على الموانئ، ووجدنا في كل مكان مساعدين لنا، ووصلنا إلى «موريشس» في ٢٢/فبراير/شباط، وواصلنا عملنا إلى عيد الفطر، ثم انتقلنا إلى ضواحي المدينة، ويستجيب الناس لدعوتنا ويهتمون بها، ويفرغون أوقاتهم لها».

«يستمر عمل الدعوة في دول «أفريقيا» على شاطئ النهر، وفي ضواحي مدينة

«يعلو» يعيش ألوف من المسلمين، وفيهم عاطفة دينية، ويغلبهم حرص تعلم الدين، لكنهم يجهلون تعاليمه كلياً، ومعظمهم لا يعرفون ما هي الكلمة، ولا توجد فيها كتابات لتعليم الأطفال المسلمين، فيدرسون في المدارس المسيحية، وإذا اتصلنا بهم وتحدثنا معهم سمعوا كلامنا بأذن صاغية، ويخرج بعضهم معنا، كذلك يوجد المسلمون في عدد كبير في «كوتوكوتا»، و «فورت جمتن»، و «روديسيا»، وتوجهنا يوم العيد إلى «فورت جمتن»، وفور دخولنا في المسجد تدفق الهنود، وكان الجو مؤثراً للغاية، وخرج عشرون شخصاً ليوم واحد، وبعد عودتنا رغبناهم مزيداً للخروج في سبيل الدعوة، فاستعد عدد آخر منهم.

وبعد تجوالنا في قرى مختلفة انتقلنا إلى مدينة «دينا»، وكان الناس ينتظروننا، وكان الجو ملائماً، فاستعد حوالي عشرين شخصاً ليوم واحد، وتأثرت قلوبهم، ثم ذهبنا إلى المسلمين الأفريقيين على بُعد ثمانين ميلاً، ورحب بنا هؤلاء الأفريقيون ترحيباً حاراً، وأبدوا سرورهم البالغ، وكان هذا العمل وسيلة لتوحيد صفوفهم وتآلفهم، ورافقنا من هذه المدينة عشرة أشخاص، وودعنا الإمام وسكان المدينة بالدموع، وسنذهب أولاً إلى موضع يقع على بُعد اثني عشر ميلاً، ثم نتوجه إلى «السبري»، وهي أكبر مدن «روديسيا» على بعد أربع مائة ميل، وهي قريبة من جنوب «أفريقيا»، سهل الله هذا السفر، ويسر وصولنا إلى جنوب «أفريقيا»، وقد تهيأ الجو الديني في «نياساليند»، و «روديسيا»، والحمد لله على ذلك، والناس مقبلون على عمل الدعوة ويستجيبون له رغم أن هذه هي الجماعة الأولى، لكن الناس يأتون من أماكن بعيدة للاشتراك في اجتماعاتنا، وقد بدأت الجولة الدعوية المحلية، وعقدت حلقات التعليم، توجهت جماعة إلى «ريونين» قبل رمضان، وبدأ شهر رمضان في الباخرة، وأقمنا نظامنا للتعليم والجولة بين ركاب السفينة».

ووصلت جماعة أخرى بعد قضاء فترة في «نياسالاند»، وتشتمل هذه الرسالة على تقرير هذه الرحلة.

«وصلنا إلى «نياسالاند» في ٢٢، وفي نفس اليوم وصل إخوة آخرون إلى «موريشس» وهي عامرة بالسكان، ويقل عدد الأفريقيين هنا، وأكثر سكانها من

«سورت» و «بهروج» و «كانتياوار»، وهم مسلمون، وقضينا عشرة أيام نجتهد بدون نتيجة مشجعة، كان الناس يخرجون ليوم أو ليومين، لكنهم لا يتابعون النظام كلياً، ولكن المدينة التي وصلنا إليها أمس، وجدنا الجو فيها ملائماً، والقلوب مائلة إلينا، وارتفعت هممتنا عالية، وقد اشترك الناس في نظامنا طول النهار، وسجلوا أسماءهم لعشرة أيام وثمانية أيام وثلاثة أيام، ووافق عدد منهم على الخروج ليوم واحد، وينحدر معظم السكان من أصل «بهروج».

عقد اجتماع للنساء أيضاً، وكان اجتماعاً موفقاً للغاية، وستوجه إلى جنوب «أفريقيا» بعد شهر كامل نقضيه هنا في عمل الدعوة حتى تصل إلينا أوراق السفر إلى جنوب «أفريقيا»، إن هذا البلد جديد علينا، ونحن أول من دخل إليه من جماعتنا، فنلتمس منكم الدعاء للسداد والتخلق بالأخلاق الحسنة، والتمسك بالمبادئ، وقد علمنا أن جنوب «أفريقيا» بلد متحضر للغاية، ونسبة التعليم فيه مرتفعة، كذلك فيه عدد كبير من العلماء والمثقفين، وحالة البلاد الاقتصادية راقية، والثراء منتشر، ومستوى المعيشة مرتفع، سهل الله أمرنا، وأرشدنا إلى سواء السبيل، وعلمنا أن إخواننا يعيشون حياة بساطة وتواضع.

زرنا أمس الأول شاطيء «كوتاكوتا»، وهي مستعمرة تتكون من ٢٢ ألف ساكن على شاطيء، وقد أسلم سكانه على يد العرب، والآن أوضاعها سيئة، فلا يعرف سكانها حتى الكلمة ومبادئ الإسلام، وقد التقينا بالناس هناك وعرضنا عليهم الدعوة، فتأثر الجميع، ومعظم سكان هذه المنطقة هم عمال مسلمون يخدمون في «نياسالاند»، والتخلف والجهل فاش في المسلمين الهنود.

عقد اجتماع من هذا القبيل في «كينيا»، اشترك فيه عدد كبير من سكان «أفريقيا»، ويصف أحد العاملين في الجماعة هذا الاجتماع في رسالة له:

«كان الاجتماع الذي عقد في الشهر الماضي في «كينيا» أكبر اجتماع في «أفريقيا» الشرقية، واشترك فيه عدد كبير من سكان المناطق المجاورة، وقطع بعضهم مسافة ٤ آلاف ميل بالطائرة، والحافلات والمراكب العامة، ووصلوا إلى هذا الاجتماع؛ لأن عدد السكان المحليين قليل، ويمكن أن تشور عاطفة بعض

المشاركين، إن أحدهم اشترك في الاجتماع، وقطع مسافة آلاف الأميال بالسيارة، وانتهى الاجتماع برعاية آدابه حسب النظام المقرر على المنهج التالي:

البيان بعد صلاة الفجر إلى صلاة الشروق، ثم الفطور، حلقة التعليم من الساعة العاشرة إلى الساعة الثانية عشرة والنصف، ثم الغداء، وبيان الآداب، وبعد صلاة العصر بيان فضيلة الذكر، وانطباعات القادمين من الخارج، وبيان الآخرة، البيان من المغرب إلى العشاء والتشكيل، وبعد العشاء المشورة لوضع برنامج اليوم التالي، ونقل الكلام من الأردية إلى اللغة المحلية، وقد سجل مائة وثلاثة أشخاص أسماءهم للاشتراك في اجتماع «زميبا» في العام القادم.

وكتب عضو جماعة أخرى قامت بجولة دعوية في بعض مناطق «أفريقيا» في رسالة إلى الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، فأعرب عن الانطباعات الآتية:

«الحمد لله، وصلنا إلى «ملاوي» في ١٣/سبتمبر/أيلول قادمين من «فورت جيمسن» ونزلنا أولاً لـ «لنكوتي»، ومن المؤسف أن الإخوة الآسيويين لم يلتفتوا إلينا كما التفت الأفريقيون واهتموا بنا، فاخترنا لهم أميراً منهم، وعلمنا أنهم يخرجون كل أسبوع لثلاثة أيام إلى المناطق المجاورة، وأقمنا هنا يوماً واحداً وبذلنا جهدنا لترغيب الإخوة الآخرين ودعوتهم إلى الاشتراك في هذا الجهد.

وتقوم جماعة راجلة بإمارة الشيخ أبي بكر بجولة، وقد التقينا برجالها عندما زرنا هذه المنطقة، وقد وجدنا منهم حرصاً على التمسك بالمبادئ في الدعوة ومراعاة النظام، وتنال هذه الجماعة كل مساعدة من السكان المحليين ويشاركهم أربعة أفريقيين وأربعة آسيويين لأربعة شهور، وينضم إليهم كل أسبوع رجال جدد لمدة مختلفة كأسبوع أو عشرة أيام، وقد قضى الشيخ عبد الستار وهو من أعيان «زميبا» أربعة شهور مع هذه الجماعة الراجلة، والآن سيرافقنا إلى «الهند»، ويقضي فترة في «سورت»، وقد حكى لنا كيف تجتهد هذه الجماعة وما تحققة من مكاسب في سبيل الدعوة، ومما أعجبنا أن هذه الجماعة تسافر ما بين ثلاثين وخمسة وثلاثين ميلاً كل يوم على الأقدام».

ويعصف أمير جماعة عملت في «نيجيريا» في عام ١٣٨١هـ أحوال

جماعته:

«قضت جماعة راجلة في ضواحي «لاجوس» أربعين يوماً قطعاً فيها مسافة حوالي أربعين ميلاً، وكانت تمكث في كل قرية يوماً أو يومين حسب نظام الدعوة، وكان أكثر أعضائها من الفقراء، ثم رافقونا لثلاثة أيام، وكانوا يعملون في النهار، ويكسبون الرزق، ويقدمون جزءاً منه إلى أهلهم وعيالهم ويأخذون الباقي منه معهم ويخرجون في الجماعة، وكان عدد مثل هؤلاء العمال الذين كانوا يخرجون في الدعوة، ويكسبون الرزق أربعين شخصاً، ورغم الغربة بيننا باعتبار اللغة والثقافة فقد كانوا منسجمين كلياً معنا، يشتركون في جميع الأعمال كالتهليل والذكر والجملة بنشاط بالغ، ويراعون الآداب، ويلتزمون بالقواعد، وقد كانوا لانتمائهم إلى الجنس الأسود يظهرون أحياناً مخاوفهم بأننا جئنا لاستعباد أولادهم لتجربتهم مع الجنس الأبيض، ولذلك كانوا حذرين منهم، فكنا نقنعهم ونزيل مخاوفهم بأننا جئنا لأمر الدعوة.

وفي بعض المواضع وجدنا أن القاديانيين نشطون، وقد انبث دعائهم في هذه المناطق، ويستميلون السذج من الناس، وكان الرفقاء المحليون يتكلمون معهم، ويزيلون مخاوفهم، ويقولون لهم: اسمعوا كلامنا أولاً ثم لكم الخيار، أن تقبلوا أو ترفضوا، فكانوا بعد سماع هذا الكلام ينشرحون، وينضم إلى جماعتنا رجل من قرية، ونشكل الجماعة منهم، ونضع برنامج الدعوة المحلية، ثم ننقل بعضهم إلى المناطق الأخرى وقد قمنا برحلة بالسفينة إلى مناطق ساحلية متصلة بـ «لاجوس» تبعد بحوالي خمسة عشر ميلاً، والتقينا هناك بالمسلمين وأشركتهم في حلقات التهليل والجملة، ولأهمية الإمام في هذه الأماكن لا بد من الاستعانة به في كل عمل، وقد خرج معنا بعض الأئمة أيضاً، والجدير بالذكر أن الناس يهتمون بالتمائم والرقية، والصلوات على النبي ﷺ أكثر من الذكر والنوافل بل الصلاة المفروضة، وتنتشر الجهالة في هذه المنطقة، أما المتعلمون منهم فمبلغ علمهم بعض الرسائل في الفقه المالكي، وإذا تقدم أحد منهم وتوسع في العلم فيكتفي بـ «الموطأ»، ولا بد من

دراسة «الشفاء» للقاضي عياض، و «قصيدة البردة»، ويقرأ من هذه الكتب في مجالس المولد النبوي الشريف .

وامتنع بعض العلماء من الاشتراك في الجولة الدعوية؛ لأنها لم تذكر في كتب الفقه المالكي، واعتبروا هذا العمل مخالفاً للشريعة، وقد واجهنا هذه القضايا في الشمال، أما سكان «لاجوس» فإنهم لا يعارضوننا بل يساعدوننا بطيب خاطر، وقد وافق عدد من أعضاء الجماعة الراجلة على الخروج إلى الشمال من «لاجوس»، وقطع مسافة ثمان مائة ميل، وكان أكثرهم من طبقة الفقراء إلا اثنين وثلاثة، وقد اشتركوا في الجماعة بما وفروه من كدّ يمينهم أو اقترضوا لتحمل نفقات السفر والطعام، وكان هذا الخروج في سبيل الله عملاً غريباً لهم، فإنهم لا يخرجون من ديارهم وأجوائهم التي يعيشون فيها، ووصلنا في الشمال إلى «كدونة»، وقد عرف سكان هذه المنطقة الدعوة قبل سنة بوصول جماعة إليها، وذهبنا بعد أيام إلى المناطق الريفية وأخرجنا عدداً من سكانها في سبيل الله، ووصلنا إلى «زارية» أيضاً، وهكذا انقضت عشرة أيام، وقد عاد هؤلاء الإخوة إلى أوطانهم مسرورين للغاية، ومقدرين للعمل، وكان بعضهم يبكي على فراقنا، إلا أنهم أكدوا العزم على مواصلة هذا العمل والخروج إلى «الهند» و «باكستان» من أجل الدعوة .

ويحكى ميان جي محراب وهو ممن قضى مع الشيخ الكبير محمد إلياس — رحمه الله — ، فترة طويلة في الدعوة، قصة سفره إلى «أفريقيا» في الرسالة الآتية :

«وصلنا إلى «تشاد» بعد عبور صحراء «السودان» وغاباتنا في عشرين يوماً على الشاحنات، وكنا ثلاثة أنفار، ومكثنا خلال هذه الرحلة في القرى الصغيرة التي تصادفنا في الطريق بعد مسافات طويلة، نتذكر مع سكان هذه المناطق المبادئ الستة للجماعة، ونشرح لهم منهج الدعوة، وفضيلة الخروج في سبيل الله وغرض زيارتنا، فكانوا يألّفون سريعاً، وتشرح قلوبهم لنا، وكانوا يرحبون بنا ويكرمونا، ويصرّون على أن نقبل ضيافتهم، ولكننا لسفرنا الطويل نعتذر إليهم، وقد أقمنا في «الأبيض» و «جنينا» أربعة أيام، وقد قضينا وقتاً طيباً في الجولة العامة ومذاكرة مبادئ الدعوة

في جو طيب وإقبال من الناس، وأبدى في كل مكان بعض الناس استعدادهم للسفر إلى «الهند»، وتعلم الدين، والتفرغ للدعوة، والتقينا في «جنينا» بعالم ديني كبير، وقد وعدنا بأنه سيتخذ إجراءات السفر ويعد إخوة آخرين للخروج إلى «الهند»، وقال: عندما تعودون من «ساحل العاج» فإننا سنرافقكم في السفر إن شاء الله، إلى «الهند».

وكان مما يعجبهم ويؤثر فيهم إقامة الصلاة بالجماعة، والآذان أثناء السفر، ما كانوا يتصورون ذلك، وما شاهدوا هذا المنظر، إنهم منعزلون عن العالم، وما مستهم الحضارة، فيعيشون حياة الشظف والخشونة، والبساطة والسذاجة في الأكل والشرب، واللباس والمعيشة، ويكتفون أياماً وأسابيع بالخبز الجاف يبلّونه بالماء ليصلح للأكل بدون إدام، فلو أرسلت إلى هذه المنطقة جماعة تعمل أربعة أشهر فيهم لكانت لها نتائج حسنة. وتقع هذه المنطقة في غرب «الخرطوم»، وهي بعيدة جداً، وسنهي عملنا في «تشاد» في ثلاثة أيام، ندخل في «نيجيريا» في اليوم الرابع إن شاء الله، وسنقيم خمسة أيام في «نيجيريا» حسب البرنامج الذي وضعته الإخوة لنا ثم نتوجه إلى «غانا»، وبعد ذلك إلى «ساحل العاج»، وقد طال السفر ونتوقع أن هذه الجولات تستغرق ثلاثة أشهر، والمناطق التي نزررها صحراوية عامة، وفيها مناطق تكثر فيها الغابات الكثيفة الموحشة، ولذلك واجهنا في الطريق شذائد كثيرة، ولكن الله وفقنا لتحملها، ونشكر الله على ذلك».

وفي الختام ننقل رسالة عن الحبشة، تلقي الضوء على الظروف السائدة في تلك البلاد، والمحن التي يمر بها المسلمون، وكيف استطاعت هذه الجماعة أن تعيش في مثل هذه الظروف القاسية والقيود المفروضة على دعوتها:

«بعد مغادرتنا «مكة المكرمة» أقمنا أسبوعاً في «جدة»، نعمل بين الحجاج الكرام، وقد غادر الحجاج السودانيون بالطائرة يوم الخميس ١٤/إبريل/نيسان قبل صلاة العصر، ووصلنا نحن في نفس اليوم بعد صلاة العصر إلى الميناء، وتحدثنا مع الموظفين على الميناء والمسؤولين عن الجمارك والأمن، عن الاستعداد ليوم الآخرة بعد الموت، وقد اشترك بعضهم في حلقاتنا للتعليم، ووجهنا إليهم الدعوة إلى

حضور اجتماع مسجد بن لادن، والشهداء، وكانوا يتعجبون لماذا نسافر إلى «الحبشة»، فلما ذكرنا لهم جهاد آبائهم وأجدادهم وخروجهم للدعوة، وما تحملوه من محن وأذى في سبيل الله اعترفوا أن الحياة الآخرة هي الحياة الباقية، وأن الاستعداد لها هو العمل الصالح، وهو العمل الحقيقي في الحياة، وسمعوا لنا باستخدام غرفة من غرف المكتب لإقامتنا، واهتم أحبابنا بصلاة التهجد، واشتغلنا بعد صلاة الصبح بالذكر والتلاوة، وبعد الفطور وقضاء الحاجة اشتغلنا بحلقة التعليم، وقمنا بالجولة بين العمال في الميناء والموظفين، والتحق بنا كثير منهم، وفي نفس الأثناء أخبرنا موظفو الجمرک والأمن أن الباخرة جاهزة للسفر. وأركبونا جميعاً، وانتظروا على الميناء إلى أن تحركت السفينة وكانت عيونهم تدمع، وكانوا يشيرون بأيديهم للدعاء من بعيد.

كانت الباخرة إيطالية، وكانت سريعة رغم صغرها، فغادرنا جدة يوم الجمعة قبل الزوال إلى «الحبشة»، ووصلنا في اليوم التالي بعد صلاة المغرب إلى ميناء «أريتيريا» وقضينا السفر كله في التعليم والدعوة والذكر والصلاة، وكان معنا حاجان، وفي الباخرة كان بعض العمال الذين كنا نتحدث إليهم وقد حالت غفلتنا وكسلنا دون اشتراكهم في أعمالنا كلياً، إلا أن واحداً منهم كان يشترك أحياناً في الصلاة، وقبل خروجنا من الجمرک دعونا الله تعالى أن يحيي في العالم كله هَمَّ الآخرة والاجتهاد لها، وأن ينضم إلينا لتعلم الدين والقيام بعمل الدعوة سكان هذه الدولة وغيرها من الدول، وقد يَسَّرَ الله تعالى أمور الجمرک فانتهينا من إجراءات الهجرة والجمرک بسرعة، وأدينا صلاة العشاء ونزلنا في خير بيت، ومن العادة المتبعة هنا أن الصلاة على النبي ﷺ والسلام عليه، والدعاء وتلاوة القرآن تسبق الأذان بمكبر الصوت عند الفجر، ولم يحضر لصلاة الفجر إلا ثلاثة أشخاص فذكرنا حياة الآخرة وطلبنا منهم بأن يقيموا لبعض الوقت في المسجد لمذاكرة الدين، وتعلم مبادئه، وبعد الصلاة التقينا بتجار البلدان الأخرى، ثم غادرنا إلى «أسمرأ» في الساعة السابعة صباحاً بالقطار للحصول على ورقة الهوية، فإن عدم الحصول على هذه الورقة عرض الأحبة الذين زاروا هذه المنطقة في السابق لصعوبات ومضايقات، وأقمنا أربعة أيام في خير

البيوت، والتقينا بالقادمين من أماكن أخرى ودعوناهم إلى الاهتمام بالآخرة، والاستعداد لها.

ومن عادة مسلمي هذه المنطقة أنهم يهتمون بتلاوة سورة يسّ وسورة الملك، والذكر الجماعي بعد صلاة المغرب، وقد زارت الجماعة السابقة ٢٧ قرية بين «أسمر» و «أديس آبابا»، ومررنا ببعضها نحن أيضاً، يمتد هذا الطريق الجبلي إلى حوالي ألف كيلومتر، والسفر به شاق متعب، ويستغرق وقتاً طويلاً، والسفر هنا أعلى من السفر في «الهند»، ويعيش معظم الأحبة في باطن العمران، وقيل: إن عرش الملكة بلقيس كان في «أكرا»، وزرنا قبر الملك النجاشي رضي الله عنه، وطلب منا أن نقرأ الحمد مرة وسورة الإخلاص اثني عشر مرة، وندعوه، وخرجنا مع الأحبة الذين قدموا قبلنا لزيارة المناطق الأخرى، وفي قرية النجاشي يجتمع الأحبة من مناطق مجاورة في عاشوراء المحرم والحادي عشر منه ويشغلون بالدعاء والذكر والتلاوة طول الليل، ويحتفلون بغرة المحرم كيوم العيد ويوم عطلة ولم يرض أحد حتى الآن أن يخرج معنا.

وكان الإخوة في «مكة المكرمة» و «المدينة المنورة» قد رغبونا في زيارة المنطقة الشرقية الجنوبية لهذه المدينة، وكان عدد كبير من الحجاج في هذه المنطقة، ولذلك يرغب إخواننا في زيارة هذه الأماكن خلال أربعة أيام قادمة، ولا تفوتنا زيارة المشايخ والصالحين في المناطق التي نزررها، ويسرهم إذا قدمنا إليهم هدية زمزم والرطب، كذلك نلتقي برجال آخرين من مختلف الطبقات، ونخرج ونسعى أن يتوجه سكان القرى إلى المدن الكبرى وهم يتوجهون إليها ليختلط سكان القرى بسكان المدن، ولكن فكر الآخرة، والرغبة في تعلم الدين، والإقبال على الدعوة والسعي لها يغلب في سكان القرى.

نجتمع للتعليم كل يوم ساعتين، وبعد العصر يجري التعليم بالعربية، ونشتغل بالذكر والتلاوة والدعاء بعد صلاة الفجر، ويوفقنا الله لصلاة التهجد والحمد لله على ذلك، نسألکم الدعاء للاستقامة والقيام بالعمل بأحسن طريق، ولا نترك التعليم حتى في السفر، والحمد لله على التوفيق للعمل لما يحبه ويرضاه.

لقد نقلنا في صدد العمل في «أفريقيا» بعض الرسائل التي تلقي الضوء على سير العمل ومنهجه، ومثل هذه الرسائل كثيرة، وقد اكتفينا بنقل بعض الرسائل خوفاً من الإطالة، ويتقدم عمل الدعوة في «أفريقيا»، ويجري على خير ما يرام، وقد عقدت اجتماعات ضخمة بعد وفاة الشيخ محمد يوسف — رحمه الله — ، ويستمر عقد الاجتماعات، ويقبل الناس على الدعوة، وتظهر لهذه الحركة نتائج مشجعة.



الباب الحادي عشر الدعوة في «أوروبا» و «أمريكا» و «اليابان»

الحاجة لعمل الدعوة في «أوروبا» و «أمريكا» و «اليابان» :

سيطرت المادية الجامحة والإلحاد كل سيطرة، وغزت البيوت والمجتمعات، ففقد الإنسان فيها نفسه، وأصبح جزءاً من ماكينة تتحرك، وتجردت هذه الأمة الغربية التي تحاول تسخير القمر واصطياد النجوم عن الحياء والعفة، والغيرة والشهامة والإيثار والتضحية، والخلق الحسن والتواضع والقيم الإنسانية كلها فتعيش حياة البهائم، وصار ذلك ميزة لها وطبيعة، وأصبح ارتكاب أعمال غير إنسانية شعاراً قومياً، وطابعاً للحضارة الأوروبية، وقد قال الشاعر الإسلامي الدكتور محمد إقبال عن هذه الحضارة:

لقد تضخم العلم، وتقدمت الصناعة في «أوروبا»، ولكنها بحر الظلمات، وليست فيه عين للحياة، إن أبنية مصارفها تفوق أبنية الكنائس في جمال البناء، وحسن المظهر والنظافة، إن تجارتها قمار يربح فيه واحد ويخسر ملايين، إن هذا العلم والحكمة والسياسية والحكومة التي تتبجح به «أوروبا» مظاهر جوفاء، ليست وراءها حقيقة، إن قادتها يمتصون دماء الشعوب، وهم يلقون درس المساواة الإنسانية والعدالة الاجتماعية، إن البطالة والعري وشرب الخمر والفقر هي فتوح المدينة الإفرنجية، إن الأمة التي لا نصيب لها في التوجيه السماوي والتزليل الإلهي، وغاية نبوغها تسخير الكهرباء والبخار، إن المدينة التي تتحكم فيها الآلات وتسيطر فيها الصناعة تموت فيها القلوب، ويقتل فيها الحنان والوفاء والمعاني الإنسانية الكريمة.

توجه إلى هذه الدول التي عرفت بالمادية، وفقدت صلتها بخالقها عدد من أولي العزم وأصحاب اليقين ورجال الدعوة المجريين عن الوسائل والإمكانات

المادية، ولم يكونوا من أصحاب العلم والكفاءات العالية ولا الحضارة الرفيعة والقدرات الظاهرة، وإنما كان زادهم الوحيد ورائدهم الفريد وعمادهم العتيد يقينهم بوعد الله وإيمانهم بما أنزل الله فقصدوا هذه الدول، وخاطبوا المبهورين بالحضارة الغربية بكل جرأة، وعرضوا دعوتهم بكل ثقة، ولم تبهر عيونهم تلك الحضارة الخلابة الساحرة، بل ألقوا عليها نظرة احتقار واستهانة وازدروها فوجدوها بلسان حالهم كما قال الشاعر:

«إذا كان وجود الخالق غير ثابت في نظرك، فلا يثبت في نظري وجودك.

ليس الوجود إلاّ ظهور الذات، فكّر في نفسك فإن جوهرك جوهر غير زكي».

زار هؤلاء الدعاة المخلصون قبل رحلتهم إلى «أوروبا» الشيخ محمد يوسف ليستأذنه للسفر، فقال لهم:

نحن في حاجة لعمل الدعوة إلى الدين في «أوروبا» و «أمريكا» اللتين غزتهما المادية بحاجة إلى رجال من عباد الله الذين يتحلون بالعزم واليقين، الذين لا يغترون بالحياة اللماعة وزخرفها في هذه الدول، بل ترسل عيونهم الدموع على مشاهدة الحياة المعادية للإسلام وأعمال الرسول ﷺ.

فإذاً كيف كان موقف هذه النخبة من الدعاة إزاء هذه الحضارة والحياة المادية الجامحة، وطغيان الحضارة؟ وكيف كان رائدهم الإيمان واليقين؟ وكيف أثبتوا الذكاء والحكمة؟ وما هو المنهج الذي اختاروه في وجه هذا السيل الجارف؟ تلقي الرسالة الآتية الضوء إلى هذا الموقف الحكيم، والعزم السليم، وما كان من ثمار هذه الدعوة:

«فكرت هذه الجماعة التي تشتمل على أربعة أشخاص بعد ركوبها الباخرة في طريق العمل ومنهجه، وكيف تقوم بالدعوة وتواصل نظامها، فذهبت أولاً إلى قبطان السفينة واستأذنته للأذان والصلاة، فقال القبطان: كيف تؤذنون بالصوت العالي فإن ركاب السفينة ينتمون إلى أديان مختلفة، وسوف يعترض على ذلك بعض الركاب، ولكن الجماعة بدأت تؤذن وتصلي، وكان الناس يمرون، وبعضهم يقف قليلاً وينظر ماذا يعملون، ولم يعترض أحد على هذه الأمور، ولما رأى رجال الجماعة أن

الركاب لا يعترضون على أذاتهم وصلاتهم بدأوا يعقدون حلقات التعليم، ويدعون إليها المسلمين، ومرّ بهم القبطان مراراً وسمع كلامهم، وعلم أنهم يعلمون الأخلاق ويهذبون النفوس، ويدعون إلى العبادة، ويؤكدون على الآخرة وحب الإنسانية، فقدر جهودهم ولم يعترض وخلاهم وما يفعلون، بل جعل يعطف عليهم ويساعدهم، وكان من فضل الله أن الرحلة انقضت بدون أي طوفان في البحر، ووصلت السفينة إلى «أمريكا» بسلامة وهدوء، فقال القبطان: كنا نواجه الطوفان في كل رحلة، ولكن رحلتنا كانت آمنة هادئة ببركة هذه الجماعة الصالحة المؤمنة.

بعد وصول الجماعة إلى «أمريكا» جلس رجالها على حافة الطريق يستشيرون فيما بينهم في برنامجهم، فوقفت بجانبهم سيارة ونزل ركبها، وسألوا رجال الجماعة عن غايتهم، وأصرّوا على أن يرافقوهم إلى منزلهم، وتعجب رجال الجماعة من هذه الدعوة من رجال لا يعرفونهم، فقالوا لهم: كنا معكم في السفينة وقد جلسنا في مجالسكم وسمعنا كلامكم الطيب، فوافق رجال الجماعة على السير إلى منزلهم، وأخذوا في منزلهم عناوين المسلمين من دليل الهاتف، واتصلوا ببعضهم هاتفياً وحددوا موعد اللقاء معهم، ووعد أحدهم باللقاء بعد أسبوعين، وبعد أسبوعين جرت المقابلة، فلما علم أنه ليس لهذا اللقاء غرض مادي وإن هذا اللقاء هو الله فقط، عجب، وكيف لا يعجب وهو يعيش في بيئة مادية منذ مدة طويلة، فلا يستطيع أن يتصور أن رجلاً يسافر آلاف الأميال للقاء أخيه في الله، فلما تأكد بعدما سمع كلامنا وعرف أحوال سفرنا سالت الدموع من عينيه، وقال: كيف تحصل هذه العاطفة وهذا الإخلاص؟ فقال له رجال الجماعة: تحصل هذه العاطفة بالخروج معنا وقضاء وقت في سبيل الله، وعندئذ تدرك هذه الحقيقة وتحظى بهذه النعمة.

وبعد تبادل الكلام والتألف بيننا وافق على الخروج لثلاثة أيام، وهكذا أُنْعِمَ رجال الجماعة حوالي سبعين شخصاً على تفريغ وقت الدعوة وتحقيق هذا السفر، وقضى هؤلاء الأمريكيون مع رجال الجماعة فترة طيبة في التعليم والدعوة، والذكر والتلاوة والصلاة منقطعين عن بيئتهم المادية، وتأثروا جميعاً بجو الخدمة والمحبة والدعاء، وسمعوا كلام الله وأحاديث رسوله ﷺ المؤثرة والمارقة للقلوب، وقالوا

لدى عودتهم: إن هذه الأيام الثلاثة كانت خالدة لا تنمحي ذكرياتها من الذهن أبداً، وقد حصلت لنا لذة وحلاوة لا نستطيع أن نشترىها بآلاف من الدولارات، وقال لهم رجال الجماعة: إن الحلاوة واللذة التي حصلت لكم في الأيام الثلاثة ستدوم وتخلد إذا سافرتكم إلى «الهند»، وقضيتم فترة أطول مع الجماعة في سبيل الدعوة، ولا يمكن أن تحصلوا على هذه اللذة والحلاوة في بيوتكم وفي بيئاتكم وأعمالكم، فوافق الجميع على الخروج في سبيل الله، وسجلوا أسماءهم.

وتدل هذه القصة على أن القاطنين في «أوروبا» و «أمريكا» قد تبرئوا من حياتهم الصاخبة التي تخلو من الطمأنينة والسكينة والبهجة والسرور القلبي والروحي بحيث أنهم إذا أتيحت لهم فرصة لقضاء فترة يتمتعون فيها بالطمأنينة الروحية والهدوء القلبي فإنهم مستعدون للتخلص من هذه الحياة الآلية الصناعية وقيود الحضارة الغربية المادية.

إننا لا نبحث هنا مدى صلاحية المنهج الذي يختاره رجال الدعوة والتبليغ في الدول الأوروبية للتأثير في الطبقة المتنورة والمثقفة التي تنظر إلى كل شيء بعين العقل، فإن عالمنا اليوم يواجه أزمة استيلاء العقل المجرد عن تصور الخالق والخضوع له، ويعيش على تلك المبادئ التي وضعها عقلاء «أوروبا»، فإذا تحرر بعض عباد الله المخلصين من هذه القيود والمبادئ الوضعية، وأعتقوا رقابهم عن المطاعم والشهوات والخضوع للمادة واتبعوا الطرق الروحية الخالصة، ولم تبهر عيونهم زخرفة الحياة الصاخبة، وآراء العقلاء الماديين وكان رائدهم القلب والعاطفة الإنسانية، فكيف يلامون على ذلك، والحقيقة هي أن الجرأة والانطلاق من كل قيد يفتح أمام الإنسان آفاقاً جديدة للعمل، فلو خضع الداعي لرغبات المدعو وأفكاره لما تجرأ على خطابه ودعوته، وأصبح فريسة له قبل أن يدعوه، إن الذين يتجردون من الإيمان واليقين، وتنقصهم الجرأة وروح المخاطرة يراعون دائماً انقضاء الجوى، وعيون الناس، وينقادون للتيار الجارف ولا يقدرّون على التغلب عليه، ولا يستطيعون تحويله أو الوقوف في وجهه فينسلخون عن الحياة الدعوية، ومزايهم الذاتية، ويندمجون في جو الكفر والإلحاد، ويذوبون في بوتقته، ولا بد للوصول إلى الغاية المنشودة من الوله والغرام والفداء.

إن تيار المادية والإلحاد الذي يكتسح الدول الراقية المتحضرة يحتاج إلى مثل هؤلاء المخلصين الذين يثورون على جميع التقاليد، وينكرون جميع اتجاهات العالم الخارجي بروح الفداء والفناء والنشوة الروحانية، ويتولون أمر الدعوة غير مبالين بما يحدث لهم وبمنظرة العالم إليهم، وأسوة هؤلاء صحابي الرسول ﷺ ربي بن عامر رضي الله عنه الذي خاطب ممثل أكبر قوة في ذلك العصر رُستم بكلامه الصريح، وأعز الله عباده الذين كانوا مجردين عن الوسائل المادية، ومبادئ العقل والحكمة المزعومة، وساد جو الإيمان واليقين، وغلب على الجور والظلم الرحمة والحق والصدق.

طبيعة العمل في «بريطانيا» :

نستعرض الآن الجهود التي بذلت في مختلف البلدان الأوروبية باختصار، وما تحمّله الدعوة من الأذى والجفاء في هذا السبيل، وما أدت جهودهم إليه من نتائج وثمار، ولا يعني ذلك أن هذه الآثار كانت عميقة وخالدة وساحقة، إلا أن هؤلاء الدعاة قد استطاعوا من خلال جولاتهم ولقاءاتهم ودعوتهم أن ينتشلوا من هذا الخضم الزاخر للمادية والإلحاد بعض النفوس التي كانت طليعة للدعوة في هذه الديار ونواة للعمل الذي انتشر في السنوات الأخيرة وذلك بإحداث تغيير في حياتهم، فكانوا أسوة لغيرهم.

يجب علينا أن نقدر هذه الجهود البدائية الرائدة ونعتبر هذه النفوس كالدررة اليتيمة في خضم هذا البحر الزاخر للمادية بدلاً من أن نحط من شأنهم، ونقلل من أهميتهم وندين عملهم.

كتب عضو من الجماعة المتجهة إلى «لندن» في رسالة إلى الشيخ محمد يوسف :

«وصلنا بحمد الله إلى «لندن» في ١٢/مارس/آذار بسلامة وعافية تامة مروراً بـ «إستنبول» حيث أقمنا ٢٤ ساعة بعد مغادرتنا «بغداد» في ٥/مارس/آذار بالقطار، ومررنا في الطريق بـ «بلغاريا»، و «يوغوسلافيا»، و «ألمانيا»، و «هولندا»، وألقينا عليهم نظرة حسرة داعين الله تعالى لهم بالهداية والرشاد.

جميع الأحبة بخير وعافية ينهمكون في عمل الدعوة بروح التضامن والتضامن فيما بينهم، ويواظبون على نظام الجماعة من الدعوة والتعليم وذكر الله والتلاوة والأعمال الحسنة، وبركة هذا العمل أنشئت عدة مساجد في مختلف مدن «بريطانيا»، وأقيم فيها نظام الأذان والصلاة بالجماعة والتعليم، وفي المناطق التي لا توجد فيها مساجد يسعى الإخوة إلى إنشائها، وبدأ الناس يخرجون للدعوة، وذلك من فضل الله ومثته أن تقوم مثل هذه الأعمال في هذه الأرض التي تغمرها المادية ويسود فيها جو الإباحية، وبسط فيها الشيطان صولته في كل مكان، وينتشر الغادون من كل جانب، وكان شباب الأمة الإسلامية يقعون فريسة هذه الأوبئة ويتأثرون بسمومها، فيقتضي هذا الوضع المؤلم بذل جهد جبار مضني، ليتطهر الجو من هذا التلوث، ويمكن إنقاذ الذين لفحتهم نفحات هذه الحضارة المادية، وتقبل الله هذه الأعمال وسدد خطى هذه القلة القليلة المستضعفة من عباده الذين يسعون إلى نشر كلمته، ووفقهم لما فيه حبه ورضاه، ويسر له السبيل، وأسبغ عليهم صفات الداعية. إننا في الحقيقة غير مؤهلين لهذا العمل، ونحن الغرباء المساكين نبذل ما في وسعنا، ونواجه العقبات الهائلة في سبيلنا، وندعو الله أن يجعلنا وسيلة لتغيير جو الكفر والشرك وتحويله إلى مركز الإيمان والأمن والسلام، آمين».

وكتب أمير جماعة باكستانية سافرت إلى «لندن» في رسالة إلى الشيخ سعيد أحمد خان، فأعرب عن الانطباعات الآتية:

«غادرت جماعتنا المكونة من خمسة أعضاء في ١٥/ يوليو/ تموز «كراتشي» إلى «البصرة»، ثم ذهبت إلى «بغداد»، و«حلب» و«إستنبول»، ووصلت إلى «لندن» في ٩/ أغسطس/ آب بعد العصر، ومررنا بـ «اليونان» و«يوغوسلافيا» و«إيطاليا» و«باريس» بالقطار، واضطررنا إلى تغيير القطار في عدة أماكن في الطريق، وأدينا في المحطات الصلاة بالجماعة مع الأذان، وذلك فضل الله علينا، وكان الناس يجتمعون حولنا رجالاً ونساء وأطفالاً لرؤية منظر الصلاة الذي هو منظر غريب لهم، ويعجبون لمنظر هذه العبادة لله وحده، وبعضهم كانوا ينظرون إلينا بنظرة تمتلأ محبة وتقديراً، وكان بعضهم يقدم إلينا الفواكه إكراماً لنا وإجلالاً لهذا المنظر، وطلب منا في محطة

«بلجراد» بـ «يوغوسلافيا» أن يجلس على سجادتنا لحظة تبركاً وتيمناً، وكان من غير المسلمين، ويدل ذلك على ظمأ هؤلاء الناس وعطشهم للطمأنينة القلبية، فإنهم يتيهون في الظلام، ولا يجدون من ينقلهم إلى عالم النور».

ويكتب أحد المتأثرين بجماعة التبليغ من المتنورين في «لندن» رسالة يعبر فيها عن انطباعاته:

«لا يزال التعليم الديني هنا مجهولاً لا يبالي به الناس، ونشكر الله على أنه أتاح فرصة لفتح مدرسة للتعليم الديني، وقد ارتفع عدد المتسبين إليها خلال سنتين إلى أربعين طفلاً، ولكن هؤلاء الأطفال يأتون لساعة واحدة كل أسبوع، وإنني أجتهد ونسأل الله أن تثمر جهودي، ومما يجدر بالذكر أن الأطفال لا يجدون جواً دينياً في بيوتهم ولا في بيئتهم ولا في مدارسهم، ولذلك يستغربون كل شيء يعرض عليهم من أمور الدين، فالصلاة غريبة، وحتى الكلمة غريبة بالنسبة لهم».

وقد أجريت اتصالاً بطلاب الجامعات العرب، ووضعت بتعاونهم نظاماً للتعليم موزعاً على ثلاثة صفوف باعتبار العمر، الصف الأول يشتمل على دروس في الكلمة، والإيمان، والتوحيد ونفي عقيدة التثليث وقصص من حياة الرسول ﷺ وحياة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين حسب استعداد الطلاب للقبول، ومستواهم الذهني وتعريف الطلاب باعتبار مراحل أعمارهم بالصلاة، ويدخل فيها مسائل الطهارة وتعيين الأوقات، وطريق الوضوء والصلاة، وفي الصف الثاني شرح هذه الأمور وتفصيلها، وفي الصف الثالث تعليم ما يقرأ في الصلاة، وإخلاص النية، والتوكل على الله وعقيدة كون الله حاضراً ناظراً، وتكميل تعليم الإسلام».

وتوضح في كل صف أهمية الجهد الديني في هذه البيئة الفاسدة وأهميته في هذا الجو، وفصل العمل الديني.

وتوجهت في عام ١٩٦١م جماعة إلى «لندن»، وقد وصف أحد أعضائها انطباعاته في الرسالة الآتية:

«الحياة العامة هنا هي أن الناس الذين يشتغلون إلى الساعة الثانية عشرة ليلاً، ينامون في النهار، والذين يشتغلون في النهار ينامون طول الليل، ومن بركة تنقل

الجماعة والاستفادة من العطلة من مساء السبت إلى مساء الأحد سافر ٧٥ شخصاً إلى «الحجاز» للحج، وأنشئت المساجد واهتم الوالدان بتربية أولادهم الدينية، واعتنوا بتعليم القرآن الكريم، وارتفع عدد المصلين، فتكثرت المساجد بالمصلين يوم الجمعة، وقد تشرف أربعة أشخاص بالإسلام في «نيو كلاسل» و «جلاسكو» بدون جهد كبير، واهتدوا، وقد وجدنا في النساء في «جلاسكو»، و «مانشستر» الاهتمام بالدين والعناية بالقرآن الكريم، ويسمعن كلام الله ورسوله باهتمام بالغ.

اجتماع تبليغي في «لندن»:

عقد اجتماع للتبليغ والدعوة في «لندن»، ويكتب أحد الذين حضروا هذا الاجتماع انطباعاته عن الاجتماع في «برمنغهام»:

«عقد اجتماع التبليغ في عطلة عيد الميلاد في ديسمبر/كانون الأول في «لندن»، واشتركت فيه جماعات من «مانشستر» و «برمنغهام» و «شيفلو»، وكان عدد الذين اشتركوا في الاجتماع أكثر من مائة شخص، واستمر الاجتماع أربعة أيام، ويقول سكان «لندن»: إنه أول اجتماع عقد في «لندن» اجتمع فيه هذا العدد الكبير للدين، ويلاحظ تغيير حياة الناس، وأوضاعهم المعيشية بفضل الله وكرمه.

وقد بدأ العمل في «برمنغهام» أيضاً، وذلك بفضل تعاون رفيق مخلص للغاية سخره الله لنا بفضل، وهو شاب صالح، وقد وصل إلى «إنجلترا» أخيراً ويراوده فكر الدين ويهمه، وهو قادر على النطق باللغة العربية جيداً، وهو طالب في المحاسبة، ولم يكن لنا صديق في «برمنغهام» يعاوننا في أمور الدعوة والتبليغ، فقال له أصدقاء «برمنغهام»: أن لا يدرس في «لندن» بل يدرس في مدرسة «برمنغهام»، فوصل إليها، وسيقيم إن شاء الله في المسجد.

وكانت جماعة قد وصلت إلى «برمنغهام» من «لندن»، وكانت تتكون من أربعة: أمريكيان واثنان من «باكستان»، وهم جميعاً قضوا أربعة شهور هناك، ومعهم أمريكيان أسلموا حديثاً، وسيقيمون سنة كاملة في «باكستان» لهذا العمل، وفيهما عاطفة دينية يحسدوا عليها، وقد توجهت جماعة من «مانشستر» إلى «ليفربول»، ومن المقرر أن تسافر جماعة إلى «لندن» يوم الأحد القادم من «برمنغهام»، ويعقد الاجتماع

في «لندن» يوم الخميس وفي «برمنغهام» يوم الأحد، بين المغرب والعشاء، وقد قرر أهل «برمنغهام» أنهم سيرسلون جماعة كل شهر من «برمنغهام» إلى الخارج، كذلك تبذل الجهود لإنشاء مراكز جديدة للدعوة في «لندن»، نسألكم الدعاء لكل اجتماع ليستقر عمل الدعوة في «بريطانيا» بكاملها استقراراً كاملاً، ويزداد النشاط له، والجدير بالذكر أن الصديق المشار إليه في «برمنغهام» هو من سكان «حيدرآباد».

اجتماع «مانشستر»:

عقد اجتماع في «مانشستر» أيضاً، ويكتب أحد الذين اشتركوا فيه أن الاجتماع الذي عقد في «مانشستر» كان في غاية من التأثير والقبول ما لا يمكن التعبير عنه، وقد كان يبدو من هذا الإقبال العظيم والتأثير البالغ في النفوس إن الله تعالى سيوفقنا لعمل عظيم، ويقدر لحركتنا انتشاراً كبيراً، وإن لم يوفق الله هؤلاء العباد للهداية والرشاد فالدمار والفناء يهددهم، ولا يعصمهم من أمر الله شيء، وسوف لا تقدر الدول التي نعدها من الدول الكبرى على أن تنجو من الهلاك والدمار، ليت الذين تأثروا بهذا الاجتماع فكروا في مصير حضارتهم، وتدبروا في عاقبتهم، وفقنا الله، وقدر لنا مواجهة هذه البيئة الفاسدة.

لقد التقينا ببعض الإخوة وتحدثنا معهم الليلة البارحة، وبات معنا ثلاثة منهم في المسجد، ووصلت في الصباح جماعة من «ليوس»، وصلينا الظهر معهم، ثم شكلنا جماعات للجولة، ولما خرجت هذه الجماعات من المسجد وصل الشيخ منور حسين مع جماعة من «برمنغهام»، وذهبنا إلى الجولة، وعلمنا بعد عودتنا أن جماعة تتكون من ١٧ شخصاً وصلت من «لندن» بالسيارات، ويأتي بعض الإخوة بالقطار؛ لأنهم لم يجدوا مقعداً في السيارات، إنه اجتماع «مانشستر» الذي يشترك فيه أصحاب اللحى والحالقون ورجال جاليات وطوائف مختلفة بثقافات مختلفة منهم المسؤولون، والموظفون الكبار، ورجال الأعمال، وأصحاب المصانع، والعمال والأطباء، والمهندسون والعلماء والطلبة، والشباب والكهول والمسنون، ومنهم من جاء بالسيارة ومنهم من جاء بالقطار، ومنهم من جاء بالحافلة، لأي شيء هذا الاستعداد؟ ولماذا يحتشدون؟ ولماذا يتركون منازلهم ويلجأون إلى المساجد ويتركون فرشهم

الناعمة، وينامون على حصير المسجد، إنهم خرجوا لإعلاء كلمة الله، وتبليغ رسالته، أين الذين قالوا: لا يمكن أن يجري عمل الدعوة والتبليغ في بيئة «لندن»؟ فقد خرجت حقاً جماعات عديدة للجولة وتضرع رجالها إلى الله، وسالت الدموع من عيونهم في الدعاء.

بدأ الاجتماع بعد صلاة المغرب، وقال لنا القادمون من «لندن»: إنهم أوقفوا سياراتهم في الطريق وصلّوا حيث وجدوا المكان، وكان المارة من الإنجليز يشاهدون هذا المنظر ويقفون، ويحيّوا المصلين، كان ذلك من بركة الصلاة، فقد أعجبوا بهذا المنظر، ووصلت جماعة من «بردفورد» تشتمل على ستة عشر شخصاً وفيهم عاطفة وقادة للدين، وجاء معهم رجل صالح زاهد ورع، يلقي الدرس هناك، قال في كلمة: إنه خرج في سنتين من إقامته بهذا البلد لأول مرة، واشترك في هذا الاجتماع عدة حفاظ للقرآن الكريم، ووجدنا أكثرهم في غاية من الشوق والحنين إلى خدمة الدين، وقال لنا القادمون من «بردفورد»: إنهم يُصِرُّون على أن يقوم الإنجليز بالدعاء في المدارس باللغة الأردنية ليفهم الطلاب المسلمون ما هي المسيحية؟ وقد فتح المسلمون هناك مدارس في «لاجوس» و «ليوس»، وألقيت في الاجتماع خطب رنانة مجلجلة مؤثرة للغاية، ثم شكلت جماعات لأربعة شهور.

وكان الاجتماع موفقاً للغاية، وقد سبق أن خرج بعض المشتركين فيه في الجماعة وتأكد عزمهم الآن، وقرروا أنهم سيواصلون هذا العهد، ويزداد عدد المسلمين في «بردفورد»، وقد اشتروا بناية لإنشاء مسجد، ثم ذهبنا إلى «نيوكاسل»، وشاهدنا هناك مناظر خلافة لحماس الناس وحرارتهم للدين، وحفاوتهم به وترحيبهم، فشكرنا الله على ذلك وتضرعنا إليه، أن يوفق أكثر من ذلك من نفوس طيبة لخدمة الدين، ويتنشر نور الإيمان والدين في العالم كله، وليس ذلك على الله بعزيز، فإن الله متم نوره، ولكن الشيء الذي يهم هو أن مثلنا من الشباب يكون مصيرهم بهذا التقصير في أداء الواجب كما أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿وَلَيْتَ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾، فيسعد الله قوماً آخر لحمل هذه الدعوة «أعاذنا الله من ذلك»، ووفقنا للعمل الصالح، وجعل أعمالنا وخلقنا وسلوكنا صالحاً للبقاء.

إن هذه المدينة تبعد عن «لندن» و «برمنغهام» و «مانشستر»، ومدن معروفة أخرى، فلا تؤمها الجماعات عادة، ونحن نأسف على هذا التقصير، وقد رافقنا من «نيوكاسل» شاب اسمه شير أفضل، وقد كان خبر وصولنا إلى «كلاسكو» قد وصل قبل سفرنا، فوصل عدد كبير من الإخوة إلى المحطة، وبدأنا الجولة بعد أن وضعنا أمتعتنا في المسجد، وعقدنا الاجتماع في الليل، وكانت انطباعات الشاب الذي يقيم لتحصيل العلوم الدنيوية أكثر تأثيراً عندما قدم صورة للوضع السائد في الكلية، وكيف وجهت إليه الدعوة للخروج في جماعة عندما حضر اجتماع «لندن»، ورفضه للدعوة، ثم قبوله لها عندما أصرَّ عليه الإخوة، فسافر مُكرَّهاً، لكنه شاهد خلال سفره من الأحوال التي أثرت في قلبه، وجددت إيمانه، ووجد حلاوته، حكى كل ذلك بأسلوب مؤثر رقت له قلوب الناس، ثم قال: إنه لم يتعلم الدين في عشرين سنة مثل ما تعلم في الأسبوع الواحد، وقال: إنه لم يحضر اجتماعاً بالروحانية مثل هذا الاجتماع، وإنه متأكد وواثق أن هذا الجهد المتواضع الذي يبذل هنا يأتي بنتائج أفضل وثمار أطيب.

وبفضل هذه الاجتماعات، وتحركها انضم إلى التبليغ عدد كبير من الذين لم يكونوا مرتبطين به، ثم إنهم فرَّغوا أوقاتهم وخرجوا في سبيل الله واجتهدوا وتحملوا الشدائد في سبيله، وتجشموا الصعاب، فتغير الجو، ورسخت جذور الدعوة المحلية، ثم سافروا إلى «الهند» و «باكستان»، وعادوا بانطباعات طيبة، ويعبر عن هذه العواطف أحد الإخوة الذين خرجوا إلى الله في سبيل الدعوة:

«أنشئت المساجد بحمد الله بفضل هذه الجماعات المتنقلة من مكان إلى مكان، وأقيم فيها نظام الأذان والصلاة بالجماعة، وحيث لا توجد مساجد يبذل سكان تلك المناطق الجهد لإنشائها، ويرتفع عدد المساجد إن شاء الله قريباً، وقد عمَّ في الناس الوعي الديني، ويفكر أصحابه في وسائل إنشاء المساجد ووضعت أسس الدعوة، وتنتقل الجماعات أسبوعياً، وينصر سكان كل مكان جماعاتنا، وفي نفوسهم مكانة بهذا العمل، وهم يقدرّون هذه الجهود كثيراً، ويخرج من سكان المدن المختلفة عدد لا بأس به معنا في الجماعة وخاصة يوم السبت والأحد وهما يوما العطلة، وفي مثل

هذين اليومين يجتهد الناس، ويفرغون أوقاتهم ويخرجون معنا، وتعتقد اجتماعات، وتوجه فيها الدعوة وتستعد الناس لأربعين يوماً ولأربعة أشهر، وستخرج معنا جماعة إلى «الهند» لأربعين يوماً.

وتتضمن الرسالة الآتية التي كتبها أحد العاملين في مجال الدعوة في «إنجلترا» والطلاب الذين يدرسون فيها من البلدان المختلفة، الذين تأثروا بهذه الحركة وحدث في حياتهم انقلاب فكري وديني:

«اشتركت جماعات متعددة من المدن البريطانية، وبفضل الله تعالى اجتمع عدد من عباد الله في جو ديني لحصول رضا الله، وسادتهم السكينة وغشيتهم الرحمة، ومن الغريب أن سكان الدول التي تختلف في اللغة والثقافة وكان بعضهم لا يفهم لغة غيره، تجمعوا متضامنين متكاتفين، متعاضدين تسودهم روح المحبة والأخوة الدينية التي تفوق الأخوة النسبية والوطنية، وللتفاهم معهم استخدمت ثلاث لغات: العربية والأردية والإنجليزية، وكان الشباب منهم أكثر حماساً وعاطفة وإقبالاً على هذا العمل واهتماماً به، وذلك من فضل الله ورحمته، فإن هذه الطبقة هي التي تغزوها الثقافة الغربية وتسخرها وتسلب لبها أكثر، ويغريها الشيطان، وتصبح فريسة للإغراءات المادية، فإن حماسهم الدينية واهتمامهم بالدين يعيد إلى الذاكرة قصة سيدنا عمر رضي الله عنه.

وفي اليوم الأخير وصل طالبان صوماليان فصرفنا انتباههم إلى تضحيات أصحاب الرسول ﷺ، والواجبات التي تعود إليهم كونهم أفراد من الأمة الإسلامية والمسؤوليات الملقاة على عاتقهم.

كان تأثير هؤلاء الشباب المسلمين بسماع هذه القصص للفداء والتضحية في سبيل الإسلام عظيماً، سالت الدموع من عيونهم، وكانوا نادمين على حياتهم وحياة أمثالهم من الشباب، بل كانوا متحسرين على تقصير الأمة الإسلامية بكاملها في سبيل إعلاء كلمة الحق ونصرة الدين، وعرضوا أنفسهم لخدمة الدين ودعوته بمالهم ونفوسهم، وقالوا: هذه هي الحياة الحقيقية، ونحن مستعدون للسفر إلى أي مكان في أيام العطلة.

ومن الذين خرجوا من الاجتماع طالب في الطب، وطالب في المحاسبة، وطالب في التجربة، وطالب في البكالوريوس للهندسة، وخرج آخرون غيرهم من المشتغلين بالصناعة والتجارة، ومن «مانشستر» توجهنا إلى «بردفورد» وأقمنا يوماً واحداً، وما كنا نتوقع في الحياة الصاخبة هناك أن نتاح لنا فرصة للقاء أحد، وبعد نزولنا من الحافلة صودفنا بقاء بنغاليين، وكلام دام دقيقتين رافقانا، ثم التقينا باثنين من الإخوة العرب، وأصرّاً على أن نتوجه إلى منزلهما ورافقانا، وخرجنا من موقف الحافلات، والتقينا بشاب اسمه إبراهيم دايا السورتي، الذي يشتغل في دكان الحاج أحمد، ويعرفكم جيداً، فقد خرج في الجماعات، وعرف رجال الدعوة، التقى بنا مع عدد من رجال الدعوة الذين خرجوا في الجماعة في «بومباي»، فلما علم أننا جئنا في جماعة الدعوة والتبليغ سرّ سروراً بالغاً، وقال: كنا ندعو من ثلاث سنوات، ونتضرع إلى الله أن تأتي جماعة إلى هذه المنطقة، وقد تقبل الله هذه الدعوات اليوم والحمد لله، ثم قمنا معاً بجولة، وكانت الجولة موفقة للغاية.

«أمريكا»:

سبق في الصفحات السابقة ذكر الجماعات التي اجتهدت في «أمريكا»، ذلك البلد المتحضر والراقي الذي لا يجد فيه أي شخص فرصة ليلتقي بأحد ويسمع كلامه، ويقضي حياة صاخبة مثل الماكينة، وكيف بذلت هذه الجماعات جهوداً مضنية وتحملت الصعاب، وشقت طريقها، ومهدت سبيل الدعوة، واستلفتت أنظار الناس إليها، وكسبت ودهم بإجراء لقاءات شخصية مع الطلاب العرب، والعاملين المسلمين والمسافرين إليها، وعرفتهم بهذا الجهد الديني، وأقنعتهم بالمساهمة فيه، والتعاون معهم.

ونورد هنا بعض الرسائل التي تلقي الضوء على مراحل الدعوة والأوضاع السائدة في تلك البلاد والصعوبات والعقبات التي اعترضت في سبيل العاملين، وكيف ذلّل العاملون هذه الصعوبات، وفتحوا آفاق العمل:

«بدون قضاء فترة طويلة في جو النور الإيماني والتزود باليقين الكامل كان من الخطر العظيم، أن يدخل مثلي المقصر والمسيء في بيئة «أمريكا» اللادينية، كنت عندما أودع «دلهي» أتذكر ذلك الجو الإيماني المنعش للقلوب المرقق للنفوس

ويَهْذِبُ الأخلاقَ ويَصْفِي القلوبَ، فكانت مقتضيات الدين تمنع، والروابط الدنيوية تجذب، كان القلب يضطرب لأنني كنت أودع هذه الأجواء الإيمانية والمجالس الروحانية لعدة سنين، وصلت إلى «نيويورك» وبحثت عن الجماعة، ولكن بدون جدوى، كانت الشجون والأحزان تغمر قلبي، ولكن كان ذلك من قضاء الله، كنت أشعر في «أمريكا» بالوحشة والغربة، بل كنت أتململ تمللم السليم، كنت أشاهد مناظر المعاصي والبغي والفساد، وأخشى أن أصطلي بنارها، وأقع في الفتنة، فكنت أتضرع إلى الله وأبتهل إليه أن يصونني من هذه الفتن، فإن الذي يحرص على وقاية دينية ويذكر أنه سيحاسب يوم الدين، وإن الموت بالمرصاد، وتشكل هذه الأجواء له سموماً وإنذاراً، وأشكر الله تعالى أنه وقانا من هذه الفتن بالانتساب إلى هذه الجماعة وبركة ما بذلت من مجهود متواضع، وقضيت مدة يسيرة في مجال الدعوة والعمل، وأرجو أن توفيقه وحفظه ووقايته ستدوم لي، وتحفظني من الحياة المقبلة أيضاً، وكان فضل الله عليّ عظيماً.

وصلت إلى «مينيآبولس» (Minnia Polis) التي تبعد عن «نيويورك» حوالي ١٢٠٠ ميل، وبحثت عن المسلمين في هذه المنطقة، وأخذت عناوينهم من دليل الهاتف، واتصلت هاتفياً ببعضهم ولكن بدون جدوى، ولكني لم أفقد الأمل، ورجوت الله أن يسخر قلوبهم ويوفقهم لنصرة هذه الدعوة، وكنت وحيداً لا يشاركني أحد، حتى الصلاة كنت أؤدّيها في مكاني وحدي بدون الجماعة، وقد صليت الجمعة أيضاً ظهراً، وبعد أيام بدأنا الصلاة في مبنى الجامعة، ولكن كان سلوك المسلمين مع شعائهم الدينية كسلوكهم مع شعب حياتهم الأخرى، فقد كانت صلاة الجمعة غريبة بالنسبة لنا، فإن الذين يتبعون الدين هنا يحاولون تعديل شعائر الدين باعتبارها لا تتناسب مع الجو الذي يعيشون فيه أو يتعذر العمل عليها، فيريدون إخضاعها لطبيعة حياتهم اليومية، وبذلك تحاول الثقافة الغربية بصورة غير مباشرة غزو الحياة الإسلامية، وتسخيرها.

ومن المؤسف أن الذين يدعون المحبة للرسول ﷺ، ويؤمنون بالحساب يوم الدين، ويرجون شفاعة النبي ﷺ، ينخلدون أمام أعداء الدين، ويندمجون في

حضارتهم التي ليست إلا عبارة عن ارتكاب المحرمات، وقلة الحياء والانحلال الخلقي، والثورة على القيم، ويعتبرون الاندماج فيها والانصهار في بوتقتها منطلقاً إلى الرقي والفوز في الدنيا.

إن مناظر الخلاعة والمجون بين النساء والرجال مشهودة وظاهرة، عامة في الشوارع والحدائق والمراكب، وهذا هو مستواهم الخلقي، ويقلدهم شباب بلداننا تقليداً أعمى، ويفاخرون بما هم عليه، إنه حديث ذو شجون، يشجي القلوب ويسيل الدموع، على حياة المسلمين في هذه الديار، فأرجوكم الدعاء لي خاصة أن يحفظني الله من فضله، ويرزقني الاستقامة والسلامة، والارتباط بالدعوة لدينه وللمسلمين عامة لأن يردهم الله إلى دينه رداً جميلاً.

يلتقي الطلبة المسلمون يوم الجمعة ويؤم كل جمعة شخص، ولا يزيد عدد الطلبة على خمسة عشر طالباً، وإني أعيد الصلاة، وأصلي الظهر بعد صلاة الجمعة ونرجوكم أن ترشدوني في هذه المسألة.

منذ بضعة أيام نصلي بالجماعة مع أحد رفقائي من الهنود، إلا أن نظام اللقاءات لا يجري كما يرام لانشغال الناس بأعمالهم، فلم أوفق في هذا المجهود وأعترف بتقصيري وضعفي واستكانتي، ولكنني واثق بأن الله سيسهل هذه المهمة أيضاً، ولا أزال متفائلاً فيها أنتهز كل فرصة واثقاً ببركة العمل الديني وتأثيره على الحياة، أن فيه وقاية النفس من الفتن، ففتح الله باباً بالتعرف على طالبين مسلمين يوم الجمعة مساءً، أظهرهما استعداداً لهذا السعي، أحدهما من «مصر»، والثاني من «زنجبار» (شرقي أفريقيا) والأول طالب في ماجستير الهندسة، والثاني طالب في بكالوريوس في التاريخ الإسلامي والأمريكي، وكلاهما ذو عاطفة وقادة، وحماس ديني، ويساعداني مساعدة كاملة، وقدمت إليهم نبذة يسيرة عن نشأة هذه الحركة في «الهند» وانتشارها فيها، ووصولها إلى خارج «الهند»، بمجهودات متواضعة وإقبال الناس عليها، فأعربا عن تقديرهما وإعجابهما بهذا المجهود وأهمية الاشتراك فيه، وقالوا: في الحقيقة إنه لمن واجبنا، وواجب كل مسلم، أن نجعل هذا الواجب الأعلى لنيابة الرسول ﷺ أهم مسؤوليات حياتنا وأن نفتدي بحياة الرسول ﷺ، ونجعل سيرته أسوة لنا، لنكسب

الفوز الدائم ونجتهد لترويج هذه الحياة الطيبة التي فيها نجاح الدنيا والآخرة في العالم كله، ولا نألو فيه جهداً، وأن هذه الحياة لم تأتِ إلى الوجود بدون تضحيات، وأن تضحيات أصحاب الرسول ﷺ تنادي اليوم الشباب المسلم ليضحى ويقاوم أهواء النفس وسيل الشهوات.

وقد أعدنا برنامجاً للقاء الشباب المسلم الذي يبلغ عدده السبعين أو الثمانين طالباً كل يوم أحد مساءً لساعتين، ويوم الجمعة ساعة واحدة. وقد التقيت اليوم بطالب اسمه قطب شيخ، وهو يدرس هنا منذ خمس سنوات، وجرى الحديث بيننا حول الإيمان والصلاة، والخلق الإسلامي، فأعرب قطب شيخ عن استعداده لتفريغ ليلة واحدة كل شهر، وذلك من فضل الله، وهو مقلب القلوب، وهو يتقبل المجهود المتواضع، ووافق أربعة أشخاص على حضور الصلاة يوم الاثنين والأربعاء والجمعة والسبت في الظهر والعصر والمغرب بالجماعة، ونعد البرنامج للصلوات الأخرى، ولبعد المسافات لم نوفق في جمع الناس إلا لهذه الأوقات، ويجري الجهد لتأدية الصلوات الأخرى بالجماعة، وإني في هذا المجهود أتابع ما سمعت منكم أن الظروف مهما كانت غير مساعدة، وأن الجو مهما كان معارضاً للدين ومنافياً لتعاليمه، فإن الطريق الوحيد للاحتفاظ بالإيمان والإسلام هو الدعوة إلى الله، وإني أعترف أنني لم أكن أعرف قيمة هذا العمل ولم أبذل الجهد الذي كان يليق بي في «الهند»، ولم أقدر هذه النعمة، ولم أفرغ من أوقاتي ما كان يجب عليّ، ويبعث هذا الشعور على الحسرة واليأس والندامة، وبناءً على هذا الشعور أنصح كل من يأتي إلى هذه البلدان المادية للأغراض الدنيوية، أن يعدّوا أنفسهم أولاً لكيلا يذبلوا في هذا الجو الفاسد، وخير طريق لهذه المناعة الذاتية قضاء فترة في الدعوة، ويواصلوا هذا المجهود بعد وصولهم إلى هذه البلدان، وبذلك يمكنهم أن يحافظوا على إيمانهم وأعمالهم.

وغادرت «كراتشي» في ٢١، ووصلت إلى «لندن» في اليوم الثاني، ووقفت الباخرة في «طهران» و«دمشق» و«روما» و«جنيف»، ورغم الصعوبات أدينا الصلاة في الباخرة بالجماعة، وقمت بالدعوة في عدة مساجد بـ «لندن» بعد الوصول إليها، وغادرت «لندن» في ٢٣ ونزلت في «نيويورك» في اليوم الثاني في الساعة العاشرة،

واستقبلني أمير الجماعة في «لندن» على المطار. هذه مدينة السيارات تنتشر السيارات، وتتراحم في كل مكان كحشرات الأرض التي تنتشر في أيام المطر، وقد نزلنا في أحد المباني التي يملكها المسلمون، وهو ذو أربعة طوابق، وتقع على شاطئ نهر هدسن في منطقة عامرة جميلة، مزدانة بالمناظر الخلابة، وفي المبنى جميع مرافق الحياة، وحتى صالة للصلاة، وقد اشترى هذا المبنى الإخوة الأمريكيون الذين في الجماعات، إنهم يلاقون الحفاوة والإكرام من الهنود خلال زيارتهم لـ «الهند» و «باكستان»، ولكنهم لا يستطيعون أن يضيفونهم في زيارتهم لـ «أمريكا»، فتشاور الإخوة العاملون القادمون من الدول المختلفة، وجمعوا المبلغ واشتروا هذا المبنى بنصف مليون دولار، وجعلوه مركزاً للتبليغ.

وفي صالة هذا المبنى يعقد الاجتماع كل يوم خميس، وقد تعرف سكان هذه المدينة من المسلمين على عمل الدعوة، وهم الذين يسرون نظامها بمسؤولية كاملة، ويقومون بالجولة مرتين في الأسبوع، ويجتمعون يوم الأحد أيضاً، وفي المساء يتعلم الشباب القرآن الكريم، ويدرسهم مقرء من «لاهور» متطوعاً، ونحن أيضاً نساfer حوالي عشرين كيلومتراً للقاء الإخوة وعرض الدعوة عليهم، نحن نتعشى في هذه الأيام مع السحور؛ لأننا نعود متأخرين بالليل، فلا فرق بين النهار والليل هنا للسكان المحليين فإنهم يشتغلون ليل نهار، وفي منتصف الليل نشاهد آثار الحياة وتحرك السيارات أكثر من شارع «مال» في «لاهور» في النهار، إلا أن الهدوء يسود نوعاً ما في الصباح الباكر. إن الناس هنا أذكاء عقلاء فطينون في أمور الدنيا، لكنهم أغبياء في أمور الدين يجهلون يوم الآخرة، أما الموت فلا يخطر ببالهم، فلا يعرفون إلا إمتاع أنفسهم ليل نهار لكسب المال، ويتمتعون في الليل، ويضيعون أموالهم التي كسبوها بإجهاد أنفسهم في الملذات، ويبلغ هذا الإقبال على حصول الملذات يومي السبت والأحد ذروته، يتقدمون بخطى واسعة في كل ميدان من ميادين الحياة، وعلى ذروة الكمال، لكنهم منصرفون كلياً عن كل ما يتصل بالآخرة.

ويقول الذين يعارض تفكيرهم عمل الدعوة: إن هذه البيئة تؤذيهم، كأنهم على الأشواك أو على آجر من جمر، وتراودهم أحلام الحياة في البيئة الإسلامية، فلو كان

في إمكانهم لهاجروا إلى الدول الإسلامية، وقد دخل عمل الدعوة في دوائر النساء، ونشأ فيهن حب العمل في مجال الدعوة، وتقام لهن حلقات دينية، ويقود هذه الحركة الأمريكيون الذين سافروا إلى «باكستان» في الجماعة، وتعرفوا على هذا الجهد، ومن الجالية الألمانية الأمير عبد الرشيد الذي ينتمي إلى الجنس الأبيض، وقد قضى سنة كاملة في «باكستان»، بوجهه النوراني، واتباعه للسنة ومواظبته على الصلاة بالجماعة، وله نشاط بالغ في مجال الدعوة، ويسعى إلى توسيع دائرة التبليغ، ويدعو الناس إلى تفرغ أوقاتهم، وكذلك والده صالح متورع وقد تشرف بالإسلام في «كلكتا» قبل مدة طويلة على يد أحد عباد الله الصالحين، ولحبه للمشتغلين بالدعوة يكرمني كثيراً، ويعتني بطعامي وسكني عناية بالغة، ويأتي كل يوم بأشياء عند الغداء، وهذا سلوك غريب في هذه البيئة المادية التي لا يهتم بها أحد إلا بنفسه، ولا يتصور هنا أن ينفق أحد فلساً واحداً على غيره وإن كان قريباً، ولا توجد هنا عادة الضيافة وإكرام الضيف، ومما يؤسف له أن الشباب من بلداننا يتسابقون إلى تقليد هذه الحياة بشغف بالغ ويضيعون قيمهم ومزاياهم.

بدأ عمل التبليغ يروج وينضم إليه الشباب الجدد كل يوم، ويتعلمون الدين بشغف بالغ، وحماس كبير، ويسعون إلى دعوة غيرهم إليه، وكثير منهم يرافقوننا أربعاً وعشرين ساعة، ويقولون: إن بلدكم هو البلد الوحيد الذي انطلق منه هذا المجهود الديني، وسارت فيه دعوة العمل، وسافر من أجلها الإخوة إلى الخارج، فإن آفاً من الإخوة المسلمين يقصدون هذه البلدان من مختلف بلدان العالم، لكنهم لا يعرفون ما هو واجبهم الديني، فلا يعلموننا الدين بل أكثرهم تركوا اتباع تعاليم دينهم أنفسهم، ولأجل ذلك أنهم يعترفون بفضل بلدنا، ويشيدون به، ويتمنى كل شاب أن يزور ذلك البلد قريباً، ويتعلم الدين هناك ثم يعود إلى بلده، وإن عاد عاد كداع، وحامل رسالة، نسأل الله أن يجعلنا عند حسن ظنهم، ويسرّ في بلادنا وسائل تعلمهم للدين وأتاح لهم الفرص لذلك.

وقد بلغ من هؤلاء الشباب حب الدين وتقدير الدعاة إليه أنهم يأتون أحياناً بأصدقائهم من غير المسلمين ليعرفوهم بدعوتنا، وبفضل الله وكرمه يتأثر هؤلاء

الضيوف من غير المسلمين بالدعوة، ويعودون بانطباعات حسنة، إن دعوة غير المسلمين ليس من ضمن اهتمامنا في هذه المرحلة، وليس فينا استعداد علمي لتحمل هذه المسؤولية، ولا تتوفر هنا فرص لانتشار أتباع دين محمد ﷺ، ولكننا نعتقد أن المسلمين أنفسهم إذا لم تتغير حياتهم، وتسير على المنهج النبوي ولم تغفل التعاليم الإسلامية في حياتهم وسلوكهم، فإن دخول غير المسلمين في دين الإسلام لا يغير من حياتهم، فيجب علينا أولاً أن نحدث في المسلمين الشعور بالمسؤولية ونوقظهم من سباتهم، ونخرجهم من غفوتهم، والحمد لله على وجود آثار هذه النهضة في حياة المسلمين وازديادها، فلو استمر هذا المجهود ونشأ مجتمع إسلامي صحيح ممثلاً للتعاليم الإسلامية، لظهرت نتائج مشجعة ولحدث انقلاب في مسار الحياة، فتوجه كل مساء إلى المسلمين، ونلتقي بهم في بيوتهم.

ولبعد المسافات تستغرق هذه الرحلات وقتاً طويلاً، ونجمع بين صلاة الليل والعشاء، ونشكر الله على أننا نحيا الليالي من أجل الدعوة، ويحزننا كثيراً عندما نشاهد أن الرجال يخرجون في الليل مع سيدات بيوتهم، ويختلط الرجال والنساء بدون أي تمييز وبدون الحياء والشهامة والاحتشام، وقد أفسد ذلك المجتمع كله وعمَّ الانحلال الخلقي، وفي ذلك درس وعبرة للجميع، أعاذنا الله منه، ووقانا من غضبه.

إننا نلاحظ التحسن في حياة المسلمين هنا، لتغيرهم عما كانوا عليه، وقد شمل الوعي النساء أيضاً، فهن يعقدن حلقات أسبوعية للتعليم الديني، وتتغير حياتهن، ويزداد فيهن الاهتمام باتباع الشريعة، وترك المنكرات، ويدخل الصلاح فيهن الشوق إلى الحج قريباً والسفر إلى «باكستان» لتعلم الدين، ونحن بدورنا نعدّ الشباب لتشكيل جماعات للدعوة في المناطق المجاورة، وقد رافقنا في الأسبوع الماضي عشرة أشخاص وقمنا بجولة في «فيلادلفيا» (Philadelphia) على بعد مائة ميل، واليوم تأتي جماعة إلى «نيويورك» من «فيلادلفيا»، وسيساعد ذلك الجهد الديني على توثيق الإيمان والعمل الصالح، ويؤدي إلى صلاح الدنيا والآخرة، والفلاح الروحي مع الفلاح المادي. ومن الغريب أن المسلمين هنا حريصون على بناء المساجد والمدارس ويسعون إليه، لكنهم غير مهتمين بتعمير المساجد والمدارس، ولذلك تواجه المساجد

إهمالاً، وتبقى مغلقة، إلى يومي الجمعة والأحد، ولكن تنقل الجماعات قد أدى إلى إبقاء المساجد مفتوحة وعامرة لإقامتها فيها، وعقدتها حلقات التعليم.

يشتغل الرجال والنساء والأطفال إلى ساعات متأخرة من الليل، باللغو والمجون والرياضة، وفي النهار يشتغلون بأعمالهم كل الاشتغال منصرفين عن كل شيء آخر، ويتعبون أنفسهم، ثم يروّحونها باللغو واللعب في الليل، وهذا هو منهج حياتهم اليومية، شغل مضنٍ، ولهو ملهي، وقد فاقوا بمخترعاتهم وصنائعهم التي تبهر العيون ولكنهم في أمور الدين والآخرة غافلون، ويبدو من سير حياتهم أنهم لا يذكرون الموت، وأن حياتهم لا غاية لها، وقد بلغ الاختلاط بين النساء والرجال حداً يصعب التمييز بينهما، ولا فرق بينهم وبين الحيوانات، وسيطرت الخلاعة والمجون على الحياة سيطرة تامة، فذابت القيم الإنسانية، والمثل الخلقية فيها، وتلاشت كلياً، وقد فقدت المشاعر الإنسانية والقيم الخلقية التي تفرق بين الإنسان والآلة والبهائم والإنسان، أعاذنا الله منها ووقانا من سمومها، وقد عمّ هذا الوباء وطمّ هذا السيل، ولا يشعر بهذه الخسارة الخلقية إلا بعض النفوس، ولكن الله بفضله ونعمته يهدي الناس في مثل هذه البيئة الفاسدة وتشع أشعة النور الديني في هذا السبيل المؤلم من الانحلال والضلال.

إن موضوع عملنا المسلمون وحدهم، وقد جئنا لإصلاح شؤونهم، وإحداث الشعور بالحياة الإسلامية الصالحة، ولا نخوض أوساط غير المسلمين، ورغم ذلك يأتي كل يوم عدد من غير المسلمين، ويستفسرون عن الإسلام وأحكامه، وهكذا تشرف ثمانية أشخاص بالإسلام، ويبدو من كلامهم أنهم كانوا متدمرين من دين آبائهم، وقد جلس في مجلسنا مسيحي مع أصحابه المسلمين كمتفرج يوماً، وظل يسمع أسئلة أصحابه عن الإسلام نصف ساعة، ثم برقت عيناه، وقال: هذه الشبهات تراودني عن دين المسيحية، فإني أكره الذهاب إلى الكنيسة، ولا تعجيني الخطب التي تلقى فيها، وإني أفكر وأبحث عن الحق في غرفتي ساعات، وأدعو الله أن يهديني إلى سواء السبيل، وقد اكتشفت الحقيقة الآن، وأسلم وسمّي بعبد الرحمن.

هكذا راجعني شاب آخر يبحث عن الإسلام، وقد يش من أماكن أخرى ولم

يقنع وتشرف بالإسلام، ثم لازمني مدة ليتعلم الإسلام، وكان ذكياً ونشطاً للغاية، ووجدت أن عدداً كبيراً من الناس هنا يريدون أن يفهموا الإسلام ويتعلموا تعاليمه، ولكن لا يجدون من يروي غليلهم، والذين يدخلون الناس في الإسلام عادةً ويعلمونهم كلمة الإسلام يتقاضون أجره على ذلك، ولا يحسنون ذلك العمل، — رحمهم الله وهدهم —، فإن ألفوا من المسلمين من الدول الإسلامية يعيشون هنا لأغراض مختلفة لكنهم يعانون من مركب النقص، أو أنهم مشغولون عن عمل الدعوة، غافلون، ولا يهتمهم إلا التمتع بالحياة، فلو وجد هؤلاء الناس رجلاً يمثل الإسلام حقيقةً، ويشفي غليلهم لتهافت الباحثون عن الإسلام عليه، واهتدى على يديه مئات الألوف من الناس، ولكن ازدياد عدد المسلمين لا يجدي نفعاً إذا كانوا غافلين عن الإسلام، إن الشيء المطلوب هنا هو أن يكون المسلمون مسلمين حقيقة وبالمعنى الصحيح، متبعين لتعاليم دينهم، فلا بد من العمل في أوساط المسلمين أنفسهم لتربيتهم تربية دينية، وتوجيههم إلى الإسلام الحقيقي وتزويدهم بالإيمان واليقين ليكونوا أسوة لغيرهم، فهم يريدون أن يشاهدوا الإسلام في الحياة، إن الإسلام يحمل تأثيراً مغنطيسياً، وتحمل حياة الرسول ﷺ جاذبية قوية، تميل إليها النفوس، وتُسخر القلوب، فعلينا أن نقتدي بها، ونتبعتها اتباعاً كاملاً.

غادرت جماعتنا «واشنطن»، ووصلت إلى «بيتس برغ» (Pitts Burgh)، وهي مدينة واقعة على التلال الرفيعة، وتشتمل على مصانع الصلب، وفيها عدد كبير من العمال المسلمين الذين أنشأوا غرفة للصلاة، ولذلك نزلنا في هذه الغرفة، ووجدنا في النساء هنا نسبة التعليم أرفع بالنسبة منها للرجال، ولذلك يكتسبن أكثر مما يكتسب الرجال، وهن اللاتي اشترين مبنى للصلاة، وإدارة هذا المسجد في أيديهن، وقد خرج شخصان من هذه المدينة في السنة الماضية في الجماعة، ثم عادا بعد تأدية الحج والزيارة، وتوفي أحدهما في الطريق، ففاز ونال السعادة الحقيقية، لكنه ترك فراغاً كبيراً، فقد كان إماماً وخطيباً وداعياً، ولم يكن هناك من يخلفه، فتوقف عمل الدعوة، ونشأت خلافات في صفوف المسلمين، وقد بذلت جهدي أسبوعين لتوحيد صفوفهم وإزالة خلافاتهم، ولكن لم أوفق في ذلك، والأمر بيد الله، فتوجه كل يوم مساءً إلى بيوتهم، ونعقد اجتماعاً، يشترك فيه الرجال والنساء بشوق بالغ، ولما

سمعت النساء عن الحجاب وضرورته، اخترن لباساً مثل الحجاب يستر الجسم كله إلا الوجه، وتأتي النساء في هذا اللباس في الاجتماع والصلاة، وإذا أنت امرأة في الزري الأوروبي تغطي ساقها العاريتين بقماش.

وذات يوم جاءت امرأة أسلمت حديثاً بأخيها غير المسلم، فتحدثت إليه فأسلم، ويأتي كل يوم ليتعلم الإسلام وسيكون نافعاً للعمل هنا، وفي اليوم الأخير جاء ثلاثة أمريكيين من الجنس الأبيض، وناقشوا عن الدين عدة ساعات، وكانت فيهم فتاة شابة زوجة أحد الباكستانيين، وكان زوجها يريد أن تُسلم هي، وكانت يهودية، وجرى الكلام طويلاً وحاولت إقناعها لكنها لم تقنع، وقالت بصراحة: لم أقتنع بعد، وكنت مهموماً بذلك فهداني الله إلى نكته، قلت لها: هذه بذرة صغيرة، لكنها تكون شجرة طويلة باسقة مثمرة بشرط العمل، فإذا قال أحد: إنه سينشر مثل هذه البذور في أرضه فتتحول هذه الأرض حديقة غناء ذات أشجار مثمرة وظلال كثيفة، كان لا بد أن تستصلح الأرض، وتروى بالمياه وتلقى فيها المخصبات، فنقول كذلك: عليك باليقين أولاً، وغرس شجرة الإيمان في القلب وتروية القلب بالعمل الصالح فيحل الربيع، فاقنعت المرأة، وقالت: علي أن أؤمن أولاً ثم أعمل، ثم يتولد اليقين، فقلت: نعم، عليك أولاً بكلمة الشهادة، ثم تذوقين حلاوة الإيمان، فقالت: سوف أفكر.

— فلما كنت أستعد للسفر في اليوم التالي اتصل بي زوجها هاتفياً، وقال لي: انتظر فإنها مستعدة للتشرف بالإسلام، فجاءت وأسلمت وسَمَّيناها طاهرة، وقد استبشرت، وظهر نور الإيمان على وجهها فور ترديدها لكلمة الإسلام، وانشرح قلبها كلياً، فاستفسرت عن تعاليم الإسلام والأعمال والواجبات الفردية والجماعية بشوق ورغبة واهتمام، وقال الأخوان اللذان رافقها: إنهما يؤمنان بهذه التعاليم، ويحرصان على اتباعها، وخرج معنا هذان الأخوان في الجماعة، وقلنا للنساء أن يعقدن اجتماعهن بعيداً عن اجتماع الرجال، وعندما كنا نغادر وجدنا آثار الحزن على وجوه المودعين، واغرورت عيون بعض الإخوة الذين رافقونا في أكثر الأوقات، وقدموا هدية الفواكه، وقد أثقلوني بالفواكه، وذلك فضل الله وبركة هذا العمل، إن حياتهم تغيرت في وقت قصير، وبمجهود متواضع، وخلق الله في القلوب المحبة والألفة،

فتألفت القلوب، وإلا فإن البيئة التي يعيشون فيها لا تعرف المحبة، والألفة ولا الإخوة وإنما تعرف المصلحة وتؤمن بالمادية.

وصلنا إلى مدينة أخرى وفيها خمس مائة فلسطيني ويمني، لكنهم نسوا الإسلام ويعيشون حياة غير إسلامية، ولم نجد محلاً للإقامة، وبعد بحث عن مكان للإقامة لعدم وجود المساجد يسّر الله أمرنا، جاء فلسطيني وعرض علينا بيت أخيه، كان مسافراً فنزلنا فيه، وجمعنا الإخوة العرب، وتحدثنا إليهم، وذكرناهم تاريخ آبائهم، وما قدموه من تضحيات في سبيل الله، ونشروا الإسلام في العالم كله، وقلت لهم: أنتم من ذرية السابقين إلى الإسلام الذين نشروا كلمة الحق في العالم كله، فمسؤوليتكم كبيرة، أنتم تستفيدون في هذه البلاد مادياً، فعليكم أن تفيدوها دينياً وروحياً، خذوا منها ما يتوفر لديها، وأعطوها ما يتوفر لديكم، وما أكرمكم به من نعمة الإيمان، فثارت قلوبهم بسماع هذه الكلمة، وأبدوا عزمهم على القيام في عمل الدعوة، وعقدنا اجتماعاً للعرب وغير العرب من المسلمين، وكان ذلك لقاءً بينهما، فسّر الجميع بهذا التآلف، وقالوا: كنا نحلم بهذا اللقاء منذ مدة طويلة، وقد تحقق هذا الحلم اليوم، وسن عقد الاجتماع كل أسبوع، وننظم أيضاً صلاة الجمعة، وحضر معهم شخص غير مسلم أيضاً، وأبدى رغبته في قبول الإسلام.

وصلنا إلى منطقة «بوفالو» (Buffalo)، وقد اشترى المسلمون هنا مبنى ذو أربعة طوابق لإقامة المركز الإسلامي، ويوجد في هذه المنطقة أيضاً عدد كبير من المسلمين العرب وغير العرب، وكان العرب أكثر قبولا لهذا العمل واستجابة له، وفي اليوم التالي لوصولنا كان عيد المولد النبوي الشريف، فاجتمع العرب للاحتفال بهذا اليوم، فانتهزنا فرصة الدعوة، وعرضنا عليهم المطالبة بالخروج في سبيل الله، فوعد كثير منهم، وطلبنا من المسلمين الآخرين أن يشاركوا العرب، ويحددوا يوماً في الأسبوع، وقد وعد اثنان من سكان هذه المنطقة أن يسافرا إلى بلدنا في سبيل الدعوة، وبقرّب من هذه المنطقة تقع قرية أغلبية سكانها من المسلمين، فتوجهنا إليها، وجمعنا سكانها في اجتماع حضره رجال ونساء وأطفال، فكان ذلك بمثابة العيد لهم، كانوا مسرورين للغاية بأن وجدوا فرصة لتعلم الدين، وجرى الحديث ساعتين،

فقالوا: نحن نريد تعلم الدين، لكن لا نجد من يعلمنا، ولا تتوفر هنا الكتب الدينية، ولعدم وجود من يعلم المسائل لا يعرف المسلمون هنا مسائل الطهارة والصلاة، فكانوا يسألونني عن هذه المسائل الأساسية، وأخبرتهم من أين يمكنهم الحصول على كتب المسائل، وأقنعت مسلمي «بوفالو» أن يأتوا إلى هذه المنطقة كل شهر ليعلموهم مسائل الدين، فلو تحمل الهنود والباكستانيون هذه المسؤولية لارتفع مستوى المسلمين وتعلموا كثيراً من أمور الدين، وكان لذلك أثر طيب على غير المسلمين أيضاً.

وذهبنا إلى «كليولاند» (Cleveland)، وقد زار إمام هذه المنطقة الشيخ ولي الأكرم بلادنا، ولم نستطع هنا أن نقيم في المسجد، وقد خلى أحد الإخوة منزله لنا، وأرسل أسرته إلى أحد أقربائه، لنقيم فيه، وذلك أمر غريب في هذه البيئة، فإن الناس لا يعرفون الضيافة ولا يعتبرون إكرام الضيف وإسكانه من واجباتهم، وليس ذلك إلا من بركة هذا العمل إنهم أكرمونا وأبدوا الخلق الإسلامي، وقد شيد الشباب مسجداً للصلاة، وتلقى فيه الدروس العربية، ويعرض الإسلام على غير المسلمين الذين يحضرون الدروس الإسلامية، وقد اشتركنا فيها، وخاطبنا غير المسلمين، وقد وعد اثنان من الشباب زيارة بلادنا هذا العام، وفي العام القادم أربعة، وتذهب جماعة من هؤلاء الشباب إلى «ديترويت» (Detroit) لثلاثة أسابيع.

«ديترويت» ١٩ / أكتوبر / تشرين الأول:

انقضت ثلاثة أسابيع، ولكننا لم نستطع أن نغطي ثلث البلاد. زرنا يوم الجمعة الماضي «لندن» في «كندا»، وعلمنا أن أكثر من مائة من العرب، ومهاجري «يوغوسلافيا» يعيشون في هذه المنطقة، ولهم طموح وهمة عالية، وقد أنشأوا مركزاً إسلامياً بأربعين ألف دولار، واشتروا مبنى للمسجد، ولقيت منهم كل حفاوة ومحبة وتقدير لهذا العمل، وأبدوا عزمهم على الاشتراك فيه وإن كان عددهم في السكان قليلاً لكنهم نشطون، وزرناهم في منازلهم فأكرمونا، ووعد اثنان منهم بزيارة بلادنا. وستوجه في الأسبوع القادم إلى «كاليفورنيا» و«شيكاغو»، وتغطي هذه الرحلة ألفي ميل، ويرافقنا أمريكي أسلم حديثاً، وسنقوم بهذه الرحلة في سيارته، ومساحة سفرنا

في هذه البلاد من الساحل الشرقي إلى الساحل الغربي حوالي ثلاثة آلاف ميل، وعندما ألقى نظرة عليّ وعلى هذا السفر الطويل أتعجب، وأتيقن أنه من بركة عمل الرسول ﷺ، والانشغال بعمل دعوته سعادة كبيرة، وكل ما قدر لي من السفر أقوم به، وذلك من فضل الله ومَنه، أن يتقبل نفسي ومالي لخدمة دينه.

مدينة «ديترويت» معروفة بصناعة السيارات، قد نزلت هنا في أحد المساجد، وتعلم ثلاثة من الإخوة من هذه المنطقة عمل الدعوة في بلادنا، ولذلك يعم جو الدعوة هنا، وتجري اللقاءات كل يوم وقد ذهبت بجماعة محلية إلى «توليد» على بعد ستين ميلاً، وفي هذه المنطقة عدد ملحوظ من العرب، وقد شيدوا جامعاً كبيراً، وأنفقوا عليه الألوف من الدولارات، ولكنه يفتح يوم الأحد فقط، ودعوت هؤلاء العرب إلى الاشتراك في الدعوة المحلية والدعوة الخارجية.

وفي الأسبوع الثاني ذهبت إلى «دربون» (Derbon)، وتوجهت إلى المسجد الجامع، ويعيش حول المسجد حوالي عشرة آلاف من العرب، لكن الغفلة تسودهم، فلا يحضر صلاة الجمعة إلا ستة أو سبعة أشخاص، ويبلغ هذا العدد يوم الأحد عشرة أو اثني عشر شخصاً، فقامت بجولة دعوية في حيّهم، ووجهت إليهم الدعوة، وسعيت فيهم، وعلمت خلال إقامتي أن جنازة ستأتي، فكنت أستعد لصلاة الجنازة، ولكن أُخبرت أن الجنازة توضع في المسجد اليوم ويصلى عليها غداً، وجاء رئيس المراسم بأوراق الشجر، والزهور، ثم بالشموع الملونة وزين المكان بها، ثم أتى بتابوت جميل، ووضع جثمان الميت ملفوفاً بالحريز، وفتح وجهه، وغطي بقماش رقيق غير ساتر، ووضعت عدة كراسي حول التابوت ليأتي الناس للعزاء، وبعضهم يتلوا القرآن الكريم، ويسجلون أسماءهم في دفتر وضع قريباً منه، وبعد أربع وعشرين ساعة أديت صلاة الجنازة، ثم أُخرجت الجنازة على سلم جميل من المسجد، ووضعت في سيارة خاصة، وسارت سيارات المشيعين للجنازة، وأنزل التابوت في صندوق عادي في المقبرة بالآلة، وعلمت أن الذي يموت يستخرج دمه، ويطلق بطلاء خاص، ويزين وجهه بالمكياج ليبدو كأنه حيّ يرزق، وقال أقرباء الميت: إن هذه الإجراءات تكلف عدة آلاف من الروبيات، وهذا إذا كان متوسط المستوى، وإلا فإن الناس يبالغون

فيه، ويجري التآيين، وتؤدي هذه الأمور شركات خاصة، والموت هنا غال، ويقع الفقراء وأصحاب الدخل المتواضع بسببه في صعوبات كبيرة.

امتدت إقامتنا في «ديترويت» إلى شهر كامل، وقد أعانني سكان هذه المنطقة وساعدوني كثيراً، كانوا يجتمعون في كل يوم بعدد كبير، ووعد عدد كبير منهم بزيارة بلادنا، ومن هنا توجهنا إلى مدينة «شيكاغو» وهي المدينة الكبرى الثانية في «أمريكا»، ولا يوجد فيها مسجد، ولذلك نزلت في فندق، وقد جهز المهاجرون من «يوغوسلافيا» أحد غرفهم لتأدية الصلاة فيها، لكنها تفتح يوم الأحد فقط، وقد شاهدت هنا مناظر بشعة لحياة الأمريكيين، شاهدت كيف تقع أمة فيها ذكاء وفطنة في المهازل والمخازي، وكيف تنحط إلى منزلة الحيوانات بل أضل منها، ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾.

شكل أحد الإخوة العرب جمعية تهتم بتدريس اللغة العربية والقرآن الكريم يوم الأحد في قاعة اكتُريت لهذا الغرض، وعرضت على المحاضرين الدعوة، فوافق اثنان منهم على زيارة بلادنا لتعلم هذا المنهج.

ومن غريب ما شاهدت في «شيكاغو»، أنها «قاديان أمريكا»، فيها شخص يدعي النبوة، اسمه عاليجاه محمد، وهو يرأس منظمة فعالة منتشرة، يبلغ عدد أتباعه أكثر من مائتي ألف وهم من السود، وهم يقولون: إنهم مسلمون، لكنهم مسلمون اسماً فقط، وفيهم عصبية شديدة ضد البيض، يعتبرونهم أولاد إبليس، إلا أنهم يهتمون بالذبح على الطريقة الشرعية، ولا يشربون الخمر، كذلك نساؤهم، فيهم الحشمة والوقار ولا يدخلون أطفالهم إلى المدارس الرسمية بل يديرون مدارس خاصة بهم، فتوجد في «شيكاغو» مدرسة كبيرة باسم جامعة الإسلام، وتسمى معابدهم بمعابد محمد الإسلامية وفيهم الدعوة، وقد زارني يوماً أحد دعائهم لعرض الدعوة عليّ، فلما شرحت له ما هو الإسلام الحقيقي تعجب، ويش مني.

وقد أجرى عليجاه محمد إصلاحات في حياتهم الاقتصادية، ولكراهية الجنس الأبيض التي تعم الجنس الأسود يحبه السود ويتبعونه، ويظهر أحياناً ويسحر الناس بعمليات غريبة، وهو معارض للحكومة أيضاً، ولذلك يحرسه رجال الشرطة،

والمسلمون يعارضونه، إلا أن بعض السذج من الباحثين عن الحق يقعون فريسة له، يذهبون إليه باعتباره قائد المسلمين، ثم يأخذهم اليأس عندما يسمعون كلامه، ويبحثون عن حقيقة الإسلام. وقد راجعني عدد من أمثال هؤلاء الشاردين، وعرضت عليهم الإسلام الحقيقي، فأسلموا، وقد أسلم أحد دعائهم على يدي في «نيويورك»، وتعلم الإسلام والدعوة، وصار من الدعاة المتحمسين، وأرجو أنه سيخرج الكثيرين من هذا الضلال.

يقوم أحد رجال الأعمال العرب بإنشاء مسجد بنفقاته الخاصة على بعد ثلاثين ميلاً من هنا في منطقة تعرف بـ «جيرال»، وقد قضيت فترة في هذه المنطقة، ووجهت الدعوة إلى المسلمين القاطنين فيها وجئت إلى «سيداريد» من «شيكاغو»، وهنا مسجد شيده العرب، وهو أول مسجد في «أمريكا»، ولكن الصلاة تقام مرة واحدة في الأسبوع؛ لأن الأمريكيين لا يجدون وقتاً للعبادة لاشتغالهم الدائم، والشغل عذاب من الله على الأمريكيين، ومن هنا توجهنا إلى «كاليفورنيا» بالسيارة وهي تبعد ألفاً وثمانين مائة ميل، وكان الثلج يسقط، وأدينا صلاة الظهر والعصر والمغرب في الثلج، وقضينا الليالي في الفنادق، وانتهت هذه الرحلة في أربعة أيام، ومررت فيها بجبال مغطاة بالثلج، وتوضأنا بماء الثلج وأحياناً كنا نواجه سدود الثلج التي تمنعنا من المضي قدماً، فكانت الآلات تستخدم لقطع الثلوج، وشق الطريق، ورغم هذه الموانع كان الطريق مزدحماً إلا أن المرور كان منظماً، طريق للذهاب، وآخر للإياب، فلو لم يكن هذا التنظيم الدقيق لحركة المرور لكان السفر مخيفاً، ومحفوفاً بالمخاطر.

وصلنا إلى «سكرامنتو» (Sacramento) حيث أنشأ الباكستانيون أعلى وأوسع مسجد في «أمريكا»، ونزلنا في المسجد، وكان المنظر جميلاً للغاية تحيط به حدائق ذات بهجة، والمسلمون منتشرون فيها، فالتقينا بهم وذكرناهم بمسؤولياتهم كمسلمين، ووضعت لهم برنامجاً للتعليم، ومن الغريب أن عددهم قليل لكنهم موزعون، متحاربون فيما بينهم ويرفعون قضاياهم إلى المحكمة، وحاولت الإصلاح بينهم، فأقنعت فريقاً منهم أن يتصالح، ويسحب قضيته، وقد وافقوا عليه، وأدعو الله

أن يدوم هذا الصلح، ويشتغل المسلمون هنا بالفلاحة يشترون الأراضي وينشئون حدائق، كذلك يعملون في المطاعم، وقد شيد سعيد الزمان مسجداً بجمع تبرعات من المسلمين، لكنه أصيب بفالج، والتقيت به فوجدت أن النصف الأسفل من جسمه مفلوج كلياً، وهو يعاني هذا المرض منذ ست سنوات، ويلزم فراشه، لكنه عبد شاكر لا يشكو بل يصبر، ويلقي كل من يعود بوجهه طلق مستبشراً، وشكرت الله على الصحة والعافية التي متعنا الله بها بعد لقائه ومشاهدة ما يعانيه من عجز، ولا يقدر أحد صحته وعافيته إلا إذا عاين شخصاً مصاباً بالآلام، ومن ثم سافرت إلى «سان فرانسيسكو»، وفي هذه المنطقة عدد كبير من الهنود والباكستانيين والعرب المسلمين، ولهم مسجد، يعقد فيه اجتماع أسبوعي لدرس القرآن الكريم، يلتقي فيه الأجيال ويتدارسون القرآن، وينشر تقرير الاجتماع في الصحف فيأتي عدد من غير المسلمين أيضاً، وانتهزت هذه الفرصة، فشرحت لهم منهج الدعوة، ثم توجهت إلى المركز الدولي، والتقيت بالطلبة الباكستانيين وذكرت لهم مسئوليتهم إزاء الإسلام، وفي هذه المنطقة أيضاً يشتغل الهنود والباكستانيون في المطاعم، وهم سعداء موفقون في مهنتهم، واستقبلوني بالمحبة والحفاوة والهناء البالغة، ويسعون إلى بناء مسجد.

«اليابان»:

يرجع الفضل الأكبر في نشر الدعوة في «اليابان» وانتشار الإسلام فيها إلى الأستاذ أرشد وجهوده المخلصة، وحكمته البالغة، ولا يستطيع أحد أن ينكر فضله، وأن الذين أسلموا في «اليابان»، ويشتغلون الآن بالدعوة معظمهم مدينون لجهود الأستاذ أرشد الدعوية، فقد أبلغ الأستاذ أرشد خلال إقامته بـ «اليابان» مشايخه وأصدقاءه أوضاع «اليابان»، وفرص العمل فيها في رسائله التي كان يكتبها وهي كثيرة، ونورد هنا رسالة واحدة لإلقاء الضوء على الأوضاع في «اليابان»:

«طوكيو»:

نقوم كل يوم تقريباً بالجولات الخاصة، واللقاءات الشخصية، ونسعى إلى أن نخرج الناس لثلاثة أيام، وفي هذه الأثناء تلقيت دعوة من البروفيسر «رائي كاكي» أن أسجل مقابلة في التلفاز حول الإسلام والدعوة، واعتذر الأستاذ القريشي عني

بأسلوب حكيم، ثم جاءت الدعوة إلى ميتاسال وتشاورنا فيما بيننا، وقبل ميتاسال هذه الدعوة مراعاة للظروف، وفي موعد البرنامج اجتمعنا في منزل الأستاذ القرشي للغداء، وكان ممن حضر هذه المأدبة أيامازوني، وشاهدنا البرنامج على التلفاز.

بدأ البرنامج بكلمة البروفيسر «رائي كاكي»، وكلنا كان ذهنه مشغولاً بهذا اللقاء التلفزيوني، ويدعو الله بالسداد والتوفيق، وكان أيامازوني يترجم لنا ما كان يجري في التلفاز، كانت محاضرة البروفيسر عن الحركات الدينية والاقتصادية في شبه القارة الهندية، ذكر فيها أولاً حركات الهندوس المختلفة، ثم انتقل إلى حركة سيد أحمد خان، ثم تطرق إلى الدكتور محمد إقبال، وفي الحركات المعاصرة ذكر حركة التبليغ ثم طلب ميتاسال، ولما دخل ميتاسال سلم أولاً على الجميع بتحية الإسلام وصافح البروفيسر ثم جلس على الكرسي، وسأله البروفيسر أولاً عن معنى التبليغ، فقال ميتاسال: معنى كلمة التبليغ خدمة الله، ثم سأله عن النقاط الست، فشرح ميتاسال باختصار الإيمان، والطاعة، والعلم، والذكر، والإكرام، والأخلاق، والدعوة، فلما قرأ ميتاسال الكلمة الطيبة بإيمانه وبقينه، اقشعرت الجلود، وسادت الهيئة على النفوس، وبفضل هذه المقابلة التلفزيونية وصلت كلمات الله الطيبة إلى أقصى البلاد وأدناها، وسمع وشاهد المشاهدون للتلفزيون الياباني في سائر أنحاء «اليابان» وخارجها، وشاهد المشاهدون لأول مرة أسلوب مؤمن، وبريق عينيه، ونور جبينه، وقوة بيانه، وقد حفظه الله ورعاه وأيده، فقد سار البرنامج بأسلوب مؤثر جذاب.

وقد وصل أخيراً المقرئ محمد أمين موسى المكي، وهو شاب يشتغل بالتجارة في مكة المكرمة، ولكنه مقرئ مجود يتلو القرآن الكريم بصوت رخم، ومن العادة المتبعة هنا أن يتلو القرآن الكريم في مسجد بعد صلاة الجمعة، ويجلس الآخرون وينصتون إليه، وفي أحد أيام الجمعة تلا هذا الشاب المكي، فسحر الناس بتلاوته، ثم جئنا به إلى منزلنا وطلبنا منه أن يشترك في اجتماعنا القادم في «إيلنجي» فوعد، وغادرنا إلى محل الاجتماع في ٥/ يوليو/ تموز يوم الجمعة إلى «إيلنجي» من محطة «شنجتكو» لسكة الحديد، والحمد لله وجدنا المقاعد، وبعد رحلة دامت ساعة ونصف ساعة وصلنا إلى محطة «إيتزان»، وكان على الرصيف الشيخ سودا وأعيان

البلد لاستقبالنا، وكان كثير منهم يحملون آلات التصوير، وعلمنا أنهم مراسلو الصحف وكان من الطبيعي أن يهمننا ذلك، وفي لحظات تحركت عدسات التصوير والتقطت صوراً من زوايا مختلفة، وصورت حركاتنا كلها، ثم تقدم إلينا مندوب عمدة المدينة، ورحب بنا، وأعرب عن شكره لقدمنا إلى هذه المدينة، ثم ركبنا السيارات التي كانت في انتظارنا وتوجهنا إلى «إيلنجي» وكان العمدة قد هياً لنا السيارات، ويقع معبد «إيلنجي» العالمي على بعد ثلاثة أميال في جو جميل، وتحيط به ساحة واسعة فيها أشجار باسقة، وفيها أحواض وبرك ونافورات، ويشتمل بناء المعبد على غرف فسيحة، وقد شيد هذا المعبد قبل ست مائة وثلاثين سنة عندما كانت «اليابان» مجموعة من الإمارات التي كان يحكمها قادة عسكريون، فكانت هذه المدينة تحت إمارة قائد عسكري يسمى جيسر تلي وهو الذي شيد هذا المعبد، والمعبد مبني من الخشب، وينتمي هذا المعبد إلى فرقة بوذية تعرف بزين شتر، ويعتقد أتباع هذه الطائفة أن التزكية تتم بالمراقبة والتأمل، ومبنى المعبد في منتهى النظافة والأناقة، ونزلنا في الطابق الثاني في غرفة فسيحة، وجاء راهب المعبد في ملابسه الخاصة ورحب بنا، ثم ذهب بنا لزيارة المعبد وما توجد فيه من تماثيل وآثار وهي منسقة تنسيقاً كاملاً، وكنا إذا مررنا بتمثال كبير نهلل بصوت عال، وقد صدر من لساني مرة: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَدُونَ﴾، ثم عدنا إلى مقرنا فتناولنا الفطور الخفيف مع مراسلي الصحف وأعيان البلد، وبدأ المراسلون يوجهون إلينا الأسئلة، فعرضنا عليهم عقيدة التوحيد، والرسالة، والبعث بعد الموت، وأجبنا على أسئلتهم إجابة موجزة، ونحمد الله على حفظه ووقايته، وجاء وقت صلاة الظهر فكنا نصلي، وكان المصورون يلتقطون الصور وأخيراً منعناهم من هذا العمل فخلوا سبيلنا، وعاد مندوب العمدة، فبدأنا عملنا.

ونقدم فيما يلي ملخصاً لما تم خلال ثلاثة أيام، وما شاهدنا من نصر الله وتأييده:

١ — من الذين شاركونا في أعمالنا في «طوكيو» ستة أشخاص، وكان معهم عدد من غير المسلمين، كما اشترك عدد من سكان المناطق المجاورة، فكان اجتماعاً

موفقاً للغاية، ولم يجتمع في «اليابان» قبل ذلك مثل هذا العدد، وكان ذلك من فضل الله العظيم أن عقد هذا الاجتماع الضخم بدون وسائل مادية.

٢ — كان جميع الإخوة العاملين الذين اشتركوا في الاجتماع مشغولين بالذكر، وكان يسودهم الهم للدعوة، فقد كان الاجتماع ضخماً، ولم يكن من اليسير تنظيمه، وكان يحتاج ذلك إلى جهد كبير، ولكن الله تعالى تقبل جهدنا المتواضع، ونصرنا بفضل الدعوات والإنابة والخشوع الذي كان يغشى جميع الإخوة، وخاصة كان أميرنا مشغولاً بالدعاء والتضرع إلى الله، وكان في غاية من الخشوع والإنابة إلى الله في هذه الساعات الحاسمة، وبفضل الله، اهتم إخواننا بالذكر وصلاة الليل غاية الاهتمام، وقد صام بعض الإخوة خلال أيام الاجتماع، وكنا قد كتبنا إلى إخواننا في «مكة المكرمة» للدعاء قبل الاجتماع، وقد شاهدنا بركات هذه الأدعية.

٣ — وفي اليوم الثاني نشرت الصحف البارزة تقارير الاجتماع بأهمية، وكان من تأثير هذه التقارير الصحفية أن تهافت علينا الباحثون عن الحق نساء ورجالاً وأطفالاً وشيوخاً، وحاولنا ما كان في وسعنا الترحيب بهم، وتأدية حقوقهم، وشرح دعوتنا لهم، وقد رافقنا أحد الكهنة البوذيين من منطقة أخرى طول النهار، وقد عرضنا على الجميع التوحيد، والرسالة، وبيننا لهم إعجاز القرآن الكريم ومعجزات النبوة، والسيرة النبوية، وأنه خاتم النبيين قد نسخ جميع الرسالات والنبوات السابقة، وسمع جميعهم كلامنا بانتباه كامل، وكان له فيهم أطيّب الأثر، وكان الأستاذ سيتهو ينقل كلامنا إلى اللغة اليابانية، كما كان الأستاذ أيازازوي وسوداسال سائينو، وميتا، يساعدون في التفهيم والشرح والبيان في أوقات مختلفة، وكان الناس يعرضون شبهاتهم ويوجهون الأسئلة، ويتأيّد الله ونصرته كنا نرد على أسئلتهم، ونزيل شبهاتهم، فكانوا يعودون منشرحين مطمئنين، ومن بين الذين كانوا يأتون إلينا لعرض شبهاتهم، ومعرفة دعوتنا، كان بعض النصارى، فتلونا عليهم الآيات الأخيرة من سورة المائدة التي فيها بيان لدعاء عيسى عليه السلام لنزول المائدة، والآيات التي تذكر محاسبته عند الله يوم القيامة عن عبادة قومه له، وجواب عيسى عليه السلام في غاية من الخضوع والعبودية: ﴿إِنْ تَذَبُّهُمْ فَلَا تَزِبْهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَفْقِرْ لَهُمْ فَلَا تَمْنَنْ﴾

الْحَكِيمُ ﴿١٠﴾، وقلت: إن جميع الأديان تدعو إلى التوحيد الخالص وإن المترفين هم الذين غيروا هذه العقيدة، فتأثر جميع الإخوة النصارى، هذا وفي كل مكان سرنا إليه يوجه إلينا سؤال وهو: لماذا يتخلف المسلمون في العالم الإسلامي سياسياً واقتصادياً عن غيرهم؟ فنقول لهم: إن المسلمين أنفسهم هم أعداء الإسلام، وصرح سماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسيني الندوي مرة، أن مثل المسلم مثل الحية التي تجلس على كومة من الدر، وهي تشبع بنفسها بالطين وما في الطين، وتغفل ما يقع تحتها من الدرر واللآلئ، ولكن إذا تقدم أحد إلى تلك الدرر واللآلئ تخوفه الحية، فيهرب منها، فلو لم تكن على معرفة من عهد الصحابة وما قدموا في حياتهم من أمثلة لخير الإنسان لما كان في وسعنا أن نرد على هذا السؤال، فنقول لهم: إن تخلف الدول الإسلامية اليوم يرجع أساساً إلى بعدها عن منهج الإسلام، وعدم الالتزام بتعاليمه، فإن الله تعالى لا ينظر إلى النسب، ولا إلى الأفراد، بل ينظر إلى الصفات والخلال، ولهذا الغرض جئنا إليكم لندعو إلى العودة إلى حياة الصحابة والتحلي بصفاتهم، وعندئذ تنزل علينا رحمة الله ونصرته، وتنتفتح أبواب الدنيا والآخرة، وتحل جميع المشاكل في لحظة واحدة، ويستخلفكم الله كما استخلف الذين من قبلكم.

والسؤال الثاني الذي يوجهه غير المسلمين عامة، هو تعدد الزوجات، ولكن هذا السؤال يزول سريعاً، ويفهمون الحقيقة لأنهم يشاهدون انتشار الفحشاء في بلادهم.

مرة كان اجتماع ضخم للنساء والرجال والمثقفين، وكان الحديث عن إعجاز القرآن الكريم، فورد علينا المقرئ محمد أمين موسى المكي فجأة، فطلبنا منه أن يتلو القرآن الكريم، فتلا من سورة النمل، التي جاءت فيها قصة سليمان عليه السلام، ومروره من وادي النمل ودعاؤه المشهور، فكان لهذه التلاوة تأثير على القلوب، وساد جلال كلام الله على النفوس.

وطلب بعض الحاضرين تفسير الآيات التي تليت عليهم، فلما حكيت لهم قصة داود عليه السلام، ونعم الله عليه، وتحديثه بهذه النعم وشكره عليها، ثم فضل الله على سليمان عليه السلام، ومنحه الملك الذي لم يعطه أحداً غيره، ثم مروره بوادي

النمل وإدراك النمل لخطر زحف جيشه، ثم خضوعه لله شكراً على هذه النعمة، ودعاؤه ليكون من عباد الله الصالحين، كانت هذه القصة فاتحة للعيون، ومحيرة للعقول، فخضعوا لله وللإسلام، ولم يسعنا إلا أن نقر بنعمة الله علينا أن أعطانا هذا الكتاب المعجز، وأنزله علينا، ولكن ماذا سيكون مصيرنا يوم القيامة، إذا قال رسول الله ﷺ عن أمته: ﴿إِنْ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾.

لم نقصر في برامجنا التبليغية، بل بذلنا ما كان في وسعنا من جهد لاتباع نظام التبليغ، والحمد لله على ذلك، ففقدنا حلقات التعليم والجولة واللقاءات، واعتمدنا على رسالة الحياة اليومية للمسلم لميتال سال في التعليم يوم الجمعة، وعلمنا طريق الصلاة عملياً، وتذاكرنا النقاط الست بالتفصيل يوم السبت، ونقل الكلام ميتال إلى اليابانية، ثم قرأنا من كتاب حكايات الصحابة (الترجمة اليابانية)، ويوم الأحد شرح ميتال مسائل في الوضوء والغسل والطهارة والصلاة من الترجمة اليابانية لتعليم الإسلام، ثم عرضنا عملياً طريقة الصلاة أمام المصلين الجدد، ذهبنا إلى شاطئ نهر، وعرفهم الحاج بشير أحمد طريق الوضوء عملياً، وتوضاً الآخرون اتباعاً له للتمرين، وندعو الله تعالى أن يتقبل أعمالنا، ويسدّد خطانا ويرضى عنا.

ومما كان يخطر ببالنا ويحزننا أن هذا المعبد منذ قرون يذكر فيه غير الله، ويعبد غير الله، ولكن هذه الأيام الثلاثة التي ذكر فيها الله، وردّ الناس كلمة لا إله إلا الله، وتلاوا فيها القرآن الكريم، وسمع الناس فيها أحكام الله، وتعلموا مسائل الفقه، وفي هذا المعبد خرج عدد من أتباعه عن عقائدهم الباطلة، وأنكروا هؤلاء الآلهة، وشهدوا بوحداية الله، وآمنوا به، وعقدوا العزم على بدأ حياة جديدة، وسجدوا لله، وركعوا له، فإن جدران هذا المعبد، شهدت هذا المنظر الجديد، فلو كان لها لسان ولو كان في استطاعتها الكلام لشكرت وحمدت، وأبدت سعادتها وسرورها على هذا الحدث، واستبشرت به الخير، ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾.

ومما يؤسفنا أننا في خضم هذا البرنامج لم نستطع أن ندخر وقتاً لدرس السيرة النبوية، ولم نتح لنا فرصة للجولة العامة، إلا أننا انتهزنا الفرصة للجولة الخاصة، ووقفنا الله للقاءات خاصة، فذهبنا للقاء العمدة مع الأخ عبد الخالق، ولم يحضر

عمدة أتيان إلا أن نائبه ومدير التعليم كانا موجودين، فالتقينا بهما وشكرناهما على ما لقينا منهما من حفاوة وتكريم، وشرحنا لمدير التعليم أهمية القيم الخلقية، والروحية، واعترف مدير التعليم، أن فقدان الروحانية يؤدي إلى نتائج سيئة في الرقي المادي للبلاد، وقد جرت جميع برامجنا على ما يرام وكانت موفقة ومقبولة للغاية، واشترك فيها عدد من غير المسلمين وكادوا يسجلون بعض النقاط خلال حلقات التعليم عندما عرضت عليهم قصص من حياة الصحابة.

ونشكر الله على تيسيره وتسهيله لبرامجنا، وأثلجت صدورنا مناظر التلقي والقبول لدى المشاركين في برامجنا، وشوقهم للحضور، وإصفاؤهم لما كان يعرض عليهم، وكنا لا نتوقع ذلك، فقد وضع أساس العمل ومهد الطريق إلى الدعوة، وحدث الوعي في النفوس، وكان للقاءات الشخصية تأثير كبير على هذه الاستجابة والقبول، وخاصة سوداسال، لا يمكن أن تنسى خدماته وجهوده المشكورة، فقد وهبه الله تعالى قلباً سليماً ذا أسلوب وكلام مؤثر، فلا يخاطب أحداً من اليابانيين إلاً ويلين قلبه، فكأنه يسحر النفوس ببيانه، فلما أراد أن يعتنق الإسلام، ذهب مع الحاج بشير أحمد إلى تلك الغرفة التي خصصت للدعوة والتبليغ، وبعد تمهيد طويل شرح الحاج بشير أحمد كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله، ثم شرح ميتاسال معنى هذه الكلمة ومضمونها باليابانية، ثم سماه الحاج بشير أحمد بالاسم الإسلامي الذي كان قريباً من الاسم القديم ومشابهاً له.

ذات يوم اجتمع عدد كبير من الطلبة والطالبات في مسجد «طوكيو»، وكان معهم أساتذتهم، وكانوا يزورون الجامع، فجمعتهم بعد الصلاة، وتحدثت إليهم منتهزاً هذه الفرصة السانحة بوجودهم داخل المسجد، وعرضت عليهم الإسلام، وكانت إحدى الطالبات طالبة من «تركيا»، وكان والدها قائداً لكتيبة تركية في «اليابان»، وقد عاشت هذه الفتاة في البيئة الإسلامية، ولذلك كانت تدافع عن الإسلام في كليتها، فلما عادت إلى والديها حكّت لهما قصتها في الكلية.

وتعتبر الكلية الأمريكية في «اليابان» كلية عالمية، يتعلم فيها الوافدون من مختلف دول العالم، وتعقد كل عام جلسة التخرج، يكون سفير إحدى البلدان

الأجنبية ضيف شرف، يدعى إلى هذه الجلسة رجال الدين من اليهود والمسيحيين والبوذيين، وهم يلقون فيها كلماتهم، وفي هذا العام كان من الطلبة المتخرجين هذه الطالبة التركية المسلمة، فاعترضت على وجود رجال الدين في جلسة التخرج من جميع الديانات إلا الإسلام، وقالت: أنا مسلمة، ولذلك يجب أن يخاطبني عالم مسلم، وإلا لا يشترك أحد من رجال الأديان الأخرى أيضاً، وخضع المسؤولون عن الكلية لمطالباتها، وسألوها أن تقترح من يمثل الإسلام، فذكرت اسمي، وذلك لأنها كانت تحسبني عالماً دينياً، فجاء إليّ الأخ محمد أحمد، وهو الرئيس السابق لاتحاد الأتراك، وأصرّ عليّ أن أشترك في الجلسة، فكنت متردداً في ذلك؛ لأن ذلك اليوم كان يوم اجتماع «إيلنجي».

كنت أفكر في المسألة، ولم أصل إلى نتيجة حتى تلقيت دعوة من الكولونيل التركي لمأدبة الغداء، واعتذرت كثيراً، لكنه لم يقبل اعتذاري، وأصرّ على دعوته فقبلت.

وخلال المأدبة جرى الكلام حول الجلسة، وكانت الفتاة التركية موجودة، واستمر الإصرار، ولم يقبلوا عذري فقبلت متوكلاً على الله.

عدت من «إيلنجي»، وفور وصولي جاءت سيارة الكولونيل لإيصالي إلى الكلية، فلما وصلت إلى قاعة الكلية الأمريكية، رحب بي عميد الكلية، وأوصلني إلى المنصة التي كان يجلس عليها الأسقف المسيحي، واللاما البوذي، والرئيس اليهودي، والسفير الكندي الذي كان ضيف شرف، فجلست قريباً منهم، وبدأت الموسيقى التي كانت أشبه بجرس الكنيسة، وفور بدء الموسيقى دخل الطلبة المتخرجون، ووصلوا إلى المنصة، وبدأ الحفل بدعاء الأب الكاثوليكي، ثم قام الأسقف البروتستنتي وتلا كلمات الدعاء، وقرأ أولاً من الكتاب، ثم ترجمه إلى الإنجليزية، ثم هزّ اللاما البوذي رأسه، وتلا أقوال بوذا، وجاء دوري بعد ذلك فتلوت الآيات الأخيرة من سورة الحشر، ومن سورة الزلزلة، ومن سورة الحجرات، وكانت منها الآية: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىكُمْ﴾، وقرأت من الترجمة المكتوبة عندي، فسادت الهيبة على النفوس لسماع ترجمة هذه الآيات التي تتعلق بالزلازل،

ودوى الفضاء بالتوحيد، وغلب كلام الله الحق المبين على الباطل، وساد الوجود على عبّاد الباطل وشعروا بالهزيمة وخمدت قواهم، وانهارت أعصابهم لما رأوا أفواجاً من الأتراك يلتفتون حولي، وقد اعترفت بعض النساء من الحضور أن قلوبهن تأثرت بما تلوته من آيات القرآن الكريم، فأشكر الله على توفيقه، فقد محي أثر الكفر، وزهق الباطل وكلمة الله هي العليا، وانفضّ المجلس، وخرجنا من القاعة، دعنتي بنت الكولونيل التركية إلى مأدبة العشاء، ولكنني اعتذرت؛ لأنني كنت في غاية من التعب، ومرهقاً من هذا الحفل الطويل، ووعدتها بأنني سأحضر في يوم آخر.

وكما وعدت توجهت إلى بيت الكولونيل بعد يومين، فعرفني الكولونيل بالثورة التركية، وتاريخ «تركيا» الشامخ في عهدها الإسلامي الماضي، وما يواجه الإسلام من أخطار وتحديات في المستقبل في «تركيا»، ونحمد الله تعالى أن قلوبهم عامرة بالإيمان وحب الإسلام وجميع المساوي التي توجد اليوم ناتجة من الغزو الثقافي الغربي، فإن الحضارة الغربية تسحر النفوس، وتستولي على القلوب، وهذا من خصائصها، وتستهوئ الشباب، وقد تعرض لهذا الغزو المسلمون، فتغيرت قلوبهم، وخربت حياتهم التي كانت عامرة بالإيمان واليقين، وقدمت إلى الفتاة التركية كتاب «الإسلام على مفترق الطرق» للأستاذ محمد أسد^(١)، وأدعوا الله تعالى أن يحفظ الأتراك من الفتن، ويرزقهم الإيمان، والصلاح ويوثق صلتهم بالإسلام.



(١) الأستاذ محمد أسد من أصل ألماني، كان يهودياً أسلم، وألف كتابين مهمين: «الإسلام على مفترق الطرق» و«الطريق إلى مكة»، نقل الكتابان إلى لغات عالمية مختلفة.

الباب الثاني عشر الجماعات الراجلة وحركاتها ونظامها

حركة الجماعات الراجلة داخل البلاد:

انتشرت حركة الدعوة بعد سنتين من وفاة مؤسسها الشيخ الكبير محمد إلياس الكاندهلوي في سائر أنحاء البلاد، وبدأ عقد اجتماعات كبيرة من مختلف أنحاء البلاد، ورغم الحركة الواسعة للجماعات الراكبة كانت الجماعات التي تمشي على الأقدام محدودة، وكانت محصورة في منطقة «ميوات»، وشعر الشيخ محمد يوسف بضرورة توسيع الحركة وتعميق جذورها، وإيصالها إلى مناطق منعزلة ونائية، ففكر في إرسال جماعات راجلة، ووسع نطاقها، ونسّق برامجها، فقد بدأت تتحرك جماعات الراجلين، وتصل إلى مناطق أخرى غير منطقة «ميوات»، وكانت هذه الجماعات تقف في الأماكن الواقعة في الطريق إلى المناطق الكبرى وتعمل فيها، وكانت توزع جماعة كبرى على جماعات صغرى، وتتوغل هذه الفرق في القرى والأحياء الصغيرة ومناطق ذات عدد محدود من السكان، ثم تجتمع في مكان مقرر، وتعقد اجتماعاً ضخماً، وترغب الناس في الحضور إلى هذا الاجتماع، والخروج منه لأماكن أخرى راجلين.

وعندما كان الشيخ محمد يوسف يرسل جماعة راجلة إلى أي منطقة كان يكتب إلى سكان المناطق الواقعة في طريق الجماعة، ويحثهم على معاونتها، ونقل فيما يلي رسالة حث فيها الشيخ محمد يوسف على نصرة جماعة كانت تتجه إلى «كلكتا»، وكانت «لكهنؤ» في طريقها، فكتب إلى العاملين في «لكهنؤ»:

«إن جماعتنا التي تتوجه إلى «كلكتا» ستصل الجمعة غداً في «كرهي»، وهي على بعد ٢٠ ميلاً تقريباً من «لكهنؤ»، ويمكن معرفة مكان إقامة الجماعة بالوصول

إلى تلك المنطقة، وهي في حاجة إلى معونتكم، فإنها جماعة صغيرة بقي فيها عدد قليل من الناس، فإذا أمكنكم إرسال رجال كل أسبوع إليها فإنه سيكون دعماً كبيراً لهذه الجماعة ومعونة لها، فإن عدداً من العاملين عندنا سافروا إلى البلاد العربية، فتحتاج هذه الحركة في داخل البلاد إلى دعم وتشجيع وتوسيع، وسيخلف العمل في داخل البلاد تأثيراً حسناً على العمل في البلاد العربية، ولذلك يجب توسيع حركة الجماعات وتنشيط العمل.

أرسلت الجماعات إلى «بيشاور» و«كراتشي» و«بومبائي» قبل الاستقلال بكثرة، وكانت منطقة «دلهي» موزعة على أربع حلقات، وكان الناس يلتحقون بهذه الحلقات كل أسبوع ويساعدون العاملين، وكذلك كان الناس ينضمون إلى العاملين في «كراتشي» و«بيشاور».

ويتصاعد الاهتمام بإرسال جماعات راجلة في شهر رمضان، ثم كانت تخرج جماعات راجلة من الاجتماعات الكبرى كاجتماع «بهوفال»، وكانت تتوجه إلى المناطق القاصية والدانية، والأغوار والأنجاد، وقد سارت الجماعات في عام ١٩٥١م الخارجة من «بهوفال»، و«حيدرآباد» و«بومبائي» إلى «مدراس»، وعقد لها اجتماع كبير في سبتمبر/أيلول ١٩٥١م في مسجد والجاه في «نرملكهرى»، وكان هذا الاجتماع منطلقاً لعمل الدعوة في مدراس، وتصاعد به عدد الجماعات التي دخلت إلى «الهند»، وقضت فترة في مركز الدعوة بـ «نظام الدين».

وكتب الشيخ محمد يوسف رسالة يحث فيها على دعم جماعة خرجت من «دلهي» إلى «مرادآباد»، فقال فيها:

«توجهت جماعة إلى منطقتكم، وستسافر إلى «أمروهة» بالقطار، ثم تقطع المسافة إلى «مرادآباد» راجلة، وتقف في الطريق لتعمل في المناطق الواقعة في الطريق، فعليكم أن تحثوا العاملين المقيمين في هذه الأماكن كلها على دعم الجماعة، برسائلكم وخطبتكم والتعاون معها فعلياً».

نظام الجماعات الراجلة:

كان من نظام الجماعات الراجلة أن أفراد الجماعة ينتقلون في الصباح الباكر من قرية إلى قرية أخرى، ويمشي رجلان معاً، ويصححان الكلمة والصلاة ويذاكران

المسائل، وتقيم الجماعة في مسجد القرية، وتقوم بجولة، ويلقى خطاب بعد الصلاة، ثم تتقدم الجماعة، وتقوم بجولة في المساء في مكان آخر، ويكون البيان بعد الصلاة، ويعدل هذا النظام تعديلاً جزئياً حسب ظروف المنطقة. وكان سكان المدن يلتحقون بهذه الجماعة في منطقة رئيسية، ويرافقونها إلى منطقة أخرى حسب ظروفهم، ويستغرق مثل هذه الجماعات أسبوعاً لتغطية منطقة، ثم تنتقل إلى منطقة أخرى مركزية، وهكذا يرافقهم سكان مدينة إلى مدينة أخرى، ثم يرافقهم سكان المدينة الثانية إلى المدينة الثالثة، وكان يعقد اجتماع أسبوعي يوم الجمعة في منطقة رئيسية، ويشارك فيه عدد كبير من سكان المناطق المجاورة، وأحياناً يشارك فيه شخص أو شخصين من مركز الدعوة في «نظام الدين»، وعلماء المدينة المجاورة الذين لهم صلة بالدعوة.

وتلقى الرسالة الآتية الضوء على نظام الحركة الراجلة، وقد سارت جماعة من «دلهي» إلى «حيدرآباد» و«ميسور» و«مدراس» اشترك فيها العاملون من «عليجراه» و«بهوفال» و«كانفور» و«ميوات» و«أتارسي» و«برار» وغيرها من الأماكن، وكان أمير هذه الجماعة الحاج محمد رحيم خان من مديرية «بلندشهر» الذي ارتبط بهذه الحركة في حياة الشيخ محمد إلياس، وكان قد سافر إلى عدد من المدن الشهيرة في «الهند» لعمل الدعوة.

[نص الرسالة]:

وصلت الجماعة التي غادرت «جرور» مديرية «أمراتوتي» في ١٩/فبراير/شباط، يوم الاثنين إلى «أتارسي» في تسعة أيام، وقطعنا في هذه المدة مسافة ٦٢ ميلاً، وكانت ٥٦ ميلاً من هذه الرحلة تشتمل على الغابات، والمناطق الوعرة، ورغم ضعفنا وتقصيرنا، نصرنا الله وأكرمنا وأنزل علينا الرحمة والبركة ما لا نقدر على أداء حق شكره، وقد وجدنا في سكان هذه المناطق إقبالاً واستجابة كبيرة، فرحبوا بنا في كل مكان، حتى غير المسلمين منهم، فقد ساعدنا في بعض الأماكن الهندوس، وقدرنا جهودنا، وانضم إلينا سكان «بهوفال» أيضاً يوم الجمعة، وكانوا معنا ثلاثة أيام، وقد التحق بنا في الجمعة الأولى الشيخ محمد عمران خان من «بهوفال» بجماعة، والشيخ

جميل أحمد من «حيدرآباد» بجماعة، والشيخ مسعود علي آزاد، وبلغ عدد أفراد الجماعة في بعض الأحيان ٤٢ شخصاً، وقد وجدنا في جميع الأماكن معاونة الإخوة من المناطق المجاورة سوى منطقتين أو ثلاثة، ورجع هؤلاء المشتركون في نشاطاتنا بعد بضعة أيام بانطباعات حسنة، ووعدوا بمواصلة الجهود في مناطقهم، وأبلغوني خلال الرحلة تفاصيل جهودهم ونتائجها، بقينا في «أتارسي» ثلاثة أيام مشغولين بالدعوة وفي «بيتول» أربعة أيام، وإذا وجدنا منطقة فيها عدد ملحوظ من المسلمين، مددنا إقامتنا وبتنا هناك ليلتين، وغادرنا بـ «بيتول» يوم السبت ١٠/مارس/آذار، وشيعنا عدد من الأعيان إلى ثلاثة أميال، وودعونا بولوع.

ومن «بيتول» وصلنا إلى «آمله» على بعد ١٨ ميلاً ورافقنا ١٢ شخصاً ليوم، وثلاثة أشخاص لثلاثة أيام، ومن «ملتان» إلى «بتن» ١٠ أميال ستة أشخاص لليلة واحدة، ووصلنا من «بتن» إلى «موردميندور» ١١ ميلاً مع تسعة أشخاص لثلاث ليال، وكان منظر الوداع مشجعاً، فقد سالت الدموع من عيون المودعين، وكان المودعون شيوخاً وشباباً ييكون عند الوداع، كانوا يغادروننا ولكن قلوبهم معنا، ولا أستطيع أن أصف ذلك المنظر المشجي للقلوب للوداع، وصلينا الجمعة في «أنبارا»، ونظم سكان «أنبارا» اجتماعاً كبيراً، كان عدد الحاضرين فيه أربع مائة شخص، وخرج مائة شخص من هذا الاجتماع لأوقات مختلفة، وشكلوا جماعتين، وتوجهوا إلى «أمراتي»، ودخلت جماعتنا يوم الخميس، والجماعة الثانية يوم الجمعة، وشاهدنا في الطريق مشاهد تحيي الإيمان، وتزيد اليقين، فقد غمرتنا رحمة الله ونصرته.

ووصل الشيخ محمد عمران خان الندوي من «بهوفال» بجماعة إلى «أنبارا»، واشترك في الاجتماع الذي دار ثلاثة أيام، وألقيت فيه خطب مؤثرة للغاية، ورافقتني جماعة تتكون من ٤٨ شخصاً، ومكثت في زاوية لمعصوم شاه بضع ساعات، والتقيت ببعض الأعيان من المسلمين وغير المسلمين في المنطقة، وأعرب غير المسلمين في القرية عن ارتياحهم وتقديرهم لهذا العمل، ووصفوا بأنه عمل إصلاحى تربوي وأكرمونا، ودعوا المسلمين في المنطقة إلى أن يساعدونا ويرافقونا، فخرج معنا شخصان، ثم وصلنا إلى «سپرکهير» على بعد ٨ أميال، وهكذا وصلنا إلى «أمراتي»

وصلينا الجمعة، وخرجت جماعة أخرى تتكون من ٥٠ شخصاً، ومرت بهذه الأماكن: «أنبارا»، «تراور»، «أستولي»، «ريدبو»، «چاندوبازار»، «كهراالا»، «مسرااله»، «پوزده»، «أكوله»، «بلكاون»، «أمراتي»، وكانت هذه الرحلة من «أنبارا» إلى «أمراتي» قد غطت مساحة ٤٤ ميلاً، ولقيت هذه الجماعة الترحاب في كل مكان، ووصلت يوم الجمعة إلى «أمراتي»، وأقمنا هنا يوم الخميس والجمعة، وشكلنا هنا أيضاً عدة جماعات، ووصلت جماعتان يوم السبت إلى «بدنيرا»، وكان البرنامج كما يلي:

من «أمراتي» إلى «بدنيرا» ٦٠ ميلاً، «ساونكي» ١٤ ميلاً، «ناننكاون قاضي» ٦ أميال، «نير» ٢٤ ميلاً، «برامال كهير» ٦ أميال، «أيوت محل» ١٧ ميلاً، وتغطي هذه الرحلة كلها ٣٠٠ ميل إلى «بهوفال»، وقضينا يوم الخميس والجمعة في «أيوت محل»، وسافرنا يوم السبت، ومن جهة أخرى من «بدنيرا» إلى «صوني» ١٢ ميلاً، «كامرگاؤن» ١٤ ميلاً، «كارنجه» ١٢ ميلاً، «بهاندي» ١٠ أميال، «واردا» ٨ أميال، وفي كل مكان شاهدنا مظاهر النصر والتعاون، ويرافقنا ١٢ شخصاً من «بهوفال»، نسأل الله التوفيق والسداد.

هذه بعض التقارير عن الجماعات التي قامت بالدعوة في المناطق الداخلية ماشية على الأقدام، وهي نبذة يسيرة من التقارير التي تلقي الضوء على ماثات من الجماعات التي قامت بجولات في القرى والمناطق الجبلية، ومن الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب، وقضت مدة العمل كلها ماشية على الأقدام، ووصلت إلى المناطق التي يصعب الوصول إليها لعدم وجود المواصلات، ولا يتيسر الاتصال بسكانها إلاً بشق الأنفس، وتجشم مشاق السفر المتعب، فطريقها تتخلله الأودية والأنهار، ويتعذر وصول العلماء ورجال المدارس إليها.

ويتضح من الرسالة الآتية التي كتبها الشيخ محمد يوسف إلى العاملين في الحجاز، من أهل السبق في هذا المجال، صورة الجماعات الراجلة في «الهند»:

«بفضل الله تعالى، وبفضل مساعي أمثالكم المباركة، تزداد مؤشرات تنامي هذا العمل، فقد وصلت جماعة إلى «كلكتا»، وتركت آثاراً طيبة على سكان «البنغال»،

ويقوم ميان جي موسى ودين محمد والمولوي رحمت الله مع هذه الجماعة في الأماكن المركزية لـ «البنغال»، وأدعو الله تعالى أن يجعل حركة هذه الجماعات وسيلة لقلب القلوب وهدايتها بفضلهم وكرمه، وتتوجه جماعة أخرى إلى «كلكتا» راجلة وجماعة وصلت على الدراجات، وهي الآن مشغولة بالدعوة في «ميوات»، وجماعة أخرى توجهت إلى «بومبائي» راجلة، وكان لها أثر طيب على اجتماع «بهوفال» فخرج ثلاثمائة وأربع مائة من الإخوة في الجماعة، وحوالي مائة شخص وصلوا إلى «دلهي»، وعملوا في «ميوات»، وسارت جماعتان إلى «بومبائي» و«مدراس» ووعد الإخوة في الطريق بمساعدة هذه الجماعات ونصرتها، وهي تنال التأييد في كل مكان، ويخرج معها رجال في كل مكان تزوره، وتقوم عدة جماعات بجولة في «بهوفال» راجلة وعلى الدراجات، وعزم الإخوة في «بومبائي» على إخراج جماعة راجلة إلى «دلهي»، ووصلت أسماء عدد منهم، وقد أقاموا اتصالاً بعدد من المسؤولين والأغنياء في «بومبائي» حول أمور الحج وظهرت إمكانيات جديدة، وعلمنا أن جماعة تأتي من «ماليجاون» اليوم، وتستمر حركة الجماعات في المناطق المجاورة، ويزداد هذا الاتجاه كل يوم بفضل الله تعالى، وعليكم أن تهتموا بأمور الدعوة شخصياً واجتماعياً ليكون رقي عملكم دعماً للنشاط الذي يجري هنا في «الهند»، ونسألکم أن تبلغوا السلام والصلاة على النبي الكريم ﷺ والشيخين رضي الله عنهما.

وقد سبق ذكر الجماعات التي غطت منطقة «بنجاب الشرقية» في باب عواقب تقسيم البلاد، ويدل ذلك على أهمية الجماعات الراجلة وتأثيرها ومنهجها.

جماعة الحج الراجلة :

من مآثر الشيخ محمد يوسف إرسال جماعات راجلة للحج، فقد بدأت هذه التجربة الفريدة في عهده، وقد توجهت هذه الجماعات من «باكستان» أساسياً، وقامت بعمل الدعوة في المناطق الواقعة في الطريق إلى «مكة المكرمة»، ووصلت إلى غايتها بعد مدة طويلة من النشاط الدعوي في الطريق، وواجهت شدائد وعقبات شديدة في الطريق، فقد كانت الرحلة من «باكستان» إلى «مكة المكرمة» تستغرق عادة سنة كاملة، وكانت تقطع أكثر المسافة راجلة، وبعض مراحل السفر بركوب البحر،

أو على السفن، وبعضها بالمراكب، فقد كان السفر بالبحر ينقلها إلى «عدن»، «قطر»، «الكويت»، «الخبر»، ومن البر «إيران» و «أفغانستان»، وقد بلغ عدد مثل هذه الجماعات في أول الأمر إلى وفاة الشيخ محمد يوسف ١٧ جماعة، وقامت بمجاهدات مضنية، ورحلات مرهقة للغاية.

كانت الجماعة الأولى من هذه الجماعات قد سافرت في عام ١٩٥٣م من «كراتشي»، وودع هذه الجماعة التي قامت بالرحلة المباركة الشيخ السيد سليمان الندوي بدعائه، وكان أمير هذه الجماعة فياض، وشيخ هذه الجماعة العلماء والمشايخ إلى عدة أميال، ورافق هذه الجماعة ميان جي عبد الغفور الذي كانت لديه تجربة قديمة للسفر راجلاً، وخرج مع الجماعات الراجلة مرات عديدة، لكنه قضى نحيبه في «كوادر» ولحق بالرفيق الأعلى، وشيخ جنازته عدد لا يحصى من الناس، ووصلت هذه الجماعة إلى «مكة المكرمة» في سنة كاملة.

وغادرت جماعة أخرى «كراتشي»، ووصلت إلى «الحجاز» عن طريق «إيران»، والتقت هذه الجماعة في منطقة «سربازي» بـ «إيران» بعالم كان قد تعلم في المدرسة الأمنية بـ «دلهي»، وتخرج منها في عهد الشيخ الكبير محمد إلياس، وكان الشيخ محمد إلياس قد قال له في ذلك العهد (الذي لم يكن يدور بخلد أحد أن جماعة ستخرج إلى خارج الهند): إن جماعة ستأتي إلى بلدكم، وقد تحقق هذا التكهّن الذي كان مصدر فراسة المؤمن بعد ١٥ سنة، ولما وصلت الجماعة إلى «إيران» رحب بها هذا العالم الرباني ترحيباً حاراً، وساعدها في القيام بنشاطها.

كان من عادة الجماعة أنها كلما واجهت صعوبة أو مانعاً قانونياً، لجأت إلى صلاة الحاجة مع اتخاذ وسائل مادية أخرى، وهكذا تزول مشاكلها بتيسير من الله، ولا تقل مثل هذه الأحوال التي يسرها الله بفضل الدعاء والصلاة، ونورد هنا قصة واحدة:

كانت جماعة تسافر راجلة، وهي تقصد «الحجاز» لأداء فريضة الحج، وكانت تعبر النهر على قارب، فبدأ القارب يتأرجح، ثم غرق، لكن الله تعالى نجاهم إلى البر، ووقاهم من الغرق بنصرته فكانت نجاتهم معجزة.

ويذكر هذه القصة أمير الجماعة في رسالة له :

«لعلكم قرأتم خبر غرق القارب في الصحف، ولكن نشكر الله شكراً عظيماً، ونحمده أنه نجانا ورفقتنا من الغرق، فقد كانت هذه السفينة تعبر نهر شناب، فجاء تيار جارف من خلف السفينة، واصطدمت السفينة بجبل وغرقت، وكنا ١٨ شخصاً وبقي ١٤ منهم في قعر السفينة، وغرق أربعة منهم، وكان هؤلاء الأربعة يمثلون أربع ولايات، كان أحدهم من پتهان وآخر بنجابياً، والثالث بنغالياً، والرابع ميواتياً، ونجا ١١ شخصاً آخر مع ١٤ من رفقتنا، ومن بين الأربعة الذين تفرقوا استطاع عبد الصمد كوهاتي أن يظهر على سطح الماء وعلى أحد ألواح السفينة المكسورة بعد مدة طويلة، ووصل الثلاثة إلى الشاطئ بفضل الله، ومن عجيب ما حدث للدكتور البنغالي أنه بقي على فراشه وظل يسبح مطمئن البال، ووصل ١٤ من رفقتنا بعد جهد دام عدة ساعات إلى الشاطئ، وبلغ عدد الذين نجوا في هذه الحادثة ٣٥ شخصاً وغرق باقي الركاب، ولعل هؤلاء الناجون الخمسة والثلاثون كانوا من جماعتنا، ووفقنا الله إلى شكره الدائم على هذا الفضل».

وسارت جماعة أخرى راجلة من «باكستان» مارة بـ «البحرين» و «قطر»، و «الكويت» إلى «الحجاز» للحج، ويكتب أحد أعضائها من «الكويت»:

«وفقنا الله تعالى في شهر رمضان المبارك في العام الماضي لهذا العمل الجليل، وفي كل مكان توجهنا إليه خلال هذه الرحلة شاهدنا نصرة الله وتأييده بفضل دعوات مشايخنا. قضت جماعتنا شهرين في «سرگودھا» وزارت المدن الكبرى كـ «كهير»، «ملتان»، «بهاولپور»، «رحيم يارخان»، «تندآدم»، «حيدرآباد»، وقضينا ثلاثة أيام في كل مكان، ثم وصلنا إلى «كراتشي»، وقد خرجت جماعات من هذه الأماكن إلى «رائي وند»، وبعد إقامتنا توجهنا إلى «بلوشستان» لأربعة أشهر ونصف شهر، وتعاون معنا سكان هذه المنطقة، ورافقونا في جولاتنا إلى المناطق المجاورة.

وبفضل الله ومنه تألفت جماعة لأربعة أشهر، وستة أشهر مكونة من ثمانية أشخاص للسفر إلى «رائي وند»، كان فيها شيخ من شيوخ «ديوبند»، فوصلنا مع الجماعة إلى «كراتشي»، ثم سافرنا إلى «قطر» في ٣٠/ديسمبر/كانون الأول، والتقينا

بالشيخ فريدي مع جماعته في نفس الباخرة، وكانوا متوجهين إلى «العراق» عن طريق «البصرة»، وكانت تأشيرتنا لعشرين يوماً لـ «قطر»، ولكننا اضطررنا إلى الإقامة شهراً كاملاً لأسباب خاصة، وقد ساعدنا الباكستانيون والهنود في عملنا وكانوا يرافقوننا، ويقضون أوقاتهم معنا، إلا أن العرب كانوا لا يفرغون أوقاتهم إلا قليلاً، وإذا كان أحد منهم يجلس معنا، كنا غير قادرين على التفاهم معه، ونصرنا الله بإرسال جماعة من «الكويت» وسهلت هذه الجماعة مسألة تفهيم الإخوة العرب، والتقرب إليهم، فأعرب الإخوة العرب عن اهتمامهم، واستعدوا لقضاء أوقاتهم ومشاركتهم في عمل الدعوة، وقضى بعضهم ليلة وبعضهم ثلاثة أيام في عطلتهم، ووافق أكثر من عشرة أشخاص منهم على السفر إلى «باكستان»، وقضاء أربعة شهور هناك في الجماعة وأعربوا عن تقديرهم لهذا العمل، وكان الباكستانيون والهنود يريدون أن يسافروا إلى «الكويت» لنصرة الجماعة، ولكن إجراءات السفر حالت دون تحقيق رغبتهم، فلم يتمكنوا من السفر وهم متأسفون على ذلك، وقد ساعدونا كثيراً، فنجوكم الدعاء ليسيير العمل في قطر.

يجري نظام الجولة وقيام ليلة الجمعة في بعض المساجد، ونواصل عمل الدعوة في «الكويت» منذ أسبوع، ونرجو أن تخرج بإذن الله جماعة إلى «رائي وند»، الأرض هنا طيبة ومهيأة للعمل، وسنغادر إلى «الرياض» بعد خمسة أيام ونحن عشرة أشخاص، نرجو منكم الدعوات ليوفقنا الله الإخلاص في العمل، ويتقبل جهودنا المتواضعة.

الجماعات الراجلة في بلدان أخرى:

سافرت جماعات راجلة عديدة إلى دول أخرى غير هذه الدول، فقد وصلت جماعات إلى «بورما»، «أفريقيا»، «تركيا»، وغيرها من الدول، وتجشمت مشاق السفر، وتكدت المصائب في عمل الدعوة، وواصلت جهودها في الظروف القاسية، واضطرت في بعض الأماكن إلى السفر بالمرائب لوعورة الطرق أو لضيق الوقت أو صعوبة السفر أو لمانع آخر، وتلقي الرسالة الآتية الضوء على الظروف القاسية وصعوبات السفر، والمتاعب التي واجهت هذه الجماعات، وكيف تحملت هذه

الجماعات هذه المصائب والآلام بطيب خاطر من أجل مرضاة الله، يحدوها الذوق والشوق إلى الدعوة إلى الله، وحصلت لها اللذة في هذه المكاره والشدائد، يحكي أحد أعضاء الجماعة التي سافرت إلى «بورما»، وقضت فيها وقتها راجلة وراكبة، هذه الظروف القاسية:

«كانت جماعتنا تتألف من حوالي مائة وستين شخصاً، وكان معظمهم جددًا، فيهم طلبة الكليات، وشباب وكهول، وأغنياء أيضاً، وكان أمير هذه الجماعة الحاج عبد المجيد السورتي، ووصلنا إلى «مؤملين» بصعوبة بالغة، وأدينا الصلاة في الطريق بصعوبة كبيرة؛ لأنه كان يوم عيد لهم، ثم توزعنا بعد المشاورة في اليوم التالي على جماعات صغيرة، وتقرر أمير كل جماعة، وكان مع الحاج عبد المجيد السورتي ستون شخصاً، معظمهم من الشباب، وذهبت هذه الجماعة إلى جزيرة «بلدجون»، وتوجهت جماعتي وجماعة الشيخ كمال الدين إلى «جائي مرو»، ثم تقدمت جماعتي، وعادت جماعة الشيخ كمال الدين إلى «مؤملين» عاملة في الطريق ومشينا على الأقدام من «جائي مرو» ميلين ونصف ميل، ثم ركبنا سفينة، وقطعنا مسافة ١٢ ميلاً، وانقسمنا في سفيتين في كل سفينة ١٦ شخصاً وأمير، نشغل بالتعليم والذكر، واضطربت السفينة في الطريق، ولكننا وصلنا بسلامة بفضل الله تعالى إلى الشاطئ، وكان سكان المدينة قد علموا بقدومنا فجاؤوا لاستقبالنا من خمسة أميال في عربات تجرها الثيران، وكانوا ينتظروننا من الصباح الباكر بدون الفطور.

ويجدر بالذكر أن هذه المنطقة غير عامرة، فلا يوجد فيها شيء للأكل والشرب، ثم مررنا بغابات موحشة، وأجمات كثيفة ومناطق مهولة، ووصلنا إلى غايتنا بأمان، وكان قد أخبرنا دليلنا أن الطريق موحش ومليء بالأخطار، ولذلك يجب أن نظل مشغولين بالذكر والدعاء، فطلب من الشيخ حسين أحمد يتلو سورة يس، فلم يزل يتلوها، ودعونا الله تعالى أن يوصلنا إلى غايتنا بأمان كما خرج رسول الله ﷺ من «مكة المكرمة» إلى «المدينة المنورة»، وكان محاطاً بالأخطار، ومحددقاً بالأشواك، يتابعه الأعداء، فببركة سورة يس لم يصب شيء، فافتدينا بهذه الأسوة.

وبقي من الرحلة ١٥ ميلاً، وكانت الشمس محرقة، ولم يكن لدينا ماء للشرب،

وفي هذا الحر الشديد والعطش المذهل واصلنا نظامنا للتعليم والتعلم، وسهّل الله هذه الكربة وهوّن علينا السفر، وبعد عشرة أميال من السفر وجدنا منطقة فيها أشجار وخضرة، فاسترحنا قليلاً في ظل هذه الأشجار، وشكرنا الله تعالى، وكنا نعد أنفسنا لحلقة التعليم، اقتطف أحد الإخوة بعض الثمار من حديقة «دير قريب»، فقلنا: قبل أن نأكل هذه الثمار يجب أن يسمع كل شخص قصة، وشرحنا طاعة الأمير، ثم حكينا قصة والد الشيخ عبد القادر الجيلاني أبو صالح لأكل التمرة، وتذاكرنا أمر قطف الثمار بدون الإذن، ثم قررنا أن نعتذر إلى صاحب الحديقة، فتوجهت جماعة مكونة من ثلاثة أشخاص فيها الأمير والشخص الذي قطف الثمار واعتذرت الجماعة إلى الراهب، فأعجب الراهب بهذا السلوك، وسرّ كثيراً، وقال: خذوا ما طاب لكم من ثمار هذه الحديقة، وأي خدمة أخرى نحن مستعدون لها، ثم واصلنا المسير، وبعد خمسة أميال وصلنا إلى غايتنا، واسم هذه القرية «كلاعون».

وصلنا القرية، وصلينا الظهر، ثم جلسنا للمشورة، وتقرر أن نتغدى أولاً، وكنا نفكر في تهيئة الطعام، فقال رؤساء القرية: إنهم سيحضرون الطعام، وقلنا لهم: إن نظام الجماعة يقتضي أن نتحمل إعداد الطعام بأنفسنا، فإن دعوتنا للتبليغ فرض وعزيمتكم سنة، وستقبل عزيمتكم، ولكن بعد أن تقبلوا دعوتنا، فوعدونا بمساعدتنا بعشرين شخصاً، ثم اشتغلنا بأعمالنا: جولة عامة، جولة خاصة، حلقة للتعليم، تلاوة القرآن الكريم، الاهتمام بالصلاة مع التكبيرة الأولى، قيام الليل، والذكر والفكر، والتعلم والتعليم، الدعوة العامة، والدعوة الخاصة، البيان، تشكيل الجماعة، تعليم المبادئ آداب الطعام، آداب النوم، مذاكرة الحديث، والدعاء ما استطعنا، وقدم ١٢٢ شخصاً أسماءهم للخروج معنا.

عقدنا في اليوم الثاني صباحاً اجتماع النساء، وقدمت ٢٥ امرأة أسماءهن للخروج في جماعة النساء، وعقد الاجتماع، وأسدل الستار بين الخطيب والنساء، وتقرر أن يعقد اجتماع مماثل كل يوم جمعة صباحاً، يجري فيه التعليم للصلاة، نتعلم فيه الدين وتجتهد النساء المسنات كل أسبوع في شكل جماعة لتشكيل النساء في قرية أخرى للجماعة، وإذا عقد زواج في القرية يجب أن تشترك فيه النساء اللاتي خرجت

في الجماعة، ويقدمون في الحفل دعوتهم، ويؤكدون على النساء أن يقنعن رجال بيوتهن على الاهتمام بالصلاة في المسجد، ويعودون أولادهم على الصلاة، ويعلمهم الدين ويلقنهم الأعمال الصالحة، ثم وزعنا الكتب الإصلاحية في اللغة البورمية، ثم رافقنا في اليوم الثاني ٢٢ شخصاً عندما خرجنا إلى قرية أخرى تقع على بعد خمسة أميال، وشكلنا هنا جماعة، وجمعنا الرجال والنساء للدعوة، وانضم إلينا أحد القادة العسكريين، وتأثر ببرامجنا، وقضى معنا عدة ساعات، واشترك في الدعاء، ثم توجهنا إلى قرية أخرى، مارين بغابات موحشة، وشكلنا جماعة للنساء والرجال، ثم شكلنا جماعة، وسافرنا برّاً إلى خمسة أميال، ثم ركبنا سفينة، وكان على كل سفينة أمير، وجرى ذكر «لا إله إلا الله» في سفينة، وذكُرُ «الله الله» في سفينة أخرى، وذكُرُ كلمة الشهادة في السفينة الثالثة، وكان ذلك الذكر يدوي في الفضاء، ونزلنا إلى البر بعد رحلة خمسة أميال، وشاهدنا تأسيس مسجد في الطريق، فوقفنا ودعونا، ثم سرنا ميلين، ووصلنا إلى موقف حافلات، وكنا في انتظار حافلة عندما علمنا أن الشيخ الحاج عبد المجيد السورتي موجود في القرية المجاورة، فتوجهنا إليه، وهنا وجدنا نزاعاً حول مسجدين ومدرستين، ف عقدنا الاجتماع، وشكلنا جماعة من الفريقين، وانتخبنا من المنطقتين، وتقرر أن يجري العمل في مسجد في جمعة وفي مسجد آخر في جمعة أخرى، ويكون أمير منطقة أخرى تابعاً للأمير المنطقة التي يجري فيها العمل، وأن يجري العمل بالمشورة.

الجماعات الراجلة في العالم العربي:

كانت تجربة الجماعات الراجلة في «الهند» مشجعة وموفقة للغاية بنتائجها وتأثيرها على المناطق التي كانت تغطيها هذه الجماعات، ففكر الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي في القيام بهذه التجربة في البلاد العربية أيضاً، فأكد على القيام برحلات على الأقدام في الدول العربية، ولما بدأ العمل بهذه التجربة أبدى سروره البالغ. والواقع أن الجماعات الراجلة تصل إلى أماكن لا تستطيع أن يصل إليها الجماعات التي تسافر على المراكب، من القرى النائية، والمناطق الجبلية التي لا يصل إليها الناس لوعورة الطرق، وعدم وجود تسهيلات السفر، فتصل الجماعات الراجلة إلى

هذه المناطق، كما أن السفر في هذه المناطق يحمل من الأخطار والمجاهدات والأتعاب النفسية ما لا يحمله السفر بالمراكب، فيتعود العاملون على تحمل صعوبة السفر، واحتمال المكروه والأذى في سبيل الدعوة، وكل ذلك يساعد على تربية النفس، وتزكيتها، وكان يعتقد أن نجاح هذا العمل في هذا المركز العالمي سيؤثر على العالم بأسره، ولذلك كان يوجه الجماعات الراجلة إلى «الحجاز»، ويؤكد عليها ويتابع أخبار الجماعات العاملة في «الحجاز»، ويفكر في وسائل توسيع نطاقها، وانتشارها إلى المناطق الأخرى.

وبتوجيه الشيخ محمد يوسف بدأت حركة الجماعات الراجلة في «مكة المكرمة»، ثم توسع نطاقها إلى «جدة»، و«المدينة المنورة»، واستمر هذا العمل، وكانت هذه الجماعات تقيم في المناطق القروية الواقعة على الطريق، وتواصل عمل الدعوة، فكان لها أطيّب الأثر.

توجهت جماعة راجلة من «مكة المكرمة» إلى «المدينة المنورة» في عام ١٣٦٩هـ، فلما أبلغ الشيخ محمد يوسف بهذه الرحلة، أعرب في رسالة له عن سروره البالغ ودعا للجماعة بالبركة والقبول.

يقول الشيخ محمد يوسف في رسالة التي وجهها بهذه المناسبة:

«في هذه البقعة المباركة حيث تضاعف كل حسنة مائة ألف مرة، وحيث تقبل الدعوات للرحمة على العالم كله، ونشاهد ذلك بأعيننا، تلقيت خبر رحلة جماعة راجلة من «مكة المكرمة» إلى «المدينة المنورة» بسرور بالغ، جعل الله سبحانه وتعالى هذه الرحلة المباركة صورياً وسيلة لانتشار هذه الحركة، وعد هؤلاء الإخوة في السابقين في حصول الأجر والثواب على العمل بأصول الدعوة».

وكتب في رسالة أخرى بعث بها إلى ميان جي عيسى الذي كان في تلك الأيام في «الحجاز»، وهو يؤكد على أهمية الدعوة ماشياً على الأقدام في هذه الأرض الطيبة، وبركات العمل وثمارها، فكتب يقول: «سررت جداً بوصول جماعة راجلة من «مكة المكرمة»، أدعو الله تعالى أن تزدهر ببركة هذه الحركة الدعوة النبوية في العالم كله، ويجعل هذه الحركة وسيلة لانتشار هذه الدعوة، وأن يهيئ فرص اتباع

الرسول ﷺ ومحبه، والاستفادة من منيع فيضه ونوره وكماله للأجيال القادمة، ليت هذه الحركة بفضل جهودكم ودعواتكم تصل إلى مكان وطئته أقدام أصحاب الرسول ﷺ الذين اقتبسوا من نبراس الرسول ﷺ، ونشأوا في تربيته، وحملوا دعوته، ولا تزال تلمس آثار بركاتهم وروحانيتهم، وهي أمانة في النفوس، ولا تزال أبواب الاستفادة من هذا الطريق مفتوحة إلى يومنا هذا^(١).

كانت جماعة تعترم الحج، وقضت فترة من الزمن في «بومباي» عاملة في أوساط الحجاج، فوجه الشيخ محمد يوسف عناية الإخوة العاملين في الجماعة والمسؤولين عنها إلى العمل في «الحجاز»، وأشار إلى خطورة العمل وأهميته، وأكد على ضرورة تنظيم عمل الجماعات الراجلة وترشيده، والاهتمام بالمبادئ وقضاء الوقت حسب نظام الجماعة، فكتب يقول:

يجب أن يبذل الجهد لتنظيم عمل الرحلات الراجلة والسيطرة عليه لكي يكون مطابقاً لمبادئ الجماعة وآدابها، فعليكم أن تعينوا الإخوة الذين يشرفون على هذا النظام ودعمهم بإخوة جدد، لكي تصل الجماعات إلى كل مكان توجه إليه الرسول ﷺ، وفي كل مكان عمل فيه أصحابه الكرام وتحملوا الشدائد في سبيل الدعوة.

توجهت جماعة إلى «المدينة المنورة» في ١٣٧٠هـ، وواجهت هذه الجماعة صعوبات كثيرة، ومشاق السفر، فلما علم الشيخ محمد يوسف ذلك كتب رسالة يهنئ فيها الإخوة على هذه المكابدة:

«سررت جداً بخبر الوصول إلى «المدينة المنورة» من «مكة المكرمة» رغم الصعوبات والشدائد في الطريق، إن رحمة الله الغامرة تنزل على عباده الذين يسعون للحصول على رضاه رغم الأحوال الظاهرة والموانع الشديدة، ويحتملون المكروه والأذى من أجل ازدهار الدين وإحياء ما كان عليه الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، فتفتح عليهم أبواب النصر من كل جانب، تقبل الله سفركم هذا وجعله

(١) كتب هذه الرسالة في ١٣/ شوال ١٣٦٩هـ.

وسيلة لنزول رحمته ونصرته وتأييده، وأن يكتب لكم ازدهار عملكم، وهداية الإنسانية كلها اتباعاً على طريق الرسول ﷺ، واقتداءً بأسوته.

وزاد تأكيد الشيخ محمد يوسف على الرحلات الراجلة وترغيبه فيها، وذكره الفضائل والبركات لهذه الحركة، في رسائله المتتابعة من حماس العاملين ونشاطهم ورفع روحهم المعنوية وأعلى همتهم وأحدث منهم الشوق إلى تحمل المكروه والشدائد وكتب لهم اللذة في هذا العمل والذوق فيه، فتسابق إليه الإخوة وتضاعفت جهودهم وتضاعدت مساعيهم، وتضخمت نشاطاتهم، وهم يرجون القبول عند الله، فانتشرت الجماعات الراجلة في كل منطقة من مناطق الحجاز، وقامت حلقات التعليم، وحركات الداعين إلى الله، ودوى الفضاء بالذكر والتسبيح لله والتلاوة، فاستفاد سكان هذه المناطق بهذه الحركة، ونشأت فيهم حركة لتعلم الدين، والدعوة إليه، وانتعشت في قلوبهم عاطفة الفداء والتضحية في سبيل الله، وتجدد إيمانهم، ثم بسطت شبكة لهذه الجماعات بعد «الحجاز» في مناطق أخرى من العالم العربي، ولم يكن غرض هؤلاء العاملين إلا حصول رضا الله، ونشر دينه، وتبليغ رسالته، وإعداد النفوس للتضحية في سبيله، وأكتفي في هذا الصدد بذكر بعض النماذج التي تدل على مدى جهود هذه الجماعات، وما تحملت في سبيل الدعوة من مكاره وشدائد.

ازداد نشاط الخروج من «جدة» إلى «مكة المكرمة»، وكانت هذه الجماعات تزور مواطن البدو، الواقعة في الطريق بين «جدة» و«مكة»، وتمكث مع سكان هذه المناطق وتقيم في أوساطهم حلقات التعليم وتقوم بالجولة، وتعقد اجتماعات، وتحثهم على الخروج في سبيل الله.

من «مكة المكرمة» إلى «المدينة المنورة»:

مثل الحركة بين «جدة» و«مكة المكرمة» تضاعفت حركة الدعوة من «مكة المكرمة» إلى «المدينة المنورة»، فكانت تخرج جماعات متتالية على هذا الطريق، ونذكر هنا انطباعات لأحد الإخوة:

«بركة دعواتكم وأمانيكم الطيبة، توجهنا إلى «المدينة المنورة» في جماعة راجلة بعد انقضاء أيام الحج في ٢٨/ ذي الحجة ١٩٧١م، ومررنا في الطريق

بـ «فاطمة»، و «وادي عسفان»، و «وادي خليص»، و «وادي قديد»، و «وادي كلية»، و «بدر»، و «وادي حمراء»، و «رايغ»، و «مستورة»، و «بثر الشيخ»، ووصلنا إلى «المدينة المنورة» بسلامة الله، بعد العمل في جميع هذه الأماكن، من جولات، ولقاءات، وحلقات التعليم، والاجتماعات، ويجدر في هذا الصدد ذكر قصة طريفة: كانت جماعتنا تمر بمكان، وهي تحمل أمتعتها على رؤوسها، وكانت مشغولة طول الطريق بالتعليم والذكر، وكان طفل يبلغ من العمر ٨ سنوات، وهو يحمل حقيبة المدرسة، يتوجه إلى المدرسة، فلما رأى الطفل هذه الجماعة، وقف في طريقه، وعجب عجباً شديداً، وسأل مستغرباً: من أنتم؟ فقال رجال الجماعة: نحن هنود وباكستانيون، فقال الطفل: ما شغلکم؟ فأجاب رجال الجماعة: الدعوة والتبليغ، فسرّ الطفل بهذا الجواب، وابتسم، وقال: والله شغلکم طيب، وأجل ذهابه إلى المدرسة، وأصرّ على أن تذهب الجماعة إلى بيته، ولا يرضى إلا أن نذهب إلى بيته، فذهبنا إليه، فأكرمنا واحتفى بنا أهل البيت، ثم سأل الطفل: ماذا يوجد في بلادكم «الهند» و «باكستان»؟ قلنا: مبان ضخمة، ومدارس وحدائق وأنهار، فقال: وهل يوجد فيها بيت الله؟ قلنا له: لا، لا يوجد بيت الله، فقال: فماذا يوجد إذا لم يوجد فيها بيت الله، وبيت الرسول ﷺ.

من «المدينة المنورة» إلى «اليمن»:

انقسمت الجماعة التي سافرت من «مكة المكرمة» إلى «المدينة المنورة» إلى جماعتين، وتوجهت الجماعة التي كان أميرها المنشى الله دتاً إلى «اليمن»، أما الجماعة الثانية التي يرأسها الشيخ يعقوب السهارنفوري فسافرت إلى «سوريا»، وفيما يلي تقرير عن الجماعة التي سافرت إلى «اليمن»:

«غادرت الجماعة المتوجهة إلى «اليمن»، «المدينة المنورة» في ٨/ نوفمبر/ تشرين الثاني إلى «الطائف» راكبة؛ لأن المواضع التي تقع إلى «جدة» قد غطتها هذه الجماعة، ثم سافرت الجماعة من «الطائف» راجلة، وأقامت أولاً في «وادي نمل»، ويوجد في «وادي النمل» مسجد ينسب إلى سليمان عليه السلام، وعلى المسجد كتبت هذه الآية الكريمة: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّملُ أَذْخُلُوا مَسْكِنَكُمُ لَا يَحْطَمَنَّكُمْ سُلَيْمَنُ

وَجُنُودُهُمْ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٧﴾، ثم مرت الجماعة بوادي «لية»، و «وادي قرية الغنم»، «قرية الصخرة»، «وادي هماله»، «وادي عباس»، «قرية عدن»، «وادي القرآن»، «وادي نجران»، «قبيلة بني سعد»، «قبيلة»، «قرية خوكه»، «قرية زمانية»، «قرية سرعة»، «وادي سليم»، «قبيلة بني مالك»، «قرية غامد»، «بني سقيف»، «بني أحمر»، «أبها»، ثم دخلت الجماعة «اليمن»، وأقامت في غرب اليمن أحد عشر يوماً، ثم زارت مناطق أخرى، وعملت فيها، وواجهت الجماعة في بعض هذه الأماكن صعوبات كثيرة، فقد ضلت في بعض المناطق الطريق، وفي بعض المواقع أجبرت على الإقامة في غابة موحشة، فكانت الجماعة تهتم بصلاة الحاجة والدعاء والتضرع إلى الله، ليكشف الغمة. وفي أحد الأماكن كانت الجماعة قد ضلت الطريق وكانت المنطقة جبلية، فغيران عميقة، وكهوف كانت مخيفة وطرق ملتوية، فرجعت الجماعة إلى الله، وأدت صلاة الحاجة وسارت متوكلة على الله، وفي الصباح الباكر ظهر شخص غريب، وكان يعرف الطريق، فقاد الجماعة وصار دليلاً، فلما نزلت الجماعة من الجبال وعرفت الطريق، غاب ذلك الرجل، وقطعت الجماعة هذه المسافة في سبعة أشهر، ووصلت إلى «اليمن» في شهر رمضان المبارك.

في «جيزان» و «أبها» :

قامت الجماعة بالرحلة الأولى راجلة إلى «أبها» و «جيزان»، وتستحق هذه الرحلة الذكر لاعتبارات كثيرة، وهي تبعث على الأمل، وفيها عبر ودروس للعاملين في سبيل الله، ويتضح ذلك في رسالة كتبها أحد أمراء الجماعة، فكتب يقول في رسالته :

«كانت جماعتنا تتكون من عشرة أشخاص، وتوجهت هذه الجماعة من «مكة المكرمة» ووصلت إلى «جدة»، ومنها إلى ميناء «ليس»، وهو ميناء قصير، وأقامت الجماعة في «ليس» ثلاثة أيام، وكان مركزنا المسجد الجامع، كنا نخرج للجولة، ونعقد الاجتماع، وأقمنا نظام أربع وعشرين ساعة، ثم خرجنا بالحافلة إلى «قنفذة» في الجنوب، وأقمنا هناك أسبوعاً، وتلبية لطلب أمير «قنفذة» عقدنا بعد صلاة الجمعة اجتماعاً، حضره سكان المنطقة، وبعد البيان شكلنا الجماعة وساعدنا سكان المنطقة

في إقامتنا بـ «قنفذة» مساعدة كاملة ونصرونا، وبعد «قنفذة» توجهنا إلى «جيزان» وكانت مفاجأة، أننا لم نجد أولاً أي وسيلة للسفر، فانتظرنا طويلاً فدعا أحد الإخوة متضرعاً إلى الله أن يفتح لنا الباب، ويهيئ لنا وسيلة للسفر، وبعد قليل وصلت عربة، فشكرنا الله وركبنا، فوصلنا إلى «جيزان» راكبين، واستغرق السفر ثلاثة أيام وثلاث ليال، وأقمنا في «جيزان» أسبوعاً في المسجد الجامع، وساعدنا رئيس القضاة مساعدة كبيرة، ووجدنا كل معونة وتأييد من أمير «جيزان»، وكنا قد التقينا بأمر منطقة مجاورة لـ «جيزان» في «جيزان»، وبناء على دعوته توجهت جماعة إلى تلك المنطقة، وتحدث في الاجتماع الشيخ سليم، وهياً لنا أمير المنطقة عدة جمال مع الحمالين للسفر، وسافرنا طول الليل، وكان بعض الإخوة يمشون على الأقدام، وأدينا صلاة الفجر على شاطئ نهر، ثم توجهنا إلى «أم الدرب» وتخلف عنا الإخوة المشاة وانتظرناهم على النهر، ولكن الحمال أصّر على مواصلة السفر؛ لأن السفر كان طويلاً وكان الطريق صحراويّاً، لا ماء فيه ولا ظل، ولذلك يجب أن نصل قبل المساء إنى غايتنا، فتقدمنا متحسرين على إخواننا الذين تخلفوا عنا ويشننا منهم، وتوكلنا على الله، وبفضل الله وصل إخواننا بسلامة بعد قليل، وقالوا لنا: إنهم واجهوا شدائد في أثناء السفر حتى يشسوا من الحياة، ولم يجدوا شيئاً للأكل، فأكلوا الخشب الجاف، ولكن الله سلّم، فوصلوا.

وكانت حالتهم سيئة للغاية، إلّا أن الأمير اعتنى بإسعافهم، وأكرم مثواهم، وقد شرب أحدهم عندما عرض عليه الماء بعد مدة طويلة قضاها في الظم الشديد، فتدهورت صحته، وكاد أن يموت إلّا أنه أفاق بعد قليل، ومكثنا في «أم الدرب» ليلة واحدة، وكان الجميع في غاية من التعب والنصب والنقاهة، حتى الأمير صلى قاعداً، وألقى خطبة مضطجعاً على الفراش؛ لأنه كان لا يستطيع أن يقعد فضلاً عن أن يتكلم واقفاً لمرضه، ولكن هذه الأحوال للمجاهدة وتحمل الشدائد من أجل الدين أثرت في قلوب السكان العرب، واهتموا بأمورنا، وأنصتوا لكلامنا وأصغوا إلينا.

ومرت الجماعة في هذه المنطقة بمحنة، فإن أحد الإخوة قد غضب على أحد العاملين، ولا ندري ماذا كان سبب هذا الغضب، وبلغ غضبه غايته عندما انفصل عن

الجماعة وترك الخروج معها، فتوجه الإخوة التسعة الباقون إلى «أبها»، وكان المنزل الأول «شيبين»، والثاني «رجال المع»، وقضينا في كل منزل ليلة واحدة، فلما وصلت الجماعة إلى رجال المع، انضم إلينا ذلك الأخ الذي كان تركنا غاضباً، واعتذر عما صدر منه من سوء خلق وعدم امتثال أوامر الأمير، وتاب، وذكر ما واجهه من أخطار في طريق سفره وحيداً، وما تحمله من محن شديدة، ولكن الله حفظه. ومنطقة «رجال المع» معسكر كبير، وفيها مناظر جميلة، ومنايع كثيرة وخضرة منتشرة، وجوها بارد، وهي مدينة صغيرة، تقع على الجبال، وأقمنا في مسجدتها الجامع يوماً وليلة، وألقى الأخ الذي كان قد انفصل عنا خطبة مجلجلة في الدعوة قبل صلاة الجمعة، وكان الإخوة الآخرون في حالة صحية غير طيبة، كانوا يعانون من عدة أمراض.

وبعد «رجال المع» اعترضت سبيلنا منطقة جبلية، صعب على الذين كانوا مرضى أن يصعدوها، ولكننا بنصرة الله وتأييده وصلنا في ست ساعات إلى قمة الجبل، وكنا قد صلينا الفجر في المنطقة السفلى، وصلينا الظهر فوق الجبل وتقدمنا منها إلى «أبها»، ووقفنا لصلاة العشاء في الطريق، وبعد بيان موجز، واستراحة قصيرة واصلنا الرحلة، فوصلنا إلى «أبها» لدى الظهر، ورافقنا في هذه الرحلة بكاملها أخ يماني، وكان معنا جمل واحد للأمتعة في سفرنا من «أم الدرب» إلى «أبها»، وكان إذا مرض أحد أو تعب تعباً شديداً يركب الجمل، وكنا نحمل الرسالة التي كتبها قاضي «جيزان» إلى قاضي «أبها»، وطلب فيها مساعدتنا، فلما كنا ندخل «أبها» حاضرننا رجال الشرطة، وكنا لا نحمل أي مستندات للسفر، فذهبوا بنا إلى مخفر الشرطة وحبسونا أولاً، وتكلم معنا المدير بلهجة شديدة، وعاتبنا ونحن واقعون أمامه كمجرمين، وقال: بدون إذن أمير «أبها» لا يمكن أن تقيموا هنا، وتحمل منطقة «أبها» أهمية عسكرية، وهي متحضرة للغاية، وفيها مناظر جميلة، وتكثر فيها الثمار والفواكه، وفيها مراكز وأسواق، ومواصلات راقية.

كان أمير «أبها» الشيخ السديري ذا أبهة وشأن مثل الأمراء والملوك، وقيل لنا أن أسمائنا ستقدم إليه، وبإذنه يمكن أن ندخل البلدة كما أننا لا نستطيع أن نتحرك

أو نذهب إلى أي مكان آخر، وخلال هذه الإجراءات وصل صدقة شخص كان قاضياً من قضاة «أبها»، وكان يعرف عن جماعتنا، فقال للمدير: إن هذه الجماعة من «مكة المكرمة» وتعتقد اجتماعات دعوية يوم الجمعة للإخوة العرب في مدرسة مجاورة للحرم، وإنه اشترك في بعض هذه الاجتماعات، ولذلك طلب بإكرام الجماعة ونصرتها؛ لأنها جماعة رشد وهداية، فتغير بهذا الكلام موقف المدير الذي كان في حالة غضب شديد وبدأ يلين، ويعاملنا معاملة اللطف والإكرام، وبعد تغير موقف المدير بدأنا نحاوره في جو أخوي فظهرت صلة أخرى، وهي أن هذا المدير هو زوج أخت الشيخ يحيى الدهلوي الذي له صلة بالجماعة، فازداد إكراماً لنا وسمح لنا بالإقامة في أي منزل نكتره، فاكترينا أحد المنازل، وأرجعنا الجمل، ثم توجهنا إلى نائب رئيس قضاة «أبها»، للقاءه شخصياً، وعرضنا عليه رسالة قاضي «جيزان»، وقرأ نائب رئيس القضاة الرسالة ثم وجه إلينا بعض الأسئلة العلمية، وأبدى ارتياحه، فطلب منا بأن نلاقي أمير «أبها»، ووعد قاضي «أبها» أن يأخذ منه الموعد، فذهبنا إلى الأمير مع القاضي، وقام القاضي بتعريفنا وعرض عليه الرسالة، ثم تحدث إلى أمير «أبها» وأكد على ضرورة السماح لهذه الجماعة بأن تباشر عمل الدعوة، ووعد أنه سيراقب نشاطاتها ويقوم بترشيدها، فوافق الأمير على هذا الطلب، وأصدر أوامره بأن تقدم إلى هذه الجماعة جميع التسهيلات، وأن يسمح لها بعقد اجتماعات في المساجد، وقد احتيج إلى مثل هذا التصريح من الأمير؛ لأن الجماعة عندما أوقفت على الحدود، وحجزت، ومنعت من الدخول، شاع بين الناس أن عشرة من الجواسيس أو اللصوص قد قبض عليهم، فزالت هذه الشكوك والشبهات من الأذهان بهذا الإعلان.

أقمنا في «أبها» أسبوعاً، وانتقلنا من منزل الكراء إلى المسجد في اليوم الثاني، وأقمنا فيه أربع وعشرين ساعة، ثم قمنا بعقد اجتماعات، وعقدنا حلقات التعليم في المساجد الأخرى، وقمنا بالجولات واللقاءات الشخصية مع الأعيان والمسؤولين، وكان من بينهم مفتش الشؤون المالية الذي شغل منصب مدير المالية في «المدينة المنورة» قبل ذلك، وكان من مساعدينا ومؤيدينا منذ ثلاث سنوات، واستقبلنا استقبالاً حاراً، ورحب بنا، ثم نظم لقاء خاصاً مع معارفه والعاملين تحت إشرافه،

وشرحنا أمام الجميع غايتنا، وعرضنا عليهم نتائج جهودنا، وذكرنا لهم أهمية عمل الدعوة ومنهجها المتبع، وجهود مشايخنا بالتفصيل، وكان المفتش يؤيدنا ويصدقنا، وأصرّ سكان «أبها» على أن نمدد إقامتنا في «المدينة المنورة» ونزور المناطق الأخرى، ونعرض الدعوة على سكانها، ولكن الجماعة كانت تشتمل على عدد من تجار «مكة»، وكان بعض رجالها من الحجاج من الدول الأخرى، وكان بعضهم يرغب في العودة سريعاً إلى «مكة المكرمة» لدنو الحج، وقد انتهت مدة أربعة أشهر، وكان أكبر سبب للرغبة في الرجوع أن أكثر أعضاء الجماعة مرضوا وسافروا في حالة المرض، وقاموا بعمل الدعوة في النقاها أو حالة المرض، وتحملوا الشدائد في السفر، فاتفقنا في المشورة أن نرجع، فعدنا إلى «الطائف» راكبين، واستغرق السفر عدة أيام وليال، ثم أقمنا في «الطائف» ثلاثة أيام، وعلم أهل «مكة» عودتنا فأرسلوا جماعة منها لنصرتنا إلى «الطائف»، وبعد وصول هذه الجماعة عقدنا اجتماعاً بعد الظهر في مسجد عبد الهادي، وكان البيان باللغة العربية، واشترك في بعض البيان رئيس القضاة الشيخ عبد الله بن حسن، ثم أيد دعوتنا وأوصى بالاختصار، لأن البيان كان طويلاً.

الرحلة الثانية إلى «أبها»:

بعد هذه الجماعة توجهت عدة جماعات إلى هذه المناطق، ويكتب أمير إحدى هذه الجماعات في رسالة له:

«وصل أحد عشر نفرًا من «الطائف» إلى «أبها»، وسارت السيارة طول الليل، بدأوا رحلتهم يوم الثلاثاء، ووصلوا يوم الأربعاء ظهراً، وسرنا راجلين ساعتين في الجبال؛ لأن الطريق لم يكن ملائماً لسير السيارة، وكانت الرحلة بالسيارة مليئة بالأخطار، ومررنا بـ «وادي بطحان»، وهو واد خصيب وواسع، وهذا هو الطريق الجديد الذي اخترناه، وفي هذا الوادي تكثر أشجار الرمان والعنب، وكان الإخوة يريدون أن يقفوا في هذه المنطقة لعمل الدعوة، ولكن برنامجنا المقرر لم يسمح لنا بالوقوف ولو قليلاً، فواصلنا السفر مُقَدِّرِينَ لعواطف الإخوة المتصاعدة، والحمد لله على ذلك، ونلاقي في كل مكان نزوره تجاوباً حاراً من السكان، وترحباً منهم، وهو

على أي حال مشي غير عادي من الاعتبارات المادية، ووعد ممن لم يستطيعوا الخروج معنا بأنهم سيخرجون حَالَمًا تتاح لهم الفرصة، وستوجه من هنا إلى «قرية القرى» راجلين، ونرجو أن جماعة «الظهران» تكون قد غادرت وستشكل جماعة لـ «ينبوع النخل»، وإذا لم يكن أحد مستعداً للسفر إلى مسافة بعيدة، فـ «أبو سفيان» قرية منا، ونرجو أنهم يستعدون لإقامة الليالي، ونسأل الله التوفيق للعمل للآخرة والفكر فيها.

من «المدينة المنورة» إلى «سوريا» :

توجهت جماعة من «المدينة المنورة» إلى «سوريا»، وواجهت في الطريق صعوبات ومشاق السفر، وعوائق كثيرة، ثم نصرها الله سبحانه وتعالى على هذه المجاهدات المُضنية، وتلقي الرسالة الآتية لأحد أعضاء الجماعة الضوء على الظروف القاسية التي مرّت بها الجماعة :

«بدأت رحلتنا هذه من «المدينة المنورة» في أواخر عام ١٩٥١م، وقال لنا السكان المحليون: إن الماء متوفر على كل محطة، فسافرنا على خط سكة الحديد لـ «الحجاز» المتكسرة التي كان الأتراك قد أنشأوها لكيلا يجد المسافرون صعوبة في المياه، ولكن بمرور الزمن أصبح هذا الطريق مهجوراً، وجُفَّت الحنفيات وبَلَيْتْ، فلا تحمل قطرة ماء، وقد وثقنا بما قاله الإخوة، وبدأنا السفر، ولكن خاب أملنا ولم نجد قطرة ماء على أي محطة، ووجدنا الحنفيات فارغة، وسلكنا على خط سكة الحديد الذي يطول ٢٢ ميلاً، وبعد هذه المسافة وجدنا آباراً عميقة، وكان فيها ماء، ولكن لم يكن الماء طيباً، وكان لا يصلح للشرب، فتقدمنا، فوجدنا سكة الحديد تميل إلى جانب، وظننا أن الطريق المنحني لسكة الحديد يطول، تركنا خط القطار وسرنا على الخط المستقيم، وبعد مسافة قصيرة، غابت عنا سكة الحديد وضللنا الطريق، وانحرفنا إلى الشمال بدلاً من التوجه إلى الجنوب، ولكن الله نصرنا بعد مسافة قصيرة، وصادفنا أعرابياً، وسألناه عن الطريق، وقلنا له إننا نقصد «تبوك»، فقال: هذا الطريق يؤدي إلى «ينبوع البحر»، وكنا نحمل أمتعتنا، وكان السفر شاقاً والظمأ شديداً، فشعرنا بتعب شديد، وصعدنا الجبل، وكان الحر شديداً، وكان كل رفيق في

غاية من التعب، لكن الأمير شجعنا بتلاوة الآية الكريمة: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾، وما كدنا نصعد الجبل إلّا ووقعت أنظارنا على طريق منحدر، فربطنا أمتعتنا على ظهورنا وبدأنا ننزل قاعدين، ونزلنا بسلامة الله، وتجلت لنا على خطوات منا حفرة كان فيها ماء، وإن كان قليلاً، وكان يكفي لإرواء الغليل، واستعملنا الإحرام لوقاية أنفسنا من الشمس، ثم أعددنا الطعام وتغدينا، وشكرنا الله تعالى، ثم ملأنا قريبتين من الماء واستأنفنا الرحلة، وما تقدمنا خطوات إلّا وصادفنا شاحنة متجهة نحونا، ورضي سائقها أن يركبنا إلى منطقة «عُلي»، ونزلنا في هذا المكان واسترحنا، وإذا بأعرابي يحمل الرطب توجه إلينا، ويقدمها هدية لنا، وقبل أمير الجماعة هذه الهدية التي كانت تتكون من كيلو واحد من الرطب، ثم ذهب أعضاء الجماعة إلى السوق، واشتروا الكاز، وجاؤوا بالماء، ثم طبخنا الطعام، وكان المسجد الذي أقمنا فيه بدون سقف، صلينا الفجر، وألقى أحد أعضاء الجماعة كلمة شرح فيها الدعوة ومبادئها، وكان بعض رجال الشرطة حاضرين في البيان، وقضينا أربعة أيام مقيمين في هذا المسجد، وحيث إننا كنا غرباء ثارت في أذهان بعض السكان شكوك وشبهات عنا، وأشاعوا عنا ما لا يليق بنا، فألقت الشرطة القبض علينا، وقدمنا إلى أمير «عُلي»، فأوضحنا له سبب قدومنا وشرحنا له دعوتنا، وطلب أمير الجماعة من أمير «عُلي» بأن يسمح لنا بالجولة طول النهار ولقاء الناس، فوافق الأمير على طلبنا، وأتيحت لنا الفرصة للقيام بجولة، وفي الليل كنا ننتقل إلى السجن، ومن الغريب أن قاضي «عُلي» قد أقام مأدبة تكريماً لنا، فكنا أحراراً في النهار وأسرى في الليل، وكان ذلك نوعاً من الضيافة الرسمية لنا، كنا نواصل مجهودنا وبدون مؤنة أو همّ للطعام والشراب والسكن.

وبعد بضعة أيام أطلق سراحنا، وتقدمنا في السير، وبعد مسافة وجدنا فيها خط سكة الحديد الذي كنا ضللنا عنه، وبدأنا سفرنا بعد الظهر، وبعد صلاة العصر أصيب أحد إخوتنا من الميواتيين بالحمى، وكانت هذه المنطقة محاطة بالجبال الشامخة الموحشة، ولكن علينا أن نمر بها حاملين أمتعتنا على رؤوسنا، واقتسم الإخوة متاع الأخ الذي أصيب بالحمى لتخفيف مؤنته، وواصلنا السير، وبلغ من الأخ الميواتي المريض التعب كل مبلغ قبل المغرب، وقال: إنه لا يستطيع السير، وكانت الرياح

عاتية والظلام سائداً، والجبال الشامخة تحيط بنا من الجانبين، فلا نملك إلا الدعاء والتضرع إلى الله، ولا عدة لنا إلا التوكل على الله والثقة بنصره، فكنا نسبحه ونستغفره ونصلي على النبي ﷺ، فإذا بقبس من نور، فقصدناه، ولكونا في الجبال كان هذا النور يتجلى حيناً ويختفي حيناً آخر، تعترض بيننا وبينه الجبال، إلا أننا نسير نحوه حتى وصلنا إليه في الساعة العاشرة ليلاً، فإذا بخيام للبدو، وهم الذين أوقدوا النار، فعادت أنفاسنا إلينا واسترحنا، وهتفنا جميعاً يا أهل البيت، يا أهل البيت، وسمعنا من بعيد يقول: من، من، من ينادي، فقلنا: نحن، حجاج بيت الله الحرام، فدعونا لما علموا أننا الحجاج، وأخلو لنا خيمة، ثم ثمانية أو عشرة من البدو، وعلموا أننا نحمل ماء فقدموا لنا الرطب وطلبوا منا الماء مقابل الرطب، وكان الماء قليلاً، لا يكفي للجميع، فتغافلنا عن هذا السؤال وبدأنا نقرأ «رياض الصالحين»، ونشتغل بالتعليم، فلما أصبحنا اكترينا جملاً من الأعراب مقابل أربعين روية مع جمال ليكون دليلنا في السفر، ثم يعود بالجمل بعد انتهاء الرحلة، وكان يركب شخصان متناوبان، وفي منتصف الطريق اعترض الجمال على ركوب الناس، وقال: إن الجمل للأمتعة فقط، قلنا له: إن صاحب الجمل كان وافق على ركوب الناس ولكن لم يرض الولد، وجرت بينه وبين أحد الإخوة كلام حاد تحول إلى جدال، فترك الولد الجمل وفرّ، فأهمنا هذا الأمر، وفكرنا كيف نواصل السفر، ماذا نفعل بهذا الجمل الذي هرب صاحبه، وأخيراً استأنفنا السفر بدون دليل، فضللنا الطريق.

وكانت المنطقة صحراوية، وكان يصعب علينا المشي على الرمال، وكانت الشمس تغرب، فخفنا على أنفسنا، ماذا نفعل في الليل في هذا المكان المخيف، وبلغ التعب من كل شخص من إخواننا كل مبلغ، ولم نستطع أن نتقدم خطوة فوقفنا في الطريق، وكان اثنان من إخواننا ينامان وآخرون يحرسون بالنوبة، وانقضى الليل في النوم واليقظة، وأعددنا الشاهي في الصباح، وعندما طلعت الشمس استأنفنا السفر إلى وقت العصر، وكنا نلتفت إلى الوراء، ليت الجمال يعود، ولم نلبث إذ طلع جمل، ولما اقترب فإذا هو ذلك الجمال، ولكنه لم يلتفت إلينا، بل ظل ينظر إلى كل جانب كأنه ينتظر شخصاً، فتكلمنا معه كلاماً ليناً، وأعاد إلينا الكراء الذي كان صاحب الجمل قد أخذه منا، وأصررنا على أن يقبل الكراء، ورفض إخواننا أن يأخذوه، وقالوا

له: إننا لا نعرف الطريق، فلا بد من أن تدلنا على الطريق، فقال الجمال: أبي غداً، ويرافقكم في السفر، وأني سأعود من حيث أتيت، وسيأتي مع أمير تبوك. وفي هذه الأثناء غشنا الليل، وغلب النعاس علينا، فلجأ ثلاثة منا إلى كهف قريب، وناموا فيه، ونام الآخرون خارج الكهف، فلما استيقظنا فوجئنا بغياب الجمل والجمال، ولم يكن من الماء ما يكفي للشرب وللطبخ فلم نستطع طبخ الطعام، ومن جهة ثانية، أخبر والد الجمال الذي كان يرافقنا، أمير تبوك، الذي كان يتوجه إلى تبوك من هذا الطريق أن بعض المسافرين الأجانب قتلوا ولده، فدهمتنا الشرطة، وحاصرتنا، فكانت هذه مصيبة ما كنا نتوقعها، ووقعنا في موقف محرج شائك.

وصل أمير تبوك، ولكن مع الشرطة، ومعه ذلك الأعرابي الذي شكّا إليه ووجهوا إلينا أسئلة كثيرة، ولكننا توكلنا على الله، ورددنا على جميع الأسئلة، وألقى أمير تبوك نظرة علينا، وسمع مقالنا، فوثق بنا، وأيقن أننا لسنا مجرمين، وأن الأعرابي كذب في شكواه، وبعد مزيد من التحقيق والاستفسار، ربطت أيدي ذلك الأعرابي بظهره، وأركبنا نحن جميعاً مع ذلك الأعرابي على عربة، وتوجه إلى غايته، وكان ذلك نصراً من الله، وبذلك زالت عنا مخاطر السفر والجوع، ووصلنا إلى «أخضر» في الساعة الواحدة وكان به مخيم الأمير، وكانت سيارة الشرطة قد سبقتنا، وكان الطعام جاهزاً، فأكلنا جميعاً، وحمدنا الله تعالى على هذا الرزق الذي لم يكن في حسابنا، وبعد صلاة الظهر، استأنفنا السفر ومشينا حتى العصر، واصطاد الأمير في الطريق ظببتين، ووضعها في العربة، واشتغل رجال الجماعة بعد العصر بطبخ الطعام، فقال القاضي لنا: لماذا تعدون طعامكم وأنتم مع الأمير؟ فقلنا له: هذا نظام جماعتنا، فقال القاضي: هذا سوء أدب مع الأمير، ولا يمكن أن تأكلوا وحدكم وأنتم مع الأمير، وشفع رجال الجماعة في حق الأعرابي الذي كان مكبلاً، والتمسوا إلى الأمير بأن يطلق سراحه ويعفو عنه، فقال القاضي: لا يمكن إطلاق سراحه إلا بعد التحقيق الكامل في أمره، وبعد الوصول إلى «تبوك»، أقامت الجماعة في مسجد، ولكن الشرطة كانت تراقبها، وقال مدير الشرطة: إن فلوسكم ستعاد إليكم، وقد أرسلنا برقية إلى أمير «علّى»، فقال: إن ولد هذا الأعرابي مسجون هنا، وفي اليوم الرابع، استدعت الجماعة، وأعيدت إليها أربعون روبية، ولكن الجماعة

اعتذرت وقدمتها هدية إلى الأعرابي، وسعت إلى الإفراج عنه، وأخيراً أطلق سراحه.

ومن «تبوك» وصلت الجماعة إلى «عمان» بـ«الأردن» على عربية، وكان جو «عمان» بارداً للغاية، وكانت الثلوج تتساقط، وكانت العادة المتبعة في الأردن أن المساجد تغلق بعد الصلاة، ولذلك لم تستطع الجماعة أن تقيم بالمسجد، وقضت ثلاث ليال من إقامتها خارج المسجد، ولم تكن عند رجالها من الملابس الدافئة واللحف ما يكفي لهذا البرد القارس إلاً بطانية خفيفة، فكان رجالها لا ينامون طول الليل ينامون بعض الليل ملتفين بالبطانية وحصر المسجد، ثم يستيقظون من البرد ويرتعدون، وفي اليوم الرابع ذهبوا للقاء القاضي، فقال سكرتيه: إنه مشغول، وظن أننا جئنا للتبرع أو المعونة المالية، فجاء بدفتر وطلب أن نوقع عليه، فسألناه عن سبب ذلك، فقال: إن القاضي أمر بمنح دينارين، فقلنا له: ما جئنا للمعونة، إنما جئنا للقاءه فقط، ولا نبتغي أجراً أو مساعدة، فنقل السكرتير هذا الكلام إلى القاضي فاستدعانا القاضي على الفور، ولما دخلنا قلنا له: إن سماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسيني الندوي قد أرسلنا إليكم، فلما سمع القاضي هذا الكلام سكت قليلاً، ثم قال: أين سماحة الشيخ الندوي؟ قلنا له: إنه جاء للحج وعاد إلى «الهند»، فسرّ القاضي بذلك ورحب بنا وأكرمنا واستبشر بقدومنا وطلب القهوة لنا، وطال المجلس، وهو يستفسر عن «الهند»، والدعوة وأحوال السفر، وطلب منا أن نعود إليه في اليوم التالي، ونتغدى عنده، وفي اليوم التالي جاء سكرتيه وقال: إن القاضي مشغول اليوم، وقد دعاه الملك، ولذلك نرجوكم أن تحضروا للغداء غداً.

وشاهد سكرتيه القاضي أن فراشنا مبسوط في جناح المسجد الخارجي، فتعجب وقال: أنتم تبيتون هنا؟ قلنا: نعم، فاستغرب وحكى ما رآه للقاضي، فأرسل القاضي إلى متولي المسجد وأمره بفتح أبواب المسجد لنا، ففتح المسجد، وكان من فضل الله أنه خصص لنا مكاناً حيث كان الملك يصلي، وكان مفروشاً بالسجاجيد الناعمة المضاعفة النسيج، فمنا نوماً مسكناً، وكان الأطفال عندما يدخلون المسجد، ويروننا يصفقون ويقولون: هنود مساكين.

وفي اليوم التالي جاءت سيارة القاضي الفاخرة لتأخذنا إلى منزله للغداء، أدرك الأطفال أننا لسنا مساكين، وإنما نحن ضيوف رسميون، فسادهم الرعب، وكان للغداء عند الأمير تأثير على قلوب سكان المنطقة وازداد اهتمامهم بنا، والتفاتهم إلينا، وبدأوا يشتركون في حلقات تعليمنا، وحاول إمام المسجد الشيخ سليم بعد أسبوع أن يقنع أحد التجار على أن يقدم إلينا معونة مالية، وعرفنا إليه، وقال لنا: إنه يريد أن يقدم هدية إليكم وأرجوكم أن تقبلوها، ولكننا اعتذرنا باعتبار ذلك خلافاً لنظام دعوتنا، وقدم الإمام الأحاديث التي تدعو إلى قبول الهدية، وكان في ذلك العهد يجتاح «عمان» فيضان، وغمرت مياه الفيضان خيام الفلسطينيين، ولجأ هؤلاء اللاجئين إلى المسجد، فعرضنا عليه أن تحول هذه الهدية إليهم، ثم سافرنا إلى «القدس».

أقمنا في «القدس» وضواحي «القدس» كـ «طول كرم»، و «زبيد»، و «الخليل»، و «عذرية»، و «نابلس»، «أدريش»، «بيت اللحم»، و «صلط»، واشتغلنا بالدعوة، ووجدنا سكان «الخليل» أكرم وأرحب صدرًا، وقد عاملونا معاملة الخلق والكرم البالغين، ووجدناهم متورعين، أقمنا في «الخليل» أربعة أيام، وعقدنا اجتماعات في المساجد، وازدحم الناس في أحد الاجتماعات ازدحاماً شديداً، وعرف بنا الإمام، ووجه نداء للتبرع، وكان الإخوان من إخواننا موجودين في ذلك الاجتماع لأن بقية الإخوة كانوا قد رجعوا لشدة البرد، ويسط الإمام منديله لجمع التبرعات، ومنعناه عن ذلك، ولكن الإمام قال: هذا شيء بسيط، فقلنا له: إننا لا نقبل التبرعات وسنعود إلى أماكننا إذا أصررتكم على التبرع، وكان الناس يجتمعون رجالاً ونساء في مسجد «الصخرة» في أيام رمضان، ويبلغ عددهم أحياناً مئآت من الناس، ويتلون القرآن الكريم، فإذا جاءت آية الرحمة كان الناس يقولون بصوت واحد يا سلام، ويهتزون ويبدون السرور والابتهاج، وإذا جاءت آية العذاب تقشعر جلودهم، وتدمع عيونهم.

بعد بضعة أيام توجهنا إلى «نابلس»، وأقمنا بالمسجد، وكنا نبني في بيت أحد الإخوة، وكان من المقدرين لدعوتنا ويرافقنا في نشاطاتنا وجولاتنا.

ذات يوم كنا مشغولين بعملنا، إذ جاءت الشرطة وظن أننا يهود، فساقنا إلى قائد الجيش، ولم نعرف ما هو السبب؟ وسألنا قائد الجيش: هل تعرفون اللغة العبرية؟ قلنا: لا، ثم قال: هل تستطيعون أن تقرأوا شيئاً من القرآن الكريم؟ قلنا: نعم، وتلونا ما تيسر من القرآن الكريم، فاطمأن بذلك، وأمر بإطلاق سراحنا، ثم تجولنا في القرى المجاورة، وحكيّا لإمام المسجد الأقصى ما جرى لنا، فأبدى سروره، ودخلنا «سوريا» بعد خمسة أشهر تقريباً، وجبنا مناطق مختلفة لعمل الدعوة، وقد نصرنا الله في كل مرحلة، وسهّل مهمتنا رغم بعض الصعوبات والمشاكل التي تغلبنا عليها سريعاً، وأبدى الإخوة العرب الاهتمام وقدّرونا وأكرمونا، ورافقونا في جولاتنا، وبذلك فتحت لنا آفاق العمل، ومجالات الدعوة ولم نشعر بالوحشة التي كانت قبل ذلك في السكان المحليين بالنسبة لعمل الدعوة، واستأنس العاملون بها، وقامت بين السكان المحليين والعاملين الأجانب صلات المحبة والتعاون».

نكتفي بهذا القدر من الانطباعات للجماعات الراجلة، وتلقي هذه الانطباعات الضوء على منهج العمل، والمجاهدات المُضنية التي واجهها العاملون، وتجاوب السكان المحليين في كل منطقة زاروها، ونترك الرسائل الأخرى وهي كثيرة خوفاً من الإطالة.



الباب الثالث عشر الحج والعمرة

حجَّ الشيخ محمد يوسف ثلاث مرات واعتمر مرتين، وكانت رحلته الأولى للحج مع الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي في عام ١٣٥٦هـ، وقد سبق ذكرها، وكان ذلك في العهد الذي لم يكن الشيخ محمد يوسف مرتبطاً بعمل الدعوة، وكان عمره ٢١ سنة تقريباً، ولمرافقته الشيخ محمد إلياس خرج الشيخ محمد يوسف مع والده للجولة وحضر الاجتماعات الدعوية في أوساط العرب، وألقى في اجتماع العرب خطبة بليغة، وكانت هذه الخطبة الأولى بالعربية للشيخ محمد يوسف في موضوع الدعوة، وكان معظم أوقاته يشغل بالمطالعة وجمع الكتب، وتأدية شعائر الحج.

الرحلة الثانية:

بعد ١٨ سنة من الرحلة الأولى قام برحلة ثانية لتأدية الحج والعمرة في ١٣٧٤ - ١٩٥٥م، وكانت هذه الرحلة ذات مزايا عديدة، كان منها، مرافقة الشيخ السيد حسين أحمد المدني الذي كان يؤدي الحج مع أسرته، وركب هو والشيخ محمد يوسف مع أسرتيهما الباخرة من ميناء «بومباي»، وكان مع الشيخ محمد يوسف ١١ امرأة و ١١ طفلاً و ١١ رجلاً كذلك، والشيخ عبيد الله البلياوي المسافر الثاني عشر.

وصادف أن حوالي ألف شخص من المنتسبين إلى جماعة التبليغ، وصلوا إلى الحجاز للحج من مختلف البواخر من «الهند» و «باكستان»، وكان هذا الحج أول حج يؤديه الشيخ محمد يوسف بعد وفاة الشيخ محمد إلياس، وقد بذرت بذور الدعوة في أرض الحجاز، وأثمرت الجهود، وانتسب إلى هذا العمل عدد من العرب وغير العرب، وكانوا ينتظرون وصول الشيخ محمد يوسف بفارغ الصبر، فلما وصل الشيخ

عقدت اجتماعات ضخمة في «مكة المكرمة»، و «جدة»، و «المدينة المنورة»، ورحب الإخوة العرب بهذا العمل ترحيباً حاراً، وأقبلوا عليه، وبدأت نشاطات دعوية موسّعة، وخرجت جماعات كثيرة.

وكان من عادة الشيخ محمد يوسف، أن يخبر رفقاءه الأقربين بمسار عمل الدعوة وتقدمه، ويرغبهم في مضاعفة السعي لنشر الدعوة، وقد أرسل الشيخ محمد يوسف رسالة طويلة شرح فيها الظروف، ورغب فيها تفرغ الوقت، ومضاعفة الجهد لتوسيع نطاق الدعوة، وبيّن فضل هذا العمل، كتب في آخر الرسالة:

«في الوقت الذي تشتغل جماعاتكم في بيت الله، وبيت الرسول ﷺ بهذا العمل رغم ضعفها وقلة بضاعتها، فإن رعايتها وتأييدها يكمن في أن تخرجوا جماعات راجلة وراكبة إلى مناطق مختلفة في «الهند»، وجهزوا الجماعات بكل ما في وسعكم من إمكانيات ووقت لإصلاح بيئتهم، والزمو الجولة المحلية، وعقد حلقات التعليم والذكر، واهتموا بالدعاء لنا ولنجاح هذه الرحلة، وقبولها عند الله».

وسجل الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي هذه الانطباعات في مذكرته:

«غادر الشيخ محمد يوسف مع والدته وزوجته وبناته «دلهي» إلى «بومباي» في ١٤/شوال ١٣٧٤هـ - يونيو/حزيران ١٩٥٥م يوم الاثنين مساءً بقطار «دهرادون السريع» للحج، وبعد يوم غادر بنفس القطار شيخ الإسلام حسين أحمد المدني «ديوبند» مع أسرته إلى «بومباي»، وسافر جميعهم في «باخرة محمدي» في ٢١/شوال ١٣٧٤هـ - ١٣/يونيو/حزيران ١٩٥٥م يوم الاثنين صباحاً، وكنت أيضاً أعترم الحج هذا العام، وكان الشيخ محمد يوسف يصرّ على ذلك، ولكن مرض الشيخ عبد القادر الرائيسپوري حال دون القيام بالسفر، فقد طال مرضه واشتد، وتدهورت صحته في «مُسوري»، وزرت «مُسوري» لعيادته والاستفسار عن صحته عدة مرات.

وصلت سفينة محمدي إلى «جدة» في ٢٩/شوال يوم الثلاثاء وتوجه الشيخ المدني مع أسرته إلى «المدينة المنورة» مباشرة بالطائرة، ومكث الشيخ محمد يوسف والشيخ محمد إنعام الحسن لبعض الأمور، ووصلت النساء مع الأخ سليم في السيارات إلى «مكة المكرمة».

بعد حضور اجتماعات «جدة» وإشغال الدعوة سافر الشيخ محمد يوسف إلى «مكة المكرمة»، وكانت هذه الاجتماعات التي انعقدت في «جدة» في حضور الشيخ محمد يوسف مجدية ومثمرة للغاية، وتركت خطب الشيخ محمد يوسف وأحاديثه في المجالس العامة والخاصة أطيّب الأثر على المشتركين والمستمعين، ومن جهة أخرى وصل الشيخ المدني في ٦/ ذي الحجة ٧٤هـ الموافق ١٧/ يونيو/ حزيران ١٩٥٥م مع أهله وشقيقه الأصغر الشيخ السيد محمود بالطائرة من «المدينة المنورة» إلى «جدة» متوجّهاً إلى «مكة المكرمة».

أقام الشيخ محمد يوسف في «مكة المكرمة» إلى ٢٣/ ذي الحجة وعقد خلال إقامته عدة اجتماعات في «منى» و«عرفات»، وقد انعقدت اجتماعات هامة خلال ثلاثة أيام في منى، وتحدث فيها الشيخ محمد يوسف، وخلال هذه المدة ألقى الشيخ محمد يوسف في «جرف» خطاباً دام ساعتين ونصف ساعة باللغة العربية، بأسلوب مؤثر مشير، وقد اشترك في هذا الاجتماع عدد كبير من الإخوة العرب من الدول المختلفة وانهقد الاجتماع بعد المغرب.

أقام الشيخ محمد يوسف بعد تأدية شعائر الحج عشرة أيام في «مكة المكرمة» وانهقدت في «مكة المكرمة» خلال هذه الفترة عدة اجتماعات، وتحدث فيها الشيخ بنفسه، وبجهود الحجاج الهنود والباكستانيين الذين بلغ عددهم ألف حاج تصاعد عمل الدعوة وانتشر في المناطق المجاورة، فقد عقدوا اجتماعات، وقاموا بجولات ورحلات طويلة وقصيرة، فبسطوا بذلك شبكة الدعوة في ٢٣/ ذي الحجة ٧٤هـ، الموافق ١٣/ أغسطس/ آب ١٩٥٥م، وسافر الشيخ محمد يوسف مع رفقته وأهله من «مكة المكرمة» إلى «المدينة المنورة» مساءً، ووصل إلى «المدينة» صباح اليوم التالي، وأقام بـ «المدينة المنورة» أربعين يوماً عقد خلالها الاجتماعات واللقاءات الشخصية، وغادر «جدة» عائداً إلى «الهند» في ٢٢/ سبتمبر/ أيلول، وبهذا الاعتبار استغرقت رحلته ثلاثة شهور.

وصل الشيخ محمد يوسف إلى «بومبائي» يوم الجمعة ٣٠/ سبتمبر/ أيلول ١٩٥٥م صباحاً، وكان الشيخ حسين أحمد المدني قد وصل قبل ذلك، أي في

٢٧/ أغسطس/ آب، وانتَهز الإخوة في «بومبائي» هذه الفرصة، واعتبروا وجود الشيخ في المدينة نعمة كبرى، فنظموا اجتماعاً كبيراً دام ثلاثة أيام، اشترك الشيخ محمد يوسف في هذا الاجتماع، وبعد انتهائه يوم الاثنين ١٥/ صفر ١٣٧٥هـ، الموافق ٣/ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٥٥م سافر إلى «دلهي» بقطار «دهرادون السريع»، ووصل إلى «دلهي» في ٥/ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٥٥م صباحاً، ونزل في محطة «نظام الدين» بسلامة الله وأمنه مع أهله، ووصل إلى مقره بمسجد «نظام الدين»، وقد احتشد على محطة «دلهي» جمع كبير لاستقبال الشيخ محمد يوسف والشيخ محمد إنعام الحسن، ولذلك نزل الشيخ محمد يوسف بنفسه على هذه المحطة، أما أسرته ورفقته الآخرون فإنهم نزلوا على محطة «نظام الدين»، وبعد بضعة أيام قام برحلة «سهارنفور» و «ديوبند» للقاء أكابر أسرته ومشايخه.

يقول الشيخ محمد زكريا في مذكرته:

«كان من المقرر أن يصل الشيخ محمد يوسف إلى «سهارنفور» و «رائيپور» في ٩/ أكتوبر/ تشرين الأول يوم الأحد، لكن نزول الأمطار الغزيرة قد عرقل السفر، فعاد إلى «دلهي» بعد انتظار ثلاث ساعات في القطار؛ لأن خط سكة الحديد بين «دلهي» و «سهارنفور» انقطع بسبب الفيضان، وكان الطريق الوحيد الذي كان مفتوحاً طريق «كرنال»، فوصل بهذا الطريق الطويل في ١٥/ أكتوبر/ تشرين الأول يوم السبت، وتوجه في اليوم التالي إلى «ديوبند» للقاء الشيخ المدني وعاد في المساء، ثم توجه فوراً إلى «رائيپور» بالسيارة، وفي يوم الثلاثاء ١٨/ أكتوبر/ تشرين الأول عاد من «رائيپور» صباحاً، وسافر إلى «كاندهله» في المساء، وعاد إلى «نظام الدين» من «كاندهله» يوم الخميس، ولم يستأنف القطار إلى ذلك الوقت فوصل إلى «نظام الدين» برحلة طويلة وشاقة».

العمرة الأولى:

أدى الشيخ محمد يوسف العمرة بصورة مستقلة مرتين في حياته، كانت الأولى منهما في سبتمبر/ أيلول ١٩٥٩م الموافق صفر ١٣٧٩هـ، وكانت هذه العمرة مفاجأة، لم يُعدَّ لها برنامجاً بل تقرر في مشورة عاجلة، فوصل الشيخ محمد إنعام الحسن

في ١٨/ أغسطس/ آب ١٩٥٩م يوم السبت بالأمّعة إلى «سهارنفور» بالقطار، ووصل الشيخ محمد يوسف مع الأهل بالسيارة، وتوجهوا إلى «كاندهله» بالسيارة يوم الخميس، وبعد الظهر عادوا إلى «نظام الدين».

بدأ الشيخ محمد يوسف رحلته في ٢٧/ صفر ٧٩هـ الموافق سبتمبر/ أيلول ١٩٥٩م من «دلهي»، ووصل إلى «بومبائي» في ٢٨/ صفر مساءً ولم يرافقه في هذه الرحلة الشيخ محمد إنعام الحسن؛ لأنه كان مريضاً، ورافقه الشيخ عبيد الله البليايي مع عدد من الإخوة من «الهند» و«باكستان»، وكان عددهم حوالي ١٨٠ شخصاً، وانضم إلى هذه الجماعة الشيخ محمد عمر الپالنبري مع ١٦ من الرفقة بعد أسبوع، وكان يجتمع عدد ضخم من المستقبلين في كل محطة كان يقف فيها القطار للترحيب بالمعتمرين، وكانوا يودعونهم بعيون باكية، وكان سيلاً من الناس يموج على أرصفة المحطات للترحيب بهم، وأحلى أمانهم أن يرافقوا الشيخ في هذه الرحلة المباركة ويتلهفون أمام منظر محطة «بومبائي»، فكان حدثاً تاريخياً لا نظير له، وللزحمة التي لا يمكن السيطرة عليها ألقى المسؤولون عن محطة القطار رسوم تذكرة الدخول؛ لأنه لم يكن في مقدورهم توزيع التذاكر لهذا العدد الضخم في هذا الوقت القصير.

أقام الشيخ في «بومبائي» بضعة أيام، ونظمت الاجتماعات فيها كما نظمت لدى عودته من الحج، وشكلت الجماعات، وأرسلت إلى «الحجاز» خاصة وأماكن أخرى عامة.

في ٧/ سبتمبر/ أيلول ١٩٥٩م أقلعت الطائرة في الساعة الواحدة والدقيقة الأربعين إلى «كراتشي»، ولم يكن في الوقت متسع له، ولكن الإخوة المحبين الذي تجمعوا في المطار أصروا على أن تتاح لهم فرصة الاستفادة فاستجاب لرغبتهم، وذهب إلى المدينة، وعقد بهذه المناسبة اجتماع عظيم في مسجد «مكة»، ألقى الشيخ فيه كلمة مؤثرة، وإن كان الشيخ في غاية من التعب، فقد أصيب بالأرق في «بومبائي» ولم ينم، لكن عزمته، وشغفه بالدعوة نفخ فيه الروح، فزالت هذه العوائق المادية، وتحدث في الاجتماع كعادته بحرارة وقوة.

وفي نفس اليوم سافر الشيخ بطائرة أخرى بعد العشاء، ووصل إلى «الظهران» صباحاً، وقد لقيه في مطار «الظهران» عدد من الإخوة الذين كانوا مشغولين بالدعوة في المناطق العربية، فرافقوه في السفر.

وصل إلى «مكة المكرمة» في ١٢/ سبتمبر/ أيلول، وأقام بـ «مكة المكرمة» إلى ٢٥/ سبتمبر/ أيلول، وكان مقره المدرسة الصولتية، وذاع خبر عمرته، فتدفق الناس للقاءه من كل فج عميق، وأدى كثير منهم العمرة معه، واشتركوا في الاجتماعات، وتوجهت ١٣ جماعة إلى دول مختلفة، كانت جماعة منها لـ «مصر»، وكان أميرها الشيخ خدا بخش، وتوجهت جماعة إلى «السودان» و «الحبشة»، وكان أميرها ميان جي محراب.

كان يجري تشكيل الجماعات عادةً في «مكة المكرمة»، ولكن الجماعات كانت تبدأ السفر من المسجد النبوي، بـ «المدينة المنورة».

وصل إلى «المدينة المنورة» في ٢٥/ سبتمبر/ أيلول ١٩٥٩م بعد صلاة الجمعة، وأقام بها أسبوعين، عقدت خلالهما عدة اجتماعات، وألقى الشيخ محمد يوسف الخطب فيها، ووجهت الجماعة حسب العادة المتبعة إلى الدول الأخرى.

عاد في ٩/ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٥٩م بعد صلاة الجمعة من «المدينة المنورة» إلى «مكة المكرمة» وأقام بها ١٢ يوماً، عقد خلال هذه الزيارة عدة اجتماعات فيها وفي «جدة»، و «الطائف»، وتحدث فيها الشيخ محمد يوسف، وفي ٢١/ أكتوبر/ تشرين الأول غادر إلى «الظهران» بالطائرة واشترك في اجتماع، وبعد يومين توجه من «الظهران» في ٢٣/ أكتوبر/ تشرين الأول إلى «البحرين» بالطائرة، ومن «البحرين» سافر إلى «كراتشي» بالسفينة، ووصل إلى «كراتشي» في ٢٨/ أكتوبر/ تشرين الأول صباحاً، وأقام بـ «كراتشي» إلى المساء، وفي الساعة السابعة مساءً سافر إلى «بومبائي»، أقام في «بومبائي» يومين يوم الجمعة ويوم السبت، وفي الساعة العاشرة والنصف ليلاً سافر إلى «دلهي الجديدة» بالقطار، ووصل إلى «دلهي» في الساعة السادسة صباحاً، في يوم ٢٩/ ربيع الثاني وصل إلى «مركز نظام الدين»، وأدرك صلاة الفجر.

كانت هذه العمرة تمهيداً لبسط شبكة عمل الدعوة في الدول العربية، فقد سارت خلال هذه الزيارة جماعات إلى جهات مختلفة، ووصل عمل الدعوة إلى مناطق نائية، وانضم إليه السكان المحليون، واشتركوا في الجولات المحلية والرحلات الخارجية، وأصبح عمل الدعوة معروفاً ومقبولاً.

العمرة الثانية :

أدى الشيخ محمد يوسف العمرة الثانية في عام ١٩٦١م وكان ذلك عصر الاضطراب والقلق، فقد كانت نار الاضطرابات تندلع في المناطق المجاورة لـ «دلهي»، وكانت الفيضانات تكتسح مناطق شاسعة، وكان السفر غير مأمون، ولكن الشيخ قرر السفر للعمرة في هذه الظروف المحرجة، يقول الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي:

«انتشرت الاضطرابات الطائفية، وكانت الأمطار الغزيرة أيضاً قد سدّت الطرق، وتعطل نظام المواصلات، ولم يكن المسلمون يستطيعون السفر بالقطار ولا بالسيارات، ودنا موعد رحيل الشيخ محمد يوسف للعمرة، وفي مثل هذه الظروف لم يكن من الحكمة أن تترك النساء والأطفال من أسرته في «نظام الدين»، وقد منعه مراراً لكنه أبى إلا أن يسافر متوكلاً على الله مع أهله في السيارة يوم الجمعة ١٢/أكتوبر/تشرين الأول ١٩٦١م، ووصل لدى وقت صلاة الجمعة إلى «كاندهله» وترك والدته، زوجة الشيخ محمد إلياس في «كاندهله»، بناءً على طلب الأقارب، ووصل إلى «سهارنفور» مع الأعضاء الآخرين للأسرة، وترك الأهل في «سهارنفور»، وسافر معي إلى «رائيبور» فوراً، ولقرب سفر العمرة غادر «رائيبور» في اليوم التالي ١٧/أكتوبر/تشرين الأول ١٩٦١م عن طريق «كراتشي» بالطائرة.

ورافق الشيخ محمد يوسف في هذه الرحلة الشيخ محمد إنعام الحسن، والحاج نسيم، والطبيب شريف، والحافظ عبد العزيز، والحاج شفيع الدهلوي، والحاج عزيز الرحمن الدهلوي، وفي يوم مغادرته كان «مركز نظام الدين» مكتظاً بالزوار، وبلغ الازدحام حداً تعدّر فيه خروج الشيخ من غرفته، فخرج من الباب الخلفي، وركب السيارة، وتوجه إلى المطار، وساعد المسؤولون عن الجمر، فنقلوا أمتعتهم بأنفسهم إلى الطائرة، وتمت مراسم السفر بسهولة تامة».

الحج الأخير:

كان حج عام ١٣٨٣هـ الموافق ١٩٦٤م الحج الأخير الذي أداه الشيخ محمد يوسف، وقد سبق أن حج مع والده الشيخ محمد إلياس ثم سافر إلى الحجاز في عام ١٣٨٤هـ مع شيخ الإسلام حسين أحمد المدني للحج مرة ثانية. في سفره الثالث للحج لم يرافقه أحد من المشايخ الكبار، وكان الشيخ محمد يوسف يرغب في أن يؤدي هذا الحج أيضاً مع المشايخ وطلب من الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي شيخ الحديث بمدرسة مظاهر العلوم بـ «سهارنفور» بأن يتكرم بمرافقته في الحج، لكنه اعتذر لأمراض كان يعاني منها في ذلك الوقت، وكان قد طلب منه في الحج السابق أيضاً لكن مرض الشيخ عبد القادر الرائيپوري الشديد حاله، فأصرَّ الشيخ محمد يوسف هذه المرة على الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي واعتذر الشيخ محمد زكريا أول الأمر ثم أبدى موافقته بعد مشاورات، وقد حكى الشيخ محمد زكريا نفسه هذه القصة:

«كانت قضية مرافقة الشيخ محمد يوسف في الحج تستمر منذ مدة، وكانت تتأكد في المراسلات والمكالمات كل يوم، وعقد اجتماع لتعيين برنامج السفر واختيار الطرق وتحديد المواعيد، وكانت مرافقتي في السفر من أهم المسائل التي تشغل بال الشيخ محمد يوسف، وكان الأخ العزيز قد أصرَّ في السابق أيضاً على مرافقتي عندما أدى الحج مع النساء في عام ١٣٧٤هـ.

وكان يرافقه في ذلك السفر شيخ الإسلام السيد حسين أحمد المدني، فكنت حريصاً على القيام بهذه الرحلة، ولم أكن في ذلك الوقت أعاني من الأمراض التي أعاني منها اليوم، فلم يكن هناك أي مانع، وتقرر أن تسافر هذه الجماعة بحرياً، وأسافر أنا في أواخر ذي القعدة بالطائرة، ولكن قبل بدء الرحلة تدهورت صحة الشيخ عبد القادر الرائيپوري بصورة خطيرة، وعندما استأذنت الشيخ الرائيپوري بعد رحلة الشيخ محمد يوسف للحج، أن أزور «نظام الدين» بعد يومين أو ثلاثة، قال الشيخ عبد القادر الرائيپوري مهموماً: هل تغادرنى وأنا في هذه الحالة السيئة من الصحة؟ فأجلت سفري إلى «نظام الدين»، وألغيت رحلتي للحج، وأقام الشيخ عبد القادر

الرئيسي في هذه المدة الكاملة في مدرسة مظاهر العلوم، واشتد المرض يوماً بعد يوم، وبدأ اليأس يأخذ الناس، وبلغت نقاهة الشيخ عبد القادر حداً منعه من الخروج لتأدية صلاة عيد الأضحى في المصلى، فصلى في المسجد المجاور لغرفته، وعلم الشيخ حسين أحمد المدني خبر إرجاء سفره في الباخرة، ولو كان علم ذلك قبل بدء السفر لأصرّ على مرافقتي، وأجبرني على السفر، وقلت له: كنت مصمماً على ذلك، لكن صحة الشيخ عبد القادر الرئيسي التي كانت تزداد تدهوراً منعتني من القيام بالسفر، فسكت الشيخ المدني.

وكان الشيخ محمد يوسف ذلك الوقت يرغب في أن أرافقه في سفر الحج، وكان كلما يبدي نيته في السفر، كان يعيد رغبته في أن أرافقه، ولكن وفاة الشيخ المدني ثم وفاة الشيخ عبد القادر الرئيسي قد أثرت على صحتي تأثيراً سيئاً، وصرت أعاني من أمراض متعددة، واشتدت هذه الأمراض، وكلما كان يحين موعد سفر الشيخ محمد يوسف كان يشتد الشعور بالعجز في نفسي بسبب الأمراض التي تنتابني، وتؤثر على صحتي، وتزيدني ضعفاً ووهناً، وبحث هذه القضية في الاجتماع الذي عقد للتشاور في هذه المسألة، وكان الشيخ محمد يوسف يصرّ، وأنا أعتذر بنفس اللهجة، وقال الشيخ محمد يوسف: سافرت قبل هذا الحج مع الشيخ المدني، وأديت الحج الأول مع والدي - رحمه الله - ، ولذلك أرغب رغبة ملحة أن أقوم بهذا الحج معك، وأبديت على ذلك استنكاراً شديداً، وقلت: لقد أكرمك الله سبحانه وتعالى بكرمه ولطفه، ولا تحتاج الآن إلى مرافقة أحد مثلي، وبعد المباحثة والإصرار والرفض وسقوط جميع الأدلة قال: إني أود يا أخي الكريم أن ترافقني في الحج، فقلت: ليس عندي لهذا الدليل، دليل الحب أي رد، ولكنك تعرف حق المعرفة ما هي حالتي الصحية، فقال: أعرف جيداً، وأدرك إدراكاً حقيقياً أنه يكلفك كثيراً^(١).

ولكن الإخوة المحبين في «مكة المكرمة» و«المدينة المنورة» عرفوا ذلك فأقاموا اتصالاً به، وأرسلوا رسائل، واتخذوا الإجراءات الرسمية لتسهيل السفر،

(١) الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي في رسائله.

وحلت جميع العقبات والعوائق، وقبل دنو مواعيد السفر سويت جميع المشاكل، يقول الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي:

«لعل القوة الباطنية للشيخ محمد يوسف كانت أقوى من قوة اعتذاري، فأزالت جميع العقبات». وأخيراً وافقت على السفر.

كانت الميزة الكبرى لهذه الرحلة أن الشيخ محمد يوسف أدى هذا الحج مع الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، ورافقه جماعة من العاملين القدماء في مجال الدعوة، وسافر الشيخ محمد زكريا والشيخ إنعام الحسن بالطائرة، وسافرت جماعة كبيرة بحرياً، وكان هؤلاء الحجاج بالبحر، الشيخ محمد هارون نجل الشيخ محمد يوسف، وقد سافروا جميعاً في قيادة الشيخ محمد يوسف، ووصلوا إلى «جدة» قبل يوم من وصول المسافرين بالطائرة.

في ٦/ ذي القعدة ١٣٨٣هـ، الموافق ٢١/ مارس/ آذار ١٩٦٤م سافر الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي إلى «جلال آباد»، و«تهانه بهون»، و«جهنجان»، و«كاندهله»، ووصل إلى «نظام الدين» ماراً بهذه الأماكن التاريخية، ثم غادر هو ورفقته «دلهي» في ٢٥/ مارس/ آذار ١٩٦٤م بقطار «فرنثير ميل»، ووصلوا إلى «بومبائي» في ٢٦/ مارس/ آذار، وعلم الناس عن هذه الرحلة، فازدحموا في المحطات الكبرى التي مرّ بها القطار لتوديع هؤلاء الحجاج، وبلغ عددهم في بعض المحطات ألوفاً من المودعين.

كان الحاج دوست عمر الذي كانت له مزرعة ألبان في «بومبائي» من محبي الشيخ محمد يوسف ومسترشديه، فأصرّ على أن يقيم هؤلاء المشايخ عنده فقبل الشيخ محمد يوسف هذا الطلب، فأقاموا بمنزله الذي كان يقع على بعد ١٥ ميلاً من «بومبائي».

عقدت عدة اجتماعات خلال إقامة الشيخ محمد يوسف في «بومبائي»، واشترك فيها ألوف من الناس، وخرجت منها جماعات مختلفة، وتوجهت إلى أماكن نائية.

وصلت هذه القافلة المباركة إلى «جدة» عند الظهر بعد ما غادرت الطائرة في ٢٩/ ١٩٦٤م - ١٤ ذي القعدة ١٣٨٣هـ صباحاً، وكان الحاج أرشد في منصب عال

في «المملكة العربية السعودية»، وكان مقر عمله في «جدة»، فاستراح هؤلاء المسافرين بمنزله وقت الظهيرة بعد تناول الغداء، وعند العصر نقلتهم سيارات المعلم مكي مرزوق إلى «مكة المكرمة» حيث نزلوا بالمدرسة الصولتية، وأدوا صلاة المغرب هناك.

وصلت قافلة كبيرة للحجاج الباكستانيين في ٢/ إبريل/ نيسان ١٩٦٤م بالطائرة، كما وصل عدد كبير من العاملين في جماعة التبليغ في «الهند»، فكان الشيخ محمد يوسف يتحرك إليهم في «مكة المكرمة»، وكان يلقي كلمته في الحرم المكي الشريف كل يوم، وتستمر هذه الكلمة ثلاث ساعات، كما كانت تعقد اجتماعات في أماكن أخرى يتحدث فيها الشيخ محمد يوسف أيضاً.

كان العاملون في جماعة التبليغ المقيمون بـ «مكة المكرمة» قد أعدوا برنامجاً لعقد اجتماعات أسبوعية في مسجد الشهداء، فكان الشيخ محمد يوسف يحضر هذه الاجتماعات بانتظام طول مدة إقامته بـ «مكة المكرمة»، ويتحدث مع الحاضرين ويبيت الليلة، ويلقي كلمته بعد المغرب، وبعد صلاة الفجر، وأحياناً يحرم بعد الانتهاء من هذا الاجتماع، ويؤدي العمرة.

غادر الشيخ محمد يوسف «مكة المكرمة» إلى «منى» في ٢٠/ إبريل/ نيسان ١٩٦٤م يوم الاثنين الثامن من ذي الحجة، وعاد إلى «مكة المكرمة» في ١٣/ من ذي الحجة، وأدى مناسك الحج وأقام أسبوعين بـ «مكة المكرمة»، واشترك خلال هذه المدة في اجتماعات كثيرة، وشكل الجماعات للخروج في سبيل الدعوة.

برنامج بـ «مكة المكرمة» :

كان الشيخ محمد يوسف خلال إقامته بـ «مكة المكرمة» يلقي خطاباً في الحرم المكي الشريف كل صباح، ويستغرق هذا الخطاب ثلاث ساعات، وكان محل هذا الخطاب باب العمرة، ثم يتوجه إلى المدرسة الصولتية، ويتناول الفطور، ويستريح الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي بعد الفطور قليلاً، ثم يلقي العلماء والمشايخ الذين كانوا يأتون للاستفادة منه، أما الشيخ محمد يوسف فكان همه الدعوة إلى الله، وكانت هي الهم والشغل الشاغل له، وكان يتغلب هذا الذوق عليه، فيشغل العلماء عن

الذهاب إلى الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، ليستمعوا إلى كلامه أولاً، فيتحدث إليهم بالتفصيل حول أمور الدعوة، والخروج في سبيلها، ثم يتوجه العلماء بعد الاستماع إلى كلمته إلى الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، وهكذا كان دأبها إلى وقت الظهر، وكان الشيخ محمد يوسف يقول للشيخ محمد زكريا: استفدت كثيراً من حضورك، فإن هؤلاء العلماء والمشايخ كانوا لا ينصتون إليّ، فأنا أستغل هذه الفرصة وأحول دون وصولهم إليك، وأتكلم معهم بالتفصيل حول أمور الدعوة.

بعد تناول الغداء بعد الظهر كانوا يأخذون قليلاً من الراحة، ثم يتوجهون إلى الحرم الشريف لصلاة العصر، ويقضون ما بين العصر والمغرب من الوقت في الطواف بالبيت العتيق، وبعد صلاة المغرب يعقد لقاء محدود للإخوة عند باب العمرة، ويطوفون بعد العشاء، ثم يعودون إلى المدرسة الصولتية، ويتناولون هناك العشاء الخفيف، ويستريحون، ويبقى الشيخ محمد زكريا في الحرم ويظل مشغولاً بالطواف.

خطابان هامان للشيخ محمد يوسف:

سبق أن الشيخ محمد يوسف ألقى خطاباً متعددة في مناسبات مختلفة أمام الحجاج القادمين من دول العالم المختلفة، وكان من عادته أن يخطب في الصباح والمساء وفي الاجتماعات الأخرى التي كانت تعقد في أماكن مختلفة، وكانت معظم أوقاته في النهار والليل موزعة في إلقاء الخطب، والتحدث إلى الناس والتكلم معهم حول الدعوة، ولكن خطبتين له تحملان أهمية خاصة لتأثيرهما على النفوس ولتدفق عاطفته الجياشة وأسلوبه المميز السلسال. فكانت الخطبة الأولى التي ألقاها في ميدان عرفات في التاسع من ذي الحجة ١٣٨٣ هـ الموافق ٢١/ إبريل/ نيسان ١٩٦٤ م يوم الاثنين، وقد شكر فيها الله سبحانه وتعالى على فضله وكرمه أنه وفقنا للحج وأتاح لنا هذه الفرصة السعيدة، وأوصلنا إلى هذه الأرض الطيبة، ثم أشار إلى خطبة الوداع التي ألقاها الرسول ﷺ بهذا المقام المشهود له بالخير والبركة، وشرح ما جاء في تلك الخطبة، ثم ألقى كلمة بليغة مؤثرة بأسلوبه الشيق، واستشهد بالأمثلة لإيضاح فكرته، وذكر تأثير الإيمان واليقين، ونتائج العمل الصالح ومناهج الدعوة إلى الله وآدابها،

وفضيلة أدعية الأنبياء الكرام، وتأثيرها ونتائجها بتفصيل وإيضاح، وكان خطابه كالتيار الجارف أو كالبحر المواج لتدفق عاطفته، وتفتق قريحته.

ويصعب الاقتباس منه في هذا الموضوع الضيق، وقد تفقد الكلمة تأثيرها بالاقتباس، ولا يمكن إيراد بعض الفقرات برونقها وبهائها وروعها.

وكانت الخطبة الثانية، هي الخطبة التي ألقاها بعد تأدية أركان الحج في ١٨/ ذي الحجة ١٣٨٣هـ في الحرم الشريف أمام باب إبراهيم في جمع حاشد من الحجاج الكرام القادمين من دول مختلفة من العالم، وركز الشيخ محمد يوسف في هذه الخطبة حديثه على الفساد المنتشر في العالم وعالج أسبابه، وأهاب وَبَّه المستمعين بنتائجه وعواقبه فقال:

«إن صلاح الظروف وفسادها لا يرجع إلى الدولة ولا إلى الثروة ولا إلى الوسائل المادية، ولا إلى الآلات الحربية، ولا إلى الصواريخ المدمرة، ولا إلى القذائف المبيدة، وإنما يرجع إلى الأعمال، وإن أعمال الأنبياء والصحابة والعلماء تُصلح ولا تفسد، تبني ولا تهدم، ولا تصلح الظروف بالمال والقوة، والذهب والفضة، ومن يعتقد غير ذلك فهو في خداع، إن الله سبحانه وتعالى قد ربط الأحوال بالأعمال، ولم يربطها بالأشياء المادية، فعلى نحو ما تكون الأعمال تكون الأحوال والأوضاع».

ثم بحث أهمية اليقين والجهد، وصلاح العمل والحاجة إلى العناية به، وندد بإقبال الناس في هذه الديار المقدسة على البضائع الغريبة وتهافتهم عليها، وقال: إن البضاعة النادرة التي يجب العكوف عليها، والبحث عنها، هنا في «مكة المكرمة» هي اليقين، ويتمثل ببيت الشاعر الدكتور محمد إقبال ما معناه:

«لو وُجد إيمان نبينا إبراهيم عليه الصلاة والسلام لتحولت النار حديقة غناء.

واختتم كلمته قائلاً:

«لو رجعنا اليوم إلى حكم الله، وعدنا إلى سنن الأنبياء، وضعنا حياتنا وفق الشريعة، لصلحت حياتنا وذهب عنا كل ما يقف في سبيل رقينا وازدهارنا، فغبروا أيها المسلمون طرقكم، وعودوا إلى طرق الأنبياء، وغبروا خطواتكم، واستبدلوها

بخطوات الأنبياء وغيروا جهدكم، واستبدلوه بجهد الأنبياء، اخرجوا لإحياء سنة إبراهيم عليه السلام، وترويجها في العالم، واطرقوا الأبواب وبلغوا الرسالة التي جاء بها نبينا محمد ﷺ، وانبثوا في هذه الأرض لترويج أعمال القرآن، وليسود الدين ولتحكم الشريعة، واجتهدوا على أساس: نصفكم للدنيا، ونصفكم للدين، وأوقظوا هذه الأمة النائمة، وعودوا إلى حياة المسجد، فإذا فعلتم ذلك تغير العالم كله، وتغيرت الأمة بكاملها، وتغيرت آمالها ومطامحها، وتغيرت أهدافها وغاياتها.

اللهم وفقنا للهجرة هنا في بيتك العتيق، علينا أن نقرر كما قرر إبراهيم عليه السلام، نخرج في سبيل الله لإعلاء دينه، وتنفيذ أحكامه، وتطبيق ما جاء في كتابه وسنة نبيه محمد ﷺ، ولو فعلنا ذلك لأغدق الله علينا نعم بيت الله وبركاته».

في «المدينة المنورة»:

غادر الشيخ محمد يوسف «مكة المكرمة» بعد ١٤ يوماً من وصوله إليها، وتوجه إلى «المدينة المنورة» في السابع من ذي الحجة ١٣٨٣ هـ الموافق ٩/ مايو/ أيار ١٩٦٤م صباح يوم السبت ماراً بـ «جدة»، وكان في «جدة» طبيب يعمل في بعض المستشفيات الكبرى، وقد أبدى رغبته في إجراء فحص طبي بالآلات الحديثة، ففضى الشيخ محمد يوسف ساعتين في المستشفى لهذه العملية، ثم توجه إلى «المدينة المنورة»، وكان المعلم مكي مرزوقي قد نظم مائدة غداء في «مستورة»، ولكن الشيخ محمد زكريا أثر أن يصلي الظهر في «بدر»، فتوجه مباشرة إلى «بدر» بدون الوقوف بـ «المستورة»، وحمل الشيخ مكي مرزوقي الغداء في سيارته إلى «بدر»، وتغدى الجميع في «بدر» بعد صلاة الظهر، واستأنفوا الرحلة بعد استراحة خفيفة في «بدر».

في «بدر»:

خرج الشيخ محمد يوسف وأصحابه بعد صلاة العصر لزيارة الأماكن الأثرية بـ «بدر»، وأقيم اجتماع بعد المغرب، حضره عدد كبير من سكان المنطقة من العرب في موضع العريش بالمسجد حيث سجد رسول الله ﷺ، ودعا للنصر، قبل بدء الحملة في غزوة «بدر»، تحدث فيه الشيخ محمد يوسف، وكان خطابه مثيراً ومؤثراً، وكان

من العادة المتبعة أن يغلق المسجد بالليل، ولكن إمام المسجد سمح بفتح المسجد في الليل لتقيم الجماعة فيه، وقام هؤلاء المشايخ بزيارة الآثار مرة أخرى بعد الصبح.

توجهت هذه القافلة المباركة بعد زيارة ساحة القتال إلى «المدينة المنورة» وتوجهت مباشرة إلى المواجهة الشريفة بالمسجد النبوي الشريف، للسلام على رسول الله ﷺ، وانتقلنا إلى مدرسة العلوم الشرعية التي أنشأها الشيخ سيد أحمد الفيض آبادي، شقيق الشيخ حسين أحمد المدني بالقرب من المسجد النبوي الشريف، وكان الشيخ أسعد المدني نجل الشيخ حسين أحمد المدني قد وصل إلى «المدينة المنورة» قبل بضعة أيام، وقد خصصت لهؤلاء النازلين ثلاث غرف، وأخليت غرفتان أخريان في الطابق الأعلى ليقيم فيهما مرافقو الشيخ محمد يوسف، وكانت تعقد الاجتماعات، وتجري اللقاءات في غرفة الشيخ محمد يوسف.

أرسل الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي خلال نزولهم بـ «المدينة المنورة» رسالة إلى الشيخ أبي الحسن علي الحسيني الندوي، يصف فيها بعض أحوال رحلته المباركة نفتبس منها ما يتعلق بالسفر من «مكة المكرمة»:

«بدأ السفر في ٢٧/ من ذي الحجة من «مكة المكرمة»، ووصلنا إلى «المدينة المنورة» بعدما عرّجنا على «بدر»، وبتنا الليلة هناك، ومن المقرر أن نغادر «المدينة المنورة» في ٩/ يونيو/ حزيران أو بعد يوم أو يومين منه، وسنمكث بـ «مكة المكرمة» أياماً في طريق العودة، فقد بقيت عدة اجتماعات فيها، سيتحدث فيها الشيخ محمد يوسف، ويرجى أننا سنعود عن طريق «كراتشي» في ٢٥/ يونيو/ حزيران، يقضي الشيخ محمد يوسف والشيخ إنعام الحسن أوقاتهما في حضور الاجتماعات، والاتصال بالناس ودعوتهم إلى الخروج في سبيل الله، وفي هذا الوقت أيضاً يشتركان في اجتماع مع التجار».

برنامج الشيخ محمد يوسف في «المدينة المنورة»:

كان برنامج الشيخ محمد يوسف في «المدينة المنورة» مثل برنامجه بـ «مكة المكرمة»، كان برنامجاً حافلاً باللقاءات والاجتماعات وإلقاء الخطب أمام جموع من الحجاج. يصف الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي هذا البرنامج الحافل بالألفاظ الآتية:

«كان الشيخ محمد يوسف يتحدث كل يوم في الصباح بعد الصلاة ثلاث ساعات، ثم يتناول الفطور، ويلقي الناس ويتحدث معهم حول أمور الدعوة إلى الظهر، وبعد صلاة الظهر يتغدى، ويستريح قليلاً، ثم يتوجه إلى المسجد النبوي الشريف، ويعود بعد ساعتين من صلاة العصر، ويتناول الشاي ويتحدث إلى الذين حضروا للقاءه إلى المغرب، ويتوجه إلى المسجد النبوي الشريف بعد صلاة المغرب، ثم يقضي ساعة كاملة بعد المغرب في الحرم النبوي الشريف، مشغولاً بالصلاة والتلاوة والذكر والتسبيح، أو الموعظة والدعوة، ولا يعود إلّا بعد العشاء متأخراً عندما تغلق أبواب المسجد، ولم يكن يتناول العشاء عادة، وقد تركت العشاء منذ مدة إلّا أن الشيخ أياز — رحمه الله — كان يأتي ببعض المشروبات من الشورية أو العصير، فكنا نكتفي به، وكان مثل ذلك دأبنا في «مكة المكرمة» أيضاً».

خروج الجماعات للدعوة:

كان من تأثير الأعمال التي بذلها الشيخ محمد يوسف خلال إقامته بـ «المدينة المنورة» و «مكة المكرمة»، وكلماته المؤثرة التي ألقاها في جموع من الناس أن خرجت ٢٦ جماعة طويلة الأمد وبعيدة المدى، توجهت ٣ جماعات منها إلى دول «أوروبا الغربية» كـ «فرنسا»، و «ألمانيا الغربية»، و «إنجلترا»، وغيرها من الدول، و ٨ جماعات للدول العربية، و ٧ جماعات إلى «أفريقيا»، ويجدر بالذكر أن الجماعات كلها سواء كانت تخرج من «المدينة المنورة» أو «مكة المكرمة» كانت تتوجه من المسجد النبوي الشريف.

بعث الشيخ محمد يوسف من «المدينة المنورة» رسالة إلى أقرب أنصاره الميواتيين قدّم فيها صورة لنشاط الدعوة، وخروج الجماعات من «المدينة المنورة»، نقدم هنا اقتباساً منها:

«السلام عليكم ورحمة الله وبركاته:

سررت بالتفاصيل التي اشتملت عليه رسالتكم عن تحرك الجماعات، ودعونا الله لكم بالبركة والخير، وقد استمرت بفضل الله وكرمه الجهود الدعوية، وعقدت الاجتماعات يومياً، واستمرت اجتماعات الشهداء اشترك فيها الشيخ محمد

زكريا الكاندهلوي والمشايع الآخرون. وشكلت الجماعات، وتشرفنا بزيارة «المدينة المنورة» يوم الأحد، وكان البارحة اجتماع مسجد النور، وقد اشتركنا فيه جميعاً، وستخرج يوم السبت القادم بإذن الله الجماعات، وستخرج سبع عشرة أو ثمانى عشرة جماعة في سبيل الله إلى مختلف دول العالم، تتوجه سبع منه إلى «أفريقيا» وثلاث جماعات إلى «أوروبا»، وجماعات أخرى توزع على الدول الأخرى، تقبل الله منا العمل، وجعل هذه الحركة مصدر خير وهداية.

أيها الإخوة الأعزاء، إن العالم اليوم منكب على منهج منحرف للحياة ومنغمس فيما لا يرضى الله به، فقد أصبح كسب المال، والوسائل المادية، والحصول على القوة هدف الجميع وغاية الحياة، وأصبح إفساد القيم الإنسانية، وإهانة أعمال الخير، والاستهتار بالدين والشرعية والإغراق في المجون والزندقة شعاراً للحياة، وخلت القلوب من الفكر والههم لإصلاح الإنسان، ومعرفة قيمته ودوره، ومعرفة مسؤوليات المسلم وحدوده التي ينحصر فيها النجاح في الآخرة، وأصبح الناس في شغل شاغل عن هذه الأمور، وبدأوا يعدون الوصول إلى النجاح والسعادة، بالأعمال الصالحة واليقين الكامل أمراً مستحيلاً، وقد وفق الله سبحانه وتعالى بفضلته ومنه وكرمه، إخواننا لهذا الاجتهاد العالي للدعوة، فإذا وفى حقه وعرف قدره، تحولت القلوب من الباطل إلى الحق واليقين، وتغير الفكر الضال بالفكر الصحيح، وأظهر الله نجاح الأعمال الصالحة وثمارها، إن المتصرف والفاعل هو الله، وإنما نطالب بالقيام بهذا العمل كوسيلة وسبب، فإن كان الجهد صحيحاً، فإن الله سيحول ببركة الدعاء، الطرق الفاسدة وما يشيع في المجتمع من عادات وتقاليد منحرفة، إلى طرق الخير والصلاح، ويصحح المسار.

نسأل الله تعالى أن يوفقنا إلى الطريق الصحيح للجهد والسعي، ويحل اليقين الراسخ للكلمة في قلوبنا، ويمتتنا بثروة الإخلاص، ويكشف لنا حقائق الصلاة ويرزقنا الخشوع والخضوع فيها، ويمنحنا نور العلم والذكر، وينعم علينا بأخلاق الأنبياء ويوفقنا للمجاهدة التي تكسب الهداية، ويعفو عن جميع زلاتنا، وخطايانا، وتقصرنا في العمل بلطفه وكرمه ومنه، ويفتح أبواب الرشد والهداية، لأهل العالم كله، ويجب على جميع الإخوة العاملين في الجماعة أن يواصلوا جهودهم وتصحيح

نياتهم في عملهم ومنهجهم بالندم على خطاياهم تائبين إلى الله، وتستمر هذه الجهود هنا نسأل الله القبول، وننوي قضاء شهر في «المدينة المنورة» ثم إقامة عشرة أيام بـ «مكة المكرمة»، ثم الرجوع بإذن الله، ندعو الله سبحانه وتعالى أن يجعل هذه الإقامة والعمل في هذا الديار المباركة مبعث خير ويمن ورشد وبركة وهداية وفلاح، والنجاة في الآخرة^(١).

العودة:

أقام الشيخ محمد يوسف في «المدينة المنورة» من ١٠/ مايو/ أيار إلى ١٣/ يونيو/ حزيران أي شهراً وثلاثة أيام، وتوجه في ١٣/ يونيو/ حزيران يوم السبت صباحاً من «المدينة المنورة» إلى «مكة المكرمة»، بدأ السفر بعد ثلاث ساعات من صلاة الفجر وصلى الظهر في «جدة»، واستأنف الرحلة بعد العصر، وصلى المغرب في «الحديبية»، ثم دخل «مكة المكرمة» وأقام بها سبعة أيام، وغادر في ٢٠/ يونيو/ حزيران إلى «الطائف»، وكان قد تقرر عقد اجتماع في «الطائف» قبل وصوله، وأقام يومين في «الطائف»، وعقد اجتماع، وجرت لقاءات، وعاد إلى «مكة المكرمة» في ٢٢/ يونيو/ حزيران، وبعد يوم توجه إلى «جدة» في ٢٣/ يونيو/ حزيران، وصلى المغرب في «الحديبية»، وحضر الاجتماع الذي كان قد تقرر عقده مسبقاً في «جدة»، وودع هذه الديار المقدسة في ٢٥/ يونيو/ حزيران، وتوجه إلى «كراتشي» بالطائرة، وصلى المغرب في مطار «كراتشي»، وكان المطار يكتظ بالذين جاؤوا لاستقباله والترحيب به فتحدث إليهم ساعة كاملة، ثم توجه إلى جامع مكّي، ومن «كراتشي» إلى «لاثل پور» و«سرجودها»، و«دهديان»، و«راولبندي»، و«رائي وند»، و«لاهور» ومن «لاهور» غادر إلى «الهند»، ووصل إلى «دلهي» في ١٦/ يوليو/ تموز ظهراً، يوم الخميس في الساعة الثانية والربع، وكان المطار مزدحماً بالمستقبلين رغم نزول الأمطار الغزيرة^(٢).



(١) من رسالة للشيخ محمد زكريا الكاندهلوي مرسلة من «المدينة المنورة».

(٢) تفاصيل رحلة «باكستان» في الباب السابع.

الباب الرابع عشر رحلة «باكستان» الأخيرة

مقدمة للرحلة إلى الآخرة:

من كان يعرف أن هذه الرحلة التي يقوم بها الشيخ محمد يوسف إلى «باكستان» هي الرحلة الأخيرة له إلى تلك البلاد، بل إنها هي الرحلة الأخيرة في هذه الدار الفانية، وستعقبها رحلة إلى الدار الباقية، لقد كان هذا السفر في الواقع تمهيداً لسفر الآخرة، وبهذا الاعتبار يحمل هذا السفر أهمية خاصة، ولذلك أفردت تفاصيل هذا السفر عن الأسفار الأخرى التي قام بها الشيخ محمد يوسف إلى «باكستان»، وسنورد تفاصيله أكثر مما سبق من تفاصيل أكثر مما سبق من تفاصيل الأسفار الأخرى.

استغرق هذا السفر شهراً وثمانية عشر يوماً، وتوفي في نفس اليوم الذي كان من المقرر عودته إلى «الهند»، فكانه أكمل برنامجه، وفي نهاية برنامج سفره لبى دعوة ربه، ومما يجدر بالذكر هنا أن الشيخ محمد يوسف أولى سفره اهتماماً بالغاً ولم يوجه مثل هذا الاهتمام إلى أي سفر قبله، وكان يقول أحياناً: إن هذا السفر يهمني كثيراً، ويقول الدكتور غلام كريم البستوي الذي كان على صلة قريبة من الشيخ محمد يوسف:

«أجري قبل رحلته إلى «باكستان» فحص طبي، فكان ضغط الدم كما يرام، ولكن النبض لم يكن مستقراً، وكان الشيخ يقول أحياناً: إن هذا السفر يهمني كثيراً، ويشغل فكري، ومرة قدمت إليه الماء فأمسك بالكأس بيده اليمنى، وجعل يشد شعراً فارسياً.

أنى أظن أن الله سبحانه وتعالى قد أجرى على لسانه هذه الألفاظ التي تشير إلى دنو موعد وفاته، ولكن لم ينتقل ذهن أحد منا إلى أن هذا السفر هو سفر الآخرة».

في «باكستان الشرقية» :

غادر الشيخ محمد يوسف «الهند» في ١٠/ شوال ١٣٨٣هـ — ١٢/ فبراير/ شباط ١٩٦٥م ليلة الجمعة بالقطار، ووصل إلى «لاهور» في الساعة الحادية عشرة ظهراً وصلى الجمعة، ووصل إلى المطار في الساعة الواحدة والنصف، وغادر «لاهور» إلى «داكا» عاصمة «باكستان الشرقية» (بنغلاديش) حالياً، وكان يرافقه في هذه الرحلة الشيخ إنعام الحسن، فيقول في رسالة له :

«وصلنا إلى «أمرتسر» يوم الجمعة في الساعة الثامنة والنصف، وأخذنا سيارة الأجرة، ووصلنا إلى «أتاري» في الساعة التاسعة والنصف، وبعد الانتهاء من إجراءات الجمرك والهجرة التي انقضت بسهولة وصلنا إلى «لاهور» في الساعة الحادية عشرة، وصلينا الجمعة في الساعة الواحدة، ووصلنا إلى المطار في الساعة الواحدة والنصف، وأقلعت الطائرة من مطار «لاهور» في الساعة الثالثة إلّا الربع، ووصلنا إلى «داكا» في ساعتين وعشر دقائق، وكان ملاحو الطائرة قد أعلنوا أنهم سيصلون في ساعتين، ولكن الرياح العاتية في أثناء السفر أخرت الرحلة عشر دقائق، فأدينا صلاة العصر أثناء الرحلة في الطائرة، أما المغرب فصليناه على أرض المطار، وكان الغروب في الساعة الرابعة و ٥٢ دقيقة، وقد وصلنا إلى «داكا» بتوقيت «لاهور» في الساعة الرابعة و ٥٢ دقيقة.

بدأ الشيخ محمد يوسف جولته الدعوية في «باكستان الشرقية» من «داكا» فأقام بها عدة أيام، عقد خلالها اجتماعات في أماكن مختلفة، تحدث فيها الشيخ محمد يوسف، وتوجه بعد ذلك إلى «سلهت»، ثم زار الأماكن الآتية: «نواكهالي»، «شيتا جونج» ضواحي «شيتا جونج»، «ديناج پور» «راج شاهي»، «كهلنا»، «فريد پور».

الإقبال العام والشعبية الساحقة :

قام الشيخ محمد يوسف بجولات واسعة، زار فيها هذه المدن والأرياف، واشترك في الاجتماعات وتحدث فيها ليلاً ونهاراً، واختلط بالناس وحملهم على الخروج في سبيل الدعوة وشكّل الجماعات، ونوّز قلوب ألوف من الناس، ولو أن

كل سفر كان يقوم به الشيخ محمد يوسف كان يحمل بركة ونوراً، يهتدي به ألوف من الناس، وتصلح حياتهم، وتتغير ميولهم ونزعاتهم وتتبدل عاداتهم وطبائعهم، لكن هذا السفر كان يمتاز عن غيره بصفة خاصة، فكان ينضم إلى قافلته العلماء، والأعيان والمتحمسون للدين والعاملون القدماء الذين كانوا يعرفون بالانضباط، والعاملون الجدد الذي كانوا لم يذوقوا حلاوة الإيمان بعد، فكان جو كل واد وسهل وحزن يتنور بقدوم هذه القافلة، وكل من يجلس في مجلسه ساعة يكسب شيئاً من الإيمان واليقين، ويعود وهو يحمل شرارة من الإيمان، وجمرة من اليقين، ونية للخروج في سبيل الله، فكان مصداقاً لما جاء في الحديث النبوي الشريف: «لا يشقى جلسهم»، ويشهد بذلك كل من حضر مجلساً من مجالسه أو استمع إلى كلمة من كلماته، ويمتاز البنغاليون بركة قلوبهم، واستعدادهم لقبول الحق، وضراعتهم، فكانت رحلته بفضل الله وكرمه نورت المنطقة بكاملها، وهبت فيها رياح الإيمان واليقين، وسويت بها النزاعات والخلافات التي كانت مصدر تناحر من زمان، واستنارت المدن والأرياف، ولم يحرم فيها غير المسلمين، فقد كان عدد كبير منهم يأتون لزيارته والاقتراس من أشعة أنواره، ولا يزال ملايين من الناس أحياء ممن زاروا الشيخ محمد يوسف، وحضروا مجلسه واستمعوا إليه، وذكريات أحاديثه لا تزال حية في أذهانهم، ومن لم يحضر هذه المجالس، ولم ينتفع به لا يستطيع أن يدرك مدى خسارته.

برنامج سفره:

كانت هذه الزيارة لـ «باكستان الشرقية» تحمل تأثيراً بعيد المدى، يحكي الشيخ ميان جي عيسى الذي رافقه في هذا السفر قصة انشغال الشيخ بعمل الدعوة، فيقول:

«عقد اجتماع ضخم في «داكا» بعد وصول الشيخ محمد يوسف إلى «باكستان الشرقية»، حضر هذا الاجتماع مئة ألف شخص، واستمر الاجتماع ثلاثة أيام، وألقى الشيخ محمد يوسف خطابه بعد الفجر، وبعد المغرب، وبين هذين الخطابين تحدث في لقاءات ومجالس شخصية، وعقدت اجتماعات خاصة للعلماء ورجال الأعمال والموظفين، وخرج للدعوة ألوف من الناس، لمواعيد مختلفة، من أربعة شهور، ثلاثة شهور، أربعين يوماً، وقضى الشيخ محمد يوسف ليلة واحدة في «سلهت»،

وعقد اجتماع فيها، وخرجت ٢٥ جماعة، ثم توجه الشيخ إلى «مكرميلا»، وأقام فيها بضع ساعات، وتحدث في اجتماع عقد بمناسبة قدومه، ثم توجه إلى «نواكهالي»، وعقد اجتماع ضخم هناك اشترك فيه عدد كبير من العلماء، وأيد معظمهم هذه الحركة، وأبدوا إعجابهم بها، ووعدوا بالخروج.

ومن «نواكهالي» توجه الشيخ إلى «شيتا جونج»، حيث أقام ثلاثة أيام، وعقدت هناك اجتماعات مختلفة للعلماء، وأصحاب التجارة والصناعة والموظفين الرسميين، بالإضافة إلى اجتماع عام، وخرجت عدة جماعات لم يكن يتوقع ذلك قبل الاجتماع، ثم عقد اجتماع في «ستروكونا»، وكان اجتماعاً حاشداً، حضره جمع غفير من الناس، ويظن بعض الذين حضروا هذا الاجتماع أنه كان مثل اجتماع «داكا» في كثرة عدد المشتركين وخروج جماعات كثيرة، ثم سافر الشيخ إلى «راج شاهي»، واشترك في اجتماعات عقدت في موضعين، وخرجت منها جماعات، وعقد في موضع كان يقع على الحدود اجتماع للناطقين بالأردو، ومن أجل ذلك سافر الشيخ إلى ذلك المكان، وتحدث فيه إلى الناطقين بلغته، ثم توجه إلى «كهلنا»، وعقد هناك اجتماع كبير حضره عدد وجيه من العلماء والموظفين، وكان هذا الاجتماع اجتماعاً هاماً، تحدث فيه الشيخ وصرّح أن النجاح الحقيقي هو في الداخل، وكذلك الخيبة الحقيقية أيضاً في الداخل، ولا صلة لهما بالخارج، الجوع خيبة وهي داخلية، والشبع نجاح وهو داخلي، وكذلك ذكر أمثلة كثيرة للنجاح والخيبة، فتأثر بكلامه الحاضرون تأثراً عميقاً.

ومن مزايا هذه الزيارة أنه كان يرافقه في كل رحلة أكثر من عشرين شخصاً ويحضر مائدته أكثر من مائة وخمسين شخصاً.

وقد وصف الشيخ ميان جي عيسى في رسالة أخرى، وجهها من «شيتا جونج» إلى الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي برامج الشيخ محمد يوسف بتفصيل فيقول:

«وصل الشيخ محمد يوسف مصحوباً بالشيخ إنعام الحسن وغيره من الرفقة بسلامة الله إلى «داكا»، وكان الاجتماع ناجحاً للغاية، فقد أثر في قلوب طبقات مختلفة، وأحدث فيها العاطفة للعمل، لتجديد الإيمان واليقين، وخرج بعضهم في

سبيل الله فوراً، ووعد كثير منهم، وبلغت الجماعات التي شكلت مائتين وخمسين جماعة، ورافق مائة وخمسون شخصاً الشيخ محمد يوسف في جولاته الدعوية، ووصل الشيخ محمد يوسف مع رفقائه إلى «سلهت»، وكنا قد وصلنا إليها قبل يوم، وأتيحت لنا فرصة العمل في طبقات مختلفة، وقد اهتم به رجال جميع الطبقات والمستويات وعامة الناس وخاصتهم من سكان القرى والمدن، والتفتوا إلى عمل الدعوة، واستمعوا إلى كلامنا بأهمية بالغة، ووعد حوالي مائة شخص بالخروج لأربعين يوماً، ولأربعة شهور، وتوجهت إلى «شيتا جونج» يوم السبت مساءً، وسيصل الشيخ محمد يوسف بعد اشتراكه في اجتماعات «كمرلا» و«نواكهالي» يوم الأربعاء، وكان الناس لا يلتفتون إلى عمل الدعوة أولاً، ولكن الآن قد بدأوا يستمعون ويجتهدون، وستصل الدعوة بإذن الله قبل وصول الشيخ إلى جميع الناس، وبدأ الناس يعدون بالخروج، ويعنون بأمر الدعوة، وسيغادر الشيخ إلى «كراتشي» بعد جولة في مناطق مختلفة، وسنرافقه إن شاء الله، وسنقضي أسبوعين في الرحلات في الغرب.

الدعوة إلى زيارة «بورما» وتأجيل الزيارة:

كان سكان «بورما» يرغبون منذ زمن بعيد في زيارة الشيخ محمد يوسف لـ «بورما»، وكانت الجماعات ترسل بصورة مستمرة، وكانت مناطق مختلفة منها تشهد نشاط الدعوة وأعمالها، وقام عدد من العاملين في مجال الدعوة في «بورما» برحلات إلى «الهند» للإصرار على زيارة «بورما»، وعندما وصل الشيخ محمد يوسف إلى «باكستان الشرقية»، ومن اليسر القيام بالسفر من هذه المنطقة إلى «بورما» لقربها، ولكن رغم هذه الجهود وموافقة الشيخ محمد يوسف على القيام بالزيارة نهائياً، لم تتحقق هذه الزيارة لأسباب قاهرة، وحالت الإجراءات القانونية دونها، وأجلت الزيارة، يقول الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي وهو يبين أسباب إلغاء هذه الرحلة:

«كان أهل «بورما» يلحون من زمان أن يزور الشيخ محمد يوسف «بورما»، فأصروا على ذلك في رسائلهم، وشفوياً خلال لقاءاتهم به، وكان الشيخ المفتي محمود الرنجوني قد تحدث في هذا الموضوع، وأصرّ على دعوته خلال زيارته

الأخيرة، وأخيراً وافقت أنا والشيخ محمد يوسف على ذلك، ووعدنا بأن يتم هذا السفر في فرصة قريبة، فلما علم عن رحلته إلى «باكستان الشرقية» بدأت تنهال برقيات إليّ، وإلى الشيخ محمد يوسف، والحاج غلام رسول في «كلكتا»، وهي خير مناسبة، فإن «رنجون» قريبة من «باكستان الشرقية»، فيجب تخصيص أسبوع لزيارة «بورما»، وقد عارضت هذه الفكرة بشدة؛ لأن برامج «باكستان الشرقية» كانت قد تقرر مواعيدها من قبل، وتقرر كذلك مواعيد اجتماعات «باكستان الغربية»، ولا يمكن تغيير هذه المواعيد، ولا تسع هذه المواعيد لإدخال برامج جديدة أو إضافية، ولكن البرقيات المتواصلة، والرسائل والمكالمات المتعاقبة حملت الشيخ محمد يوسف على اختصار بعض برامج «باكستان الشرقية»، وحذف بعضها لإتاحة فرصة زيارة «بورما»، بطريق إنهاء برامج «باكستان الشرقية» مقدماً، وإرجاء برامج «باكستان الغربية»، وتأخير الرجوع إلى «الهند»، وبعث برقية إلى الأحبة في «بورما» لهذا الأمر، فقبل ذلك القرار بسرور بالغ وسادت البهجة في العاملين، ووصلت برقيات الشكر، ولكن لم توفق الجهود التي بذلت على التأشيرة، وأجبر الشيخ محمد يوسف على إلغاء سفر «بورما».

في «باكستان الغربية» :

وصل الشيخ محمد يوسف بعد إنهاء زيارة «باكستان الشرقية» إلى «باكستان الغربية»، وعقدت اجتماعات في «كراتشي» و«ملتان» و«كوهات» و«راولبندي»، وكانت الإقامة في «كراتشي» بصفة خاصة ناجحة للغاية، فازدحم الناس، وتهافتوا عليه، وتحدث الشيخ في عدة اجتماعات، وواصل خطابه رغم انحراف صحته وضعفه، وشعوره بالآلام داخلية، وحمل الناس على الخروج في سبيل الدعوة، وقام بجولات في ضواحي «كراتشي»، وتحدث في الاجتماعات، وتلقى هذه الرسالة التي كتبها الشيخ الحافظ صديق النوحى الضوء على برامجه في «باكستان» :

«وصل إلى «كراتشي» عند صلاة الفجر، فصلّى الفجر، واستراح قليلاً، ثم تحدث في لقاء خاص ساعة ونصف ساعة، ثم توجه إلى لقاء الشيخ المفتي محمد شفيع في دار العلوم، وتغدى بعد العودة واستراح، وتحدث بعد المغرب ساعتين

ونصف ساعة على موضوع «الإنسانية والتقوى»، قال فيها: إنني أريد أن يكون كل بيت من بيوت المسلمين صورة لبيت أصحاب الرسول ﷺ، فتتقضي ثلث أوقات حياة كل شخص على طريق أصحاب الرسول ﷺ في المدينة».

أقام في «كراتشي» ثلاثة أيام، وأجريت لقاءات مع رجال طبقات مختلفة، وشكلت جماعات للعمل في الضواحي، واشترك فيها عدد من العاملين القدماء، وخرجت جماعات لثلاثة أشهر في بعض المواضع، ثم توجه الشيخ إلى «خيرپور»، وأقام هناك يوماً، توجه بعدها إلى «ملتان» بعد صلاة الفجر، وبدأ خطبته فور وصوله وتحديث ساعتين ونصف ساعة، ثم دخل في بيعته رجال، وجاء العاملون المتقدمون من أيام الشيخ محمد إلياس - رحمه الله - للقاءه.

وبعد «ملتان» توجه الشيخ إلى «كنكن پور» و «تل» و «راولبندي»، وانهاه عليه الناس في «كنكن پور» بسماع حديثه، وفي «تل» تأثر الشيخ بما شاهده من حالة البؤس والشقاء وحياة الشظف، فقال: هذه نعمة الإسلام الأولى، وقال معلقاً على شجاعتهم ورجولتهم: إن القوة تصرف اليوم للحصول على المال، وكان الأفضل أن تصرف هذه الطاقة على نشر الدين والدعوة إلى الله، وظلت سائر المحلات التجارية في «تل» مغلقة يومين كاملين خلال إقامة الشيخ محمد يوسف، واجتمع سكان الأرياف في «بندي» «مردان» و «سوات» بعدد كبير، وعقدت اجتماعات كثيرة، تحدث فيها الشيخ محمد يوسف إلى المجتمعين.

اجتماع «رائيوند»:

عقد اجتماع ضخم في «رائيوند» في ٢١/٢٢/٢٣ مارس/آذار، اشترك فيه ألوف من مناطق مختلفة في البلاد، وألقى فيه الشيخ محمد يوسف خطاباً مؤثراً عاطفياً، يحكي ميان جي عيسى هذا الاجتماع بالكلمات الآتية:

«يقدر أن عدد المشتركين في اجتماع رائيوند كان يتراوح بين عشرة آلاف وخمسة عشر ألفاً، وكان نظام الإقامة والطعام أنيقاً، وكان عدد سكان المدن كبيراً، وامتازت خطب الشيخ محمد يوسف بأسلوب خاص، فقد ركز في هذه الخطب على العبادات بالإضافة إلى تركيزه على الكلمة، وتحدث أيضاً في هذا الاجتماع الشيخ

محمد سليمان الذي كان رئيس بلدية «الدام»، ويتولى منصب مدير مصلحة التأمين أيضاً، فقد وصل للاشتراك في هذا الاجتماع مع الشيخ عبد الباسط من «خبر»، واشترك في حلقة التعليم مع العلماء، ثم ألقى خطاباً مؤثراً يجيش بالعاطفة، وقال: إن الله تعالى يقيض لأمر دعوته رجالاً في عصور مختلفة، وقد قيض الله لهذا العصر الشيخ محمد إلياس - رحمه الله - ، وهدى به الناس إلى الحق، والآن تتحملون أنتم أيها العلماء هذه المسؤولية، فإذا قمتم بهذه الدعوة، وأخذتم زمامها بأيديكم، فإن سفينة الأمة التي توشك أن تغرق ستصل إلى شاطئ النجاة بسلامة، وبكى في خطابه، وأبكى العلماء وسالت الدموع من العيون، وكان مئات من طلبة الكليات قد وصلوا للاشتراك في هذا الاجتماع، وتحدث إليهم الدكتور خالد من جامعة عليجراه الإسلامية، فكان لخطابه تأثير على القلوب، أوضح في خطابه كيف كانت جامعة عليجراه الإسلامية معقلاً للشيوعيين، وكيف بدأ التحول في هذا الجو المعادي للدين، وبدأ الإقبال على الدين ببركة هذا العمل وبفضل جهود العاملين في مجال الدعوة، وقد عقد بهذه المناسبة اجتماع حضره سائر أساتذة الجامعة، وخاطبهم الشيخ محمد يوسف فقال:

«إن الولاية لها قسمان: القسم الأول أن يترك الإنسان كل شيء، ويذهب إلى الغابة وينقطع عن الخلق، ويختار التزكية ويتوجه إلى الله كلياً، وهذا أدنى درجة للولاية، والقسم الثاني وهو أعلى درجة للولاية، هو أن يواصل الإنسان مسؤولياته، ويؤدي واجباته خير تأدية حسب صفات الأولياء، ولكن لتحقيق هذه الدرجة من الولاية يجب أن يفرغ السعي إليها بعض وقته لتنمية اليقين، وتزكية عبادته وأخلاقه، ثم يعود إلى مسؤولياته ليؤديها خير تأدية، وينقل إليها هذه الصفات العليا».

فكان من تأثير هذا الخطاب أن سجل عدد من طلبة الكلية أسماءهم، وخرجت سبعون جماعة فوراً، وكان الدعاء الأخير للشيخ محمد يوسف لدى توديع الجماعات دعاءً، أثار النفوس وأسأل الدموع وأشجى القلوب، حتى الشيوخ العرب لم يتمالكوا نفوسهم واخضلت عيونهم».

انطباع مؤثر:

اشترك في هذا الاجتماع الذي دام ثلاثة أيام ألوف من الناس، فكان محل الاجتماع كأنه غابة للإنسان، يتقاطر إليه الناس من كل جانب، وتوجد الحركة والحياة في كل مكان، وكان مئات منهم لم تتح لهم فرصة للاستماع إلى خطاب الشيخ محمد يوسف في حياتهم.

يحكي أحد المشتركين في الاجتماع لأول مرة القصة الآتية:

«منذ مدة طويلة كنت أشاهد في المساجد أن شخصاً يقدم بعد صلاة العصر أو صلاة المغرب، ويقول ببساطة ولطف:

أيها الإخوة، انتظروا قليلاً بعد الصلاة والدعاء لكلمة في الدين، وأن بساطة الداعي، وتواضعه وإخلاصه كان يمنع الناس من الخروج من المسجد، ويقنعهم بالترتيب قليلاً لسماع ما يقال لهم عن الدين، ثم يقوم عبد من عباد الله، ويبدأ كلامه بدون تمهيد أو تصنع، ويتكلم عشر دقائق أو أكثر، ويقول: إن هذه الحياة الدنيا معدودة، وتنتهي يوماً من الأيام، فعلينا أن نفكر في حياة الآخرة التي تدوم وتبقى، ونعمل عملاً يجلب رحمة الله، ويقينا من الخزي يوم القيامة، وكان هذا الكلام الذي يخرج من القلب ينفذ في القلب ببساطته وواقعيته، ويحلو له كلامه، فيتمنى السامع لو يطيل الكلام حتى يترسخ في القلوب عدم ثبات هذه الحياة، ثم يقول في الختام: سيعقد اجتماع في ٢٣/٢٢/٢١ من هذا الشهر في «رائي وند» بالقرب من «لاهور»، حيث تسمعون كلاماً مفصلاً عن حياة الآخرة، وحان الموعد، فخطر ببالي أن أحضر هذا الاجتماع، وأشهد ما يجري هناك، وأسمع ما يقال عن الآخرة، وأقنع بعض أصدقائي أن يرافقوني، ثم ذكرت لبعض المشايخ، فأبدوا عدم استعدادهم للسفر في هذه العجلة، فندمت على التأخير في إبلاغهم، وتأسفت أنني ظللت مشغولاً بأمور الدنيا، ولم أستطع أن آتي إليهم قبل اليوم.

ركبت القطار في الساعة العاشرة والدقيقة الخامسة والعشرين، وكان القطار مزدحماً ازدحاماً شديداً، والعربات كانت مكتظة بالركاب، ولكن لا أدري أي سفر في السابق كان أكثر راحة ولذة من هذه الرحلة، لم يحدث فيها شجار مع الركاب ولا

معاكسة أو مضايقة، بل كانت العاطفة عاطفة المواساة والإيثار تغلبنا، نزلت في محطة «رائي وند»، وكان محل الاجتماع قريباً، وصلنا إليه وكان هناك مسجد بسيط، قد نصبت حوله خيمة، وكانت عامرة كلياً، وكانت سيارات طويلة واقفة، وحافلات عديدة، وعلمنا أن طلبة «كلية هيلي» كانوا قد قدموا بالحافلات، وافترضنا الأرض حيث وجدنا مكاناً للجلوس، وأردنا أن نستريح قليلاً.

بدأ الاجتماع في ٢١/ صباحاً، وافتتحه الشيخ محمد يوسف الذي جاء من «دلهي» وهو أمير هذه الجماعة، وابن مؤسسها، وكان كلامه كلاماً جدياً، مليئاً بالحقائق والإخلاص والنصح، فأنصت الناس له، وسمعوا كلامه بشوق وشغف كبيرين، وكان ذلك التأثير يرجع إلى مصدر هذا الكلام ومنبعه، فإن كلام الله وكلام رسوله له تأثير على القلوب، صرّح الشيخ:

أيها الإخوة: إن الإنسان يجتهد في هذه الحياة لشيئين لما يتعلق بهذه الدنيا ولما يتعلق بذاته، ما يتعلق بهذه الدنيا كبناء السكن وشراء الأرض وإنشاء المصانع وكسب المال، والحصول على الوظائف فكل عمل يقوم به الإنسان يستهلك قواه، ويشغل باله، ويصرف همه إليه، وتكون النتيجة أن الإنسان يفقد نفسه وذاته وينشغل عن تهذيبها وتثقيفها وإحراز كمالها، وعندما يأتي أجله فكل ما كسبه من أمور الدنيا وأمتعتها تبقى في هذه الدنيا ويتركها لغيره، ويذهب إلى ربه صفر اليدين، وعندما يقف يوم الحشر ينظر إلى شخص آخر ترك هذه الأمور والسعي وراءها، وعكف على تربية نفسه وتزكيتها فيبكي على نفسه، وضياع عمره، وتنهمر دموعه، ويندم حيث لا ينفع الندم.

ثم قال:

إن الاجتهاد وبذل الجهد لتزكية النفس وتصفية القلب، أي الجهد لوقاية اللسان ولوقاية الأذن، ولوقاية العين، يوصل الإنسان إلى درجة أفضل من هذه الدنيا ملايين درجة، مثلاً أنت في طريقك، فتقع نظرتك على امرأة، فقال القلب: إذا وقعت نظرتك مرة أخرى هلكت، فحولت بصرك على الفور فإن تحويلك لبصرك مرة يكسب من ثواب الآخرة وأجر الله تعالى ما لا يمكن تصوّره، فلو أنزل شيء من هذه النعم

على الأرض لتقاتل رجال الدنيا للحصول عليه. كان في هذا الكلام حلاوة تسري في القلب، وتأثير على النفس، يثير الشجون والتحسر على ما فات، لقد انقضت حياتنا سدى ماذا يكون مصيرنا، يا الله، كان الناس في الاجتماع كأمواج البحر، تجد كل شخص في اضطراب قلبي، كيف وصل هؤلاء الآلاف المؤلفة من الناس إلى هذا المكان البعيد المهجور من كل صوب، ولماذا تجشموا مشاق السفر، وما هي غايتهم، ماذا يجذبهم ويسوقهم، ويحدوهم.

قال الشيخ محمد يوسف:

إن الاجتماع لا ابتغاء وجه الله تعالى، تنزل عليه الملائكة من السماء فيحلقون ويسلمون على المجتمعين، وفقنا الله تعالى جميعاً لنجتمع لا ابتغاء رضا الله، لتنزل علينا الرحمة، ويعيش الإنسان بالسكينة، وتحصل له السعادة والفوز.

كان هذا الاجتماع يضم الأغنياء والفقراء والصغار والكبار والشيخ والأطفال كم البنجابيين والسندھيين والثغوريين والبنغاليين، ومنهم عدد كبير من الإخوة العرب الناطقين بالضاد، وآخرون قادمون من «الهند»، كان منهم صناعون، وباعة وتجار وطلبة المدارس وأساتذتها وطلبة الكليات ورجال كل مجال من مجالات الحياة، كلهم حضروا واجتمعوا ابتغاء رضا الله، فمنهم من لم يجد المكان في المسجد جلس خارج المسجد مهما كان مستواه الاقتصادي والثقافي، فإن هذا المكان ليس بمكان يتظاهر فيه أحد بعلمه وثقافته ونفوذه وثروته، ولم تكن هناك إعلانات ولا لافتات، ولا ملصقات الجدران، ولا ذكر المفاخر والمنجزات، وإنما كان الحنان والشوق لذكر الله والحرص على إصلاح منهج الحياة، والندم على ما فات في الحياة والعزم على تلافيه، وهو الذي ساقهم إلى هذا الاجتماع، كل شخص كان في هم، وهم إصلاح الحياة.

وانقسم الناس بعد صلاة الظهر إلى حلقات التعليم، تعليم الصلاة والذكر والدعاء، وكيف يجب أن يكون الدعاء، والداعي، ومتى يستجيب الله الدعوة، وكيف استجاب الله دعوة السلف الصالحين وأنقذهم وأنعم عليهم، فكان خطابه يشتمل على ذكر من مضى من الصالحين والطغاة، فعندما ذكر الأثرياء وحبهم للمال ذكر نموذج

قارون وهامان وشَدَّاد وثروتهم وكنوزهم ومخططاتهم لجمع المال، وعندما ذكر الفقر ذكر نماذج فقر الصحابة الكرام وجهادهم، وبلاءهم ومحتهم، وفقر النبي ﷺ، وعلمنا كل ذلك في هذه الحلقات، وبعد حلقة التعليم التي استمرت ساعتين جاء وقت الصلاة والغداء، فنظم الغداء في مكان مخصص له، وكانت حوانيت التجار أيضاً مفتوحة، من أراد أن يأكل في مطعم خاص أكل فيه، ولم يكن يتقاضى شيء من الذي يأكل في مطعم الاجتماع العام، وبعد صلاة العصر تحدث مفتي «لانسبور» الشيخ زين العابدين وكان خطاباً وجيزاً، لكنه حاوياً، وقد وهبه الله ملكة فائقة للتعبير والبيان، وأسلوبه أسلوب وجداني، قال في كلمته:

«إن الإنسان إذا بالغ في الجهاد والمجاهدة والترويض يصل إلى درجة تجعله إذا رفع يده للدعاء راضياً به، فتبعه الدنيا، ونحن اليوم نتبع الدنيا ونجري وراءها، والدنيا تنفر منا وتبعد عنا، وحكى قصص الصحابة والصالحين بطريق يجدد الإيمان ويبعث اليقين في القلوب».

بعد المغرب ألقى ضيف من ضيوف العرب كلمة باللغة العربية وكانت لهجته حلوة عذبة رائقة، وكنا نسمع الكلام، ونتمنى أن يستمر الكلام بلسان النبي ﷺ ونسمعه، وكان مترجم ينقل كلامه، وتحدث ساعة إلا ربع ساعة في أمور الدين المختلفة، وكان خطاباً حافلاً بالمعارف والمعلومات يحث على العدل والإنصاف، والمعايشة والاقتصاد، وانتشار الإسلام في أماكن مختلفة في العالم.

لم تكن صحة الشيخ محمد يوسف في هذه الأيام مرضية، ولكنه رغم انحراف صحته يلقي كلماته في أثناء الاجتماع، وكان عدد كبير من علماء «لاهور» ومدن أخرى موجودين في الاجتماع، ولم تكن صحة الشيخ محمد يوسف على ما يرام، فقد كان يشكو البرد، ولكن حب الدين كان غالباً عليه، فلم يبال بصحته وواصل الكلام، وكان يخاطب الناس في اجتماعات فرعية مختلفة، خاصة وعامة.

كان يحكي قصص موسى عليه السلام وفرعون، ويصف أن الدنيا وما فيها عاجزة غير معجزة تأتيه لأمر الله، وأن العظمة لله، والأمر كله بيد الله يتصرف كما يشاء، وكان كلامه ينتقل إلى القلب، وتقتنع به النفس.

كان يقول: إذا جاء فاسق وكاذب نبأ، إن جماعة أو فرداً يطمع في مالك، ويدبر لانتهابه واختلاسه منك، فتنصرف إلى مالك، وتفكر في حفظه ووقايته، وإن كان هذا المخبر كاذباً وفاسقاً في تصورك وتجربتك، ولكن نبي الله تعالى الذي نؤمن بأنه صادق أمين ونبي مرسل من الله، وإذا كان إيماننا بصدقه وأمانته غير كامل، كنا خارجين عن الإسلام، إن هذا الصادق الأمين يقول: أيها الناس إن هذه الحياة الدنيا لا تساوي عند الله جناح بعوضة، ولا قيمة لشيء إلا الآخرة، ولا بقاء إلا الحياة الآخرة فافعلوا ما شئتم لتلك الحياة، وإلا يكون نسيكم الندم في تلك الحياة الباقية، فنسمع هذا الخبر، ولا يهمننا، ولا نثق به، لماذا؟ لأن ما في هذه الدنيا من مال وأولاد هي في مشاهدتنا وتجربتنا، والحياة الآخرة غائبة عن عيوننا، وذلك هو الإيمان بالغيب، فإذا أبصرنا، لم يكن ذلك إيماناً بالغيب.

وهكذا سارت الأعمال والمباحثات في أمور الدين إلى ساعة متأخرة من الليل، وجاء وقت صلاة العشاء، فقامت الصفوف ولا فرق بين الناس على أساس من اللسان واللون، أو الجنس والعنصر، كلهم عباد الله، وإخوة في الدين، واقفون أمام الله وقد تلاشت جميع الفروق وكان كل شخص فقد نفسه وميزته، هدوء كامل صمت عام إلا الإمام الذي ينوب عن الجميع.

بعد الساعة الثانية عشر انتهت هذه الأشغال، وبدأ الناس يفكرون في استراحتهم واشتغل بعضهم في المناجاة والتضرع إلى الله، واستيقظ النائمون في الساعة الرابعة، سبحان الله، ما أجمل هذا المنظر، وما ألد هذا القيام، وإحياء الليل.

في اليوم الثاني والعشرين بدأ الاجتماع بخطاب بعد صلاة الفجر، ثم حلقات التعليم في وقت الظهر، وخطاب للعالم الديني الكبير الشيخ محمد عمر البانوري القادم من «الهند»، وله أسلوب خاص في البيان، ويرسخ المعلومات في الأذهان ويفهم ويهز الناس ببيانه، وتردد الألسنة ذكر الله، وتسبح له من غير شعور.

وهكذا استمر هذا الاجتماع ثلاثة أيام، وكان الدرس الرئيسي أن الفساد هو فساد النفس، فإذا صلحت النفس صلح كل شيء.

وفي اليوم الآخر شكلت جماعات الذين سجلوا أسماءهم للخروج في سبيل الله، وكانت كل جماعة تتكون من ثمانية إلى اثني عشر شخصاً، وشكلت هكذا جماعة أرسلت إلى مختلف أنحاء البلاد لتدعو الناس إلى الخروج من بيئاتهم الفاسدة لإصلاح النفس، ولكل جماعة أمير، وكل شخص يحمل متاعه ونفقاته، ومن يشاهد هذا المنظر وهذه العاطفة الإيمانية، والدعوة إلى الله، يتأثر بها تأثراً لا يحدثه خطاب أو وعظ بليغ واختتم الاجتماع بالدعاء.

دعا الشيخ محمد يوسف في ختام الاجتماع، أظهر فيه توبته عن المعاصي والاستغفار والدعاء للفلاح في الآخرة، ونصرة الإسلام، ولهداية الإنسانية كلها، دعا الله بكل ضراعة وإنابة كما يحق للداعي دعاء المضطر، المستجير المستعين، فلم يبق قلب إلا وأخذ رقة، فوجلت القلوب، واغرورقت العيون، وتحركت الشفاه، ودوى الفضاء بالعويل، كل شخص يتحسر ويتلهف على معاصيه التي تشخصت في مخيلته، ويظن بعضهم أنه هو المذنب وهو العاصي ولا عاصي إلا نفسه، ولا عاصم من أمر الله إلا الله، ولا غافر إلا الله فيقول: يا مغيث أغثني، يا مجيب اغفر لي.

وهكذا انتهى ذلك الاجتماع الخالد بالدعاء وقت الظهر.

اجتماع الموظفين والمسؤولين والميواتيين:

اجتماع خاص في ٢٣/مارس/آذار ١٩٦٥م في منزل عبد الرحمن القرشي حضره الضباط، والرسميون والمثقفون بالثقافة العصرية، ثم وصل الشيخ إلى «لاهور» في ٢٣/مارس/آذار، وعقد هناك اجتماع في منزل حق نواز خان، حضره الضباط والمسؤولون، وتحدث فيه الشيخ، ويقدر عدد الذين اشتركوا في هذين الاجتماعين بأكثر من مائة ضابط وأستاذ من أساتذة الكليات، وأقام بـ «لاهور» ثلاث ليال، ثم عاد إلى «رائي وند» في ٢٤/مارس/آذار ١٩٦٥م وتحدث إلى كبار العاملين في الجماعة، ثم وصل إلى «نونار» بالقرب من «سيالكوت» ليوم واحد، وتحدث في اجتماع للميواتيين، وفي هذا الحديث دعا الشيخ عدة مرات للنجاة من سكرات الموت وغمراته، وودّع الجماعات فأوصاها.

كانت النقاهة بادية على الشيخ محمد يوسف في «ناروال»، وبدأ يشعر بالآلام الشديدة، لكنه احتمل كل ذلك، ولم يعرف أحد ما كان يؤذيه.

صلاة الجمعة في «گوجرنواله» وخطاب الشيخ محمد يوسف:

بعد يومين أدى صلاة الجمعة في «گوجرنوالا» رغم آلامه التي كان يعاني منها ألقى خطبة قبل الصلاة، وبعد الصلاة، وكانت هذه الخطبة قبل وفاته بأسبوع، وكان يوم الجمعة هذا آخر جمعة في حياته، فقد توفي الشيخ يوم الجمعة الثاني في «لاهور». وركز الشيخ في هذه الخطبة كعادته على الإيمان واليقين ووسائل ترسيخ هذا الإيمان والجهد له، والمجاهدة في سبيله، والتضرع له، وبالإضافة إلى ذلك انتقد بشدة التشبه بالنصارى واليهود ومحاکاتهم، واتباع حضارتهم، وكان كلام الشيخ يتصف بصرامة وقوة بيان وجزالة، كأنه شغله ضد الحضارة الغربية تلهب وتشعل حيناً بعد حين.

في مركز التبليغ بـ «لاهور»:

انتقل إلى «بلال پارك» بـ «لاهور» عند العصر، واستمرت خطبه وبياناته هنا أيضاً رغم شعوره بالألم، فألقى خطبة استغرقت ساعتين ليلة السبت، وفي يوم الأحد صباحاً ألقى أمام الجماعات قبل توديعها، وانتهى من كلمته في الساعة العاشرة إلا ربع، فتوجه إلى مركز الهاتف، حيث كان يعقد اجتماع للنساء، فتحدث في هذا الاجتماع، وكان الشيخ شديد الانفعال، لم يكن يهدأ بحال من الأحوال، وكان اضطرابه وقلقه وحساسيته تتزايد وتضطرم، كالسمك الذي يخرج من الماء، فكان يواصل العمل، ويشغل قلبه ونظره ولسانه دائماً لخدمة الدين وتأدية الفرائض الدينية، ولذلك رغم مرضه وآلامه قضى وقته في «لاهور» في عمل دائب.

الاجتماعات الأخيرة في «رائيوند»:

أقام بعد ذلك ثلاثة أيام في «رائي وند» (الثلاثاء، الأربعاء، الخميس) ٣٠ - ٣١ مارس/ آذار وأول إبريل/ نيسان ١٩٦٥م، تحدث في هذه الأيام الثلاثة في مناسبات مختلفة، وكانت خطبه في غاية من التأثير والحماس، وإثارة الضمير، يحفز

بها الهمم الفائزة ويدفعها إلى العمل، وكان هذا الاجتماع الذي استمر ثلاثة أيام في «رائيوند» روح رحلة «باكستان» وجوهرها، هبَّ ألوف من الناس من غفوتهم، ونهضوا للعمل في سبيل الدعوة وإصلاح النفس، واقتبسوا من كلامهم مثل حياتهم، وتعلموا منهج العمل لهم في مستقبلهم، وتغيرت حياة ألوف من الناس وعادوا إلى بيوتهم بعزم جديد، وثقة كبيرة، وقلوب متغيرة، واقتناع كامل، فكان كلامه جلاء القلوب وصقل الأذهان، وليس في وسع أي واصف أن يصف قوة بيانه وتأثيره وعاطفته، يدرك بعضه بالمعانية، لقد قال:

«بفضل هذا الجهد يوجد جو صالح ويحدث في القلوب الهم والفكر لإنقاذ هذه الأمة من سيطرة اليهود والنصارى، وبضراعة هذه الأمة وخشوعها وإنابتها إلى الله يقدر الله خروج هذه الأمة من مأزقها إلى لمعانها من جديد، فقد قتل مليون وسبع مائة ألف مسلم من مجموع مليوني ومائتي ألف مسلم بأيدي التتار، ثم فتح الله باب النصر لهم بيد الشيخ شهاب الدين السهروردي ودعائه وتضرعه إلى الله، وفتح الله باب النصر بجهود المجدد للألف الثاني الشيخ أحمد السرهندي — رحمه الله — غلبة الدين الإلهي الأكبر».

وبالإضافة إلى خطب الشيخ محمد يوسف التي ألقاها في الاجتماعات العامة في «رائي وند» فتحت أحاديثه في مجالسه ولقاءاته الخاصة مع العاملين مجالات عمل جديدة، وحلت عقداً كثيرة، وفتحت نصائحه ووصاياه منافذ جديدة، وأضاءت طرقاً سار عليها العاملون فيما بعد، وكان كل ذلك في غاية من العطف والحنان، ورعاية طبائع العاملين، وطبيعة العمل وحسن سلوك، وخلق نبيل مع كل فرد كان يلقاه، ورغم تجشمه مشاق السفر من الشرق إلى الغرب الذي كان له أثر سيء على صحته، فقد أنهك جسمه الهزيل، وأحدث النصب الزائد، والتعب المرهق، كان ذهنه ولسانه طرياً، ومعين فكره حافلاً لا ينضب، وقوة عمله متدفقة لا تفتّر، وإرادة ثابتة لا تهن، لا يملكها إلا الأقوياء والأصحاء.

أكد الشيخ في هذه الوصايا والأحاديث الخاصة على منهج العمل في القرى والأرياف، فقال:

عليكم أن تنظموا عقد اجتماعات في الأرياف في رحلتي القادمة وأن توسع دائرة العمل إلى الحدود، وينشط العمل في «باكستان الشرقية»، وأن ترسل جماعات إلى الدول الإسلامية بنطاق واسع.

ازدادت شعبية الشيخ وإقبال الناس عليه خلال هذه الجولة الأخيرة، وفازت فيه المحبة لهم والثقة فيهم، وكانت هذه العواطف والمشاعر المتبادلة التي كانت تظهر في مناسبات كثيرة غنية عن البيان ولا يمكن وصفها، ولا يدرك أحد بمجرد البيان إلا من شاهد بنفسه، فكان الناس مثل الفراش، يتهافون عليه، ويدورون حوله، فإذا تكلم الشيخ أنصتوا له، وإذا كانت له حاجة أسرع كل شخص للقيام بخدمته وامثال أمره، ويستعد لكل تضحية وفداء في سبيله.

ألقى الشيخ خلال إقامته في رائي وند خطبة يوم الثلاثاء بعد صلاة الفجر، وكان هذا الخطاب مهماً للغاية، وشرح فيها الشيخ الأمة وخصائصها، وكانت كلمة مستوفية لمعان واسعة، بدأ خطابه بلهفة بالغة وتحسر زائد، وقال:

«إن صحتي متدهورة، لا أذوق النوم في الليل، أصابني الأرق الشديد، ولكني أتحدث إليكم لأهمية الموضوع، ممن عمل به بوعي رفعه الله، ومن لم يلتفت إليه خاب وخسر.

إن هذه الأمة وجدت وتكاملت برحمة عظيمة وجهد جهيد، فقد تحمل النبي ﷺ وأصحابه البررة أذى كثيراً في سبيلها، وحاول أعداؤهم من اليهود والنصارى دائماً أن لا يبقى المسلمون أمة واحدة، بل يتفرقوا، وقد فقد المسلمون ميزتهم كأمة واحدة، فإنهم عندما كانوا أمة كان مئات الآلاف منهم يثقلون على العالم كله، ثم شرح ما هي الأمة، وندد بالقومية والوطنية والثقافة واللغة والعنصرية وتطبيق هذه التعبيرات على الأمة، وقال بألم وحزن بالغ:

إن المسلم في محنة اليوم في العالم؛ لأنه ترك صفته كفرد أمة، وطمس معالم طريق النبي ﷺ وعفا آثارها، أقول هذا بحزن قلبي بالغ، كل هذه المحن والدمار يرجع إلى تشتت هذه الأمة وتفرقها، بل إننا نسينا ما هي الأمة، وكيف أنشأ الرسول ﷺ هذه الأمة، وقال الشيخ بعاطفة وحماس بالغ:

إن المسلمين إذا عادوا أمة مرة أخرى عاد إليهم عزهم ومجدهم، ولا تستطيع قوى العالم كله أن تصيبهم بسوء، إن القنبلة الذرية والصواريخ والدبابات لا تستطيع أن تقضي عليهم أو تدمرهم، ولكنهم إذا وقعوا فريسة للقوميات والعصبيات الإقليمية، وانغمسوا فيها، وتفرقوا وقطعوا هذه الأمة إرباً إرباً، فوالله إن جنودكم وأسلحتكم مهما تكاتفت وتجمعت وتكدست لا تفيدكم ولا تغنيكم شيئاً.

كان الخطاب خطاباً يخرج كل لفظ من قلبه، وكانت عاطفته الجريحة تمليه، وكان فيه الجلال والجأش، والثقة واليقين والجرأة والإباء والصراحة وقول الحق.

وفي اليوم الثاني يوم الأربعاء ٣١/مارس/آذار، ألقى خطبة أخرى بعد صلاة الفجر، وألقى الخطبة الأخيرة يوم الخميس بعد الإشراف عند توديع الجماعات، وبعد «رائيوند» عاد إلى «لاهور»، وأقام بها يومين، وتحدث رغم آلامه الشديدة بعد صلاة المغرب في الاجتماع الأسبوعي في «بلال پارك»، وفي اليوم التالي يوم الجمعة استأثره الله برحمته فلفظ أنفاسه الأخيرة، وقضى نحبه ولحق بالرفيق الأعلى.



الباب الخامس عشر المرض والوفاة

المرض :

كان الشيخ محمد يوسف يعاني أمراضاً متعددة منذ مدة طويلة، وازدادت هذه الأمراض واشتدت وطأتها بمر الأيام، يقول الدكتور غلام كريم الذي رافق الشيخ مدة طويلة في أسفاره وإقامته، وعرف طبيعته وأحواله عن كثب وكان يهتم بمعالجته :

كان الشيخ يقول أحياناً: يسيل عرقي كثيراً، ويتصاعد نفسي في المشي، وعندما فحص نبضه كانت سرعته مائة وعشرين، بينما النبض الصحيح لا يزيد عن ثمانين، وعند الفجر عادة تكون سرعة نبضه مئة، وتزداد هذه السرعة بعدما يخطب، وقد استشير الدكتور أسلم الذي رافقه في الحج الأخير، فقال: لا بد من الفحص الطبي الدقيق، ولا يمكن إصدار أي رأي قبل ذلك، وأجريت له فحوص طبية أفادت أن قلبه لا يعاني أي مرض، ولعل ارتفاع سرعة النبض يرجع سعاله إلى ارتفاع درجة الحرارة، ولكن جرب أن معالجة السعال وتخفيفه لم يفد في هبوط سرعة النبض، وفحص الدكتور وحيد الزمان الحيدر آبادي ثم المكي في الاجتماع الأخير في «بهو فال» ضغط الدم فكان مرتفعاً، وأشار الأطباء على الشيخ أن يخفف من ضغوط أعماله، ويريح نفسه، ولكن الشيخ قال نظراً للبرنامج الحافل: إذا تركت الخطاب فما فائدة الدواء، إن حاجة الإنسان إلى العلاج هي حاجة إلى العمل، فإذا كنتم تمنعوني من العمل فما فائدة العلاج.

كانت صحته لدى خروجه إلى «باكستان» على الحالة الطبيعية، إلا أن الأشغال الشاقة والبرامج المزدحمة في «باكستان» أنهكت الشيخ، وأثرت أثراً سيئاً في صحته، فإنه سافر من الجناح الشرقي إلى الجناح الغربي، وتحدث في الاجتماع صباحاً

ومساءً، وكان يشغل نفسه بالكلام عشرين ساعة خلال ٢٤ ساعة، فتحطم نظام جسمه بسبب الكلام المتواصل والسفر المتتالي.

اشتداد مرضه :

لدى اختتام سفره بدأ يشعر بالآم جديدة في اجتماع «نارووال»، لكنه لم يترك حضور الاجتماعات والتحدث فيها، واحتمل الأذى ولم يبه لأحد، وعندما اشتد المرض وأنهكت الآلام، ولم يستطع أن يكتف ما كان يعانيه شعر الناس، وبدأوا يفكرون في معالجته، لكن الشيخ ظل يتكلم ويسافر رغم هذه الآلام إلى آخر ساعات حياته.

كان من المقرر أن يغادر إلى «سهارنفور» يوم الجمعة ٢/ إبريل/ نيسان بالقطار فوصل إلى «لاهور» بعد انتهاء الاجتماع في «رائي وند»، وأدى صلاة العصر في مسجد «بلال پارك» في «باغبان پورہ»، وكان يشعر منذ يوم الأربعاء بالآم من معدته إلى حلقومه في النفس، ولم يكن يرغب في الكلام بعد وصوله إلى «لاهور»، وكان ذلك أمراً غير عادي، وحادثاً جديداً؛ لأنه لم يترك في حياته أي فرصة الكلام رغم أمراضه، ولم تأب طبيعته في أي حال من الأحوال أن يتحدث مع الناس، وكان شعوره بهذا الألم غالباً عليه، ولم يستطع أن يكتبه، بل أظهر عجزه عن الكلام، وأرسل نيابة عنه الشيخ محمد الپالنپوري، وقال له أن يقوم هو أيضاً بتشكيل الجماعات.

الخطاب الأخير :

كان الشيخ يقيم في «بلال پارك» حيث كان مقر الجماعة في «لاهور»، وكان ذلك اليوم يوم الخميس، وهو يوم الاجتماع الأسبوعي، وكان الناس قد علموا وجود الشيخ في «لاهور» وأنه مستعد للسفر إلى «الهند»، فكانوا يعتبرون كلمته الكلمة الأخيرة فوصل ألوف من الناس بلقائي، وسمعوا كلامه الأخير، واحتشدوا في مسجد «بلال پارك»، ونظراً لهذا الحشد العظيم أبدى بعض العاملين رغبتهم في أن يخاطبهم الشيخ ولو باختصار، واستعاد قوته، وأجبر نفسه على أن يلقي كلمته رغم ضعف

صحته، ونقاهاته البالغة وتحدث حوالي ساعة وربع ساعة، ويحكي الشيخ ميان جي محمد عيسى هذه القصة في مذكرات له:

«صلى صلاة العصر يوم الخميس ١/ إبريل/ نيسان في «بلال پارك» بـ «لاهور»، وكان يشكو من حلقومه إلى معدته وخزة عند التنفس، وأبدى عجزه عن الكلام ذلك اليوم، وأمر الشيخ محمد عمر الهالپوري بأن يلقي الخطاب بعد المغرب، وأكد أن يقوم هو بتشكيل الجماعات، لكن المحبين المقربين في «لاهور» أصرّوا وأعادوا أن يلقي كلمة، وكان يرفض طلبهم، وكان الشيخ مضطجعا على الفراش، وكان بجواره الشيخ إنعام الحسن والمفتي زين العابدين ومحمد عيسى، فقال الشيخ للمفتي زين العابدين: إني أشعر بشيء يتحرك من معدتي إلى حلقومي ويؤذيني ذلك كثيراً، وأتغلب على هذا الألم بشرب الماء، ولا أزال أشرب الماء حتى يتخفف ذلك الألم، ماذا تقول عن هذه الحالة؟ وتبسم الشيخ إنعام الحسن على هذا السؤال، وقال: أفتِ أيها المفتي، ثم قال الشيخ محمد يوسف: يا أخي لقد جاء أجلي.

قال الشيخ إنعام الحسن: كيف يأتي الأجل الآن، وقد بقيت «الصين» و «روسيا» و «أمريكا» للدعوة، و «الهند» لم ينتشر الإسلام فيها، ولم يتحقق إبلاغ العالم الدعوة إلى الله، فخطب الشيخ محمد يوسف قائلاً: قضي الأمر وسيعمل العاملون.

ثم سأل: في أي سن توفي والذي رحمه الله؟

أجاب الشيخ إنعام الحسن: اثنتين وستين سنة.

قال: كم كان سن رسول الله ﷺ؟

أجاب الشيخ إنعام الحسن: ثلاث وستين سنة.

فقال توفي سيدنا عمر رضي الله عنه في سن ٦٣ سنة، أما أنا فلي ٤٨ سنة فقط.

قال الشيخ إنعام الحسن: بارك الله في سنك، لماذا تقول هذا؟ بعد برهة رد

الشيخ محمد يوسف: ثلاث وستون سنة سن طيب.

قال الشيخ إنعام الحسن: لا يكون ذلك حسب تقديرنا، فلا يسأل أحد عن سنه وإلا اختار كل شخص سنه.

وهكذا كان يجري الحوار، وكان الإخوة والأصدقاء من «لاهور» يدخلون خلال هذا الكلام، ويقولون: الجمع الغفير، وقد وصل آلاف من الناس من أماكن بعيدة، ولم يبق مكان الجلوس، وأصرَّ عبد الخالق اللاهوري وقال: حان وقت الصلاة، فليفضل الشيخ، الشيخ في انتظار.

قال الشيخ محمد يوسف: أذنوا، ونتوجه إلى الصلاة، فقال بعض الإخوة: إنهم يقولون للخطبة، فالتفت إلى الأستاذ القرشي وقال: هل يجب عليّ أن ألقى الخطبة، ماذا أقول، لقد قلت ما كان ينبغي أن أقوله، والآن لا أقول شيئاً.

قال الأستاذ القرشي: أيها الشيخ، الأحبة يصرون وسيكون هذا الحديث خاتمة هذه الرحلة، ومسك الختام، فقد اجتمع رجال من أهل الاستعداد والخبرة من أماكن شاسعة، فظهرت آثار السرور والغبطة على جبين الشيخ، وقال للأستاذ محمد عيسى: يا عيسى عليّ النهوض، فأمسكت بيده، وأردت بيدي الأخرى أن أرفعه بكل ما أملك من طاقة، لكنني لم أستطع أن أحمله وإن كان الشيخ نفسه يحاول النهوض، فأسرع الأستاذ القرشي، وساعدني في إنهاضه، فقام وحاول أن يخلع سرواله ويلبس الإزار، فتقدم الشيخ شمس الدين الميواتي (أخو المقرئ بدر الدين) فقال له: لقد تركتم جميعاً «الهند» ووصلتم إلى هنا، ولم يرد الشيخ شمس الدين شيئاً، ثم قال الشيخ محمد يوسف: إن الشيخ محمد زكريا يكفي وحده هناك، ثم استعد للوضوء وتوضأ، ثم ذهب إلى المسجد لإلقاء الخطبة، وكان الجمع غفيراً، وكان المسجد رغم سعته مكتظاً، فألقى خطبة استغرقت ساعة وربع ساعة، فصلَّ فيها مسائل الصلاة وآدابها، من التحريم إلى التسليم بدقة واستيفاء، وكان يسيل العرق، وكان ينشفه بنفسه، وطلب الماء أثناء الكلام وشرَّب، ثم شكلت الجماعات، وكانت النقاهة قد غشيت، لكنه انتظر لخطبة النكاح لعزت پوري بن عبد الحميد من «كراتشي» رغم تدهور صحته، وكانت خطبة مختصرة، ودعا دعاء قصيراً، وخرج من داخل المسجد مسرعاً، ولما وصل إلى بيت الحاج بشير بجوار المسجد نادى يا سعد خذ بيدي،

وكان سعد ابن الحافظ صديقاً قريباً منه في ظل سيارة واقفة فأسرع إليه، وأراد أن يأخذ بيده، لكنه وجد أنه ينهار، فنادى مستغيثاً، فأسرع الآخرون وأرادوا أن يساندوا الشيخ ويحملوه إلى بيت الشيخ يعقوب، لكن الشيخ أغمى عليه في الطريق فحمله الناس، وأضجعوه على الفراش، وانتشر الخبر كالنار، واجتمع الأحبة والأطباء، منهم الحكيم عبد الحي، والأخ ضياء الدين وابنه أحمد حسن، وأسرع الحكيم أحمد حسن، وأخرج من جيبه بعض الأدوية الطارئة، وقدمها إلى الشيخ مع الحليب، فأفاق قليلاً، وكانت قد زالت حرارة جسمه، ووقف النبض، فكان في حالة غيبوبة كاملة، وأفاد «جواهر مهرة» في إعادة الوعي وتحرك النبض، وعادت الحرارة إلى جسمه، فقال الحكيم عبد الحي: إنها نوبة قلبية، واستدعى الطبيب الدكتور الكولونيل طيب أمراض القلب، وقدم الحكيم أحمد حسن الحليب و «جواهر مهرة» مرة أخرى، أخذه بيده وشرب وعادت القوة إليه، وأفاق وشعر بتحسّن صحته، ووصل الكولونيل وجس نبضه، وقال: إنه أصيب بنوبة قلبية عنيفة، ومثل هذه النوبة العنيفة تكون قاضية عادة، وإنه لمن كرامة الشيخ أنه احتمل هذه النوبة القاسية، ولا تزال يده ورجلاه باردتين، وسير النبض ٧٦ وضغط الدم ٩٠، وأصر الدكتور أن ينقل الشيخ مباشرة إلى المستشفى، ومنع من أي حركة وعمل خفيف، ويبقى على فراشه.

الليلة الأخيرة من حياته :

إنه لمن مشيئة الله أن هذا الداعي الجليل الذي قضى أيامه ولياليه في الدعوة إلى الله، وخدمة الخلق، والتضرع إلى الله في آخر الليل لنفسه ولأمته، واهتدى على يديه ألوف من الباحثين عن الحق، وقضى محبوه ومتبعوه الليالي الأخيرة في الدعاء له، وتضرعوا إلى الله لشفائه، فقد أفاق الشيخ برهة من الزمن بعد أن بدأ علاجه، واستراح قليلاً وخرج بعض عواده من الغرفة، وفي الصباح الباكر سأل الشيخ: هل حان وقت الصلاة؟ وقال له الشيخ المفتي زين العابدين: نعم، فقال الشيخ: هل أتوضأ؟ قال المفتي زين العابدين، لا بل تيمم.

قال الشيخ: أصلي قاعداً؟ قال المفتي: لا بالإشارة فقط، فأدى الشيخ هذه الصلاة بالإشارة، ثم طلب الشاي، فقال له المفتي زين العابدين: بل الأفضل أن

تستريح قليلاً، ثم تشرب الشاي متأخرين، فقال الشيخ: نعم أنا أيضاً أفضل النوم، ثم نام الشيخ، وفي الساعة السابعة صباحاً جاء المفتي زين العابدين والحكيم أحمد حسن والأستاذ القريشي، وكان الشيخ نائماً، فانتظروا هبوه من نومه، واستيقظ في الساعة السابعة والربع فجلس جميع هؤلاء الحاضرين في مجلسه.

سأل الشيخ محمد يوسف المفتي زين العابدين عما حدث بالليل، قال المفتي: إنه كان دوار في الرأس، وطلب الشيخ من الحكيم أحمد حسن أن يجس نبضه، فجس الحكيم أحمد حسن نبضه، وقال: إنه على ما يرام.

وسأل الشيخ محمد يوسف الحكيم أحمد حسن عما حدث بالليل، فقال: لقد كانت نوبة قلبية، وحاول المفتي زين العابدين أن يمنع الحكيم من هذه الصراحة وقال: إن الأطباء يعلمون الظاهر، وأما العلم الحقيقي عن القلب فهو عند صانع القلب والله يعلم ما في القلب، فضحك الشيخ على هذا التعليق وقال: أما أنا فبدون القلب، لا قلب لي، القضية هي قضية ما بعد الموت.

قال الأستاذ القريشي: استدعينا الطبيب، وإنه سيجري فحصاً طبياً دقيقاً ويعرف ما حدث بالليل.

قال الشيخ محمد يوسف: أنتم تقولون هذا لكيلا يقلق بالي، فقد غادرتني نوبات كثيرة وهذه النوبة أيضاً من قبيل تلك النوبات، الأمر المهم هو أمر ما بعد الموت، ماذا يكون بعد الموت.

تخفيف مؤقت في المرض:

شرب الشاي بعد صلاة الصبح، وتحدث مع الإخوة المحبين حوله، وبعثت هذه الإفاقة في صحته على السرور والبهجة واطمأنت القلوب إلى حد ما، ولكن الشيخ بنفسه كان يقدر بفراسته الإيمانية أن هذه الحالة مقدمة لمرض الموت، ولذلك كان يقول لكل من كان يقنعه ويحاول أن يقلل من أهمية المرض لتسليته: المسألة هي مسألة ما بعد الموت.

انقضى الوقت من الصباح إلى الظهر في جو هادئ، وتحدث فيه الشيخ وأبدى قلقه بالأوضاع الراهنة، وهمه بالدعوة ما يدل على أن قلبه في تلك الساعات الرهيبة

أيضاً لم يكن خالياً من هم الدعوة التي عاش من أجلها، قال: يحتاج أمر الدعوة إلى اهتمام أكثر، ويجب السعي إلى نشره، وتوسيع دائرته، وأعرب عن اهتمامه بنشر الدعوة في رجال منطقة «الإمبراطور أورانج زيب» - رحمه الله - ، وقال: إنهم يشكلون صلبنا، وقال للشيخ إنعام الحسن الكاندهلوي: أد زكاة الأموال التي أنفقت على طبع كتابي «حياة الصحابة».

قال الشيخ إنعام الحسن: طيب، ولكن أرجوك أن تعفو عني، فقد رافقتك مدة طويلة، فرد الشيخ محمد يوسف: لقد عفوت عنك.

أعرب الطبيب بمشاهدة هذه الحالة المتحسنة وحالة النبض وضغط الدم عن اطمئنانه، وقال: لقد كانت النوبة شديدة، قلما ينجو المصاب بها، وأنا لا أفهم كيف نجا الشيخ منها، وإذا استمر هذا العلاج أرجو أنه سيفيق كلياً، ولكن ثلاثة أيام تحتاج إلى غاية من الحذر والحيلة.

قال الشيخ محمد يوسف للأستاذ القريشي: ألا تطالبني بإلقاء خطبة خلال هذه الفترة.

الأستاذ القريشي: لا يا شيخ.

الشيخ: إذا جاء شخص له أهمية وصلة بك.

الأستاذ القريشي: أبداً.

الشيخ: وإذا رغبت في الكلام أنا بنفسي.

المقرئ خورشيد خورجوي: نحن نمنعك جميعاً.

وحان وقت الشاي، وتناول الشيخ فنجاناً من الشاي.

يحكي المفتي زين العابدين في مذكرته هذه الأحوال الطارئة كما يلي:

«كان الشيخ في ذلك الوقت في غاية من السرور والطمأنينة، ولم تكن تبدو على وجهه أمارات المرض، ولم تكن النقاهة كذلك بادية في صوته، كان كالعادة، قلت له: هل نأتي بالشاي؟ قال: بلى، ثم شرب فنجانين مستلقياً على الفراش حسب تعليمات الطبيب.

كان ذلك يوم الجمعة، وهو موعد عودة الشيخ إلى «الهند»، وقد شاع هذا الخبر في «باكستان»، وأخبر بذلك الشيخ محمد زكريا في «الهند» كذلك، وبدأ الناس ينتظرون عودته فقال للأستاذ القرشي: اليوم موعد الرحيل، فقال الأستاذ القرشي: نعم، إن شاء الله ستسافر وتلحق بأسرتك، ثم سأل المقرئ محمد رشيد: ما رأيك؟ فقال المقرئ رشيد: سنعود، ولكن ليس اليوم، فقال: إن الناس ينتظروننا في «سهارنפור» و «دلهي»، وإذا تأخر السفر فذلك يثقل عليهم.

قال الأستاذ القرشي: سنخبرهم بالهاتف، فقال: طيب، وأخيراً أرسل الأستاذ القرشي برقية إلى الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، وأخبره بمرض الشيخ محمد يوسف وإرجاء السفر من أجله.

وبعد الساعة الحادية عشرة جاء الدكتور ضياء الله، واستفسر عن حاله وسير نبضه، وضغط دمه وتنفسه، وأعرب عن اطمئنانه، وقال: إنه لمن أمر الله ومشيتته وفضله، وإلاً فإن مثل هذه الإفاقة من هذه النوبة الشديدة لا تطابق تقديرنا وقياسنا العلمي، إلا أنه قال: لا تزال آثار المرض باقية، فيجب الاهتمام بالراحة القصوى والحذر في الحركة والتقليل في الغذاء، ثم قال: لا يمكن السفر قبل أسبوعين.

النوبة القاضية:

سبب كلام الدكتور ضياء الله وتأكيده باتخاذ الحيطة والحذر الكاملين وتأخير السفر إلى أسبوعين، بعد فحص طبي دقيق، القلق والاضطراب في الأوساط المتصلة بالشيخ محمد يوسف، وبدأت المخاوف تساور نفوس أقرب الناس إليه ويخشى وقوع نوبة أشد، ولعل هذا التخفيف في آلام الشيخ في الصباح والذي دام إلى الظهر كان مؤقتاً، فتدهورت صحته بعد الظهر، وقد ذهب الناس إلى المسجد للصلاة، وأعلنوا للدعاء له وقالوا: إن حالته لا تبعث على الطمأنينة، وبدأت خطبة الجمعة، وكانت الأذهان مشغولة به إذ طلب الشيخ المفتي زين العابدين والقاضي عبد القادر، فلما ذهبا إليه كانت حالته خطيرة.

يقول أحد الجالسين في مجلسه في ذلك الوقت: إننا عندما ذهبنا لصلاة الجمعة وانتهت الخطبة، وكان الناس يسوون صفوفهم للصلاة إذ نادى الأخ خدا بخش

الدكتور محمد أسلم نداء مستغيثاً، فلما ذهب الدكتور وجد أنفاسه غير مستقيمة، وقد بدأت هذه النوبة عند الظهر بعد أن تناول قرصين من الدواء، وكان يقول: اختصروا الصلاة.

وصلى الشيخ إنعام الحسن، وقال الدكتور: بدأت النوبة الثانية ولا بد الآن من الأكسجين، ولم يرض الشيخ بالذهاب إلى المستشفى فاضطجع الشيخ في سيارة، ورافقه الشيخ إنعام الحسن والدكتور محمد أسلم والأستاذ محمد إلياس، ويقول الأستاذ محمد إلياس: إن لسان الشيخ يردد أدعية المساء: سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون.

ويقول الحاج بشير: إنه عندما دخلت الغرفة بعد صلاة الجمعة سمعت الشيخ يقول وأنفاسه تتكاسر: ربي الله ربي الله، ونظر إليّ ولم يتكلم.

وقبل نقله إلى المستشفى وكانت المشاورات تجري في هذا الأمر بين الشيخ إنعام الحسن، والمفتي زين العابدين، كان الشيخ يردد: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، الحمد لله الذي أنجز وعده، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ محمد رسول الله، الحمد لله الذي أنجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، لا شيء قبله ولا بعده، لا شيء قبله ولا بعده.

إلى الرفيق الأعلى :

بدأت أنفاسه تضطرب قبل ركوبه السيارة، وكان الشيخ يردد لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ محمد رسول الله، وكان المفتي زين العابدين قد وصل إلى المستشفى قبل ذلك ليتخذ الإجراءات اللازمة حسب رغبة الشيخ في المستشفى، فلما وصلت السيارة إلى «غري شاهو»، سأل الشيخ: كم يبعد المستشفى؟ قيل له: قطعنا نصف المسافة، ثم عجز الشيخ عن الكلام إلا بصعوبة تامة، وتغيرت عيناه وبدأ الشيخ إنعام الحسن يتلو سورة يس، وكان الشيخ يردد الكلمة الطيبة، وقد حكى أحد المرافقين هذا المنظر بالكلمات الآتية:

«كان الشيخ - غفر الله له - يقرأ أولاً أدعية الصباح والمساء بصوت مسموع، ثم خفت صوته، وكنا لا نسمع إلا أننا نرى تحرك شفيتها، وسأل في هذه الأثناء كم يبعد المستشفى؟ قيل له: فرسخين.

فقال: أما أنا فأفوض أمري إلى الله .

وكانت هذه هي الكلمة الأخيرة التي أداها، ثم ظلت شفاته تتحركان، وكنا نظن أنه يقرأ الأدعية، ولا نسمع شيئاً، وأخيراً قال بصوت خافت: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وظهرت بسمه على شفتيه، ولفظ أنفاسه الأخيرة، وسلّم روحه إلى الله، وكان ذلك يوم الجمعة ٢٩/ ذي القعدة ١٣٨٤هـ - ٢/ إبريل/ نيسان ١٩٦٥م في الساعة الثانية والدقيقة الخمسين .

فارقنا في هذه الساعة تلك الشخصية الفذة التي قضت ٢١ سنة متواصلة في الدعوة إلى الله، ووهب نفسه كلها لخدمة الدين الحنيف، وانتقلت من هذه الدار الفانية إلى مثواها الأخير، لتنال الأجر والثواب عند ربها، واستقرت واطمأنت تلك النفس المضطربة التي لم تهدأ لها حال، ولا قرّ لها قرار في حياتها، ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ .

﴿ يَتَابَعُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَأَدْخِلْ فِي عِلْدِي ﴿٢٩﴾ وَأَدْخِلْ جَنِّي ﴾ .

قال الشيخ إنعام الحسن بعد أن تأكد من وفاته أن يعود إلى المقر بدلاً من التوجه إلى المستشفى، ولكن المرافقين الآخرين وفيهما الأطباء أصروا على الذهاب إلى المستشفى للعمليات الأخيرة الطارئة، والأكسجين، وتحريك القلب، ولكن قضاء الله كان مبرماً، وأعرب الدكتور منير عن يأسه، فذهل الناس جميعاً، وكان بعضهم كأنه قد فقد وعيه، وساد الحزن، وقال الشيخ إنعام الحسن: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرنى في مصيبتى، واخلف لى خيراً منها، وأجهش بعض الإخوة بالبكاء ولاذ بعضهم بالصبر الجميل، وأبدوا عزمًا، إلّا أنهم وقفوا كأنهم لا حراك بهم .

الجنّازة في «بلال پارك»:

نقل جثمانه إلى «بلال پارك»، وهو مقر الجماعة في «لاهور»، وانتشر نعيه في لحظات، وتدفق الناس من كل مكان وتهافتوا لزيارته، وكانت أحوالهم تختلف باختلاف طبائعهم، فمنهم من كان يقتدي بسيدنا أبي بكر رضي الله عنه، صابراً

محتملاً، ومنهم كان على خط سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، الذي كان لا يصدق بموته، ومنهم من كان مثل سيدنا عثمان رضي الله عنه الذي تحطم قلبه، وفترت همته، وساده الوجوم وأظلمت الدنيا في عينيه، وكان هذا الجمع الذي كان يتضرع إلى الله لصحته، يرفع الأيدي لمغفرته.

وقد ألقى الأستاذ محمد أسلم الضوء على هذا المنظر المحزن في مقال كتبه في صحيفة شهاب الإسلامية:

«فرغنا من صلاة العصر في مسجد سوق «شاه عالم»، فنعى إلينا أحد أصدقائنا الشيخ محمد يوسف، فجاء كصدمة لا نعرف مثيلها في حياتنا.

لقد توفي الشيخ محمد يوسف ولم يكمل الجملة حتى سالت الدموع من عينيه وأظلمت الدنيا وضافت الأرض بما رحبت، واضطرب القلب وكدنا نتعثر في المشي، وأردنا أن نعرف تفاصيل هذه الحادثة المفجعة فقصدنا «بلال پارك»، وقد كان المكان مكتظاً بجمع حاشد من الناس، صمت رهيب، ودموع منهمرة، وقلوب متحطمة، كأن الأرض ركدت، لا حركة لها، من وجد مكاناً للقعود قعد ناكساً رأسه، ومن لم يجد مكان للجلوس وقف شاخصاً بصره، لا يتحرك من مكانه، وكان الناس ينضمون إلى هذا الجمع الحاشد من كل مجال من مجالات الحياة كأنه سيل من الناس ويفيض هذا السيل، وفي غرفة من غرف المسجد جثمان هذا المصلح الرباني العظيم الذي قضى كل لمحة من لمحات حياته قائلاً:

«أيها الناس إن الموت حق، وكل نفس ذائقة الموت، وإذا جاء أجليكم لا يرافقكم شيء إلا ما قدمتم من أعمال حياتكم الدنيا، وأعدوا أنفسكم لذلك الوقت، وزينوا حياتكم وطهروا قلوبكم ونوروا عيونكم بالنور الحقيقي، وعودوا أسماعكم على كلام الله ممن سلمت نفسه، ورسخت قدماء، وسلم لسانه هو الفائز، وهذه هي الأشياء التي ترافقكم إلى الآخرة، وأقول بالله وبكل يقين: إن هؤلاء هم الفائزون».

كان الناس يدخلون الغرفة، ويلقون النظرة الأخيرة على وجهه المنير، ونفسه المطمئنة الراضية، ونفوسهم أمينة لاتباع خطاه.

وبعد صلاة المغرب أعلن أحد رفقاء الجماعة: أيها الناس، انتظروا لكلام في الدين على حسب عادة الإخوة الداعين، واستعجب الكثيرون بانتهاز هذه الفرصة المحزنة للدعوة، وقام الشيخ محمد عمر البالنپوري، وألقى كلمة قال فيها:

أيها الإخوة والمشايخ، أنه لحدث جليل، إن الشيخ محمد يوسف قد فارقتنا اليوم، قلوبنا تتحطم، وأذهاننا تضطرب، وعيوننا تدمع، فقد فارقتنا قطب محبة أذهاننا المحدودة، ولكن ما هو علاج هذه النائبة التي انتابنا، وكيف نخفف من آلامنا، ونسلي قلوبنا، وما هو واجبنا في مثل هذه الملمة.

اسمعوا، أيها الإخوة والأكارم، وأنصتوا، إذا أصيب أحد برزية فعلية أن يذكر ما أصاب من كان سر الوجود، ومن خلق له الكون، فداه أبي وأمي، فهل يكون يوم أسوأ من يوم وفاة الرسول ﷺ، إن سائر عواطف محبتنا لهذا الميت الذي نحزن عليه ترجع إلى نسبته لتلك الذات العالية، فعلينا أن نفعل اليوم ما تطلبه منا المحبة الصادقة، وما يفعله المحبون المخلصون الأوفياء.

عرض الشيخ محمد عمر البالنپوري في كلمته صورة للأوضاع التي تلت وفاة الرسول ﷺ، وتأثير هذا الحادث الأليم على نفوس أصحاب الرسول ﷺ، ثم حكى قصة جيش أسامة بن زيد الذي كان مستعداً للسفر لخدمة الدين الحنيف، لقد كان الأمر الأول الذي اتخذهُ سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وهو تجهيز جيش أسامة وإرساله، ووقعت عقبات في الطريق، ولكنه انتصر على هذه العقبات باقتضاء محبته للرسول ﷺ.

وأعاد الشيخ محمد عمر البالنپوري إلى الذاكرة أن الشيخ محمد يوسف الذي نشييع اليوم جنازته لم يرضَ إثر وفاة والده ومؤسس هذه الحركة الشيخ الكبير محمد إلياس الكاندهلوي أن تشييع جنازته ويدفن جثمانه قبل أن تودع جماعات لأربعة أشهر للدعوة إلى الله، ونحن اقتداء بأسوته نعلن أن جنازته لن تشييع إلا بعد ما تقوم جماعات من هنا وتخرج في سبيل الله.

لقد كان هذا البيان مؤثراً محاً من القلوب الأسى وغسل آثار الحزن والكآبة، وتغيرت الأذهان، وشاهد الناس خروج جماعات في سبيل الله، وعادت الثقة إلى

النفوس، إن هناك رجالاً مستعدون لحمل أعباء الدعوة، وأن مستقبل هذه الحركة مضمون ومثمر رغم وفاة الداعية الكبير، وتنور العالم بنور الإيمان واليقين.

أذيع من إذاعة «باكستان» خبر وفاة الشيخ محمد يوسف، وعلم الناس نزول هذه الصاعقة في «الهند» و«باكستان»، وبدأ الناس يقصدون «لاهور» من كل طائفة وجماعة، ووصلت الوفود من سائر المدن الرئيسية في «باكستان» للاشتراك في جنازته، كان في مقدمتهم أساتذة المدارس الإسلامية وطلبتها وأساتذة الكليات والجامعات وكتاب المكاتب الرسمية وضباطها وعامة الناس، واحتشد الناس في سائر الميادين والساحات المحيطة بمسجد «بلال يارك»، ومن العلماء المحليين الشيخ عبد الله أنور خلف شيخ التفسير أحمد علي، والشيخ رسول خان وأساتذة المدارس الدينية، والعلماء، والحفاظ، والقراء، وكان كثير منهم لا يصدق هذا الخبر، بل يكذبه أو يؤوله، ويقول: لعل شخصاً آخر باسم الشيخ محمد يوسف قد توفي^(١).

وكان رجال «الهند» أسوأ من ذلك، فإنهم سمعوا هذا الخبر ودهشوا به، وكان ذلك مفاجأة لهم؛ لأنهم كانوا ينتظرون عودته إلى «الهند»، وكانوا يستعدون لاستقباله على أرض «الهند»، ولم يمتضِ على علمهم بمرض الشيخ محمد يوسف وإرجاء سفره إلا وقت قصير وفوجئوا بخبر وفاته، ويحكي الشيخ محمد زكريا هذا الوضع في مذكرته فيقول:

«كنا ننتظر وصوله يوم الجمعة صباحاً، فوصلت برقية للأستاذ القرشي في الساعة الثانية عشرة أن السفر أرجى لأسباب صحية ولم نستطع أن نصدق، بل قلنا: إنهم أرادوا تأخير السفر، وفخموا مسألة الصحة، وساء ذلك بعض الناس، وصلينا الجمعة، ثم تغدينا واسترحنا قليلاً، وأثناء هذه الاستراحة جاء طلحة وأيقظنا، وقال: جاء رجل من عند الأستاذ صابري يخبر بأنه تلقى مكالمة هاتفية من «لاهور» تقول: إن الخال توفي إلى رحمة الله، وثار الناس وهاجوا، وقالوا: إن بعض الأعداء لأستاذ القرشي أجروا المكالمة للإساءة إليه، ونعوا الشيخ محمد يوسف، وقد حدث ذلك

(١) رسالة الشيخ جميل أحمد.

في الماضي أيضاً، وأشيع خبر وفاته، وكذلك حدث بالنسبة لي أيضاً، فأشيع خبر موتي أثناء سفري للحج، ووقع الناس في الهرج والاضطراب أياماً عديدة.

التجهيز والتكفين:

اتخذت إجراءات التجهيز والتكفين فور وصول جثمانه إلى مسجد «بلال بارك»، فكانت زخمة شديدة، وكان يبدو كأن «لاهور» خرجت عن بكرة أبيها، وكان أكثر من قام بغسل الميت الميواتيون.

قام بغسل الميت ميان جي عبد الله الميواتي، والمقرىء عبد الرحيم الميواتي، والحافظ محمد سليمان الميواتي، والأخ محمد إبراهيم الميواتي، وآخرون، ثم وضعت جنازته في غرفة واسعة مدة في انتظار الصلاة عند العشاء.

قضية الدفن:

كانت قضية دفن الميت شائكة، اختلفت الآراء حولها، فقد كان الشيخ إنعام الحسن الكاندهلوي يرى أن يدفن الشيخ في «لاهور»، لكن بعض الإخوة الميواتيين وفي مقدمتهم الحافظ صديق النوحى، أصرّوا على نقله إلى «دلهي»، ودفن الشيخ في مقبرة أسرته بـ «نظام الدين»، واستفسر في ذلك الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي.

يكتب الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي في هذه المسألة إلى الشيخ أبي الحسن علي الحسنى الندوي قائلاً:

«في الساعة الخامسة والنصف وصل رجل آخر من الشيخ الصابري أن الشيخ إنعام الحسن يسأل على الهاتف عن دفن الشيخ محمد يوسف، وفي ضوء تجربتي وما وقع أثر وفاة الشيخ عبد القادر الراثيپوري وحرصه على أن يدفن في مقبرة مشايخه في «الهند»، وعلى هذا الأساس منعه من السفر إلى «باكستان» خوفاً من أن يموت هناك، ويدفن في ذلك البلد، قلت: إذا أمكن وسمح القانون، فمن الأفضل أن ينقل إلى «الهند»، وإلا فيدفن في مقبرة «رائي وند»، وما كان في حساباني أن الإذن بنقل الميت إلى «الهند» سيحصل عليه بهذه السهولة، فقد تعذّر ذلك في قضية الشيخ عبد القادر الراثيپوري، وأخفقت الجهود التي بذلت في ذلك الأمر، وكان من مسترشدي الشيخ

عبد القادر الرائيپوري كبار الضباط، وأصحاب المناصب العليا في حكومة «باكستان»، والأثرياء وأصحاب النفوذ والسلطة، ولكنهم لم يوفقوا في جهودهم، ولكنني تحيرت ودهشت عندما علمت هاتفياً في الساعة الثامنة بالليل أن الإجراءات قد تمت، وستقلع الطائرة التي تنقل جثمانه في الساعة الحادية عشرة وستصل الجنازة إلى «نظام الدين» في الساعة الواحدة، ولم أكن أعرف شيئاً عن وصية الشيخ محمد يوسف لما شاهد من نزاع حدث حول دفن الشيخ عبد القادر الرائيپوري، والخلافات العنيفة التي حدثت حول مكان الدفن أن يدفن هو حيث يموت، وأن لا ينقل إلى مكان آخر، وحتى القطار إذا توفي أثناء السفر بالقطار، فأوصى أن ينزل في المحطة القريبة من مكان الوفاة، ويدفن ولا يكمل السفر، وعلمت هذه القصة بعد إجراءات الدفن، وأعربت عن سخطي من عدم اطلاعي على هذه الوصية، فقال الشيخ إنعام الحسن: إن هذه المسألة أصبحت موضوع جدل، وصار الناس فريقين، وكان يخشى أن تحدث فتنة بين الناس، يصعب التغلب عليها، وقال المتجادلون: إنهم سيقبلون قراركم، ولذلك راجعتكم في هذه المسألة».

بإذن الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي نقلت الجنازة إلى «الهند»، واتخذ قرار الدفن في «نظام الدين» بالإجماع، وودع الناس بدموع مبهمة من عيونهم قائدهم.

صلاة الجنازة:

أقيمت صلاة الجنازة في مسجد «بلال پارك» بعد العشاء في الساعة التاسعة، وصلى بالناس الشيخ محمد إنعام الحسن، ووصل عدد من الناس وفيهم الشيخ عبد العزيز من كبار مسترشدي الشيخ عبد القادر الرائيپوري في «سرجودها»، يرافقه عدد كبير من الناس، كما وصل بعض الإخوة من «ملتان» وأماكن أخرى متأخرين، وتأسفوا على التأخير في الوصول وفوت صلاة الجنازة، فأقيمت صلاة ثانية، وأم هذه الصلاة الشيخ عبد العزيز في الساعة العاشرة والنصف، وكانت الطائرة الخاصة مستعدة، وقد وافقت الحكومة الهندية على الرحلة، ونقل الجثمان إلى «الهند»، فوصل الجميع إلى المطار في الساعة الثانية عشرة، ووضع جثمان الشيخ محمد يوسف في التابوت.

من «لاهور» إلى «نظام الدين» :

كان الشيخ محمد زكريا قد أخبر بأن الرحلة ستصل في الساعة الواحدة ليلاً، ولكن تأخرت إجراءات السفر، فبدأت الرحلة في الساعة الواحدة والنصف، وكان المطار مزدحماً، وقد احتشد ألوف من الناس لتوديع قائدهم الديني، وكان جو الحزن يسود المنطقة كلها، وكانت عيون كثير من المودعين تدمع، فتحدث الشيخ إنعام الحسن بهذه المناسبة، ولقنهم باقتداء مثل حياة الراحل، وقال: إن خير طريق التعبير عن الحب له، هو اتباع منهج حياته، واقتفاء أثره، ومن فعل ذلك استحق نصر الله وتأييده، لقد ارتحل الشيخ محمد يوسف، وترك لكم مثله، وأرشد إلى الطريق، فعليكم أن تحملوا عبء هذه الدعوة، وتواصلوا السير على دربه .

أقلعت الطائرة في الساعة الواحدة والنصف، ووصلت في الساعة الثالثة إلى مطار «پالم» بـ «دلهي»، وكان يشيع الجنازة الشيخ إنعام الحسن، والشيخ محمد عمر الپالنپوري والحافظ محمد صديق من «نوح»، والمقرئ رشيد أحمد الخورجوي، والشيخ إلياس الميواتي، وميان جي إسحاق الميواتي، والحاج أحمد الپالنپوري .

وصلت الجنازة إلى «نظام الدين» بعد نصف ساعة، ووصل الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي بعد قليل، وكان أهل الشيخ محمد يوسف في «سهارنفور»، فلم يعلموا عن الحادث إلا بعد العصر، وعلم نجل الشيخ محمد يوسف الأستاذ هارون أيضاً بعد العصر ووصل الجميع إلى «دلهي» .

يقول الشيخ محمد زكريا: إن العزيز هارون بن محمد يوسف الكاندهلوي لم يكن يعلم وصول الجنازة، فإنه علم خبر وفاة أبيه بعد العصر، وقد وصل «بابواياز» إلى «سهارنفور» مع الحافظ عبد العزيز، فانتقل الجميع إلى «دلهي» بدون أن يتعشوا، وتحدثت إلى النساء والأولاد لتسليتهم وتعزيتهم، ووصلنا إلى «نظام الدين» في الساعة الرابعة، وكانت الجنازة قد وصلت قبل ذلك .

صلاة الجنازة الأخيرة والدفن :

نشرت الصحف اليومية خبر وفاة الشيخ محمد يوسف بعناوين بارزة لافتة، فتدفق الناس إلى «نظام الدين» من الصباح الباكر، ولم يبق في المسجد وخارج المسجد في الساحات المحيطة مكان لقادم جديد، وكان ألوف من الناس قد وصلوا في الليلة البارحة إلى المطار عندما وصلت الجنازة من «باكستان»، وأنزلوا الجنازة بكل احترام ومحبة، وأقيمت صلاة الجنازة الأخرى في الساعة العاشرة، وصلى بالناس الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، ودفن بجانب قبر والده الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي في مقبرة مجاورة للمسجد، ويقدر أن الذين حضروا بهذه المناسبة واشتركوا في صلاة بلغ عددهم حوالي سبعين ألف شخص، وكان منهم من حضر من المدن والقرى المجاورة لـ «دهلي» كـ «ميرته»، «مظفرنगर»، «ديوبند»، «بلند شهر»، «متهرا»، واستمر قدوم الناس بعد صلاة الجنازة.

ونشرت الصحف تقارير صلاة الجنازة، ومناظر إظهار عواطف الحب والإكرام التي شوهدت في ذلك اليوم.

وألقت والدته الشيخ محمد يوسف نظرة على وحيدها المفارق، فلم تبدأ الحزن، ولا الأسى، بل قالت له كما قالت السيدة الخنساء تماضر لدى استشهاد أولادها الثلاثة:

«يا بني، لقد أضنيت نفسك، وتحملت الأذى طول حياتك لخدمة دينك، فثم الآن في ظل الله ورحمته».

لقد ودع ألوف من الناس قبل إحدى وعشرين سنة من اليوم والده الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي بكل حزن وأسى، وهم يودعون اليوم ابنه الرشيد الذي سار على نهجه، وأدّى دوره، وفدّى بنفسه ودينه، ودّع آلاف مؤلفة وهم يقولون لقبره:

سقتك الغواصي مربعاً ثم مربعاً

لقد سكت ذلك الصوت الذي كان يوقظ الوعي، ويبعث الهمم، ويشعل مجامر القلوب في «الهند» و «باكستان» والدول العربية والعجمية، ودوى صوته في أنحاء

العالم كله، واستفاد الناس، واستنارت قلوبهم بحديثه، واهتدوا بتربته، وهذا ذلك العامل المجتهد المضطرب قلبه المتقد ذهنه، وانتقل إلى ربه لينال أجره، وستظل جهوده تنير طريق العمل والكفاح للدين الحنيف.

إمارة الشيخ إنعام الحسن الكاندهلوي :

كانت إمارة هذه الحركة التي كانت واسعة الانتشار، وكانت تتوسع دائرتها قضية حاسمة بعد وفاة أميرها الشيخ محمد يوسف الذي تولاه بعد وفاة والده المؤسس للحركة، ولم يكن انتخاب الأمير الجديد عملاً سهلاً، فإن الإمارة لهذه الحركة كانت تقتضي وجود شروط خاصة في الأمير، أولها العاطفة الصادقة والذوق المتناسق مع هذا العمل والمنهج الخاص للدعوة، وأن تكون فيه تجربة وصلة وثيقة بها، ويكون مشاركاً للأمير السابق في رحلاته وإقامته، وكان الشيخ إنعام الحسن قريباً للشيخ محمد يوسف وزميلاً له منذ الصغر، وكان من مسترشدي مؤسس هذه الحركة الشيخ محمد إلياس وتلامذته، بل كان ربيبه، وكان من محركي هذه الدعوة وموجهيها، ومن المستشارين المعدودين في أمورها، وموضع ثقة لدى الشيخ محمد يوسف وكان يطمئن إلى آرائه، ويعتمد عليه في كثير من الأمور.

وقرّر الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي وهو كبير الأسرة، نظراً لهذه المزايا المتكاملة في الشيخ إنعام الحسن، بعد مشاورات مع أقرب العاملين أن يتولى الشيخ إنعام الحسن إمارة الحركة، وأعلن ذلك فخر الحسن أستاذ دار انعلوم «ديوبند» أمام أُلوف من الناس الذين اجتمعوا بهذه المناسبة، وكان هذا الإعلان مبعث اطمئنان وقبول لدى العاملين، وسويت القضية بهدوء.

طريقة بديعة للتعزية :

وصلت بعد وفاة الشيخ محمد يوسف أُلوف من رسائل التعازي من كل مكان يجري فيه العمل للدعوة، وأرسل المسؤولون عن المدارس، والعلماء والدعاة والزعماء رسائل التعزية، أعربوا فيها عن حزنهم على وفاة الشيخ محمد يوسف، واختار رجال الجماعة طريقاً بديعاً للتعزية، وهو الإسراع في السير إلى الدعوة،

والخروج في سبيل الله، واعتبروا ذلك خير طريق للتعبير عن الحب والإكرام الذي كانوا يحملونه في قلوبهم، ودعا أمراء الجماعات الذين كانوا في حالة السفر والخروج في سبيل الله إلى توسيع هذه الدائرة للعمل وإخراج مزيد من الجماعات، وألقى أمراء الجماعات خطباً مثيرة، قال بعضهم ما قاله سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه لدى وفاة الرسول ﷺ: من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت.

وقال أحد الأمراء الذي كان يقود جماعة تعمل في بعض الأرياف عندما سمع هذا النبأ المحزن، ووقعه على نفوس العاملين:

أيها الناس! إن أميركم الشيخ محمد يوسف ضَعَى بنفسه في سبيل الله، وكانت رسالته الأخيرة، ﴿اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾، إن هذا الحزن الذي يساور قلوبكم طبيعي، ونحن على فراقه لمحزونون، ولكن حزن وفاة الرسول ﷺ أعظم وأكبر، وقد قال سيدنا أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - على وفاته عندما رأى هذا الحزن السائد على النفوس: «من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت»، فعلينا أن نتقدم ونخطو خطوات أوسع في سبيله، ونتجز ما تركه أميرنا من عمل، فكان هذا الخطاب بلسماً على جروح المصابين، وأعلن الناس أسماءهم للخروج، وأفادت التقارير أن عاطفة العمل والخروج في سبيل الله بعد وفاته كانت أغلب وأوسع مما كانت عليه قبل وفاته، فكانت وفاته محركاً للخروج.

رسالة هامة إلى مراكز الجماعة:

مثل الرسالة التي وجهت بعد وفاة الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي من «مركز نظام الدين» إلى المراكز الفرعية للجماعة لتسرية همم العاملين، وحثهم على مواصلة العمل وبذل الجهد لخدمة الدين أرسلت رسالة بعد وفاة الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي بتوقيع الشيخ إنعام الحسن والشيخ هارون ابن الشيخ محمد يوسف إلى سائر مراكز الدعوة والتبليغ، وفيما يلي نص الرسالة:

مدرسة كاشف العلوم، بستي نظام الدين،

«دلهي» الجديدة ١٣/ ذو الحجة ١٣٨٤هـ

الأخ الكريم – وفقنا الله وإياكم لما يحب ويرضى

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

نسأل الله تعالى أن تكونوا بخير وعافية، لعلكم على علم بأن الحاج الشيخ محمد يوسف نور الله مرقده – توفي في «لاهور» في ٢/ إبريل/ نيسان ١٩٦٥م بعد صلاة الجمعة إثر مرض طارئ، إنا لله وإنا إليه راجعون، ولا يشك أحد أن الشيخ – رحمه الله – كان يملك مزايا شخصية وصفات عالية لا تعد ولا تُحصى، فكان صورة لعلاج كثير مما نعاني منه، وإن مفارقتة تبعث في الظاهر على خسارة وقلق لنا، ولكن الإيمان بالله وبوعده ونصرته وبركة الجهد على منهج الرسول ﷺ هي نعم الخلف لنا والبديل الحقيقي وفيه السلوان لنا.

لقد كان الرسول ﷺ وذاته المباركة سبب وجود هذه الأمة، وكان تضمره وحرقة قلبه وجزعه على هذه الأمة مبعث نشأة لهذه الأمة وازدهارها ومبشراً لنجاتها وفوزها يوم الآخرة، وكانت زيارة محياه المنور أفضل من عبادة ألف سنة وأنفع منه في الرقي الروحاني، لكنه فارق الدنيا، وأصبحت أمته بحزن فراقه، ثم أحيطت بمصائب وفتن، ولكن السير على منهج الرسول ﷺ والتضحية في سبيله والاشتغال بدعوته والتضرع إلى الله على منهجه ونشر كلمته، كان بديلاً عن ذاته العالية، وسيظل كذلك بديلاً عن سائر الذاهبين والمفارقين، ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَلَةٌ لِّعَذَابِهِمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ أَلَلَةٌ مِّعَذَابِهِمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

إن العامل العالي لخدمة الدين الذي هدانا الله بفضلِهِ وكرمه ولطفهِ إليه هو بلسم لجروحنا، وعلاج سائر مشاكلنا، وحل لقضايانا ومسائلنا، فعلينا جميعاً أن نتقدم في هذا الطريق، ونوسع دائرته، واثقين بنصر الله، ومؤمنين بسداد هذا الطريق، ونجتهد اجتهاداً متواصلاً، لكي يفيض الله لنصرة هذا الدين ببركة هذا الاجتهاد رجالاً مخلصين أولى العزم، ودعاة إلى الله يضحون في سبيله كل غال ونفيس متفانين فيه.

علينا أن نجتهد لوجود هذه النفوس الطيبة، ولا نألو جهداً في أعمال الخير، من الصدقات والإكثار من تلاوة القرآن، وخاصة الذكر والتسبيح والدعاء والتجوال في سبيل الدعوة محلياً وخارجياً، والمواظبة على التعليم اليومي، وشغل اللسان بذكر الله، لقد كانت الأمنية الأخيرة للشيخ الراحل أن يخصص كل رجل يحمل هم الدّين ثلث وقته وماله للدّين على منهج الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، وأن ينفق من ماله على هذه الدعوة، وعلينا مسؤولية تحقيق هذه الأمنية.

العبد الفقير إلى الله
محمد إنعام الحسن، غفر له
محمد هارون، غفر له



الباب السادس عشر المزايا الشخصية والمميزات الخلقية

المميزات الشخصية والخلقية :

كان الشيخ محمد يوسف جامعاً للعلم والعقل، وقد وهبه الله تعالى خصلاً عالية، ومزايا خلقية فائقة، ورزقه قدراً وافياً من الحنان والهيّام ورقة القلب وتحرقه وخشوعه، وقد كانت طبيعته العلمية والعقلية غالبية في عهد حياة والده عندما كان ينصرف كلياً إلى العلم والعقل، إلا أن جذوة الحنان والهيّام والفداء والتضحية كانت مطمورة، فاشتعلت وارتفع لهيبها بعد وفاة أبيه.

وقد وهبه الله تعالى علاوة على ثروة العلم والعقل والهيّام خلالاً تعتبر المزايا الرئيسية لأي داعٍ إلى الله وعارف بالله.

يقول الشيخ أبو الحسن علي الحسن الندوي، وهو يعبر عن انطباعاته:

«إني أدرك تماماً قلة بضاعتي وضآلة علمي، ولكن كان من فضل الله الذي يجب أن أشكره عليه، أن قدرت له فرص واسعة لزيارة البلدان الإسلامية والتعرف على رجالها وما خصها به من مزايا، فأقول بدون انتقاص لأحد: إن مثل هذه الفرص لم تسنح لغيري من أترابي وأقراني إلا نادراً، وقد استطعت خلال هذه الزيارات التعرف على شخصيات علمية ودينية وروحية كبيرة كثيرة، وحضور مجالسهم وتبادل وجهات النظر معهم، وأتجرأ على القول على أساس هذه المعرفة، ولا فخر: إن قوة الإيمان بالغيب والشغف بالدعوة، والاشتغال بها، والتضحية لها، وقوة التأثير التي شاهدها في شخصية الشيخ محمد يوسف لم أشاهدها في أي شخصية أخرى في هذا العصر، ولو أنه كان جامعاً لخصال ومزايا خلقية كثيرة، فكان يفوقه فيها غيره، إلا أن قوته الإيمانية، وثقته بالله وتوكله، وهمته العالية، وجراته وصلاته ودعاءه، وابتهااله

وتضرعه، وصلته الوثيقة بحياة الصحابة ومعرفته الدقيقة لها، واستحضاره لقصصهم وحياتهم، واهتمامه باتباع السنّة، وفهمه للقرآن الكريم، واستخراجه للنتائج الدقيقة من حياة الصحابة واشتغاله بالدعوة والتأليف في وقت واحد، وإن كان العملان متناقضان وصلاحيته للجمع بينهما، وأخيراً وليس آخراً، شعبيته الفائقة، ومكانته في النفوس، وإقبال الناس عليه، وتدفعهم إليه، كل ذلك من مزاياه الشخصية التي يمكن أن تفصل تفصيلاً وتؤلف عليها الأسفار، ويصدق كل لفظ منها من حضر مجلسه أو سعد بالاشتراك في عمل الدعوة تحت إشرافه ورعايته أو رافقه في أسفاره، ويُعد مثل هؤلاء الناس بالآلاف.

مكانته العليا:

كان من فضل الله الأكبر على الشيخ محمد يوسف أنه نال رعاية كبار المشايخ، وكان موضع تقديرهم وحبهم منذ صباه، كان الشيخ عبد القادر الرائيپوري، والشيخ حسين أحمد المدني، والشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، والمفتي الشيخ كفاية الله، وكبار العلماء والمشايخ في هذا العصر يقدرونه ويعلمون شأنه، ويعترفون بمكانته العليا، وهمته العالية وسداد رأيه، وكل منهم كان يرعاه ويكرمه، وكان الشيخ عبد القادر الرائيپوري بصفته يبشر برقيه ويبيدي إعجابه به، وإن كان الشيخ محمد يوسف أصغر منه سنّاً ومنزلة، يقول الشيخ نور محمد: إن الشيخ عبد القادر الرائيپوري قال عنه مرة: «إن الله تعالى وهب الشيخ محمد يوسف كل ما كان وهبه والده الشيخ محمد إلياس، وأضاف إليه».

أبدى بعض الإخوة المخلصين اهتمامهم ببناء عمارة لمدرسة نوح «ميوات» وأعدوا خطة إنشائية واسعة لها، وكتبوا إلى الشيخ محمد زكريا يستأذنونهم في هذا الأمر، فكتب الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي رداً على رسالتهم:

«سررت بمعرفة برنامجكم لتوسيع المدرسة وبناء غرف جديدة لها، فادعوا الله أن يسهل هذا العمل، ويوفق لإنجازه في أسرع وقت، ويزيد في إخلاص العاملين، فابدأوا باسم الله، يبارك الله في أعمالكم، إلّا أنه يلزم الاستشارة من الشيخ محمد يوسف، والعمل حسب رضاه، فقد وهبه الله بفضلله وكرمه الخاص شرف نيابة والده

الحقيقية، وبجهد المتواصل واستعداده الفائق يرتقي درجات عالية، فيجب أن لا تخالفوا رأيه أي مخالفة، فإن لم يكن موافقاً على هذا المشروع فعليكم أن تنتظروا إلى أن يوافق عليه، واكتبوا إليّ إذا لم يكن راضياً، وسأسعى بإذن الله إلى استرضائه، وإن كان موافقاً فابدأوا باسم الله بدون أي تردد».

في الاجتماع الدعوي الأول الذي عقد في «مرادآباد» في ١٩٤٩م واشترك فيه عدد كبير من العلماء والمشايخ الكبار كما حضر أكثر من خمس مائة ميواتي جمع الشيخ الكبير عبد القادر الرائيپوري هؤلاء الميواتيين، وتحدث إليهم وأعرب خلال حديثه عن إعجابه وتقديره البالغين للشيخ محمد يوسف وقال:

كل ما حصلته حصلته من أسرته، فعليكم أن تتمسكوا به ولا تتركوا، فقد أوتيتم نعمة عظيمة، وحصلتم على ثروة قيمة، وكان الشيخ عندما يتكلم كانت الدموع تنهمر من عينيه^(١).

انشغاله بالدعوة والعكوف عليها:

بعد وفاة الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي كان الشغل الشاغل للشيخ محمد يوسف هو الدعوة إلى الله، الدعوة التي أفنى من أجلها الشيخ محمد إلياس حياته وقد كان الشيخ محمد يوسف في أيام حياة والده مشغولاً بالعلم والتحقيق، فلم يلتفت إلى هذه الحركة التفاتاً كاملاً، ولكنها بعد وفاة والده صارت ذوقه، ونداء قلبه، وقرة عينه، فتفرغ لها كلياً، وانضم إليها بل ذاب فيها، وشغلت الدعوة جميع أوقاته ليلاً ونهاراً، سواء كان في بيته، أو كان في حالة استراحة، أم كان خارج البيت، أو كان في حالة عمل وشغل، فلا يحتمل ساعة في غير الدعوة كأنه أغرم بالدعوة وأولع بها، فلا يتكلم إلا في أمرها، ولا يستمع إلا إلى أمورها وشؤونها.

يقول الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي أن الشيخ محمد يوسف كان في بعض الأحيان ينغمس في أعمال الدعوة، ويشغل بها إلى حد أنه لا يجد وقتاً لدخول بيته ولقاء أسرته شهوراً عديدة.

(١) رواية بيان جي رحمان بخش بيواتي.

مرضت زوجته الأولى التي كانت كبرى بنات الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي بعد وفاة الشيخ محمد إلياس مرضاً شديداً، وتدهورت حالتها الصحية بمر الأيام، وأصبحت خطيرة للغاية، ولكن الشيخ محمد يوسف لاشتغاله التام بأعمال الدعوة لم يجد وقتاً لزيارتها والاهتمام بعلاجها وعيادتها، وكان أمر معالجتها قد أسند إلى الحافظ فخر الدين، وكان يأتي من أجلها إلى «نظام الدين» من «دلهي» كل يوم، ومرة سألت زوجة الشيخ محمد منظور النعماني عن سبب هذا الانشغال الكامل عن عيادتها، فقالت زوجة الشيخ محمد يوسف:

إنه مشغول كل الوقت بأمور الدعوة، فلا تهمة نفسه أيضاً، وقد قلت له: أن لا يفكر بي، وإن علاج المرض يجري، فإن كان مثوانا الجنة اجتمعنا وعشنا بسلام هناك.

ولا شك أن كل مغرم ومولع به، يضحى في سبيله بكل شيء وحتى نفسه، لا يفكر فيها ولا يهتم بها، كما قال الشاعر ما معناه:

التخلي عن النفس والمال والجسم
أول منزلة في طريق الوصول إلى الله

كذلك كان الشيخ محمد يوسف، فقد أغرم بالدين، فلم يكن في مجلسه كلام إلا عن الجماعات، وتفرغ الناس أيامهم، وتشكيل الجماعات، ومناقشة أوضاع العمل والدعوة.

حرقه القلب واضطراب النفس:

كان الشيخ محمد يوسف في فكر دائم وهمٍّ شاغل، كأنه على أحر من الجمر، مضطرب البال قلق النفس، يقلقه وضع المسلمين، ويطير النوم من عينه أمر الدين ويخرج في سبيله فكان في نومه ويقظته، وفي استقباله للضيف، وفي حديثه مع الناس على الفطور، وفي غدائه وعشائه وفي كل وقت من أوقاته داعياً ومبلغاً، يتنفس الصعداء، يراه الناظر كأنه يتململ تملل السليم، يبدي ألمه وحزنه، ويتحسر ويقول: يا الله ماذا أفعل، وأحياناً يقول: ليت الإسلام كانت له جولة وصول، وكان له وجود حقيقي في أي جزء من أجزاء العالم.

وحيثما كان يتسم كان قلبه قلب مجروح، ويبدو كأن ناراً تلتهب في قلبه، وكانت مشاعره وعواطفه كأنها أصبحت هشيماً في هذه النار.

كانت هذه الحرقه القلبية تظهر أحياناً في كلامه، كأنه يستعد لمعركة يرتفع صوته، وتتصاعد أنفاسه، ويتأوه في الحزن والكآبة، وقد أصبح هذا الاضطراب سمة غالبية له كالزئبق الذي لا يستقر ولا يهدأ، ومن رآه عن كثب عرف هذه الطبيعة الحائرة، ومن لم يره عن كثب لا يستطيع أن يفهم هذه الطبيعة الثائرة، فقد كان الشيخ في هذا العصر آية من آيات الله، ومن جلس في مجلسه، وسمع كلامه، وشاهد همه يستطيع أن يدرك كم كان فكر أصحاب رسول الله ﷺ وهمهم للدين وغيرتهم وحميتهم له، فكان لا يثني همه الصيف ولا الشتاء ولا أي عائق آخر، كان دائم السفر طويل الكلام، ويزور القرى والأرياف، ويلقي الناس ويتكلم معهم حتى يتأثر صوته، ويتلعثم لسانه، ويصيبه الفناء والإعياء، وكان الناس يرثون له ويعطفون عليه، ويتمنون لو سكت واستراح، ولكن الشيخ بعاطفته الوقادة لا يسكت ويواصل الكلام، وتثور همته إذا وجد مخاطباً جديداً، يطيل الكلام ويطيل الدعاء، ثم يشغل في الكلام مع الإخوة وكأنه منذر جيش يقول: صَبَّحْكُمْ وَمَسَّكُمْ.

الإيمان واليقين:

كان الإيمان واليقين السمة الغالبة من سمات الشيخ محمد يوسف الطبيعية، وكانت ثقته بوعد الله ونصرته وإيمانه الراسخ ويقينه بأن الله هو القادر المطلق وبيده الأمر كله كان ذلك هو سر تأثيره في القلوب، فقد نفخ بهذا اليقين الروح في القلوب الميتة، وحرك النفوس العاطلة الجامدة، وكان كلامه لا يخلو من هذا اليقين والإيمان الذي يعيده ويكرره في ثنايا كلامه في كل مناسبة، فكان هذا الإيمان ينتقل إلى قلوب السامعين، ويحرك عواطفهم، ويحدث فيهم انفعالاً سواء اقتنعوا به أم لم يقتنعوا، فإن حرارة هذا الإيمان كانت تصيبهم، فإذا خرجوا من المجلس خرجوا وفي قلوبهم جمرة من الإيمان، أما الدين كانوا يسمعون كلامه باهتمام ويصغون إليه إصغاءً كاملاً فكانوا يشعرون كأن برقاً من الإيمان يلعب في قلوبهم أو دافعاً قوياً من الإيمان يدفعهم إلى العمل.

وكان إذا ذكر الجنة والنار؛ والنعيم والعذاب والمثوبة والعقاب كان يصفها كأنه شاهداً بنفسه، وكان يشخص هذه المشاهد ويستشهد بالأدلة والأمثلة، فكانت ترسم هذه الصور كأنها واقعة ثابتة يتصورها السامع ويقرأها، وتصبح حياة الدنيا وهماً وطمساً لا قرار لها ولا جمال فيها، وكانت هذه القدوة على التصوير الناتجة عن اليقين والإيمان تغير القلوب وتملأ القلوب بعاطفة الإيمان والاستعداد للتضحية والتفاني في سبيل الله، وتحدث فيهم لذة الإيثار والمواساة والفداء.

لم يكن ذلك محصوراً في خطب الشيخ محمد يوسف وفي أحاديثه، بل كانت حياة الشيخ محمد يوسف مثلاً ونموذجاً صادقاً له، فقد تظاهر بهذا الإيمان واليقين بعد وفاة والده.

كان الشيخ يسافر مرة في حافلة، وكانت الحافلة مزدحمة وقديمة، فقال له أحد الركاب الذين كانوا بجواره: يا شيخ أين صنع هذا المركب؟ قال له الشيخ: إن صنع العربات وصلاحها، لا أهمية لها، وإنما يهم صنع الإنسان وصلاحه فسكت الراكب، ثم سأله الراكب: ما هي غايتك؟ وكان الشيخ قد نسي اسم المحطة التي كان عليه أن ينزل بها، فقال: لا أدري، فضحك الراكب وقال: يا سبحان الله، لا يعرف هذا الراكب أين يتجه، وما هي غايته، ما هذه السذاجة؟ فقال له الشيخ: يجب أن نذكر دائماً غايتنا الحقيقية النهائية التي نتجه إليها جميعاً، أما المحطات فسواء، ذكرناها أم لم نذكرها.

كان هذا اليقين هو مصدر تأثير الشيخ، وإلا فإن هناك خطباء مصاقيع يضحكون ويكونون لكنهم لا يستطيعون أن يحدثوا في القلوب أي ثورة ولا يدفعون أحداً إلى العمل.

ذات مرة سمع شاب كلام الشيخ فاستعد للسفر، وسجل اسمه ثم خرج، فلما علم والده سخط عليه، وكان شيخاً هرمًا، فكتب إلى الشيخ محمد يوسف يبدي سخطه، ثم وصل إلى «نظام الدين»، وتكلم معه، وقال: إنك أفسدت ولدي، فقد كان عوناً لي في شيخوختي وسيصبح عاطلاً عن العمل، فلم يرد عليه الشيخ، وجلس في الاجتماع للخطبة، وسمع هذا الوالد خطبته كاملة، وتأثر بخطبته تأثراً قدّم نفسه

للدعوة، وسجل اسمه ثم قبَّل يدي الشيخ محمد يوسف، واعتذر إليه على خشونة كلامه وقال: كنت أشكو أنك أفسدت ولدي، والآن ها أنا أفسد أيضاً، فضحك الشيخ.

يقول القاضي محمد عدیل العباسي وهو يصف انطباعاته عن الشيخ محمد يوسف بعد لقائه الأول:

«مثل الشمس التي تبهر العيون بأشعتها كنت مبهوراً عندما التقيت للمرة الأولى بالشيخ محمد يوسف، ولكنني لم أتعجب من ذلك اعترافاً بعظمته وتأثيره، إلا أنني تعجبت من أنني التقيت قبل ذلك بكبار الشخصيات والعلماء وسمعت نصائحهم ومواعظهم وخطبهم في مناسبات كثيرة بشوق واهتمام، ولكنني لم أسمع من أحد منهم ما سمعت من الشيخ محمد يوسف، فقد سمعت منه كلاماً لم أسمع من غيره، فتعجبت من أين يأتي بهذا الكلام الغريب الذي لم يصل إليه غيره، فلما رجعت سألتني بعض أصحابي: من هذا الشيخ؟ وقد كنت مبهوراً مبهوراً، فقلت لهم: إياكم أن تسمعوا كلامه، إنه رجل خطير، له سحر وتأثير يسحر بكلامه، ويجذب القلوب إليه، فينتقل السامع من عالم إلى عالم آخر، ويوقفه على قارعة الطريق، ويرى الناس بأعينهم الجنة والنار، ولكم الخيار أن تختاروا ما تشاؤون منهما، فإذا سمعتم كلامه تخلتكم عن اللذات التي تسعون إلى حصولها، وكان كلامي الساخر الذي اشتمل على المدح مغرياً للناس على أن يسمعوا كلامه، وازداد شوقهم، وكل من قصده رجع وهو يشعر بوخزات الضمير وحرقة القلب، قصده سليماً ورجع مكلوماً؛ لأنه أدرك أن منهج حياته منهج فاسد لا خير فيه وأنه في ظلام وفي ضلال، وهذه هي سنة خير البشر ﷺ التي اتصف بها شيخنا الشيخ محمد يوسف الذي يقول له الناس «حضرت جي».

لقد سعدت برؤية كثير من علماء «الهند»، وجلست في مجالس عدد كبير من المشايخ والصالحين، وسمعت كلامهم، ولكنني في حياتي كلها لم أصادف أحداً يحمل هذا التأثير والروحانية التي وجدتها في الشيخ محمد يوسف، فقد كانت الأعمال بمجرد الجلوس في مجلسه تتخيل كأنها عقارب أو ثعابين تلدغ، وتحدث في

القلب عاطفة الرجوع إلى الله، وتغشي النفوس الرهبة والوجل، وتُوجد الإرادة في القلوب للتركية والتوبة من الأعمال الفاسدة»^(١).

الاستغناء والتوكل على الله :

كان الشيخ محمد يوسف مثلاً ونموذجاً كاملاً لسلفه الصالحين في التوكل على الله والزهد والقناعة، فلم يقبل أي مساعدة أو معونة مالية لحركته أو لمدرسته .

كانت العادة في عهد الشيخ محمد إلياس — رحمه الله — أن الناس كانوا يأكلون على مائدته العامة، وكان يبلغ عددهم في بعض الأيام مئات من الناس، فتغير الوضع بعد وفاته، إلا أن عدد الذين كانوا يأكلون لم يزل يرتفع، وظل الشيخ محمد يوسف يكرم ضيوفه بسماحة نفسه ورحابة صدره، ولم يقصر في الإنفاق مهما كانت الظروف، وقد أشار إليه الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي في رسالة وجهها إلى الشيخ محمد يوسف :

«أخي العزيز محمد يوسف حفظه الله، كان عهد عمي الشيخ محمد إلياس مختلفاً، وكانت الظروف في ذلك العهد تختلف عن الظروف الراهنة، فعليك أن تعمل وفقاً لظروفك» .

فكتب الشيخ محمد يوسف رداً على هذه الرسالة :
أخي الكريم :

«لقد تغير الآخذ ولم يتغير المعطي» .

كان الشيخ عبد القادر الرائيپوري يقول :

لو لم يكن ضيف في بيت الشيخ محمد يوسف لما كان في بيته شيء يذكر .
وحكى الطبيب مشتاق أحمد :

قدمت إلى الشيخ محمد يوسف هدية مالية، وكان يودع الشيخ محب الله التركي، فحوّل الشيخ محمد يوسف تلك الهدية، بدون أن يعرف قيمة الهدية وقال لي :

(١) جريدة «ندائي ملت»، ٩/ إبريل/ نيسان ١٩٦٥م.

أخي الطبيب مشتاق، إن الشيخ محب الله جاء لي بكتاب «المنوي» للشيخ الرومي وكان كتاباً أنيقاً، وقيماً.

في العهد الأول للشيخ محمد يوسف واجه الشيخ صعوبة مالية في دفع القروض الباهظة التي ارتفعت بسبب الضيوف وإطعامهم في المدرسة، ولم يكن هناك سبيل لتسديد هذه القروض، وبدأ المقرضون يتقاضونه، فجمع بعض الأثرياء الذين كانوا من مسترشديه بدون علمه خمسين ألف روبية لتسديد الديون وتحمل نفقات القادمين، وقرروا أن لا يعلم الشيخ بذلك.

واتفق أن علم به الشيخ فجمع هؤلاء المخلصين واستفسرهم، ثم ألقى كلمة مؤثرة قال فيها:

إن ما فعلتم كان من حسن نيتكم وإخلاصكم وضريبة حبكم، لكنه بالنسبة لي ظلم عظيم؛ لأنكم إذا تحملتم هذه المسؤولية بأنفسكم فكيف يليق بي أن أتضرع إلى الله، وكيف أستغيثه، فإن النصر من الله ينزل إذا تلاشت الوسائل كلها في هذه الدنيا، وكنا مضطربين، ودعونا الله مجبرين، لا ننظر إلى خزائن الدنيا، وإنما ننظر إلى خزائن الله.

ثم أمر الشيخ أن يستعيد كل شخص إسهامه، فأعيدت إليهم مبالغهم.

كان الكولونيل إقبال قد وقف ضيعة لدار العلوم «ديوبند»، ومظاهر العلوم بـ «سهارنفور»، وجمعية علماء «الهند»، ومدرسة كاشف العلوم بـ «نظام الدين»، وأراد أن يستأذن لذلك المنشئ بشير، وخلال الكلام الذي كان يجري بينهما في هذا الصدد وصل الشيخ محمد يوسف وسأل عن الحديث، فأخبر بذلك فسأه ذلك، وغضب عليه غضباً شديداً، وقال بصراحة وقوة: «لا أريد لمدرستي ضيعة ولا وقفاً».

انتهى الشيخ محمد يوسف من تأليف كتابه المهم «حياة الصحابة»، ففكر الناس في طبعه، وتقرر أن تطبعه دائرة المعارف بـ «حيدر آباد»، وأبدى بعض المخلصين في «حيدر آباد» أن يتولوا تكاليف الطبع، وأرسلوا في ذلك بعض الأصدقاء والأثرياء في «بومباي» ومدن أخرى لهم صلة بالشيخ محمد يوسف، وتهياً مبلغ يقدر بعشرة آلاف

روبية لطبع الكتاب، ولكن الشيخ محمد يوسف علم ذلك بطريق أو آخر، فأعاد جميع هذه الأموال وأرسل بنفسه قيمة الورق وثمان الطبع^(١).

عرض أحد التجار الذي كان على صلة قريبة بالشيخ محمد إلياس مبلغاً قيماً بعد وفاة الشيخ محمد إلياس، فرفض الشيخ محمد يوسف، وقال له التاجر: إنك أبيها الشيخ تعرف صلتني بوالدك الكريم، وكم كان يحبني، ويعطف عليّ ويثق بي، فقال له الشيخ:

إنني لا أريد المال منك، إنني أريد نفسك، أريد أن تشارك في عمل الدعوة بنفسك، وتلك هي بغيتي^(٢).

الثقة بالنفس:

كان الشيخ محمد يوسف وافر الحظ من الثقة بالنفس، فكان لا يرهبه شيء، ولا تأخذه هيبة مهما كان مخاطبه، يتمتع بمكانة عالية أو يحتل منصباً عالياً، فكان إذا تكلم تكلم بثقة فائقة، وقوة كاملة، ويقين راسخ، كانت الدنيا وما فيها لا تساوي عنده وزناً ولا قيمة، وكل شيء من هذا القليل في نظره متاعاً وغروراً، وكل إنسان في نظره قزم إلا من أكرمه الله.

في إحدى رحلاته إلى «لاهور»، عقد اجتماع لكبار المسؤولين والرسميين ليخاطبهم الشيخ، فاجتمع عدد وجيه من أصحاب المناصب العليا، فعرفهم أولاً الداعي إلى الاجتماع، وقال في كلمته: إن هذا السيد مدير، وهذا السيد وزير، وهذا مهندس شهير، وهذا طبيب حاذق، وهكذا ذكر الشهادات والمناصب التي كان المشتركون في الاجتماع يحملونها، فأقلق ذلك الشيخ وضايقه، فقاطع الكلام وقال: إن التعريف بالناس وذكر المناصب والشهادات لم يكن مألوفاً لذهني وطبيعتي، ولم أعرف معاني بعض التعبيرات، فلو استعمل بدل ذلك أسماء الحيوانات لعرفتھا، ثم انتقد هذا المذهب للتعريف وقال:

(١) الشيخ محمد منظور النعماني.

(٢) كنت حاضراً في هذا المجلس. (المؤلف).

في العهد الزاهر لتاريخ الإسلام كان الناس يعرفون بالخدمات الجليلة في سبيل الدعوة والجهاد، ويقولون: إنه أبلّي في جهاده بلاءً حسناً، إنه نشر الإسلام في تلك البقعة، إنه شهد غزوة واستشهد فيها، إنه أنفق حياته كلها في إعلاء كلمة الله.

ركز الشيخ خطبته على هذا الموضوع، ونكس الداعي رأسه وخجل، وكان يخشى أن هذه اللهجة الصريحة للشيخ وإنكاره لأهمية هذه المناصب قد يسيء إلى أصحابها، وتشمئز قلوبهم وتُنغص أذهانهم، وقد يجلب ذلك رد فعل سيء، ولكن ثقة الشيخ بالنفس وصراحته وإخلاصه أثر على المخاطبين، وألقى عليهم رعباً وهيباً، وتأثر الناس بموعظته، وبثقته ويقينه وإيمانه.

رحابة الدعوة وسعتها:

كان الشيخ محمد يوسف واسع الفكرة في مجال الدعوة، فقد كان يؤمن بعالمية الدعوة، فلا يقع نصب عينه بلداً ومنطقة خاصة، بل كان يريد أن يطبق الآفاق، وتنتشر في العالم كله، فكان يعتبر العالم كله ميداناً للدعوة، وكان يرسل الدعاة إلى سائر أنحاء العالم، ويحث الناس على الخروج في سبيل الله إلى سائر الجهات، إنه كان يعتبر كل منطقة وكل بقعة من بقاع العالم أرض الله، وقد كان أخلص العاملين في حركة الدعوة والمقربين لديه يتعجبون في بداية الأمر عندما كان يوجه الدعاة إلى المناطق البعيدة، كيف يخرج الناس إلى المناطق النائية وهم غير مستعدون للعمل في المناطق المجاورة، وكيف يخرج الناس من «الهند» وهم غير راجين للعمل في مناطقهم القريبة من أهلهم.

انعقد اجتماع ضخّم في «مرادآباد» بعد حوالي خمسة شهور من وفاة الشيخ محمد إلياس، وقد سبق ذكره، شكلت في هذا الاجتماع جماعات للدعوة في المناطق المجاورة، وقد كان العمل في الرحلة البدائية، ولم يكن الناس متعودين على الخروج، وخاصة إلى مناطق بعيدة، فلم يُسجّل عدد كبير من الناس أسماءهم، وانتظر الشيخ محمد يوسف مدة وصبر وثارت عاطفته، وقام وبدأ يتكلم بقوة وحماس.

أيها الناس إنكم لا تخرجون اليوم للمناطق المجاورة كـ «جانديپور»، و «رام پور»، (مناطق مجاورة لمرادآباد)، وسيأتي اليوم الذي تخرجون فيه إلى «الشام»، و «مصر» و «العراق»، ولكن العمل في ذلك الوقت سيعم العالم، ويتعود الناس على الخروج، فلا يكون لهم الأجر الذي تنالونه اليوم إذا خرجتم.

كان هذا العهد هو عهد قيادته الأول والبدائي، ولم يكن الناس قد عرفوه جيداً، وعرفوا عزيمته وهمته وعاطفته وطموحه، وزهده، وثقته بالنفس وبقينه، كانوا عرفوه وشاهدوه مع الشيخ محمد إلياس - رحمه الله - ، وكانت له مكانة عالية في نفوس العاملين، فقد كان من كبار المشايخ، ولذلك لما سمع بعض أقرب العاملين في الجماعة، استعداد الشيخ محمد يوسف إلى الخروج إلى أماكن بعيدة، قالوا له: إنك أيها الشيخ ذو همة عالية، تدعو الناس إلى ما لا يسعهم في هذا الوقت، وتقتدي بوالدك الشيخ محمد إلياس في الهمة العالية، فقال لهم الشيخ محمد يوسف:

لا فرق بيني وبين والدي الشيخ محمد إلياس، إلا أنه كان يدعو الناس وهو واقف على قمة جبل وأنا واقف في الحضيض، وأدعو الناس إلى الصعود إلى قمة الجبل.

كان من نتيجة هذه الهمة العالية والعزيمة النافذة، والثقة الغامرة للشيخ محمد يوسف أن خرجت جماعات كثيرة ليس للعمل في داخل البلاد بل خرجت إلى «أفريقيا» و «أوروبا» و «آسيا»، وليس لمرة أو مرتين بل تواصلت الجماعات وتتابعت جماعات في البلدان الخارجية، ووصلت إلى المركز في «نظام الدين»، فذابت الفواصل وتلاشى بُعد المسافات. كان يصعب على الميواتيين الخروج من «ميوات»، وعندما دعاهم الشيخ محمد إلياس إلى الخروج للعمل في منطقة «أترا براديش»، استغرب الميواتيون وتعجبوا وأبدوا عدم استطاعتهم، إن هؤلاء الميواتيين يقودون اليوم الجماعات بثقة كاملة للعمل في «أمريكا»، و «اليابان»، و «بريطانيا»، ودول أخرى، ولا يتعذر عليهم الخروج إلى الدول الأجنبية، بل أصبح العالم كله مجالاً لعملهم ونشاطهم.

حضور البديهة والتأثير في الخطابة والشغف الزائد بالدعاء :

خص الله تعالى الشيخ محمد يوسف بمزايا وصفات كثيرة، وكان له الحظ الوافر من قوة الخطابة وذوق الدعاء، فقد كان يتحدث في الاجتماعات ساعات وكان لا يمل ولا يمل، وينتقل من خطبة إلى خطبة أخرى، وقد أوتي من قوة التعبير، وتوليد المعاني، واستخراج النتائج والاستشهاد من الآيات القرآنية والحديث النبوي والتاريخ حظ وافر قلما يوجد في الخطباء، وكان يدهش العلماء والباحثين مما يأتي به من نوادر ونكت وبيان حكم واحتجاج، ويستغرب المدرسون والمعلمون والمحققون من بدهة فكره وسرعة خاطره.

يقول الشيخ محمد منظور النعماني :

«إن هذا العاجز قضى فترة دراسية بفضل الله ومنه باجتهاد بالغ، وعكف على الدراسة عكوفاً تاماً، ولم أكن بفضل الله ونعمته بليداً، فقد كنت أتمتع بذكاء وفهم، وبعد مرحلة التعلم عكفت على المطالعة، وكرّست جهدي للكتابة والقراءة، ولم يرعبني أحد من الأساتذة والعلماء غير الشيخ محمد أنور الكشميري، ولكنني عندما حضرت مجلس الشيخ محمد إلياس وسعدت بلفائه شعرت بأن الله تعالى قد خصه بعلم ليس من علوم المدرسة ولا المكتبة، بل هو علم آخر، ولذلك شعرت بضرورة تسجيل أحاديثه، ثم ألقت كتاباً بعنوان «ملفوظات الشيخ محمد إلياس»، وقد أدركت في خطب الشيخ محمد يوسف أيضاً أنه وهب تلك العلوم والمعارف التي أدركتها في كلام والده، وأضيف إليه قوة التعبير، فرغبت في تسجيل كلامه أيضاً، ولكنني كنت أرى أن كثيراً من الكاتبيين يسجلون كلامه، فأعرضت عنه، إلا أنني سجلت بعض النكت والملاحظات التي علقت بذهني، وأني أقول بكل بصيرة وتجربة: إن هذا هو العلم الذي أشار إليه القرآن الكريم: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ .»

ويقول الشيخ أبو الحسن علي الحسيني الندوي :

«أذكر أن الشيخ محمد يوسف ألقى خطبة قوية مؤثرة مستفيضة بعد المغرب في اجتماع «بهوفال»، ثم بدأ تشكيل الجماعات، وانتهى الاجتماع بالدعاء، وكنت واثقاً بأنه بعد هذه الخطبة الطويلة سيستريح، لكنني وجدته يتحدث في حفلة زواج أو في

مناسبة أخرى، وكنت أظن أنه سيتحدث دقائق وينهي الكلام، ولكنني أرى أن الشيخ يتكلم بعاطفة وحماس ولذة كأنه يتكلم للمرة الأولى بعد صمت دام نهاراً كاملاً.

وقد ذكر الشيخ محمد يوسف نفسه، أن المعاني التي يبينها في خطبه أحياناً تتراءى له في المنام.

ويصف الشيخ نسيم أحمد الفريدي تواصل الكلام والعاطفة المتدفقة للشيخ محمد يوسف:

«كان يتحدث من الصباح إلى المساء بقوة وجأش، وصوت جهوري، حتى يتأثر صوته، ويتوجع صدره، ويسيل العرق، وكان يبدو كأنه في حالة نشوة، يواصل كلامه ويوجه دعوته، وكان صوته الرخيم يؤثر في القلوب لتوجع قلبه وحرقة فؤاده، وكان يغير مشاعر السامعين في مجلس واحد، ويخرجون بقلوب غير القلوب التي دخلوا بها، وكان العلماء يجنون من كلامه فوائد علمية واسعة»^(١).

كان الشيخ في أول أمره لا يطيل الكلام، ولكن لاشتغاله في عمل الدعوة وانهماكه فيه ازداد قوة وطولاً في الكلام، فكان يشعر السامع كأنه يعبر عن ألم في صدره، أو كأن فوهة بركان تنفجر، وطالت خطبه في آخر عمره، فكانت تستغرق ساعتين أو ثلاث ساعات، وتزيد أحياناً، فكان يبلغ مجموع الساعات التي ينفقها في الخطاب ثماني ساعات، يبدأ الخطاب بعد صلاة الفجر مباشرة، ويستمر إلى الضحى، ويجلس الناس منصتين إليه رغم حرارة الشمس، وكان الشيخ يتحدث أحياناً جالساً ثم يقوم وهو لا يشعر بالشمس، إلى أن يأتي شخص ويعلق رداء أو حصيراً لوقايته من الشمس.

وبعد كل خطاب طويل يدعو، ودعاؤه مثل خطابه في الطول والتأثير والاندفاع، لا يوجد له مثيل، فإنه في دعائه يحمده الله ويشني عليه كما هو أهله، ويبين آياته ويركز على بيان صفاته، ثم يقرأ الأدعية القرآنية، ويظهر ضعفه واستكانته، وعجزه وافتقاره، ويتضرع إلى الله بالعافية والرحمة على المسلمين وعزة الإسلام ومحو آثار الظلم

(١) مقال الشيخ محمد نسيم الفريدي في مجلة «الفرقان».

والعدوان، وهداية المفسدين أو إهلاكهم، ويبدو كأن عبداً منياً أوهاً من عباد الله الصالحين القانتين المستغيثين، يرفع يده ويدعو من أعماق قلبه وحضور ذهنه واثقاً بأمر الله متوكلاً عليه، ويدوي الفضاء بآمين التي تخرج من أعماق قلوب المستمعين ويهتز ويرتعد الجو كله حتى المارة في الطريق تأخذهم الدهشة، فيقفون ويشترون في الدعاء ولا يسمع صوت إلا صوت الشيخ ودوي آمين، وترسل العيون الدموع ويمتلأ المكان بأنات المستمعين، وتغشى الكآبة والشجون بعض النفوس، والنشوة والغبطة نفوساً أخرى، ولا يشك أحد أن الملائكة تحفهم ويشترون في آمين، وينتهي الدعاء والصمت سائداً، ويبقى تأثيره على النفوس ساعات.

يقول الشيخ أبو الحسن علي الحسيني الندوي:

«في العهد القريب حكى بعض الثقات أن الشيخ السيد نصير الدين كان من مسترشدي الإمام أحمد بن عرفان الشهيد، عندما كان يدعو كان الناس يشعرون كأن سحابة تظلمهم وأنهم في ظل رحمة الله، وتسود الناس نشوة وهيام، ويفقد الناس أنفسهم، وتصيبهم غيبوبة تصغر في عيونهم الحياة، هكذا كان دعاء الشيخ محمد يوسف، وتأثيره على النفوس، وعندما كان الشيخ يدعو كانت العيون تذرف الدموع بغزارة، كأن سيلاً من الدموع يغمر النفوس، وتسمع الأنات والصراخ والعيول من بعيد وتكاد النفوس تزهر»

حديثه في المجالس:

كان الشيخ حلواً للمنطق، عذب اللسان، يفهم كلامه، ويقنع النفوس في حديثه العام في المجلس، كما كان في خطبه العامة التي يلقيها أمام الجمهور من الناس، وكان الناس يصغون إليه وينصتون لكلامه، ويعودون مقتنعين.

كان الشيخ في حديثه العام يورد أمثلة من التاريخ والسيرة والحياة العامة، وتظهر معرفته بالحياة ومتابعته للأحداث، وتفقده لأحوال الناس، فكان الناس يستغربون أنه رغم انهماكه الشديد وانشغاله التام بأعمال الدعوة، وهم الغامر بأمور الدعوة، كيف يعرف هذه الأمور العادية للحياة العامة، وكيف يجد فرصة لدراسة الكتب، ومطالعة التاريخ، وكيف يعرف الأمور السياسية والاجتماعية، ولكن الله

تعالى وهبه بصيرة وفراصة خاصة وذوقاً علمياً، وقدرة للنقد بجانب بصيرته الدينية، ويشهد بذلك العاملون في الجماعة الذين أتاحت لهم فرص الجلوس في مجالسه الخاصة، وقد حضرت أنا أيضاً مع نخبة من العاملين القدامى لتعيين مواعيد الاجتماع في «لكهنؤ» في أكتوبر ١٩٦٤م، وأقمنا في المركز ثلاثة أيام، وكنا نجلس في مجلسه بعد خطاب الفجر عند تناوله الفطور.

الجهد المتواصل والصبر والعزيمة:

كان الشيخ محمد يوسف يواصل الجهد ولا يشغله همٌّ إلا هم الدعوة إلى الله، وكان كل عمله ونشاطه يدور حول الدين، فإذا استعرض أحد حياته، وأشغال نهاره وليله، علم أنه كان لا يستريح، ولا يجده إلا مجدداً منهمكاً في أمر من أمور الدين، ويواجه الشدائد، ولا يبالي بما يصيبه في تأدية ذلك الشغل وما يتركه من أثر سيء على صحته، فلا يحول دون سبيله مطر ولا عاصفة ولا جوع ولا مرض ولا أي شغل آخر غير شغل الدعوة، وحتى أثناء الأكل والشرب يتتهز الفرصة للدعوة، كان كالصخرة الصماء طول حياته لا يزحزحه عن همه شيء ولا يثني همته حادث أو فاجعة، ونورد هنا بعض الأحداث المهمة التي وقعت في حياته، ولم تؤثر فيه، وإنما احتملها بصبر وعزيمة، وآثر الدعوة عليها.

كان الحادث الأول وفاة والده الشيخ محمد إلياس، فكانت هذه الفاجعة اختباراً ومحنة كبيرة هزت كيان الأسرة، ولم تثبت أمامها همه أولي العزم من معارفه الذين كانوا على صلة وثيقة بالشيخ محمد إلياس وموضع ثقته، فقد تركوا هذا العمل وتخلوا عنه، والذين قضوا فترة طويلة معه في هذا العمل فقدوا الثقة به وانعزلوا، وقد كانت الحادثة حادثة شخصية للشيخ محمد يوسف، وحادثة عائلية له، فقد حرم رعاية والده وفقد حبه وحنانه، ثم ألقى عليه هذه الأمانة الثقيلة، لكنه تحمل هذه المسؤولية الملقاة على كاهله بثبات قلب، وعزم أكيد وهمة عالية، فجمع الذين تفرقوا عنه، ونأوا عن الدعوة، ورفع هتاف: «أينقص الدين وأنا حي»، وتولى قيادة الدعوة، وضخى في سبيلها بكل رخيص ونفيس، وحظي برعاية المشايخ والعلماء وشجعه أكابر أسرته على هذا العمل وقاموا بتثبيت همته.

كان الحادث الثاني، تقسيم البلاد، والأحداث المؤلمة التي وقعت إثر التقسيم، وقد سبق ذكر هذه الأحداث الدامية في الباب الخامس، كان ذلك العهد عهد اختيار ومحنة، زلزلت أقدام أصحاب همة عالية، ولم يتمكنوا من الوقوف في وجه هذا السيل الجارف، وهاجروا إلى «باكستان»، لكن الشيخ محمد يوسف رفض الهجرة رفضاً باتاً، وقال: إنه لا يبرح عن المكان الذي هو فيه، وإن كان في خطر، وينظر إليه بنظر شزر، ولكنه لن يهجر هذا المكان، فبقي كالصخرة الصماء، وواجه ما واجه من الأخطار، والمصائب والآلام بكل جرأة وثبات، بل كان مصدر ثقة وهمة الآخرين الذين كانوا مذبذبين، والذين أصيبوا باليأس والخوف، فأعاد إليهم الثقة وواصل عمل الدعوة محاطاً بالأخطار.

يقول أحد رفقاء الشيخ:

كان من المقرر عقد اجتماع في «بهوفال»، وكان الشيخ في تلك الأيام يعاني جرحاً أصاب فخذه، ولا يستطيع أن يمشي إلاً بصعوبة كثيرة، وكان إذا وقف لإلقاء الكلمة سال الدم من هذا الجرح، ولكن الشيخ أبى إلاً أن يسافر إلى «بهوفال» في مثل هذه الحالة، وألقى خطبة كعادته في الاجتماعات المختلفة وازدادت آلامه بتحركاته، وكان من المقرر عقد اجتماع في ضواحي «بهوفال» فسافر إلى ذلك المكان، وأصرَّ الناس على أن يستريح الشيخ، ولا يشترك في الاجتماع غيره من العلماء، ولكن الشيخ أصرَّ بعد خطاب، من كان بديلاً له أنه لم يقدم بقوة وبيان كما كان يقتضي الوضع، ولم يطمئن عليه، فغلبته العاطفة، وتوجه إلى المنصة لإلقاء كلمته، وكان في ذلك يسعه أن يجلس لحرصه، فتكلم مضطجعاً، وواصل كلامه، ولم يبال بهذا النزيف الدموي.

ويحكي أحد الدعاة همته وتضحيته بهذه الألفاظ:

«كان الموسم موسم أمطار، وقد أقيم فسطاط خارج المدينة، وهبت عاصفة شديدة، اقتلعت أطناب الخيمة، وكان ذلك موعد خطاب الشيخ محمد يوسف، والناس كانوا في انتظار وشوق بالغين إلى سماع خطبته مضطربين، فوصل الشيخ وبدأ الخطبة المسنونة، إذ تراكت سحب سوداء، ثم أمطرت كطوفان، وتعذر على الناس

أن يمكنوا في هذا الطوفان الجارف، ولكن الشيخ لم يبال بما يحدث، بل كان ينادي الهاربين الذين كانوا يبحثون عن ملاذ لهم ويقول: لستم من الورق فتذوبون، أو من الطين فتحوّلون ماءً، وجاء الشيخ محمد إنعام الحسن بمظلة، فمنعه، وقال: إننا لأعمالنا الدنيوية لا ينال بالمطر، فنواصل الحرق في الحقول وينزل المطر، وفي طريق الدين والعمل لله نخاف المطر، أن هذا الابتلال بالمطر سيفيدنا يوم القيامة.

أثار هذا الصبر والتحمل والمثابرة للشيخ محمد يوسف النفوس، وهزها هزاً عنيفاً، فسالت الدموع من العيون، ما يحمل هذا الشيخ على هذه التضحية وما يغريه عليها؟ فعاد الذاهبون، وهم مبتلون بالماء، والدموع في عيونهم، وكان الماء يسيل من لحية الشيخ ومن جبينه، ولم يبق أحد منهم إلّا وهو ملتفت إلى الشيخ، ينصت إلى كلامه، لا يهمه ما يحدث حوله، وارتج الفضاء بالصراخ والعيول، وأجهش الناس بالبكاء، وازدادت شدة المطر، ولكن لم تتغير لهجته، ولا تلجلج لسانه بالمطر، وأنهى كلامه كعادته.

ويحكى نفس الداعي في رسالة قصة أخرى لثباته:

«كان فصل الصيف، وكان من المقرر عقد اجتماع في «ميوات»، والشمس محرقة وجو «ميوات» عادة شديد في الصيف، والناس ينتظرون الشيخ بفارغ الصبر وصل الشيخ في الظهر، واجتمع الناس في ميدان مصلى العيد في انتظاره، وبدأ الشيخ كلامه، وكان العرق يسيل من جبينه كالماء من شدة الحر، وجاء أحد الإخوة بالمظلة ولكن الشيخ أزاح المظلة، وقال لمن كان يحمل المظلة: اجلس واسمع كلامي إن جهنم أشد حرّاً».

هذه بعض القصص لثباته وصموده وهمته وعزيمته وتضحياته، وهي غيض من فيض ولا يمكن إحصاؤها.

كانت ميزة الشيخ محمد يوسف الجهد المتواصل والهم الدائم للدعوة، فلا يعرف راحة ولا فراغاً، ولا صباحاً ولا مساءً، ولا ينتظر فرصة، وكان يشغل كل وقت في أمور الدعوة، وكلما وجد سامعاً أو مخاطباً، بدأ كلامه.

يقول الشيخ أبو الحسن علي الحسيني الندوي:

«كان يتحدث في الاجتماع كل يوم بعد صلاة الفجر طول السنة، وكانت خطبته تطول عادة ساعتين أو ثلاث ساعات، ولا يحول دونها حرّ صيف ولا يردّ شتاء، ولا تدهور صحته ولا إصابة جرح، ولا قلة عدد المستمعين، ولا يقصر فيه في رمضان المبارك، بل كان يزيد، ويفضل بعض الناس عادة في رمضان أن يناموا بعد صلاة الفجر لقيام الليل، لكن الشيخ محمد يوسف كان يلقي خطبة بعد الصلاة بكل نشاط وشوق وطراوة واهتمام، ويوجه الدعوة بنفس القوة والوضوح كما كان يوجه قبل رمضان».

ويزداد شغل الشيخ محمد يوسف في أثناء السفر، وتطول مدة خطابه وتحول مشاق السفر وتعبه دون مواصلته لأعماله، وقد اضطر الشيخ أحياناً إلى السفر في القطار والحافلة واقفاً، لكنه لم يضع هذه الفرصة، ولم يترك أشغاله الدعوية، وكان لا يبالي بآلامه وأمراضه وأشغال سفره، بل يفضل الدعوة، ويواصل عمله بكل شوق ورغبة، ويواجه جميع هذه الشدائد بطلاقة وجه، وانشراح قلب، وطيب خاطر.

أصبحت سيارة الشيخ محمد يوسف بخلل ميكانيكي خلال رحلته إلى «باغيت» في مديرية «ميرته» للإشتراك في اجتماع، فنزل الشيخ بنفسه ودفع السيارة مع الركاب الآخرين، فتحرّكت السيارة، لكنها قبل الوصول إلى «باغيت» تعطلت مرة أخرى، ولم يستطع السواق إصلاحها، فركب الشيخ الحافلة التي كانت تمرّ بمكان قريب من محل الاجتماع، وكانت مزدحمة، لم يجد الشيخ مقعداً، فقطع السفر كله واقفاً، ونزل في الموقف الذي كان يبعد عن محل الاجتماع حوالي خمسة أميال، ولم يكن هناك أي مركب؛ لأن المسؤولين في الاجتماع كانوا واثقين بأن الشيخ يأتي في سيارة خاصة، فوصل الشيخ إلى محل الاجتماع راجلاً، ولما وصل إلى محل الاجتماع لم يسترح بل وصل إلى المنصة فوراً.

كان من عادة الشيخ أنه كان لا يستريح مهما كان السفر متعباً، فإذا وصل إلى مكان الاجتماع في موعد الاجتماع، يصل إلى المنصة فور وصوله ويبدأ خطابه، ولا يبالي بصحته ولا بتعب سفره، ثم إن بيانه كان عادة يستغرق ساعة ونصف ساعة بل

يزيد فيه أحياناً إلى ثلاث أو أربع ساعات، وبعد البيان يتحدث مع المسؤولين عن الاجتماع والإخوة العاملين حول نظام الاجتماع وأمور الدعوة، فكان في أسفاره أكثر شغلاً، وأشد همة واجتهاداً من إقامته .

نظام العمل العادي :

إذا كان الشيخ محمد يوسف في «نظام الدين» يؤم الصلاة عادة في الصباح، ثم يبدأ البيان ويستغرق هذا البيان ثلاث ساعات أو أكثر، ثم يجري تشكيل الجماعات، ثم يأتي إلى غرفته، ويتناول الفطور مع الضيوف، ويواصل كلامه حول الدعوة مع الضيوف، وأحياناً كان يسمع خلال الفطور تقارير الجماعات التي عادت من الرحلات الدعوية، ويستفسر الضيوف الذين جاءوا من مناطق مختلفة بعد قضاء أوقاتهم في الدعوة عن أحوالهم وعن أمور الدعوة، ونتائجها، وفي هذه الأثناء يجري تعيين مواعيد الاجتماعات، ثم يودع الضيوف، ويوصيهم، ثم ينتقل إلى مكتبته الخاصة، ويشغل بالمطالعة والتأليف، وينزل منها في الساعة الحادية عشرة لتوديع الجماعات، ويلقي البيان الوداعي، ويبين فيه آداب الخروج في سبيل الدعوة بتفصيل ووضوح، ثم الدعاء والمصافحة.

يتناول الغداء مع الضيوف ثم يستريح قليلاً حتى يأتي وقت صلاة الظهر، وبعد صلاة الظهر يعود إلى المطالعة ودرس الحديث إلى وقت العصر، وبعد صلاة العصر يرد على الرسائل، وكان ذلك في أوائل عهده، وترك ذلك عندما ازدادت أشغاله، وفي بعض الأحيان كان يملي الرد على الرسائل المهمة قبل العصر، ويلتقي بالضيوف، ويتبادل معهم الآراء، ويناقش أمور الدعوة، وأحياناً يلقي البيان في هذا الوقت أيضاً.

وبعد تقسيم البلاد خصص وقت ما بين المغرب والعشاء لتلاوة سورة يس، واستمر هذا الشغل إلى آخر عمره، ثم يدعو، وفي بعض الأيام يلقي أحد الإخوة البيان ويشغل بالمطالعة والتأليف إلى وقت العشاء، ثم يتناول العشاء مع الضيوف الذين يبلغ عددهم في بعض الأحيان مئات، ثم صلاة العشاء، وبعد صلاة العشاء كان يقرأ من كتاب في السيرة وحياة الصحابة، وكان في بداية الأمر يقرأ من كتاب «البداية

والنهاية»، ثم حل محله كتاب «حياة الصحابة» للشيخ محمد يوسف، وكان الشيخ محمد يوسف بنفسه يقرأ منه ويشرح، وإذا كان أي مانع كان يقرأ شخص آخر، ولكن الشيخ كان مهتماً بقراءة الكتاب بنفسه.

ويسجل الشيخ نسيم أحمد الفريدي انطباعاته بالكلمات الآتية :

«من صلاة الفجر إلى منتصف الليل (باستثناء ساعة أو ساعتين) قبل الظهر يستمر الإرشاد والتوجيه، ويمطر شآبيب الحكمة والمعرفة، وينشر الدرر والآلئ منها، خطاب بعد صلاة الفجر إلى الإشراق، خطاب أثناء شرب الشاي والطعام، استراحة خفيفة قبل الظهر، وعندما يخرج لصلاة الظهر يبدأ الكلام حول أمور الدعوة في الطريق واقفاً، وبعد التكبير يسوي الصفوف ويؤم الصلاة، وبعد الصلاة البيان، وبعد البيان الدعاء، ثم يتوجه إلى الغرفة، وهناك تنتظره الوفود من الأماكن المختلفة، وكلهم في شوق كامل إلى لقائه، وفي حنين بالغ إلى رؤيته، يصغون إلى كلامه، والشيخ يبين لهم حكم التوحيد والإيمان واليقين، ونكتة، وبعد صلاة العصر يتحدث إلى القادمين إلى صلاة المغرب، وبعد صلاة المغرب اجتماع خاص، يحضره الخواص من الإخوة العاملين، وبعد العشاء يقرأ من كتاب، ويشرح الأحاديث والآثار، ويذكر توضيحات قام بها أصحاب الرسول ﷺ في سبيل الحق بكل قوة وحماس، ويشرح نكت السيرة اللطيفة، ويجدد إيمان المستمعين، ويوقظ فيهم الوعي الديني، وترسم في نفوس المستمعين آثار عظمة الإسلام ومجده، وتنضح بركات عمل الدعوة والتبليغ، وتتجدد مشاهد الحركة للدين في القرون الأولى.

التواضع ونكران الذات :

كان الشيخ رغم تبحره العلمي وفضله وزهده وورعه وذوبوع صيته وإقبال الناس عليه يتصف بأقصى التواضع ونكران الذات، يكرم الكبير، ويتعامل مع الصغير معاملة المحبة والشفقة، ويحترم العلماء ويقدرهم ويكرمهم غاية الإكرام، وخاصة أولئك الذين رافقوا الشيخ محمد إلياس وساعدوه، فكان في سلوكه ومعاملته يُنزل الناس منازلهم.

فكتب في رسالة إلى سماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسيني الندوي:
حضرة السيد الأستاذ، أدام الله مجدكم ومتعنا والمسلمين بفيوضكم:
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته:

سعدت برسالتكم الكريمة، وسررت بقراءتها أغناكم الله برضاه وفضله العليم
ووقفنا للاستفادة من الأنوار والأوصاف والأحوال الروحانية التي أودعها الله فيكم
بنسبتكم إلى آل الرسول ﷺ، وانتمائكم إلى أسرة الإمام الشهيد أحمد بن عرفان،
وجعلها صالحة لإدراك أمثالنا الذين لا يقدرُونَ على أن يغوصوا في أعماق بحار
الأعمال الصالحة، والمكارم النبيلة، ويصطادوا الدرر الكامنة فيها، وحلَّاء وصقلها
صلتكم بالشيخ محمد إلياس - رحمه الله - وعلاقتكم الخاصة به، ومحَبته وشفقته
الخاصة بكم، فأصبحت ساطعة منيرة كضوء الشمس، فإذا قصرنا في إدراكها
والإحساس بها فلا يضركم ذلك شيئاً، فقد أكرمكم الله بنعم جلييلة، يجب عليكم
الشكر عليها، وإنما يضرنا هذا التقصير ويلحقنا بخسارة، أننا لم نستفد من الشيخ
- رحمه الله عليه - ، ولم نقدره في حياته، ثم قصرنا في الاستفادة ممن كان موضع
ثقتة وحبه، وأصبح باتباعه والاقتناء على أثره جديراً بالتقليد والاقتداء.

لقد أحسستم إلى هذا العاجز الفقير وأكرمتوه في عهد الوالد وبعد وفاته
ما لا أستطيع أن أعده، وأدعو الله سبحانه وتعالى أن يجزيكم خير الجزاء بما هو
أهله، إلّا أن هذا العاجز الفقير إلى الله لا يزال في حاجة إلى توجيهكم وإرشادكم
ودعواتكم الطيبة، وخاصة في تأدية حقوق الذين (أنتم في مقدمتهم) كانت
مساهماتهم في أمر الدعوة واهتمامهم بها باعثاً على نموه وازدهاره، ومصدر قوته
وانتشاره، وكان والدي - رحمه الله - ، لهذا الاشتراك، يحبهم ويقدرهم من أعماق
قلبه، وأناي سأعتبره منة لكم وكرمكم الجزيل إذا تضرعتم إلى الله في ساعاتكم الثمينة
للدعاء أن يرزقني الله ويوفقني لمعرفة قدر أهل الفضل، ومعرفة قيمة النفوس الزكية،
وأن يفتح لي باب التوفيق والسداد والفراسة، وأن يوفقني للعمل بتلك المبادئ
والقيم التي ترشدني إلى الاستفادة من أهل الفضل والخير في سبيل هذا العمل،
استفادة كاملة، وأفوز بتوجيهاتهم التي تؤدي هذا العمل إلى الازدهار والرقى، وأن
لا تكدره خطاياي وتقصيري.

تلقيت رسالتكم الكريمة، وأمعنت النظر فيها عدة مرات، وحاولت أن أكتب الرد عليها، ولكن لم تسعدني المهمة على ذلك وخجلت وأجلت الكتابة إلى يوم آخر، وقد أعترف بتقصيري في تأدية حقوقكم، فكيف ألتبس منكم تشريفنا بقدمكم، فإني لم أتعلم إلا الكلام والكلام بذاته لا يجدي ولا يغني كثيراً، فقد أسدلت الفتن ستارها وغشيت كل مكان، وانتشرت المصائب والآلام كحشرات الأرض وأنبتت، ولم يطلع أهل البصيرة والفهم والرأي على طرق معالجتها، ومن اطلع منهم حال علمهم دون اجتماعهم وتضامنهم، فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين.

إنكم تستطيعون أن تكونوا قدوة لنا، وترشدوا إلى الخير، وقد استبشرنا نبأ قدومكم، واستمتعنا بخياله، وإن أهل القلوب يحققون آمالهم بقلوبهم، ولكن ماذا يفعل من ليس له قلب، فإذا خلت قلوبنا عن محبتكم، فماذا نعتد عليه بعد الموت، وإن وجود محبتنا في قلوبكم مبعث خير كثير وبركة عظيمة لنا ولإخوتنا العاملين في الدعوة، جعل الله هذه المحبة قاعة لأبواب الخير للفريقين.

العبد — محمد يوسف

لم يكن الشيخ محمد يوسف يحتشم في الاستفادة أو الاستشارة مع أي شخص في أي مسألة علمية أو دعوية رغم نبوغه ورسوخه في العلم ومكانته في النفوس، فلما بدأ تأليف كتابه «حياة الصحابة» لم يتلجلج في أي وقت في أن يعرض كتابه على أي عالم للنظر فيه وإبداء رأيه أو تصحيحه إذا كان فيه خطأ، وهو من مزاياه الشخصية، ولا يستطيع ذلك أحد إلا إذا كان في غاية من التواضع وإنكار الذات، ويخلو من الأنانية والاعتداد بالنفس، وإلا فإن أهل العلم والفضل كثيراً ما يقعون فريسة العُجب والاستكبار.

يقول الشيخ نسيم أحمد الفريدي أنه قال له مرة: إني أولف كتاباً في حياة الصحابة ليتك راجعت هذا الكتاب، وقد اختار هذا العنوان حسب ذوقي وشوقي، وقد خجلت أنني لا أصلح له، ولا أملك كفاءة لهذا العمل، ولكنني سررت بأنه أحسن الظن بي، واعتبرني أنني جدير به وأستفيد من إفاداته.

ويحكي رفيق آخر له :

كان المنشي الله دتا يعتزم الحج، فلما خرج من المسجد، خرج الشيخ محمد يوسف نفسه حافياً لتوديعه إلى الشارع، فلما ودع المنشي قال له في غاية من الخشوع: أيها المنشي، ادع لي ولأسرتي.

مرة وصلت جماعة أهل «مدراس» بعد قضاء أربعين يوماً من «سهارنفور»، فتناول العشاء مع رجالها، وقال خلال تناول الطعام: أيها الإخوة كيف كانت جولتكم؟ قال الإخوة: خيراً، لكن الحر الشديد ألماً كثيراً، فتبسم الشيخ وقال: هل تعلمتم المبادئ الستة أم لا، قالوا: نعم تعلمناها والحمد لله، فقال الشيخ: هذا من فضل الله عليكم، أما أنا فلا أزال أتعلم، ولم أنه من تعلمها بعد.

كانت هذه معاملته وسلوكه مع أهل العلم والفضل، والعاملين القدماء في الجماعة، ولكن تواضع الشيخ كان عاماً، يشمل الجميع، سواء كان من الثقات أو المعارف أو كان من الأبعاد والأجانب، وكان الشيخ عندما كان يودع الجماعات يوصي عادةً:

أيها الإخوة، عليكم بطاعة الأمير وخدمته وخدمة كل من يتصل بكم في الطريق مهما كان دينه، ومهما كانت ثقافته، ومهما كانت ميوله ونزعاته.

وحكى في هذا الصدد قصته:

كانت طفلة أحد المساكنين في «نظام الدين» تحمل جرة، وكان وزن الماء فوق تحملها، فلما رأيتها أسرع إليها وأخذت منها، وحملت إلى بيتها، ولا أزال أذكر حلاوة ذلك العمل إلى يومي هذا.

كانت عاطفة خدمة الخلق وإكرام الضيف متغلغلة في أعماق نفس الشيخ، فكان ينتهز كل فرصة لهذا العمل، ولا يتردد فيها، وبعض الأعمال التي يستهينها الإنسان ويعتبرها أحط من نفسه وغير لائقة بشرفه وكرامته، ولكن الشيخ كان لا يستهين أي عمل مهما كان سافلاً.

حكى الشيخ إظهار الحسن الكاندهلوي :

ذات يوم قاطع الكُثَّاسون الذين ينظفون المراحض، وقاموا بإضراب، فكان الناس يذهبون إلى الكنيف خارج البيوت، ولكن النساء لم يكن يستطعن الخروج، وامتلات المراحض، فكان الشيخ محمد يوسف ينظفها بنفسه ويطرحها في الغابة، ولم يسمح لأحد أن يتدخل في هذا الأمر، ويشاركه في هذه الخدمة.

الوحدة والتضامن :

كان من مزايا الشيخ محمد يوسف الشخصية التي قلما توجد في غيره من العلماء والتي تفوق مزاياه الأخرى، أنه كان يؤلف ويشر ويسعى إلى التقريب والتأليف بين رجال مختلف المذاهب الفكرية والفقهية، ويجمعهم على رصيف واحد، ويجعلهم صفاً واحداً، وكان الشيخ محمد يوسف يعتقد أن الاختلاف مزق الأمة، وشتت شملها وأذل العلماء في أعين عامة الناس، وكان الشيخ يرى أن عمل الدعوة قام على أساس مصلحة الأمة، ولذلك كل عمل يحول دون القيام بهذا العمل الأساسي يليق بأن يرفض ويستنكر، ولذلك كان الشيخ لا يثير أي مسألة فرعية، تودي إلى نزاع أو إحداث خلاف وجدال، فكان يركز على الفضائل، ووضع أسس دعوته على الفضائل، وكان يؤكد على تجنب المسائل التي تفرق وتحدث الخلاف وتثير الشبهات، ولذلك كان لا يفتي ولا يقضي بين الناس، بل كان يحول إلى رجال الإفتاء وأهل العلم، فظلت دعوته بنجوة عن الخلافات المذهبية، وعمّ جو الأمن والوثام، والوحدة والتضامن، وانضم إلى الدعوة رجال كل مذهب فقهي ومذهب فكري وسياسي وديني، وكانوا يسمعون كلام الشيخ باهتمام وثقة، وحافظ الشيخ على هذه الثقة المتبادلة والوثام بين رجال مختلف الطبقات بتجنبه لمواضيع الخلاف ومنع حركته من الفرقة والتشردم، ونال الشيخ بهذا المنهج احتراماً وتقديراً لدى جميع أوساط الناس، فكانت دعوته مقبولة وسائرة في دار العلوم بـ «ديوبند»، وجامعة عليجراه الإسلامية، ودار العلوم لندوة العلماء، ولدى المتزهين وزعماء السياسة، وأهل العلم المعاصر، والعلم الديني، ولدى المثقفين المتنورين من خريجي الجامعات العصرية وموظفي الحكومة، ورجال الأعمال والتجارة، وخرجوا في سبيل

الدعوة متكاتفين متعاضدين، جنباً إلى جنب، ولا يزالون متكاتفين إلى يومنا هذا، رغم اختلافاتهم في الفكر والعمل والثقافة والسلوك، والمستوى الاقتصادي والاجتماعي، من غير تمييز، بل يحاول كل شخص أن يخدم غيره، ويساعده في أمره، صغيراً كان أم كبيراً، كان ذلك في الواقع أكبر ميزة للشيخ فإنه نظم جميع الدرر والآلئ الثمينة المتناثرة في سلك واحد.

علاقته الخاصة بمن رافق والده في عمل الدعوة ونال ثقته وكسب محبته :

حافظ الشيخ محمد يوسف على صلة خاصة بأولئك الشيوخ والعلماء الذين كانوا مرتبطين بوالده، وكانوا موضع ثقته، فكان يحرص على زيارتهم، ويطلب دعواتهم ويدعوهم إلى مناصرته ومساعدته، ويرجو منهم العناية الخاصة والرعاية لحركته، ويرسل الجماعات إليهم للاستفادة منهم، ويوصي الخارجين في سبيل الدعوة أن يكرموا هؤلاء المشايخ، ويستفيدوا من توجيهاتهم وآرائهم، كان في مقدمتهم شيخ الإسلام السيد حسين أحمد المدني في «ديوبند»، فكان الشيخ محمد يوسف يختلف إليه، ويكثر من لقائه، ويوجه إليه الدعوة لزيارة مركز التبليغ بـ «نظام الدين»، فكان الشيخ المدني يزور المركز وينوه بعمل الدعوة ويشيد به إشادة كبيرة، كذلك كان يسافر إلى رانيبور لزيارة الشيخ عبد القادر الرانيبوري، فكان يدعوهم إلى زيارة «دهلي»، فكان يأتي ويقوم عدة أيام في «نظام الدين».

أما الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي فكان لدى الشيخ محمد يوسف كوالده، حلّ محل الشيخ محمد إلياس — رحمه الله — ، فكان الشيخ محمد يوسف لا يتخذ قراراً ولا يقوم برحلة إلا بالتشاور معه وتأييده.

وجه الشيخ محمد يوسف في ٩/رمضان المبارك سنة ١٣٦٣هـ رسالة إلى جميع المشايخ الكبار، ويتجلى من هذه الرسالة مدى صلة الشيخ بهؤلاء المشايخ، وحرصه الشديد على نيل دعواتهم وسماع توجيهاتهم، واحترام رغباتهم، يقول في الرسالة :

يقول هذا الفقير إن الشيخ محمد إلياس — رحمه الله — رغم كونه صورة صادقة للإخلاص ورغم اهتمامه الخاص بالدعاء في خلواته وجلواته لعمل التبليغ، وقبوله

عند الله، ورواجه في الناس، فكان يقضي الليل يبكي في الدعاء إلى الله والابتهاال إليه لنجاح هذا العمل، والالتزام بشروطه وأدابه والصدق والإخلاص في العاملين وكونه سبباً لانتشار الإسلام وغلبته في العالم، لكنه كان يعتبر ذلك غير كاف، وكان يلتمس من أهل الحق أن يخصصوا لهذه الدعوة وقبولها عند الله وقتاً من أوقات دعواتهم الخاصة في شهر رمضان المبارك، وكان يقول أحياناً: إن نظام العالم منوط بدعوات أهل الحق ولذلك في هذا الوقت الذي حرمننا نحن خدام الدين هذه الأدعية في الظاهر أرجو عنايتكم الخاصة أن تولوا هذه الدعوة اهتمامكم الخاص، وقد سار هذا العمل حتى الآن بدعواتكم وتوجيهاتكم، وسيجري في المستقبل أيضاً بدعواتكم وتوجيهاتكم القيمة، ويحظى برعايتكم وعنايتكم.

الخادم الفقير - محمد يوسف

ويحكي الشيخ محمد يوسف نفسه زيارة الشيخ المدني الأخيرة ٩/رمضان ١٣٨٣هـ وعنايته الخاصة، رغم الأمراض والأسقام التي يعاني منها، ورغم آلامه الشديدة فيقول:

إن هذا العبد الفقير تشرف وسعد بزيارة الشيخ المدني قبل ٢٢ ساعة من وفاته بفضل الله وكرمه ومنه العظيم، وقد كنت حضرت إليه لمجرد الاستفسار عن صحته، وما كان في ذهني أن أزوره شخصياً احترازاً عن إزعاجه لمرضه الشديد، لكنه طلبني محبة منه وشفقة، وقد كان متوجهاً إلى القبلة، منصرفاً إلى الله انصرافاً كاملاً، فقال: من أين؟ قلت: من «نظام الدين»، قال: أين تتوجه؟ قلت: أعود إلى «نظام الدين»، قال: لأجلي سافرت، فأني عاجز فقير، لماذا كلفت نفسك بهذا السفر؟ كان يمكن أن تدعو لي من هناك، فإن دعاء المرء عن ظهر القلب أحق بالقبول، فكان ذلك أنفع لي، ثم قال: إن الناس يتزعجون بالمصائب، ويضطربون منها، ولا يليق ذلك بهم، فإن المصائب نعمة من الله، لأن المصائب تطهر المؤمن وتركيه، من يرد الله به خيراً يصب منه، وأشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، ومهما ادعى أحد التقديس والكمال، لا يخلو من الخطأ، وإن عذاب الله شديد، وإني أدعو أن يبتلينا الله جميعاً بالمصائب والبلاء في هذه الحياة ويطهرنا ويزكينا، فلا يأخذنا بذنوبنا يوم الروع.

كتب الشيخ محمد يوسف في رسالة تعزية له على وفاة الشيخ حفظ الرحمن السيوهاروي (زعيم جمعية علماء الهند):

لا مجال للشك في أن الشيخ - رحمه الله - كان يتصف بالخصال الطيبة، وكان صورة لعلاج عدة أمراض، وكان حاملاً لفضائل كثيرة، ووفاته في الظاهر تسبب القلق والاضطراب، ولكن الاعتماد على الله والجهد والتضحية في دين محمد ﷺ، والانهماك فيه، وبذل الجهود المضنية للأمة الإسلامية، هي نعم البديل لهذه المصائب الظاهرة.

وكان هم الشيخ محمد يوسف بوفاة الشيخ عبد القادر الرائيپوري عظيماً للعلاقات القريبة بينهما، ولكن الشيخ محمد يوسف كتب في رسالة تعزية بعث بها إلى الشيخ عبد العزيز:

كان وجود الشيخ عبد القادر الرائيپوري - رحمه الله - مصدر رحمة ونصيحة وسكينة وطمأنينة للعالم كله بصفة عامة، ولمن كان قريباً منه بصفة خاصة، وإن فراقه يبعث على القلق والاضطراب لسائر الطالبين والمحبين، إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرنني في مصيبتني، واخلف لنا خيراً منه.

التقاء العلم والتأليف بالدعوة:

رغم انشغاله الكامل لعمل الدعوة، وهمة المتواصل لها، وحماسه البالغ، وتغلغله في أعماق نفسه، كان الشيخ محمد يوسف يفرغ من أوقاته وقتاً للمطالعة والتأليف، فكان يجلس في معتكفه بضع ساعات ويقوم بالتأليف، وكانت ذلك وظيفته منذ عهد دراسته، وحافظ عليه إلى آخر عمره. وكان الناس يرون أنه مشغول في الخطاب والدعاء والبحث حول أمور الدعوة، وإكرام الضيف، ولكن قليلاً منهم يرى أنه يختلس من هذه الأشغال ساعات للمطالعة والتأليف، وكان يخفي ذلك على كثير ممن كانوا من أصدقائه ورفقائه، ولكن علموا بعد صدور كتابيه «أمانى الأحبار»، و«حياة الصحابة» في عدة مجلدات ضخمة.

وتدل هذه الكتب على رسوخه في العلم، وعمق مطالعته، ونظرته العميقة على

كتب الحديث والرجال، وأحوال الصحابة، وتتميز هذه الكتب أنها بجانب كونها عصارة مطالعة عميقة ودراسة واسعة، تشفي غليل ظمأ العلم، وتتصف أيضاً بالأسلوب المقنع، فيستفيد بها العلماء والدعاة في وقت واحد، فهي ثروة علمية، ومجموعة تشتمل على أخلاق وسير أصحاب الرسول ﷺ وبيان لمنهج دعوتهم وسلوكهم.

ويدل «أمانى الأحبار» على تفقه الشيخ ومعرفته للحديث والآثار وتبحره في هذه العلوم وبراعته فيها.

إن كاتب هذه السطور من السعداء الذين شاهدوا الشيخ محمد يوسف في طعنه وإقامته في مختلف أوقات الليل والنهار، ورأى عن كثب كيف كان يعكف على أعماله الدعوية والعلمية ومن رأى شغفه الغامر بأمور الدعوة واشتغاله بها، يصعب عليه أن يتصور كيف وجد وقتاً لتأليف هذه المجلدات الضخمة، فإن كل من له اشتغال بالعلم يعرف أن التأليف في أي موضوع يحتاج إلى مطالعة مئات من الصفحات ومراجعة عدد ضخم من الكتب العلمية المكثفة، وأن دراسة آلاف من الصفحات ومراجعة كتب ضخمة، ثم تأليف كتب تبلغ صفحاتها عدة آلاف من الصفحات، في موضوع علمي دقيق لرجل وهب نفسه للدعوة واشتغل بها فكرياً، ذهنياً وجسماً، ولا يجد وقتاً للراحة، ولا يقيم بمكان مدة من الزمن بل يكون دائماً في ترحال، فلا يعود من سفر إلا إلى سفر، ليس ذلك إلا نوعاً من الكرامة.

لا يستطيع أن يقدر هذا المجهود، ويعرف قيمته، ويدرك أهميته إلا من عرف الجانبين من الحياة، الحياة العملية والدعوية، والحياة العلمية، ومرّ بهذين الطريقين، وهذه هي الميزة التي لا يمكن لأحد غرض البصر عنها.

القبول والشعبية الفائقة :

اتصف الشيخ محمد يوسف بمزايا وصفات يندر وجودها، ولذلك كان مقبولاً لدى الناس ومحبباً إلى النفوس، فقد كان محبوباً في سائر الطبقات الجديدة (المثقفة بالثقافة العصرية) والقديمة (المثقفة بالثقافة الدينية).

كان أفراد هذه الطبقات يضعونه موضع احترام وتقدير، ويحرصون على الاستفادة منه، وحضور مجالسه والاستماع إلى خطبته، وإلقاء نظرة عليه، فكان الناس يتهافتون عليه إذا زار بلداً ويقلدونه، ليس في «الهند» فحسب بل في الدول الأجنبية، كان أهل الفكر الديني يتمنون زيارته ويتنظرون قدومه إلى ديارهم بفارغ الصبر، وكان مئات من الناس يسافرون من بلدانهم إلى «الهند» لمجرد زيارته والاستفادة من توجيهاته ونصائحه، ويقضون ما تيسر لهم من فرصة للإقامة في مركزه، ثم يعودون بعيون ندية، محبته تتغلغل في نفوسهم، وتغمر صدورهم، فكان يكرمه طلاب المدارس الدينية والمدارس الإنجليزية وأساتذتها، وعمال المصانع ورجال الأعمال على حد سواء، ويعتبرون زيارة عتبه بركة ومفخرة، وكان هذا الإقبال وهذه الشعبية تزداد يوماً فيوماً إلى آخر حياته.

اتباع السنة :

كان أساس دعوته وحركته يقوم على اتباع السنة، وفي حياته الشخصية كان حريصاً على اتباع السنة، والعمل بأسوة الرسول ﷺ بالمحبة الغامرة له، ويراعي ذلك في كل عمل عند الأكل والشرب، والقيام والقعود، والنوم واليقظة، وفي الحياة الفردية والاجتماعية، ويهتم بالأدعية الماثورة لكل وقت وحال، ويؤكد عليها، يقول في التأكيد على اتباع السنة :

هناك اضطراب في كل مكان، وصراع في كل طبقة، وتدهور في الأخلاق، وانحطاط في المعاملات، ولا علاج له إلا باتباع طريقة الرسول ﷺ، وعلى مدى اتباعه يرتقي الإنسان وتحسن حاله.

ويقول في موضع آخر :

إن الله تعالى وضع حل مشاكلنا الدنيوية والأخروية في اتباع طريقة محمد ﷺ، وعلينا أن نجتهد لنقضي حياتنا حسب الطريقة النبوية.

كل من كان يلقي الشيخ كان يخرج بانطباع أن الشيخ يحمل ملكة خاصة للاعتماد على الله، واتباع الرسول ﷺ، وأن ملكته هذه ليست مختصة بذاته، بل كانت

تتعدى إلى كل من يلقاه ويلحق به، وكل من جلس في مجلسه ولو دقائق، كان يجد نشوة وعذوبة هذه العاطفة وحرارتها، ويملاً قلبه بها.

كان أحب أشغاله إحياء السنة، فكان يركز على هذا الجانب في خطبته وكلامه في المجالس، فكان يدعو إلى إحياء السنّة، ويحث على اتباع السنة في سائر أحواله، وكان ذلك الموضوع الأساسي له.

يحكي أحد رفقاء الشيخ محمد يوسف هذه القصة التي تدل على هذا الاهتمام بالسنّة:

كنا نتوجه إلى مكتبة الشيخ محمد يوسف لدرس «سنن أبي داود» مع رفقتنا، فعلمنا في الطريق أن الشيخ مسيح الله خان الجلال آبادي أحد كبار مسترشيدي الشيخ أشرف علي التهانوي قادم، وأجل الدرس، وتفضل الشيخ مسيح الله خان، واستقبله الشيخ محمد يوسف خارج غرفته، ثم جلس في تلك الغرفة، وبعد ترحيب وجيز قدم الشيخ محمد يوسف إلى الشيخ مسيح الله خان مؤلفاته: «أماني الأحبار في شرح معاني الآثار»، و«حياة الصحابة»، فكان الشيخ مسيح الله خان يلقي النظر على هذه المؤلفات، ويعرب عن تقديره البالغ لهذا المجهود الجبار، ثم قدم الشيخ محمد يوسف نبذة عن نشاطات الجماعات العاملة في الدول الخارجية، وذكر خلالها قصصاً غريبة لنصرة الله وتأييده للجماعة ما يحار منها العقل.

وخلال الكلام ذكر الشيخ محمد يوسف قصة فقال: لما كنت أدرس في عهد دراستي كتب النحو والصرف البدائية، قال لي والدي - رحمه الله - : يوسف، هل أدلك على طريق الولاية؟ وما كنت أعرف في ذلك الوقت ما هي الولاية، فقد كنت طالباً صغيراً، فقلت بدون تفكير: نعم يا أبي، علمني ما هو الطريق للوصول إلى درجة الولاية.

وقال الشيخ محمد إلياس: اعلم أن العمل بالسنة في المكان الذي لا تتبع فيه السنة، والعمل لترويج السنة بدون التقيد بالمكان والوقت هو الطريق للوصول إلى درجة الولاية.

التربية وتزكية النفس :

كان الشيخ محمد يوسف على مسلك المشايخ الآخرين في تربية النفوس وتزكيتها، وقد أضاف إلى طريقة المشايخ المتبعة بعض الأمور اقتضاءً للدعوة على طريق الشيخ محمد إلياس .

الطريق المتبع عند المشايخ لدى البيعة التأكيد على أمور تتعلق بالإيمان، وترسيخه في القلوب، والتعلق مع الله، ويزيد وينقص المشايخ من هذه الأمور حسب ذوقه . وطبيعته ومجال علمه، فكان الإمام الشهيد أحمد بن عرفان يؤكد على أهمية الجهاد والتضحية في سبيل الله، والشوق إلى الشهادة في سبيل الله، وكان يردد هذه المعاني، أما الشيخ محمد إلياس فكان يردد ألفاظ السعي في سبيل الله والدعوة إليه، وتعلم الدين وتعليمه، والتضحية في سبيل الدعوة، كذلك كان الشيخ محمد يوسف، وكان يغلب عليه عمل الدعوة، فكان يبين عند أخذ البيعة أهمية الدعوة وآدابها، ومسؤولياتها، وفضائلها، ثم يؤكد على أهمية تفرغ الوقت لعمل الدعوة، ويمنح هذا العمل الأولوية، فكان كل من ينسلك في سلكه ينصرف إلى عمل الدعوة .

فكان من عادة الشيخ محمد يوسف أنه كان يأخذ البيعة اجتماعياً، كأنه اجتماع يشترك فيه مئات بل آلاف من الناس، ويمد رداء بل أردية يمسك بها الناس رجالاً ونساءً، ويحكي الشيخ أشرف البشاورى طريقة بيعته .

دخل جمع غفير من الناس في بيعة في «رائي وند» بـ «باكستان»، وكان لكثرة العدد ينقل المكبرون ما يقوله الشيخ إلى الناس، وقال أحد الحاضرين: اليوم تجدد منظر الإمام الشهيد أحمد بن عرفان .

وأعجب مما كان يشاهد من تهافت الناس عليه كالفراش في «ميوات»، وكان منظر أخذ البيعة في الميواتين منظرًا خلاباً، تدوي أصوات الداخلين في البيعة في الفضاء، وتسود الهيبة على النفوس، والتضرع إلى الله، وتسيل الدموع من العيون وتخضل اللحى، وتعم أنات الناس، فترق له قلوب القساة .

التأثير على النفوس :

كان الشيخ محمد يوسف لزهد، وتقشفه وخشيته وخلقه وتأثيره يلاحظه كل شخص يلقاه، حتى الجالس في مجلسه لدقائق معدودة، لا يخرج إلاّ وقلبه معمور بالخشوع والاحتساب والخضوع والإنابة، ويتغلغل في أعماق قلبه الإيمان واليقين، والعاطفة للخروج في سبيل الله والتضحية له، ويحدث انقلاب في الحياة، ولا يعد ولا يحصى عدد الذين تابوا على يده، وأنابوا إلى الله بعد حضور مجالسه وسماع كلامه، وغلبهم الشوق إلى الدعوة وتغير أخلاقهم، ومعاملاتهم وطريق كلامهم، وحفظوه كلام الشيخ، وبدأوا يحاكونه في كلامه وفي خلقه وطريق دعائه، حتى الذين لم يكن منهم ذوق ديني ولم يتلقوا تربية دينية، تغيرت حياتهم بعد الجلوس في مجلسه، واشتعلت جمرة الإيمان في نفوسهم، إنهم جاءوا في ملابس إفرنجية، وثقافة غربية، وفي حالة عدم مبالاة يظهر عليهم أنهم من طبقة مترفة، يسخرون من العلماء، ويسيثون الظن بهم، لكنهم عندما ألقوا نظرة عليه، وسمعوا كلامه، وشاهدوا محبته، تغيرت أحوالهم وسيرتهم، وحدث انقلاب في حياتهم، وصاروا يستوحشون ثقافتهم الغربية، وآثروا حياة الزهد والمجاهدة والشظف وخشونة المعيشة، والاقتصاد في المأكل والمشرب، وخدمة الناس، ويتجاوز عدد أمثال هؤلاء الناس عن عدة آلاف وهم منتشرون في الهند وخارج الهند ومشغولون بعمل الدعوة.

وإن تغير حياة هؤلاء المثقفين بتأثير شخصية الشيخ محمد يوسف واتصافهم بالزهد والورع، والإيثار والتضحية، وخدمة الخلق، وإنكار الذات والإنابة إلى الله، والانهماك في الدعوة، والصلة بالله تعالى وحب الرسول ﷺ يدل على تأثير شخصية الشيخ وعظمته.

وقد تحمل عدد كبير من الذين كانوا ينتمون إلى هذه البيئات الراقية عمل الدعوة في الدول المختلفة، وروّجوا حياة الإيمان واليقين في العرب والعجم، وافتتح بجهودهم عمل الدعوة في «أوروبا» ويمساعيهم وصل إلى «الهند» مئات من الناس للاستفادة من الشيخ.

كان من تأثير صحبة الشيخ محمد يوسف على الجالسين في مجالسه ترسيخ عاطفة الإيمان واليقين والاضطراب والهَم للدين، وكل من كان يخرج من مجلسه أو يودعه بعد قضاء بعض الوقت في صحبته يصير مغموراً باليقين وتعلوه نشوة للدين والسعي له.

الصلة الحية بالله والاستقامة في سبيل الله :

يبحث الناس اليوم عن كرامات المشايخ، ولا يعتبرون أحداً شيخاً إلا من يأتي بخوارق وكرامات، مهما تكن صلته بالله وبالرسول ﷺ، وهل يعمل على الشريعة، ويتبع سنة رسول الله ﷺ ولكن الربانية الحقيقية في الواقع هي أن يكون الإنسان متبعاً حقيقياً له، ويسير حسب خطواته، ويقضي حياته وفق سنته.

قيل لأبي سعيد أبي الخير: إن شخصاً فلاناً يمشي على الماء؟ قال: نعم، إن الحشيش أيضاً يمشي على الماء، ليس ذلك بأي كمال، وقيل: إن بعض متبعيه يطير في الفضاء؟ قال: نعم إن الذباب أيضاً يطير في الفضاء، فقيل له: إن شخصاً ينتقل من الشرق إلى الغرب في ثوانٍ؟ قال: نعم، إن الشيطان يصل من الشرق إلى الغرب في لمح البصر، إن هذه الأمور لا تحمل أي مكرمة ولا أي قيمة، فإن الإنسان الحقيقي هو أن يعيش في الخلق، ويتعايش مع بني جلدته، ويتزوج ويكون له أولاد ثم لا يغفل عن الله لحظة.

إن الفضل والكمال لكل إنسان في سائر الأمور ظاهراً وباطناً، وأصولاً وفروعاً وعقلاً وفعلاً، وعادةً وعبادةً يكمن في الاتباع الكامل للرسول ﷺ.

إذا استعرضتم حياة الشيخ محمد يوسف في ضوء هذه المبادئ والتوجيهات وجدتم أن حياته كانت صورة صادقة لها، فلا يقصر في المجاهدة، ووصل إلى الكمال في الحصول على المعرفة، وظهرت منه كرامات في بعض الأحوال، لكنه كان يتغاضى عنها ولا يلتفت إليها، وعلى العكس كان يحرص على الاستقامة، واتباع السنّة، والعمل بالشريعة وتوثيق الصلة بالله وبرسوله، وكان يتجلى ذلك الاتجاه كالشمس، فقد كان يتعايش مع الناس طول النهار والليل، يأكل ويشرب وينام، ويتحدث مع كل شخص، ويلتقي بكل رجل، لكنه كان لا يخلو قلبه من ذكر الله.

اللغة وأسلوب البيان :

لكل شخص أسلوب للبيان، يعرف به، منهم من هو واعظ بصوت شجي، يؤثر بصوته ونوادره ونكته وسجعه، ويؤثر في الناس ويمتعمهم ببيانه، يسمع الناس كلامه ساعات عديدة ولا يتبرمون ولا يملون، ومنهم من هو خطيب مصقع مسعر، يهيج النفوس، ويهز القلوب، ويدمع العيون.

أما الشيخ محمد يوسف فلم يكن واعظاً ولا خطيباً مسعراً، ولم يكن تنطبق عليه أساليب الخطباء والوعاظ، إنما كانت له خطب تختص به، وأسلوب ينفرد به، لم يكن يبال ما يخلف كلامه على المستمعين من أثر، فكان غنياً عنه، لا يهمله إلاّ إبلاغ ما يدعو إليه، فكان يستخدم لغة خاصة، وتعابير خاصة، وأحياناً كان الناس يفهمون هذه المصطلحات والتعابير، ويجدون كلامه غريباً، لكن عاطفته كانت تهز القلوب، وكان في ذلك على غرار والده الشيخ محمد إلياس، إلاّ أنه كان يقدر على الارتجال في الكلام، وينطلق لسانه، بدون تلجلج وتلعثم.

ولم تكن هذه اللغة واللهجة التي تَعَوَّدَ عليها الشيخ محمد يوسف خاصة به، بل صارت شائعة؛ لأن الذين قلدوه من الدعاة الذين كانوا يأتسون به، كانوا يختارون نفس اللغة واللهجة والأسلوب، لقد كانت لغة الشيخ رغم كونها غريبة أحياناً سائغة تنفذ في القلب، وتستهوئها وتستولي عليها.



الباب السابع عشر

الأحاسيس والمشاعر، والحركة والدعوة، المبادئ والآداب والتوصيات

من أهم أبواب سيرة الشيخ محمد يوسف أحاسيسه ومشاعره وأخيلته ومذهبه الفكري، وتتضمن أخيلته ومشاعره وأحاسيسه خطبه ومجالسه ورسائله الكثيرة، فإذا تناولها دارس بالبحث والتحقيق، وألقى نظرة فاحصة عليها بدون تحيز وتحزب وعصبية وأنانية، أمكن له أن يُقَدَّرَ أن الله تعالى قد وهبه سليقة خاصة للفهم، وعرض الإسلام والدعوة إليه، ومن المؤسف أن العصبية أسدلت الستار على بعض مآثره وأمجاده، وأبعدت عن الشيخ والاستفادة منه، وأن سوء الظن والتنحي عنه قد حال دون فهم أحاسيسه، ومنهج دعوته، وإن الذين كانوا من أقرب رفقائه قد عرض بعضهم دعوته، وشرح أفكاره في ضوء أفكارهم وطبيعتهم، فأخطأوا فيه، وكانوا سبباً لسوء الظن به حتى قيل عنه: إنه كان يمثل جانباً واحداً من الدين، وإن تصويره عن الدين محدود لا يتجاوز الكلمة والصلاة، والتجوال من أجلها، وإنه يغفل الأركان الأخرى، وذلك هو خلاف للواقع.

إن الشيخ محمد يوسف يعتقد أن ثلاث نقط تحتل المكانة الرئيسية في الإسلام وهي: ١ - الإيمان واليقين، ٢ - العمل الصالح، ٣ - الجهد للعمل الصالح، وكانت الآية: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٣٣)، هي مصدر هذا الاعتقاد، ولذلك كان محور خطب الشيخ، وكلامه في المجالس ومضمون رسائله هذه النقط الثلاث، وكان يركز عليها، ويدور كلامه حولها، ويوجه العناية الأولى إليها وإلى شرحها، وكان يوضح بالأدلة والأمثلة هذه الفكرة التي هي أساس دعوته.

وبجانب هذا التركيز على هذه الجوانب الثلاثة كان يلقي الضوء على العوامل

والأسباب والدواعي الأخرى أيضاً، التي تساعد على دعم هذه الجوانب وترسيخها، وتفند الأفكار الخاطئة والاتجاهات الفاسدة التي نشأت اليوم في أذهان المسلمين لبعدهم عن عهد النبوة، وإني لا أعرض خطب الشيخ ورسائله بالتفصيل؛ لأن خطبة واحدة ورسالة قصيرة تقتضي سجلاً كاملاً، لاحتوائها على معانٍ وسبعة ونكت دقيقة واحتجاج عميق، إلا أنني أقدم مقتطفات من خطبه ورسائله لإلقاء الضوء على جوانبه الشخصية وأفكاره الرائدة، وتصوره الجامع في لونه الحقيقي.

ليس الإسلام هوى النفس:

كان الشيخ يعتقد أن الصعوبة التي نواجهها اليوم في العمل على الإسلام وشريعته وأن الدعاية المكثفة التي توجه ضد الدين الحنيف، وأن الأصوات التي ترتفع لوضع حد عليه، وكل ذلك يرجع أساساً إلى أن المسلمين قاموا بتكليف الإسلام حسب ظروفهم، ويطورونه حسب أهوائهم، ويفسرونه حسب أفكارهم ومعتقداتهم، ويبيّن ذلك بمثال عام مفهوم لدى جميع الأذهان: يقال اليوم: إن الإسلام لا يصلح عملياً في عصرنا، صحيح أن الذهن الذي تعود على الأخذ، كيف يقبل طريق العطاء، فإذا جعلتموه خاضعاً لأهوائكم وأحوالكم، فلا يبقى ذلك الإسلام إسلاماً حقيقياً، بل هو دين جديد من صياغتك.

أراد شخص تصوير أسد على جسمه بالوشم، فلما بدأ الواشم الوشم شعر ذلك الشخص بوخزة الوشم، فقال للواشم: ماذا تعمل؟ قال: أضع ذَنَبَ الأسد، قال: اترك الذَنَبَ واصنع صورة الأسد بدون ذَنَبٍ، فترك الواشم الذَنَبَ، وبدأ يصور من جسم الأسد عضواً آخر، فقال: ماذا تصنع؟ قال: الأذن، فقال له: اترك الأذن، أيلزم تصوير الأذن هكذا، أيها الإخوة أنتم تعملون مع الإسلام، تريدون أن تحملوا صورته حسب ذوقكم وأحوالكم كصورة ذلك الأسد، تريدون قطع ما لا يلائمكم، وحذف ما لا يناسبكم من الإسلام.

ويقول في موضع آخر وهو يشرح هذه النقطة شرحاً مستفيضاً: إن الأحكام الدينية التي يعمل بها المسلمون اليوم في أي شعبة من شعب الحياة هي الأحكام التي تؤثر في مصالح المسلمين المالية، أو تتطلب منهم بذل مجهود جسمي، فيصعب

عليهم العمل بهما، فيقضون حياتهم رغم إيمانهم واعتقادهم بالإسلام كدين يقضون حياة تتنافى مع تعاليم دينهم.

الشرط الأول:

يقول عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - عن الصحابة، تعلمنا الإيمان ثم تعلمنا القرآن، وكان ذلك السبب الأساسي لعاطفة الصحابة الكرام الإيمانية واحترامهم بالإسلام، ومحبتهم للرسول ﷺ، واعتنائهم بأحكام الله وتمسكهم بشريعته واعتصامهم بحبله، فإن العلم وحده لا يغني إذا لم يقترن به الإيمان، ويصبح هذا العلم المجرد عن الإيمان وبالأ، ولذلك كان الشيخ محمد يوسف يمنح الإيمان بالله وترسيخه الأولوية، ويعتبره الشرط الأساسي، ثم يأتي اتباع منهج الرسول ﷺ وسنته فيعتبره أهم عنصر لدعوته وفكره، يقول:

يجب في أول الأمر إخضاع الطبيعة للإسلام، ولا يتحقق ذلك إلا باليقين، بأن الله تعالى هو القادر المطلق، وله الحكم والأمر كله، ولا يستطيع أحد غيره، أن يضر وينفع، وأن الاضطراب والهدم والبناء، والفوز والفشل لا يأتي من الأشياء المادية والوسائل، بل بأمر الله تعالى وحكمه، وإن الله تعالى يحكم بالنجاح والسعادة إذا عدنا إلى طريق محمد ﷺ، وللسفر في هذا الطريق يجب الحصول على ثروتين: اليقين بالله، واستحضاره في القلب وخوفه واليقين بأن الطريق لنزول رحمة الله ونصرته هو طريق محمد ﷺ.

وهو يشرح الإيمان بهذا الأسلوب الممتع:

ليس الإيمان واليقين بالظواهر حسب الظواهر، بل هو ترسيخ الإيمان بذات الله وصفاته والقيام بالأعمال المطابقة لهذا الإيمان، واليقين بالأنباء الواردة عن هذه الأعمال، ضد الظواهر والمشاهدات.

كان الشيخ محمد يوسف يرى أن الإيمان واليقين هما المصدر الوحيد الذي يؤدي إلى رقي الأمة المحمدية وازدهارها، وأن الأمة المحمدية لها طبيعة خاصة تميزها عن الأمم الأخرى، وعناصر تركيبها تختلف عن عناصر تركيب الأمم الأخرى،

ولذلك يجب إحياء الإيمان واليقين، وكان يؤكد على الإيمان أكثر من غيره، ويشرح عناصره بالأمثلة والواقع.

قال مرة وهو يخاطب الخواص:

قال الرسول ﷺ رداً على سؤال وُجِّه إليه، أجيب غداً، فنزلت الآية: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ۖ ﴿٢١﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾، وأنتم دائماً تقولون: نفعل كذا، وسنفعل كذا وكذا، والواقع أنكم إذا أردتم أن تموتوا لا تستطيعون ذلك، فإن صفة الخلق لا يتصف بها إلا الخالق، وإن الخلق كله تابع وخاضع لإرادة الخالق في المولد والنشأة والبقاء وفي الموت، وفي كل أمر من أمور الحياة.

كان إيمان الشيخ محمد يوسف ينفي غير الله، وعدم قدرته، إنه كان لا يحتمل ذلك لمحة واحدة، وكان يتجلى ذلك وينعكس في خطبه وأحاديثه.

ذات يوم شرح الشيخ محمد يوسف الإيمان واليقين، وقطع الصلة بغير الله، والاستهانة بكل ما سواه بالألفاظ الآتية:

إن الخوف من القنبلة الذرية كخوف المشركين من الأصنام التي كانوا ينحتونها بأيديهم، فإن القنبلة الذرية ورقاب الذين يملكونها بيد الله، ولا يحدث بالقنبلة الذرية إلا ما أراد الله، كان فرعون يقول: ﴿وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ كَجَرَىٰ مِنْ تَحْتِي﴾، ولكن الله تعالى جعل هذه الأنهار سبباً لغرقه وهلاكه.

التغير الداخلي:

كان الشيخ محمد يوسف يعتقد أن إصلاح الأمة لا يتحقق بالتغير الخارجي، بل يتحقق ذلك بالتغير الداخلي، وأن الثروة المالية، والحضارة اللامعة والتأنق في المعيشة، والرفاحية في الحياة، والفصاحة في الكلام والرقعي المادي لا يأتي بالإصلاح، بل يجب على الأمة الإسلامية أن تغير ما بنفسها، وأن توطد علاقتها بالله تعالى.

يقول: إن النجاح والفوز، والخيبة والهزيمة لا تنطبق إلا على ما بداخل الإنسان ولا صلة للنجاح والخسران بالخرائط والمظاهر الخارجية، وإن ثروة الإنسان

الداخلية هي الإيمان وأعماله، فإذا صلح يقين الإنسان وأعماله الصادرة منه كتب الله له النجاح الداخلي، مهما تكن الأمور الظاهرة.

التصور الجامع للأمة:

كان الشيخ محمد يوسف لا يستحسن ولا يؤيد أي جماعة أو مجموعة أو طبقة خاصة، بل كان يؤمن بأمة واحدة، وكان لديه تصور جامع للأمة، وكان يريد أن تصبح هذه الأمة أمة دعوة، وأن تزول التفرقة التي حدثت فيها ولا تمكن إزالتها إلا بالإيمان الداخلي، والأعمال الصالحة، والاشتغال بالدعوة.

وألقي خطاباً في مسجد «رائي وند» وهو يتحدث إلى جمع غفير من الناس في رحلته الأخيرة لـ «باكستان»، وكان موضوع هذا الخطاب «تعريف الأمة والتصور الجامع لها ومميزاتها»، رغم انحراف صحته تكلم الشيخ بقوة، وصراحة ووضوح:

قال: صحتي ليست على ما يرام، لم أنم هذه الليلة بكاملها، ولكني أتكلم مضطراً للأهمية، من فهم هذا الكلام وعمل به، رفعه الله، وإلا فإنه لا يُهْلِكُ إلا نفسه.

أشار الشيخ إلى التشردم والتفرق في المسلمين، فقال:

تكونت هذه الأمة بعد مجاهدات وتضحيات جسيمة، وقد تحمل الرسول ﷺ وأصحابه الكرام أذى كثيراً في سبيل هذه الأمة، وحاول الأعداء من اليهود والنصارى دائماً أن لا يبقى المسلمون أمة واحدة، بل يتفرقوا ويتنافروا، وقد خسر المسلمون اليوم صفات الأمة الواحدة، وعندما كانوا أمة واحدة، كان بضعة آلاف منهم أثقل على الدنيا كلها.

وأوضح طريق تكوين أمة واحدة، وشرح وضع المسلمين وواقعهم بحزن عميق وحسرة زائدة.

«أصبحت هذه الأمة أمة واحدة، عندما نسي كل فرد من أفرادها ما هي أسرته؟ وما هي قبيلته؟ وما هو حزبه؟ وما هو شَعْبُهُ؟ وما هو وطنه؟ وما هي لغته؟ لا يؤثر ماله ولا ضيعته، ولا زوجه، ولا أولاده على مصلحة الأمة، وإنما كان معياره الوحيد

ما يقوله رسول الله ﷺ وما يأمر به، لا تتكون الأمة إلا إذا زالت جميع العلاقات والصلات والروابط التي تحول دون أحكام الله ورسوله، عندما كان المسلمون أمة واحدة، كانت تهتز وتضطرب إذا قتل مسلم في أي مكان، واليوم تقع المجازر يقتل فيها ألوف بل مئات الألوف من المسلمين ولكن لا يُحرَّك ساكناً.

إن السبب الرئيسي لدمار الأمة الإسلامية وهزيمتها في ميدان الحياة، هي العصبية القومية والإقليمية التي تكتسح العالم الإسلامي كله اليوم، والتي اقتبسوها من «أوروبا» خلال الاستعمار، ولذلك رغم انسلاخهم في سلك الكلمة يتحاربون ويتقاتلون».

ويبين الشيخ التصور الحقيقي للأمة بالكلمات الآتية :

«ليست الأمة عبارة عن مواطني بلد أو إقليم، بل إنها تتألف من مئات الأمم والأقاليم والشعوب، ومن يفضل قومياً أو إقليمياً، ويعتبر غيره أجنبياً يذبح هذه الأمة ويُسْتُثْنى شملها، ويمحو آثار ما جاهد في سبيله الرسول ﷺ وأصحابه البررة، إننا بتفريقنا وتمزيقنا للأمة ذبحنا أنفسنا، أما اليهود والنصارى فإنهم زادوا هذه الأمة المتفرقة تفرقاً وتمزقاً، فإذا تحول المسلمون الآن إلى أمة واحدة، فإنهم يستطيعون أن يصمدوا أمام العالم كله، ولا تستطيع قوة على وجه الأرض أن تقهرهم، أن القنبلة الذرية والصواريخ لا تستطيع أن تقضي عليهم، إذا تخلصوا من انتماءاتهم الوطنية والإقليمية، فإن هذه الانتماءات تمزقهم وتشتت شملهم، وإذا استمر هذا الوضع فإني أقسم بالله أن جيوشكم وأسلحتكم لا تنقذكم».

كان الشيخ يرى أن مجرد العبادات لا تصلح الأمة، بل يجب أن يقترن بها الأخلاق والسلوك والمعاملات، فهي عماد الفلاح والفوز ودعائم الازدهار والرقى لهذه الأمة، وكان الشيخ يعتقد اعتقاداً راسخاً أن الذين يكتفون بالتسبيح والكلمة والصلاة لا يحملون التصور الصحيح للدين، إنه يقول :

«لا تتكون الأمة بمجرد الكلمة والتسبيح، إنها تتكون بالمحبة والأخوة وإصلاح المجتمع، وتأدية الحقوق، وإكرام الجميع، وخدمة الخلق، والإيثار والمواساة، وتتكون عندما يستعد المسلم للتضحية في صالح غيره.

إن الرسول ﷺ، وأبا بكر الصديق، وعمر الفاروق - رضي الله عنهما - ضحوا بكل ما كان لهم، وتحملوا الشدائد، فأتت هذه الأمة بفضل جهودهم وتضحياتهم إلى الوجود».

وكان الشيخ يعتبر اللسان في هذا الصدد مسؤولاً إلى حد كبير عن صيانة المجتمع، فكان يؤكد على حفظه، ويبين مسؤولية اللسان في الوصل والقطع والبناء والهدم للحياة الاجتماعية، قال الشيخ محمد يوسف:

«إن اللسان عنصر كبير، بل أكبر في تكوين الأمة وإفسادها، ووصلها وقطعها، فإن اللسان يؤلف القلوب، واللسان ينفرها أيضاً، فإن اللسان إذا خرج منه كلام فساد، يؤدي إلى الحرب والقتال، وإذا صدر منه كلام صلاح وخير، ألف القلوب، وجمع النفوس المشمثة، ولذلك تجب السيطرة على اللسان وحفظه، ولا يتحقق ذلك إلا إذا استحضر الإنسان المسؤولية عند الله، وإن كل ما يتقو به مكتوب عند الله، ويحاسب عليه».

وقد بلغ اهتمام الشيخ بهذا الأمر أنه كان يعتبر التناجي والتهاجس خطراً على المجتمع، فقال مرة:

«أيها الإخوة والأصدقاء، إن الله ورسوله قد منعنا بشدة من الخوض في أمور تؤدي إلى التناحر والخصام، وإن الجلوس في مجموعات صغيرة، والتناجي بين الجالسين يثير الشكوك والشبهات في القلوب، ويهيئ للشيطان فرصة للإغواء، وقد منع المسلمون من ذلك فقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِصَارِهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، كذلك منع المسلمون من الهمز واللمز والسخرية: ﴿لَا يَخْرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ﴾، وكذلك منع من التجسس والغيبة: ﴿وَلَا يَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾، وأن هذا التجسس والسخرية والغيبة، والهمز واللمز أمور تفرق الأمة، وترفع عنها صفة التآلف».

وكان علاج جميع هذه الأمور عند الشيخ، اتباع سنة الرسول ﷺ والاجتهاد في سبيله، فقال في حماس وعاطفة:

«إن علاج هذه المفسد هو الاشتغال بجهد محمد ﷺ، فعليكم أن تجمعوا المسلمين في المساجد ليجددوا إيمانهم، ويشغلوا بتعلم تعاليمه، ويجري بينهم التشاور في أمور الدين، ويمتزج رجال طبقات مختلفة، وأسر متعددة، ولغات شتى، وثقافات متنوعة، في أداء هذه الأعمال على طريقة المسجد النبوي».

وصرح مرة بحماس وجلال:

«إن العزة والذلة ليست في مخططات ومناهج «روسيا» و «أمريكا»، بل في يد الله، ولها أصول وضوابط، فمن يأت بعمل العزة والرفعة رفعه الله، ومن جاء بعمل يهدم هدمه الله، فإن اليهود هم أولياء الأنبياء، لكنهم خالفوا تعاليمهم فأخزاهم الله، وكان أصحاب الرسول ﷺ في أولاد عابدي الأصنام لكنهم اختاروا أعمال الخير، فرفعهم الله وأعزهم، وإن الله لا ينظر إلى الأنساب وإنما ينظر إلى الأعمال».

الطريق إلى إحياء الأمة:

كان الشيخ محمد يوسف يعتقد أن الطريق الوحيد لرقى الإسلام وازدهاره هو الاجتهاد والسعي على منهاج الرسول ﷺ، والتضحية في سبيله، وكان يعارض بقوة، الرأي القائل: إن الازدهار يحتاج إلى المال، والحصول على السلطة والوصول إلى كراسي الحكم، وكان يقول إن هذه الدولة والقوة والثروة والحضارة كانت سبب الانحطاط والانهيال للإسلام، واستخدمت هذه الوسائل لمكافحة الإسلام، إنه كان يعتقد أن هذه الأمور كلها ثمرة ومكافأة حقيرة للدعوة الإسلامية، فإن البلدان التي يتولى المسلمون الحكم فيها، ويتمتع المسلمون فيها بوسائل الثروة والقوة والنفوذ، يعاني فيها الإسلام ما يعانيه، ويجري فيها تشذيب الإسلام وتهذيبه باسم الإصلاح وهو ما لا يخفى على أحد، يقول:

«من الخطأ القول أن الحكم إذا حصل يزدهر الإسلام، فإن الحكم والمال اليوم يثدان الإسلام، والذين يتولون الحكم اليوم، وفي أيديهم الوسائل المادية الوافرة لا يمثلون أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، ولا يرجى منهم أي خير للإسلام، ولم يزدهر الإسلام إلا بالتضحيات، ولا يزدهر الإسلام اليوم إلا بهذا الطريق، فإذا بذلت

تضحيات للإسلام فإنه يزدهر وسط الأعداء، وإذا لم تبذل التضحيات، انمحي أثره وإن كان للمسلمين صولة وجولة».

ويقول في موضع آخر:

«إن رسالة الأنبياء وتجربتهم هي أن جل المسائل والنجاح لا يكمن في المال، ولا في الحكومة، ولا في الأغلبية، بل إنه منوط بأمر الله، والاعتصام به، والتضحية والفداء في سبيله، وقد قص القرآن الكريم منهج الأنبياء، وما عانوا في سبيله، وعصارة جميع هذه القصص هي المجاهدة والتضحية، فإن قصة نوح عليه السلام وقومه، وإبراهيم عليه السلام وقومه، وقصة نمرود، وقصة موسى عليه السلام وفرعون وقارون، تدل على أن الأغلبية والدولة لا قيمة لها، والشيء الحقيقي هو حكم الله ونصرته، وإنه لعباده الصالحين الذين يجتهدون ويجاهدون في سبيله».

قال في خطبة له في رحلته الأخيرة لـ «باكستان»:

«يحسب الإنسان أن الحقول والحدائق هي التي تقوم بها الحياة، ولكن الله تعالى أهلك قوم سبأ رغم كثرة بساينها وحدائقها، وربى إسماعيل عليه السلام في واد غير ذي زرع، إن العالم اليوم يؤمن بالجيش وقوة السلاح، ولكن الله أهلك أبرهة مع جيشه الجبار بالطيور الصغيرة، وكذلك تنفي المعجزات يقين الناس بالظواهر».

الأعمال والأخلاق بدلاً من الذات والشخصية:

كان الشيخ محمد يوسف يعتقد أن الذات والشخصية لا دخل لها في الصلاح والفلاح والرفق والازدهار، والتقدم والاستيلاء، إنما يقوم الصلاح والفلاح على مقياس الأعمال والأخلاق، فإن رجلاً يتصف بالأعمال والأخلاق يستحق نصرة الله، وإن كان منحطاً مادياً، ولا قيمة له في الدنيا، ويصل هذا الإنسان إلى أعلى مستويات النجاح والازدهار، وإذا كان رجلاً غنياً بالمال والثروة والعزة والكرامة والقوة والسلطة لكنه منحط خلقياً وعملياً، فهو رجل منحط سافل يحل به غضب الله وسخطه، لا يغنيه ماله ومتاعه وسلطته ونفوذه شيئاً.

يقول:

«لا تأتي نصره الله على أساس الشخصيات، بل تأتي على أساس الأوصاف والأعمال والأخلاق، وقد نصر الله رسوله، ونصر أصحابه والأولياء الآخرين وأنعم عليهم، ونصرهم على أساس أعمالهم وجهودهم وتضحياتهم في سبيل الله ومساعدتهم في سبيل الله لا على أساس شخصياتهم، وكذلك اليوم إذا تصدى أحد بأعماله وتضحياته وجهوده المخلصة لدين الله، فإنه سيستحق نصره الله، يشاهد ذلك بعينه».

وكان المقصود من الأعمال لدى الشيخ محمد يوسف أوامر الله، وأعمال رسول الله ﷺ، وأن هذه الأعمال منوطة بعلم النبوة واليقين، لا تتأتى إلا في ضوء هذه التعاليم النبوية، وكذلك الأخلاق لا يهتدي إليها الإنسان إلا عن طريق الأعمال الصالحة والعبادة، ولا تصلح الأخلاق إلا الأخلاق التي تقوم على الإخلاص وحسن النية، وإلا فلا قيمة لها ولا تأثير، بل هذه الأعمال المجردة عن الإخلاص تأتي بالوبال.

يقول المفتي محمد زين العابدين:

«كان كل قول من أقوال الشيخ يبعث على اليقين، بأنه لا فوز في الدنيا والآخرة إلا بالأعمال الصالحة التي تصدر بالإخلاص، ومهما احتشدت الوسائل والأسباب الدنيوية للفوز والكمال، من الحكومة والتجارة والزراعة والصناعة والعلم والسلطة لا تجلب النصر، إلا إذا تسربت فيها روح أعمال الرسول ﷺ، وكان يقول: إن الذين يخوضون في أمور الكون بدون الإيمان بالله كخالق الكون والرسول ﷺ كروح الكون هم بمثابة اللصوص وقطاع الطريق، إنهم يستطيعون أن يحصلوا على المال والثروة، لكنهم لا يستطيعون أن يكسبوا الطمأنينة والحب في أي حال من الأحوال».

الإخلاص ورضوان الله:

كان الشيخ محمد يوسف يرى أن الإخلاص هو روح الأعمال الصالحة، وأن العمل بدون الإخلاص كجسد بلا روح، وصورة بدون حقيقة.

وبيين الشيخ الفرق بين الإخلاص وحب الذات بأسلوب ممتع بديع، وتدل على ذلك أقواله الآتية، وهي مأخوذة من بيانه الذي ألقاه قبل يومين من وفاته:

«كل عمل لا يُتَوَّى فيه حصول رضا الله عمل نفساني، مثل إنماء المال، حصول الغلبة، كسب الشهرة، الوصول إلى المنصب، فرض السيطرة، تنفيذ حكمه، إخضاع الناس لرأيه، فالعمل لهذه الأغراض عمل دنيوي لا إخلاص فيه وليس فيه رضا الله، وحتى أن المخلصين كانوا لا يعملون للحصول على ما وعد الله من جزاء، لأن الموعود موعود، ولكن ليس بمقصود، الذين يعملون للحصول على الموعود، ويجعلون مقصوداً، فإنهم يتورطون في الموعود ويصرفون عن المقصود، والذين يعملون لمجرد الحصول على رضا الله، ويعتبرون رضاه مقصوداً لهم، يصدق عليهم ما وعده الله، وتحصل لهم نعم الله الدنيوية من المال والملك، وإذا حصلت لهم هذه الوسائل المادية فإنهم لا ينفقونها على أنفسهم، بل ينفقونها على نشر الدين، وعلى خلق الله، ابتغاء رضوان الله، وهكذا فعل الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين».

قوة العلم النبوي والأعمال النبوية:

كان الشيخ محمد يوسف يعتقد أن أعمال الرسول ﷺ تستطيع أن تحدث الانقلاب في العالم، وإذا أنجزت هذه الأعمال في ضوء العلم النبوي، فإن جميع خرائط العالم التي تصطدم بها تنمحي، ويعفو أثرها، وقال وهو يشرح هذه النقطة:

«جعل الله تعالى الأعمال الصادرة من الرسول ﷺ أقوى من القنبلة الذرية، وجعل كل عمل منها وسيلة للانقلاب في العالم، فصلاة الاستسقاء وسيلة لإحداث التغيير في أحوال الأرض، وصلاة الكسوف والخسوف وسيلة لإحداث التغيير في أحوال الشمس والقمر، والدعاء وصلاة الحاجة وسيلة لتغيير كل ما لا يوافق الحياة الفردية والاجتماعية، وأن إشارة الرسول ﷺ بأصبعه شقت القمر، وكان ذلك لإثبات أن عمل الرسول ﷺ له تأثير وقوة لا تقهر، وكانت هذه الإشارة النبوية عملاً تكوينياً، أما عمله التشريعي فهو أقوى وأكثر تأثيراً».

ويتصور عمل الصلاة أعمال الرسول ﷺ، وتأتي الصلاة في الأمور العملية لليقين والإيمان، ووردت أهميتها في القرآن والحديث أكثر من غيرها من الأعمال. وكان الشيخ يؤكد عليها في الأعمال تأكيداً، أن الناس يظنون أنه يدعو إلى الكلمة والصلاة فحسب، وإن حركته لا تهدف إلى شيء سواه، ولأن هذين الأمرين الكلمة والصلاة، يحتلان مكانة أساسية، لذلك كان يصرف اهتمامه الأقصى إليها، كان يقول عن الصلاة:

«إن الصلاة هي مجموعة لأعمال النبوة، وقد أمر بترك جميع الأعمال الكونية والانصراف إلى المسجد وتأديتها فيه، ولم يؤمر في الصلاة بترك الأعمال الكونية فحسب، بل منع من أن يخطر ذلك ببال المصلي وأمر بالانصراف الكامل عن سائر الأعمال الدنيوية».

المجتمع الإسلامي والمجتمع الجاهلي:

هناك مجتمعان، مجتمع أنشأه الرسول ﷺ، ومجتمع آخر يقوم على الأفكار الجاهلية، ينشؤها اليهود والنصارى، واليوم يعم المجتمع الذي يقوم على أفكار اليهود والنصارى، وقد غلبت هذه الأفكار على المجتمع الإسلامي وتغلغلت فيه، وقد كان الشيخ محمد يوسف مرهف الحس، وغيوراً في مسألة الثقافة، وكان يبين الفارق بين الثقافتين الإسلامية والوافدة، ويتنقد الثقافة المغايرة للإسلام انتقاداً شديداً، فقال مرة في غاية من الحماس والثقة والقوة:

«إن الثقافة المأخوذة في حياة الرسول ﷺ تقوم على الطهر والعفاف والبساطة والسذاجة، وتقوم الثقافة التي استنبطت من اليهود والنصارى على المجون والعربة، والخلاعة والآثام، والتنعم والترف، لقد آثرتم ثقافة من أراقوا دماء أسلافكم، ونهبوا ثرواتكم، وأحرقوا مساجدكم، وانتهكوا الأعراض، واستباحوا الحرمات، وأثاروا الشهوات، وقاموا بتعرية النساء، وسلبوا دولتكم وأذلوكم وقهروكم، ولا يزالون يذلونكم، ويدوسون كرامتكم بتقديم معوناتهم المالية كما تربون الدجاج لذبحها، وتتركون ثقافة من ضحى بنفسه من أجلكم، وكسرت أسنانه واستشهد عمه حمزة في سبيله، وسهروا الليالي من أجل هذا الدين، ولا تعجبكم ثقافته، أيها الإخوة، إن

رسول الله ﷺ أسوة لكم وقدوة إلى يوم القيامة فإن نبوته إلى يوم القيامة، فعندما يدخل نور الإيمان في قلوبكم تعجبكم حياته ﷺ وسلوكه، وتتمسكون بكل جزء وجانب منه.

فضيلة العلم والعلماء :

كان للعلم لدى الشيخ محمد يوسف مكانة قصوى، وتخيل العلم المبادئ الأساسية لحركة الدعوة والتبليغ إلا أنه كان يعني بالعلم، العلم الذي يحدث الإيمان واليقين في القلوب، وكان يعتبر هذا العلم العلم النافع، وكان يفضلّه ويؤثره على غيره، وكان يدعو إلى جمع العلم والعمل، والاقتران بينهما، وكان يؤكد على مدرسة عملية واسعة متحركة، يكون فيها كل شخص طالباً ومعلماً في وقت واحد، يتعلم ويعلم، يأخذ ويدفع، وكان يتصور نفوساً ذكية يهتدي بسلوكها وصحبها، وتتخذ منها مبادئ الدين ونظرياته ومناهجه وتحصل الملكة والذوق بدلاً من أخذ ما سجل في الكتب، وما دُوّن فيها من علوم ومعارف تؤثر في العقل، وكان يرى أن هذا النوع من التعليم العملي كان سائداً في «الهند» في العهد الأول، وكان أصحاب الرسول ﷺ تعلموا في هذه المدرسة العملية، وأخذوا منها الدين.

كان الشيخ محمد يوسف يدعو إلى بذل النفس، والمال والكد والجهد للوصول إلى هذه الطريقة، فصرح في كلمة ألقاها في حفل ختم «الصحيح» للبخاري في إحدى المدارس الدينية:

«أيها الإخوة، ختمتم «الصحيح» للبخاري، وحصلتم على ما فيه من العلم، وعليكم الآن أن تجتهدوا على هذا العلم للأهداف الثلاثة:

١ - إيجاد اليقين في نفوسكم حسب هذا العلم.

٢ - العمل طبقاً لهذا العلم.

٣ - نشر هذا العلم والعمل به في العالم كله.

وقد بذل الجهد على العلم الذي جاء به محمد ﷺ للأهداف الثلاثة المذكورة في العصر الأول، فتغيرت خريطة العالم، واندثرت قوى الروم والفرس، وأصبحت حديث الماضي، وفي الزمن الأخير يتظاهر الدجال بقوته وسطوته، لا تقدر القوى

الموجودة في العالم على مواجهتها، ولا تحمل أي وزن أمامها، فيظهر المهدي عليه السلام من الأرض، وينزل عيسى عليه السلام من السماء، وكلاهما يتبع طريقة محمد ﷺ، اتباعاً كاملاً، لا يحيد عنها قيد شعرة، ويجتهد ويجاهد حسب هذا العلم، فيهلك الله تعالى الدجال، ويقضي عليه، فإذا حدث ذلك الماضي وهو حقيقة لا تنكر، وسيحدث في المستقبل، وهو أمر حتمي، فكيف لا يمكن أن يحدث ذلك بين العصرين، فإن الجهد حسب هذا العلم يستطيع أن يحقق اليوم ما حققه بالأمس.

كان الشيخ محمد يوسف يوقر كل علم مهما كان نوعه، حتى العلوم الابتدائية التي لا تنال أهمية من أهل العلم، كان الشيخ يهتم ويعتني بها، وكان يرى أن كل علم من علوم الدين سواء كان بدائياً أم نهائياً جزء من علم النبوة، فيجب تقديره وعدم الاستهانة به، وقال مرة يخاطب العلماء في حلقة التعليم:

«لا نريد أن يشغل أساتذة البخاري بتدريس التحيات، ولكني أريد أن يهتم أساتذة البخاري بتحفيظ التحيات، وينظروا إلى هذا العمل نظرة تقدير واحترام؛ لأنه هو أيضاً علم من علوم النبوة، ومن استهان بهذا العمل وازدراه خاب وخسر، وكذلك نريد أن يجري هذا العمل التعليمي تحت إشراف وتوجيه أساتذة البخاري».

وكتب رسالة إلى عالم من علماء الدين:

«لقد أكرمكم الله بفضله ونعمته، وجعلكم مصدر العلوم النورانية والروحانية وداعياً إلى حمل الأمانة النبوية العظمى، فإذا نزلت هذه الجماعة المباركة من أهل العلم بتوجيهاتكم ودعواتكم من أعالي العلم والمعرفة للإسلام في هذا السعي المبارك لنشر الدين وتعليمه، وعبرت هذا الوادي الشاق لأيام عديدة بجانب اشتغالها بالعلم العالي، وضحت في سبيله بعض الوقت والنفس، فإن هذه الأمانة ستنتقل إلى الأكفاء وازدهرت وارتقت، وأمكن صيانتها من الأخطار التي يخشى أن يصيبها لحمل غير الأكفاء لها. اعلّموا جيداً، أننا في حاجة إلى أكابر العلماء، في كل وقت وفي كل مرحلة ولا مناص من توجيههم وإشرافهم، والارتباط بهم يضمن سعادتنا، إنهم حملة العلوم النبوية وأهل المكارم والفضائل الكثيرة، وتقديرهم تقدير العلوم النبوية، وعلى

مدى تقديرنا لهم واقتباسنا من توجيهاتهم بحضور مجالسهم، واعتبار هذا الحضور والاستفادة منهم عبادة، وعلى مدى استنارتنا بنصائحهم متنور بأنوار العلوم النبوية.

تغيير النظام بكامله :

كل من درس دعوة الشيخ محمد يوسف وحركته دراسة عميقة واستمع إلى خطبه، وقرأ رسائله باهتمام وتركيز يعرف جيداً أن الشيخ لم يكن داعياً إلى جزء واحد، أو شعبة واحدة من شعب الدين وأجزائه، بل إنه كان يريد تغيير النظام بكامله، وإحداث الانقلاب الكامل في المجتمع، لكنه كان لا يريد إحداث هذا الانقلاب الصالح على منهج الحركات المعاصرة، بل كان يريد تغيير النفوس والأذهان بالطريقة المحمدية، وكان يريد أن يصبح المسلمون متبعين اتباعاً كاملاً للإسلام، وإن الذين يظنون أن الشيخ قضى حياته كلها في تعليم بعض الأركان للإسلام والدعوة إليها هم في الواقع يظلمونه وهم مقصرون في فهمه.

يروى الشيخ نسيم أحمد الفريدي الذي زار الشيخ عدة مرات وقضى فترة في مجالسه وسمع كلامه عن كتب هذه الكلمات التي أدلى بها الشيخ في إحدى المناسبات:

«لقد زالت اليوم الفروق بين الخير والشر، فلا يميز بينهما، فلو قمنا بهذا الواجب، وهو أن يوجد في النفوس الشعور بما هو خير وبما هو شر، وتبدأ هذه الأمة المسلمة التمييز بينهما لكان ذلك عملاً جليلاً، وإن نظام الصلاة والزكاة، والاهتمام بمسائل الصوم في رمضان، وفريضة الحج، وتكميل آدابها وسائر المسائل الخلقية والاجتماعية وإصلاحها تأتي في الدرجة الثانية، ومرحلتها بعد هذه المرحلة.

بعد التأكيد على التمييز بين الخير والشر يؤكد على الأحكام الآلهية الأخرى سواء كانت تتعلق بالتجارة أو الزراعة، أو الأخلاق والسلوك، أو العبادة والرياضة. وكان الشيخ يدعو أيضاً إلى إصلاح النظم المضادة للسوق والمسجد، فكان يقول:

«إنني أريد أن يصلح النظام من السوق إلى المسجد، ومن المسجد إلى بيت الله»، ويوضح هذه الفكرة مزيداً فيقول في رسالة له إلى رؤساء قبائل الميوات:

«كل عمل من أعمال المسلمين دين، بشرط أن تكون تصنعه بصنعة الأحكام والآداب المنزلّة من الله تعالى، أكلنا وشربنا، نومنا ويقظتنا، كلامنا وصمتنا، اختلاطنا بالزوجة والجلوس إلى الأولاد، معيشتنا كلها ترقى بنا وتقربنا إلى الله وتكسب رضاه وتحقق وعده، إذا كنا بهذه الأعمال مؤمنين بأن الله هو الحاضر والناظر والسميع والعليم غير متبعين أهواءنا، بل ممثلين لأوامر الله بالنظام والترتيب الذي قرره لنا ديننا الحنيف، وقضينا الليل والنهار تبعاً لحياة الرسول ﷺ».

ويقول في نفس الرسالة:

«إن بيتنا وتجارتنا، وزراعتنا وصناعتنا، وزوجتنا وأولادنا، كلهم يبعدوننا اليوم عن الله فضلاً عن تقربنا إليه، ويتصاعد هذا الاتجاه كل يوم».

الجهد الفردي والاجتماعي:

كان الشيخ محمد يوسف يرى أن جميع المسائل والمشاكل التي يواجهها المسلمون اليوم، والقضايا التي تعترض في سبيل الأمة الإسلامية كلها تتطلب منا جهداً اجتماعياً وسعيّاً اجتماعياً، ولا يحل هذه القضايا الجهد الفردي، والذي يسعون إلى معالجتها بالجهد الفردي أو بالأعمال الفردية فإنهم يجهلون طبيعة هذه الأمة، فلا يستطيعون حل أي مشكلة، فإن الجهد الفردي يوزع القوة، ويلحق بالأمة الضرر، ولا ينفعها، مثلاً إذا كان شخص يصلي، ولكن لا يهجمه إذا كان غيره لا يصلي، ولا يسعى إلى أن يصلي هو، كذلك يصوم رجل، ويطمئن بصومه، ويقتنع، ويعيش بدون مبالاة واهتمام بغيره هل يصوم أم لا ويقضي حياته منفصلاً عن عامة الناس، فإن عمله لا يجديه ولا يجدي أمته.

يقول الشيخ وهو يؤكد على الجهد الاجتماعي:

«أيها الإخوة والأحبة، من المؤسف للغاية، أن أذهاننا لسوء أعمالنا أصبحت فردية، ليس في أمور الدين فحسب بل في أمور الدنيا كلها، وأصبح من عادتنا أن لا نفكر إلا في أنفسنا ومصالحنا مهما يكن حال الدين والدنيا، يصلح أمرنا وكفى، والواقع أن صلاح الأحوال الشخصية، والسعي له لا يردع المصائب والبلايا، بل

يزيدها، وما دامت حياتنا الاجتماعية غير صالحة لا تصلح الأحوال الشخصية، والواقع أن كل مسألة وكل مشكلة يقف صلاحها وفسادها على الموقف الاجتماعي، ولها صلة بالحياة الاجتماعية، فإذا صرف نخبة من الناس أو جماعة منهم جهودهم لإصلاح مسألة اجتماعية صلحت سائر المسائل الاجتماعية والفردية، فإذا لم تتوفر نفوس عديدة لهذا الهمّ الاجتماعي لحل المشاكل الاجتماعية تفسد سائر الأعمال الاجتماعية والفردية، ولا يبقى سوى النوم واليأس ولا ينفع الندم».

كان رأي الشيخ في هذه المسألة رأياً مصاباً، فما كان يرضى بأي حال من الأحوال بالعمل الفردي، فكان يندد بالفردية التي تجرح الاجتماعية بلهجة شديدة، يقول في خطاب له:

«في حالة فساد المسألة الاجتماعية إذا اجتمع أولياء الله تعالى وتضرعوا إلى الله، وأرسلوا الدموع من عيونهم لإصلاح الظروف لما أصلحت هذه الأدعية الظروف الاجتماعية». ويقول:

«ورد في الحديث الشريف أن الناس يتمنون لدى مرورهم بالقبور ليتهم كانوا في هذه القبور، يأكل الإنسان الإنسان الآخر، ويحدث ذلك عندما يتحول الإنسان حيواناً ضارياً، لا يهتم إلا بنفسه، فتصبح كالأنعام. إن المسألة الحقيقية اليوم هي أن الإنسان لا يضحي ولا يكذب ويجتهد إلا لنفسه فيشتغل بالتجارة والزراعة إلى آخر حد ولا يهتم شيء آخر، فلا تصلح الأمور بالاهتمام الذاتي ومعالجة مسائل الذات، فإن مصرّف الأمور هو الله، وهو الذي يصلح وهو الذي يحبه».

جهة القوة الاجتماعية:

تنصرف اليوم القوى المنحرفة عن سبيل الله لمعالجة المسائل الاجتماعية التي لا صلة لها بالله، فيزداد الفساد والاضطراب، وإن العالم اليوم يقف على حافة الانحلال الخلقي، والإلحاد، والدمار، والمصائب المتعاقبة، وفقد الضمير والحياء، وتنصرف القوى المكثفة الجبارة للوصول إلى الرقي والتقدم المادي، ولكن هذا الرقي يؤدي بدوره إلى الانحطاط والزوال.

كان الشيخ عندما ينتقد هذا الاتجاه المادي، وطريق معالجة المسائل بالوسائل المادية، يقدم حلاً للأزمة، فيقول:

«إن الأمر الذي يريد الله أن تصرف فيه القوى هو الذي يصلح الأمور، ولكن الأمور التي يشتغل بها الإنسان بنفسه، ويصرف لها طاقاته، فهذه الأمور تفسد المسائل وتزيدها تدهوراً واضطراباً، سواء كانت هذه المسائل فردية أم كانت اجتماعية، فإذا صرفت القوى على الخلق نزل سخط الله وغضبه فيصبح الأصدقاء أعداء والمتحابون متخاصمين، يقتل بعضهم بعضاً».

ويقول في موضع:

«كل شيء من الأرض إلى السماء، إما هو موجود، وإما هو آت، جميع هذه الأمور بيد الله، فيجب أن يصرف كل جهد للحصول من الله وحده، فإذا كان الخوف يجب أن يلجأ إلى الله، فإذا أزال الله هذا الخوف، زال من غير رجعة وإذا طلب شيء من غير الله لا يحصل إلا بأمر الله، إلا أن الشيء الذي يحصل باستعانة من غير الله، بواسطة خلقه، لا يدوم بل يفنى ويتحسر الإنسان في عاقبة أمره إذا حصل على شيء».

وقال في موضع وهو يتحدث في اجتماع:

«إن السبب الوحيد للفساد أن الاعتقاد الخاطيء للأخذ من خلق الله والسعي في سبيله، وتحمل الشدائد من أجله، قد سرى فينا وتغلب على عقولنا، واستولى على مشاعرنا وأحاسيسنا بدلاً من تصور الأخذ من الله، والتضحية في سبيل أحكام الله، وصار ذلك طبيعتنا وسيرتنا، وإن الخضوع لأحكام الله وبذل النفس في سبيله يحدث اليقين في نصرة الله، ويمدى تغلغل هذا اليقين في النفوس تفتح الأبواب من الغيب، فإذا ازداد عدد الساعين لدين الله، والمجاهدين في سبيله، ورسخ اليقين أن المرغوبات والمكروهات كلها من الله وجب التضرع إليه، ويسهل تحمل كل مكروه في سبيله، وعندئذ تصلح أحوالنا الفردية والاجتماعية كلها، وتحل مشاكلنا».

عمل الدعوة يختلف عن الأعمال الأخرى:

كان الشيخ محمد يوسف يرى أن سائر المسائل الاجتماعية كانت أم انفرادية، تعمل بترسيخ اليقين في ذات الله تعالى، والإيمان به، وإقامة الصلة به في الخلوة والجلوة، والعمل بسنة رسول الله ﷺ من العبادات إلى المعاملات والسلوك والأخلاق، وأن يكون داعياً إلى هذه الأعمال، وكان يجري عمل الدعوة اجتماعياً، ويعم في العالم، وأن تتفرغ له مجموعة من الناس لا تهمها إلا الدعوة، ولا يشغلها إلا السعي لها، وقال في هذا الصدد مرة:

«إن الشيطان يتابعكم، ولا نجاة منه إلا أن تتفرغ فيكم مجموعة تنشر الخير وتأمّر بالمعروف وتدعو إلى الأعمال الصالحة، وتنهى عن المنكر، وتمنع عن الفحشاء: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾». «

الطريق الصحيح للجهد:

لا ينقص اليوم الجهد، كل شخص يبذل الجهد، فمنهم من يجتهد اجتهداً محدوداً، ومنهم من يجتهد اجتهداً أشد، ولكن جميع هذه المساعي محدودة ومقصورة لا تهدف إلا إلى مصلحة فردية ضيقة، ككسب المال، ووسائل الراحة البدنية، فتضيع هذه المساعي كلها في رأي الشيخ وتحبط ولا تغني الإنسان، فإن السعي الحقيقي لديه هو السعي الذي يغير نفس الإنسان وباطنه، ولا يصلح الظاهر فقط، ويبين الشيخ الفرق بين هذين النوعين للسعي.

«يشيع اليوم في هذا العالم السعي على الأشياء للحصول على أشياء، فيجتهد الفلاحون في مزارعهم للحصول على الحبوب الغذائية، فيركزون جهدهم على الزراعة، ورجال التجارة والصناعة يبذلون جهدهم على البضائع التجارية والمصنوعات، وهذا الجهد هو الجهد الشائع اليوم، والطريق الآخر هو السعي للتقوى والجهد له، وهذا هو السعي الذي يكسب للإنسان كل ما يحتاج إليه من المال والمتاع، ويحقق له النجاح والفوز والخير والبركة في الدنيا والآخرة، يقول القرآن

الكريم: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾، وقال في موضع: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾.

وقال في موضع آخر:

«شاع في العالم اليوم الجهد للمال، وللأشياء المادية فقط، وقد نسي الناس التقوى وإقامة الصلة بالله على أساس اليقين والإيمان، والأخذ من فضل الله تعالى، والواقع أن هذا الطريق هو الطريق الذي ندعو له في كل ركعة في الصلاة».

وأوضح هذا الأمر في مناسبة أخرى بكلمات أوضح:

«إن هناك مجالين للسعي، السعي للأرض وأعمال الأرض، والثاني السعي للإيمان وأعمال الإيمان، وجزاء السعي الأول وأجره يحصل في الدنيا، ولكنه أجر لا يرضي أحداً ولا يغني، وجزاء السعي الثاني وأجره في الآخرة والدنيا جزاء موفوراً».

وقال في موضع آخر، وهو أكثر وضوحاً وشرحاً للنقطة السابقة:

«إنه طريق سائر أنبياء الله ورسله، والمتبعين لهم من عباد الله الصالحين، وعلى عكسه الذين حرموا هداية الله، وحلّ بهم غضب الله، طريقهم أنهم لا يبالون باليقين بذات الله وصفاته، ولا يجتهدون إلاّ للأموال المادية، ويسعون إليها غير مباليين بالعبادة له والاستعانة به».

جدوى السعي:

إن جهد الأنبياء لم يكن للنفع الذاتي، ولا للرفقي المادي، ولا للمصلحة الشخصية بل كان هدفه هداية الإنسانية عامة، وينبغي أن يكون ذلك هدف سائر المجتهدين في هذا الطريق إلى يوم القيامة، وبهذا الطريق يأتي نصر الله ونفتح الطرق إلى الإمام، وقال الشيخ:

«إن غاية هذا الجهد أن يحصل للمجاهدين في سبيله وأفراد الإنسانية الآخرين الهداية، ويسير الإنسان على جادة الدين بتوفيق الله ورحمته، وبارتفاع مستوى الجهد تتوسع هداية الله ونعمه، وعندما ينكمش هذا الجهد تنكمش الهداية، وتخرج الهداية

أولاً من التجارة والسلوك، وذلك بطريق العمل في التجارة والسلوك حسب عُرف الآخرين ومنهجهم وعدم رعاية آداب الدين فيها، ثم تخرج الفرائض من الحياة، وتبدأ المعاصي الأخرى وتدخل فيها، إلى أن يخرج المسلمون كلياً من الدين، وإذا بذل الجهد على طريق الأنبياء، تدخل الهداية وتنشر وتعم بمدى انتشار هذا النوع من الجهد وارتقائه.

مستوى الجهد ونتائجه :

تظهر نتائج الجهد الديني بقدر هذا الجهد، فإذا بذل الجهد ليكون من لا يصلي مصلياً يبدو أثر هذا الجهد في شكل الصلاة، وجعل الناس يهتمون بالصلاة إلا أنهم لا يهتمون بأمور دينية أخرى، وإذا بذل الجهد للحج، ازداد عدد الحجاج إلا أن الاهتمام بالصلاة والزكاة لا يعم، وإذا بذل الجهد للاهتمام بالعبادة والذكر والتلاوة، عمَّ هذا الهم في الناس، ويبدأون الاهتمام بالعبادة والذكر والتلاوة، ويتزهد الناس، ويحيون الليالي إلا أن سلوكهم وأخلاقهم لا تكون حسب التعاليم الدينية، وكان الشيخ لا يدعو إلى الجهد الجزئي والنصفي، بل كان يؤكد على الجهد الذي يشمل جميع مجالات الحياة، وعلى اتباع أحكام الدين في سائر شعب الحياة، ﴿أَدْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً﴾، وكان الشيخ يقول: لم يأت بعد عهد تظهر فيه نتائج هذا الجهد الأوسع، فقال مرة:

«قدر الله تعالى الهداية بقدر المجتهدين لها، فالأماكن التي قبلت هذه الدعوة كتب لها الهداية بقدر قبولها، وبدأ الدين يهب ويزدهر، فالمناطق التي كان الناس لا يصلون فيها بدأ الناس يصلون، والأماكن التي كان الناس لا يصومون فيها، بدأ عدد من المسلمين يصومون، والأماكن التي كان الناس لا يحجون فيها بدأ بعض الناس يحجون، والأماكن التي كانت تجهل تعاليم الدين، بدأت حلقات التعليم تقام فيها وانتشر نور العلم، وتبدد ظلام الجهل، ولكنها لم تنل بعد الهداية الكاملة كما يجب، مثلاً رعاية أحكام الدين في كسب الرزق والأكل والشرب، والشؤون المنزلية والأمور الإدارية، والمعاملات والتجارة والزراعة لا تتم، ولا يختار طريق الرسول ﷺ ولا يقتدي به، فنحن معشر المسلمين في حاجة اليوم إلى أن نرفع مستوى

جهدنا ليعمّ تعاليم الإسلام في سائر شؤون حياتنا، وتصل هداية الإسلام إلى غير المسلمين أيضاً بهذا الطريق».

كان ذلك بغية الشيخ وهدفه الذي كان يسعى إليه طول حياته، ويوجه الدعوة إليه ويركز اهتمامه على هذا الجانب، كانت هداية العالم كله نصب عينيه، ولأجل ذلك كان يؤكد على بذل جهد عالمي، فقال مرة في بيان له:

«إن خطة الجهد الحقيقي للإيمان هي أن يوجد جوّ يستعد فيه كل رجل لامثال كل ما يؤمر به، فإذا طلب منه أن يتوجه إلى منطقة، يترك جميع أشغاله ويتوجه في سبيل الله إلى حيث يؤمر به، وإذا جاء رجال من الخارج إلى موطنه لتعلم الدين، يرتبط بهم، ويقضي معهم وقتاً، ويساعدهم في القيام بأعمالهم، ففكروا كم يختلف هذا الجهد عن الجهد الذي نحن فيه، فاعلموا أن الخطة الحقيقية هي هذه الخطة، واعلموا أن جهودنا هي جهود بدائية، وعلينا أن نصل إلى هذا المستوى من الجهد، ونعد أنفسنا كلياً له».

كان الشيخ متفائلاً للغاية بالنتائج الطيبة المبشرة للتضحية للدين والجهد لنشر أحكامه، وكان يدعو إلى بذل التضحيات كتضحيات أصحاب الرسول ﷺ، وكان يرى أنه إذا قدمت مثل هذه التضحيات فإنها ستأتي بسائر تلك النتائج والثمار التي ظهرت في عهد الصحابة والتابعين، يزول الفقر والبؤس والحرمان والشقاء وينتهي عهد الذلة والمسكنة، والخزي والعار، تهتدي القوى الكبرى، وإذا لم تهتد واصطدمت بهذه الطائفة تحطمت وانقرضت، وفي الآخرة ما وعد الله من الثواب والأجر.

وصرح في مناسبة أخرى:

«إذا وصلت هذه التضحيات إلى كمالها، تناول تلك الأمم التي تطير في السماء ولا تنظر إلينا نحن البؤساء، الهداية والرشاد، والذين لا يسمعون في أي شعبة من شعب الحياة صوت الإسلام، وتقضي جميع أمورها في ضوء تعاليم الإسلام، وتناولون أجر أعمالكم بيد رسول الله ﷺ على الكوثر، حيث وعد الأنصار أن يلقاهم، وأن ينالوا أجر أعمالهم بشفاعته، ولكن يجب أن تقرروا بأنكم ستوزعون على غيركم ما تناولونه جزاء جهدكم، وأنكم بأنفسكم لا تستفيدون منه شيئاً، ولا تغنموه كما فعل

رسول الله ﷺ، فإنه كان في البؤس والمعاناة، واحتمال الأذى مع أصحابه، ولما حان وقت جني ثمار هذه المعاناة لحق بالرفيق الأعلى، فعليكم أن يكون نظركم إلى الأجر في الآخرة، وعندئذ تتقربون إلى رسول الله ﷺ يوم الآخرة إن شاء الله تعالى».

وكتب الشيخ محمد يوسف في إحدى رسائله التي بعث بها إلى أحد الدعاة:
«إن ازدهار العالم ورقه منوط باتباع أحكام الله مباشرة، وازدهار أحكام الله ورقها منوط ببذل النفس للإيمان، واحتمال الأذى في سبيله، وقد وهب الله تعالى بفضله وكرمه عباده الصالحين صورة امتثال تلك الأحكام العالية، التي تزدهر فيها أحكام الله تعالى كاملة، وإن تلك النفوس مباركة وزكية وهي التي تضحي بعواطفها ورغباتها لدى بؤس وشقاء عامة الخلق، وتؤثر رضا الله تعالى في كل حال من الأحوال».

ويقول في موضع آخر:

«لا تهدف بعمل الدعوة والتبليغ إلى نشر أمر من الأمور، بل تسعى عن طريقه إلى إحياء كل ما جاء به محمد ﷺ وطبقه تدريباً في المسلمين حسب استعدادهم، وكان أساس جميع هذه الأعمال ترويج عادة ترك الراحة، والهجرة في سبيل الله، وكلما عمّت هذه العادة وراجت، نزلت سكينته الله تعالى، وعمّت شآبيب رحمته على عباده».

ويذكر المفتي زين العابدين انطباعاته بالألفاظ الآتية:

«كان الشيخ يعتبر عمل الدعوة أقوى عمل من أعمال النبوة، وكان يقول: إنه عمل الأنبياء الأخص، وإن نصرة الله التي تخص بالأنبياء تنزل بهذا العمل بشرط أن يكون هذا العمل موافقاً لسنة الرسول ﷺ ومنهجه».

كان الشيخ يطالب بتقديم أقصى التضحيات لهذا العمل، وكان يدعو إلى التقدم تدريباً، فكان يدعو أولاً إلى تفرغ الثلث من الأوقات أي أربعة أشهر في السنة للخروج في سبيل الله، أما الشهور الثمانية فهي تصرف بالترتيب الآتي:

نصف الوقت في المسجد والقيام بأعمال المسجد.

والنصف الباقي للمنزل وشؤون المنزل.

ومرة قال للدعاة السابقين القدامى: «عليكم أن تجعلوا هذا العمل رأس أعمالكم، أما الأعمال الأخرى فاجعلوها كتوابعه، فكان يرغب في أن يصبح كل بلد ومدينة ميدان هذا العمل.

لا يكفي مجرد التنقل والحركة:

كان الشيخ محمد يوسف لا يعتبر مجرد التنقل والتحرك من أجل الدعوة أمراً كافياً مغنياً، بل كان يلزم التمسك بأهداف الدعوة، والتزام أصولها ومبادئها، وكان يؤكد على هذا الأمر في رسالته.

كتب في رسالة له إلى أحد الدعاة رداً على رسالة في ٢١/جمادى الآخرة ١٣٧٢هـ:

«أيها الأخ الكريم! إن مجرد الخروج وتنقل الناس في دول مختلفة لا يمت للدعوة بصلة، وإنما المقصود هو أن يرسخ اليقين بوعد الله ونصرته في قلوب العاملين، وأن يحدث الاشتمزاز عن غير الله، وتتصاعد العبادة واتباع الرسول ﷺ، وتزداد الحلاوة في الصلاة ويزداد العلم والاشتغال بالذكر، ويشعر الداعي بازدياد النور، ويتنور قلبه ويتربى على إكرام المسلم، ويتدرب عليه إلى أن يعتبر كل إنسان فضلاً عن المسلم خيراً من نفسه، ويسرع إلى خدمته، وأن يكون المقصود من سائر الأعمال نيل رضوان الله، وأن يجتهد لتنمية هذه الخصال، ويسعى إليها بالكد والجهد، ويحتمل ما يصيب في هذا السبيل من الأذى، بل يجد فيه لذة ومتعة، وحلاوة وعذوبة، فإذا وجدت هذه الآثار للراقي في العاملين، فاعلم أن العمل يجري على ما يرام، وإلا فأيتها الأخ الكريم، إن هناك من يحسن الخطبة ويجتهد أكثر منا، أما الذين يجتهدون ويضحون في سبيل الله، بل الذين ينفقون أوقاتهم في سبيل الدعوة، فعددهم قليل، إن النفوس التي تسعى إلى تحقيق هذه الأهداف النبيلة والذين تهتمهم هذه الأعراض السامية فنفس زكية مباركة، بارك الله فيها.

التزموا بالجولة المحلية مرتين في الأسبوع أو مرة في الأسبوع هي الأقل، وإقامة حلقات التعليم والفضائل في كل قرية، وفي كل مسجد باهتمام».

الأعمال غير الرائجة :

إن عمل الدعوة والتبليغ الذي كان الشيخ يدعو إليه كان عملاً غير رائع، وقد بذل جهده من اليوم الأول بعيداً عن الطرق الرائجة والمعروفة، وكان الشيخ يوضح في رسائله وبياناته مرات وكراًت، إن دعوتنا هذه يجب أن تجري على منهاج الرسول ﷺ، وليس على الطرق الشائعة والرائجة.

يقول في رسالة:

«حذار أن تستخدموا لتعميم هذا العمل ونشره في العالم الوسائل والطرق الرائجة، كالصحف والإعلانات، والدعاية، والمصطلحات الشائعة، فإن هذا العمل عمل غير عرفي، وإن طرق هذا العمل وأشكالها هي الدعوة والجدولة والتعليم واللقاءات الشخصية وتشكيل الجماعات».

وصرح في رحلته الأخيرة في اجتماع عقد للخواص، وأطنب في القول عن أمور الدعوة ومنهجها، قال في ختام كلمته:

«لم تشكل لهذه الدعوة منظمة أو جمعية، وليس لها مكتب أو سجل ولا صندوق ولا ميزانية إنها عمل سائر المسلمين، ولم تؤلف جماعة خاصة لهذا العمل على الطرق الشائعة».

فكما يجتمع المسلمون من سائر الطبقات والمناطق والفئات والحرف في المسجد وينصرفون إلى بيوتهم وأشغالهم بعد انقضاء الصلاة، كذلك ندعوكم إلى أن تجتمعوا لوقت من الأوقات، وتركوا بيوتكم، وتهجروا راحتكم، وتنفضوا من الأعمال أيديكم لهذا السعي المبارك والجهد الديني، وتعلموا الدين ثم عودوا إلى بيوتكم وأعمالكم، واقتضوا حياتكم في ضوء تعاليم هذه الدعوة».

وصرح موضحاً طريق الدعوة:

«إن السلوك على طريق هذه الدعوة يتطلب وسائل داخلية، ولا يتطلب وسائل خارجية وهي اليقين، واستحضار الله وخوفه، واليقين بأن منبع ثروة الدين، ومصدرها، وباب نزول البركة والرحمة من الله تعالى، هو العمل على منهاج النبوة».

قرر بعض الأحبة في بعض المناطق لتوسيع مجال العمل إنشاء «دار التبليغ»، ونشروا إعلاناً لجمع الأموال من أجل هذا الغرض، ويتحقق بناء الدار، فلما علم الشيخ بذلك أبدى استنكاره الشديد وسخطه البالغ.

وكتب إلى أقرب أعوانه رسالة يمنعهم من هذا العمل، فكتب إلى الشيخ افتخار الفريدي يقول:

«إن هذا الإجراء يتنافى مع مبادئنا، فإذا كان جمع التبرعات لعمل الدعوة نفسها ممنوعاً لدينا، فكيف يجوز ذلك بناء دار، يجب أن توجه الدعوة إليهم لبذل المال والنفس في عمل الدعوة، ويجب الاحتراز عن سائر الأعمال الإضافية الأخرى، اكتب إليهم إذا كنتم تريدون بناء دار التبليغ فأعلنوا أن هذا الأمر يتعارض مع مبادئ الدعوة، وأرجوك أن لا تشترك في هذا العمل، وإلا فإنه سيحمل أضراراً جسيمة لعمل الدعوة والتبليغ في الأعوام القادمة، ويعرقل سبيلها.

عماد هذا العمل:

كان الشيخ محمد يوسف يعد اليقين والصلاة عماد هذا العمل وقوامه، والعلم والذكر ساعدي الدعوة والتبليغ، ولذلك كان دائماً يركز اهتمامه في خطبه ورسائله على هذه العناصر الأربعة، فكتب في إحدى رسائله:

«إن العلم والذكر ساعدا هذا العمل، وكل نقص يحدث في هذين العنصرين، يؤدي إلى خلل في عمل الدعوة، وأضاف له، وكل عنصر من هذين العنصرين له أهمية وتأثير ودور في محله، ولا بد منه، ونحن في تقوية هذين العنصرين وتعزيزهما وتنميتهما نحتاج إلى مراكز العلم ومراكز التربية النفسية، وإلى العلماء والصلحاء في كل وقت؛ لأنهم قدوة لنا وأسوة في هذين العنصرين؛ لأنهم يحملون على النبوة، ويتحلون بجواهر النبوة، ويحملون هذا الكثر الثمين، ولا نستطيع أن نؤدي حق هذين العنصرين ونؤدي ما يعود إلينا من واجب إلا إذا قمنا بواجبنا من التقدير والاحترام، والتبجيل والإكرام إزاءهم، ونخدمهم خدمة تليق بمكانتهم، ونعتبر صحبتهم والاستفادة من معارفهم وسيلة للصلاح، والعفاف والتقى، ولذلك نعتبر من أهم

مبادئ التبليغ زيارة العلماء والمشايخ والتماس دعواتهم، وإطلاعهم على نشاطات الدعوة والاستشارة منهم، والعمل برأيهم».

هذه القطعة المقتبسة من رسالة الشيخ محمد يوسف تحل عقدة هامة، فقد نشأ في جماعة الدعوة والتبليغ هذه الأيام رجال لا يهتمون بهذا الجانب المهم، ولا يعرفون قدر العلماء والصالحين ومكانتهم، ولبعدهم عنهم، وعدم الاجتماع بهم تصدر منهم كلمات وتعليقات تستهين بقيمتهم ومكانتهم، ودورهم في عمل الدعوة، وهذا الموقف المهين منهم إزاء العلماء والمشايخ يحول دون رقيهم، ويشكل عقبة في سبيل تقدمهم في مجال عملهم.

وقد اعتبر الشيخ هذا التصور الخاطيء في رسالته من الموبقات، وكرد فعل لهذا الموقف الذي يزدري بالعلماء والمشايخ، نشأ في طبقة العلماء وأهل المدارس ومراكز التربية رجال ينتقدون هذه الحركة للدعوة، ويتعدون عنها، وهكذا نشأ لسوء الفهم صراع بين الطبقتين، طبقة الدعاة وطبقة العلماء، وسئل الشيخ أحمد المدني عن ذلك فأجاب:

اطلعت على المنشورات، والإعلانات التي صدرت من أهل المدارس في تأييد حركة التبليغ ومعارضتها، وقد تجاوز فيها الجانبان، وعدلوا عن الاعتدال، ووقعوا في الإفراط والتفريط، فإن تبليغ الدين والعلم الديني كلاهما من الفرائض الإسلامية ومستلزماتها، ويجب على العاملين من الجانبين أن يواصلوا نشاطهم في إطار الحدود الشرعية، وكل عمل مهما كان مهماً وقيماً، إذا كان خارجاً عن الحدود الشرعية، لا بد من أن يؤدي إلى مساوئ ومفاسد.

ولذلك أدعو كل عامل من العاملين في المجالين، مجال التعليم والتربية، ومجال الدعوة والتبليغ، بكل أدب واحترام وتقدير ومحبة أن يختاروا الاعتدال والوسطية، وأن يحترزوا عن التطرف في إصدار الحكم، وتوجيه المطاعن وإثارة الشكوك وإساءة الظن بما لا مبرر له، وأن يشغلوا أنفسهم بالأعمال الإيجابية، فإن العاملين يقعون في أخطاء، سواء كانوا أفراداً وجماعات، وقد صدرت أخطاء من العاملين من عهد السعادة عهد الصحابة إلى يومنا هذا، ولكن لم تسفر هذه الأخطاء

عن منع تلك الأمور الهامة، بل بذلت محاولات لإصلاح الاعوجاج وإزالة الانحراف، ومعالجة الأخطاء، وهذبت تلك الأمور، ونقيت من الأخطاء الواقعة بها، فظهرت نقية صافية لامعة ساطعة مضيئة مشرقة، كذلك أهل الدعوة والتبليغ، هم من البشر مثلنا، وفيهم من هو حديث العهد بالدعوة، وليس لهم تجربة سالفة، أو تربية لائقة، فيقومون في الإفراط والتفريط والغلو والتقصير، فلا يخلو من الخطأ إصدار حكم على جماعة بناءً على أعمال رجالها وتصرفاتهم، فأرجو من جميع الإخوة أن يكرم بعضهم بعضاً، ويقدرُوا جهود غيرهم من العاملين، ويحترزوا عن الطعن واللمز والهمز، فيؤدي ذلك إلى تفريق المسلمين وتشتيت شملهم، والله يهدي السبيل، وهو المستعان.

حسين أحمد المدني

العمل هو المعتبر لا الأشخاص:

كان الشيخ يعتبر كل حركة تجري على أساس شخص من الأشخاص حركة فاشلة خائبة، والحركة التي تجري على أساس العمل دون اللجوء إلى شخصية فكان يعتبرها حركة دائمة مستمرة، فإن الشخصية في نظر الشيخ فانية، والحركة باقية، وانحصار بقائها على صلتها بالله تبارك وتعالى، وصرَّح الشيخ عن اجتماع كان الناس يعتقدون أن حضوره شخصياً يؤدي إلى نجاح الاجتماع، وعدم حضوره يؤدي إلى فشله، صرح في رسالة له:

«بعد بحث ودراسة طويلة دامت عدة أيام، واستشارة واستخارة قمت بها وإخواني الآخرون، وصلت إلى نتيجة واحدة، وهي أن الاجتماعات التي شاع عقدها على أساس اشتراك شخصيات خاصة فيها، إن كانت مشمرة في جميع الأحبة والعاملين من أماكن بعيدة ويستعد الناس للخروج في سبيل الله، ويوجد جو خاص له، ولكن يخشى أن تؤدي هذه الاجتماعات إلى مفاسد وشُرور بدلاً من فتح أبواب الرحمة، ثم لأن هذا العمل الذي كان كالعناء، فتح الله أبواب انتشاره بطريق خاص بجهود الجماعات، أما الاجتماعات فإنها تحول هذه الجهود ونتائجها إلى الشخصيات وخطبها، وتنحرف الأذهان من العمل إلى الشخصيات وكلامها، وهذه الوجوه التي

تتجلى عن طريق عقد الاجتماعات ثروات إضاعة الأشخاص وعمل الدعوة، وتحمل خطورة، وكيف يمكن أن يوجه جمع كبير من الناس في جهود يومين أو ثلاثة أيام إلى هذه الوجوه والأخطار التي إذا لم توضع موضع الاعتبار الدقيق، خلا هذا العمل مما يحمله من دواعي الرحمة والبركة، إن غياب هذا العبد إن كان يشق على طبائع الناس، لكنه يهيئ فرصة للجهد المزيد للدعوة^(١).

كان هذا مسلك الشيخ محمد يوسف وطريقه طول حياته، فإن العزة والمحبة من الله، وقد أودع الله في سائر الخلق محبته وإكرامه، وكانت هذه المحبة تزداد كل يوم، ولكن الشيخ بنفسه قد نقل هذه الحركة إلى المستوى الذي ارتفعت فيه عن التأثير الشخصي والطابع الشخصي، ولا يؤثر فيها اشتراك شخص أو عدم اشتراكه، ولو لم يكن ذلك لوقف العمل بعد وفاته، كما حدث في تاريخ الحركات التي تسير تحت قيادة شخصية واحدة، فإذا غابت هذه الشخصية وقف العمل، أو خمدت حرارته، وانكمش حجمه، واهتم الشيخ محمد يوسف طول حياته بتشكيل أذهان الناس أن لا يعتقدوا هذا العمل بناصية شخص مهما كان هذا الشخص محبوباً إلى النفوس، فلما توفي الشيخ محمد يوسف لم يقف العمل، بل اتسع نطاقه، وتضاعف وطبق الآفاق.

يقول الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي معلقاً على هذا الحادث:

«كنا بعد وفاته متأكدين أن هذا العمل سيواجه عقبات، وتصعب مواصلته واستمراره، ولكن الله تعالى بفضلته ورحمته العامة وقدرته الكاملة قد بين هذه الحقيقة أن الأعمال لا تستند إلى الأشخاص، ولا ينكر أحد هذه الحقيقة الناصعة، فقد تصاعد عقد الاجتماعات، وتضاعف احتشاد العاملين، وازدحامهم بما لم يكن يتصور في حياة الشيخ محمد يوسف، لقد انعقد اجتماع «رائي وند» وكان الناس يخشون كما وردت رسائلهم أن الشيخ محمد يوسف توفي، وأن الطريق مسدود، ولا يتوقع أن يصل مشايخ «نظام الدين»، فكتبوا إلى الشيخ سيد خان في «مكة المكرمة»، أن يشارك في الاجتماع، فوصل إلى «رائي وند» قبل يومين من انعقاد الاجتماع، وذكرت

(١) رسالة إلى الشيخ افتخار الفريدي، والشيخ محمد منظور النعماني، رجب ١٣٧٣ هـ.

الرسائل أن مثل هذا العدد الكبير لم يشترك في الاجتماعات السابقة التي اشترك فيها الشيخ محمد يوسف، وأفادت هذه الرسائل أن عدد الجماعات الخارجة من الاجتماع إلى الدول الخارجة لم يكن يتجاوز ٨٠ في أي اجتماع سابق، ولكن بلغ العدد في هذا الاجتماع ١٤٠ جماعة، وقد اكتظ المخيم في اليوم الأول، وإن كان أضخم من المخيمات السالفة، فأضيف إليه، واستمرت هذه الزيادات، كذلك الاجتماعات التي عقدت في «الهند»، وكانت مواعيدها قد حددت في حياة الشيخ، كان يخشى أنها لن تنجح أو يضطر المسؤولون عنها إلى إرجائها، ولكن علمت عن كل اجتماع أنه كان أكثر نجاحاً وأكبر عدداً من قبل، وكذلك تنعقد الاجتماعات بصورة مستمرة وبكثرة وافرة، وتنعقد بعض هذه الاجتماعات بدون اشتراك مشايخ «نظام الدين».

الاجتماعات ليست غاية:

لم يكن الشيخ يعد الاجتماعات أساس العمل ولا غايته، وإنما كان يؤكد على أن الاجتماعات وسيلة للعمل، وليست هي العمل، لقد كان يشجع على عقد الاجتماعات؛ لأنها كانت تساعد على نشر العمل، إلا أنه كان يبدي عدم ارتياحه بالاجتماعات التي لا تأتي بشمار مطلوبة، ولا تخلف على عمل الدعوة أثراً طيباً.

انعقد اجتماع ضخم في «مجرهات» «بنغال» في ١٣٧٠هـ، ووصلت إلى الشيخ أخباره والاستعدادات له، وكان يتوقع من هذه الأخبار أن ألوفاً من الناس سيشاركون فيه، واستمرت تنقلات الجماعات، فأرسل الشيخ محمد يوسف رسالة إلى الشيخ افتخار الفريدي، لم يبد فيها أي سرور على عقد الاجتماع، وصرف همه إلى توسيع مجال العمل.

يقول في رسالة:

«تلقيت الرسالة فأهملتني، أوصل الله تعالى بفضله وكرمه هذا الاجتماع العظيم إلى نتائج مبشرة. أيها الأخ الكريم، إن ضخامة هذا الاجتماع بطريق يصعب التغلب على الأشكال العملية، لا تبعث على السرور، عليكم أن تجتهدوا من الآن، أن لا تنحصر جهود الناس على الاجتماع، ولا تقصر أوقاتهم على أوقات انعقاد الاجتماع، بل عليكم أن توجهوا الذين يفرغون أوقاتهم للدعوة إلى مجالات الدعوة

العملية، والذين لا يستعدون للخروج الآن، يجب تشكيلهم بطريق يخرجوا فور انعقاد الاجتماع، ويجب أن يرافقهم العاملون القدماء، فتخرج هذه الجماعات من الاجتماع فور انتهائه».

كان الشيخ يؤكد على أن يعد جو للخروج للدعوة قبل انعقاد الاجتماع، لكيلا يصعب على المشتركين في الاجتماع الخروج، وكل من يأتي إلى الاجتماع يأتي مستعداً للخروج، ولا يقتصر اشتراكه على حضور الجلسات، والاستماع إلى الكلمات التي تلقى فيها، فلا يصير الاجتماع عادة شائعة، بل يكون وسيلة لإعداد الناس للعمل في الدعوة وتفرغ الأوقات لها، ويقول الشيخ في نفس الرسالة:

«لا بدّ من بسط شبكة عمل الدعوة في ضواحي «مجرايات» وإعداد الناس، فلا يأتي الناس إلى الاجتماع لمجرد الحضور وسماع الخطيب للحصول على البركة، بل يأتوا إليه مستعدين للخروج بأوقاتهم، ويجب تشكيلهم عن طريق إرسال الجماعات، وأن يأتوا في جماعات منظمة للخروج إلى أماكن بعيدة، وأماكن قريبة، ولا يكون حضور الاجتماع في «مجرايات» إلّا لتلقي التوجيهات، ولتعلم الآداب للخروج، ولجعله منطلقاً إلى الأماكن الأخرى للدعوة».

الجهد والكّد والصلة بالله:

من الأمور التي كان الشيخ يصرف إليها اهتمامه الخاص ويؤكد عليها هو بذل النفس والاجتهاد والكّد في سبيل الدعوة، وأن يمد العاملون القدماء هذا العمل ويقوده بالصلة بالله والتقرب إليه، سواء كان ذلك بالاجتماعات، أم بالحوار والمباحثة في المجالس، أو اللقاءات الشخصية، فكان ينتقد بشدة الاجتماعات المجردة عن الجهد، فكتب يقول:

«عليكم أن تتضرعوا إلى الله بكل خشوع وإنابة واثقين به مخلصين له، ثم تشاوروا فيما بينكم، وتجهدوا وتسعوا إلى تنمية ونشر هذا العمل المبارك العالي اجتهاداً مُضنياً، وبمدى ما تسعون إليه، وتتقربون إلى الله بدعواتكم تنزل على هذا العمل بركاته ونصرته وتأييده ورحمته التي تنزل على الجماعات، ويرتقي هذا العمل ويتقدم وتفتح له مجالات جديدة، وآفاق جديدة، وحسب قانون «أنا عند حسن ظن

عبدى بي»، عليكم أن تحسنوا الظن بربكم، واثقين بوعدہ للنصر، وواصلوا جهدكم مع الذين يأتون إليكم بهمة وعزيمة، فإنه هو مصرف القلوب، وهو يحيي الحقيقة في أشكال الدين، فإن الإنسان صورة، وفاعليته حقيقة، وهو قادر على أن تظهر هذه الحقيقة في أي شكل وصورة، والذين يصبحون وسيلة لظهور هذه الحقيقة بمساعيهم المضنية هم نفوس زكية مباركة، يجب أن يكرم بعضكم بعضاً، وأن تقضوا أوقاتكم في خدمة الناس والاهتمام بحلقات التعليم، وعقد اللقاءات الشخصية والقيام بال جولات الدعوة، وأن تهتموا بصفة خاصة بتصحيح النية؛ لأنه هو الشرط الأول للفوز والنجاح، وبدونه تحبط الأعمال^(١).

وكتب في رسالة بعث بها إلى میان جي محراب:

«لا بد من أن يجتمع العاملون كلهم بعد صلاة الفجر، ويدرسوا وسائل لتحسين فرص العمل، ولتمكينه من أن يأتي بثمار أوفر، كما يجب انتخاب رجال للمشورة، وتعرض عليهم جميع المسائل والقضايا، ويتخذ الإجراء في ضوء آرائهم، وأن يرغب الناس في الخروج إلى أماكن بعيدة في جماعات، وكل عمل يوفق له يجب أن لا يقتنع به بل يسير العاملون للرفي فيه واتساع مجاله».

كان الشيخ يرى أن هذا العمل لا يمتد إلا إذا ساد الانسجام والتضامن وروح الإخوة في العاملين، يكرم بعضهم بعضاً، ويرعى حقوقه، ويضعه موضع ثقة وتقدير، وكل جماعة لم ترع هذه الآداب الاجتماعية التي تشكل المبدأ الرابع لمبادئ هذه الحركة تتعرض للفرقة، وتحدث عقبات في سبيلها، ويقع خلل في نشاطها.

ويقول الشيخ في رسالة مؤكداً على الاهتمام بهذا المبادئ:

«تجب تنمية روح التواضع والعجز، وأن يقدر جهد كل شخص، وينظر إليه بنظر الاحترام والمحبة، وأن يعتبر كل شخص خادماً للجميع، ويعد غيره الأصل، وإذا كان موضع الإكرام أكرم غيره، وإذا كان موضع الذلة أذل نفسه، وأن يواظب على التشاور بين الناس، وأن يقدر كل رأي، ويسعى إلى تأليف القلوب وإيناسها كل

(١) رسالة ١٨/ رجب ١٣٧٣ هـ.

سمي، وكل ما يلقي من الأذى يجد لذة فيه، كذلك يجب الاهتمام بالذكر والتعليم والدعاء كل الاهتمام، وأن يوقر الصغير الكبير، ويعد نفسه للتواضع، وأن لا يحسن الظن بنفسه، بل يجب أن يكون نظره على تقصيره ويحاسب نفسه.

الالتزام بالمبادئ والتمسك بها:

كان الالتزام بالآداب والمبادئ من الشروط اللازمة عند الشيخ، فكان يلزم اتباع المبادئ الستة التي يقوم على أساسها عمل الدعوة، وهي الكلمة والصلاة والعلم، والذكر، وإكرام المسلم، وحسن النية، كان يؤكد على تفرغ الوقت، ويوضح أهميته في رسائله بصفة خاصة.

فكتب يقول في إحدى رسائله:

«لا بدّ من رعاية المبادئ والأصول والاعتصام بها، والاشتغال بالعلم والذكر والخدمة وإكرام المسلم والدعوة والدعاء والاحتراز عن ما لا يعني، والإكثار من الخشوع والتضرع إلى الله، والبكاء، ويجب بصفة خاصة التركيز على مبدأ إكرام المسلم وإيضاحه وتعويد الناس على العمل».

كتب في رسالة إلى الحاج فضل عظيم:

«كل عمل يجدي إذا طبقت مبادئه وأصوله، فإذا خرقت هذه المبادئ، وخولفت الأصول غلب الفساد على الصلاح، وطفى عليه ومنع من الانتفاع به، وإنني أتلقى أخبار تنقلات الجماعات من مكان إلى مكان، ولكن هذه الأخبار والتقارير لا تلقي الضوء على تمسك هذه الجماعات بمبادئ الدعوة التي تشكل روح الدعوة وجوهرها، فإن الجزء الأهم من هذه الدعوة هو الاشتغال بالعلم والذكر الذي يعين في كسب رضا الله والقيام بالأعمال المرضية، والتقرب إلى الله، وقمع هوى النفس ورغباتها، وأهم وسيلة للحصول على هذا الهدف تأدية حقوق الجانبيين والمحافظة عليها، وكذلك توقير أهل العلم من المشايخ واستشارتهم في كل عمل، وتأدية حقوقهم، وكذلك في المجال الدنيوي تأدية حقوق من أكرمهم الله بالوسائل المادية، ولهم منزلة ومكانة واستشارتهم في الأمور المادية للدعوة، والجزء المهم الآخر، هو تتبع الصغار في كل مجال، سواء كانوا في مجال العلم، أو في مجال المال، أو في

مجال القرابة، والعطف عليهم والسعي لاستمالتهم إلى هذا العمل بروح الإخوة والرحمة والمحبة والمراقبة على اشتغالهم بالعلم والذكر، وبهذا الطريق ينضم إلينا، ويشارك في عملنا رجال الطبقة الكادحة والمجتهدة التي تملك ثروة الإخلاص أكثر منا، ويميلون إليه باستعداد أكبر، وبدون اشتراكهم يظل هذا العمل غير دائم، وسطحياً وهامشياً، وباشتراك أهل العلم والذكر يدخل في هذا العمل الوزن والنور، ولا يدوم أي عمل ولا يرتفع، ولا يكون له تأثير على النفوس إلاّ بهما.

عمل الدعوة في النساء :

كان الشيخ محمد يوسف يشعر بأهمية إيصال عمل الدعوة إلى النساء مثلما كان حريصاً على نشره في أوساط الرجال، وكان يشعر بأهميته القصوى؛ لأن حضن المرأة هي المدرسة الأولى، ولها نفوذ على الرجال والأولاد على السواء، وبهما يمكن إحداث الانقلاب في المجتمع، ومخالفة النساء لهذا العمل تطوق الرجال، وتسبب بعدهم عن هذا العمل وعدم حماسهم له، ويتعذر عليهم تفرغ الأوقات والخروج في سبيل الدعوة، ولكن الدعوة في النساء لها خطورة، وفيها مزالق كثيرة، وإذا لم نتخذ وسائل رادعة لتجنب هذه المزالق والأخطار فتحت أبواب الفتنة.

وكان عمل الدعوة قد دخل في صفوف النساء في حياة الشيخ محمد يوسف قبل مدة طويلة، ولذلك كان الشيخ يشعر أيضاً بخطورة هذا الطريق، فكان يوجه إلى العاملين تعليمات في هذا الصدد، حيناً بعد حين، فكتب في رسالة وجهها إلى الشيخ عبيد الله البليايي يوضح فيها طريق الدعوة في النساء:

«في دعوة النساء يجب الاكتفاء بأن تشغل النساء بمطالعة الكتب الدينية، وأن يقرأن منها على النساء، وأن يحافظن على العُرف الإسلامي، وأن يحاولن ترويض هذا العرف والآداب الإسلامية في بيتهن، وأن يرسلن أزواجهن إلى الخارج للدعوة ليعودوا إليهن متعلمين ما تعلموه، ولا يسمح لهن بالجولة الدعوية بأي حال من الأحوال».

الدعوة في كل حال :

كان الشيخ يعتبر الانتساب إلى عمل الدعوة الدينية في كل حال أمراً لازماً، سواء كان في حالة المرض أو الصحة، في السرور أو الحزن، في اليسر أو العسر، في الراحة أو المصيبة، وكان يعتقد أن الاشتغال بالدعوة في جميع هذه الأحوال يؤدي إلى رفع الأجر عند الله، ويسفر عن رقي الإنسان الديني، وخاصة الذين كانوا مشغولين بالدعوة في السابق، فغفلتهم وتقصيرهم يسوقهم إلى ضرر عظيم، ويلحقهم بخسارة فادحة .

كتب إليَّ أحد الدعاة الذي انعزل عن عمل الدعوة لمدة بسبب مرضه فقال :
«يا صديقي، إن هذا العمل نعمة جلية من الله تعالى أنزلها الله على عباده، وإن تقدير النعمة والشكر عليها وتأدية حقها يزيد هذه النعمة بركة وسعة، والتقصير فيها يحمل خطورة كبيرة، فإن أشغال الحياة والحزن والمرض من طوارئ الحياة، وهي امتحان العبد ليعلم الله هل يقدم هذا العبد الدين لعلاقته به، تقديراً وتوقيراً لأوامره، أو يغفل عنه ويقدم أشغاله وهمومه، وسراءه وضراءه، وينظر في الأمور برأيه ومصلحته الدنيوية، فمن الحكمة والكياسة أن يقدر الإنسان في تلك الحالة ذلك العمل، ومما لا شك فيه أن الإنسان يتقدم إلى الأمام بالاختلاط بالناس والامتزاج بهم» .

وفي رسالة إلى والدته أحد العاملين القدماء والمقربين الذين كان يقيم في «مركز نظام الدين»، وكان عمل الدعوة يشيع ويزدهر بجهوده، واستدعته والدته، طلب الشيخ الإذن من الوالدة ليقوم هذا الأخ في المركز بالألفاظ الآتية :

«كان كل شخص مستعداً ليضحى بنفسه وماله في سبيل الدعوة، حين كان الذين يجتهدون لعمل الدعوة، ويسعون لها في عدد كبير، ويوجدون في كل منطقة، وكان لهم تأثير على النفوس، فكان يتقدم ويتسابق إلى بذل النفس والمال حتى الأطفال الصغار بشوق كبير وحماس بالغ، وكانت أمهاتهم يشكرون على هذه التضحيات التي يقوم بها أفلاد أكبادهن، ويعتبرنها سعادة عظيمة لأنفسهن ولأولادهن، وكان يجلب ذلك رحمة الله ونصرته للمسلمين في تلك الأيام، فتولوا مقاليد الأمور، وبسطوا

نفوذهم على أنحاء العالم كله رغم ضآلة عددهم، وقلة بضاعتهم، وهم حين رفضوا الدنيا ورغبوا عنها، خضعت لهم الدنيا وارتمت على أقدامهم، وكانوا قد خرجوا بزمام الإبل، وعادوا وبأيديهم زمام العالم كله.

وبالجملة إن هؤلاء الأشخاص هم الذين كانوا قد انقطعوا إلى الدعوة وضربوا بحوائجهم عرض الحائط، ولم يدخروا وسعاً في نشر تعاليم الإسلام وتبليغ رسالته السمحاء.

ولما بذل الأنصار في المدينة جهوداً مُضنية، وتركوا أهلهم وهجروا راحتهم ونفضوا أيديهم لما كانوا فيه من عمل وشغل، وقاموا بجولات دعوية واسعة وكسدت تجارتهم، وجفت بساتينهم لبعدهم عن بلادهم، واشتغالهم بعمل الدعوة وعكوفهم عليها، فاستأذنوا رسول الله ﷺ لأسابيع يقضونها في أماكنهم لتلافي ما خسروه في تجارتهم وبساتينهم وإصلاح أحوالهم المادية نزلت الآية: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾.

سيدتي الكريمة:

إن الواقع يقول ما دام المسلمون مشغولين بعمل الدعوة، ومتشبهين بها غشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة والبركة، وجعلهم الله سبحانه وتعالى سادة العالم وسلاطينه، وحينما قدّم المسلمون حوائجهم وصرفوا عنايتهم إلى أنفسهم، وآثروا مصالحهم المادية على مصالح الدين والدعوة، حرّموا نصره الله، وخسروا تأييده، وفقدوا كل ما آتاهم الله سبحانه وتعالى من الخير والبركة، والنفوذ والسلطة، والقوة والهيمنة، وانهارت عليهم المصائب والآلام، وأحاطت بهم المحن والبلايا من كل جانب، ففي هذه الظروف القائمة العابسة يشتغل عدد قليل من الناس بعمل الدعوة، ولم يزل مركز الدعوة والتبليغ بـ «نظام الدين» يعاني من قلة عدد هؤلاء العاملين، ففي هذه الأيام التي هي في أشد حاجة إلى الأشخاص الذين يعتنون بعمل الدعوة، تطلبين ابنك، فأرجو منك في هذه الظروف التي تحتاج فيها هذه الدعوة إلى العاملين أن تسمحي له بالقيام بمركز الدعوة في «نظام الدين» والاشتغال بعمل الدعوة، وإذا كنت تصرين على طلبك على الرغم من ذلك فابعثي إليّ برقية على الفور، سأرسله تلبيةً لطلبك، واستجابةً لرغبتك».

حينما توفيت هذه السيدة الكريمة بعث الشيخ محمد يوسف رسالة عزاء إلى ابنها، ووضح فيها أهمية الدعوة وقيمتها يقول:

«فجعت بحادث وفاة والدتك الكريمة، وكل ما يصيب المسلم من البلى والمحن يؤدي إلى رفع درجاته عند الله سبحانه وتعالى، ووعد الله بالأجر الكبير والمثوبة العظيمة على الصبر عند الصدمة الأولى.

فمن وافته المنية ينظر الهدايا التي يرسلها إليه من كان له صلة به في صورة الأجر والثواب.

صديقي الحبيب:

إن أعمال النبي ﷺ التي تتحدث عنها هنا هي للترغيب والتشويق، لكن هذه الأعمال الصادرة عن النبي ﷺ سيأخذها من وصل إلى جوار ربه عن كذب، إن عملاً من أعمال الدين مهما كان يسيراً وبسيطاً ينفع المتوفى ويدر له خيراً، وإذا أكثرنا من أعمال البر فتملأ هذه الأعمال الصالحة التي نقوم بها نحن، قلبه سروراً وبهجة، وقبره نوراً وضياءً، وموازينه برأً ومعروفاً.

ومن ناحية أخرى تنقطع صلتنا عنه وتنصرف إلى الله سبحانه وتعالى، وهو الحي الذي لا يموت، فأرجو منك أن توجه عنايتك إلى أمور الدعوة بكل حماس ونشاط، وينبغي لك في هذه المناسبة الكثيرة أن تلفت نظراً إلى عمل الدعوة».

رسالة في عمل الدعوة:

ونقدم في الختام رسالة هامة وجهها الشيخ محمد يوسف إلى الجماعة التي كانت تتجه إلى «المملكة العربية السعودية» للحج والعمرة، وتتضمن هذه الرسالة أهداف الدعوة وغاياتها ومبادئها وآدابها، وطرقها ومناهجها وأبعادها ونتائجها والتوصيات والنصائح التي يحتاج إليها العاملون في سبيل الدعوة، وهي ترسم خطوط عمل الدعوة، وتعين مجالاتها، وتضيء الطريق لكل من يريد الخروج في سبيل الله، فينبغي لكل رجل يشتغل بالدعوة أو جماعة تسعى إليها أن تضع هذه الرسالة نصب عينها، وتجعلها نبراساً لعملها:

إخواني وزملائي:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أرجو أن تكونوا بخير وعافية، إن الأنباء التي ترد عليّ عن جهودكم في سبيل الدعوة، تبعث على السرور والبهجة، وتزيدني قوة ونشاط، فأدعو الله سبحانه وتعالى أن يتقبل هذه الجهود، ويجعلها ذخراً لكم في الآخرة، ويرزقكم المزيد من العمل والتوفيق، ويرشدكم إلى المنهج الصحيح لعمل الدعوة، ويحفظكم من الشرور والفتن والبلايا والمحن.

مدار النجاح والفشل:

ربط الله سبحانه وتعالى نجاح الإنسان وفوزه بالكيفيات النفسية له، فالنجاح والفوز هو عبارة عن ما تساور الإنسان من الحالات النفسية والكيفيات الباطنية، إن العزة والذلة، والألم والراحة، والهدوء والاضطراب، والصحة والمرض، هي الأمور التي تتعلق بداخل الإنسان، وليس لها أي علاقة بالخرائط الخارجية، إن الله سبحانه وتعالى يقدر على أن يجعل الغني القوي ذليلاً ومهيناً رغم ما يملكه من ثروة هائلة ونفوذ كبير، وسلطة وقوة، ويرفع مكانة البائس الفقير الذي يزدرية الناس ويحتقرونه لفقره وبؤسه وضعفه وعجزه.

فالثروة التي تحمل قيمة ووزناً عند الله سبحانه وتعالى هي ثروة الإيمان واليقين والبر والتقوى، فإذا صلحت الأعمال التي تصدر من داخل الإنسان وصلاح اليقين الذي يحمله في فؤاده، يفوز وينجح سواء كانت الأحوال تسعده أم لا.

الإيمان بالله:

إن الله سبحانه وتعالى خلق كل شيء، وملك كل شيء، وكل ما في الكون هو من خلقه وصنعه، وهو الذي خلق ولم يُخلق، وصنع ولم يُصنع، فالمصنوع لا يُخضع، وإنما يُخضع لقدرة صانع ويتبع لها، والصانع القادر يتصرف فيما صنعه كما يشاء، ويستطيع تغيير صورته وهيئته وخصائصه وصفاته، وهو يقدر على تحويل العصا إلى حية تسعى، وعلى تحويل الحية إلى عصا يتوكأ عليها، وهكذا يتصرف

القادر المطلق في كل شيء سواء كان يتعلق بالدولة أو الثروة، بالكهرباء أو الدخان، وهو الذي يقدر على هدم ما يبني وإقامة ما ينقض، وهو الذي يدبر الأمر، ويتولى التربية والإدارة، وهو الذي يستطيع أن يحيي الإنسان في أرض قاحلة جرداء، ويميته في أرض مخصبة رغم توفر وسائل الحياة، وأسباب المعيشة والراحة.

الإيمان بالرسالة :

جاء نبينا محمد ﷺ بطريق من الله سبحانه وتعالى يستطيع به الإنسان أن يربط صلته بالله سبحانه وتعالى ربطاً وثيقاً محكمًا، ويستفيد من قدرته مباشرة، فإذا اختار الإنسان هذا الطريق وسلكه يحقق له النجاح في كل عمل يمارسه.

نتيجة الإيمان واليقين ودعوته :

إن كل كلمة «لا إله إلا الله» تطالب المسلم بتغيير الطرق والمناهج والعواطف والمشاعر، والخوارج والخواطر، وينال المسلم بتغيير اليقين فقط، جنة عرضها السموات والأرض، ويسخر الله سبحانه وتعالى له سائر الأشياء التي ينصرف عنها يقينه وينقطع إلى ذات الله جل وعلا، ولإرساء قواعد هذا اليقين في النفس ينبغي أن ندعو الناس إليه، ونخبرهم بقدرة الله سبحانه وتعالى وجبروته وكبريائه وربوبيته، ونقص عليهم قصص الأنبياء والصالحين، ونفكر في العزلة والخلوة، وندخل في القلب هذا اليقين الذي دعونا إليه المسلمين، ثم ندعو الله سبحانه وتعالى في تضرع وابتهاال أن يرسخ هذا اليقين ويستقر في قلوبنا ونحظى بحقيقته.

الاهتمام بالصلاة ودعوته :

فرض الله سبحانه وتعالى الصلاة، وهي الصلة القوية التي تربط العبد بربه، وتُهيئ له الفرصة للاستفادة من قدرته دون واسطة، وأراد بها الله سبحانه وتعالى أن يستخدم العبد كل عضو من أعضائه من القلب واللسان، واليد والعين، والرأس والرجل، ملتزمًا بطريقة ترضيه، ومؤمنًا بأن كل ركن من أركان الصلاة من التكبير والتسبيح، والركوع والسجود، يكتب له النعم التي هي أفضل من الدنيا وما فيها.

فإذا رفع المؤمن يده بعد هذه الصلاة التي أقامها مراعيًا لآدابها وشروطها،

وتضرع إلى الله، فيسد الله كل ما يحتاج إليه، ويحقق لك ما يرغب فيه ويتمناه، ويمحو خطاياك، وبارك في الرزق ويوفقه للطاعة، فلتعلم هذه الصلاة لا بد من دعوة الناس إلى صلاة تتسم بالخشوع والإنابة، والإخلاص واليقين، ومعرفة الطريقة التي كان يصلي بها النبي ﷺ وأصحابه البررة رضوان الله عليهم أجمعين، وأن نتوضأ باهتمام بالغ، ونتصور في القيام والقعود والركوع والسجود أن الله يبصرنا ويراقب أمورنا، ونفكر بعد الصلاة هل أدينا الصلاة كما أمرنا الله سبحانه بها؟ ونبكي على ما قصرنا في أداء هذه الفريضة الأولى، ندعو الله سبحانه أن يحول هذه الصورة إلى حقيقة.

العِلْمُ والذِّكْرُ:

أعني بالعلم، إيقاظ الوعي وتعبئة الشعور، ومعرفة ما أراد الله سبحانه وتعالى منا في هذه الحالة، وأريد بالذكر تركيز الجهد على العمل والخشوع.

إن الرحلة التي يقوم بها أحدنا لتعلم الدين وتلقي العلم تعتبر عبادة، وتضع له الملائكة أجنتها رضاً بما صنع، ويدعو له كل ما في السماوات والأرض، ويثقل العالم على الشيطان أكثر من العابد.

فيجب علينا أن نحث الآخرين على تحصيل العلم، ونذكر لهم فضائل العلم والمعرفة، ونشركهم في حلقات التعليم، وندعوهم إلى زيارة العلماء والاجتماع بهم، ونعتبر كل خطوة نخطوها في هذا الطريق عبادة نثاب عليها، وندعو الله سبحانه وتعالى أن يرزقنا حقيقة العلم. إن الشخص الذي يذكر الله سبحانه وتعالى يذكره الله، وما دام العبد في الذكر كان في حفظ الله، فالذكر حصن منيع يحمي من فيه من الشيطان وكيد.

إكرام المسلم:

علينا كذلك أن نكرم كل مسلم بكونه فرداً من أمة سيدنا محمد ﷺ، وأن نحتمي به ونؤدي حقوقه، ولا نقضي منه حقوقنا، ومن ستر مسلماً ستره الله، وما دام العبد في عون أخيه كان الله في عونه، ومن تواضع لله رفعه الله، ومن ترك حقه عوّضه قصراً شامخاً في الجنة، فعلينا أن نرغب الآخرين في إكرام المسلم ونحضهم على ذلك،

ونذكر لهم أهمية المسلم ومكانته، ونحكي لهم ما قدم لنا نبينا محمد ﷺ وأصحابه الكرام رضوان الله عليهم أجمعين من نماذج رائعة لمكارم الأخلاق والإيثار والمواساة والتضحية والنصح.

حسن النية:

يجب علينا أن لا نبتغي من أي عمل نقوم به إلا وجه الله، ولا نرجو به إلا كسب رضاه، ولا نريد به تحقيق المصالح المادية، أو التظاهر بالتدين أو إبراز الشخصية أو تحسين السمعة، فكل عمل يبتغي به وجه الله يجلب الأجر والثواب مهما كان ذلك العمل بسيطاً، وكل عمل يخلو من الإخلاص والنية يحبط ويؤدي إلى العقاب وإن كان جليلاً.

فلنصح نياتنا، لا بد من دعوة الناس إلى تصحيح النية، ولا يمكن ذلك إلا بالحوارات واللقاءات وإيقاظ الوعي والشعور والتدرب على تصحيح النية بحيث أن نقول: إننا نمارس هذا العمل ابتغاء لوجه الله تعالى، ثم نستغفره بعد انتهاء العمل باعتبار هذه النية ناقصة.

بذل الجهد في سبيل الله والدعاء له:

قد شاع اليوم في هذه الأمة أن رجالها يشتغلون بالأعمال فرادى ووحداناً، ومن أجل ذلك نرى أن هذه الأعمال تفقد روحها وحقيقتها وتأثيرها على النفوس، بينما تقع مسؤولية الدعوة إلى الله على كاهل هذه الأمة قاطبة بعد وفاة نبينا محمد ﷺ، فتتطلب هذه المسؤولية من الأمة المحمدية أن تبذل جهوداً جبارة لنشر هذه الدعوة وبث تعاليم الإسلام بطريقة تتطابق تماماً مع الطريقة التي سلكها النبي ﷺ في الدعوة إلى الله، وتبليغ رسالته، وهذه الطريقة هي:

بذل النفس، والاحتراز عن طلب الأجر كل الاحتراز، والابتعاد عن الطمع والتسول كل الابتعاد، فمن سعى لربط صلة العبد بخالقه وفقه الله للأعمال الصالحة وتقبل سعيه، وجعله من عباده الصالحين المقربين، فالخروج في سبيل الدعوة ليوم وليلة أفضل من الدنيا وما فيها، وكل درهم ينفقه الداعي إلى الله، وكل صلاة يؤديها،

وكل تسبيح وتحميد يلفظه لسانه، وكل كلمة يرددها لسانه يضاعف أجرها عند الله أضعافاً مضاعفة حتى يبلغ ذلك الأجر سبع مائة ألف مرة، ويقبل الله دعوات العاملين في سبيل الله كما يتقبل دعوات أنبياء بني إسرائيل، ويكتب لهم الفلاح والسعادة والفوز والعلو بقدرته خلافاً للظاهر والعادة.

إننا نرى الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين قد خرجوا في سبيل الله، ولم يعوقهم عن الخروج لعمل الدعوة أي عائق من مثل الزواج والميلاد والوفاة والحر والبرد والفقر والجوع والصحة والمرض والقوة والضعف والشباب والشيخوخة، فقاموا بجولات دعوية في كل حال من الأحوال، وفي كل مناسبة من المناسبات.

أعمال المسجد:

لربط كل شخص بهذه الأمور وإيناسه بها نطلب منه أن يفرغ أربعة شهور، وينفق هذه الشهور بعيداً عن أشغاله وأهاليه في سبيل الدعوة، ويجول في المدن والأرياف والسهول والجبال، ويطرق الأبواب ويجري اللقاءات ويعقد الاجتماعات، ويتحدث مع الناس ويدعوهم إلى الله.

ربط رسول الله ﷺ كل شخص من أمته بالمسجد، ومنحه أعمالاً خاصة بهذا المكان الطاهر، وكان المسلمون يمتازون عن غيرهم بهذه الأعمال، ولا يجلس في المسجد رجال إلا وهم يذكرون الله، ولا يجري فيه حديث إلا ما يتعلق بكبرياته وجلالة شأنه، ويتعلق بالإيمان والآخرة، وتأثير الأعمال على الحياة الإنسانية، وتشكل فيه الجماعات التي تتوجه إلى مناطق مختلفة للدعوة إلى الإيمان والعمل الصالح، وتعقد فيه حلقات التعليم، وتنظم فيه مجالس الذكر، وكان يتعلم فيه كل من الحاكم والمحكوم، والثري والفقير، والتاجر والفلاح، والأجير والمحترف أمور الدين ويعرف به الحلال والحرام، وينعكس أثر ذلك في تصرفاته خارج المسجد، ولكننا نرى اليوم أن هذه المساجد قد خلت من الأعمال، وامتلات بالبضائع والأمتعة، ولم يخضع رسول الله ﷺ المساجد لرجال التجارة، وكان لا يوجد في مسجد سيدنا محمد ﷺ بـ «المدينة المنورة» ماء ولا كهرباء ولا دورة مياه، ولم يكن له ميزانية تنفق عليه، فمن كان يدخل المسجد النبوي يصبح معلماً ومتعلماً، ذاكرةً

ومصلياً، مطيعاً ومنقاداً، عابداً وزاهداً، ويقضي حياة آمنة مرضية تلائم الشريعة وتطابق السنة، وكان المسجد يراقب أمور رجال الأعمال والتجارة ويصلح أعمالهم، ويصحح مسارهم، فيجب عليكم أن تسوقوا الناس إلى المسجد خلال هذه الشهور الأربعة، وتعلموهم أعمالها، وتدعوهم إلى تخصيص سنة كاملة ليتعلموا هذه الأعمال ويعلموا غيرهم، يأخذوا من مسجد ويدفعوا إلى مسجد آخر.

الجولات المحلية والاجتماع:

بعدما تعلمنا هذه الأعمال، وانصرفنا إلى أماكننا، فعلينا أن نمارسها في قريتنا بين أهاليها، ونجمع أهل القرية في المسجد مرتين في الأسبوع، وذلك بالجولات واللقاءات، ونلفتهم إلى هذه الأمور، ويعد رجل واحد من كل بيت لتخصيص سنة كاملة للتدريب، ويقوم بجولتين في كل أسبوع، جولة في حي يقع فيه مسجدنا، وجولة أخرى في حي يجاوره مسجد آخر، ونشكل في كل مسجد جماعة تشتمل على سكان ذلك الحي.

جماعة لثلاثة أيام في كل شهر:

لإنشاء جو ملائم لعمل الدعوة في المدن والقرى المجاورة، ينبغي أن تخرج الجماعات من كل مسجد لثلاثة أيام، وتتجه إلى خمسة أيام، وعلى كل عامل أن يخصص ثلاثة أيام في كل شهر، ويواظب على ذلك، وينال بذلك أجر ثلاثين يوماً في ثلاثة أيام طبقاً للحسنة بعشر أمثالها، وإذا فرغ أحد ثلاثة أيام في كل شهر، والتزم بذلك سنة كاملة فتعد هذه السنة كلها في سبيل الله.

تخصيص أربعة شهور وسنة كاملة والدعوة إليها:

لا بد من تخصيص أربعة أشهر من كل سنة لعمل الدعوة باهتمام بالغ، وعلى الأقل الخروج في سبيل الله لأربع أشهر ثلاث مرات في الحياة، وأن الترتيب هكذا تخصيص أربعة شهور في السنة، وثلاثة أيام في الشهر، وجولتان في الأسبوع، وحلقة للتعليم كل يوم، وتلاوة من القرآن الكريم، وعقد مجلس للذكر كل يوم، وذلك أقل ما يجب على العاملين في سبيل الدعوة لتغيير نمط الحياة ولنزول رحمة الله.

وإذا أردنا أن نحطم القوى الباطلة، ونكافح الأفكار الزائفة، ونصهر حياتنا في بوتقة الإسلام، ونصبغها بصبغته الأصيلة، علينا أن نخترق الحواجز المادية ونزيل العوائق المزعومة ونتقدم لتوسيع آفاق العمل، ونعدّ نفوسنا لبذل مزيد من المال والوقت في سبيل الدعوة، ونخصص نصف الدخل لعمل الدعوة، والنصف الثاني نصرفه في التجارة وأمور المنزل، وكذلك نوزع الوقت على أمور الدعوة وأمور المنزل على السواء، أو نفرغ ثلث الوقت والمال لعمل الدعوة على الأقل.

الجولة وأهميتها في عمل الدعوة:

إن عمل التجول في سبيل الدعوة هو بمثابة العمود الفقري فيها، فإذا صح هذا العمل قبلت الدعوة، وحينما تقبل الدعوة يقبل الدعاء، وبالتالي تأتي الهداية، أما استنكار الجولة أو رفضها فإنه بمثابة رفض الدعوة والانحراف عن منهجها، ويسفر ذلك عن عدم قبول الدعاء، وبدون قبول الدعوات لا تأتي الهداية من الله سبحانه وتعالى.

موضوع الحديث في الجولة والدعوة إليها:

إن الموضوع الذي يجب أن يدور حوله الحديث في الجولة هو أن نقول لمن نخاطبه: إن نجاحنا في الدنيا والآخرة منوط باتباع النبي ﷺ ومرتبطة به، وإن جميع المشاكل والقضايا التي نتعرض لها تنحل باختيار منهج النبي ﷺ، ولكن ذلك يتطلب منا جهداً بالغاً، ولدعوة الناس إلى بذل هذه الجهود ينبغي لنا أن نجتمع أهل القرية في المسجد للجولة، ونطلب من الناس الجلوس بعد الصلاة قليلاً، ومن الأفضل أن يعلن ذلك رجل له نفوذ في القرية.

مبادئ الجولة وآدابها:

ثم نذكر أهمية الجولة وقيمتها، ونحث الناس عليها، وإذا استعد أحد للتجوال نوضح له آداب الجولة، وهي كما يلي:

نلازم الذكر قلبياً خلال التجول، ونغض البصر، ونعتقد بأن حل جميع مشاكلنا بيد الله، وأن هذه الأشياء التي نراها في الأسواق لا تجدي علينا خيراً، ولا تحل

المشاكل التي نعاني منها، ونحاول أن لا يقع النظر على هذه الأشياء، وإذا وقع عليها بدون إرادتنا علينا أن نستحضر في قلوبنا أن هذه الأشياء أحجار لا قيمة لها، فإن مالت قلوبنا إلى هذه الأشياء فكيف نستطيع أن نميل قلوب الذين نخاطبهم إلى الله جلّ وعلا، ونتصور أن الموت بالمرصاد، وأن هذه الأرض التي نمشي فوقها توارى جثتنا، ونتجول متآلفين متعاضدين متحابين، ويتكلم واحد منا، ويوجز في القول؛ لأن من أدخل رجلاً المسجد بالقول الموجز فقد نجح في عمل الدعوة، ونقول لمن نلاقه:

نحن إخوة في الله، نؤمن بكلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله، ونعتقد أن العزة والذلة، والنفع والضرر بيد الله، وتتطلب هذه الكلمة منا أن نقضي حياتنا في ضوء أوامر الله سبحانه وتعالى وطبقاً لسنة نبيه ﷺ، وإذا فعلنا ذلك تتجمل حياتنا وتحسن أحوالنا، وتزول مشاكلنا ومصائبنا، فنريد أن نجتمع في المسجد لتحدث عن أمور الدين، ولنعرف أوامر الله ونواهيه.

طريقة الجولة:

نختار للجولة عشرة رجال ونبدؤها بالدعاء، ونبدأ بالبيوت المتصلة بالمسجد، وإذا كانت تلك المنطقة خالية من البيوت نتوجه إلى رجال الأعمال والتجارة في السوق القريبة، ونوجه الدعوة إليهم، وينبغي لرجال الجماعة أن يكونوا ملتزمين بمبادئ الجولة ومراعيين لآدابها، ويمكث في المسجد ثلاثة أشخاص، ولا نأخذ معنا من العاملين الجدد إلا ثلاثة أو أربعة، وإذا استعد للجولة عدد أكثر من ذلك فنشغلهم ببعض الأمور في المسجد، ويشغل واحد منا بالدعاء والذكر في المسجد، ويستقبل رجل آخر القادمين، ويشغلهم بأمور تتعلق بالدين إلى موعد الصلاة، ويجب أن تستغرق الجولة ساعة واحدة، وتنتهي قبل موعد الصلاة بسبع أو ثماني دقائق، ويصلي الجميع مع الجماعة بالتكبير الأولى.

الدعوة في الاجتماع:

يتم تعيين رجل بعد المشاورة مع الإخوة العاملين لإلقاء الكلمة وتوجيه الدعوة، وعلى المتكلم أن يراعي الموضوع، إذا قامت صلة العبد بربه استقامت حياته وتحقق فوزه في الدنيا والآخرة، وإذا لم تقم هذه الصلة كان خاسراً في الدنيا

والآخرة، فبين أهمية هذه الصلة وطريقتها، ثم يركز على مضمون النقاط الستة التي سبق ذكرها، ويكون أسلوب كلامه سهلاً يفهمه الجميع ويقتنعون به، ويدركون أن تعلم الدين ليس أمراً عسيراً، والعمل به ليس أمراً يتطلب جهداً كبيراً، ويجلس جميع الإخوة خلال الكلمة باهتمام بالغ، وينصتوا إلى الكلام واثقين بصدقه وسداده، وبذلك تموج موجات الإيمان في القلوب، وتثور عواطف اليقين والعمل.

يدعى المجتمعون أولاً إلى الخروج لأربعة أشهر، ويبدل الجهد ليخرجوا من الاجتماع مباشرة، ثم يدعى الآخرون إلى تعيين ما يمكنهم من تخصيص مدة للخروج، ونسجل أسماء الذين يريدون الخروج في سبيل الله.

المطالعة والخروج وتشكيل الجماعات:

بذل الجهد عند الدعوة إلى الخروج وتشكيل الجماعات هو بمثابة لب للدعوة كلها، ويقتصر نجاح عمل الدعوة على هذا الجهد إلى حد كبير، فإذا أهملنا هذا الجانب وقصرنا فيه، ولم نبذل جهوداً جبارة لإعداد النفوس للخروج في سبيل الله فلا تنفع هذه الاجتماعات التي عقدناها والخطب التي ألقيناها، والجولات التي قمنا بها، وتبوء مساعينا ومجهوداتنا كلها بالفشل، وتنتهي بالكلام ولا تتوصل إلى العمل، لأن مجال العمل هو الخروج في سبيل الله.

فعلى الخطيب أن يوجه الدعوة إلى تقديم الأسماء ويتولى شخص آخر من العاملين القدامى تسجيل هذه الأسماء، ويحترز هذا الرجل المسجل عن الكلام، ثم يدعو الخطيب الحاضرين إلى أن يشجع بعضهم بعضاً على الخروج بلطف ومحبة، وإذا اعتذر أحد خاطبه بلطف، وحاول حل مشاكله التي يعتذر بها، ويحكي لهم قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وما قدموه من تضحيات في سبيل الدين، وفي النهاية يشكل جماعة محلية، ويضع برنامجاً للجولتين في الأسبوع وحلقة التعليم كل يوم.

أسلوب الدعوة:

نذكر أحداث النصر التي أنزلها الله سبحانه وتعالى على الأنبياء في سبيل الدعوة، ولا نذكر النصر التي جربناها بأنفسنا خلال هذا العمل، ولا نتحدث في

الخطبة عن الجو والوضع، ومن الأفضل أن نلفت انتباه الحاضرين إلى الأعمال التي تقربهم إلى الله، ويتوقف عليها النجاح والسعادة بدلاً من أن نذكر ما اعتراهم من ضعف في الإيمان والعمل والخلق.

حلقة التعليم:

ينبغي الاهتمام بحلقات التعليم والجلوس فيها، بأدب وسكينة وهدوء ووقار وشوق ورغبة واهتمام وخشوع، واحترام وتقدير، من غير استناد إلى شيء أو تراخ أو غفلة، ولا مذاكرة أو خوض في حديث، ولا ينهض أحد عن المجلس خلال التعليم ولا يقول فيه شيء من تلقاء نفسه.

تقرأ أولاً صفحة أو صفحتين من فضائل القرآن الكريم للشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، ثم تردد السور التي تتلى في الصلاة بصفة عامة، ويتدرب الجالسون على تجديدها، ثم يدرس الحديث النبوي الشريف، ويذكر في هذه المناسبة ما يثير في قلوب المستمعين الشوق والحنان، ويدفعهم إلى العمل به، ويحترز عن تصحيح التحيات ودعاء القنوت والأدعية الأخرى في الحلقات العامة، بل يجب أن يتم ذلك فردياً.

والكتب التي يجب أن تدرس في حلقات التعليم هي كما يلي:

فضائل القرآن الكريم – فضائل الصلاة – فضائل التبليغ – فضائل الذكر، فضائل الصدقات (الجزء الأول) – فضائل رمضان (في شهر رمضان) – فضائل الحج (في أيام الحج).

ثم يجب أن نتذكر النقاط الستة، وقبل بدأ التعليم يخرج شخصان للجولة يشوق الناس إلى حلقة التعليم، وبعد عودتهما بعد خمس عشرة أو عشرين دقيقة، يرسل رجلان آخران لذلك العمل، وهكذا يبذل الجهد لاستقدام سكان المنطقة للمشاركة في حلقة التعليم.

وينبغي أن تعقد حلقتان للتعليم كل يوم، حلقة في الصباح وحلقة بعد صلاة الظهر، ويستمر التعليم ساعتين أو ثلاث ساعات إذا كانوا خارج البلد، وساعة واحدة

إذا كانوا في البلد، ويمكن التقليل من هذا الوقت أو الزيادة فيه حسب طبائع الحاضرين ومقتضياتهم.

المشورة:

لمعرفة مقتضيات العمل، وتنسيق الجهد، وترتيب البرامج وتشكيل الأشخاص الذين يريدون الخروج في سبيل الله ودراسة القضايا الأخرى التي يتعرض لها العاملون خلال نشاطاتهم ومجهوداتهم، ينبغي التشاور بين أفراد الجماعة.

تبدأ المشورة بالدعاء أن يوفق الله إلى الرأي السديد، ومن آداب المشورة أن لا يصير صاحب رأي على رأيه، ولا يكره الآخرين على العمل بذلك الرأي؛ لأن ذلك يمنع نزول نصره الله تبارك وتعالى، ويجب أن يقدم من يقدم رأيه كأمانة مسؤولة عند الله، ولا يبدي الرأي إلا برفق ولطف، ويعتقد عند إبداء الرأي أن رأيه هذا يحمل ما في نفسه من الشر والفساد، وإذا أجمع الناس على رأي فيسر كل شخص بأن الله سبحانه وتعالى قد وقانا نحن الجميع من شرور أنفسنا، وإذا تناول الناس رأي أحد بالقبول فيجب عليه أن يخشى في نفسه، ويدعو الله سبحانه وتعالى أن يسدد هذا الرأي، ويجعله مبعث خير وبركة.

ويحق للأمير أن يعرب عن رأيه أو يرجح رأياً آخر بعد التفكير والدراسة وإمعان النظر فيه بحيث لا يستخف برأي رجل ولا يستهين به، ويحاول أن يستعد الناس لقبول رأيه بشوق ورغبة بدون إكراه، وعلى الجميع أن يطيعوا الأمير في رأيه، ويقبلوه بشوق وحماس كأنه هو رأيهم، وإذا أصابهم ضرر من أجل ذلك الرأي، أو لم يتحقق لهم ما أرادوا به من الربح والنفع والخير والبركة، وتبين أن الرأي الذي قدمه كان رأياً أحسن وأنسب، فحذار أن يناقش الأمير أو يلومه، فقد ورد الوعيد في الإساءة إلى الأمير أو سوء السلوك معه.

الاجتماع الأسبوعي:

حين يرفع النداء في مساجد الأحياء لخروج رجل من كل بيت لأربعة شهور بفضل جهود الجولتين في الأسبوع، وينضم الناس إلى حلقات التعليم ومجالس الذكر

بعدد كبير، وتبذل الجهود لإخراج جماعات من كل مسجد لثلاثة أيام، فيتم في ذلك الحين عقد اجتماع ليلة الجمعة على نهج صحيح، ويؤدي إلى رقي العمل وازدهاره.

وينبغي أن تصل الجماعات من مساجد الأحياء إلى محل الاجتماع عصر يوم الخميس، وتحمل معها فرشها وطعامها، وللتحدث مع الناس يختار أشخاص يملكون خبرة طويلة في مجال الدعوة، ولا يهمهم إلا ذلك العمل، ويتم تعيينهم بالتشاور.

أهمية العمل :

إن هذا العمل عمل مهم للغاية، فإن نبينا محمداً ﷺ جاهد في سبيله جهاداً تغيرت به حياة الناس جميعاً، في جميع شعبها: في الأكل والشرب والكسب والإنفاق والزواج والعبادة والمعاملة والسلوك، وقدم لنا رسولنا ﷺ نماذج مختلفة لهذا العمل لنقتدي بها، وهدانا إلى طرق شتى لبذل الجهد.

لكننا نعترف بعجزنا وتقصيرنا، ونقول: إننا لم نبدأ هذا العمل بعد في الحقيقة وسيشهده العالم في لونه الأصيل حين ينهض له أناس يتدافعون ويتسابقون إلى بذل نفوسهم، ذلل الألسن بذكر الله، عامري القلوب بالحسبة وطلب الأجر ويمتازون بالورع والزهد، ويتصفون بأخلاق النبي ﷺ، يخشون عذاب الله ويرجون رحمته، ويدعونه خوفاً وطمعاً، يصلون النهار بالليل والشتاء بالصيف، ولا يهمهم إلا نشر الدين من أقصى الأرض إلى أقصاها ومن شرقها إلى غربها.

يقول سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: رحم الله خالداً رضي الله عنه ليست له أمنية إلا أن يجيء الحق ويزهق الباطل.

الصحة والمبدأ:

إذا خطر ببالنا أننا لسنا في حاجة إلى تعلم الدين فإنه خطر عظيم لنا، إن البركات التي نشاهد اليوم هي بركات سابقة لعمل الدعوة، كما ظهرت البركات قبل مولد الرسول ﷺ، ولكن العمل الحقيقي والبركات الحقيقية ظهرت بعد أربعين سنة، فإننا نجهد اليوم لإعداد الدعوة، الذين يشتغلون في عمل الدعوة بتوفيق الله تعالى،

فينتشر بهم نور الهداية، تكون حياتهم مطابقة لدعوتهم، وإن الذين لا تتغير حياتهم لا يوفقهم الله لخدمة الدين، لأن هذا العمل هو عمل الأنبياء.

المبادئ والصحبة:

إذا أغفلت في هذا العمل مبادئ الدعوة والاهتمام برعاية آدابها، كان هناك خطر كبير للوقوع في الفتن الشديدة.

لما أراد النبي ﷺ الدعوة خارج الجزيرة العربية دعا الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، ورغبهم فيه ثلاثة أيام بكاملها.

ثم قال: إن المنهج الذي اختير هنا لعمل الدعوة هو نفس المنهج الذي سيختار لعمل الدعوة في الخارج، فهذا العمل الذي لا يتغير باللغة والثقافة، والمحل والمجتمع والجو والوضع، فلا بد لكم أن تتوجهوا لتعلم هذا المنهج إلى منطقة عاش بها الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي - رحمه الله - ، وبذل فيها جهوداً مضنية، وتختلطوا مع العاملين القدامى الذين لزموا صحبة الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي وقضوا وقتاً طويلاً معه وتعلموا منه طريق الدعوة مباشرة.

المجاهدة بدلاً من الخرائط:

قام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في عصورهم المختلفة لمواجهة خريطة من الخرائط وصرحوا أن النجاح لا يتوقف على هذه الخرائط والوسائل المادية، إنما النجاح بيد الله تبارك وتعالى ومنوط بذاته فإذا صلحت الأعمال، وصحّت النيات، كتب الله سبحانه وتعالى لنا الفلاح والفوز رغم خرائطنا البسيطة، وإذا فسدت الأعمال وانحرفت عن جادتها نعاني من الهزيمة والانحيار، ويقضى علينا بالزوال رغم ما نملكه من الخرائط والوسائل، نرى أن كل نبي عليه الصلاة والسلام يبذل جهداً كبيراً لمكافحة الخرائط المتداولة في عصره، واجه رسولنا محمد ﷺ خرائط كثيرة من الدولة والأغلبية والسلطة والمال والزرع، والصناعة، فلم يحقق ما حققه من نجاح بهذه الخرائط وإنما نجح بالتضحيات التي قدمها، والمجهودات التي بذلها، والآلام التي تعرض لها لإعلاء كلمة الإسلام، وفي الحقيقة أن الباطل يسود بخريطة الترف

والبذخ، والحق ينشر ظلاله بتحمل الأذى والمكارة، يلمع الباطل بالثروة والدولة، ويسطع نور الحق في الفقر والمشقة، إن الفتن التي تثور وتشتعل على أساس الثروة والرفاهية والحكومة لا يخمد نارها إلا من تحمل الفقر والأذى في سبيل الله، فعلينا أن نعد أنفسنا لهذا العمل وذلك يبذل النفوس والأرواح، وأكبر خطر على هذا العمل أن يوزع على الخرائط ويحصر عليها، وإذا حدث ذلك فيفقد روحه وشكله.

فلسيانه هذا العمل وإبقائه على صورته الأصلية ينبغي لنا أن نرفض جميع الخرائط المتوفرة لهذا العمل رفضاً باتاً، ونركز اهتمامنا كله على الجهد والكفاح، نوجه الدعوة إلى الفقراء، ونجلس إليهم ونتحدث معهم، ونخرج الجماعات الراجلة، يأتي إلينا الناس بنقود، فنقول لهم: إننا لا نجلس هنا لأخذ النقود وجمع الأموال إنما نجلس هنا أو نتوجه إليكم لتعلمكم الطرق الصحيحة للإنفاق، فتعلموا منا هذه الطرق وأنفقوا نقودكم بأيديكم بطريقة تعود إليكم بربح عظيم.

وينبغي لنا أن نحترز عن استخدام الطرق المألوفة من الإعلانات والملصقات والصحف والمجلات ووسائل الإعلام الأخرى، لأن هذه الطرق تختلف تماماً عن طرق هذا العمل، وهي الدعوة والجولة والتعليم والتشكيل.

عمل الدعوة في طلبة الكليات:

علينا أن نوجه هذه الدعوة إلى الطلبة الذين يدرسون في الكليات والجامعات العصرية ونبطهم بها، ونشكل الجماعات في سكن الطلاب للعمل المحلي، وتقوم هذه الجماعات، بجولتين في الأسبوع، جولة في سكن الطلاب، وجولة أخرى في حي قريب خارج السكن، وتتوجه الجماعات المحلية إلى سكن الطلاب وتعمل فيها، وينبغي لهؤلاء الطلاب أن يضعوا برنامجاً للتعليم اليومي وللخروج لثلاثة أيام.

الدعوة في النساء:

في عمل الدعوة في أوساط النساء خطر كبير لاحتمال سفورهن، فيمنع النساء عن الحضور في الاجتماعات العامة، ولا يسمح لهن إلا بالاجتماع في بيت من البيوت المجاورة للتعليم في يوم من الأيام.

وفي البداية يحاول الرجال أن يبلغوا أهلهم ما تعلموا في الاجتماع وحلقات التعليم، وبذلك تستعد الأذهان، وبعد عقد حلقات التعليم في داخل الحي يمكن عقد اجتماع في كل أسبوع تحضره النسوة من أحياء أخرى، ويجري في هذا الاجتماع أولاً التعليم، ثم يلقي شخص كلمة من وراء الستار، وفي بعض الأحيان تشكل جماعات للنساء ليوم أو ثلاثة أيام، وتتوجه هذه الجماعات إلى المناطق المتصلة، ويكون مع النساء أزواجهن أو محارمهن، ويمكن الرجال في المساجد ويطبق النساء في البيت المستور.

الكلمة الأخيرة:

انطلقت هذه الدعوة من مكة المكرمة، وبددت الظلام وملأت العالم كله نوراً وضياءً، وبدأ رسولنا محمد ﷺ دعوته من هذه المنطقة، وبذل فيها نفسه وروحه، وبلغ رسالته أصحابه البررة رضوان الله عليهم أجمعين إلى أنحاء العالم كلها، فعلينا أن نسعد بالعمل في هذه المنطقة المباركة، ونستطيع ذلك عن طريق الرحلات للحج والعمرة؛ لأنها تهيئ الفرصة للاجتماع بالقادمين من دول مختلفة وعرض الدعوة عليهم، والاستفادة من تجاربهم في مجال الدعوة، ويتسع بذلك نطاق العمل، وتيسر مجالات جديدة.

أعذر إليكم لطول هذه الرسالة، فقد أطنبت القول فيها لتجلى صورة هذا العمل، ويتبين منهجه، وتتضح أهدافه وغاياته، فأرجو أن تحظى بعنايتكم، وتقرأونها باهتمام بالغ، وتجعلونها نبزاً لكم.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته
محمد يوسف غفر له



الباب الثامن عشر

الكلمة الأخيرة

والتوجيهات الوداعية للشيخ محمد يوسف لدى توديع الجماعات التي تخرج في سبيل الله

كان من عادة الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي أن يلقي كلمة مؤثرة تشتمل على التوجيهات وإيضاح ما يجب على الخارجين في سبيل الله والاهتمام به من الأمور المتعلقة بالعمل الدعوي، وما يجب عليهم أن يحترزوا عنه خلال إقامتهم وخلال رحلتهم، وأثناء دعوتهم، ولقاءاتهم، وبيان المزالق والهناك التي قد تقع في هذه الفترة، ويختل بها النظام أو تؤثر في طبيعة العمل، وتفقد التأثير على القلب، وتحول دون جلب المنافع المنشودة من الخروج في سبيل الله، وكانت تختلف هذه الكلمات باعتبار الظروف، وطبيعة العمل، والخارجين في سبيل الله، ولكنها تتفق على النقاط التالية التي اقتبست من كلمته الوداعية التي ألقاها في اجتماع «مجاهرات» بالقرب من «كلكتا».

بعد الخطبة المسنونة قال الشيخ:

إن الشمس نورانية تملأ الأرض نوراً فلو صارت مظلمة لانتشر الظلام، وكذلك أنتم الدعاة تخرجون من بيوتكم، وتنتقلون من مكان إلى مكان، فإذا كنتم حاملين للنور انتقل هذا النور إلى كل مكان تزورونه، وإلى النفوس التي تخاطبونها، فالأمر الأساسي في سبيل الدعوة أن يحمل الداعي نوراً في قلبه، فينتقل هذا النور إلى قوله وعمله، ولكن هذا النور لا يولد في النفوس إلاً باتباع الأعمال التي تولد النور، فعليكم أن تلازموا هذه الأعمال.

الأعمال التي تولد النور:

إن الأعمال المعمورة بالنور هي سنة الرسول ﷺ، والأعمال التي يتغنى بها رضا الله سبحانه وتعالى، فلا بد من المواظبة على هذه الأعمال والاستقامة عليها بكل ثقة ويقين وطمأنينة قلب، وهذه الأعمال كما يلي:

١ - الدعوة إلى كسب الإيمان واليقين وهو ميراث الأنبياء، والنصيحة لعباد الله بالإخلاص وحسن النية.

٢ - الصلاة وسائر العبادات، بما فيها الذكر والتلاوة والدعاء والاستغفار.

٣ - الاشتغال بالعلم، وخاصة العلم الذي يشتمل على الترغيب والترهيب.

٤ - الخلق الحسن، والاقتداء فيه بسنة الرسول ﷺ وخلق، وخلاصته أن يكون هدف كل عمل ابتغاء رضا الله، وخدمة خلقه، والإحسان إليه.

هذه هي الأعمال النورانية التي إذا واطب عليها الداعي أورثت في القلب نوراً، وحولت الحياة نورانية، فعليكم أن تواظبوا عليها خلال خروجكم في سبيل الله.

عدوَّان يجب الاحتراس منهما:

عليكم أن تحترسوا كل الاحتراس في هذه الفترة من عدوين يرافقانكم، وهما النفس والشيطان، فقد ودعتم أهل البيت، وتركتم بيوتكم وأصحابكم، ولكن النفس والشيطان يرافقانكم، ويسعى كلاهما أن يصرفكم عن أعمال النور إلى أعمال الظلام، فتحرموا من ثمار هذه الدعوة.

كيف السبيل إلى الاحتراس من الأعداء:

إن الطريق الذي ينجيكم من هذين العدوين هو أن تشتغلوا سوى أوقات النوم بأعمال النور، فلا يكون شغلכם إلاَّ الدعوة أو الصلاة، أو الذكر أو التلاوة، أو التعليم والتعلم، أو عمل يرضي الله تعالى، ولا يكون في ليلكم ونهاركم فراغ.

ابتغاء رضا الله:

ومما يهم هنا أن هذه الأعمال أيضاً لا تكون أعمال النور إلاَّ إذا صدرت بنية

الحصول على رضوان الله واليقين بأجر الآخرة، فإذا فسدت النية ضاعت هذه الأعمال، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه ما يدل على ذلك، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه، رجل استشهد، فَأُتِيَ به فعرفه نعمته، فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال جرىء، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلم العلم وعلمه، وقرأ القرآن، فَأُتِيَ به، فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم، وعلمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل وسّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله، فَأُتِيَ به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقي في النار. (مسلم رقم ١٩٠٥، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار).

كان أبو هريرة رضي الله عنه عندما يروي هذا الحديث تأخذه أحياناً رعدة ويجهش بالبكاء ويغمى عليه. ولما سمع معاوية رضي الله عنه هذا الحديث غلبه البكاء حتى خشي الناس على حياته، وبعدما هدأ به قال: «صدق الله ورسوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ ١١ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ١٢».

وخلاصة القول أن تراعوا حسن النية في الأعمال، والاحتباس من كل ما يخل بهذه النية، والاشتغال الكامل بأعمال النور.

وقد قلت لكم وأعيده أن تشتغلوا بأربعة أمور:

١ — الدعوة إلى الإيمان، واليقين، وأعمال الإيمان، وذلك بالقيام بجولة عامة وخاصة، ورعاية الآداب، والاهتمام بإخلاص النية والتركيز الكامل على الدعوة، والانصراف الكامل عما سواه، فلا تجذبكم مظاهر الحياة وزخارفها.

وإذا خرجتم في جولة خاصة يجب فيها إنزال الناس منازلهم، والتحدث إليهم حسب مراتبهم، فإذا وجدتم أنه لا يصغي إليكم عليكم أن تلخصوا كلامكم، وتدعوا له بالخير.

وإذا كنتم تتكلمون مع أحد رجال العلم والدين فعليكم أن تكتفوا في كلامكم بطلب الدعاء منه، وشرح منهج عملكم بالتلخيص.

وفي الجولة العامة عليكم أن تدعوا الناس إلى الاجتماع في المسجد وتعرضوا عليهم الإيمان واليقين، والصلاة وذكر الله، وعلم الدين والأخلاق الحسنة ثم يتم تشكيلهم أي دعوتهم إلى الخروج في سبيل الله.

وبعد الانتهاء من عمل الدعوة تضرعوا إلى الله سبحانه وادعوه مخلصين منييين إليه، فهو مصرف القلوب، وهو الذي يهدي ويهب الخير، وهو المانع وهو المعطي.

٢ - والعمل الثاني بعد الدعوة، الاشتغال بالتعليم.

٣ - ٤ - وما يبقى من الوقت من الدعوة والتعليم، والأعمال الملحة الأخرى عليكم أن تقضوا هذا الوقت في التلاوة، والذكر وخدمة الخلق.

وهذه هي المجالات الأربعة، الدعوة، والتعلم والتعليم، والذكر، والتلاوة، والعبادة، وخدمة الخلق.

الأعمال التي لا مناص منها، ولكن بقدر الحاجة :

الأكل والشرب، قضاء الحاجة، النوم، تبادل الكلام، وهي أعمال لا مناص منها ولكن يجب أن تقضى بقدر الضرورة.

الأعمال التي يجب الاجتناب لها :

هناك أربعة أمور يجب الاحتراز عنها كلياً.

١ - السؤال.

٢ - الإشراف، وهو أن لا يوجه السؤال إلى أحد، ولكن يطمع الإنسان أن تقضى تلك الحاجة من شخص.

٣ - الإسراف.

٤ - استعمال شيء يملكه شخص آخر بدون إذنه.

هذه هي الأمور المهمة التي يجب على الخارجين في سبيل الله مراعاتها، فإذا قضى أحد ٢٤ ساعة برعاية هذه الأمور، والتزم بالمنهج السليم، كان خروجه مقبولاً نافعاً، ثم الدعاء للنفس، وللأمة الإسلامية كلها، ولجميع الناس بالهداية والخير.



الأدعية التي يدعو بها
الداعية الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي رَحِمَهُ اللهُ
عند نهاية الاجتماعات

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ * أَلَمْ * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ *
وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ * لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ *
يَا أَحَدَ الصَّمَدِ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ * يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ،
يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، يَا رَبَّنَا، يَا سَيِّدَنَا يَا مَوْلَانَا وَغَايَةَ رَغْبَتِنَا
(يَا خَالِقَ أَنْفُسِنَا) ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * رَبَّنَا
اغْفِرْ لَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَتَجَاوَزْ عَمَّا تَعْلَمُ إِنَّكَ
أَنْتَ الْأَعَزُّ الْأَكْرَمُ.

اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ، اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ
صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ، اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ،
يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَى دِينِكَ، يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَى دِينِكَ،
يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَى دِينِكَ *

اللَّهُمَّ إِنَّ قُلُوبَنَا وَنَوَاصِبَنَا وَجَوَارِحَنَا بِيَدِكَ لَمْ تُمَلِّكْنَا مِنْهَا شَيْئًا فَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ
بِنَا فَكُنْ أَنْتَ وَلِيُّنَا وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ السَّبِيلِ * اللَّهُمَّ أَرِنَا الْحَقَّ حَقًّا وَارْزُقْنَا اتِّبَاعَهُ وَأَرِنَا
الْبَاطِلَ بَاطِلًا وَارْزُقْنَا اجْتِنَابَهُ * اللَّهُمَّ ارْزُقْنَا حُبَّكَ وَحُبَّ رَسُولِكَ وَحُبَّ مَنْ يَنْفَعُنَا حُبُّهُ
عِنْدَكَ وَالْعَمَلَ الَّذِي تُبَلِّغُنَا حُبَّكَ * اللَّهُمَّ اجْعَلْ حُبَّكَ أَحَبَّ الْأَشْيَاءِ إِلَيَّ وَاجْعَلْ
خَشْيَتَكَ أَخْوَفَ الْأَشْيَاءِ عِنْدِي * اللَّهُمَّ لَا سَهْلَ إِلَّا مَا جَعَلْتَهُ سَهْلًا وَأَنْتَ تَجْعَلُ الْحَزْنَ
سَهْلًا إِذَا شِئْتَ * لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْحَلِيمُ الْكَرِيمُ سُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، أَسْأَلُكَ مُوجِبَاتِ رَحْمَتِكَ وَعَزَائِمَ مَغْفِرَتِكَ وَالْعِصْمَةَ مِنْ كُلِّ
ذَنْبٍ وَالْغَنِيمَةَ مِنْ كُلِّ بَرٍّ وَالسَّلَامَةَ مِنْ كُلِّ إِثْمٍ لَا تَدْعُ لِي ذَنْبًا إِلَّا غَفَرْتَهُ، وَلَا هَمًّا إِلَّا

فَرَجَّتْهُ، وَلَا كَرْبًا إِلَّا نَفْسَتَهُ، وَلَا ضَرًّا إِلَّا كَشَفَّتَهُ، وَلَا حَاجَةً هِيَ لَكَ رِضَى إِلَّا قَضَيْتَهَا
يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ * إِلَيْكَ رَبِّ فَحَبِّبْنَا وَفِي أَنْفُسِنَا فَذَلَّلْنَا وَفِي أَعْيُنِ النَّاسِ فَعَظَّمْنَا وَمِنْ
سَيِّئِ الْأَخْلَاقِ فَجَبَّبْنَا وَعَلَى صَالِحِ الْأَخْلَاقِ فَقَوَّمْنَا وَعَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ فَجَبَّبْنَا
وَعَلَى الْأَعْدَاءِ أَعْدَائِكَ أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ فَانْصُرْنَا * اللَّهُمَّ انْصُرْنَا وَلَا تَنْصُرْ عَلَيْنَا *
اللَّهُمَّ أَكْرَمْنَا وَلَا تَهِنَّا * اللَّهُمَّ آثَرْنَا وَلَا تُؤَثِّرْ عَلَيْنَا * اللَّهُمَّ زِدْنَا وَلَا تَنْقُصْنَا، اللَّهُمَّ
امْكُرْ لَنَا وَلَا تَمْكُرْ عَلَيْنَا * اللَّهُمَّ ارْحَمْنَا وَلَا تُسَلِّطْ عَلَيْنَا مَنْ لَا يَرْحَمُنَا * اللَّهُمَّ اشْرَحْ
صُدُورَنَا لِلْإِسْلَامِ * اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْإِيمَانَ وَزَيِّنْهُ فِي قُلُوبِنَا وَكَرِّهِ إِلَيْنَا الْكُفْرَ
وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ * اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنَ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ * اللَّهُمَّ اهْدِنَا الصِّرَاطَ
الْمُسْتَقِيمَ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ
وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا *

اللَّهُمَّ اهْدِ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. اللَّهُمَّ عَلَّمَهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ.
اللَّهُمَّ أَلْهِمَّهُمْ مَرَاشِدَ أُمُورِهِمْ. اللَّهُمَّ اجْعَلْهُمْ دُعَاةَ إِلَيْكَ وَإِلَى رَسُولِكَ. اللَّهُمَّ بَيِّنْهُمْ
عَلَى مِلَّةِ رَسُولِكَ. اللَّهُمَّ أَوْزِعْهُمْ أَنْ يَشْكُرُوا نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ وَأَنْ يُوَفُّوا
بِعَهْدِكَ الَّذِي عَاهَدْتَهُمْ عَلَيْهِ. اللَّهُمَّ انْصُرْهُمْ عَلَى عَدُوِّكَ وَعَدُوِّهِمْ إِلَى الْحَقِّ آمِينَ *
اللَّهُمَّ اهْدِ هَذِهِ الْبَلَدَةَ. اللَّهُمَّ اهْدِ هَذَا الْمَلِكَ. اللَّهُمَّ اهْدِ هَذِهِ الْحُكُومَةَ. اللَّهُمَّ اهْدِ
النَّاسَ جَمِيعًا. اللَّهُمَّ اهْدِ النَّاسَ جَمِيعًا. اللَّهُمَّ اهْدِ النَّاسَ جَمِيعًا * اللَّهُمَّ عَلَيْكَ
بَصَنَادِيدِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْمُشْرِكِينَ. اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِأَشِدَائِهِمْ عَلَى الْإِسْلَامِ
وَالْمُسْلِمِينَ. اللَّهُمَّ افْطَعْ دَابِرَهُمْ. اللَّهُمَّ خُذْ مُلْكَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ. اللَّهُمَّ فَلْ أَسْلِحْتَهُمْ.
اللَّهُمَّ أَهْلِكْهُمْ كَمَا أَهْلَكْتَ عَادًا وَثَمُودًا. اللَّهُمَّ خُذْهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُقْتَدِرٌ * اللَّهُمَّ
أَخْرِجِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى وَالْمُشْرِكِينَ مِنْ جَزِيرَةِ الْحَبِيبِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ. اللَّهُمَّ أَخْرِجِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى وَالْمُشْرِكِينَ مِنْ جَزِيرَةِ
الْحَبِيبِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ * اللَّهُمَّ أَخْرِجِ الْيَهُودِيَّةَ
وَالنَّصْرَانِيَّةَ وَالْمَجُوسِيَّةَ وَالشُّيُوعِيَّةَ وَالشِّرْكَ عَنْ قُلُوبِ الْمُسْلِمِينَ يَا مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي
الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *

اللَّهُمَّ أَيِّدِ الْمُسْلِمِينَ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا بِالْإِمَامِ الْعَادِلِ وَالْخَيْرِ
وَالطَّاعَاتِ وَاتَّبِعْ سُنَنَ سَيِّدِ الْمَوْجُودَاتِ * اللَّهُمَّ وَفَقِّهِمْ لِمَا تُحِبُّ وَتَرْضَى وَاجْعَلْ
آخِرَتَهُمْ خَيْرًا مِنَ الْأُولَى * اللَّهُمَّ انصُرِ الْإِسْلَامَ وَالْمُسْلِمِينَ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ
وَمَغَارِبِهَا * اللَّهُمَّ أَعِزِّ الْإِسْلَامَ وَالْمُسْلِمِينَ فِي الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ اللَّهُمَّ أَغْلِ كَلِمَةَ
الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ فِي الْمَمْلَكَةِ الْهِنْدِيَّةِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْمَمَالِكِ الْمُلْحَقَةِ. اللَّهُمَّ رَبَّنَا آتِنَا
فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ
وَالْفَوْزَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. اللَّهُمَّ أَحْسِنْ عَاقِبَتَنَا فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا وَأَجِرْنَا مِنْ خِزْيِ
الدُّنْيَا وَعَذَابِ الْآخِرَةِ. اللَّهُمَّ ارْحَمْنَا بِتَرْكِ الْمَعَاصِي أَبَدًا مَا أَبْقَيْتَنَا.

اللَّهُمَّ أَعِنَّا عَلَى تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ وَذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ. اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا
الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ * اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا وَأَوْلَادَنَا وَأَحْبَابَنَا وَأَقَارِبَنَا وَجَمِيعَ
الْمُبَلَّغِينَ وَالْمُعَلِّمِينَ وَالْمُتَعَلِّمِينَ عَنِ الْفَوَاحِشِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَجَنِّبْنَا الْحَرَامَ
حَيْثُ كَانَ وَأَيْنَ كَانَ وَعِنْدَ مَنْ كَانَ وَحُلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ أَهْلِهِ * اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا
سَأَلَكَ مِنْهُ نَبِيُّكَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا اسْتَعَاذَكَ مِنْهُ نَبِيُّكَ
مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ رِضَاكَ وَالْجَنَّةَ. اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ
الْجَنَّةَ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ * اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ وَنَعُوذُ
بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ. وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ
الدَّجَالِ. وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ. وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ،
وَنَعُوذُ بِكَ مِنَ الْمَأْثَمِ وَالْمَغْرَمِ وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ نَمُوتَ فِي سَبِيلِكَ مُذْبِرِينَ *

اللَّهُمَّ تَثْبِيثًا كَتَبْتَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ. اللَّهُمَّ تَثْبِيثًا كَتَبْتَ مُوسَى عَلَيْهِ
السَّلَامُ. اللَّهُمَّ تَثْبِيثًا كَتَبْتَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ * اللَّهُمَّ وَاقِيَةَ كَوَاقِبِ الْوَلِيدِ.
اللَّهُمَّ وَاقِيَةَ كَوَاقِبِ الْوَلِيدِ. اللَّهُمَّ وَاقِيَةَ كَوَاقِبِ الْوَلِيدِ * اللَّهُمَّ نَصْرًا كَمَا نَصَرَ مُحَمَّدٌ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَصَرَ أَصْحَابَهُ. اللَّهُمَّ نَصْرًا كَمَا نَصَرَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَصَرَ
أَصْحَابَهُ. اللَّهُمَّ نَصْرًا كَمَا نَصَرَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَصَرَ
أَصْحَابَهُ * اللَّهُمَّ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ *
رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ.



فَهْرَسْتُ الْمَوْضُوعَاتِ

الموضوع	الصفحة
تقديم بقلم: الأستاذ الدكتور تقي الدين الندوي	٥
كلمة المترجم	٧
مقدمة لسماحة الشيخ السيد أبي الحسن علي الحسيني الندوي	١١
كلمة المترجم	١١
الباب الأول: الأسيرة	٢٧
الشيخ محمد أشرف الطيب	٢٧
علاقته بـ «كاندهله» مع الشيخ محمد مدرّس	٢٨
الشيخ شيخ الإسلام	٢٩
المفتي إلهي بخش، والشيخ أبو الحسن	٣١
الشيخ نور الحسن وخلفه	٣٢
الشيخ مظفر حسين الكاندهلوي	٣٧
علاقته بالسيد أحمد الشهيد وارتباطه بحركة الجهاد	٣٨
نساء الأسرة	٤١
الشيخ أبو القاسم وأولاده	٤٢
الشيخ محمد ساجد الجهنجهانوي	٤٣
الشيخ محمد صابر والشيخ محمد مصطفى الشهيد وأولادهما	٤٤
الشيخ محمد إسماعيل	٤٥

٤٧	الاستغناء المثالي
٤٨	بلدة ميوات وعلاقة الشيخ محمد إسماعيل بأهاليها
٤٩	وفاته
٥٠	الشيخ محمد صاحب
٥١	الشيخ محمد يحيى الكاندهلوي
٥٤	الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي
٥٥	دراسته الأولى، وكيف كان يراه المشايخ الكبار
٥٦	إقامته في بلدة كَنَكُوْه
٥٧	دراسته للحديث النبوي الشريف
٥٨	في حي نظام الدين
٥٩	بداية أعمال الإصلاح والتعليم
٥٩	ميوات وإسلامها
٦١	إنشاء المدارس والكتاتيب
٦٢	إنشاء حركة دعوية شعبية
٦٣	من المدارس إلى حركة دينية تربوية، الاجتماع الديني الأول
٦٤	منهج العمل والمبادئ والمتطلبات
٦٦	بداية الجولات وتنقل الجماعات
٦٩	طبيعته المضطربة
٧١	الرحلة الأخيرة للحج وانتشار الحركة
٧٣	اجتماع في ميوات
٧٤	مرضه ووفاته
٧٧	الباب الثاني: الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي
٧٧	نسبه من جهة أبيه، نسبه من جهة أمه، مولده ونشأته

٧٨	حفظ القرآن الكريم، صلته بالشيخ خليل أحمد السهارنفوري
٧٩	حنينه إلى الحج والزيارة، تربيته
٨٤	الشغف الزائد بتلاوة القرآن الكريم، نفوره من السؤال
٨٥	خدمة الضيوف، دراسته الأولى، التعليم المتوسط
٨٦	دراسته العليا للحديث النبوي الشريف
٨٧	عكوفه على الدراسة واشتغاله بالعلم
٨٨	زواجه
٨٨	الحج الأول
٨٩	ذوقه العلمي والتألفي
٩٠	شغفه الزائد بالمطالعة واقتناء الكتب
٩١	ذوقه الأدبي
٩٢	تقواه وتورعه الكامل
٩٣	بداية أعمال التأليف، مولد الشيخ محمد هارون
٩٥	الباب الثالث: نيابة الشيخ محمد يوسف والده
٩٥	علو استعداداه
٩٧	خطبته في بلدة نوح، خطبته في بلدة كنسالي، اجتماع خيرتل
٩٩	جولته في كراتشي بباكستان
١٠٠	رحلته إلى كهاتشي ميكا
١٠١	التعاون مع عمل الدعوة محلياً
١٠٢	قضية خلافة الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي
١٠٥	رأي الشيخ عبد القادر الرائيثفوري
١٠٦	تعيين الشيخ محمد يوسف

١١١	الباب الرابع: من وفاة الشيخ محمد إلياس إلى تقسيم الهند
١١١	تمهيد
١١٤	رسالة مفصلة إلى مراكز الدعوة المختلفة
١١٧	الاجتماع الأول في بلدة نوح
١١٩	حلول شهر رمضان المبارك والاهتمام به
١٢٢	زيارة لمدينة سهارنفور وبلدة رائيفور
١٢٣	حفلة كلالته
١٢٥	جولتان في بلدة ميوات
١٢٨	زياراته المتكررة لبلدة ميوات
١٣١	حفلة مالب
١٣٢	اجتماع مدينة مرادآباد
١٣٧	جماعة كبيرة تتوجه إلى بيشاور
	وفاة الشيخ عبد الرحمن الميواتي وقدم الشيخ الرائيפורي إلى
١٤١	مركز نظام الدين
١٤١	ثلاثة اجتماعات في ثلاثة أماكن
١٤٢	زيارته لديوبند، رحلته إلى سهارنفور
١٤٣	مشورة دينية مهمة في حي نظام الدين
١٤٥	رحلته إلى مرادآباد
١٤٦	الدعوة في لندن
١٤٧	العلماء والمشايخ يزورون مركز نظام الدين ويقيمون فيه أسبوعاً
١٤٨	الاجتماع الكبير في رحيم آباد
١٥٢	الرحلة إلى كلكتة
١٥٣	جماعة قلات في دهلي
١٥٥	الرحلة إلى قلات

١٥٧	اهتمام خاص برمضان في نظام الدين
١٥٨	المشايع يقضون في نظام الدين فترة الاضطرابات والقلقل
١٥٩	السفر إلى مدينة لكهنؤ وبلدة رائى بريلي
١٦٢	الرحلة إلى كراتشي

الباب الخامس: تقسيم الهند وانعكاساته وعواقبه، عمل الدعوة

١٦٥	في المناطق المنكوبة بالاضطرابات
١٦٥	تقسيم الهند
١٦٦	التبليغ والدعوة في اللاجئين
١٦٩	دعاء مؤثر
١٦٩	الاضطرابات الطائفية في دلهي وعزيمة الدعاة إلى الله وثباتهم
١٧٠	القلب المتحرق والنفس القلقة للشيخ محمد يوسف
١٧١	منهج الدعوة والتبليغ
١٧٢	مساعدة الشيخ حفظ الرحمن السيوهاروي
١٧٤	جرح القلب
١٧٥	العزيمة المثالية والصمود كالجبل
١٧٨	خطر الهجوم على المركز
١٧٩	رأي بعض المخلصين بالانتقال من المركز ورفض الشيخ هذا الرأي
١٨١	تفتيش المنزل، العزيمة الصديقية
١٨٣	العلاج الناجع
١٨٤	الاضطرابات تندلع في المنطقة الشرقية لولاية بنجاب
	الأخطار التي تعرضت لها الجماعات المتجهة إلى المنطقة الشرقية
١٨٥	لولاية بنجاب

الباب السادس: جولات الشيخ محمد يوسف، والاجتماعات الدينية

١٩١	في الهند
١٩١	تحديد الموعد
١٩٢	تفريغ الأوقات للدعوة قبل الاجتماع
١٩٣	تشكيل جماعات للعمل في المنطقة وفي الخارج
١٩٥	اجتماع عظيم
١٩٧	كثرة الخارجين في الجماعات، برنامج الشيخ في الرحلات الدعوية ...
١٩٩	تأثير الاجتماعات
٢٠٠	بداية الاجتماعات
٢٠١	اجتماع رائيفور
٢٠٢	اجتماع كرسي، اجتماع لكهنؤ لإعداد تخطيط للدعوة في لكهنؤ
٢٠٣	اجتماع نوح
٢٠٤	اجتماع مهم في سهارنفور، اجتماع مجراوات
٢٠٥	اجتماع كرهى دولت وكيرانه
٢٠٦	اجتماع بهوفال
٢٠٧	اجتماع أساره
٢٠٨	اجتماع كانفور
٢٠٩	اجتماع مراد آباد
٢١٠	اجتماع أجراوه، الاجتماع الثاني في رائيفور
٢١١	جولة في مظفر نجر، في الجامعة الإسلامية بعليجراه، اجتماع پتھرگره
٢١٢	اجتماع سهارنفور، تعليم الصحاح الستة في المركز بنظام الدين
٢١٣	اجتماع بهوفال وعدم اشتراك الشيخ محمد يوسف فيه
٢١٤	اجتماع المدرسين في ميوات، اجتماعات أخرى
٢١٥	الرحلة إلى مدراس

٢١٧	اجتماعات بستي وأجره، اجتماع سيتابور
٢١٨	اجتماع مجراوات
٢١٩	اجتماع سيكرى، اجتماع لكهنؤ
٢٢٠	اجتماعات متعاقبة
٢٢١	اجتماع مظفر نجر وجهنجهانه
٢٢٢	إضراب الطلاب في دار العلوم ديوبند ونشاط الجماعة
٢٢٣	اجتماع بروت، واجتماع داسنه، والرحلة إلى سهارنفور ورائنفور
٢٢٤	اجتماع جنجوه، اجتماع چهاپي
٢٢٥	رحلة إلى رائيفور، اجتماع بستي
٢٢٦	اجتماع ميرت، اجتماع جهنجهانه، اجتماع العرب في سهارنفور
٢٢٧	الجماعة الثانية للعرب
٢٢٨	اجتماع ماليجاون
٢٢٩	جولة في جنوب الهند
٢٣٠	اجتماع رجال الأعمال
٢٣٢	جماعة العرب
٢٣٣	اجتماع نهتور
٢٣٤	اجتماع بندوه
٢٣٥	اجتماع مرادنجر وبهت، اجتماع كاوي
٢٣٦	الاجتماع الأخير في مرادآباد
٢٣٧	اجتماع سهارنفور
٢٣٩	الباب السابع: الدعوة في «باكستان» و«بنجلاديش»
٢٣٩	طبيعة عمل الدعوة في باكستان
٢٤٠	اجتماع رائيوند

الدعاة المخلصون في باكستان	٢٤٢
الاجتماع الأول في كراتشي بعد تقسيم الهند، الاجتماع الأول في لاهور ..	٢٤٤
الرحلة إلى راولپندي، اجتماع بيشاور	٢٤٦
اجتماع سكهر	٢٤٧
جولة باكستان الأولى، رحلة داکا	٢٤٨
اجتماع رائيوند، اجتماع كهلنا، اجتماع رائيوند الثاني	٢٤٩
اجتماع شيتاجونج، الرحلة الثانية إلى باكستان	٢٥٠
الرحلة الثالثة إلى «باكستان»، اجتماع داکا، الزيارة الرابعة لباكستان ...	٢٥٢
الزيارة الخامسة لباكستان	٢٥٣
الزيارة السادسة لباكستان	٢٥٤
الرحلة إلى باكستان الشرقية، الرحلة السابعة لباكستان	٢٥٧
الرحلة الثامنة لباكستان	٢٥٨
الباب الثامن: الدعوة في أرض الحجاز	٢٦٣
الحج ودوره في الدعوة	٢٦٣
غرض الحج	٢٦٤
برنامج موسم	٢٦٥
صيانة الوقت	٢٦٧
الجماعة الأولى، الجماعة الثانية	٢٦٨
العمل في موانئ كراتشي وبومبائي	٢٦٩
الدعوة على ظهر السفينة	٢٧١
في أرض الحجاز	٢٧٢
في المدينة المنورة، في رباط الحجاج	٢٧٣
جولات واجتماعات في أزقة المدينة وأحيائها	٢٧٤

الموضوع	الصفحة
النتائج الطيبة والثمار الحسنة	٢٧٤
الاتصال بطبقة الأغنياء والمسؤولين عن الدعوة	٢٧٦
الاتصال بالسكان المحليين	٢٧٧
قبائل البدو	٢٧٨
مشورة مهمة في صدد العمل في الحجاز	٢٧٩
الحاجة إلى داع وعالم له قدرة على التعبير بالعربية	٢٨١
اختيار الشيخ أبي الحسن علي الحسن الندوي لهذه الدورة	
ورحلته إلى الحجاز	٢٨٢
الاجتماع وبدأ التعريف بالجماعة، اجتماع الأتراك	٢٨٣
حلقات العلماء، الاتصالات بعلماء المدينة	٢٨٤
الارتباط بعلماء مكة، التعريف بعمل الدعوة في الأوساط العليا	٢٨٧
العلامة السيد سليمان الندوي يتحدث في اجتماعات التبليغ	٢٨٩
النشاط الدعوي في الدوائر الأدبية	٢٨٩
اجتماع بستان البخاري	٢٩٠
الرحلة إلى وادي فاطمة، الرحلة إلى الطائف	٢٩١
المدرسة الصولتية	٢٩٢
سير الأعمال في الحجاز وطبيعتها في ضوء الرسائل	٢٩٣
الباب التاسع: الدعوة في العالم العربي	٢٩٩
صلة المسلمين بالعالم العربي ومكانته في خريطة العالم	٢٩٩
الغزو العسكري للقوى الأوروبية وتأثير الحضارة الغربية	٣٠٠
حركة لانتشال غرقى الحضارة الغربية	٣٠٠
جهود رجال التبليغ والمنهج الدعوي الخالص	٣٠١
مصر	٣٠٧

رحلة دعوية، في مركز شباب سيدنا محمد ﷺ	٣٠٨
في مركز الجمعية الشرعية	٣٠٩
إرسال جماعة من المناطق المجاورة وتأثير هذه الجماعة	٣٠٩
الاستقبال العام للدعوة	٣١٢
السودان	٣١٣
العراق	٣١٥
الشام	٣١٧
الأردن	٣٢٠
فلسطين	٣٢٢
لبنان	٣٢٤
حضر موت	٣٢٥
اليمن	٣٢٧
ليبيا	٣٢٨
تونس	٣٢٩
الجزائر	٣٣٠
مراكش	٣٣٢
الباب العاشر: الدعوة في الدول الأفريقية والآسيوية والأوروبية	٣٣٩
تمهيد	٣٣٩
أفغانستان	٣٤٠
تركيا	٣٤٢
إندونيسيا	٣٤٥
ماليزيا	٣٤٧
بورما	٣٤٩

الموضوع	الصفحة
سيلان	٣٥١
حركة الجماعات في أفريقيا	٣٥٢
الباب الحادي عشر: الدعوة في «أوروبا» و «أمريكا» و «اليابان»	٣٦٥
الحاجة لعمل الدعوة في أوروبا وأمريكا واليابان	٣٦٥
طبيعة العمل في بريطانيا	٣٦٩
اجتماع تبليغي في لندن	٣٧٢
اجتماع مانشستر	٣٧٣
أمريكا	٣٧٧
اليابان، طوكيو	٣٩٢
الباب الثاني عشر: الجماعات الراجلة وحركاتها ونظامها	٤٠١
حركة الجماعات الراجلة داخل البلاد	٤٠١
نظام الجماعات الراجلة	٤٠٢
جماعة الحج الراجلة	٤٠٦
الجماعات الراجلة في بلدان أخرى	٤٠٩
الجماعات الراجلة في العالم العربي	٤١٢
من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة	٤١٥
من المدينة المنورة إلى اليمن	٤١٦
في جيزان وأبها	٤١٧
الرحلة الثانية إلى أبها	٤٢١
من المدينة المنورة إلى سوريا	٤٢٢
الباب الثالث عشر: الحج والعمرة	٤٢٩
الرحلة الثانية إلى الحج	٤٢٩
العمرة الأولى	٤٣٢

العمرة الثانية	٤٣٥
الحج الأخير	٤٣٦
برنامج بمكة المكرمة	٤٣٩
خطابان هاما للشيخ محمد يوسف	٤٤٠
في المدينة المنورة، في بدر	٤٤٢
برنامج الشيخ محمد يوسف في المدينة المنورة	٤٤٣
خروج الجماعات للدعوة	٤٤٤
العودة	٤٤٦
الباب الرابع عشر: رحلة «باكستان» الأخيرة	٤٤٧
مقدمة للرحلة إلى الآخرة	٤٤٧
في باكستان الشرقية، الإقبال العام والشعبية الساحقة	٤٤٨
برنامج سفره	٤٤٩
الدعوة إلى زيارة بورما وتأجيل الزيارة	٤٥١
في باكستان الغربية	٤٥٢
اجتماع راثيوند	٤٥٣
انطباع مؤثر	٤٥٥
اجتماع الموظفين والمسؤولين والميواتيين	٤٦٠
صلاة الجمعة في كوجرنواله وخطاب الشيخ محمد يوسف	٤٦١
في مركز التبليغ بلاهور، الاجتماعات الأخيرة في راثيوند	٤٦١
الباب الخامس عشر: المرض والوفاة	٤٦٥
المرض	٤٦٥
اشتداد مرضه، الخطاب الأخير	٤٦٦
الليلة الأخيرة من حياته	٤٦٩

٤٧٠	تخفيف مؤقت في المرض
٤٧٢	النوبة القاضية
٤٧٣	إلى الرفيق الأعلى
٤٧٤	الجنائز في بلال بارك
٤٧٨	التجهيز والتكفين، قضية الدفن
٤٧٩	صلاة الجنائز
٤٨٠	من لاهور إلى نظام الدين
٤٨١	صلاة الجنائز الأخيرة والدفن
٤٨٢	إمارة الشيخ إنعام الحسن الكاندهلوي
٤٨٢	طريقة بديعة للتعزية
٤٨٣	رسالة هامة إلى مراكز الجماعة
٤٨٧	الباب السادس عشر: المزايا الشخصية والمميزات الخلقية
٤٨٧	المميزات الشخصية والخلقية
٤٨٨	مكانته العليا
٤٨٩	انشغاله بالدعوة والعكوف عليها
٤٩٠	حرقة القلب واضطراب النفس
٤٩١	الإيمان واليقين
٤٩٤	الاستغناء والتوكل على الله
٤٩٦	الثقة بالنفس
٤٩٧	رحابة الدعوة وسعتها
٤٩٩	حضور البديهة والتأثير في الخطابة والشغف الزائد بالدعاء
٥٠١	حديثه في المجالس
٥٠٢	الجهد المتواصل والصبر والعزيمة

٥٠٦	نظام العمل العادي
٥٠٧	التواضع ونكران الذات
٥١١	الوحدة والتضامن
٥١٢	علاقته الخاصة بمن رافق والده في عمل الدعوة
٥١٤	التقاء العلم والتأليف بالدعوة
٥١٥	القبول والشعبية الفائقة
٥١٦	اتباع السنّة
٥١٨	التربية وتزكية النفس
٥١٩	التأثير على النفوس
٥٢٠	الصلة الحية بالله والاستقامة في سبيل الله
٥٢١	اللغة وأسلوب البيان

الباب السابع عشر: الأحاسيس والمشاعر والحركة والدعوة،

٥٢٣	المبادئ والآداب والتوصيات
٥٢٣	تمهيد
٥٢٤	ليس الإسلام هوى النفس
٥٢٥	الشرط الأول: الإيمان
٥٢٦	التغير الداخلي
٥٢٧	التصور الجامع للأمة
٥٣٠	الطريق إلى إحياء الأمة
٥٣١	الأعمال والأخلاق بدلاً من الذات والشخصية
٥٣٢	الإخلاص ورضوان الله
٥٣٣	قوة العلم النبوي والأعمال النبوية
٥٣٤	المجتمع الإسلامي والمجتمع الجاهلي

٥٣٥	فضيلة العلم والعلماء
٥٣٧	تغيير النظام بكامله
٥٣٨	الجهد الفردي والاجتماعي
٥٣٩	جهد القوة الاجتماعية
٥٤١	عمل الدعوة يختلف عن الأعمال الأخرى، الطريق الصحيح للجهد
٥٤٢	جدوى السعي
٥٤٣	مستوى الجهد ونتائجه
٥٤٦	لا يكفي مجرد التنقل والحركة
٥٤٧	الأعمال غير الرائجة
٥٤٨	عماد هذا العمل
٥٥٠	العمل هو المعتبر لا الأشخاص
٥٥٢	الاجتماعات ليست غاية
٥٥٣	الجهد والكد والصلة بالله
٥٥٥	الالتزام بالمبادئ والتمسك بها
٥٥٦	عمل الدعوة في النساء
٥٥٧	الدعوة في كل حال
٥٥٩	رسالة في عمل الدعوة
٥٦٠	مدار النجاح والفشل، الإيمان بالله
	الإيمان بالرسالة، نتيجة الإيمان واليقين ودعوته، الاهتمام
٥٦١	بالصلاة ودعوته
٥٦٢	العلم والذكر، إكرام المسلم
٥٦٣	حسن النية، بذل الجهد في سبيل الله والدعاء إليه
٥٦٤	أعمال المسجد
٥٦٥	الجولات المحلية والاجتماع، جماعة لثلاثة أيام في كل شهر

تخصيص أربعة شهور وسنة كاملة والدعوة إليها	٥٦٥
الجدولة وأهميتها في عمل الدعوة، موضوع الحديث في الجدولة	
والدعوة إليها	٥٦٦
مبادئ الجدولة وآدابها	٥٦٦
طريقة الجدولة، الدعوة في الاجتماع	٥٦٧
المطالعة والخروج وتشكيل الجماعات	٥٦٧
أسلوب الدعوة	٥٦٨
حلقة التعليم	٥٦٩
المشورة، الاجتماع الأسبوعي	٥٧٠
أهمية العمل، الصحة والمبدأ	٥٧١
المبادئ والصحة، المجاهدة بدلاً من الخرائط	٥٧٢
عمل الدعوة في طلبة الكليات، الدعوة في النساء	٥٧٣
الكلمة الأخيرة	٥٧٤
الباب الثامن عشر: الكلمة الأخيرة والتوجيهات الوداعية للشيخ	
محمد يوسف لدى توديع الجماعات التي تخرج	
في سبيل الله	٥٧٥
تمهيد	٥٧٥
الأعمال التي تولد النور، عدوٌّ أن يجب الاحتراس منهما	٥٧٦
كيف السبيل إلى الاحتراس من الأعداء، ابتغاء رضا الله	٥٧٦
الأعمال التي لا مناص منها، ولكن بقدر الحاجة	٥٧٨
الأعمال التي يجب الاجتناب لها	٥٧٨
الأدعية التي يدعو بها الداعية الشيخ محمد يوسف لدى انتهاء الاجتماعات	٥٨١
فهرس الموضوعات	٥٨٥